تأليف: د. رِچَـرد فـولـك

RICHARD FALK

سيرة مفكّر معنيّ بقضايا الشعوب

PUBLIC INTELLECTUAL

THE LIFE OF A CITIZEN PILGRIM

ترجمة وتقديم:

د. محمد جياد الأزرقي





سيرة مفكّر معنيّ بقضايا الشعوب

PUBLIC INTELLECTUAL

THE LIFE OF A CITIZEN PILGRIM



يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي
PUBLIC INTELLECTUAL
The Life of a Citizen Pilgrim
حقوق الترجمة العربية مرخّص بها قانونياً من الناشر
Clarity Press, Inc.
2625 Piedmont Rd, NE, Suite 56, Atlanta, GA
بمقتضى الاتفاق الخطي الموقّع بينه وبين الدار العربية للعلوم ناشرون

Originally published in the USA
in 2021 by Clarity Press Inc. Atlanta, GA

الطبعة الأولى: كانون الثاني/يناير 2022 م - 1443 هـ

ردمك 978-614-01-3413-3



إصدار

الدار العربية للعلوم ناشرون م م ح

مركز الأعمال، مدينة الشارقة للنشر
المنطقة الحرة، الشارقة
الإمارات العربية المتحدة
جوال: 585597200 971+ - داخلي: 0585597200
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)
البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

التوزيع في المملكة العربية السعودية

دار إقــــراء للـنــشـــر

facebook.com/ASPArabic twitter.com/ASPArabic www.aspbooks.com asparabic

تصميم الغلاف: علي القهوجي

تأليف: د. رِچَرد فولك

RICHARD FALK



سيرة مفكّر معنيٍّ بقضايا الشعوب

PUBLIC INTELLECTUAL

THE LIFE OF A CITIZEN PILGRIM

ترجمة وتقديم:

د. محمد جياد الأزرقي

مراجعة وتحرير

مركز التعريب والبرمجة



الدار العربية للعلوم ناشرون

Arab Scientific Publishers, Inc.

المحتويات

مقدّمة المترجم 9

القسم الأول
البدايات

الفصل الأول: مؤرخ متردد 73

الفصل الثاني: العودة للطفولة 79

القسم الثاني
داخل المؤسسة الأكاديمية

الفصل الثالث: الإنهيار والتعافي في پَنسِلڤَينيا 117

الفصل الرابع: خَجولٌ ينمو في كلية الحقوق بجامعة ييل 133

القسم الثالث
الحياة المهنية

الفصل الخامس: الصحوة في جامعة ولاية أوهايو 155

الفصل السادس: تجربتي في هارفرد 179

الفصل السابع: العودة الى جامعة ولاية أوهايو 197

الفصل الثامن: پرِنستُن وفترة الأربعين عاما القادمة 207

الفصل التاسع: الحياة: الطلبة والوظائف والخدمة 247

الفصل العاشر: سانتا باربرا وجامعة كالِفورنيا فيها 275

القسم الرابع
إشراك العالم المواطنة والشهادة والنشاط

الفصل الحادي عشر: الآثار الدموية لأحذية العسكر الأمريكيين في فيتنام:

نزولي من البرج العاجي 299

الفصل الثاني عشر: إعادة ثلاثة طيارين أسرى الى الوطن 343
الفصل الثالث عشر: إيران تنفجِر 369
الفصل الرابع عشر: إقامة دولة يهوديّة في فلسطين 421
الفصل الخامس عشر: اللغز التركي 475

القسم الخامس

إستكشافات المواطن الملتزم المتنقل

الفصل السادس عشر: إشراك العالم فكريًا: مخاوف ورغبات وآمال 529
الفصل السابع عشر: مقترحات تحويلية.. 567

القسم السادس

شبه حالِم أم مُنبّئ: البحث عن النور

الفصل الثامن عشر: المواطن المعنيّ بقضايا الشعوب كمفكّر عام 603
الفصل التاسع عشر: النقاط الساخنة الشخصيّة: عقيدة 615

الإهـــداء

للفقيدِ دزموند توتو، الذي خسرت القضية الفلسطينية برحيله مناصرا عنيدا ضدّ الفصل العنصري ومناضلا باسلا ضدّ الإضطهاد الصهيوني لأهل الأرض العربية السليبة. كان بحقّ الصوت العالي، الذي يذكّر العالم في كافة المحافل بمظالم الشعوب المضطهَدة ومعاناتها.

المترجم

مكتبة
t.me/soramnqraa

مقدمة المترجم

تتألف هذه السيرة المطولة من ستة أقسام إحتوت على تسعة عشر فصلا وكُتِبت بلغة ممتعة للغاية. ركّز المؤلف في فصله الأول على أخته جوان، المحبّة والمحبوبة، التي كانت تكبره بسبع سنوات وامضت معظم حياتها في المصحات العقلية وعانت عذابات العلاجات السائدة في ذلك الوقت. واخيرا تقرر أن تُجرى لها عملية استئصال الفصّ المفصلي Mind–Dulling Lobotomy. مضى د. فَولك ليقول، «إنّ حضور جوان كان حيّا ومحبوبا رغم أنّه كان مندفعا ومضطربا في بعض الأحيان قبل أن يتمّ إصلاح وضعها... كانت صورتها بعد استئصال الفصّ المفصلي لا تختلف عن صورة من الورق المقوى Image Cardboard. فقدت الحيوية، التي جعلتها في الوقت السابق قوة اجتماعية هائلة بابتسامة معدية وتصرّف مرح تغيّر الآن واختفى. توفيت جوان في عام 1973 عن عمر مبكّر لم يتجاوز 56 عاما». إنّ د. فَولك على قناعة تامّة بأنّ مرض اخته كان نفسيا وليس عقليا، وهو أمر ما كان معروفا في ثلاثينات وأربعينات القرن الماضي، ممّا تسبب في مضاعفة معاناتها وعذابها وتعقيد محنتها.

أشار مركز آدكاونسِل [https://addcounsel.com/ar/%D8%A7] أنّ الكثير من الناس يخلطون ولأسباب عِدة بين المرض العقلي والمرض النفسي. ولكن في الحقيقة أنّهما مرضان منفصلان كليّاً والفارق بينهما شاسع. إنّ المرض النفسي ينشأ عن حالة من اختلال التفكير والتي تنعكس بطبيعة الحال على سلوك الفرد وتؤدي إلى تغيرات حادة في الحالة المزاجية الخاصة به، بينما المرض العقلي فإنّه يأتي عادة متمثلاً في سيطرة بعض المعتقدات الوهمية على المريض أو تعرضه لنوبات من الهلوسات السمعية والبصرية التي قد تقوده في النهاية لحالة من الانهيار الذهني. تجمع بعض العوامل المشتركة بين كلي

النوعين من الاضطرابات أبرزها تأثيرهما المباشر على وظائف التفكير والحالة المزاجية، لكنّهما في النهاية يظلان مرضين مختلفين ويمكن استيضاح ذلك من خلال تعريف المرض العقلي والمرض النفسي ومفهوم كلّ منهما.

يشير مفهوم المرض النفسي إلى أنّه خلل في الحالة العاطفية (الصحة النفسية) لشخص ما. تنتج الاضطرابات النفسية عن عدة أسباب أكثرها شيوعاً ازدياد حدة مشاعر القلق والتوتر والتعرض إلى الضغوط لفترات طويلة وبدرجة تفوق قدرة الشخص على التحمل. يتضح من ذلك أن الفرق بين المرض العقلي والمرض النفسي في كون الأخير مرض مَرحلي أي تظهر أعراضه بصورة تدريجية نتيجة المعاناة من أزمة ما أو مواجهة الضغوط لمدة معينة.

تمثل الأمراض النفسية على اختلافها وتعددها خطرا جسيما حال استمرارها لفترة طويلة؛ فقد يُقدم المريض على إيذاء نفسه أو محاولة الانتحار كما أنّها قد تكون سبباً في انجرافه إلى أحد أشكال الإدمان السلوكي أو أن تكون من أسباب إدمان المخدرات ومعاقرة الكحوليات، لذا يجب مراجعة الطبيب المختص فور ملاحظة تغيرات حادة ومستمرة في الحالة النفسية وسلوكيات الفرد.

من بين أنواع المرض النفسي ما يلي: الاكتئاب، اضطرابات القلق، اضطراب الهلع، اضطراب ما بعد الصدمة، اضطراب الأكل. يتم تعريف الاضطرابات العقلية بأنها حلقة مفرغة من المعتقدات والأفكار التي يدور بها المريض رغم كونها وهمية وكذا قد يتعرض المرضى لنوبات من الهلوسة حيث يرون أو يسمعون أشياء لا وجود لها، يتمثل الفرق بين المرض العقلي والمرض النفسي في أنّ المريض بتلك الحالة ينفصل عن واقعه وقد يصل به الأمر لحالة من الانهيار الذهني.

رغم اختلاف تعريف المرض العقلي والمرض النفسي إلا أنّ هناك ما يربط بينهما، إذ أنّ المرض العقلي في حد ذاته قد يكون امتداداً لإحدى حالات المرض النفسي التي تأخر علاجها، حيث يُلاحظ أنّ حالات الذهان قد تنتج في الأساس عن الإصابة بأحد الاضطرابات النفسية مثل نوبات الاكتئاب الحاد أو اضطراب القلق. من بين أنواع الأمراض العقلية الآتي: اضطراب الفصام، الاضطرابات

الذهنيـة، الاضطـراب العقلي الناتج عن الإدمـان، الذهان التخيلي (البارافرينيا).
تتم عملية تشـخيص المرض العقلي والمرض النفسـي والتفرقة بينهما تبعا لعدة معايير على رأسها الأعراض المصاحبة لكلّ منهما.

أطنب المؤلف في الحديث عن علاقته بأمّه ودور الأم العاطفي الغائب في تنشـئة طفليها. كانت الأمّ أصلا لاعبة تنس على المسـتوى العالمي وتنحدر من أسرة ثرية للغاية اشترطت الزواج مع عدم الإنجاب. غير أنّه وعن طريق الخطأ وُلـدت لهـا بنـت بمواصفات صحية خاصّة. وبعد 7 سـنوات حملت بطفل آخر، ولم يكن الإجهاض أمرا سهلا ولا شائعا في حينه.

قـال المؤلـف، «لقـد ادركت أنّه منذ الطفولة أنّنـي حاولت أن أفهم والدتي وأرى افعالهـا مـن وجهـة نظرها، وابذل قصارى جهدي لتجنّب مشـاعر المرارة والإسـتياء، علـى الرغـم مـن أنّها لم تمنح أبدا أيّة عاطفـة أو أبدت اهتماما كبيرا فيما إذا كنت قد نهضت أو سقطت في الحياة. ما جاهدتُ لتحقيقه طوال الوقت هـو القـدرة علـى العيش في تعاطف نسـبي مـع أمّ رفضت التصرّف كأمّ، أو حتى التظاهـر بأنّهـا أمّـي». لـم تحظرهذه الأمّ القاسـية جنازة إبنتهـا وحرمت إبنها من إرثها، بعد أن تزوّجت وانتقلت الى كالِفورنيا!

هنـاك رابـط عاطفـي قـوي للغاية بين الأم وأبنائها، فهي أول من يشـعر بهم ويُدرك احتياجاتهم قبل أيّ أحد، كما تُركّز الأم على التواصل شـفهياً مع أبنائها تبعـاً لتكوينهـا الأنثـوي الـذي يجعلها تُحبّـذ هذا النوع من التواصـل، ممّا يُقوّي العلاقـة بينهمـا ويجعلهـا مسـؤولةً في نظرهم عن الانضبـاط في المنزل وتحديد قواعد السلوك. كما تُضحّي الأم بحاجاتها الشخصية في سبيل تحقيق احتياجات أبنائهـا، وتبـدأ مشـاعرها هـذه منذ فتـرة الحمل. ومن الأدوار الأخـرى [https://mawdoo3.com/%D8%AF%D9] التـي تقـع على عاتـق الأم في تربيتها لأبنائها، توفيـر بيئـة سـليمة تدعـم نمـو الأبناء وتُطـوّر مهاراتهم، وذلك مـن خلال توفير مسـاحات خاصـة للحركة واللعب ومنحهم فرصـة إطلاق طاقاتهم وإبداعاتهم، وإدراك مشـاعر أبنائهـا ومـا يـدور في خلدهـم من خلال تصرّفاتهـم وتعبيراتهم اللفظية. يوجد العديد من المقترحات، التي تُقدّمها المراجع التربوية المتخصّصة بهذا الموضوع [https://mawdoo3.com/%D8%AF%D9].

بسبب حرمانه من حنانها، جعل الصبي يشعر بأنّه يتيم الأمّ خاصّة بعد أن هجرت البيت وطفليها. لكن الوالد أحسن رعايته وبعثه الى خيرة المدارس لمواصلة دراسته وتنمية مواهبه وتطوير هواياته ولم يبخل عليه بشيء. اكتشف صاحبنا منذ وقت مبكّر في حياته، «أشعر أنّ لديّ قدرة خاصّة الى حدّ ما على التحليل والتفكير في القضايا السياسية والقانونية الصعبة، وكذلك تحديد هويتي الفكرية بطرق يجدها الآخرون المتعاطفون أصيلة الى حدّ ما، ومُبتكرة وبعيدة عن الإتجاه السائد لأكون تقدميّا عنيدا. لقد جلب لي هذا المزيج مكاسب وخسائر قليلة في كلّ مرحلة من مراحل حياتي».

ذكر أنّه على الرغم من أنّ والده محبّ ومثير للإعجاب من نواح كثيرة، فقد أثّر عليّه في محاولته الجاهدة لتجنّب خيبات أمل ذلك الوالد وأخطائه في النظرة السياسية والرومانسية والمساعي المهنية. «يبدو أنّني قد أفلتُ من تلك الأفخاخ، التي وقع في شركها والدي في المراحل الأخيرة من حياته التعسة. في الوقت نفسه، أعتزّ بذكرياتي عن حنانه مع الناس وأساسيّات كرامته وتواضعه، فضلا عن تقديره الحيّ لمفارقات الحياة». ثمّ يتابع القول، «أمّا أمّي فكانت بالطبع أكثر إشكالية بالنسبة لي، لكنّني لم اتعلم عدم الردّ بالمثل على افتقارها للحبّ والحنان بالنسبة لي. بدأت ممارستي مدى الحياة في محاولة رؤيتها كما يراها الآخرون، وبالتالي عدم الإنغماس في الذات مثل العمى المصحوب بالإستياء أو إظهار الغطرسة، التي تعرف كلّ شيء. كما أنّ السنوات الأخيرة قد مكّنتني من التخلص من هجمات التضليل Smears من قبل الخصوم الصهاينة دون التردّد في التزامي أو الإشتغال بلا جدوى في صياغة روايات مضادة عدوانية تبرّر نفسها بنفسها».

يختتم المؤلف فصله الثاني بالإشارة الى ارتياحه لما اصبح عليه فيما بعد وأكّد السعي لتحقيق اهداف تقدّمية على حساب التقصير في الإعتراف المهني والمكانة. أدركَ ايضا أنّه بعد الطفولة توفّر له حظ جيّد بشكل غير عادي فيما يتعلق بحياته المهنية وصحته فضلا عن كونه مستفيدا من صداقات عديدة وحميميّة عاطفية. ثمّ يضيف، «دثت نقطة تحوّل مهمة... حين كنت طالبا في جامعة بَنسِلفَنيا عندما أدّى الخوف من كارثة شخصية وشيكة الى استجابة تحوّلية نحو الأفضل، غيّرتني الى الأبد».

يذكر الأستاذ فَولك في مطلع فصله الثالث أنّه كان، «على علم بتأسيس دولة إسـرائيل عام 1948، وهو العام الذي تزامن مع تخرّجي من مدرسـة فيلدسـتَون الثانوية. اتذكّر أنّني فوجئت بالنصر العسكري للقوات اليهودية على قوات العديد من الدول العربية المجاورة في (حرب الإستقلال) الإسرائيلية. ولكن على مدى عقـود كانـت هـذه الأحداث ليسـت أكثر مـن مجرّد أفكاربعيدة بالنسـبة لي. لقد وقعـت الأحـداث (هنـاك) وليس لها أيّ تأثير محسـوس على حياتي. ومع ذلك فقد حازت فيها حركة منظمة مسلحة من المهاجرين الأجانب العسكريين ما كان يُعلن أنّه (إستقلال). في الحقيقة كان نوعا من انتزاع ملكية غالبية السكان العرب الأصليين ممّا كان وطنهم في فلسطين، ثمّ قمع من تُرِكوا وراءهم.، وجرى تجريد ما يصل الى 750 ألفا قسريّا ممّا يمتلكون، أو بلغة اليوم تمّ تطهيرهم عرقيا خلال تلك الحرب المبكّرة. وهذا يعني (الإستقلال) لإسرائيل و(النكبة) للفلسطينيين، الذيـن لـم يتـمّ تجريدهـم من ممتلكاتهم فحسـب، بل طُرِدوا وحُرِموا من خيار العودة الى حياتهم وبيوتهم ووطنهم».

يمضي المؤلف لعقد مقارنة لتوضيح أوجه التشـابه بين تأسـيس إسـرائيل وتأسـيس الولايـات المتحـدة. قال بهذا الصّدد، «هناك انعكاس مماثل للسـجلّ التاريخـي، إذ تـمّ أخـذ تجربـة الأمريكييـن الأصلييـن في الإعتبار. فـي تجربتي وحتى يومنا هذا، يُنظر الى مأساتهم على أنّها محنة تافهة لا تستحقّ الذكر وسط امجاد ثورة المستوطنين ضدّ الحكم الإمبريالي البريطاني». أقرّ صاحبنا بالذنب، «أنـا متهـم خـلال شـبابي في عدم الحساسـية الحضارية. بعـد ذلك بوقت طويل فقط، بدأت في إعادة تفسـير تلك المسـتجمعات التاريخية من منظور الضحايا، فشكّلت نوعا من الفهم المعقد والدقيق، الذي يثير مشاعر التعاطف وحتى العار، والإسـتعداد المجرّد لإصلاح اخطاء الماضي. إنّ تعزيز مثل هذه المشـاعر من خلال اعمال الخلاص الملموسـة، مثل التعويضات وانشـاء المتاحف وتشـريع التعديـلات الإجتماعيـة والإقتصاديـة، تظلّ مشـبوهة لا تتجـاوز كونها إيماءات لِبرالية دون تأثير سلوكي».

وفي صدد الضحايا، قال مايكل لِنك، وهو محقق في مجال حقوق الإنسان بالأمم المتحدة، إنّ المستوطنات الإسرائيلية في الضفة الغربية ترقى إلى مستوى

جريمة حرب، مطالبا الدول بأن تكبد إسرائيل ثمنا «لاحتلالها غير المشروع». وكان لِنك، المعني بحالة حقوق الإنسان في الأراضي الفلسطينية المحتلة، يلقي كلمة أمام جلسة لمجلس حقوق الإنسان للمنظمة الدولية في جنيف. وقاطعت إسرائيل الجلسة إذ أنّها لا تعترف بتفويض لِنك ولا تتعاون معه. [https://www.alquds.co.uk/%d9%85%d9]

وقال لِنك «ما خلصت إليه أنّ المستوطنات الإسرائيلية ترقى لمستوى جريمة حرب». وأضاف أنّ المستوطنات تنتهك الحظر المطلق الذي يمنع أية قوة محتلة من نقل جزء من سكانها المدنيين إلى أرض محتلة، وبالتالي فإنّها تندرج تحت تعريف جريمة حرب بموجب ميثاق روما المؤسس للمحكمة الجنائية الدولية. وأضاف «أقول لكم إنّ هذه النتيجة تلزم المجتمع الدولي... بأن يوضح لإسرائيل أنّ احتلالها غير المشروع وتحديّها القانون الدولي والرأي العام الدولي لا يمكن ولن يستمر بلا ثمن».

وتعتبر الكثير من الدول المستوطنات انتهاكا للقانون للدولي. وترفض إسرائيل ذلك وتدّعي صلات تاريخية وتوراتية بالأرض بالإضافة إلى حاجات أمنية. وفي بيان منفصل، قال لِنك إنّ المستوطنات الإسرائيلية هي «المحرّك للإحتلال الإسرائيلي المستمر منذ 54 عاما». وقال إنّ هناك الآن ما يقرب من 300 مستوطنة في القدس الشرقية والضفة الغربية، يسكنها أكثر من 680 ألف مستوطنا إسرائيليا. ولم تكن الولايات المتحدة، أقرب حلفاء إسرائيل والتي تتمتع بصفة المراقب في المجلس، على قائمة المتحدثين خلال الجلسة.

تشكّل المستوطنات اليهودية المقامة على الأراضي، التي احتلتها إسرائيل في حرب عام 1967 حجر عثرة أمام عملية السلام. وقالت لوتي نودسُن، سفيرة الاتحاد الأوروبي لدى الأمم المتحدة في جنيف، إنّ المستوطنات غير مشروعة بموجب القانون الدولي، وهو موقف معظم الدول. وأضافت «تصرفات مثل النقل القسري والطرد والهدم ومصادرة المنازل لن تسهم سوى في تصعيد أجواء متوترة بالفعل».

وذكر السفير الفلسطيني إبراهيم خريشة أنّ إسرائيل احتجزت خمسة آلاف فلسطيني، بعضهم لأكثر من 20 عاما. ويريد الفلسطينيون إقامة دولة مستقلة في

الضفة الغربية وغزة تكون القدس الشرقية عاصمتها، لكنّ قضية المستوطنات اليهودية المقامة على الأراضي التي احتلتها إسرائيل في حرب عام 1967 كانت دوما حجر عثرة أمام عملية السلام. وانهارت آخر جولة من محادثات السلام في عام 2014.

يعود المؤلف للقول أنّه قد حكم على نفسه في الأشهر الأولى للإلتحاق بالجامعة على أنّها تجسيد معيب للخجل الخالص، «لحدّ أنّني كنت أمضي أسبوعيا بخنوع لطقوس منظمة الأخوّة Fraternity الجامحة واندفاعاتهم غير الملائمة. كنت غير واثق بنفسي بما فيه الكفاية لدرجة أنّني شعرت بالحاجة الى شهادة مؤسسية للقبول الإجتماعي. تمّ استبدال عادات الدراسة الجيدة بعد عطلة عيد الميلاد، بالمقامرة ولعب اليوكَر كلّ ليلة تقريبا حتى بعد منتصف الليل، وتخصيص العديد من ساعات النهار للرياضة».

لكنّه تخطى تلك العقبات وأكمل دراسته في جامعة پَنسِلفَينيا بفعل تأثير عدد من أساتذته في الفلسفة والدين والفن والأدب المقارن، وزملائه من الطلبة، الذين شاركوه السكن في شقة القسم الداخلي. ومن هناك ذهب الى جامعة ييل لدراسة القانون ومن ثمّ لميدان العمل كاستاذ جامعة ولاية أوهاية ومن ثمّ في جامعة بِرنستُن. يستعيد ذكرياته قائلا، «خلال مسيرتي التدريسية، كان لديّ العديد من الطلبة الرائعين، الذين استمرّوا فيما بعد للحصول على وظائف متميّزة ومنتجة وحتى نموذجية كعلماء ومدرسين وناشطين. ولكن لم يتمكّن أيّ منهم فتح أرضية جديدة كافية لتحقيق اختراقات فكريّة أو مجتمعيّة. تخطر ببالي افكار عن اختراقات أصدقائي من النوع الذي حققه نُعوم چومسكي وإدوارد سعيد ودان إلزبَرگ وگراسيلا چيچِلِنسكي ومَري كالدور وروبرت جَي لِفتُن وهَورد زَنّ. كلّ من هؤلاء يمتلك نوعا مميّزا من المزاج المتناقض مع إحساس اليقين بشأن صواب المسارات التي إختاروها. لطالما أثير هذا الإختلاف بين التميّز الأكاديمي والإختراق القائم على الإبتكار في الفكر والعمل». يفتخر الكاتب بما انجز لأنّه، «حققت حضورا أكاديميا وأخلاقيا واعتبر نفسي ناشطا محترما، بين أولئك الذين يشاركونني فكري التقدّمي، أجندة سياسية وأخلاقية».

كرّس د. فَولك فصله الرابع للحديث عن التحاقه بجامعة ييل وتخصّصة

لدراسة القانون. كتب يقول، «شعرت بالرهبة بعد حضور صف تمهيدي وعلمت أنّ ذلك الصف الصغير في جامعة ييل، الذي ضمّ 120 طالبا أو نحو ذلك، منهم 44 طالبا بيننا ممّن كانوا إمّا من الطلاب المتفوقين أو أنّهم احتلوا المركز الأوّل في تصنيف كلياتهم. يقودني هذا الآن الى تذكّر سؤال ميشيل أوباما لنفسها في مراحل مختلفة من حياتها، كما ورد في مذكّراتها، (هل أنا جيّدة بما فيه الكفاية؟). ضمّ صفنا في السنة الأولى بشكل أساسي الرجال البيض مع عدد قليل من النساء وواحد أو إثنين من الأمريكيين من أصل افريقي، ولم يوجد آسيويون». غير أنّ الأمور تغيّرت بمرور الوقت، بدليل أنّ إحصاءات عام 2018 قد أشارت الى وجود ما يقرب من 190224 طالبا من أصل أفريقي مسجلا في الدراسات العليا في مختلف الجامعات الأمريكية. وهذا يمثل نسبة 10.2% من مجموع طلبة هذه الدراسات. وهي نسبة تقارب نسبة وجود المواطنين ذي الأصل الأفريقي الى مجموع سكان البلاد [https://www.jbhe.com/gradschools/#]. لا ندري بالضبط كم منهم مسجّل في جامعات وكليات النخبة Ivy League، التي تضمّ براون وهارفَرد وكَورنَيل وبرنستُن وكولومبيا وييل ودارتمُث وجامعة بَنسِلفَنيا. لكّننا نعرف على الأقل واحدا منهم قد تخرّج من هارفَرد، وهو الرئيس بَراك أوباما.

لم يحدث ذلك صدفة، بل أنّ فَرض قَوانين الحقوق المدنية الفدرالية قد ساعَدَ على إحداث تَغييرات عميقة في التعليم الأمريكي وتَحسين الفُرَص التعليمية للملايين من التلاميذ. لقد أُزيلت عوائق كثيرة كانت تَحول دون حُرّية اختيار الأفراد للفُرَص التعليمية والمسارات الوظيفية التي يَرغبون في السَعي إليها. الكثير من إدارات الأقاليم المدرسية تُتيح الآن للطلبة الذين لا يُجيدون اللغة الإنگليزية المشاركة الفعّالة في برامجها التعليمية. ومَزيد من الطلبة المعوقين يَستطيعون الآن، بفضل الوسائل والخدمات التكميلية، أن يُشاركوا في الصفوف الدراسية العادية. إضافة لذلك، يَعمل قانون «عَدَم التخلّي عن أيّ طفل» لعام NCLB 2001، وهو القانون الذي أصلح بَرامج التربية والتعليم الفدرالية إصلاحا شاملا، على دَعم رسالة الوزارة المتمثّلة في ضمان تساوي فُرَص الاستفادة من برامج التعليم وتَعزيز الامتياز التعليمي في الأمة كلها.

إحتَوي قانون NCLB على أحكام مُحدَّدة لضَمان تَمكُّن جَميع الأطفال

مـن الاسـتفادة مـن التعليـم عالـي الجودة بغـض النظر عن الأصـل العرقي، أو الأصـل الإثنـي، أو الجنـس، أو الإعاقـة، أو الحالة الاجتماعية- الاقتصادية. لقد فَتَحَت قوانين الحقوق المدنـية أبواب المدارس، والصفوف الدراسـية، وقاعات المُحاضـرات، والملاعـب الرياضـــية. اسـتجابة لذلك، أخذ الطلبـة من جَميع الخلفيـات العديـدة المتنوعـة التـي تُمثّل أمريكا اليـوم يَدخلون من هذه الأبواب في طريقهم ليصبحوا رواد المسـتقبل في مجالات الأعمال التجارية، والحكومة، والعلوم، والفنون، والتربية والتعليم. سوف تَضمن قوانين الحقوق المدنـية، مع قانون NCLB بقاء هذه الأبواب مَفتوحة للجميع. [https://www2.ed.gov/about/offices/list/ocr/docs/equal–access–arabic.pdf]

إنّ مكتَب الحقوق المدنـيةOCR التابع لوزارة التعليم في الولايات المتحدة، هو الوكالة المُوكلة بفَرض القوانين الفدرالية للتأكّد من أنّ المؤسَّـسات التعليمية، التـي تَتلقّـى مَعونـة ماليـة فدراليـة، لا تُمـارس تَصرُّفـات تَمييزية. يتولـى مَكتَب الحقوق المدنـية فَرض قوانين الحقوق المدنـية الفدرالية التي تَحظر التمييز على أسـاس الأصل العرقي، واللون، والأصل القومي، والجنس، والإعاقة، والسـنّ في البرامج والأنشطة، التي تَتلقّى مَعونة مالية من الوزارة. تُمثّل قوانين الحقوق المدنـية التزاما قوميا بإنهاء التمييز في البرامج أو الأنشطة التعليمية.

غيـر أنّ الجامعـات والكليـات الأمريكيـة الخاصّة في حِلّ من هذا الإلتزام، لكنّها بطبيعة الحال لا تريد أن يقال عنها أنّها تتبع سياسة تمييزية. لكنّها لا تمانع في ذلك إذا تعلق الأمر بإسرائيل، مرتع العنصرية، أو انتقاد سياساتها الإجرامية. وهـذا هـو جوهـر قضية أسـتاذ الفلسـفة في جامعـة هارفرد، د. كورنِل وَيسـت، الأمريكـي مـن أصـل أفريقـي، الذي حُرِمّ من الترقية وواجه التمييز بسـبب دعمه للفلسـطينيين. وهـو الأمـر الذي دفعه للإسـتقالة من كليـة اللآهوت في الجامعة المذكورة [https://arabicpost.net/%D8%A3%D8]، مشيرا الى «إذعان المؤسسة للتحيّزات ضد الفلسـطينيين» كأحد أسـباب اسـتقالته. وتابع وَيسـت قائلا، «هذا النوع من الاحترافية الأكاديمية النرجسـية، والإذعان الجبان للتحيزات المعادية للفلسطينيين لدى إدارة هارفارد... تعبِّر عن حالة إفلاسٍ فكري وروحي عميقة مثيرة للاشـمئزاز... إنّ الحديث عن احتلال إسـرائيل لفلسـطين قضية محظور

الحديث عنها بين دوائر معينة في الأوساط العليا». وكان وَيست عنصراً فاعلاً في الدعوات الموجهة لإدارة جامعة هارفَرد لسحب استثماراتها في الشركات الإسرائيلية، التي يصفها الأستاذ بأنّها «متعاونة مع الاحتلال الصهيوني».

أغدق د. فَولك في كيل المديح لأساتذته، الذين تتلمذ على أيديهم في دراسة القانون، واطنب خاصّة في ذكر أستاذه مايَرز مَكدوگلْ، الذي أعجِب به أيّما إعجاب ولكن اختلف معه علنا من الناحية الفكرية والسياسية. «إستمرّ تأثيره وتفانيه على مدى سنوات عديدة، على الرغم من خلافاتي العامة الشديدة مع مواقفه بشأن قضايا السياسة الخارجية الأمريكية المثيرة للجدل. شعرت أنّه كان بارعا في إيجاد طرق لتأييد كافة الأشياء البغيضة، التي تفعلها الولايات المتحدة في جميع أنحاء العالم، بينما كان يدين كلّ ما يفعله الإتحاد السوفيتي وأصدقاؤه، حتى لو كان خيرا. لقد كان من انصار الحرب الباردة بلا خجل، ولأنّه كان يقدّر العلاقة الشخصية أكثر من التوافق الأيديولوجي، كان يبذل جهدا خاصّا لطمأنتي بأنّ أيّ شيء نختلف بشأنه، ليس له أيّ تأثير على رأيه في قدرتي المهنيّة».

ثمّ يمضي المؤلف لاستعراض مقارنة في سباق الهيبة والسمعة Prestige Race بين كلية الحقوق في ييل باعتبارها تخرّج المحامين المجانيين وكمختبر قانوني للتغيّر الإجتماعي، أي سمعتها «كمكان يرعى فيه الطلاب ضمائرهم بالإضافة الى تدريب عقولهم». من ناحية اخرى هناك جامعة هارفرد المعروفة في المقام الأوّل بتعليم أولئك المدرّبين على تقديم الخدمات القانونية للنخبة الثرية من طبقة WASP في البلاد. ويخلص في النهاية الى القولِ، «كانت جامعة ييل هي التجربة التعليمية الوحيدة، التي جعلتني أشعر بالراحة اتجاهها كمؤسسة تعليمية. و في الواقع، صعدت جامعة ييل الى أعلى المراتب الأكاديمية بفعل كلية الحقوق لتحلّ محلّ جامعة هارفرد».

إختتم د. فَولك فصله الرابع بالحديث عن بدأ إحساسه بالذات السياسية يتشكّل ببطء، وكان أيضا استجابة للوضع التاريخي. الجو العام سيطرت عليه المواقف القويّة المعادية للشيوعية والتطرّف الهستيري والقمعي من خلال مآثر عضو مجلس الشيوخ جَوزِف مكارثي من ولاية وِسكونسُن، الذي صنع إسمه وسمعته السيئة من خلال اتهام الأمريكين البارزين بأنّهم حلفاء سرّيون للإتحاد السوفيتي.

كلف أحد الزملاء فَولك بجمع تواقيع الطلبة على عريضة تستنكر ألاعيب سيء الصيت، مكارثي. غير أنّ معظم الطلبة امتنعوا عن توقيع تلك العريضة، خشية أن تظهر اسماؤهم على (القائمة السوداء)، عملا «بسمعة جامعة ييل بأنّها مرفأ للمتطرفين. دمّرت تلك المناورات السياسية المؤسفة العديد من الأرواح الشريفة، التي تتعارض مع الإدّعاء بأنّ أمريكا هي الدعامة المركزية للعالم الحرّ». استذكر فَولك في تلك المناسبة قول جَفرسُن، «بأنّ الإنتخابات والتصويت، على الرغم من أنّهما لا غنى عنهما، لن يحافظا في حدّ ذاتهما على الديمقراطية المزدهرة».

بدأ المؤلف حياته الأكاديمية كاستاذ للقانون في كلية الحقوق بجامعة ولاية أوهايو. ثمّ كشف سرّا حول طلب من محامي أعضاء منظمة بادر ماينهوف اليسارية المتطرفة في ألمانيا، «للمساعدة في إعداد الحجج القانونية، التي ستُقدّم في المحاكمة». نشطت المنظمة المذكورة منذ السبعينات حتى عام 1993، بعمليات ثورية متميزة، لا سيما في خريف عام 1977. وهو الأمر الذي ادّعت على اثره حكومة ألمانيا الغربية التابعة للتحالف الامريكي البريطاني، أنّ نشاطات تلك المنظمة قد أدّت إلى أزمة وطنية عُرفت باسم «الخريف الألماني»، وبسبب ذلك وُضِع هذا الفصيل على قائمة الارهاب الامريكية. وعُرفت ثورته بأنّها الأقوى ليس فقط لقوتها الهجومية، إنّما بسبب علاقته مع القيادات الفلسطينية والأيرلندية، خاصة مع القائد وديع حداد. وتمّ فيما بعد تنفيذ عمليات [https://revo-front.com/2018/07/%D9%85] ضدّ قوات الناتو والمصالح الأمريكية وأهداف صهيونية في أوروپا.

استمر عمل المنظمة لاحقا، وفي سنة 1998 وبعد 28 عاما من النضال المسلح قررت المنظمة الالمانية حلّ نفسها. وقد ورد في بيان الحلّ أنّ قرار المنظمة بحلّ نفسها لا يتضمن أيّة ادانة للنضال المسلح الذي خاضته، بل أنّ المنظمة واعضائها فخورون بذلك النضال، الذي خاضوه على مدى التسعة والعشرين عاما الماضية. لكنّهم قد قرروا حلّ التنظيم بالنظر لفشلهم في تعبئة اليسار الالماني. «لقد كان النضال المسلح الذي خضنا غماره الى جنب النضالات المسلحة الجارية في بقاع عديدة من العالم شيء جميل ورائع... لقد مثلنا اقلية من المجتمع الألماني تصبو للإشتراكية، في حين أنّ غالبية افراد هذا

المجتمع تريد الاستمرار في النظام الرأسمالي».. هذا بعض مما ورد في بيان الحلّ، حسب المصدر في أعلاه.

واجه د. فَولك حين بدأ عمله كأستاذ في كلية الحقوق بجامعة ولاية أوهايو عنصريّة في الجامعة على شكل تمييز في السكن ضدّ الطلبة السود، الذين حُرموا من السكن المريح بالقرب من الحرم الجامعي بأسعار معقولة. أجبِروا على الإستقرار في مساكن غير ملائمة ورخيصة بإيجارات أعلى. عندما ظهر أنّ معظم هذا السلوك التمييزي كان مرتبطا بالعقارات المملوكة لأعضاء مجلس أمناء الجامعة. أقام د. فَولك بالتعاون مع الأساتذة المبتدئين دعوى في المحكمة الفدرالية ضدّ أولئك المالكين. «ومن دواعي ارتياحنا...، أنّ مالكي العقارات المرتبطين بإدارة الجامعة، تراجعوا وتخلوا عن التمييز ضدّ المستأجرين الأمريكيين من أصل أفريقي. سحبنا الدعوى القانونية وشعرنا بالإرتياح الى حدّ ما في تلك المناسبة وتمكّنا في ذات الوقت من حماية وظائفنا دون المساومة على ضمائرنا».

وهذا الأمر ليس بغريب، إذ يواجه المواطنون السود في الولايات المتحدة عوائق هيكلية حينما يطمحون إلى تأمين سكن جيد ورعاية صحية وتوظيف وتعليم، بسبب قوانين عنصرية تمّ إلغاؤها لكنّها تحولت إلى أعراف وتقاليد في المجتمع تفوق قوتها نصوص القانون في أحيان كثيرة. وفي ذات الوقت فإنّ خطاب الكراهية لا يُجرَّم بشكل واضح في النصوص القانونية الأمريكية بحجة تعارضه مع حرية التعبير، التي يكرّسها الدستور. صحيح أنّ الأمريكيين السود يعترفون أنّهم حصلوا على أضعاف ما كانوا يحصلون عليه قبل ستينات القرن الماضي من حقوق ومميزات، لكنّ قراءة عدد قليل من الدراسات في كافة المجالات تثبت أنّ الولايات المتحدة لا تزال أرضا خصبة للعنصرية [https://raseef22.net/article/1078518].

يبدو أنّ انطباعات د. فّولك الأوليّة عن الحياة الأكاديمية كانت سلبية الى حدّ ما، لأنّه يتمّ توجيه الطاقات العقلية نحو أهداف صغيرة تحدث صراعات ومنافسات مقنّعة بين اعضاء هيئة التدريس. وهذا ما يعيق التقييم الموضوعي لمؤهلات المرشحين للترقية أو التثبيت في الوظيفة. وهي القرارات الوحيدة

المهمـة حقـا الموكلـة باعضـاء الهيئات التدريسـية ولجانها الخاصّـة. كان تركيز زملائه في جامعة ولاية أوهايو على الإتقان التقني، الى جانب الموقف المتعالي والسـاخر تجاه الوعي الإجتماعي أو مشـاركة المواطنين، على الرغم من وجود بعض اللِبراليين هنا وهناك في كلية الحقوق، الذين شاركوه على الأقل في عدم ارتياحه اتجاه تقييم الحرفية المهنية قبل كلّ شـيء. يمضي للقول، «لقد طوّرت عدم ثقة غريزي في مهنة حصرت أداءها بشكل عام بالفوز أو الخسارة، وكانت فخورة بعدم اكتراثها المتعمّد بالمعاناة الإنسـانية أو الظلم بشـتّى انواعه. لحسـن الحظ، كانت هناك استثاءات لا تُنسى».

«بصـوت متوتّـر بشـكل غيـر معهـود، فسّـرت فـي ذلك الوقت أنّه بسـبب إحراجه من كونه رسولا مكلفا بأخبار غير جيّدة، أخبرني فرانك (عميد الكلية) أنّـه قـد تمّـت زيارتـه مؤخّرا من قبل أفراد في مكتب التحقيقات الفدرالي، الذين سـألوه عمّـا إذا كان يعـرف مَـن هو هذا (رِجَرد فَولك) فـي كلية الحقوق؟» أبلغ اعضاء مكتب التحقيقات الفدرالي العميد، أنّ د. فَولك عمل مديرا لمعهد التنويم المغناطيسـي فـي نـو يـورك، الـذي كان يُسـتخدَم كواجهة تجنيد نشـطة لعضوية الحـزب الشـيوعي خـلال الأربعينـات، بدأ من عـام 1942. «أبلغـت فرانك أنّني بالكاد كنت في سنّ 12 عاما في ذلك الوقت، ولم أسمع بمثل هذا المعهد أبدا. ضحك بلطف وتنهّد بارتياح قائلا أنّه يشعر بالسعادة لمعرفة الحقيقة، مضيفا أنّه لم يُصدّق أصلا ما حذّره مكتب التحقيقات الفدرالي منه. إختتمّ حديثنا بالقول إنّـه شـعر بأنّـه ملـزم بالتأكّـد من عدم وجود خطر أحمر كامـن في كلية الحقوق، ممّا قد يجعلها، وهي البعيدة عن التوجّهات السياسـية، أن تصبح هدفا لمطاردة الساحرات! النتيجة، التي تكشف عنها مثل هذه الحادثة السخيفة، المدى الذي يمكن أن تضرّ فيه أعصاب الحرب الباردة بحياة الناس. من المحتمل أن يكون عميـد آخـر لديـه شـكوك خاصّة بـه أو يكرهني، لكان اتخذ خطـوات للتأكّد من أنّنـي لـم أحصـل على موعد معه كي يخبرني بهـذا الإدّعاء الكاذب. لقد تعرّض العديد من الأشخاص الطيبين للأذى في حياتهم المهنية والشخصية خلال تلك الفترة من هِستيريا الحرب الباردة، ولم يتمّ منحهم فرصة لشرح أو سرد جانبهم من القصة».

القنوات الخلفية للإتصال بين أجهزة الأمن والتجسّس وإدارات الجامعات والكليات معروفة وموثقة. القصد منها في العادة التخويف والضغط واحيانا تجنيد البعض للتعاون مع تلك الأجهزة، حيث تصطاد وكالات المخابرات الأكاديميين بفخ المصلحة الوطنية والأمن القومي. في كتابه الصادر عام 2017 والذي يحمل عنوان «مدارس التجسس: كيف تستغل وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية، ومكتب التحقيقات الاتحادي، والمخابرات الخارجية جامعات أمريكا بطريقة سرية»، ينقل دانيَل گولدِن مقتطفات عن تجربة سامِت گانگولي، أستاذ العلوم السياسية في جامعة إنديانا، في التعاون مع وكالات الحكومة الأمريكية. إنّ المخاوف من الإرهابيين الجهاديين والتهديد الصيني الذي يُعلن عنه في الكثير من الأحيان للملكية الفكرية للأبحاث الحساسة، جعلت من بعض الأكاديميين أكثر قابلية لمشاركة أنباء وآراء مع وكالات الأمن.

«وهناك منطق أساسي في هذا يكمن في إدراك الصالح الاجتماعي وخاصة في عصر يفتقر إلى الثوابت الأخلاقية المفترضة للحرب الباردة. ويمكن أن يكون من الصعب على أيّ أكاديمي رفض أيّة دعوة لتقديم مساعدة للمصلحة الوطنية عندما يكون كلّ ما يتطلبه الأمر هو فعل بسيط يتمثل في الإدلاء برأي مستنير عن منطقة ما، أو ثقافة ما، أو اتجاه قاموا بدراسته لسنوات، بأيّة حال». وسيكون من السذاجة بشكل مفرط تصديق أنّ الصينيين والروس وبعض الأطراف الفاعلة السيئة الأخرى هم فقط من يرسلون جواسيس متنكرين كأكاديميين متدرّبين إلى الولايات المتحدة وإلى الدول الغربية الأخرى. تلعب وكالات الاستخبارات في جميع أنحاء العالم نفس اللعبة، ولكن تلعبها بعض الدول بطريقة أكثر براعة من الدول الأخرى في أزمنة محدّدة [https://alarab.co.uk/%D8%A7%D9].

ثمّ هناك قضايا مِنَحُ الأثرياء، بما فيها مِنَحُ الشركات الإحتكارية واصحاب رأس المال. وهذه في جوهرها «رشوة» من أجل تحقيق أهداف معينة والتستر بلبوس الأبحاث العلمية الموضوعية. الجامعات العتيدة والأكثر رسوخا وثراء، عادة ما تكون أكثر ثقة بالنفس وتتصدّى للنقاد غير المسؤولين وضغوط المجتمع، بما في ذلك المتبرّعين الأثرياء تحت ذريعة، «أتمنّى أن أتمكّن من المساعدة، لكنّ الحريّة الأكاديمية تحظى بتقدير عال في هذا المكان، حتى بالنسبة لوجهات

النظـر، التـي يكرههـا الكثيـر منّا». عادة ما تكون هذه هي النهاية، على الرغم من أنّها تجري في الحقيقة بهدوء، ولكن بشكل متآكل. تنتقل «الكلمة» الى العمداء ورؤساء الأقسام أنّه من الأفضل تجنّب الأحداث والمتحدثين، الذين يُنظر اليهم على أنّهم مثيرون للجدل واستفزازيّون، ممّا يجعل الدفاع اللِبرالي النموذجي عن الحريّـة الأكاديميـة فـي كثير من الأحيان تهديدا هيكليّا لانفتاح النقاش والحوار. لقـد وجـد المؤلـف أنّ العديـد من إداريي الجامعات يُظهـرون دفاعا عن الحرية الأكاديمية في المواقف العامة، بينما يُقوّضون أو يقيّدون هذه الحرية بشكل غير معلن أو مُباشر، من خلال التذرّع باعتبارات الكياسة واللياقة المؤسسية. وبشكل أكثر واقعية من خلال الإدّعاء بعدم وجود التمويل باعتباره سببا لرفض مقترحات المؤتمـرات المثيـرة للجـدل، أو محاضـرات اعضـاء هيئة التدريـس المدعوّين. يعرف المؤلف أنّه، «لا توجد طريقة لحساب عدد المتحدّثين المثيرين للجدل، من الذين تتمّ دعوتهم، أو اعضاء هيئة التدريس الشبّان المثيرين للجدل، والذين لم تتمّ ترقيتهم أو تثبيتهم أو تعيينهم أصلا. الأشكال الضمنية للتحكّم في الفكر وإنكار التوظيف هي أكثر خداعا بكثير ممّا يبدو للعيان، وهي بالتأكيد أكثر انتشارا من الأشكال الصريحة والبدائية».

خصّص د. فَولك فصله السـادس للحديث عن تجربته في جامعة هارڤَرد. تلقى منحة من مؤسسـة فورد لبرنامج مصمّم لرعاية «أسـاتذة القانون الشـباب» من خلال تمويلهم لقضاء عام في الدراسة والبحث والكتابة في أيّ قانون رائد يُـدرّس فـي كليـات الحقـوق في البلاد. قـرّر أن يذهب الى هارڤَـرد، وأبدى في الحال امتعاضه من مقابلة عميد كلية الحقوق، الذي كان برأيه «نسـخة هارڤَرد» من الغطرسة. «هذه هي الأحكام المسبقة والأجندات الخفيّة للأساتذة الدائميين في أكثر مراكز التعليم احتراما». قرّر التسجيل في برنامج الدكتوراه الذي يؤدي للحصول على درجة في العلوم القانونية JSD. غير أنّه نظر الى وضعه في جامعة هارڤَـرد، لكونـه بطبيعـة الحـال، مُضَللا الى حدّ ما وليـس أكثر من صنيعة فكرية للإسـتاذ مكـدَوگَل ونهـج جامعة ييل المُضلل للقانـون الدولي. «لم أكن موضع تقديـر خـاصّ مـن قبل علماء القانون الدولي هـؤلاء، الذين كانوا من الوضعيين القانونيين بلا خجل، معتبرين أنفسـهم اسـاتذة بجامعة يتربّعون على قمّة الهرم

الأكاديمي». لقد رفضوا بشكل ساخر نهج جامعة ييل للقانون الدولي باعتباره «سياسة» وليس «قانونا». ثمّ يمضي للقول إنّه وعلى الرغم من كونها ودّية على المستوى الشخصي، فقد جرت تفاعلاته مع كلية القانون الدولي في هارفَرد في جوّ من الإزدراء المتبادل، الذي لم يتبدّد أبدا على مدار العام.

غير أنّه غيّر رأيه تدريجيّا فأخذ يكيل المديح لأساتذته. جاء على ذكر استاذي القانون الدولي الرائدين في جامعة هارفَرد، وهما رِچَرد باكِستَر ولويس سَوِن، اللذان درس على أيديهما مواضيع «بدافع الفضول أكثر من الإهتمام الحقيقي». كما اعترف أنّ العديد من المفكّرين المُبدعين المقيمين في كلية الحقوق بجامعة هارفَرد، كانوا أكثر تحفيزا للطلبة، بما في ذلك كِنگمَن بروستر وروجر فِشَر، الذي حقق المزيد من الشهرة. «كانت علاقاتي غير الرسمية مع كلّ من كِنگمَن وروجر كصديقين، أكثر من كونهما أستاذين عمّقا فهمي للقانون الدولي والقانون بشكل عام. بلا شكّ كان روجر موهوبا ومفكّرا واضحا يستخدم لغة بسيطة لاختراق القضايا المعقدة، لكنّه متعجرف بسبب اعتقاده أنّه قد وجد إجابات استعصت على الآخرين».

وفي النهاية سارت الأمور على ما يُرام، وتمّ تعويضه أكثر من خلال تقديره المفرط من قبل عضوين آخرين في كلية الحقوق. كان أحدهما جاك داوسُن، الذي قدّم مقرّرا دراسيا لعدد قليل من الطلبة حول نظرية القرار القضائي. وكان الآخر هو لَون فُلر، الذي تضمّن تدريسه مقرّرا كبيرا في القانون الجامعي في الفقه. وهو موضوع أثار اهتمام فَولك «على الرغم من أنّني لم ادرسه مطلقا أثناء وجودي في جامعة ييل. تضمّن المقرّر تأملات رائعة من قبل فُلر حول مناظرته المشهورة في ذلك الوقت مع هارت أوكسفرد حول ما إذا كان الحكم النازي متسقا مع نظام القانون الألماني أم لا».

جلس في سَمِنار تدريبي لمدة شهر قام بتدريسه جون راولِز، الذي على الرغم من التأتأة، قد قدّم الى حدّ ما سلسلة من العروض المحفّزة. لقد تشرّف الطلبة، بالإستماع الى قراءة مسودّة متقدّمة الى حدّ ما لكتابه، الذي نشره بعد أكثر من عقد من الزمن بعنوان نظرية العدالة 1971 (*Theory of Justice*). أستُقبِل الكتاب، الذي تمّ الإعلان عنه بضجّة كبيرة على نطاق واسع قبل نشره، حسب

قول المؤلف،وأصبح الأكثر تأثيرا والأوسع دراسة ومناقشة للمعاجة الحديثة لموضوع العدالة. وكان من الواضح أنّه أكثر الأعمال الفلسفية إثارة للجدل في اللغة الإنگليزية في النصف الثاني من القرن العشرين. «أفضل ما أتذكّره عن تلك التجربة الفكريّة المميّزة هو الدقة المفاهيمية الإستثنائية لنصّ راولِز، التي كشفت عن عمق خارق لفهم كيفيّة تأطير المواقف المُقنِعة فلسفيا». وأضاف، «كما استمتعت أيضا وتعلمت من محاضرات وِليَم إيرل الفلسفية المفعمة بالحيوية حول الوجودية، التي قدّمت طرقا للتفكير كانت تستجيب للحقائق التجريبية للوجود في الحياة المعاصرة، دون الإستفادة من الدعائم الميتافيزيقية».

ثمّ رأى أنّه ممّا لا شكّ فيه أنّ أفضل ما لديه من «مغامرات في الأفكار» خلال وجوده في جامعة هارڤَرد، كان التعرّض للعقل الرائع لپَول تِلِك، عالم اللاهوت الپروتستانتي العظيم، الذي نجح ببراعة في جعل المعتقد الديني منسجما مع العلم والفن والحداثة، وحتى حقائق ما وراء المعرفة العقلانية... بينما كان منهجيّا في تطوير الموضوعات، فإنّه تطرّق الى العديد من القضايا ذات الإهتمام المعاصر، ومصادر الحصول على الرؤى، التي تلقي الضوء على أحلك زوايا المعرفة. قدّم تِلِك العديد من التفسيرات للقضايا الرئيسية الجديرة بالملاحظة لأصالتها ووضوحها. درس معه مقرّرين، أحدهما عن التاريخ الفكري للإصلاح الپروتستانتي والآخر عن الفنّ والدين.

يخبرنا المؤلف عن تجربة أخرى خلال تلك السنة، أكملت إحساسه بالسبب، الذي جعل جامعة هارڤَردومنطقة كَيمبرِج تتمتعان بمثل تلك الجاذبية الساحرة لأولئك الذي انغمسوا في الثقافة والسياسة. حضر كاسترو الى جامعة هارڤَرد بدعوة خاصة، بعد زيارته وخطابه أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة. وكان هذا اللقاء الجماهيري جزء من جولة انتصار كاسترو في الولايات المتحدة بعد تولي الحكومة الكوبية السلطة مباشرة، وقبل أن تقرّر واشنطن بأنّه «العدو رقم 1» في نصف الكرة الغربي. جاءت نقطة الإنهيار في العلاقات حين أمّم كاسترو مؤسسات انتاج السكّر وتصنيعه، التي يمتلكها الأمريكيون في الجزيرة. كشف نهج كاسترو الطريقة التي خدع بها المستثمرون الأجانب الحكومة الكوبية وشعبها على مدى سنوات عديدة بالتواطؤ مع المسؤولين الحكوميين

الكوبيين الفاسدين. ألا ينبغي أن يؤخذ الإثراء غير العادل في الإعتبار عند تقييم التعويضات المستحقة لهؤلاء المستثمرين الأجانب، الذي استغلوا بلا خجل الوضع لفترة طويلة بالتعاون مع القيادة الكوبيّة الفاسدة؟

يمضي المؤلف للقول، «ربّما أثارت علاقتي الشخصية بهذه الأحداث، دون وعي منّي، بسبب ما لمسته من المشاعر الوطنية لكاسترو، التي ظهرت واضحة ذلك المساء في كَيمبرِج». بصرف النظر عن كتابة المقالات الأكاديمية، التي تدعم حقّ كوبا بموجب القانون الدولي في تأكيد السيادة على مواردها الوطنية، حتى لو كانت تعني تجاوز المستثمرين الأجانب، وهي قضيّة حساسة اختلطت فيها مخاوف الحرب الباردة مع إنتشار الرأسمالية العالمية، كان اتصاله بكوبا متقطعا. ولكن بعد سنوات عديدة من حديث كاسترو في جامعة هارڤَرد، طُلِب منّه كتابة مقدّمة لكتاب احتوى على مقالات باقلام محامين تحدّوا شرعيّة العقوبات الإقتصادية، التي فرضتها حكومة الولايات المتحدة على كوبا. «قيل لي أنّ كاسترو كان سعيدا بذلك الكتاب».

كما تهيأت له الفرصة للقاء دانيَل إلزبَرگ خلال أمسية، أدرك خلالها أنّ سنواته في كُلومبُس قد جعلته ينجرف الى اليسار فعلا، ممّا جعله يشعر بعدم الإرتياح بشكل واضح من شخص بدا مفتونا جدّا بالحرب، وايضا دافع عن دور أمريكا في العالم. «لم أتخيّل أبدا أنّ دان كان مقدّرا له أن يُصبح المُنشقّ السياسي الأكثر شهرة في العالم بأسره عند إصدار أوراق الپنتگون، بعد أكثر من عشر سنوات. لقد ظلت شهرة دان باقية ومعزّزة بمساهماته المتكررة المناهضة للأسلحة النووية والداعية الى العصيان المدني، وأحاديثه القويّة حول العالم وكتبه شبه الطائفية والمقلقة للغاية». وتقديرا لمساهمته في تقديم تلك العروض أمام الضمير العالمي، حصل إلزبَرگ بجدارة على جائزة **أولف پالمه** لعام 2018 في ستوكهولم، والتي تُمنح في العادة لإظهار الشجاعة الأخلاقية.

اختتم الأستاذ فَولك فصله السادس بالحديث عن جامعات النخبة التي درس فيها، وهي پَنسِلفَينيا وييل وهارڤَرد، والتي درّس فيها وهي جامعة پرِنستُن. بسبب عدم قدرته على التماهي مع المؤسسات، لم يحاول أبدا الإستمتاع بإرضاء أية تجربة كخرّيج فيها ولم يشعر حسب اعترافه بأيّ أحساس بالإلتزام «بردّ الجميل»

لهذه المؤسسات لما قدمته له بالتأكيد، وهو الدخول السّهل الى محترف عزيز كمهنة في الحياة الأكاديمية. «لم تكن حياتي المهنية هي ما استمديته من أيّ من تلك المؤسسات فخرا من إنتاجها... مع أنّها خدمت أغراضي من خلال توفير الموارد الثقافية والعلمية، التي مكّنتني من التعلم والمضيّ قدما في محيط مثالي، ولهذا ما زلت ممتنّا للغاية. إنّ مواقع هذه الجامعات للتعلم وجيوب الترابط الإجتماعي النخبوي تستجيب بشكل لا شعوريّ لرغبات وقيم المواقع المالية في مدن العالم العظيمة، وخاصّة نو يورك وقلاع السلطة في واشنطن، التي تتطلع باهتمام كبير الى الوظائف المكرّسة للدبلوماسية والمالية والأعمال التجارية، وكذلك مهنتي القانون والطبّ». يمّ يمضي للقول، «إنّه في وقت لاحق فقط، أدرك أنّ ييل وهارڤَرد وپِرنستُن عملت أيضا كمراكز تجنيد رئيسية لوكالة المخابرات المركزية، بل وقدّمت مستشارين مؤثرين حول كيفية استخدام الثقافة بشكل فعّال كسلاح أيديولوجي في الحرب الباردة». وهذا ما قاده الى الإفتراض بأنّ هذه الجامعات العظيمة، التي تطوّرت في إيقاع بسيط إثر مدّ وجزر في التغيّر الإجتماعي، «يمكن وصفها بأنّها مراكز متميّزة للتعلم والتنشئة الإجتماعية للنخبة، حيث يتمّ وضع موارد المعرفة بشكل مباشر، وحتى بشكل غير مباشر، في خدمة السلطة والثروة والمقام».

إستهلّ المؤلف فصله السابع بعد قضاء فترة عام في هارڤَرد بالشكوى ممّا يزعجه بما يجري في جامعات النخبة. «ما ازعجني شخصيّا في وقت لاحق هو روح جامعات النخبة، بأنّ (النشاط) يجب أن يقتصر إمّا على تقديم المشورة للحكومة أو العمل كمستشار بأجور عالية في القطاع الخاصّ. ما كان مُستهجنا، ومع ذلك تمّ التسامح معه رسميا باعتباره حرية أكاديمية، كان نشاط المجتمع المدني، خاصّة إذا كان يعبّر عن اتجاه مناهض للمؤسسة».

وما وراء الروتين، الذي توقعه عند عودته الى ولاية أوهايو، يذكر صاحبنا أنّه جاء ما لم يكن متوقعا في شكل سحر ورومانسية، إتضح أنّهما يمثّلان تحدّيا له بقدر ما كانا مُرضيين. لقد وقع في غرام شاعرة كانت طالبة دكتوراه وتعدّ نفسها لتصبح راهبة بعد إكمال متطلبات درجتها العلمية. «عندما دخلت سالي أيلتُن حياتي، كانت قصة مختلفة تماما عن علاقاتي الرومانسية السابقة». قال إنّ سالي

كانت متألقة وغنائية ساحرة وممتعة الصحبة وذكية ومحبوبة بلا عيب ورقيقة القلب اجتماعيا.لقد امتلكت في رأيه المزاج، الذي سيجعل مثل هذا الإلتزام كراهبة أمرا موثوقا به. لكنّ استجابتها العاطفية المرحة أشارت الى احتمالات أخرى أكثر دنيوية. «ربّما كان تأثيري الدائم على حياة سالي هو ايقاظ مشاعر منافسة كافية لدفعها الى إعادة النظر فيما إذا كانت الحياة في دير الراهبات هي الإختيار الصحيح لحياة الفرد».

في مرحلة ما، أخبر سالي أنّه كان يأمل أن يتمكّنا من الزواج في المستقبل. ومن أجل ذلك، إشار الى رغبته في تلقي تعليمات من كاهن محليّ كإعداد ضروري لتحوّله الى الديانة الكاثوليكية. كانت أكثر تقبّلا ممّا توقع وتذكّر قولها خلال العشاء في مطعم، إنّها ما توقعت منه أبدا أن يسعى للحصول على هذا الإلتزام القويّ. وعندما فعل ذلك، إعتبرته أنّه دليل على الجديّة، التي احدثت فرقا كبيرا بالنسبة لها، كما لو كانت منح إذن للتعبير عن مشاعر أقوى ونوايا أكثر جرأة. بعبارة أخرى، كانت أكثر استجابة لإعلان التزامه ممّا كانت تتوقعه. «بدأ نقاء سالي يخيفني عندما اقتربنا من بعضنا البعض، خاصّة فيما يتعلق بحُبّي لها. شعرت بالثقة في أنّني سأصبح بطريقة ما مخيّبا لآمالها وسألحق الأذى بها بشكل رهيب. وبفعل ذلك، جرحت نفسي الى الأبد. في قرارة ذهني، أدركت أنّني لست مستعدّا بعدُ للزواج الأحادي سواء في الروح أو الجوهر، وأنّ هذه الحقيقة ستؤدي بطريقة أو بأخرى الى القضاء على الزواج من شخص يعيش مُثلا عليا تماما، كما بدا أنّ سالي تفعل».

وعليه انسحب في آخر لحظة من مراسيم التعميد. يقول، «بقيت اصارع التوتّر بين رغبتي القوية في عدم إحداث خيبة أمل، وإدراكي بأنّني لا استطيع قبول العقيدة الكاثوليكية، لا الميتافيزيقيا ولا اللاهوت». ثم يستمر القول، «في النهاية، كان اللاوعي المتمثل في التنوير والمناهض للمؤسسات أكثر تجذّرا عندي ممّا كنت أدرك. خرجت من غرفة نومي معلنا أنّني لست مستعدا للتعميد». ثمّ جاء عرض مفاجئ، وبهذا المعنى، عرضت عليّه جامعة پِرنستُن الهروب من الكاثوليكية وسالي، وهو الأمر الذي لم يعترف به لنفسه، لكنّه سرعان ما اصبح واضحا. «كانت مغادرتي الى جامعة پِرنستُن حدثا نهائيا لا رجوع عنه. بعد أن

تلقيت الدعوة في أوائل عام 1961، أوضحت سـالي أملها في أنّني لن أقبل.... كتبنا الرسـائل في البداية، لكنّ سـالي لـم ترغب في متابعة ما أصبح بالنسـبة لها طريقا مسدودا».

بغضّ النظر عن وصفه لحرم جامعة پرِنستُن بأنّه، «يُشبه دَيرا للدراسة والتعلم خلال أيام الأسبوع لكنّه يصبح بيتا للعاهرات في عطلة نهاية الأسبوع»، ذكر أنّ الجامعـة كانـت وكـرا لصقـور الحرب الباردة. دفعته المواقـف التقليدية الى حدّ ما بصدد الشـؤون العالمية، الى الغربة بصمت خلال سـنواته الأولى في جامعة پرِنستُن. وحسـب اعترافـه، «كنـت افتقـر الـى الثقة في أن أكون معارضا بشـكل علنـي، وكانـت لـديّ بعض الشـكوك حـول ما إذا كان عـدم ارتياحي اتجاه تلك الآراء السائدة له ما يبرّره، وربّما كنت افكر أحيانا بأنّني مخطئ». إنّ التعبير عن افـكار مخالفـة لمـا يـدور حوله كلّ يوم كان تحدّيا لـم يتمكّن من مواجهته، ولم يكن مستعدّا بَعدُ لخوض حرب مفتوحة مع المفكّرين الستراتيجيين والواقعيين السياسـيّين، الذين سـيطروا على الخطاب في الجامعة. وبسـبب ذلك «إقتصرتُ على أن أكون شبه دخيل متجهّم الى حدّ ما، إلى أن دفعت حرب ڤيتنام وجهات نظري الى المخالفة في العلن».

وتعقيبـا علـى هيمنـة الفكـر اليميني، «إعتقـدتُ حينها، بـل وأكثر من ذلك الآن، أنّ التصحيـح السياسـي الأكاديمـي لوقـف تعيين الأسـاتذة المختلفين في الـرأي، حـرم الطـلاب من تحفيز الإتصال التربوي بسـلالات متنوعة مهمّة دوليا مـن الفكـر التقدّمـي، وكذلك حرمان مجتمـع الحرم الجامعي من فوائد التعدديّة الفكريّـة... جعلتنـي تحرّكاتهـم اللاحقـة فـي التباعـد أدرك أنّ مزاعم الإحتراف القائـم علـى الجـدارة في الحياة الأكاديمية كذبة مضللة». دفع هذا الجو صاحبنا أن يلعب أوراقه السياسية بذكاء وحذر، فقصر نشاطاته على فعاليّات خارج الحرم الجامعي في حين سـاهم بعض الأسـاتذة في تشـجيع تظاهرات الطلبة لإحراق اوراق تجنيدهـم للحـرب فـي ڤيتنام. ادلى بشـهاداته أمام لجان مجلس الشـيوخ الأمريكي ووقع على بيان نُشـر في صحيفة الواشـنطن پوسـت يطلب من نِكسُـن الإستقالة، وترأس الجمعية الأمريكية للقانون الدولي واشرف بحكم ذلك على تحرير سلسـلة من أربع مجلدات بعنوان **حرب ڤيتنام والقانون الدولي**، نشـرتها

مطبعة جامعة پِرنستُن بين الأعوام 1968 الى 1975. كما ترأس المجلس الأكاديمي للمحامين المناهضين لحرب ڤيتنام وزار هَنوي مرتين ضمن وفد مدني للسلام في عامي 1968 وثانية في 1972.

وبسبب ذلك تعرّض لأشكال خفيّة من النبذ الأكاديمي، «اصبحت مهمّشا إداريّا في الحياة الجامعيّة بسبب نشاطي... أن تكون منبوذا الى حدّ ما في الحرم الجامعي، لم يكن شيئا سيئا تماما. لقد حرّرني على مدى سنوات عديدة من التعيينات الإدارية الجامعيّة الشاقّة، وإن لم يحرّرني من الأعمال الروتينية على مستوى القسم، الأمر الذي كان سيعني حضور اجتماعات اللجان المملة والساعات التي قضيتها في صياغة التقارير... قيل لي مرّة بشكل غير رسمي من قبل مسؤول متعاطف وفي نبرة في منتصف الطريق بين الإهانة والثناء، أنّ نشاطي يكلف پِرنستُن مليون دولارا سنويّا... إنّ حماسي وإصراري على سياسة خارجية أمريكية تقوم على القانون الدولي ومستجيبة للمبادئ الأخلاقية المشتركة على نطاق واسع لم تتناسب مع النموذج السائد المستخدم لترسيم حدود المجال الممكن».

ذكر المؤلف أنّه حضر ورشة عمل في البرتغال من أجل تحقيق السلام في الشرق الأوسط، واستمتع بشكل خاصّ بحضور الأب ثيودور هِسبَرگ، رئيس كاتدرائية نوتِردَيم آنذاك، والذي كان دائما ودودا ومكرّسا لتحقيق نظام عالمي سلمي وعادل واصبح مهتما وداعما لمشروع النظام العالمي WOMP. كانت الأولوية القصوى لسياسة هذا الأب هي إعلان القدس وقبولها «كمدينة دولية». كما التقى الأب مِگَيل دِسكوتو برُكمَن من نيكاراگوا. ذكر أنّ الأب مِگَيل شديد الحزبية وتقدّميا وروحيّا ومساهما رئيسيا في لاهوت التحرير. أصبح وزير الخارجية في حكومة الساندَنيستا الأصلية بعد وصولها الى السلطة في نيكاراگوا بعد صراع طويل ضدّ سلالة عصابات سوموزا. أصبح مِگَيل رئيسا للجمعية العامة للأمم المتحدة بين عامي 2008 و2009، وعيّن د. فَولك في لجنة المستشارين الخاصّة به. وعندما أرسِل د. فَولك الى إسرائيل في شهر كانون الأوّل من عام 2008 ولكن طّرِد منها. عرض مِگَيل تنظيم مؤتمر صحفي داعم في مقرّ الأمم المتحدة لإعطائه الفرصة لأبلاغ وسائل الإعلام روايته. لكنّه ضيّع

فرصة رعاية الأمم المتحدة «كمنبرمفيد لأخبر من خلاله القصة، التي تمّ تشويهها ونقلها بشكل خاطئ من قبل وسائل الإعلام الرئيسية». لم يُخبرنا عن السبب الحقيقي لطرده وكيف زيّفت إسرائيل الأسباب الموجبة للإقدام على مثل تلك الخطوة ولماذا رفض اللقاء الصحفي ليُخبر الحقيقة ويكشفها أمام الرأي العام من وجهة نظره، واكتفى بحجة الإنهاك والشوق للعودة للوطن.

لربّما أهمّ ما في هذا الفصل هو رأي المؤلف في سياسة التدخلات الأمريكية في النصف الثاني من القرن العشرين. ذكر أنّ علماء المستقبل يبحثون دائما عن إطار نظري متطوّر لأبحاثهم. كما بدا في الوقت المناسب أنّه مرتبط بجنون التحديث، الذي تمّ الترويج له بشغف في هارڤرد ومعهد ماسَچوسِت للتكنولوجيا وپرِنستُن، كإجابة للرأسمالية على الماركسية في صراع الحرب الباردة من أجل السيطرة على التوجّه الأيديولوجي لدراسات التنمية، التي اعتمدتها البلدان فيما كان يُعرف آنذاك باسم «العالم الثالث». تلائم بعض الأساتذة تماما مع هذا الأخدود الأيديولوجي، الذي كان جزء من جهد الغرب لكسب تأييد دول آسيا وافريقيا وأمريكا اللاتينية. وحين انتهى الأمر بخسارة الصراع الأيديولوجي، برزت الخطة ب الى المقدمة. كان من المتوقع في تلك المرحلة أن تقوم وكالة المخابرات المركزية بتغيير الأمور في الإتجاه المطلوب من خلال تغيير النظم عن طريق التدخلات السريّة، كما حدث في العديد من البلدان كإيران (1953) وگواتيمالا (1954) والعراق (1963) ومصر (1956–1967) وچِلِي (1973). أدّت كلّ حالة من هذه التدخلات الخفية لتغيير الأنظمة الى انتهاكات جسيمة لحقوق الإنسان ومعاناة مُطوّلة لشعوب تلك البلدان، التي أنتُهِكت حقوقها السيادية من أجل الأولويات الجيوسياسية الأمريكية، التي وضعها المجرمون من خُلاة الضمائر قُساة القلوب. والشاهد على ذلك ما نراه، حتى في ايامنا هذه من القوافل الهاربة في كلّ القارات، من الظلم إلى البؤس.

ركّز المؤلف في فصله التاسع على عدة قضايا منها التحرش الجنسي في الوسط الجامعي وخارجه. كتب يقول، «من المؤكّد أنّ النساء اللواتي يشغلن مناصب مهنية ثانوية غالبا ما يكُنّ اهدافا لرؤساء ذكور (مفترسين) وهنّ يحتجن ويتطلبن الحماية. نأمل أن يقبل الرجال الحساسون هذا المقياس من التعرّض

لمزاعـم التحـرّش غيـر العادلـة كنوع من (التعويضات) للإسـاءات الذكوريّة في الماضـي. ولكـن عندمـا يصـل الموضوع الـى موقف مثل الذي أشـرت اليه في اعلاه قد تصبح القضية بهتانا وادّعاءات كاذبة وإساءة مريرة». ثم يمضي ليشرح بالتفصيل كيف اصبح هو نفسه ضحية لادّعات كاذبة من قبل إمرأة كانت تعمل معه مساعدة باحث. إختتم القصة بذكر تلقي رجال أبرياء واحيانا مهمّين لبعض الضربـات مـن قبل النسـويات الغاضبات والمؤذيـات Angry or Hurt Feminists على طول الطريق، وبرّر هذا على أنّه «أمر مؤسـف وقد يكون غير عادل للغاية في حالات معيّنة».

الغريب أنّه بالرغم من سـجل الفضائح المذهلة والتجاوزات الجنسـية في سجلّ دَونلد ترامپ، فقد اغمض الأمريكيون عيونهم وانتخبوه رئيسا للبلاد. غير أنّ ضجة حديثة قد قامت ضدّ أندرو كومو، حاكم ولاية نو يورك لتهم التحرّش الجنسي من قبل عدد من النساء العاملات معه. بدأت القضية بسكرتيرته وتبعتها 10 نسـوة أخريـات، ممّـا جعل المدعية العامـة في ولاية نو يورك تدفع باتهامات التحـرش الجنسـي الـى الواجهـة. ووصـل الأمر برئيـس الجمهوريـة أن يتدخل ويقتـرح أنّـه علـى الحاكم كومـو أن يتنحّى عن منصبه. ولم يجد الحاكم مخرجا من الفضيحة فقدّم استقالته [https://www.france24.com/ar/%D8%A3].

أوضح د. فَولك في جزء آخر من الفصل التاسع كيف يقوم الطلبة بتشكيل عمـلّ أسـاتذتهم ورؤيتهـم للعالم دون وضـع مثل هذا الهدف في الإعتبار. أورد مثـالا علـى ذلـك العديـد من البعثات لتقصّي الحقائـق قام بها بالتعاون مع طلبته أوّلا لپورتوريكو ثمّ الفِلِپين والهند وجنوب أفريقيا وكوريا الجنوبية واليابان ونو زيلندا. كانت جولاته بنفس المسـتوى من الإتصال المكثف بدول أجنبية ولقاء بعض الشخصيات الوطنية الرائدة، وأفاد أنّها، «كانت جميعا تجربة تعليمية مكثفة ذات آثار طويلة الأمد». ثمّ اتي على ذكر قائمة طويلة من الطلبة الذين أثّر عليهم وتأثـر بهـم، وممّن لعبوا ادورا سياسـية وثقافية تتوافـق مع «الرؤية العالمية، التي أيّدتها، وأنّ مشاركتي كانت نتيجة طبيعية. لقد تضمّنت القيام بكلّ ما في وسعي لتغيير النظام العالمي بما يتماشى مع مقتضيات السلام والعدالة والبيئة».

ومـن زاويـة أخـرى، تفاخـر د. فولك بقائمة طويلة مـن طلبته، الذين تبوأوا

مناصب عليا عامة في الدولة. يأتي أولا على ذِكر روبرت مولَر، المدير السابق لمكتب التحقيقات الفدرالي والمستشار الخاص المشهور في قضية الجرائم المزعومة المختلفة، التي احاطت بحملة انتخاب دونَلد ترامپ للرئاسة عام 2016. والآخر هو دَيفِد پِترايوس، الذي جاء الى پِرنستُن كضابط عسكري في منتصف العمر، لكنّه سرعان ما برز في السنوات اللاحقة واصبح رئيسا لهيئة الأركان المشتركة، ثمّ مديرا لوكالة المخابرات المركزية. لقد تردّدت شائعات بأنّه مرشح جادّ للحزب الجمهوري في انتخابات الرئاسة لعام 2008، لولا تدخّل رغباته الجنسية! هناك ضابط آخر دخل فلك حياته، وهو الأدمِرال كرَو، الذي أخذ إجازة من حياته المهنية في البحرية على شهادة الدكتوراه في پِرنستُن. تمّ اختيار كرَو بعد پِرنستُن رئيسا لهيئة الأركان المشتركة، وهو أعلى منصب عسكري رسمي. جرى تعيينه أوّلا من قبل رَونَلد رَيگن ثمّ من قِبَل جورج بُش الأب.

في وقت مبكر من الفترة الطويلة، التي قضاها د. فولك في جامعة پِرنستُن، كان سعود الفيصل طالبا في الدورة التمهيدية للطلبة الجامعيين حول القانون الدولي. صادف أنّه تمّ تعيينه في قسم المناقشة الذي كان د. فولك مسؤولا عنه. «كان سعود الفيصل شابّا متواضعا وممتعا كتب ورقة بحث جيّدة جدّا عن «**مقاربة إسلامية للقانون الدولي**». أتذكّر أنّ ورقته كانت مدروسة وتحليليّة وصفية الى حدّ ما، لكنّها بعيدة عن التصلب أو عدم المرونة في تفسيراتها. لم تتطرق ورقة البحث الى المواد شديدة الحساسية التي تتعلق بالحياة الأسرية ووضع المرأة وقانون الأحوال الشخصية. لم يكن لديّ اتصال مباشر به لاحقا بعد عودته لبلاده، حيث سرعان ما اصبح وزيرا للخارجية، وهو المنصب الذي شغله لسنوات عديدة امتدت ما بين 1975– 2015. سمعت عنه بشكل غير مباشر من خلال اتصالات عرضية مع شقيقه الدبلوماسي الأصغر تركي بن فيصل». خلال نفس الفترة تقريبا، «إلتحق رِچَرد پِرل بصفته طالب دكتوراه محتمل، سجّل في مجموعة سمناري الصغيرة في العلاقات الدولية المتقدّمة. لقد كان موهوبا من الناحية المفاهيمية وتحدّث بوضوح ولكن بطريقة قويّة، لكنّه لم يذهلني في ذلك الوقت باعتباره أيديولوجيا بشكل خاصّ». في وقت لاحق اصبح رِچَرد پِرل يوصف على نطاق واسع بأنّه ذو الشهرة البارزة للفكر الستراتيجي للمحافظين

الجدد في واشنطن. عُيّن لاحقا كمعلم لمجموعة من المحافظين الجُدد من مستشاري السياسة الذين أحاطوا برَيكِن ومن بعده بُش الأب. «كان پِرل متشكّكا في القيود المفروضة على الأسلحة النووية ومُعاديا للأمم المتحدة والقانون الدولي ومؤيدا للتدخلات لتغيير النظم، ومؤيدا لإسرائيل دون قيد أو شرط».

ثم انتقلت سيرة د. فالك للحديث عن نورمَن فِنكِلشتاين، وهو طالب دراسات عليا موهوب بشكل غير عادي، جاء الى پرِنستُن بسيرة ذاتية تضمّنت عددا من المنشورات المقروءة على نطاق واسع، وهو رقم قياسي يليق بشخص كان عضوا في هيئة التدريس لسنوات. إكتسب بالفعل سمعة كبيرة باعتباره باحثا صارما وصداميّا ينتقد بشدّة سياسات إسرائيل وممارساتها.... تولى د. فولك الإشراف على أطروحة نورمَن التي كرّسها لدراسة تطوّر الفكر الصهيوني كما يُفهَم من خلال قراءة عميقة لكتابات مفكّرين بارزين. حصل نورمّن على شهادته وأصبح أحد أكثر النقاد الأكاديميين تأثيرا ومعروفا عالميا للسلوك الإسرائيلي، فضلا عن الموضوعات الأخرى. كان لنورمَن صلات عائلية بالمحرقة المروّعة، حيث لقي العديد من افراد عائلته المقرّبين حتفهم في معسكرات النازية. «لكنّه تمّ استبعاده بشكل غير عادل من الحياة الأكاديمية، وتمّ ادراجه في القائمة السوداء فعليا بعد حرمانه من الخدمة في جامعة دي پول DePaul University، على الرغم من التوصية الإيجابية من قبل زملائه في هيئة التدريس. ويبدو أنّه تمّ تقويض فرصته من الخارج بفعل رسائل غير مرغوب بها تسللت عبر القنوات الخلفية، بما في ذلك رسالة من ألَن دِرشوفِتز. إنّها حكاية مؤسفة، وأنا متأكّد من أنّها سبّبت محنة طويلة الأمد لنورمَن، الذي تمكّن مع ذلك من أن يظلّ منتجا ومحترما دون المساس بالجودة أو الطابع النقدي لكتاباته واسعة النطاق».

على عكس ما جرى للخريج، الذي اصبح وزيرا لخارجية بلده لمدة 40 عاما، ولم يتصل باستاذه، كان هناك طالبان حصلا على درجة الدكتوراه تحت اشراف د. فولك واصبحا وزيرين للخارجية في بلديهما وكانا على علاقة وثيقة به. الأوّل هو نَيثِن شامويَريا من زِمبابوي وكان سياسيّا وطنيّا راديكاليا يدعم بقوّة الإعتقاد بأنّ افريقيا ومواردها تعود فقط الى الأفارقة الأصليين، وليس للمستوطنين البيض. عاد لاحقا الى وطنه زِمبابوي واصبح وزيرا للخارجية في

حكومة مُگوابي. «إتضح أنّه فيما يتعلق بالقضايا السياسية، ظلّ نَيِثن من الموالين لمُگوابي ودافع عن مصادرته المثيرة للجدل للمزارع المملوكة للبيض، ومات فقيرا». كان الآخر هو لَويد أوكسوُرثي، الذي اصبح وزيرا للشؤون الخارجية في كندا ضمن حكومة رئيس الوزراء پيير ترودو. حين كان لويد في ذلك المنصب تميّز لسببين على الأقل. طرح فكرة «الأمن البشري» كبديل أكثر شمولا وأقلّ عسكريّة من التركيز التقليدي على «الأمن القومي». كانت المبادرة الثانية، التي استحق لويد الفضل في طرحها هي انشاء «اللجنة الكندية للتدخّل والسيادة»، والتي كانت ردّا على حرب كُسوڤو وأدّت الى اقتراح معيار «مسؤولية حماية المدنيين» الذي تبنّاه مجلس الأمن للأمم المتحدة عام 2004. «أكثر من معظم المثقفين، الذين يضعون أيديهم على مقاليد السلطة، استخدم لويد بشكل خلاق وبنّاء فرصته القصيرة نسبيّا».

يأتي د. فولك أخيرا على ذكر طالبتيه آن مَري سلوتر وأسلي بالي. درست آن مري معه مقررا في السنة الأخيرة قبل الإلتحاق بكلية القانون بهارڤَرد لنيل شهادة الدكتواره لتصبح بعدها عضوة في هيئة التدريس هناك. عملت بفعالية كرئيسة لتخطيط السياسات في وزارة الخارجية خلال رئاسة أوباما، وبدا واضحا أنّ انظارها كانت تهدف الى تحقيق مكانة بارزة في القطاع العام، ربّما كوزيرة للخارجية أو سفيرة لدى الأمم المتحدة. لدى المقارنة بينهما بشكل مبسّط، «كانت آن مَري رائدة اعمال في مجال السياسة بنظرتها الليزر الموجّهة الى مشهد واشنطن»، بينما أصبحت أسلي، التركية الأصل والتي أشرف عليها لنيل شهادة الدكتوراه من پرِنستُن، «نجمة اكاديمية بنظرة شديدة بنفس القدر مركّزة على قضايا العالم، لاسيّما تركيا وفلسطين. أثبتت أنّها ذات أداء متميّز بينما لا تزال عضوة هيئة تدريس جديدة في كلية الحقوق بجامعة لوس أنجلِس. وربّما مثل آن مَري قد تكون أكثر من ذلك، وبانتظارها انجازات قد لا تُنسى».

أنتقل د. فولك وزوجته بعد تقاعده من جامعة پرِنستُن الى كالَفورنيا. «من دون شكّ، وقعنا تحت تأثير السحر عند وصولنا الى كالِفورنيا واستمر ذلك السحر طوال عقدنا الأوّل هناك. بدت جميع جوانب حياتنا مرضية بخلاف ما تركناه وراءنا في پرِنستُن». لم يكن القرار بأنّ سانتا باربَرا هي الخيار الصحيح

بالنسبة لهما قرارا معقدا. ما شجّعهما عليه هو عرض مارك جورگِنزماير، مدير الدراسات العالمية في جامعة كالِفورنيا في ذلك الوقت، الذي عرض عليهما وظائف للتدريس بدوام جزئي على أساس سنوي، مع احتمالات جيدة بالإستمرارية. أعطاهما هذا ارتباطا هادفا بجامعة جيدة. كما أنّ العرض وفّر ما يكفي من الدخل الإضافي لجعل حياتهما خالية من الضغوط المالية. بالإضافة الى هذه الإعتبارات العملية، كان لديهما العديد من الإصدقاء المقرّبين، الذي عاشوا لفترة طويلة في سانتا باربَرا وأحبوا المكان. «ومع ذلك منحتنا تجربة حياتنا في سانتا باربرا من البداية الى النهاية الحبّ والسرور والإلفة باشكال عديدة».

ومع كلّ تلك العلاقات الجديدة والصداقات المتميزة والأوقات السعيدة في مدينة سانتا باربرا، شعر د. فولك بأنّه كان ضحية لحملة تشهير صهيونية ردّا على تعاطفه وانشطته الفلسطينية. لقد استغرق الوقت طويلا ليدرك الدرجة، التي اصبح عندها الإمتناع عن الإنتقادات الحادّة لإسرائيل مهما كان مبررا، الزام سياسي واجتماعي في امريكا الحضرية وطبقتها الوسطى [https://ar.wikipedia.org/wiki/%D9%85]، خاصّة بين اللِبراليين اليهود. «كان هناك القليل من الإهتمام بالجوهر المرتبط إمّا بدعم الحقوق الفلسطينية أو بدقة مخالفات إسرائيل». لقد ألقى بعض المحاضرات العامة في سانتا باربرا ولوس أنجلِس وكتب بعض مقالات الرأي واجرى مقابلات اعلامية محلية عبّر فيها عن تعاطفه مع المحنة التي يتعرض لها الشعب الفلسطيني. كما طرح افكارا حول كيفية تحقيق سلام دائم قد يمكّن هذين الشعبين المُحاصرين من العيش معا في سلام، على أساس «المساواة في الحقوق». أصبحت هذه «علفا لماكنة الحقد الصهيونية».

بمجرّد أن تولى وظيفة مقرّر خاص للأمم المتحدة في فلسطين المحتلة عام 2008، المتحدة، كان هناك العديد من الهجمات التي تمّ الإعلان عنها جيّدا في الساحات الرئيسية من قبل دبلوماسيين إسرائيليين وأمريكيين ودبلوماسيين من الكومِنوَلث البريطاني في الأمم المتحدة. «وصفوني بالتحيّز ضدّ إسرائيل وتعاملوا مع تعييني على أنّه توضيح لما اعتبروه على أنّه تقريع لإسرائيل، الأمر الذي جعل الأمم المتحدة على نحو متزايد غير شرعية في عيون الصهيونية».

امتـد حقـد الصهيونـة العالميـة عليـه فدُبّـرت حملـة قوية لمعارضـة تعيين زوجتـه وحرمانهـا مـن المنصـب، الذي أوصـت به لجنة حقوق الإنسـان التابعة للأمم المتحدة، والتي نظرت في عشرات المرشحين المؤهلين من جميع انحاء العالم. «يبدو أنّها كانت ضحيّة لغيرة تافهة وبعض التدخّل الإداري، ربّما عكس العـداء الصهيونـي لـي... ولماذا هذه الحملة؟ فقـط وبصراحة لأنّني زوجها. إنّه شـكل وقـح مـن الذنـب بالتبعيّة رفضته حتـى وزارة الخارجيـة الأمريكية». امتدّ هـذا التواصـل الصهيونـي الإنتقامي الى كلية الحقوق بجامعة كالِفورنيا في لوس أنجلِس، حيث تدخّل المانحون لمنع تعيينها البحثي في برنامج غذائي على الرغم من عدم وجود أيّة إشارة بخلاف اختيارها للشريك، على أنّها مهتمة بالنضال بين إسـرائيل وفلسـطين، واهتمامها بالنضال بين اسـرائيل وفلسطين، يعني في رأيهم شيئا واحدا هو مناهضة إسرائيل.

لاحقتـه الصهاينـة فـي لنـدن ايضـا https://online.flippingbook.com/view/819011/64/]، «أينمـا تحدّثـت فـي لندن بعـد أن اصبحت معروفا بصفتي ناقـدا لإسـرائيل ومؤيـدا للنضـال الفلسـطيني، كان هناك صهاينـة مهاجمون بين الجمهـور، وغالبـا مـا كانـوا يحضـرون مثـل هـذه المناسـبات لمجـرد إحـداث اضطرابات ومقاطعات».

ذكر المؤلف في نهاية فصله العاشـر أنّه كانت له تجارب سـابقة بين نوافير رومـا خـلال السـبعينات كجـزء مـن مجموعـة صغيرة سـاعدت ليليو باسـو في تشـكيل المحكمـة الدائمـة للشـعوب، التـي حاولـت سـدّ الثغرات التـي أحدثها الإفـلات الجيوسياسـي للـدول الكبـرى مـن عقـاب القانون الجنائـي. «كان من دواعي سـروري العمل عن كثب مع ليليو باسـو، وهو مشـرّع ماركسـي مؤثّر». إتبعـت مبـادرة المجتمـع المدني الجريئة هذه قيادة محكمة برتراند راسِـل، التي تزعّمت اصدار حكم قانوني ضدّ الولايات المتحدة بشـأن حرب ڤيتنام، معترفة بعدم قدرة الأمم المتحدة على توسـيع تغطية المسـاءلة الجنائية لأعضاء مجلس الأمـن الخمسـة. لقـد تـمّ منح هـذا التأكيد للإفلات من العقاب مكانة دسـتورية فـي شـكل حـقّ النقـض، وهو الثمن الذي دفعته الأمم المتحـدة لإغراء الفائزين الجيوسياسـيين فـي الحـرب العالميـة الثانيـة بالإنضمام الى المنظمـة والمطالبة

بتمثيل مصداقية العالم. يعترف المؤلف بتواضع جمّ، «علمني ليليو أنّه من الصواب حبّ الحياة ومعارضة جرائم الدولة، وأنّ الإنسجام بين العيش الكريم والعالم العادل أمر طبيعي، بل ضروري».

خصّص د. فولك فصله الحادي عشر للحديث عن الآثار الدموية لأحذية العسكر الأمريكيين في ڤيتنام، ونزوله من برجه الجامعي العاجي ليكون مواطنا مشاركا في زمن الحرب. لقد نظر مبدأيا لهزيمة امريكا في ڤيتنام على أنّها بداية النهاية للإمبراطورية الأمريكية. ولا شكّ أنّ الهزيمة في العراق وفي افغانستان حديثا، تعززان رأيه [https://ar.wikipedia.org/wiki/%D9%82] بأنّ تفسيره يتوافق مع مسار التاريخ. «في المراحل الأخيرة من حرب ڤيتنام، أصبحت واثقا الى حدّ ما من أنّ تدفّق/مسار التاريخ كان الى جانبي. أعتقد الآن أنّ ما فسرته على أنّه تدفّق لم يكن خطأ، بل ينطبق على انهيار الإمبراطوريات الإستعمارية الأوروپية، وليس على الإتجاه الأوسع للغربنة والعولمة الأمريكية المُهيمنة Westernization and American Hegemonic Globalization، فضلا عن آثار الإرتداد التراجعي».

وهنا وبمناسبة الإنسحاب من افغانستان ترد الى الذهن أسئلة مُلحةّ، «هل تعبت أمريكا من الإقامة في عالم 11 سبتمبر بمعاركه وأخطاره وتكاليفه؟ هل قررت ترك جمر تلك الخرائط الصعبة بين أيدي أبنائها وجيرانها؟ ربما لم تعد لديها لا الرغبة ولا القدرة على بناء عالم يشبهها. هل تراها تعتقد أنَّها حين تنسحب تصبح بعيدة في حين [https://elaph.com/Web/NewsPapers/2021/09/1451610.html] أنّ إشعاعات مفاعل التطرف يمكن أن تصيبَ الآخرين أكثرَ مما تصيبها؟» لا يمكن إحصاء تكاليف الإقامة في عهدة قاتل إسمه 11 سبتمبر. إنَّه يومٌ باهظ لم يستطع أن ينافسه أيّ يومٍ آخر لجهة حجم أضراره وعدد ضحاياه. وحده «كورونا» يتقدَّم حالياً لحرمانً «يوم الغزوتين» من هالة القاتل الكبير.

حتى فوكوياما، الذي أعتبر سقوط الإتحاد السوفيتي إيذاناً بانتصار النّظام الغربي، الذي يقوم أساسا على الديمقراطية اللِبرالية والرأسمالية، أطلق على هذا الوضع الجديد «نهاية التاريخ» راسماً للبشرية نهجاً واحدا هو النّموذج الغربي. فمن أراد أن يعيش في ما بعد التاريخ، فعليه أن يختار هذا النموذج دون تردد أو تأخير، حيث السلام والأمن والعيش الرغيد. بعد أكثر من ثلاثين سنة من

إعلان فوكوياما الأول، المتلذذ بنشـوة النّصر والقوة، وبعد أقل من عشـرين سـنة من «الهيمنة الأمريكية المؤكدة»، منذ سـقوط جدار برلين إلى الأزمة المالية في 2007– 2009، هـا هـو ذا اليـوم يعلـن نهاية الهيمنة الأمريكيـة. وهي نهاية مرتبطة بتراجـع قـوة، وانتكاسـة نمـوذج، تجلـى ذلـك أكثـر، إثـر انسـحاب أمريـكا من أفغانستان؛ انسحاب، مع أنه مبرر، إلا أن أقل ما يوصف به أنّه مذلّ وصادم، لا يليـق، بـأيّ حـال مـن الأحوال، بقوة عظمى تقود العالم. «فانسـحاب أمريكا من أفغانستان بتلك الطريقة المشينة والمؤلمة، كأنّه الهروب الكبير، قد شوّه صورة أمريكا، وأفقد الثقة في نموذجها، وفي قيمها، ناهيك من قدرتها على القيادة، وهو هروب سـيظل عالقاً، بلا أدنى شـك، بالذاكرة الإنسـانية» [https://www.alquds.co.uk/%d9%81]. استعملت أمريكا الحروب كوسيلة لتصدير نظامها، وهنا كان الخطأ القاتل وكانت الإساءة في استعمال القوة المفرطة لغزو أفغانستان واجتياح العراق.

على الرغم من الجهود المضنية، التي بذلها د. فَولك لإثبات عدم شـرعية السياسـة الأمريكيـة اتجـاه ڤيتنـام، إلا أنّ عملـه لا يـزال ينـدرج ضمـن النموذج اللِبرالـي السـائد للنقـاش الشـرعي حول القضايـا الخلافية. اعتقد، «بأنّ اليسـار السياسي في أمريكا قد صوّر الصراع بدقة من الناحية التاريخية باعتباره أحد آخر النضالات العظيمة ضدّ الإستعمار واعتبره علامة واضحة على تراجع الإمپريالية الأمريكية. لكنّه أبقى نقده سياسيا بشكل مجرّد، دون إظهار الكثير من التعاطف مع المعاناة الجماعية التي عاشها الشعب الڤيتنامي». [https://www.ida2at.com/vietnam–revolution–which–inspired–the–worlds–youth]

تمّـت دعوتـه للأنضمـام لوفـد نقابة المحامين الفرنسـية ليكون ضمن زوّار فيتنـام الشـمالية لمشـاهدة الخـراب الذي تحدثـه الغارات الجوية الوحشـية. تمّ تكليفـه مـن قبـل زمـلاء لـه من أيـام هارڤَرد يعملـون في الپِنتگون بحمل رسـالة رسمية سريّة الى زعماء هَنوي، «قيل لي أنّ حمل مثل تلك الرسالة من شأنه أن يعـزّز مكانـي فـي هَنـوي الى حدّ كبير، والأهم من ذلك بكثير قد يعُزّز في الواقع احتمالات التوصّل الى اتفاق سلام مبكّر». ثمّ يمضي للقول، «لم يكن اكتشاف أعمق اتجاهاتي السياسية والروحية من بين أهدافي أو توقعاتي عندما حان وقت

المغادرة. ومع ذلك، كانت هذه الرحلة أكثر من أيّة تجربة سابقة أو منذ ذلك الحين، ذات تأثير دائم على وعيي الأخلاقي والقانوني والروحي».

ثمّ يستمر للحديث عن عودته الى باريس، «ما ترك الإنطباع الأقوى لديّ في ذلك الوقت، لم تكن التغطية الإعلامية الإيجابية لرحلتي باستثناء مجلة National Review، ولكن عدم اهتمام أكثر الصحفيين لِبرالية وتعاطفا في تلك الأجزاء من عرضي للحرب، التي أدنت فيها الهجوم غير القانوني من قبل آلة الحرب الأمريكية وتقنيتها العالية. أردت أوّلا مشاركة انطباعاتي عن الفظائع، التي لحقت بهذا البلد الآسيوي الضعيف الذي يعتمد على التكنولوجيا المنخفضة، والذي تمّ تحديد شعبه من خلال قوة الإرادة المطلقة والحماس الوطني للدفاع عن الأرض، مهما كان الثمن». [https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%AD].

تلقى د. فولك دعوة لقضاء عام واحد في مركز الدراسات المتقدمة للعلوم السلوكية في جامعة ستانفّرد في كالِفورنيا. كان هدفه في الإنضمام الى المركز أن يعدّ كتابا ظهر عند نشره أخيرا تحت عنوان **هذا الكوكب المهدّد بالإنقراض: الآفاق والمقترحات من أجل بقاء الإنسانية** (1972).التقى خلال وجوده في المركز بعدد من الأشخاص الذين يعرفهم في جامعة پِرنستُن. من بين هؤلاء جورج شولتز، الذي تألق خلال فترة رئاستي رَيِگن وبُش الأب. «لم اسمع أبدا جورج شولتز يعبّر عن فكرة اصيلة أو يتبنى موقفا مميّزا بشأن قضية سياسية مهمة. أكّدت مسيرته المذهلة بالنسبة لي أنّ طريق النجاح بالقرب من قمّة الهرم الحكومي يرتبط عموما بدرجة الذكاء العاطفي واتصالات النخبة والصلات الأيديولوجية أكثر من ارتباطه بالقوة العقلية». كما عمل في المركز شخص آخر هو أيرفِنگ هاو «محرر مجلة Dissent Magazine، بروح اليساريين السابقين، إشتراكيامتشدّدا مناهضا للسوڤيت ومدافعا غير اعتذاري عن النهج الصهيوني لسياسات الشرق الأوسط. كان أيرفِنگ وكذلك زوجته أرِن ماك من أشدّ المؤيدين لإسرائيل. كانا يعتقدان أنّ أمن إسرائيل يعتمد على الحفاظ على علاقة إيجابية وثيقة بين يهود الشتات وحكومة الولايات المتحدة. لذلك كانوا حذرين من الحركة المناهضة للحرب، التي انحرف عناصرها نحو التضامن المتعاطف مع نضال الفلسطينيين».

كما التقى لَيون لِيسُن المتخصّص في القانون السوفيتي، والذي كان مرموقا

مـن الناحيـة الفكريـة وذا دافع آيديولوجي ظاهر في هيئة التدريس بكلية الحقوق فـي جامعـة ييـل. وفي المركز أيضـا، التقى ألبرت هِرشـمَن، «وهو ألطف وأكثر إبداعا بين الزملاء ذلك العام. وهو اقتصادي سـبح ضدّ تيار النمذجة الرسـمية والتحليـل الرياضـي. اصبـح معروفـا وحصل على تقدير مهنـي من خلال تقديم المسـاعدة والراحـة والملجـأ المؤسسـي فـي كثيـر مـن الأحيـان لمجموعة من المثقفين التقدميين القادمين من أمريكا اللاتينية في جامعة پِرنستُن».

إختتمّ د. فولك فصله هذا بالإعتراف أنّه اختار، «تأكيدا شاملا غير قضائي للإنسـانية بكلّ تنوّعها كمعيار أخلاقي أعلى للهوية والمجتمع والتضامن. على الرغم من استئناف حياتي الأمريكية، ألا أنّني لم افقد حبّي لڤيتنام وشعبها أبدا.... ربّما لم تكن ڤيتنام بطولية في أوقات السلم كما كانت في أوقات الحرب، لكنّ الشـعب الڤيتنامـي حافـظ على أعزّ ذكرياتي عـن تلك الزيارة الأولى لذلك البلد العظيم عند زيارته مرّة أخرى لمدة أسبوعين في عام 2016».

خصّص المؤلف فصله الثاني عشـر للحديث عن إعادة ثلاثة طيارين كانوا اسـرى فـي ڤيتنـام، حيـث كان ضمـن وفد من اربعة اشـخاص مـن ممثلي حركة السلام الأمريكية، كبادرة حكومية ڤيتنامية لإظهار حسين النيّات. كان المعتقلون الثلاثة قبل اطلاق سراحهم قد وقّعوا بيان ندم على دورهم في الحرب، وكتعبير عن معارضتهم لها. كانت الغالبية العظمى من أسرى الحرب في حقبة ڤيتنام من الضباط، ومعظمهم من رجال البحرية والقوات الجوية ومشـاة البحرية. كما تم القبـض علـى عدد صغير نسـبيا من الأفـراد المجندين في الجيش، بالإضافة إلى أحد البحارة المجندين الذين سقطوا في البحر من سفينة تابعة للبحرية الأمريكية. ألقي القبض على معظم الأسرى الأمريكيين واحتجزوا في شمال ڤيتنام من قِبَل الجيش الشعبي الڤيتنامي وأودعوا في 13 سجنا وجرى نقلهم باستمرار لتفادي أيّة محاولة لإنقاذهم. تمّ إطلاق سراح أسرى الحرب الأمريكيين في ڤيتنام الشمالية في أوائل عام 1973 كجزء من **عملية العودة للوطن**، نتيجة مفاوضات دبلوماسية اختتمت التدخل العسكري الأمريكي في ذلك البلد. في 12 شباط 1973، بدأت إعادة أول 591 سجينا أمريكيا إلى الوطن، واستمرت رحلات العودة حتى أواخر مارس. بعد **عملية العودة للوطن**، ما زالت الولايات المتحدة [.https://ar.wikinew

تُـدرج ما يقرب [wiki/wiki/U.S._prisoners_of_war_during_the_Vietnam_War
من 1350 أمريكيا على أنّهم أسـرى حرب أو مفقودون أثناء القتال، وسـعت إلى إعـادة رفـاة مـا يقـرب من 1200 أمريكي قُتلوا أثنـاء المعارك في الجنوب، ولكن لم يتم العثور على مناطق دفنهم.

مَثّل هـؤلاء الطيـارون الأسـرى حقائق معاكسـة للڤيتناميين والأمريكيين. بالنسـبة الـى الڤيتناميين، كان الطيـارون تجسـيدا بشـريا لغزاة معاديـن يمتلكون التقنية العالية التي استخدموها فدمّروا بلادهم والعديد من قراهم وقتلوا اطفالهم وأقاربهم الآخرين. بالنسـبة للأمريكيين، «كان الطيارون ضباطا عسـكريين ذوي مهـارات عاليـة وذوي قيـم عاليـة وضحايا بطوليين لمـا تمّ تصويره على أنّه عدوّ قاس ومسيء. لقد اصبحوا في الولايات المتحدة موضع تعاطف عالمي تقريبا، بعـد أن بذلـوا قصـارى جهدهـم من أجـل وطنهم، وإنْ كان ذلك في جهد حربي غبي وفاشل».

هـل عـذّب الڤيتناميـون أسـراهم مـن الأمريكيـين؟ رغم عـدم نظافة أيدي الأمريكيـين انفسـهم قديمـا وحديثـا، كمـا فـي سـجون گوانتَنامو فـي كوبا وأبي غريب في العراق وبا گرام في افغانستان، يرى د. فولك أنّ التعذيب غير مقبول ولا قانونـي، لا سـيّما عندمـا لا تكون هنـاك ذريعة للحصول على معلومات عن هجمات وشـيكة. لكنّ التعذيب في نفس الوقت شـائع الى حدّ ما في مثل هذه الحـالات مـن الحـرب غير المتكافئة، حيث يكون للجانب الضعيف فرص قليلة للتعبير عن سخطه وغضبه ضدّ الجانب المهاجِم، أو السعي الى فرض تكاليف باهضـة لمواصلـة هجماتـه. أجـرى لقاء مع أوّل سـفير أمريكي فـي هَنوي، پيت پيتَرسُـن، الذي كان نفسـه أسـير حرب لمدة سـت سـنوات ونصف اعتبارا من عام 1966. كان صريحا في إصراره على أنّ التعذيب كان سمة منتشرة في حياة السـجن. وهي وجهة نظر عبّر عنها أيضا أشـهر هؤلاء السـجناء السِـنَتور الراحل جَون مكَين.

يمضي المؤلف للقول بإنّ القيادة الڤيتنامية، على غرار هَو چي مِنّه، أيّدت بشـكل أساسـي الرأي القائل بأنّ الحكومة الأمريكية، وليس الشـعب الأمريكي، هي عدّوهم، وأنّه بمجرّد أسـر جندي، يجب معاملته بطريقة إنسـانية.على النحو

المنصـوص عليـه فـي القانون الدولي. عقّب د. فولـك على هذه النقطة بالقول، «أشكّ بشدّة في ما إذا كان هذا الخط الناعم قد جرى اتباعه في جميع المواقف، ولكن حتّى التعبير عنه أنتج عقليّة جماعية أفضل بكثير من ميل الدعاية الغربية الى النظر الى شعب أجنبي ككلّ على أنّه العدو، ويمسكهم بشكل فردي ويحمّلهم المسؤولية الجماعية عن سـلوك سـلطاتهم، حتى لو كان النظام الدِكتاتوري لا يسـمح للناس بالتعبير عن رأيهم في تشـكيل السياسـة». وهذا ما دأب عليه بُش الأبـن ونائبـه چَينـي ووزيـر دفاعـه رامسـفيلد في تشـجيع ممارسـة التعذيب في السـجون العلنيـة المذكـورة وفي السـرّية في پولندا ورومانيـا والمجر والمغرب والأردن وسـوريا، لدرجة أنهّم اختطفوا المدنيين من شـوارع روما. ولم يتعلموا الـدرس، إذ افـادت وكالات الأنبـاء بالأمـس عن خطة جنونيـة وقت كان پومپَيو مديرا لوكالة المخابرات المركزية بالتعاون مع المخابرات البريطانية والأسترالية لاختطاف أو قتل جوليَن أسـانج، صاحب الوِكِليكس من سـفارة الإكوادور في لندن. [https://www.alquds.co.uk/%D8%B]

تحدّث المؤلف بامتنان عن دور السفير السويدي في هَنوي، جان كرِستوفر أوبرِگ، نتيجة اتصال عضوة الوفد كورا برئيس الوزراء أولف پالم في استوكهولم، لدوره في تسهيل خطة رحلة العودة عبر الصين الى پكين ومن هناك الى موسكو ثـمّ الـى كوپِنهَيِگـن، ثـمّ ركوب الطائرة المتوجّهة الـى الولايات المتحدة. جلب السفير الصحفيين الدوليين قبلها لعرض الأدلة على أنّ نِكسُن قد بدأ بالفعل قصفا منهجيّا للسـدود في دلتا النهر الأحمر. «لو اسـتمرّ هذا القصف، لكان قد تسـبب فـي فيضانـات كارثيـة والحق الضرر بالمصادر الحيويـة للغذاء، وأدى الى وقوع خسـائر كبيرة في صفوف المدنيين». واجه الوفد بعض الصعوبات في موسـكو نتيجـة حضـور عـدد من اعضاء السـفارة الأمريكية الى المطار، وواجه صعوبات من نوع آخر في كوپِنهَيِگن بسبب رغبة الصحفيين لمعرفة المزيد من المعلومات عن الأسرى وآثار الحرب. إكتفى الوفد بشرح أنّ مهمته إنسانية وليست سياسية، وامتنع الطيارون الثلاثة عن الإجابة عن أيّ من الأسـئلة لأسـباب معروفة. لدى وصول الطائرة الى نو يورك، تمّ احتجاز الأسرى من قبل رجال الپِنتگون، الذين نقلوهم منفردين الى ثلاث سـيّارات كانت تقف على المدرج بانتظارهم، وسـط

دهشة اعضاء الوفد وافراد عائلات الأسرى وغضبهم.

لقد زار د. فولك هَنوي ثلاث مرّات؛ في عام 1968 لحمل رسالة الى قادة ڤيتنام والأخرى عام 1972 ضمن وفد منظمة السلام الأمريكية لمرافقة الضباط الأسرى المُفرج عنهم في هَنوي. أمّا الزيارة الثالثة فقد كانت عام 1999 برفقة زوجته هِليل «للتدريس في برنامج مؤسسة فورد، الذي كان من المُفترض أن يرفع الدبلوماسيين الشباب الى السرعة بصدد التطوّرات الدولية، لمدة اربع ساعات يوميًا على مدار الأسبوع لمدة ثلاثة أشهر». خرج من تلك الدورة بانطباع نقله على الشكل التالي، «الشعور السائد بين الڤيتناميين بالغضب من الصينيين أنّهم قد أطالوا معاناتهم خلال حرب ڤيتنام من خلال تثبيط هَنوي عن السعي لحلّ دبلوماسي. أثار هذا غضب القادة الڤيتناميين، الذين فسّروا الضغط الصيني على أنّه رغبة في أن يواصل الڤيتناميون النضال الثوري ضدّ الولايات المتحدة بتكلفة باهضة لڤيتنام بينما يشغلون واشنطن ويتركون الصين وشأنها». من جهة أخرى وصف العديد من الخبراء الصينيين، الذين التقى بهم في پِكين فيما بعد، له بإسهاب وجهات نظرهم بأنّ، «ڤيتنام كانت حليفا ناكرا للجميل، مؤكّدين أنّ الصين قد سلمت كمّيات هائلة من الإمدادات خلال مجمل الحرب، بما في ذلك المعدّات العسكرية، دون تلقي أيّ تقدير من القيادة في ڤيتنام. كما قيل أنّ الصين قدّمت تلك المعونة في فترة عانى فيها شعب الصين صعوبات اقتصادية شديدة. وعلاوة على ذلك، فإنّ مثل تلك المساعدة كانت تعرّض الصينيين لخطر كبير جرّاء القصف الجوي الأمريكي المتكرّر لخط السكك الحديدية الوحيد بين البلدين». إختتم المؤلف فصله هذا بالقول أنّه، «بعد الحرب الأمريكية في ڤيتنام، كنت متفائلا بشأن مستقبل كلتي الدولتين، لكنّني الآن في خضمّ ترامپ والترامپيين، أخشى على بلدي الأم وبشكل عام بشأن احتمالات بقاء الإنسان».

أكّد المؤلف في فصله الثالث عشر «أنّ الحكومة الأمريكية استخدمت دوافع مختلفة لتجنيد اتباع من صفوف الإيرانيين المتدينين جدّا والناشطين خارج إيران. ممّا لا شكّ فيه أنّ المهارة التكتيكية للخُمَيني أظهرت استعدادا للتحالف مع الدوائر السياسية العلمانية الغربية وحتى اليسارية منها، لتحقيق الهدف الأسمى المتمثل في تحرير إيران من سلالة پهلوي». لكنّ الخُمَيني لم

يكن على وشك القفز من المُقلاة الأمريكية الى المُقلاة السوڤيتية. عندما سعى السفير السوڤيتي للتعبير عن استعداد موسكو للإرتباط بإيران، رفض الخُمَيني [https://www.youm7.com/story/2020/1/14] ذلك بشكل حاسم، لمخاوفه من تدخّل ثان مؤيد للشاه من قبَل الولايات المتحدة مشابه لما جرى مع مصدّق عام 1953.

تحدث د.فولك عن اطلاعه على أراء علي شريعتي، الذي تمّ الترحيب به لاحقا باعتباره فيلسوف الثورة المستقبلية في إيران. من نواحيَ مختلفة، كانت افكار شريعتي تظهر التزامه بالقيم الإشتراكية مع التأكيد بقوّة على الخلفية الثقافية الإسلامية لإيران. ما جعل شريعتي مؤثرا بنّاء هو اعترافه بإمكانيات التعبئة القوية للإسلام مقارنة بأيديولوجية اليسار العلماني، التي كانت تقلق واشنطن. وجد مقتولا في شقته بعد ثلاثة اسابيع من وصوله إلى لندن عام 1977، قبل الثورة الإيرانية بعامين عن عمر يناهز 43 عاما. الرأي السائد أنّ ذلك تمّ على يد **مخابرات** الشاه [https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%B9]، كما تحدّث د. فولك عن صداقته لمنصور فرهَنگ واحلامه التي كانت غير قابلة للتصديق وقد تحققت. «كانت رؤيته الثورية تحرّريّة لخلق مجتمع ديمقراطي تعددي يوفّر حقوق الإنسان للجميع، بما في ذلك التأكيد الطوعي للقيادة الدينية في الحركة الشعبية ضدّ الشاه، والتي اعتبرها الوسيلة الواعدة للتغيير التحولي، بالنظر الى مواقف المجتمع الإيراني». ثمّ استدرك المؤلف قائلا، «كان منصور من أوائل المنفيين الغربيين البارزين من إيران الشاه، الذين أصيبوا بخيبة أمل من الإتجاه القمعي الذي اتخذته القيادة الجديدة». كان فرهَنگ استاذا في جامعة كالِفورنيا.

في السنوات التي سبقت الثورة، تعرّف المؤلف أيضا على أبي الحسن بني صدر، الذي كان يعيش حياة منعزلة على ما يبدو في شقة صغيرة في پاريس «.... حيث أظهر إيمانا ذا رؤية مستقبليّة لإيران مسلمة متحرّرة من حكم الأسرة البهلويّة ومن الرأسمالية الدولية. فاجأني بني صدر على أنّه متواضع وطموح في آن واحد، ولا يخفي أمله أن يكون أوّل رئيس لإيران ما بعد الشاه. كان يعمل على خطة مفصّلة لإعادة هيكلة الإقتصاد الإيراني ليعكس القيم الإسلامية». عندما التقيا لأوّل مرّة، وجده صاحبنا، «حالما لطيفا في الأسلوب وغير سياسي

بشكل غريب في طريقة وجوده في العالم بينما يعيش في المنفى على الرغم منه. لدهشتي، سرعان ما أدرك بني صدر حلمه العظيم بأن يُصبح أوّل رئيس للجمهورية الإسلامية الإيرانية». لكنّ هذا الصعود الإستثنائي سرعان ما اصبح كابوسا بالنسبة له. أجبِر على الفرار من بلده على يد الحرس الثوري المُتطرف في اعقاب استيلاء الطلاب الإيرانيين على السفارة الأمريكية في شهر تشرين الثاني من عام 1979. تُعتبَر قصة بني صدر في رأي المؤلف، «أساسية لفهم الأفكار والشخصيات المتنافسة، التي سعت للسيطرة على الثورة الإيرانية. تروي هذه القصة كيف تمكّن آية الله الخُمَيني بشكل غير متوقع من أن تكون له اليد العليا في تحديد وتشكيل الثورة الإيرانية، وإزالة اللِبراليين العلمانيين من مواقع النفوذ وتحقيق رؤيته الدينية الراسخة في إقامة جمهورية إسلامية بقيادة الزعيم الديني الأبرز». ومن الجدير بالذكر أنّ بني صدر قد توفى [https://www.al-akhbar.com/World/319877] في مطلع شهر تشرين الأوّل من عام 2021 في منفاه في باريس.

تلقى د. فولك دعوة من الحركة الثورية للذهاب الى إيران في ذلك الوقت المضطرب واجراء محادثات مفيدة مع مجموعة واسعة من الشخصيات. اختار لعضوية الوفد كلاً من رامزي كلارك، وزير العدل الأسبق في حكومة الرئيس كارتر والقسّ فِلِپ لِوِس، اللذين يعرفهما من أيام حرب ڤيتنام. في اليوم التالي لوصولهما كتب ما يلي، «إنضم الناشطون الدينيون والعلمانيون، ومشينا متضامنين في أكبر تظاهرة رأيتها على الإطلاق؛ عدة ملايين من المتظاهرين السلميين بدون وجود للشرطة في تجمّع حاشد يسير في شوارع طهران بكرامة هادئة مبتهجا بنعيم الإحتفال العلني بالنصر الثوري المُرتقب». وفي طهران قابل الوفد آية الله طالقاني الذي، «اعترف تماما بالدور الحاسم الذي يلعبه الخُمَيني في تخليص البلاد من الشاه، بينما امتنع عن تأكيد ما بدا أنّه الخط المُتشدّد للخُمَيني بشأن الممارسة الدينية والترتيبات السياسيّة للحكم. بعد ذلك بوقت قصير، أصبح يُنظر الى طالقاني بعين الريبة، إن لم يكن العِداء من قبل الأعضاء القياديين في حاشية الخُمَيني، الذي لا يزال في باريس. قيل لنا أنّ شعبية طالقاني كانت بمثابة تهديد لتصوّر الخُمَيني لمستقبل [https://ar.wikipedia.org/wiki/%D9%85] إيران المُفضّل. توفي طالقاني بعد وقت قصير من زيارتنا

وانتشرت شائعات بأنّه تسمّم».

سافر الوفد حسب الجدول المخصّص له الى مدينة قُمّ وقابل هناك آية الله محمد كاظم شريعتمداري. وهو رجل دين مثقف وشخص يتمتع في الأوساط الدينية بسمعة كونه عالِما إسلاميّا رائدا. كانت المعرفة اللاهوتية والدقة موضع احترام عميق. كان اجتماعا كاشفا تماما، بمعنى أنّ شريعتمداري أثناء ترحيبه بالثورة، امتنع عن ذكر الخُمَيني بالإسم، متنبّها للتوترات اللاحقة واتهامات الراديكاليين الإسلاميين بأنّ رجل الدين المُبجّل هذا، الذي اشتهر بأنّه من عائلة ثرية مالكة للأراضي في مدينة تبريز، قد تنازل عن حقوقه خلال التعاملات العقارية مع قصر پهلوي. «عارض شريعتمداري مشاركة رجال الدين في الحكومة، متمسّكا بفهمه للمبادئ الشيعية التقليدية. وبالتالي كان يُنظر اليه بشكل صحيح على أنّه متشكك في أفكار الخُمَيني وممارساته الدينية، التي تدعو الى سيطرة رجال الدين على الأسس الدستورية للجمهورية الإسلامية». على إثر ذلك اتهمته أجهزة الثورة بالتآمر، كما اتهمته بمحاولة اغتيال قيادات في الثورة، وفُرضت عليه الإقامة الجبرية في منزله، ومُنِع من التدريس في الحوزة، وتعرض أتباعه للتنكيل وتعرّض للضرب والإهانة وتمّ إحراق مكتبته. وبعد تعرضه للمرض تمّ منع اسعافه وعلاجه فتوفي في بيته، ودُفِن سرّا من قبل الأجهزة الرسمية خلال الليل في مقبرة مهجورة. [https://ar.wikipedia.org/wiki/%D9%85]

كان الوفد في مدينة قَزْوين، «وما جعل اليوم مشهودا لا يُنسى بالنسبة لنا جميعا ونحن مجتمعين، هو الإعلان أثناء تناولنا القهوة في نهاية الوجبة بأنّ الشاه قد غادر لتوه البلاد وسلم حكم إيران الى شاپور بَختيار، كرئيس وزراء مؤقت تمّ تعيينه لترأس نوع من مجلس الوصاية الملكيّة في وقت كانت الحركة فيه تقترب من النصر الكامل». عاد الوفد الى طهران على الفور.هبّت الأبواق وعُلِقت ملصقات وافرة معدّة على عجل تعلن النصر من خلال حركة المرور الكثيفة المتزايدة المتدفقة نحو طهران. ظهرت الأعلام الإيرانية فجأة في كلّ مكان، إشارة الى مناسبة إحتفالية ذات أهميّة غيرعاديّة، حين كانت السيارات تأتي بأعداد أكبر وأكبر من جميع الجهات متجهة الى طهران لعرض ومشاركة

سعادتها في هذا التحوّل الدراماتيكي للأحداث. «كما لم يحدث من قبل، شعرت أنّني ألمس النسيج الحيّ للثورة ولديّ إحساس بصنع التاريخ أمام عينيّ. لم يكن هناك شكّ في ذلك. في تلك الليلة على الأقل بتاريخ 16 كانون الثاني من عام 1979، وتحت سماء صافية كانت الشوارع تنبض بالبهجة الثورية. لقد وُلِدت إيران جديدة». تمكن الوفد في اليوم التالي من زيارة بختيار في مكتبه. «لم يكن بَختيار، حتى في غياب الشاه، يدير العرض، ولم يكن من المفترض أن يكون أكثر من بيدق في لعبة شطرنج حيث يتمّ تحريك القطع الرئيسية من قبل الآخرين». كان أحد رموز المعارضة العلمانية قبل أن يتمّ تكليفه من قبل الشاه بتشكيل الحكومة قبيل مغادرته البلاد إثر الثورة. إستمر في منصبه إلى أن رجع الخُميني فأطاح بحكومته فغادر إلى منفاه بفرنسا. شكّل بعدها جبهة المقاومة الوطنية في إيران (NAMIR) [https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%B4) لمعارضة النظام الإسلامي فتمّ بعدئذ إغتياله من قبل حرس الثورة الإيراني بتاريخ 6 ايلول من عام 1991.

سهّل بَختيار تنظيم زيارة للوفد لمقابلة المعتقلين السياسيين في سجن إيڤين الشهير. وهناك قابل د.فولك سجينا منذ خمس سنوات، هو مسعود رجوي رئيس منظمة (مجاهدي خلق). ذكر أنّه أعجب بشخصية رجوي ووجده مشاركا ذكيّا وشابّا نشيطا ومتشوّقا لمناقشة القضايا السياسية الجادّة. وأضاف الى أنّه زار رجوي مرتين في باريس خلال العامين التاليين، وفي المرّة الأولى اجري معه مقابلة نُشرت في مجلة Alternatives. وهي مجلة مكرّسة للقضايا العالمية. «عندما تحدّثنا في إيڤين، كان عازما على سرد قصة منظمته وكم عدد الشباب فيها من الذين (استُشهِدوا) على يد قوات أمن الشاه الدموية». ثمّ أضاف، «لم يتضح [https://en.wikipedia.org/wiki/Massoud_Rajavi] لي أبدا نوع الدور الذي تمنّاه رجوي لنفسه وأيّ نوع من المستقبل لإيران».

قبل أن يغادر الوفد طهران بعد قضاء فترة أسبوعين، قام في اليوم الأخير بزيارة السفارة الأمريكية هناك، لاستطلاع رأيها في وضع البلاد. أخبر السفير سَوليڤَن الوفد، «أنّه حثّ واشنطن على قبول نتيجة الثورة بدلا من الإستمرار في معارضة عقيمة». وأنّه «توصّل الى قناعة مفادها أنّ موالاة الشاه قضية خاسرة، وهو استنتاج رفضه البيت الأبيض وساكنه كارتر»، بتأثير من برِجِنسكي، مستشار

الأمن القومي. عند توديع الوفد في المطار أخبره المسؤول الثوري المرافق بأنّه يمكن للوفد عند توقفه في پاريس في طريق عودته الى بلاده أن يقابل الخُمَيني الساكن في ضاحية Neufle–le–Chateau. إلتقى الوفد بآية الله الخُمَيني حسب الجدول المُعدّ، «بدأت محادثتنا مع الخُمَيني ببعض المجاملات، لكنّها سرعان ما تحوّلت الى محدثات جدّية». الذي حيّر د. فولك هو كيف تحوّل الخُمَيني لدى عودته للبلاد «من زعيم ديني مهتمّ بالقضايا السياسية الى زعيم سياسي شديد التدين».

تلقى د. فولك دعوة من مكتب الرئيس أبي الحسن بني صدر لزيارة طهران ثانية والبحث عن طريقة ما لإمكانية حلّ مسألة رهائن السفارة الأمريكية المُحتجزين منذ فترة هناك. كان مقرّرا أن يضم الوفد أندرو يانگ ورامزي كلارك، غير أنّ تدخّل برِجنسكي عقد المهمة، فاختار د. فولك صديقه إقبال أحمد، أستاذ العلوم السياسية في كلية هامشِر. وصلا الى إيران والوضع يغلي ولم يتمكنا من مقابلة صاحب الدعوة، بني صدر. كتب يقول، «كنت وإقبال سعيدين لمغادرة إيران بعد بضعة أيام مُحبطة. أدركنا تماما أنّ مهمّتنا لم تكن مجدية، خاصّة عندما تشتّت الحكومة بشكل مضاعف بتطهير المعارضة أحيانا بقسوة. وما تبعه كان تعزيز سيطرة القوى الإسلامية الراديكالية على الحكومة من خلال السيطرة على البيروقراطية وبناء المؤسسات، مع تفويض لنشر الإسلام في كلّ زاوية وركن من الثقافة الإيرانية».

وجّه د. فولك لوما شديدا للأمم المتحدة في إقامة إسرائيل والإعتراف بها. «صحيح أنّ اليهود الناجين من الهُلوكوست استحقوا واحتاجوا الى ملاذ آمن، لكنّ ذلك لم يُبرّر، بعد انتهاء الإنتداب البريطاني، تهجير وقهر السكان، وهم أغلبية أهل فلسطين، الذين لم يتحمّلوا أيّة مسؤولية عن الجرائم، التي ارتكبها الأوروپيون ضدّ اليهود». وحسب ما يعتقد، «نجحت إسرائيل في اقناع الغرب بهذه الرواية الوطنيّة، التي تضمّنت بعد ذلك محو الشعب الفلسطيني أو تقديمه على أنّه من العرب المتخلفين القذرين العنصريين، الذين يميلون الى الإرهاب. كان هناك اعتقاد سائد بأنّ إسرائيل تخلق مدينة فاضلة ناشئة على غرار ما يصوّره فِلم Exodus، والتي من شأنها أن تجلب الحداثة الى المنطقة، بينما تتغلب على

كلّ عقبة توضع في طريقها».

اعطى تأسيس إسرائيل المنظمة مسؤولية خاصّة لمتابعة العملية من خلال تحقيق العدالة للفلسطينيين ايضا. ولكنّ هذه المسؤولية لم تتحقق، وتحوّلت الى رعب مروّع لفلسطين والفلسطينيين من خلال السماح لإسرائيل بأن تصبح عضوا في الأمم المتحدة دون التعامل مع المطالبات الفلسطينية على قدم المساواة. برأيه، كان الحدّ الأدنى من التوقعات، بالنظر الى الهوية العربية لفلسطين في عام 1947، هو معاملة الشعبين على قدم المساواة، خاصّة فيما يتعلق باحترام حقوق تقرير المصير القابلة للتطبيق. «لقد جعل هذا الإخفاق الأمم المتحدة متواطئة في جميع التطوّرات اللاحقة». أشار الى لقاء مع گولدا مائير، التي رفضت بنقرة من معصمها الحُمقّ، من وجهة نظرها، من مطالبات الفلسطينيين بإقامة دولة. «لقد أوضحت لأولئك الإسرائيليين الأخلاقيين بعمق والفلسطينيين غير الأخلاقيين الذين لا يهتمّون حتى بأطفالهم، وردّدت لنا روح ملاحظتها السيئة والعنصرية المشهورة بأنّ السلام سيأتي عندما يهتم الفلسطينيون بحياة اطفالهم أكثر من قتلنا!» ثمّ اختتم تقييمه لتلك المقابلة بالقول، «هذه غطرسة أخلاقية عالية المستوى... وكنت مختلفا عن ذلك الحشد حين استمعت وشعرت بالغربة من نبرة ومحتوى ما كانت تقوله».

تحدّث الكاتب عن مسؤولية الأمم المتحدة اتجاه الشعب الفلسطيني، والتي تمتد من نهاية الإنتداب البريطاني على فلسطين لإيجاد حلّ عادل لكلا الشعبين. ثبت انّه من المستحيل تحقيق هذا الهدف بمجرّد اضفاء الشرعية على الفرضية الصهيونية الرئيسية المتمثلة في إقامة دولة يهودية بالقوة في مجتمع غير يهودي في الأساس، كعنصر لا يمكن تحديه في أيّ إطار دبلوماسي لحلّ الصراع عل الهوية الوطنية للمنطقة. إذا تمّ أخذ هذا الواقع في الإعتبار، فقد وقع الفلسطينيون على مدى عقود ضحية لنهج الأمم المتحدة هذا، بما في ذلك اقتراح التقسيم الذي قدمته الأمم المتحدة عام 1947، في حين تمكنت إسرائيل من الإزدهار اقتصاديا وسياسيا والتوسّع المستمرّ، وفي نفس الوقت التظاهر بأنّها ضحية معاداة السامية العالمية المفترضة كما تجسّدها الأمم المتحدة. مثل هذه الدعاية التحريفية، تذكّر العالم بأنّه لا ينبغي نسيان الهُلوكوست، بينما تبذل إسرائيل

فـي الوقـت نفسـه قصـارى جهدها لإنكار الرؤيـة الأخلاقية والسياسـية، ناهيك عن المساءلة عن النكبة الفلسطينية وحقوق سكان البلاد الأصليين والعديد من المظالم الناتجة عنها، بما في ذلك على وجه الخصوص تلك المرتبطة بالعنصرية والفصل العنصري الإسرائيلي.

من المهمّ أن نلاحظ أنّ إثنين من أكثر المعارضين للفصل العنصري محبوبين على المستوى العالمي وهما نِلسُن مَندَيلا ودِزموند توتو. «كلاهما رأيا في معاملة إسرائيل للشعب الفلسطيني جريمة من نواحيَ كثيرة يمكن مقارنتها، إن لم تكن أسـوأ، من المعاملة الأفريكانية للسـود في جنوب افريقيا». وقد فتح هذا الرأي باب النقاش الحاد في الأوساط المعنية. بالنسبة له، فإنّ معاداة السامية الجديدة هي حيلة جدلية شريرة، لا أكثر ولا أقلّ، لها تأثير جانبي مؤسف يتمثل في طمس الحدود بين الدعاية الصهيونية الموالية لإسرائيل ومعاداة السامية الحقيقية. «هذه الطريقة في تشويه سمعة من ينتقد إسرائيل تضاعف من السجلّ الطويل للعلاقات الصهيونية الإنتهازية مع معاداة السامية، سواء مع النازيين لدفع اليهود الى الهجرة الى إسرائيل أو مع المسيحيين الإنجيليين أو الحكومات الدكتاتورية واليمينية في جميع انحاء العالم. بينما تلطِخ منتقدي أنماط الجريمة الإسـرائيلية في الإسـاءة الى الشعب الفللسطيني، كانت الصهيونية مستعدّة لإقامة قضية انتهازية مشتركة مع أولئك الذين يتبنون في الواقع كراهية اليهود».

أرجـع المؤلـف تعاطفـه مـع القضيـة الفلسـطينية الى إدوارد سـعيد. كانت الصداقـة معـه عامـلا بفعل القوّة المشـتركة لحججه وقوّة شـخصيته. بعد حرب 1967 عندما انخرط في البداية علنا مع الحركة الوطنية الفلسـطينية، وسـرعان ما تّم تحديده على أنّه المفكّر الفلسطيني الرائد في الأوساط الأمريكية والأوروبيّة لتحـدّي الإجمـاع المؤيّـد لإسـرائيل مـن خلال سلسـلة من الكتـب، التي تمّت مناقشـتها جيّـدا، وخاصّـة The Question of Palestine الـذي صـدر عـام 1978. تضمّـن هـذا الكتـاب نقـدا مُدمّرا لتأثيـر الصهيونية على فلسـطين ورواية مروّعة عن الضحية الفلسطينية ورؤية مصاغة بطريقة إنسانية لكيفية قيادة هذين الشعبين للعيش معا بشكل لائق في تعايش سلمي. «ولكي يحدث هذا، أصرّ سعيد على أنّ روح المسـاواة يجب أن تسـود أيّة ترتيبات سياسـية يتمّ الإتفاق عليها. إقترن

سعيد بتصويره لمظالم تجريد الفلسطينيين من ممتلكاتهم مع الإعتراف بضرورة قبول الوجود اليهودي في البلاد وعدم الطعن فيه. في الوقت ذاته، إعتقد سعيد أنّ السلام المُستدام لا يمكن تحقيقه إلّا إذا اعترفت إسرائيل بإيذاء الفلسطينيين بشكل كامل ورسمي وبصيغة مفتوحة وعلنيّة». وحسب رأيه، فإنّه على الرغم من أنّ سعيد لم يتقدّم باقتراح، فإنّ نهجه لو تمّ التصرف بموجبه، لربّما أدّى الى انشاء لجنة الحقيقة والمصالحة، التي شعر الكثيرون أنّها سهّلت الإنتقال في جنوب افريقيا بعد انهيار نظام الفصل العنصري. من منظور الحاضر، من الواضح أنّ رؤية سعيد قد فشلت في الأخذ بعين الإعتبار الأولويّات التوسعيّة والتواطؤ الجيوسياسي للولايات المتحدة، فضلا عن الإخفاقات التكتيكية للقيادة الفلسطينيّة. لقد اعتبر أنّ نوايا إسرائيل الحقيقية قد تمّ نقلها من خلال الممارسة في الخطاب الإسرائيلي الداخلي للإشارة الى الضفة الغربية باسم «يهودا والسامرة»، أي كجزء لا يتجزّا من استحقاق اسرائيل التوراتي المزعوم، والغاء القناعة الدولية الراسخ بأنّ الحلّ الوحيد كان على التقسيم الإقليمي. ثمّ استشهد بمقال صحيفة نو يورك تايمزتحت عنوان، «إسرائيل تحاول إسكات منظمات العمل المدني الفلسطيني للتغطية على جرائمها والاستيطان» [https://www.alquds.co.uk/%d9%86]

تمّ اختياره وتعيينه تحت ظروف معيّنة مقرّرا لحقوق الإنسان في فلسطين المحتلة لمدة ست سنوات. وهو منصب طوعي مجّاني بلا مرتّب. ذكر أنّه أصدر 12 تقريرا خلال فترة توليه المنصب، قوبلت جميعا بالإستنكار وتعرضت للهجوم من قبل إسرائيل والولايات المتحدة. قال، «ويمكن تلخيص جهودي على النحو التالي: قول الحقيقة واستخلاص النتائج المناسبة فيما يتعلق بالقانون الدولي وحقوق الإنسان من الحقائق التي كشفت عنها الأدلة المُستمدّة من بلادي». بصدد نقده لمنظمة الأمم المتحدة، قال، «إفترضت خطأ أنّ العقلانية والموضوعية ستسودان على المشاعر والحسابات السياسية الفجّة والإصطفافات الجيوسياسية على الأقلّ في مواقع الأمم المتحدة، التي يُفترَض أنّها مكرّسة لتعزيز حقوق الإنسان والإلتزام بالقانون الدولي». ثمّ شدّد على وجود خوف دائم من إغضاب إسرائيل المتسلحة بحجة «معاداة السامية». واذا صدر نقد

لسـلوكياتها من قبل شـخص يهودي، كما في حالته، فهو «يهودي يكره نفسـه!» ثمّ يمضي للقول، «في كلّ منعطف، إلتقيت بمسؤولين كبار وجدتهم يميلون لجرّ أقدامهم للخلف لتجنّب الدوس على أصابع الإسرائيليين».

ثمّ تابع د. فولك القول، «والإصلاح والسلام العالمي ليس ما تدور حوله الأمـم المتحـدة في سـلوكها السياسـي. لكنّك لن تكتشـف ذلـك أبدا من خلال الإستماع الى الخطب التي تُلقى باستمرار في قاعاتها، أو قراءة اللغة المستخدمة في وثائقها الرسـمية. تتمّ الأعمال الجيدة للأمم المتحدة على هامش السياسـة العالميـة فـي الـوكالات المتخصّصـة، التـي تتعامل مـع الصحة والبيئـة والثقافة وحقوق الإنسان والتنمية الإقتصادية والتعليم». [https://documents–dds–ny.un. /org/doc/UNDOC/GEN/G09]

زار د. فولـك لأول مـرة غـزّة بصحبـة إقبـال أحمد في منتصف التسـعينات لحضـور مؤتمـر حـول حقـوق الإنسـان، الـذي عُقـد فـي هـذه الأرض المُعذبة والمزدحمة والفقيرة. وزارها ثانية ضمن بعثة أممية ثلاثية لتقصّي الحقائق حول «مجموعة متنوّعة من الإدعاءات المرتبطة بإدارة إسـرائيل لغزّة. كان تركيز هذه البعثة الخاصّة بناهو التحقيق في الإتهامات بممارسة إسرائيل وسيطرتها الإدارية على غزّة، واعتمادها على القوة المُفرطة والعقاب الجماعي والتكتيكات القمعية في انتهاك اتفاقية جنيف الرابعة.... لم تكن لدينا مشكلة في التوصّل الى اتفاق في الآراء بشأن الإدّعاءات الرئيسية. وجدنا الدليل على لجوء إسرائيل المتعمّد على القوة المفرطة والعقاب الجماعي في غزّة ساحقا وواضحا بحيث لا يتطلب الكثيـر مـن النقـاش، ويدعو فقط الى تقديم فعّال للأدلة التي دفعتنا الى الوصول الى تلك الإستنتاجات». اكتشف خلال العقد التالي عندما تولى منصب المقرّر الخاصّ للأمم المتحدة المعني بحقوق الإنسـان في فلسـطين المحتلة بعد جون دوگارد في عام 2008، أنّهم واجهوا محنة إنسانية مروّعة في غزّة ساءت فيما بعد.

لاحـظ د. فولـك أنّ الدبلوماسـيين الإسـرائيليين لا يظهـرون أيّ تـردّد في مهاجمة الأمم المتحدة أو المبادرات الفلسطينية، بوقاحة وعدوانية. من المؤكّد أنّ الإعتـداءات الإسـرائيلية على الشـرعية وتحدّي الإجمـاع الدولي فيما يتعلق بحقوق الفلسـطينيين تؤدي الى إحباط دبلوماسـي، ممّا يؤدي الى طرح قرارات

مؤيـدة للفلسـطينيين فـي الجمعيـة العامـة وأحيانـا حتى في مجلـس الأمن تنتقد إسـرائيل، ولكن دون تأثير يُذكر وبدون عواقب وخيمة ملموسـة على إسـرائيل. هنـاك عواقـب وخيمـة، ولكـن ليـس علـى إسـرائيل! إنّ تأثير تجاهـل مثل هذه القرارات قد سـاهم في إضعاف القانون الدولي وسـلطة الأمم المتحدة بشـكل عـامّ. عندمـا يتـمّ إنتهاك القواعد الدولية المهمّة بشـكل خطيـر، وبعد ذلك على الرغم من الكشـف عنها وتأكيدها، لا يحدث شـيء، فإنّه يُلقي بظلال من الشـكّ علـى مـا إذا كان مـا يُعتبـر قانـون حقا. ما إذا كانت الحدّة غير المسـبوقة للجدل قبل الضمّ في منتصف عام 2020 سـوف تغيّر النمط، الذي تتعين رؤيته من قِبل كلي الجانبين- ما إذا كانت إسرائيل تتراجع لأكثر من فترة زمنيّة مناسبة. وإذا لم تكن كذلك، فهل سـيكون هناك أيّ ردّ فعل جادّ فلسـطيني أو إقليمي أو مجتمع مدني أو عالمي، بما في ذلك تبنّي سياسة دولية لفرض العقوبات، حسب قوله.

رأي د. فولـك أنّ الفلسـطينيين قـد وقعـوا علـى مـدى عقـود ضحيـة لنهج الأمم المتحدة، بما في ذلك اقتراح التقسيم ذاته،الذي قدمته الأمم المتحدة عام 1947، في حين تمكنت إسرائيل من الإزدهار اقتصاديا وسياسيا وتوسّعت بشكل مستمرّ. وفي نفس الوقت تظاهرت بأنّها ضحية معاداة السامية العالمية المفترضة كمـا تجسّـدها الأمـم المتحدة. «مثل هذه الدعايـة التحريفية، تذكّر العالم بأنّه لا ينبغي نسـيان الهُلوكوسـت، بينما تبذل إسـرائيل في الوقت نفسه قصارى جهدها لإنكار الرؤية الأخلاقية والسياسـية، ناهيك عن المسـاءلة عن النكبة الفلسـطينية وحقوق سكان البلاد الأصليين والعديد من المظالم الناتجة عنها، بما في ذلك على وجه الخصوص تلك المرتبطة بالعنصرية والفصل العنصري الإسرائيلي».

بعـد فتـرة قصيـرة مـن انتهاء عمله كمقرّر خاصّ، إتصـل به ممثل المجلس الإقتصادي والإجتماعي لغرب آسيا (العالم العربي) «الأسكوا» ESCWA للقيام بمشـروع بحثـي علـى أسـاس عقـد للتحقيـق في مزاعـم بأنّ إسـرائيل، بموجب القانـون الدولـي، مذنبـة بارتـكاب جريمـة الفصل العنصري. أقنـع ڤِرجينيا تِلي، عالمة السياسـة البارزة، بالإنضمام اليه. كان اسـتنتاج الدراسـة المركزي هو أنّ مزاعـم الفصـل العنصـري كانـت مُبرّرة، وبالتالي اسـتلزم ذلك قيام مسـؤوليات الحكومات والمؤسسات الدولية والشركات والأفراد للعمل ضمن اختصاصاتهم

لوضـع نهايـة للفصل العنصري الإسـرائيلي المفـروض. وبمجرّد صدور التقرير بتاريـخ 15 مـارس مـن عـام 2017، انتـج عاصفة من ردود الفعل بقيادة إسـرائيل والولايـات المتحـدة. زُعِـم أنّ إدعاء الفصل العنصري يرقى الى معاداة السـامية في أسوأ صورها. وكالعادة تمّ إطلاق هذه التهمة الجاهزة دون أيّ فحص للأدلة والتحليـل فـي التقريـر المذكور، ودون تقديم حجـج مضادة. كان مدى الغضب الدولي هِسـتيريّا ومنافقا. «بالتأكّد أنّ الفصل العنصري الإسـرائيلي مختلف عن الفصـل العنصـري في جنوب أفريقيـا، ولكنّه يحتوي على نفس العنصر المحدّد لعنصر آخر أو عِرق مهيمن يُخضِع عرقا آخر ويُجبره على العيش بشكل جماعي في بانتوسـتانات Bantustans، حتى يتمكّن من الحِفاظ على المزايا الإسـتغلالية للسيطرة الآمنة من خلال أُيذاء العِرق المقهور». [https://documents-dds-ny.un.org/doc/UNDOC/GEN/G09]

إختتـم د. فولـك فصلـه الرابع عشـر بالقول إنّه يبغي أن يُسـلط الضوء على الأهميـة الأخلاقيـة للنضـال الفلسـطيني. مـع مراعـاة أنّـه في اعقـاب المحرقة، وعندما تمّ إنشـاء إسـرائيل، فضلت المشـاعر القوية في الغرب إنشـاء ملاذ قومي آمـن لليهـود، ممّـا اعطـى تعهّدا بمناهضة الإبادة الجماعيـة بصمام أمان إقليمي. «ومع ذلك لا يمكن استخدام مثل هذه الحجّة بشكل صحيح كمبرّر لتهجير أفراد شعب آخر بالقوة من أراضيهم ومنازلهم، ثمّ إقامة دولة عرقية حصرية مكانهم، ودون موافقتهم». [https://www.alquds.co.uk/%d8%a7%d9]

ذهب صاحبنا الى اوروپا لقضاء العطلة الصيفية وعاد الى جامعة ييل ليكمل سنته الثالثة والأخيرة لنيل شهادة الماستر. كانت برفقته فتاة كندية جميلة حامل، التقى بها في القطارالمتوجّه من شـمال اليونان الى اسـطنبول. تزوجا فولدت له طفلـه الأول كـرِس. عـاد د. فولـك الـى اسـطنبول بعـد 40 عامـا كعضو في وفد مدنـي للتحقيـق في انتهاكات خطيرة لحقوق الإنسـان الأساسـية. «أراد الأكراد، الذين التقينا بهم أن يُعاملوا كأمّة داخل الدولة التركية، ولكن بترتيبات حكم ذاتي يعترف بهويتهم العرقية والثقافية دون قطع العلاقات الرسـمية مع تركيا». كانت الحكومـة التركيـة تقاتـل حزب العمّال الشـعبي PKK. وهو حركة نضال مسـلح يزعم أنّه يسـعى [https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%AD%D8] الى إقامة دولة

كرديّة مستقلة ذات سيادة في شرق تركيا. هذا الحليف المهمّ في الناتو خلال الحرب الباردة، كان يمتلك في ذلك الوقت سجلّا مروّعا في مجال حقوق الإنسان. «لقد كانت لحظة تعلم أخرى أدركت فيها أنّ (العالم الحرّ) كان حرّا فقط بالقدر الذي تحدّده الأولويات الجيوسياسية».

كانت تركيا في عام 1992 مختلفة بشكل لافت للنظر عن تجربة تركيا التي ظهرت منذ عام 2002، ممّا أدّى الى إزالة النخب السياسية العلمانية وتحويل مركز السلطة السياسية من المدن الحضرية في الغرب الى الريف والداخل من البلاد. ولم تتمّ ملاحظة هذا التحوّل بشكل كاف. بحلول الوقت الذي غادر فيه مالطا بعد أربعة أيام، «كنت منشغلا عاطفيا بِهلِيل إلقر، التي ستصبِح في العام التالي زوجتي الرابعة وتغيّر حياتي بشكل دائم وفي طرق أساسية وربطتني بإحكام والى الأبد بتركيا».

إنغمس على الفور في السياسة التركية وتابعها لمدة 20 عاما بحكم وجوده المتكرّر في البلد، كان موجودا في إسطنبول ليلة وقوع الإنقلاب العسكري الفاشل عام 2016. اقام علاقات متشعبة شملت أحمد داود أوگلو، الأكاديمي والسياسي والدبلوماسي، الذي اصبح رئيس الوزراء السادس والعشرين باعتباره رئيسا لحزب العدالة والتنمية للفترة بين 2014– 2016. كان د. فولك يقضي الصيف مصحوبا بزوجته في إسطنبول، حيث تسكن عائلة الزوجة. يُخبرنا قائلا، «لقد أدركت أنّه بالنسبة لبعض الأتراك المناهضين لإردوان منذ وصل الى السلطة عام 2002، فإنّ أيّ اعتراف إيجابي بانجازات حزب العدالة والتنمية أو قيادة إردوان هو بالنسبة لهم لعنة»، وأنّه سيتم التخلص منه بنهاية فترة رئاسته الأولى عام 2006. أبدى د. فولك إعجابه بفكر أحمد داود أوگلو، «كان أحمد في محاضراته ومناقشاته واضحا في أنّه يعتقد أنّ تركيا الجمهورية ارتكبت فعلا خطأ فادحا من خلال قمعها تربويا وسياسيّا دراسة وتقدير الماضي الثقافي لتركيا العثمانية. لقد شعر بقوة أنّ تركيا لا تستطيع المضيّ قدُما كدولة ما لم تدمج وتطالب بملكيتها الثقافية على ماضيها التاريخي الطويل كإرث يُفتخَر به، وحتى بشكل أكثر أهمية كجزء حيوي من هويتها الوطنية الحالية».

لدى المقارنة بين قادة تركيا، «ظهر أنّ إردوان كان مدركا لإرثه في بعض

الأحيان، سواء فيما يتعلق بامجاد السلاطين العثمانيين العظماء، أو الظلّ الطويل الـذي ألقـاه أتاتـورك بتأسـيس تركيـا الجمهورية واشـكال احترام تركيا لسياسـة الولايات المتحدة الخارجية وحلف شمال الأطلسي، الذي هو من إرث الحرب الباردة. في أوقات أخرى، عندما واجه ضغوطا من الداخل والخارج، اظهر ميولا براگمتية، بل وانتهازية مرتبطة بإحكام قبضته على مقاليد السلطة دون إيلاء الكثير من الإهتمام لوجهات النظر الأيديولوجية». ولكن مع ذلك لا يزال إردوان يتقدّم الصفـوف فـي الإحتفالات السـنوية التي تُجـرى تكريما لأتاتورك في 19 من أيار في كلّ عام [https://www.aa.com.tr/ar/%D8%AA].

لقـد وجـد الكاتـب أنّ أكثـر البدائل ملائمة وإثـارة للإهتمام هو أحمد داود أوگلو، الذي التقى به في ماليزيا قبل أكثر من 30 عاما. «يعكس هذا جزئيا صداقتي الطويلة معه والتي سـمحت لي بالتعرّف أكثر على وجهات النظر السياسـية التي يفضّلها والثقة الإستثنائية في الشخصية والذكاء والشجاعة والنزاهة والتفاني من أجل تركيا، التي تبني على ماض شامل، وتجمع بين التراث العثماني وأتاتورك، مـع الإلتـزام بحاضـر شـامل [https://www–urdupoint–com.translate.goog/daily/livenews/2016–03–05] يتّسـم بالتعدّديّة ويحمي حقوق الإنسـان ويُراعي احتياجات الناس وسمعة الأمة».

فـي النهايـة ودون أن يحـاول، اصبـح يُنظر اليّه الـى حدّ ما في تركيا كداعم أمريكي لإنجراف الدبلوماسـية التركية ونظرتها للعالم. كانت هذه الرؤية تقريبا نتيجة صداقته مع أحمد، الذي دعاه ليلعب هذه الأدوار المرئية الى حدّ ما علنا. «فـي البدايـة لـم يكن هذا الظهور ملحوظا بشـكل خاصّ إلا داخل تركيا. ولكن مع اشـتداد الإسـتقطاب في الفترة التي أعقبت الإنقلاب الفاشـل في عام 2016، أصبحت مثيرا للجدل في الشتات التركي». نظر البعض اليه بأنّه تدخل في شؤون بلدهم واعتبروا اعتماد مسـؤولي حزب العدالة والتنمية في طلب المشـورة منه وتكليفه بعقد المؤتمرات ضربا من الإنتهازية، لأنّه لا يعرف اللغة التركية أصلا ولا يمكنه أن يفهم بعمق ما يجري حوله.

يعترف د. فولك بأنّ، «آرائي المتطرفة حول التطوّرات السياسية التركية في فترة حزب العدالة والتنمية هي رمز لنضالي. يتمّ الحفاظ عليها بتكلفة إجتماعية

ويُفقدهـا الخصـوم مصداقيتهـا، أوّلا مـن خلال المبالغة فيها وإسـاءة فهمها، ثمّ من خلال رفضها». ثمّ يعترف ايضا بأنّ زوجته، «هِليل قد إعترضت أحيانا على جهودي للنظر في إيجابيات وسلبيات حزب العدالة والتنمية، وتكافح هي نفسها لإيجاد توازن بين خلفيتها العلمانية وشعورها بتركيا السياسية، التي لم تولد لحدّ الآن بدائل موثوقة لإردوان».

قام الجيش بحراسـة الجمهورية، التي أسسـها كمال أتاتورك. لكنّ الشـعور المُعبّـر عنـه هـو أنّ سـنوات حكـم حـزب العدالـة والتنميـة قـد غيّـرت القوات المسـلحة التركيـة الـى حـدّ أنّهـا لم تعد قادرة على تقديم مسـاعدات إيجابية في المشـهد السياسـي التركـي، حتـى فيما يتعلق بالسياسـة الخارجيـة وبالتالي فهي ليسـت كذلـك. «يُنظـر الـى هذه القوات على أنّها ليسـت مدفوعـة أو قادرة على شنّ إنقلاب». غير أنّ الإنقلاب حدث عام 2016 بتاريخ 15 تموز وفشل وجرى على إثره ردّ فعل قويّ. كان حجم عمليات التطهير الناتجة عن ذلك غير مُبرّر، حيث تضمّنت سجن أو فصل آلاف الموظفين الحكوميين، لا سيّما في الشرطة والقضاء والقوات المسـلحة. وكذلك أيضا في المؤسسـات التعليمية الحكومية ووسـائل الإعـلام. مـن الواضـح أنّـه كان ردّ فعل مبالغ فيه، حتـى مع الإعتراف بوجـود تهديـدات أمنيـة حقيقيـة. اشـار أحـد المقـالات الى اعتقـال 427 قاضيا ومدعيا عاما على خلفية محاولة الانقلاب الفاشلة. [https://aawsat.com/home/article/3321266] لمّـح د. فولـك الـى أنّ وكالـة المخابرات المركزية ربّما كانت لها يد في الإنقلاب بدليل أنّ الوكالة «ضغطت قبل عشرين عاما للحصول على تصريح إقامة (البطاقة الخضراء) لفتح الله گولِن حين سعى للجوء في الولايات المتحـدة، وتمكّـن من التغلب على معارضة مكتب التحقيقات الفدرالي ووزارة الخارجيـة. كان مـن الواضـح أيضا أنّ الديمقراطيات اللِبرالية في الغرب لم تُعبّر عن دعم قوي للحكومة المُنتخبة ديمقراطيا في تركيا خلال الإنقلاب في تموز. كان هذا صادما».

بعـد فـوز حـزب العدالـة والتنمية في الانتخابات النيابيـة في تركيا في عام 2002 اسـتخدمت إدارة جـورج بُـش الإبـن مصطلـح «النموذج التركي» لتسـليط الضوء على حكومة تركيا الإسلامية المعتدلة التي تدعم الديمقراطية وتقف مع

الغرب. وجهة النظر هذه تمثّلت بمضاعفة الرئيس بُش ووزير خارجيته كولِن پاوِل جهودهما لمساعدة تركيا على بدء محادثات الانضمام إلى الاتحاد الأوروبي. وبحسب الفاينئشل تايمز، استثمرت إدارة بُش الكثير في نجاح الحكومة التركية الجديدة، والتي نظرت إليها الدول الأخرى في جميع أنحاء العالم الإسلامي كنموذج للإدارة الإسلامية في ديمقراطية علمانية. لكنّ الحزب يواجه اليوم أزمات داخلية وخارجية هي الأولى منذ تولّيه الحكم. وأكثر ما يقلق إردوان اليوم أنّ الوقت لا يقف في صفّه. فمع مرور الوقت تزداد المشاكل المحيطة بالرئيس التركي وتزداد الضغوط عليه داخليا وخارجيا.

المعارضة هذه المرة مجتمعة وتسعى للاتفاق على مرشّح واحد في وجه إردوان على عكس الانتخابات السابقة في عام 2018 التي ترشّح فيها 6 لمنصب رئاسة الجمهورية. فهذه المرة تتشكّل المعارضة من تحالف يضم كلاً من حزب الشعب الجمهوري والحزب الجيد وحزب السعادة والحزب الديمقراطي وحزب الديمقراطية والتقدم بقيادة نائب رئيس الوزراء السابق علي باباجان وحزب المستقبل الذي يتزعمه رئيس الوزراء السابق أحمد داود أوگلو. بالإضافة إلى هؤلاء هناك سعي إلى إشراك حزب الشعوب الديمقراطي الموالي للأكراد في التحالف المعارض. إنّ تبلور هكذا تحالف يقلق إردوان كثيرا خاصة بعد تجربة الانتخابات المحلية في عام 2019 التي أدت إلى فوز المعارضة في المدن الرئيسية مثل أنقرة وإسطنبول، وهو ما شكّل صدمة كبرى لحزب العدالة والتنمية. هذا وكانت ميرال أكشينار، زعيمة الحزب الجيد، قد أعلنت سابقا أنّها ليست مرشحة للرئاسة بل هي مرشحة لرئاسة الحكومة بعد فوز المعارضة بالانتخابات وإعادة النظام البرلماني إلى البلاد [https://www.al-akhbar.com/Opinion/324315].
بقي أن أشير الى أنّ د. فولك تناول قضيتي الإبادة الجماعية للأرمن ودعم حقوق الأكراد. لكنّه تراجع عن الأولى حين ذكر فيما بعد، [https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%A7%D9] «لا يمكن أن تكون هناك جريمة ما لم ينصّ عليها قانون سابق». وتراجع عن الثانية حين قال مبرّرا، «لم ارسم بوضوح التمييز الحاسم بين تقرير المصير المُمزّق للدولة، وتلبية مطالب تقرير المصير داخل الدولة القائمة، هو في الأساس نداء من أجل الحقوق الجماعية [https://www.dw.com/]

ar/%D9%85%D8%B4%D8] للمساواة والحكم الذاتي».

إختتم د. فولك فصله الخامس عشر بتذكّر بعض الأحداث الإجتماعية غير السارّة في پِرنستُن حيث تعامل بشكل حادّ مع المدافعين عن الفصل العنصري في جنوب أفريقيا. «أقنعتني تلك المواجهات بأنّ النقاشات بين وجهات النظر المتعارضة جدّا ليست أكثر من قضايا عبثية قد توفّر شكلا ضارّا من الترفيه للجمهور. لكنّها تركتني أشعر بعدم الرضا الشديد وأحيانا بالغثيان».

خصّص د. فولك بداية فصله التالي ليتحدّث بإسهاب عن تأثيرصديقيه، شاؤل مِندلوڤِتز ودَيڤِد كريگر ومشروعيهما عن نماذج النظام العالمي أو WOMP ومؤسسة السلام في العصر النووي NAPF، في بلورة افكاره التقدمية لأوّل مرة. توصّل مبكرا الى استنتاج مفاده بأنّه، «يجب أن نكون مستعدّين لمواصلة الفشل إذا أردنا التمسّك بآمال النجاح في وقت ما».

استعرض أوّلا افكار المساهمين في حركة شاؤل عن الحوكمة العالمية WOMP. مَثّل الصين پول لين، وهو باحث يدرّس في كندا، لكنّه انضم الى الحركة الثورية الماوية التي وصلت الى السلطة في البرّ الرئيسي الصيني في عام 1949. كان ذلك قبل عقود من احتضان التحديث، الذي جاء في أواخر السبعينات بتوجيه من دانگ شياو بِنگ. دعا لين الى التفاعل بين السلام والتنمية، مع اهتمام أقلّ بحقوق الإنسان والديمقرطية، لكنّه شارك موسكو الأمل في استقرار القوى العظمى.

كان راجني كوثري المشارك في حركة WOMP من الهند، مهتمّا في المقام الأوّل بالتنمية الإقتصادية في سياق ديمقراطي، مع توجيه بصره نحو التعاون الإقليمي. على النقيض من ذلك فضّل زعيم المجموعة الأفريقية، علي مزروعي المولود في كينيا، بشدّة هوية افريقية أصيلة لمرحلة ما بعد الإستعمار واستعادة تقاليد جنوب الصحراء التي قمعها الحكم الإستعماري، بما في ذلك الشعور بالفضيلة العسكريّة والفخر الثقافي. أراد المشارك الياباني يوشيكازو سَكاموتو، قبل كلّ شيء تشجيع الإيمان بالديمقراطية وقوة الحركات الإجتماعية لإحلال السلام ومحاربة النزعة العسكرية في العالم. سعى سَكاموتو الى استعادة الكبرياء الوطنية اليابانية من خلال التأكيد على نظرة عالمية غير إمپريالية للعالم موجهة

نحو السلام واعتذارية اتجاه بقية آسيا، للتعويض عن قسوة اليابان وعسكرها الإمبريالي سابقا.

وأخيرا أكّد فريق أمريكا اللاتينية على هدف المشاركة في النظام العالمي، بالشكل الذي يعزّز التمكين الجماعي لمنطقتهم، والذي استلزم رفع عبء الهيمنة الأمريكية، التي جعلت أمريكا اللاتينية قارة منسية غير مُعترف بها تقريبا في البيئات والأوساط العالمية. إعتقد أولئك الذين يمثلون أمريكا اللاتينية في حركة WOMP، أنّه من الضروري تعزيز شكل قويّ من الإقليميين يستبعد أمريكا الشمالية، ممّا يسمح لبلدان القارة بأن تكون لها اصوات مستقلة خارج حدودها الوطنية.

كما هو الحال مع شاؤل، كان لِدَيڤِد هدف شامل وثابت، هو إلغاء الأسلحة النووية في إفق زمني قصير وغير واقعي. اعطى هذا التركيز تماسكا ومعنى لعمله وغرس إخلاصه العميق وحوّل كتاباته وقراءته للشعر. لم يبتعد تيار كتاباته المستمرّ على مرّ السنين عن الحاجة الى تفعيل الأجندة السياسية والأخلاقية لنزع السلاح النووي ومقاومة سياسات الترويج له على الصعيدين الوطني والدولي. على عكس شاؤل، الذي كان عضو هيئة التدريس لفترة طويلة مع احترام للعمل الأكاديمي، كان دَيڤِد متشكّكا فيما إذا كانت الدراسة الأكاديمية يمكن أن تفعل الكثير للعالم بخلاف ملء رفوف المكتبات بالكتب غير المقروءة. كان دَيڤِد أكثر إيمانا بالنشاط القانوني غير العنيف والمساعي الصحفية والشِعر وخطوات نزع السلاح النووي التي اتخذتها المؤسسات القائمة. على الرغم من انخراط شاؤل العاطفي المكثف حول مستقبل سلمي للبشرية، لم يبتعد أبدا عن برجه العاجي حيث سادت انواع مختلفة من الفلسفة الهيگلية المصحوبة بإيمان خاصّ بتلك الأفكار الكارزمية التي حان وقتها. تشارك كلّ من دَيڤِد وشاؤل إيمانا لا يتزعزع في صحة وأهمية رؤيتهما. لم يكن أيّ منهما راديكاليا سياسيّا، على الرغم من أنّهما كانا ينتقدان التجاوزات الرأسمالية، إذا تمّ الضغط عليهما. لقد كانا من ابناء عصر التنوير، مؤمنين من اعماق وجودهما بأنّ الحقائق والأدلة والتفكير العام الواضح والإلتزامات العاطفية ومستوى معيّن من الضغط على الإثرياء الخيّرين، يمكن أن يجعل القادة السياسيين في النهاية أن يفعلوا الأشياء الصحيحة. كانت

لديهما ثقة في استعداد النخب السياسية وحتى الإقتصادية، إذا تمّ دفعها بشكل كاف من الأسـفل والأعلى، لقبول الحاجة الى التغييرات التي قاوموها بشـغف. إقترن مثل هذا التأكيد عل إمكانات اصلاح النظام السياسـي الحالي بدعم حذر ومنفصل الى حدّ ما ومشاركة ضئيلة في سياسات الحركة التي تؤكّد المزيد من الأجندات الهيكلية المتعلقة بالعدالة الإجتماعية والإقتصادية.

أمّا موقفه من آراء صديقيه فقد لخصه كالتالي: «في كافة هذه النواحي، كان لديّ فهم مختلف لكيفية حدوث التغيير الجذري ووضعت آمالي والتزاماتي في ثـورات مـن الأسـفل تحتوي علـى الطاقات الثورية وتطـرح مطالب جذرية. من المسلم به أنّ مثل هذه الثورات البركانية كانت تاريخيّا أقلّ من التوقعات بالتغيير حتى عندما نجحت في قلب النظام القديم. ومع ذلك، بهذا المعنى الأساسـي، علـى الرغـم مـن أنّه ليس بدون ازدواجية متزايدة، فقد وضعت إيماني في الناس والحركات الإجتماعية والديمقراطية الجوهريّة بدلا من النُخب وافرادها وأطرها التنظيمية... لم يُدرك أيّ منهما (شاؤل ودَيفِد) أنّ الهياكل الأساسية بحاجة الى تحويل».

أتى على الضغط والمال الإسـرائيليين اللذين يدفعان السياسـة الخارجية الأمريكيـة فـي اتجاهـات لا تخـدم المصالـح الوطنية أو تلك النقطة للاسـتفادة مـن الشـخصيات السياسـية التـي تتلقـى تبرعـات ضخمـة مثقلـة بالضغـوط من المليارديـرات الصهاينـة المتطرفيـن. بقـدر ما ترتبط الفضيلـة الجماعية بالرذيلة الجماعيـة، لا يمكـن لليهـود أن يدّعوا فـي الحال تفوّق كونهم «مختارين»، وفي نفـس الوقـت يتصـدّون بغضب للأدّعاءات حـول التلاعب اليهـودي بالحكومة والمجتمع عن طريق المال والنفوذ باعتبارها اسـتعارات معادية للسـامية. «لقد ازعجنـي هـذا المثـال مـن كلـي الإتجاهيـن قبل وقت طويل مـن أن أصبح ناقدا لإسرائيل والصهيونية في سياق النضال الفلسطيني من أجل الحقوق الأساسية».

إنتقل د. فولك الى ذمّ شـديد «للإسـتثنائية الأمريكية» وسـمّاها «لعنة» رغم تشدّق العسكر والسياسيين والبعض في أجهزة الأعلام بها. قارن ذلك بالأسطورة القائمة على ما ورد في كتاب اليهود بأنّهم «شـعب الله المختار» وذكر بأنّ مثل هذا التفكير [https://search.emarefa.net/ar/detail/BIM–531828] هو «مّا يستدعي

وضع وخلق دولة مارقة أو حتى تسمية إستثنائية سلبية». وحتى ما يسمّونها «الوصايا العشر» مأخوذة بحذافيرها من مسلة شرائع الملك البابلي حمورابي، واعتمدوا في هذا الزعم على بعض نصوص التوراة التي كتبوها بأيديهم في بابل ذاتها.

يرى الكاتب أنّ عسكرة عملية الحكم في الولايات المتحدة، الى جانب الإستثمار المُفرط في انتاج المعدّات العسكرية على مدى فترة طويلة، قد قوّضتا آفاق نظام عالمي سلمي وكشفتا أنّه عندما يكون هناك توتر، تأخذ الأولويات الرأسمالية الأسبقية على القيم المرتبطة بالديمقراطية وحقوق الإنسان والإستقرار البيئي وحتى بقاء الإنسان ذاته. تتجسّد هذه الأولوية من خلال دفع مبيعات الأسلحة الى البلدان ذات السجلات السيئة لحقوق الإنسان والديمقراطية أو التعامل مع الغابات المطيرة في العالم على أنّها خاضعة للسيادة الإقليمية بدلا من اعتبارها مشاعات عالمية. كما أنّه أدّى الى إدراك العديد من الصراعات السياسية من خلال منظور [https://arabicpost.shorthandstories.com/Military-coup-in-America/index.html]

عسكري، ممّا أدّى الى نتائج مُدمّرة بشكل مأساوي.

أفاد الكاتب عن لقاء له مع مهاتير محمد، رئيس وزراء ماليزيا، واستياء الأخير من المنظمات الغربية غير الحكومية الداعية لحقوق الإنسان، بسبب تركيزها على الحقوق السياسية وعدم التطرق الى الحقوق الإقتصادية والإجتماعية والثقافية. اصبحت هذه المنظمات ابواقا صارخة لكلّ ما يطرحه الغرب من مفاهيم يصرّ على تطبيقها في العالم بأجمعه. ضرب على ذلك مثالا عن التقدّم الذي حققته الصين وڤيتنام وتركيا في تلك النواحي ومطاردتها باسم الديمقراطية [https://ar.wikipedia.org/wiki/%D9%8]. ثمّ يمضي ليشرح موقفه بالقول، «في هذا الصدد، ما زلت منزعجا كما ناقشنا سابقا، من الإستثناء الأمريكي بأشكاله المختلفة واعتماده الدائم على المعايير المزدوجة وإدانة الآخرين لفعلهم ما نقوم به والمطالبة عادة بحقّ الولايات المتحدة في التصرّف دوليا دون مساءلة».

أخبرنا د.فولك في نهاية فصله السادس عشر، أنّه من خلال مشاركته في التطوّرات في إيران، اصبح يقدّر الأهمية السياسية للدين والروحانية في تحقيق

التغيير في ظلّ ظروف معيّنة لا يمكن أن تأتي إلّا من الحركات الشعبية. لكنّه ذكّرنا أنّه لا يزال يعتقد أنّ احترام ديناميكيات تقرير المصير الوطني هي الأساس المعياري للنظام العالمي المتمركز حول الدولة في حقبة ما بعد الإستعمار. «باختصار، فإنّ أفضل طريق للسلام العالمي في الوقت الحاضر هو الإذعان الجيوسياسي لسياسات تقرير المصير، جنبا الى جنب مع رفض التدخلات لتغيير الأنظمة».

يفصح د. فولك عن هويته السياسية، بالقول، «أنا متعاطف مع العديد من الآفاق الثورية، على سبيل المثال، إستبدال الرأسمالية بنظام اقتصادي أكثر انصافا مبني على القيم الإشتراكية أو الإعتماد على الجغرافية السياسية اللاعنفية وأنظمة الأمن القومي الأقلّ عسكرة من أجل الحماية الجماعية لشعوب العالم وما يحيط بها». وقد يرجع اليه الفضل في صياغة عبارة «الإبادة البيئية» لاستخدام الأسلحة الكيمائية من قبل العسكر الأمريكيين في ڤيتنام لحرق الغابات والأحراش التي يختبئ بها الثوار، باعتبارها جريمة. استُخدمت عبارة التجريم هذه لوصف ما قام به صدّام حسين حين أمر علنا بأضرِام النار بآبار النفط ومخازنه في الكويت باعتباره تكتيكا لتغطية منطقة المعارك بالدخان لحجب رؤية الطائرات الأمريكية المهاجمة، لغرض حماية قواته المنهزمة الهاربة من ساحة المعركة [https://www.marefa.org/%D8%AD]. وتذكيرا بالعار، اغلقت الولايات المتحدة ومعها دول العالم العيون حين استخدم ذات الأرعن الغازات السامة ضدّ المواطنين.

ابدى المؤلف مقته للطريقة التي نُظر فيها الى الملازم وِليم كالي، القائد الميداني المسؤول عن مذبحة **ماي لاي** في ڤيتنام. لقد «أصبح كالي في الواقع معروفا في أمريكا كبطل حرب أكثر من كونه مجرم حرب، مما يشير الى مدى عمق الروح الأمريكية للإفلات من العقاب والإستثناء». ثمّ واصل قائلا، «إنّه لأمر محزن بالنسبة للثقافة السياسية الأمريكية، أنّه كان على سنودِن، فاضح الأسرار، أن يطلب اللجوء السياسي في روسيا، بينما عومِل مجرم الحرب كالي كبطل قوميّ». [https://ar.wikipedia.org/wiki/%D9%85]

يستشهد د. فولك برسالة القدّيس پولِص الى العبرانيين، فيذكر أنّه كانت هناك فكرتان مختلفتان وجدهما مناسبتين لمخاوفه على الرغم من الإختلاف

الكبير في دوافعنا للفت الإنتباه الى الكتاب المُقدّس. أوّلا، تأكيد القدّيس پولِص على الإيمان، باعتباره الإيمان بما لا يمكن رؤيته أو إثباته حاليّا. ثانيا تحديده للمؤمن كشخص يبحث عن شيء أفضل من العالم كما هو الآن، وما يُسمّى في العهد الجديد، عالم سماوي Heavenly World. لقد وجد هذه الصيغ موحية، فأراد طريقة للحديث عن المشاركة السياسية والمواطنة الحيّة للإمكانيات المعيارية. لكنّه أدرك أيضا أنّ هذا كان وهما عاطفيّا بالنظر الى الأنماط السائدة للوعي السياسي والطريقة التي تمّت فيها هيكلة العالم حاليّا. نقلت «المواطنة» التزاما بالمشاركة الفعالة بينما أشار «المواطن الرائد الملتزم عالميا» الى أولوية رحلة حجّ تقوم على السعي وراء وتحقيق ما لم يكن موجودا بعد، ولكن يمكن تحقيقه من خلال كفاية الرؤية والإلتزام والنضال اللاعنفي ضدّ النظام المعمول به. لا يزال هذا النظام القائم سائدا على أسس الحرب وعدم المساواة والعنصريّة وانماط الحكم القمعية. يسترسل المؤلف قائلا، «قد يبدو هذا الحجّ pilgrimage سعيا طوباويّا، ومع ذلك فإنّ تطلعاته واقعية إذا كان المستقبل البشري يعتمد على تحقيق مستقبل مستدام ومُعولم ومنصِف، بما في ذلك العلاقات، التي تمّ إصلاحها جذريّا بين النشاط البشري والبيئة الطبيعية الحساسة للقدرة الإستيعابية للأرض. إنّ الوعي السياسي للمواطن الرائد الملتزم عالميا مُشبع بهذا الشعور لخلق عوالم مستقبلية صالحة للعيش والخير يسودها الشعور بالسلام والعدالة».

وعمّا أسماه مفاجأة العصر من المفارقات المُذهلة، هو تأثّر منطقة الشرق الأوسط بشدّة من خلال تسهيل إقامة دولة إسرائيل كدولة يهوديّة، ممّا أدّى الى تهجير 700 ألف فلسطينيا قسرا وبشكل مُتعمّد، على الرغم من معارضة غالبية السكّان المُقيمين ومعظم دول المنطقة. صحيح أنّه وُجِد مناخ أخلاقي عالمي في اعقاب الهُلوكوست كان متعاطفا مع المشروع الصهيوني، «إلّا أن تحقيق المشروع كان بمثابة فرض كيان استعماري إستيطاني في اللحظة التاريخية حين كان الإستعمار الأوروبي يتعرّض لتحدّي أخلاقي وسياسي بنجاح من قبل الحركات الوطنية القويّة حول العالم». لقد عمل الإنتداب البريطاني لأكثر من ثلاثين عاما لخلق دولة إسرائيل مبتدأ [https://www.policemuseum.org.il/ar/mandate_ar]، بخلق الشرطة العبرية من الصهاينة وبعض الدروز للتحكّم في

منطقة يشكّل سكانها حوالي 92% من العرب المسلمين والمسيحيين.

يعترف المؤلف بمرارة، أنّه وجد الأمل في النضال الفلسطيني بهذه الطريقة لإعادة تفسير القوّة فيما يتعلق بالصراع العنيف، معتقدا أنّ الفلسطينيين الذين كانوا يمثلون 92% من مجموع السكان عند بدء نظام الإنتداب البريطاني، يمكنهم تحقيق العدالة من خلال هيمنة القوّة الناعمة على أساس الإدراك التمكيني بأنّ تاريخ القرن الماضي كان الى جانبهم بشكل حاسم، وأنّه يمكن تحقيق هذه النتيجة بشكل معياري، أي الحقّ في تقرير المصير، وسياسيّا فيما يتعلق بثقل القوّة الناعمة للتضامن العالمي المرتبط بالمقاومة الفلسطينية اللاعنفية. ونتيجة لذلك، يمكن أن يتحوّل ميزان القوى لصالح الحقوق الفلسطينية بحيث يمكن أن يظهر سلام عادل لكلي الشعبين، ممّا يتيح التعايش السلمي الذي يحظى بالإحترام المُتبادَل والذي يتمّ توفيره من خلال عمليات التنفيذ، التي تتمّ بروح المساواة. حتى كتابة هذه السطور، قد يبدو مثل هذا الأمر سخيفا، لكنّه يستمرّ في تحفيز المستقبل المُتخيّل الوحيد الموثوق به لتحقيق نتيجة عادلة وسلمية لكلّ من الإسرائيليين والفلسطينيين. ستكون هذا التسوية قادرة على انهاء نظام الفصل العنصري وبدء عصر من التعايش السلمي وثنائية الجنسية على أساس المساواة وحقوق الإنسان. بالطبع، يستلزم هذا تقليص المشروع الصهيوني من «دولة يهوديّة» الى «وطن يهودي» يتعايش مع «وطن فلسطيني». إختتم المؤلف بهذه الكلمات فصله السابع عشر.

يعترف الكاتب بألم ظاهر في فصله الثامن عشر، أنّ الأهداف التي دافع عنها بشدة لم تتحقّق خلال حياته، ويبدو الآن أنّها أقلّ قابلية للتحقيق ممّا كانت عليه قبل 50 عاما. «ولكن هل كان من الخطأ أنّني حاولت؟» وكما أصرّ صامويل پيكِت، يجب أن نحكم على بعضنا البعض وعلى انفسنا من خلال الصفة الأخلاقية لفشلنا، ومن خلال شجاعتنا لمواصلة محاولة القيام بعمل أفضل، على حدّ قوله، «لنفشل بشكل أفضل».

نـدّد د. فولك بتشدّق وادّعاءات الديمقراطية الأمريكية لأنّها قائمة على استبعاد من يطرح الأفكار المخالفة بحجة أنّها مثيرة للجدل. «على سبيل المثال، حاصرتني الجمعية الأمريكية للقانون الدولي ASIL، وهي المنظمة المهنية الرائدة

في مجال تأثير القانون على سلوك ومحتوى السياسة الخارجية. في البداية، دُعيت للتحدّث واتيحت لي فرص لأدوار قيادية داخل المنظمة. إختفت هذه فيما بعد عندما اعتُبِرَت آرائي مثيرة للجدل ومعادية للمؤسسة. بالطبع كان هناك عنصر تفاعلي، لكنّني لم أعد أتوقع أو أسعى للحصول على الإعتراف في مثل هذه الأوساط النخبوية، التي جمعت بين خبراء القانون الدولي ومحامين رفيعي المستوى يمثلون الشركات الكبرى والمؤسسات المالية والمستشارين القانونيين للحكومة. ومع ذلك، فإنّي لا أندم على تعرّضي السابق لهذه الأماكن المهنية/السياسية. لم أشارك مطلقا في التوقعات السائدة، على الرغم من أنّ سمعة كوني استاذا في جامعة بِرستُن لم يُنظر اليّ أبدا على أنّني لاعب في الفريق جدير بالثقة تماما. وهذا أمر لم يزعجني وناسبني بشكل جيد».

كما تعرّض لحصار آخر في مجلس العلاقات الخارجية الأمريكية [https://www.cfr.org]. رحّبوا به في البداية، لكنّهم أظهروا التململ حين بدأ يطالب بمحاسبة المسؤولين الكبارعن تأجيج حرب ڤيتنام. وحين كتب مذكرة اعتراض عل تعيين بِل بُندي محررا لمجلة القضايا الخارجية، ضاقوا ذرعا به وعملوا على نبذه. شغل بُندي هذا، منصبا رفيعا في الخارجية الأمريكية وكان مسؤولا عن القصف السرّي لڤيتنام الشمالية ولاوُس. «بطرق خفية، جعلني المجلس أدرك أنّني انتهكت اللياقة. وعلى الرغم من الإحتفاظ بالعضوية، لم تتمّ دعوتي مرّة أخرى لأكون متحدّثا أو حتى جزء من مجموعة الدراسة التي تصدر التقارير السياسية بشكل دوري. ومع ذلك واصلت دفع مستحقاتي والبقاء كعضو على مدار الأربعين سنة القادمة، وحضور بعض الإجتماعات المغلقة مع القادة الأجانب الزائرين، إذا حدث وكنت موجودا في مدينة نو يورك».

إختتم د. فولك فصله الثامن عشر بالقول، إنّه يفضّل أن يموت «طوباويا» أو «متناقضا» يُساء فهمه على أن يتذكّره الآخرون كشخص اعتنق الوعي الخاطئ لأنماط التفكير والقيم والأفعال المختلة لأسباب يُفترَض أنّها واقعية وصحيحة من الناحية السياسيّة. ويُعلل ذلك مُسترسلا، «في العقدين الأولين من القرن الحادي والعشرين، حاولت الحِفاظ على فوريّة الرّؤيا Visionary Urgency للمستقبل القريب مع الإستمرار في أخذ المعاناة والإجرام على محمل الجِدّ

كأبعاد وجودية للحاضر. لقد وجدت أنّ هذا الموقف نادر ما يتمّ مشاركته مع الآخرين، الذين يعتبرونني إمّا غير واقعي أو حتى طوباوي، بمعنى غير ذي صلة بالواقع ومتناقض أو حتى مُنحرف من خلال التمسّك بالمواقف التي يُنظر اليها على أنّها مزعجة من قِبل الأصدقاء والزملاء، الذين يبدون متشابهين معي في التفكير. لقد وجدت الطلبة أكثر تقبّلا، على الرغم من عداءهم أحيانا لمزيجي من اليوتوبيا والفوضوية والتقدّمية الضرورية».

أبدى المولف في مطلع فصله الأخير خشيته أن يكون الإستبداد الناشئ للخوارزميات والروبوتات والأجهزة والذكاء الإصطناعي والصواب السياسي في العصر الرقمي، الذي يزعم أنّه يلبي رغباتنا واحتياجاتنا، هو المصير المصطنع تقنيا، الذي ينتظر البشريّة. «يبدو أنّه من المحتمل أن يقوّض حياة العقل والقلب والروح ويستنزف الحياة من بقايا الروحانية والرهبة والغموض، التي كافحت من أجل بقاءها على قيد الحياة من هجمات الحداثة».

يعترف المؤلف ثانية بالفشل من جانبيه في فهم التعاطف واستعداد معظم اليهود لتفضيل أمنهم الفردي والجماعي ورفاهيتهم على كافة الشواغل الأخرى تقريبا. في الحالة اليهوديّة، حظي الهُلوكوست باهتمام كبير حقّا، ولكن تمّ التلاعب به ايضا لحماية الصهيونية من النقد المُبرّر، كما أوضح نورمَن فِنكِلشتاين بشكل فعّال في كتابه **صناعة الهُلو كوست**. «لقد تمّ استخدام عباءة معاداة السامية بشكل خبيث وعملي (وبشكل خاطئ) على وجه الخصوص بعد عام 1945 لإخفاء مدى إجرام إسرائيل وقسوتها اتجاه الشعب الفلسطيني. وقد أدّى ذلك، بشكل مُتعمّد الى حدّ ما وبشكل انتهازي بالتأكيد الى الخلط بين حقيقة الأذى والكراهية التاريخية لليهود، وهي جوهر معاداة السامية الحقيقية، مع الإعتراف بأنّ سلوك إسرائيل اتجاه الشعب الفلسطيني غير مقبول، وهو مثل سياسات وممارسات الفصل العنصري في جنوب افريقيا ضدّ السكان الأفارقة الأصليين». ثمّ يستمرّ ناصحا، «يجب ألّا نسعى أبدا الى اضفاء الشرعية على القسوة الحاليّة وإيذاء الآخرين الأبرياء من خلال التذرّع بالمعاناة الفرديّة والجماعية لماضينا، مهما كانت شديدة. يمكنّنا بلا شكّ فهم اسباب مثل هذا السلوك غير العادل بشكل أفضل وإظهار التعاطف اتجاه كافة الضحايا في الماضي والحاضر. إنّ إعادة

انتاج الشّرّ الذي لحق بنا ضدّ الآخرين، لا يُغيّر طبيعة نفس الشّرّ».

ثم يأتي الى القول بأنّه حاول على مرّ السنين أن يعطي طلابه الإحساس بأنّ التزامهم بحقوق الإنسان يتجلى بوضوح ويتحقق من خلال الطريقة التي يعاملون بها الأشخاص المتنوعين الذين يلتقونهم يوميًا. ينطبق هذا التوجّه علينا جميعا، في جميع الأوقات وطوال الحياة. يمكننا التعبير عن نفس الفكر العائلي بشكل مختلف. أهمّ قرار يتخذه كلّ منّا فيما يتعلق بحقوق الإنسان هو كيف نتعامل ونشعر اتجاه بعضنا البعض، وخاصّة اتجاه أولئك الذين يعانون من إعاقات خطيرة أو يختلفون في اللون والجنس والعرق والعمر والمظهر والمعتقد. «إنّ إنسانيتنا مرتبطة الى حدّ ما بطريقة تتحدّى بشكل خاص أولئك، الذين لديهم مؤهلات امتياز، وأخذ معاناة الآخرين وضعفهم على محمل الجدّ كأسباب للمشاركة السياسية. تجسّد الإخفاقات الحالية في التعاطف، ما ابرزتها الترامپية اتجاه اولئك الذين يسعون الى الدخول الى الولايات المتحدة أو الإقامة فيها. هذا الميل لإثارة المخاوف والتلاعب والإنتهازية لاحتلال معظم الحيّز السياسي، يتركنا كشعوب بدون تعاطف مع أولئك الذي يعيشون خارج الولايات المتحدة. اليأس الذي يُعاقبون عليه بعد ذلك وللمرة الثانية هو أنْ يتمّ تصويرهم بشكل استفزازي على أنّهم تهديدات وحتى غُزاة. لا يعني هذا التعاطف الإيحاء بأنّه طالما أنّ المساحات الوطنية هي مصدر أساسي للشعور بالروابط المجتمعية والقيود الإنسانية والإحباط المستنير من أنّه قد تصبح الهجرة ضرورية وحتى مرغوبة». في الواقع برأيه، أنّ أولئك الذين لديهم الموارد وسبل العيش وحقوق الإنسان وفضاء العيش الصحّي، يتحمّلون مسؤولية الأنواع اتجاه أولئك الذين يفتقرون الى هذه الضروريات لكرامة الإنسان. ثمّ يحلل الموقف، «في الواقع ثانية، إذا تمّ الكشف عن الأسباب الجذرية للنزوح والهجرة، فإنّها غالبا ما تتعلق في السلوك السابق؛ الإستعماروالترتيبات الإقتصادية غير العادلة والتدخّل وانبعاثات الكاربون، للبلدان ذاتها، [https://www.unhcr.org/ar/4be7cc2765f.html] التي تقيم حاليًا جدران إقصائية من انواع مختلفة».

على وجه الخصوص، عندما يتعلق الأمر باسرائيل ورفض الصهيونية اللِبرالية، قال إنّه كان مُدركا لما يكفي من التراجع الملحوظ. «أعتقد أنّ الطريق

الذي اخترته، فرض عليّ تكاليف عالية الى حدّ ما، لكنّ هذه التكاليف لم تدفعني أبدا الى فقدان ساعة واحدة من النوم».

لعلّ أدقّ تحليل قدّمه المؤلف بشأن الوضع الداخلي في الولايات المتحدة هو، «إنّ انتخاب ترامپ سيثير أخيرا عدة ڤايروسات كامنة في الجسد السياسي الأمريكي، بما في ذلك العنصرية وكراهية الأجانب والفرديّة غير المنظمة والتراجع عن الحقوق الإنجابية للنساء، وسيؤدّي الى تجديد التمييز ضدّ المثليين ويُخفف من الموانع على العديد من اشكال سلوك العصابات».

يشير د. فولك في ختام كتابه الى ألم صادق مؤثّر لخّصه قائلا، «... وكان جُرحي الوحيد مدى الحياة هو غياب وسائل الراحة المطمئنة من حبّ الأمّ ومودّتها».

د. محمد جياد الأزرقي

أستاذ متمرس، كلية ماونت هوليوك

قرية مونِگيو، ماسَچوسِت، الولايات المتحدة

2022 /1/ 7



القسم الأول

البدايات

BEGINNINGS

الفصل الأول

مؤرخ متردد

«لا تبحث عن أيّ شيء سوى هذا.
إذا وجّهت عربتك شمالا
عندما تريد الذهاب جنوبا،
كيف ستصل»

ريكان (1758– 1831) (ترجمة جون ستيفنز)

لقد تردّدت لفترة طويلة قبل الشروع في هذه المرحلة المستحيلة وسأوصي بعدم الإقدام عليها، واتمنى لو كنت اعرف ذلك مسبقا. تساءلت عمّا إذا كان لديّ المثابرة لأمضي من البداية الى النهاية، أو ما إذا كنت سأبقى على قيد الحياة لفترة كافية لأرى خطّ النهاية، ناهيك عن عبوره. تساءلت أيضا عمّا إذا كنت قد بدأت بعد فوات الأوان، وأنا في عمر 90 عاما. وتوازيا مع ذلك تساءلت عمّا إذا كان ينبغي عليّ عدم تخصيص ما تبقّي من وقتي لفعل ما كنت افعله على مدار 60 عاما الماضية، او نحو ذلك، والكتابة بشكل موضوعي ومتجاوب، وحتى كصحفي يكتب مدوّنة أو خاطرة، حول العديد من القضايا السياسية العالمية في أيامنا هذه، بالإضافة الى معانيها الأعمق، واقوم بعرضها من خلال وجهة نظري الشخصية والمعيارية للغاية، والتي تتسم بالتقدمية بلا خجل. وتعني أن ابقى لِبراليا أعالج مثل هذه القضايا الهيكلية الأساسية مثل الرأسمالية والنزعة الإستهلاكية والنزعة العسكرية.

إنّ كتابة هذه المذكرات تدور حول اكتشاف قصتي، أي نفسي بقدر ما يتعلق بهذا السرد.

الدفاع عن التقدّمية

هناك الكثير من التعليقات هذه الأيام حول تقادم أوصاف اليسار/اليمين للحياة السياسية. لم يستردّ اليسار ثقته أو فهمه المتماسك للوقائع المعاصرة بعد انهيار الإتحاد السوفيتي والتراجع الأيديولوجي للصين، والآثار اللاإنسانية للعولمة اللِبرالية المفترسة.

لقد أخفى اليمين في أمريكا الى حدّ ما، حتى مجيء ترامپ، استعداده لاستيعاب، إن لم يكن تأييد العنصرية والپلوتوقراطية Plutocracy. شجّع ترامپ والترامپية الحق في ظهورهما مرّة اخرى بطريقة فجّة ورجعية بشكل علني، مرتاحا تحت راية النظرة العالمية لليمين المتطرّف، وهي نسخة ما قبل الفاشية. بالنسبة لي شخصيًا، لم يتمّ اختزال السياسة بأيديولوجية متماسكة يمثلها حزب سياسي أو عقيدة أيديولوجية. سياساتي تحكمها القضايا والشخصية، وغالبا ما تولد المشاكل. إنّها تعكس ميلا مستداما لأخذ معاناة الآخرين على محمل الجدّ والتماهي مع المُستَضعفين في النزاعات، والقلق خلال حياتي المهنية بشأن النظام العالمي والأسلحة النووية ودبلوماسية التهديد والوعيد والإعتقاد بأنّ معظم ما هو مرغوب فيه سياسيًا غير مرغوب فيه على مستوى العامة. وبشكل دائم بعيداعن متناول الإنسان، حتى لو بدا بعيد المنال في الوقت الحاضر.

لطالما كنت مفتونا بكيفية تفسير حدوث «المستحيل» عبر التاريخ. أقصد هنا الأحداث التي ينظر اليها التيار السائد على أنّها من غير المرجّح أن تحدث بحيث لا تستحق الخطاب المسؤول ويتمّ رفضها على أنّها «خيالية» أو «إنذار بقيام الساعة». عكست نظرتي السابقة المفعمة بالأمل دائما رفضا لقبول واقعية الوضع الراهن للنقاد المؤثرين.

إعترف أنّ أملي السابق قد تعرّض لتحدٍ متزايد من قبل سيل من التطورات المُحبطة. جعلتني مجموعة متنوّعة من الظروف الملموسة في العقد الماضي متشكّكا بشكل متزايد بشأن بقاء الإنسان والمستقبل الإنساني. ربّما يكون الأكثر

دلالـة علـى ذلـك هو الدليـل المتزايد على اخفاقاتنا في المسـؤولية البيئية، التي تتجلى بشـكل أكثر وضوحا في الإسـتجابات الباهتة لتغيّر المناخ. التناقض بين عالـم الواقـع وفقـا لليافعة گَرَيتا ثونبَرگ وعالـم دَونَلد ترامپ، يصوّر نوعين من مسـتقبل البشـرية. لقد جئت لأتسـاءل عمّا إذا كان الجنس البشـري لديه إرادة جماعيـة للبقـاء علـى قيـد الحيـاة، لأنّه أدار ظهره لمثل هـذه الأدلة المقنعة على وقوع كارثة مروّعة وشيكة. أشعر بالقلق ازاء المصير الذي يبدو أنّنا نفرضه على الأجيال القادمة، بما فيه مصير أحفادي وحياتهم. وكما أرى الأمر، لا يزال يتعيّن علينا الإعتراف بهذا التهديد السـاحق لمسـتقبل البشـرية. والى أن يتمّ الإعتراف الحقيقـي بهـذا التهديـد السـاحق، سـتكون هنـاك ديناميكية مسـتمرّة من الإنكار والهـروب والتطـرّف المُسـبّب للعمى مع اشـتداد الأزمـة البايولوجية الأخلاقية The Bio–Ethical Crisis.

ما وراء اللِبراليّة

لطالما كنت غير راضٍ عن الأساليب الضحلة للجروح الإجتماعية القائمة واسـبابها الجذريـة. وبـدون تغييـر الهيـاكل الأساسـية، سـوف تتكـرّر الأزمات وسـتتفكّك النظـم الإجتماعيـة والسياسـية الأوسـع فـي مرحلـة مـا أو تتعـرّض لانهيـارات كارثيـة. نحـن بحاجـة الـى الإسـتجابة للحالات العاجلـة في الوقت الحالي، ولكن يجب أيضا أن نتواصل بشأن أزمات القصور في الهياكل والهوية والأولويـات والقيـم. وفـي هـذا الصدد، أنـا متعاطف مع الدوافـع الثورية، على الرغـم مـن الشـكّ في الممارسـات الثوريـة بالنظر الى السـجلّ المخيب للآمال لأداء العديد من الثورات الناجحة بمجرّد تسـلم السـلطة. كانت هذه هي تجربة الثـورة الفرنسـية والروسـية والصينيـة والإيرانية، فضلا عـن الإنتصارات القومية الأخـرى علـى الإسـتعمار الأوروبي خلال النصف الأخير من القرن العشـرين. غالبـا مـا تحقـق التغيير بتكلفة كبيرة للسـكان الأصليين فقـط ليتم اختطافهم من خلال المنافسة على القيادة ولعب القوى الإجتماعية المعادية، التي تمّ تمكينها مرّة واحدة من قبل جهات أخرى. لا يسعنا إلا أن نأمل، ونأمل بشدّة، أنّ الهياج الحالي في الولايات المتحدة يُنذر باضطراب ثوري يسـتجيب للتحديات البيئية

وأيضا الفشل في تحقيق العدالة الإجتماعية والإقتصادية والمناخية للمواطنين الأمريكيين. لقد أدّت الهفوات الأخيرة في القيادة العالمية البناءة للولايات المتحدة إلى إضعاف قدرات حلّ المشكلات في النظام العالمي الحالي، ويجب تصحيحها إذا أريد للتحدّيات المتصاعدة إيجاد حلول.

ربّما أيضا كنت أحيانا ارفض التقدّم التدريجي الذي تمّ احرازه من خلال الجهود المتفانية «لِلبراليين الجديدين»، الذين يسترشدون بالمنطق المزدوج للمصلحة الذاتية الخاصّة، التي غالبا ما يمكن اختزالها في أمن عالم الحياة البرجوازي الخاصّ بهم، وهو الإيمان بالسياسة على أنّها فنّ الممكن Art of the Feasible، أي ما يبدو قابلا للتحقيق في الوقت الحاضر.

نقطة انطلاقي هي أنّنا نشهد فجوة آخذة في الإتساع بين الممكن والضروري Feasible and the Necessary. ربّما يتضح هذا بسهولة أكبر من خلال الفشل في تقليل انبعاثات غازات الإحتباس الحراري Greenhouse Gas Emissions وفقا للإجماع العلمي بشأن تغيّر المناخ. كما يتضح أيضا في العديد من الإستجابات المختلة لوباء فايرُس كورونا. نحن نختبر أيضا طريقتين قياسيتين مدمّرتين للتعامل مع هذه الفجوة، والتي نادرا ما يتمّ الإعتراف بهاعلى هذا النحو. تتضح الأنماط السائدة من الإنكار وتحويل اللوم إذا توقفنا لنتأمل ما نقوم به بشكل فردي وجماعي.

الفجوة بين المُجدي والضروري تودي بالفعل الى \الإنكار و\التطرّف، وفي اعقابهما من شبة المؤكّد الى \الكارثة. إنّ طرق الردّ هذه دون الإستجابة بشكل هادف تزيد من تعميق الأزمة. الإستجابة الإيجابية الوحيدة هي السعي بكلّ الطاقة المتاحة الى ما هو مرغوب فيه، مهما كان غير محتمل. وهذا موقف إرادي يُفهم على أنّه يوتوبيا ضرورية *Necessary Utopianism*. هذا هو تفسيري للمأزق المعاصر، والتيارات الفكرية التي تلقي بثقلها عل كيفية رؤيتي للماضي والحاضر والمستقبل. قصتي في النهاية هي عن شخص يعيش ويحبّ ويتعلم في الغالب في أمريكا، وهي موضوعات تعلم تتخلل كلّ ما يلي. يعكس جزء التعلم أكثر من 60 عاما في التدريس والقراءة والكتابة الأكاديمية، في حين أنّ الأجزاء الحية والمحبة هي روايات كفاحي لأكون مواطنا مشاركا وزوجا مرضيا ووليّا لائقا.

بعبارة أخرى، اصبحت الشخصية مسيّسة بشكل حادّ في حياتي، في حين أنّ الجانب السياسي أصبح شخصيًا بشكل مكثّف. لذا فإنّ قصتي الخاصة هي نسخة مصغّرة من القصة العامة، أو هكذا أحب أن أفكّر. في هذا الصدد، فإنّ زاوية رؤيتي الحالية تعيقها غيوم عاصفة مهدّدة تؤثّر على تفسيرات الماضي وما سيأتي، وإنْ كانت دائما مصحوبة ببصيص من الأمل. إذا تمّ الكشف عن مستقبل إيجابي، فسوف يتجمّع نتيجة تقدير شبه مقدّس لقيمة الحياة والواجب الأخلاقي للحفاظ عليها واستعادة الإرادة السياسية لتحقيق ذلك.

إنّني أسعى الى فهم أعمق للهبوط، حيث فعلت بشكل خاصّ سياسيًا وروحيًا. وبفعل ذلك، فإنّني أصوّر المثقف العام intellectual Public، الذي اصبحت عليه أثناء حياتي كمواطن متنقل/يسعى للحجّ Citizen Pilgrim الى صومعة الحق والحقيقة. يتطلب هذا شرحا بأفضل ما يمكنني، لماذا اخترت المسارات التي كانت مهنيّة وسياسية، وأعتقد شخصيا أنّها مختلفة تماما عن تلك الخاصّة بجميع الآخرين تقريبا، من الذين شاركت معهم ماضيا مماثلا، حين ابتدأت المواقف بالتبلور. بشكل ملموس، ما هي الجذور العميقة التي يمكن أن تساعد في تفسير سبب انحراف طموحاتي عن المسارات المهنية العاديّة والحياة الأسريّة التقليدية للطبقة الوسطى؟ على الرغم من أنّني دفعت ثمنا للقيام بذلك، إلا أنّني نادرا ما شعرت بالندم.

الفصل الثاني

العودة للطفولة

«نولد جميعا جهلة،
لكن أن يظل المرء جاهلا طيلة عمره، فذلك خيار».
حكمة صينية

ليس كما كان، ولكن كما أتذكّر:
أهمية طفولتي وأنا في سن 90

لن أحاول رسم سلسلة من الصور الشخصية لطفولتي في مراحل مختلفة، خاصّة حين تكشّفت وتمت تجربتها. إنّني انظر لتلك السنوات الأولى من خلال مرآة الرؤية الخلفية الضبابية لالتقاط لمحات ذات صلة بمن وكيف وماذا اصبحت عليه بعد ثمانية عقود. ليس لديّ أيّ ضمان أنّ ذاكرتي تخدمني جيّدا. لا أعرف في الواقع ما إذا كانت أهم القرائن من ذلك الماضي البعيد قد تمّ نسيانها أو استبعادها عمدا أو أنّها تكمن في مكان ما في سلة الإنكار، التي نستخدمها جميعا للتخلص من الذكريات الوضيعة غير المرغوب فيها. أتذكّر خلال سنوات مراهقتي المبكرة أنّني شعرت بفارغ الصبر لتجاوز قيود الطفولة، والتوق الى الحريات غير المقيّدة، التي ارتبطت بها بعد ذلك بحماقة لكوني بالغا. لم أكن أدرك في ذلك الوقت أنّ مسؤوليات الكبار ستثقلني في البداية أكثر بكثير من عدم وجود القيد الأبوي، الذي سيحرّرني. قبل كلّ شيء، وبينما كنت صغيرا لم يكن لديّ فهم حقيقي للكيفيّة، التي تعرضت فيها للندوب وتأثرت بالآلام التي عانيت منها فيما يتعلق بوالديّ واختي، فضلا عن الطابع غير العادي لما تعنيه

«الأسرة» بالنسبة لي خلال تلك السنوات التكوينيّة.

اتذكّر بوضوح نزهة في إحدى ضواحي ستوكهولم على طريق ريفي مع طبيب نفس سويدي معروف، عمل بصفته ناقدا ادبيا لِسترِندبرگ، حين اتفقنا قبل 30 عاما على أنّ كلّ عقد تالٍ من حياتنا حتى تلك اللحظة كان أكثر ارضاء من سابقاته. كنّا نقترب من الستين في ذلك الوقت. لكنّ هذه طريقة لتأكيد الحياة مع تقدمي في العمر استمرّت في إعالتي، على الرغم من حياتي الرياضية المعاقة Curtailed Sports Life، ومحدوديّة حركتي والأوجاع والآلام المتنوّعة والشعور بالإحباط بأنّ موجات التاريخ، خاصّة كما يحدث في امريكا، وكذلك في العالم، قد انقلبت بشكل أساسي ضدّ آمالي وقيمي وتطلعاتي. كما أنّني أواجه الواقع غير المرغوب فيه والمتمثل في انخفاض القدرة الجنسيّة، والذي تفاقم الى حدّ ما بسبب الخيال الجنسي غير المنقوص. لم يتمّ اختبار هذه التوترات بين القدرات وتحقيقها المتخيّل حتى سقط الستار عن الشيخوخة من الماضي العظيم، مع التأثر الغريب لتحفيز إعادة تجربة افراح الحياة التي ظلت مُتاحة. ذكّر الشاعر ييتس بهذا النوع من الإستكشاف في بعض قصائده المتأخرة، وكذلك فعل گبريَل گارسيا ماركيز في «ذكريات عاهراتي الحزينات» *Memories of my Melancholy Whores*، وهي رواية عن العلاقة اللاجنسية بين رجل في التسعينات وبائعات الهوى المفضّلات لديه.

الحياة المبكرة يتيما بدون أمّ

ليس لاحقا ولا حرفيا حتى الآن تقريبا. ربّما أكون قاسيا حتى من خلال الجرأة على الشكوى من عذابات طفولتي عندما اتوقف لأدرك مدى امتياز تربيتي مقارنة بالعديد من الأطفال، الذين تيتّموا بسبب المِحن والحرب والعنصرية والفقر المدقع والمجاعة. ومع ذلك، بينما كنت صغيرا جدّا، أقل من 10 سنوات، أخبرني والدي الحسّاس والكريم، ربّما في واحدة من تلك اللحظات الطائشة التي نمرّ بها جميعا من وقت لآخر بسرّ عن أمّي، قبل موافقتها على الزواج، حين أصرّت على شرط عدم انجاب الأطفال. لم تكن رغبتها في تجنّب الأمومة راجعة الى قرار مهني في المقام الأوّل، على الرغم من أنّ والدتي هِلِن پَولاك،

كانت في ذلك الوقت لاعبة كرة مضرب مُصنّفة على المستوى الوطني لمدة 15 عاما، بدء من سنّ أوائل العشرينات. من المحتمل أن كان هناك بعض التوتر في محاولة أن تكون أمّا اثناء فترة التنافس على أعلى المستويات وما يتطلبه ذلك من السفر حول العالم. لقد توصّلت الى الإعتقاد بأنّ التفسير الأكثر ارضاء للحصول على مثل هذا التعهد غير المعتاد قبل الزواج هو إدراكها لغياب دوافع الأمومة، وربمـا ارتبـط بطريقـة مـا بتجربتها غير السـارّة كطفلة لأبويـن فاترين وطموحين اجتماعيا Frosty and Socially Ambitious Parents.

ممّا لا شكّ فيه أنّ هذا التردّد الأمومي قد تعزّز بقوة نتيجة فشلها المؤلم في تربية الأطفال عندما حاولت أن تكون أمّا لأختي، جوان، التي وُلدت قبلي بأكثر من 7 سـنوات. قضت جوان، التي كانت مُحبّة ومحبوبة Loving and Lovable، معظم حياتها في المصحّات العقلية، وخضعت لعقود من محنة «العلاجات» التي تمّ الإعتماد عليها في فترة الثلاثينات والأربعينات من القرن الماضي، والتي كانت تشبه التعذيب أكثر من الإستجابات العلاجية للإضطراب النفسي. لم اعرف أبدا إن كانـت ولادة أختـي وولادتـي قـد حصلتا كحادثيـن أم نتجتاعن ايقاف مؤقت للإلتـزام بالـزواج بـدون أطفال. علـى عكس ترتيبات المِلكيّـة، أفترض أنّ ذلك التعهد السـابق للزواج كان غير رسـمي وغير مكتوب وقابلا للعودة عنه. بالنسـبة لي، أفضل ما في الأمر أنّه قد تمّ تجاهله بسعادة خلال مناسبتين على الأقلّ.

لـدى العـودة الـى الـوراء، حتى بـدون التعهـد، كنت سـأفترض أنّ المحنة المؤلمـة المتعلقـة بأختـي، والتـي كانـت صعبة بشـكل دوري ومثيرة للإنقسـام وكذلك مضطربة، كانت ستجعل حتى البالغين من ذوي التوجّه العائلي يتردّدون بسبب عدم اليقين من انجاب طفل آخر. بحلول الوقت الذي وُلدت فيه، كانت اختـي جـوان تظهـر بالفعـل علامات منبهة لما يمكن وصفه لاحقا إكلينيكيا بأنّها «شـخصية مضطربـة نفسـيا مـع نوبـات ذهنيـة». ومن هـذا المنظور، فـإنّ حقيقة وجودي بهذا المعنى «معجزة»، على الرغم من أنّ ما أسمّيه بغرور معجزة ربّما ليـس أكثـر مـن نتيجـة غير مقصودة، وحتـى غير مرغوب فيها، منذ ليلة النسـيان البغيضـة التـي أتـت بعواقب يصعب التراجع عنها. كانت عمليات الإجهاض في ذلـك الوقـت غيـر قانونيـة وخطيرة ومكلفة وغير شـائعة. وإلا فقد لا أكون على

قيد الحياة واطرح التخمينات حول سبب ولادتي.

على أيّة حال، لقد وُلدت ونادرا ما كنت أفكّر في هذا الشكل غير العادي من الصدفة. أي أنّني موجود فقط لأنّ والديّ، وكلاهما متوفى منذ فترة طويلة، قد حنثا بالوعد لبعضهما البعض لسبب غير معروف، ولا يزال غير معروف حتى الآن. لم أسأل والدتي قطّ عن ذكرياتها. كنت اتمنّى لو كانت لديّ الجرأة، مع علمي بافتقارها الى احترام الذات. أشكّ في أنّني كنت سأتلقى ردّ صادقا حتى لو وافقت على التحدّث عن مثل تلك المشاعر العميقة والمربكة. لم ترغب أبدا في تحمّل المسؤولية لما حدث لأختى جوان. إعتبرت الإضطرابات النفسية لأختي وراثية بحتة وتفاقمت حالتها بسبب والدي، الذي اتخذ إجراءات من شأنها حماية الأسرة من الإضطرابات الناجمة عن آثارها الجانبية الضارة المُفترضَة. كان والدي، بطريقة تخدم نفسه بنفسه، يميل الى ارجاع حالة جوان الى اشتباكاتها وخصوماتها مع والدتي أو على أنّها آلام نمو مؤقتة كان من الممكن التغلب عليها بالحبّ والوقت وربّما عن طريق العلاج النفسي.

بشكل مقلق، أدركت أنّني أحببت أختى جوان أكثر خلال السنوات التي كانت فيها رهينة مصحّات الأمراض العقلية، واحدة تلو الآخرى، أكثر ممّا كنت عليه بعد أن أعلِن أنّها مناسبة للعيش في المجتمع بعد «علاج» عملية استئصال الفصّ المفصلي Mind–Dulling Lobotomy. كان حضور جوان حيّا ومحبوبا رغم أنّه كان مندفعا ومضطربا في بعض الأحيان قبل أن يتمّ «إصلاح وضعها». كانت صورتها بعد استئصال الفصّ المفصلي لا تختلف عن صورة من الورق المقوى Image Cardboard. فقدت الحيوية، التي جعلتها في الوقت السابق قوة اجتماعية هائلة بابتسامة معدية Formidable Social Force with an Infectious Smile وتصرّف مرح تغيّر الآن واختفى.

عندما توفيت جوان في عام 1973، شعرت بالفزع من استجابة والدتي. لم تحضر مراسيم الجنازة وربما كان ذلك مفهوما على أنّه تهدئة لحالها. كانت تعيش في كالِفورنيا في منزل راق على قمة مرتفعات لاگولا. لكنّ ما وجدته مقيتا بشكل محرج هو ميولها الماديّة غير الحساسة. إتصلت والدتي هاتفيا لتسأل عمّا إذا كان بإمكاني الترتيب لإرسال العديد من معاطف الفرو، التي جمعتها الراحلة

جوان كهدايا من جدتها لأمّها. لقد صدمني هذا باعتباره أكثر من غريب بعض الشيء. مًن يرتدي معاطف الفرو في مرتفعات لاگولا؟ حتى في أماكن اخرى اصبح لبس هذه المعاطف غير مقبول سياسيّا. لم تتظاهر أمّي بالحزن، أو حتى إظهار العاطفة لهذا الموت المبكر لإبنتها وهي في سنّ 56 عاما. لقد عزّز فيّ هذا السلوك إحساسا بأنّني غير مرغوب فيه بشكل أساسي وغير محبوب من قبلها. عندما كبرت، امتنعت عن الحكم وقبلت ما عرضته، رغم أنّني لم اوافق مع ما تمّ حجبه. كشخص بالغ، أصبحت أكثر ثقة وبالتالي اصبحت أكثر اصدارا للأحكام.

كان القادم أسوؤا. إتصل بي زوجها الثاني الجديد، يديتمار والتر أو ديت، وهو مقامر جشع ذو نزعة فاشية، بعد أيام قليلة من وفاة جوان، ليسألني عمّا إذا كنت سأتنازل عن ميراثي بصفتي مستفيدا من أمانة/وصيّة تركها أجدادها الأغنياء من جانب والدي ووالدتي، للتعامل مع احتياجاتها كشخص معاق بشكل دائم. لقد وجدت أنّ ذلك طلبا غير مناسب تماما. صدمني طلبها باعتبارها سريالية بشكل مذهل Jaw–Droppingly Surrealistic. لقد كافحت لمدة 20 عاما لإدارة حساب جوان وأيّة مشكلات نشأت وأثرت على سلامتها. قبلت دون شكوى إدراك أنّ والدتي غير مستعدة تماما للعب أيّ دور أمومي. لذلك أوضحت أنّني لا أميل على الإطلاق الى التخلي عن أيّ جزء من المبلغ الموروث عن جوان. لم تكن لديّ أيّة افكار ثانية، لكنّ الأمر تسبب في توتر علاقتي مع ديت بشكل دائم، وتأكّد لي أنّ والدتي ستقطع العلاقة الصحيحة معي رسميا، رغم كونها جامدة نوعمّا على مرّ السنين. لقد دفعت ثمنا ماليّا، إذ أنّ والدتي، التي توفيت بعد عقد من الزمن قد أوصت بحرماني من ميراثها. غير أنّ هذا كان اقلّ أهميّة بكثير من الثمن العاطفي لتلك القطيعة.

ستساعد الأموال، التي ورثتها عن أختي جوان في تغطية المتطلبات المالية عليّ في وقت لاحق. ربّما كان هذا الهامش من الإمتياز الإقتصادي هو الذي دعم سياساتي الناشطة والمثيرة للجدل بشكل غير مباشر. وبهذا المعنى تبيّن أنّ عائلة أمّي، دون أيّة نيّة للقيام بذلك، كانت من المتبرّعين الأساسيين، وهو ما مكنني أن أعيش سنوات منتصف العمر وما بعدها بحاجة مالية أقلّ ومزيد من الشعور بالأمان المالي. بدون مدّخرات خاصّة بي، أفلتُ مع ذلك من مخاوف والدي

المالية في المراحل الأخيرة من حياته. تشير تجربتي الى أنّ الميراث المتواضع يعزّز الحياة إذا تمّ انفاقه جيّدا، في حين أنّ الميراث الكبير دائما ما يكون مدمّرا، ويجب عدم السماح به.

لقد ادركت أنّه منذ الطفولة أنّني حاولت أن أفهم والدتي وأرى افعالها من وجهة نظرها، وابذل قصارى جهدي لتجنّب مشاعر المرارة والإستياء. على الرغم من أنّها لم تمنح أبدا أيّة عاطفة أو أبدت اهتماما كبيرا فيما إذا كنت قد نهضت أو سقطت في الحياة، فقد حاولت قبل الإنتقال الى كالِفورنيا والزواج مرّة أخرى لتكون صديقة من نوع ما، وتقدّم النصيحة وتحافظ على الحدّ الأدنى من الإتصال. كانت لديها بعض الصفات، التي اثارت اعجابي بشكل إيجابي، بما في ذلك توفير مأوى عاطفي للرجال المثليين، في وقت لم يكن هذا الأمر شائعا حتى في مدينة نو يورك. ربّما لم أكن لأطوّر دوافع ومهارات التعاطف العام إذا لم تكن والدتي لم تحبني أبدا «كأمّ». ما جاهدت لتحقيقه طوال الوقت هو القدرة على العيش في تعاطف نسبي مع أمّ رفضت التصرّف كأمّ أو حتى التظاهر بأنّها «أمّي». اصبحت وعلى نحو متزايد اعتقد أنّ هذا الكفاح، الذي استمرّ دون وعي كبير من جانبي، أنّه كانت له ايضا تأثيرات كبيرة على كيفية تعاملي خارجيا وداخليا مع أعمق مشاعري وإبراز المظهر الخارجي للصفاء والوضوح دون التغلب على الصراعات الداخلية مع الإضطراب والشكّ بالنفس وعدم الثقة.

لو كنت طفلا محبوبا

تساءلت من حين لآخر عمّا إذا كانت حياتي ستكون مختلفة لو كنت أفكّر في نفسي كطفل مرغوب فيه، وخاصة كطفل محبوب، أو كنت تلقيت الكم الطبيعي من عاطفة الأمّ وحنانها عندما كنت رضيعا. على الأرجح نعم، الى حدّ ما ولكن بشكل غير مؤكّد. بعد ذلك كنت سأحصل على فوائد حبّ الأمّ وعاطفتها، وربّما جعلني ذلك أكثر ثقة في الإرتباطات العاطفية مع تقدّمي في السنّ. غير أنّه، إذا بقيت أمّي غير سعيدة وملتزمة فقط بحكم الواجب كزوجة وأمّ، سأكون عانيت أكثر ممّا عانيت من انفصالها ورحيلها، وربّما من عدم وجود إمرأة بديلة Surrogate Female Presence عنها أثناء نشأتي، حيث أنّ والدي لم

يتزوج بعدها. استقرّ على سلسلة من العلاقات الرومانسية قصيرة المدى، لم تصل أبدا الى مرحلة تغيير طبيعة منزلنا من الناحية الزوجية.

حتى أثناء الطفولة المبكّرة، لم أندم أبدا بوعي على رحيل أمي أو غيابها عن حياتي. بطبيعة الحال، فإنّ التأملات حول ما يمكن أن يكون لا علاقة له تماما بما اصبحت عليه، وهي على أيّة حال تأملات غير موثوقة في الغالب. ربّما كان التأثير الأكثر وضوحا لهذا الفراغ الأمومي هو أنّني سأعيش حياتي بمشاعر شخص غير مرغوب فيها ويفتقر الى ما يستحقه. حاولت أن أعزل نفسي عن مخاطر والآم الرفض والتخلي عن التوقعات، لأنّني لم أشعر أبدا أنّني استحق حبّ الآخرين. في الواقع، لم اتمكّن من الوثوق بشكل كامل بأحد، وبالتالي لن أكون جديرا بالثقة الكاملة من قبل أحد آخر. لقد احتفظت أحيانا على مرّ السنين بخيارات من الحذر تحسّبا لانهيار علاقتي الأساسية. غير أنّه فقط وخلال الخمس والعشرين سنة الأخيرة من زواجي السعيد بهِلَيل، تعلمت تدريجيا أن اتقبّل الضعف Vulnerability، الذي يجب أن يصاحب ذلك التزام غير مشروط اتجاه الشخص الآخر، وفهم للطبيعة العرضية الحتمية للحياة، التي ترتقي بها البوذية Buddhism الى المبدأ الأول، وهو الإنفصال Detachment. لقد رفعت هِلَيل مستوى التوتّر من التعلق من خلال النظر الى أسلوبي الغزلي/ التملقي Flirtatious Style أحيانا باعتباره اختيارا حقيقيا لنوعية زواجنا، حتى أنّه أثار التساؤل عن حبّي لها والشعور بالتبرير في معاقبتي بانسحابها العاطفي Emotional Withdrawal عنّي من وقت لآخر.

بصرف النظر عن صعوبة الثقة في حبّ النساء وولائهنّ، كان الإرث الرئيسي لحرمان الطفولة هذا هو الذي تركني دون توقعات سامية لنفسي، وهي سمة اعتبرها جيدة وسيئة. لقد كنت أميل طوال حياتي الى التعامل مع رفضي وخيبات أملي على أنّها مُستحقة، أو على الأقلّ مفهومة لا تستحقّ الشكوى منها، ناهيك عن مقاومتها. ولكن من المفيد الفهم ثمّ المضيّ قدما والمحاولة مرّة أخرى.

كنت في بعض الأحيان اتعرّض للتحدّي، ليس من قبل النساء اللواتي توقعن أنّني كنت خائفا من الإلتزام، وحتى الحميمية Intimacy بسبب الأذى والإهمال

في طفولتي. حتى أنّني اتهمت في منتصف العمر بكوني «قاتلا متسلسلا» Serial Killer، بمعنى أنّني تركت ورائي ما وصفته مهاجمتي بأنّه «أثر من القلوب المكسورة». وجدت هذا الإدعاء ميلودراما لأنّهاّ اتهمني في تسبب ضائقة تفوق الواقع. لا اعتقد أنّني تركت ورائي مشاعر الإستياء العميق أو الأذى المستمرّ، على الرغم من أنّ بعض علاقاتي الأكثر نضجا انتهت بفشل ذريع. في وقت لاحق، ومع مرور الزمن، تمّت استعادة الصداقة وتزاحم الذكريات الإيجابية، مع كلّ الآلام المرتبطة بالإنفصال. على حدّ علمي، وعلى الرغم من ثلاث زيجات سابقة والعديد من الشريكات المقرّبات، إلا أنّني لم أعاني من طلاق طويل الأمد من قبل امرأة أحببتها من قبل. ومع ذلك فإنّي اعترف بأنّني غالبا ما كنت أواجه صعوبة في تلبية توقعات التقارب العاطفي والإثرائي و«العمل» لبناء علاقة مستدامة. وقد تعرّضت بسبب ذلك الى النقد. ولكن حين ادركني العمر أخيرا شعرت بأهميّة الأمر وبدأت أقرّ بهذه الضرورة وأبذل قصارى جهدي. في وقت سابق، كانت لدي فكرة أنّه إذا كانت العلاقات الأساسية تتطلب عبئا ثقيلا، فإنّها فاشلة بالفعل. الآن، على الأقلّ، اعلم بشكل أفضل أنّه لا يمكن الحفاظ على علاقة حبّ مع شريك دون بذل جهد واع، واحيانا مؤلم، يركّز على النقد الذاتي ويمتنع عن نقل اللوم عن الذات.

الحياة المبكّرة مع أب مُحبط

كان والدي رقيقا للغاية ومحبّا ومخلصا. لقد كان داعما بلا قيد أو شرط طوال سنوات نموّي، ممّا أدّى الى تعويض التأثير السلبي للأم الغائبة غير العاطفية. كان تأكيده على مَن أكون وما أفعل مفيدا بشكل خاصّ بالنسبة لي في فترة المراهقة عندما كنت مثل البليد الكئيب Dismal Dullard في عينيّ وحضوري المكسوف Eclipsed Presence في عيون معظم الآخرين. سمح لي هذا الإحساس بالدعم أن اخطو في الماء دون أن أغرق خلال طفولتي اللطيفة رغم إهمال أميّ وخلال فترة مراهقتي المبكّرة. أكتب هذا في وقت لاحق. بينما كنت أكبر، كنت جاهلا بمثل هذه الأمور، على الرغم من أنّني كنت أحسد أولئك الذين يبدون أكثر ذكاء وأكثر تماسكا ومحبوبين بشكل افضل.

شـابت حيـاة والـدي العديـد مـن المطبّـات علـى الطريـق، خاصّـة خلال العشرين سنة الأخيرة من حياته. لقد كان وطنيا تقليديا أحبّ البحرية الأمريكية Conventionally Patriotic, loved the U.S. Navy، لـم يؤيّد الصفقة الجديدة ولم يكن ليفهم أو يؤيّد ظهور «سياسات الهوية» Identity Politics. يمكن اعتبار آرائه حول العديد من القضايا الإجتماعية، التي تمّ اختبارها، على أنّها غير عصرية وفقا لمعايير اللِبرالية الحالية. على الرغم من ذلك، أعتقد أنّه سـيكره رئاسـة ترامپ مثلي.

إشترك أبي في الصور النمطية السلبية التي اظهرت التحيّزات الثقافية القياسية في ذلك الوقت ضدّ المثليين والنساء والأمريكيين الأفارقة. أكّد من خلال مواقف الإحترام والمودة الأمريكية التي صاغها الپروتستانت الأنگلوساكسونيين البيض، المعروفون باسـم WASPS. لـم تجلب له ممارسـته القانونية الكثير من الرضا أو المكافئات المادية، التي شعر أنّه يستحقّها. غير أنّ وظيفته اليومية كمحام قد هيأت له مصدرا وفيرا من الصداقات الوثيقة، بما في ذلك العديد من عميلاته الفاتنات، وابرزهنّ كلوديت كولبَير وزازا گابور. لـم يتبدّد أبدا شغفه بالبحرية المُستمدّ من دوره كعضـو فـي طاقـم صغير من أدميرال الأسـطول الأطلسـي Admiral of the Atlantic Fleet خـلال الحـرب العالميـة الأولـى. يبدو أنّ هذا المنصب في طاقم الإدميراليـة، الـذي كان معجبـا به للغاية، هو ذروة تجربة حياته. بالنسـبة له، كان الأمر مشابها لكونه نجم الوسط لفريق الكلية الفائز، أو إذا كانت فتاة فكانت ملكة العـودة الـى الحـرم الجامعـي في إحدى جامعات الغرب الأوسـط. بهذا التفاني والإنضبـاط الكبيـر، تمكّـن من كتابة العديد من الكتب القيّمة عن تاريخ البحرية في أوقات فراغه، ممّا عنى أنّه كان في المنزل بشكل أساسي في المساء بعد يوم في المكتب. حتى أنّه وجد ناشرين من الدرجة الأولى، وتلقى ذات مرة مراجعة على الصفحة الأولى لقسـم مراجعة كتاب الأحد في نو يورك تايمز، لكتابه عن صعود القوة البحرية اليابانية The Rise of Japanese Sea Power.

لقد كان لأبي العديد من التأثيرات القويّة، الإيجابية والسلبية، على حياتي منـذ بدايتهـا حتـى الوقـت الحاضـر. واسـتغرق الأمر منّي سـنوات عديدة لأجد بوصلتي الأخلاقية والسياسية Moral and Political Compass، واتخلص من ميوله

المحافظة والعسكرية ومعتقداته الشديدة المناهضة للشيوعية. لطالما واجهت مشكلة في التوفيق بين دفنه الشخصي ولطفه وتعاطفه مع افتقاره الى التعاطف العام وميوله للصور النمطية الرجعية والسياسات المرتبطة بها.

كانت لديه وجهات نظر حول دستور الولايات المتحدة ودور المحاكم، تتماشى تقريبا من الخطوط، التي دافع عنها بشكل مؤثر أنتوني سكاليّا. أعدّ أبي مخطوطة كتاب لم يجد أبد ناشرا لها، حتى من بين المعارضين لخطط روزفلت لتوسيع المحكمة العليا الأمريكية. كان روزفلت محبطا نتيجة رفض المحكمة العليا تشريعات الرفاهية التي قدّمها، فقرّر بشكل مثير للجدل في الثلاثينات زيادة عدد القضاة في المحكمة حتى يتمكن من تعيين العديد من المتعاطفين مع سياسات الرعاية الإجتماعية الخاصّة به، والتي تمّ حظرها قضائيّا. اندفع المحافظون الدستوريون وهم مسلحون بدعوى ما اعتبروه تهديدا للإستقلال السياسي للقضاء. أطلق منتقدو خطة روزفلت اسم «خطة تعبئة المحكمة» Court Packing Plan. كان مثل هذا التحوّل في التوازن القضائي يمنح الكونگرِس حرية أكبر في تشريع سياسات اجتماعية واقتصادية أكثر اعتدالا. كانت نيّة فرانكلِن روزفلت الخيرية تتمثل في تخفيف مصاعب الكساد الكبير على العمال والفقراء. وكانت مثل هذه المبادرات التشريعية والتنفيذية تتعارض مع طبيعة الجمهورية الدستوريّة. اتهم النقاد بأنّ مثل هذا العبث من شأنه أن يضعف التصميم الدستوري للحكومة على أساس الضوابط والتوازنات. بالنسبة الى الأصوليين الدستوريين مثل والدي، فإنّ هذه الفروع المتميّزة من الحكومة تستحقّ الإحترام والإلتزام بها حتى في حالة الأزمات عندما تتزايد الضغوط من أجل أن تكون ملائمة ورحيمة. هذه تحدّيات متكرّرة للجمهورية وتضع المحكمة العليا مرة أخرى في مرمى النيران. من الخطر دائما التحايل على القيود الدستورية لتحقيق نتائج قصيرة المدى تهدف الى خدمة «المصلحة العامّة». ومع ذلك فإنّ شلّ الحكومة بسبب هذا الجمود بين فروع تلك الحكومة في وقت الأزمة الإقتصادية والإجتماعية هو أمر يمكن الدفاع عنه ايضا، حين بدت الحالة بالنسبة لغالبية المواطنين الأمريكيين خلال فترة الكساد الكبير. إذا عادت الأوقات الإقتصادية الصعبة مرّة أخرى، فمن المرجّح أن تبرز توترات مماثلة.

إثر وصول ترامپ لمنصب الرئاسة اصبح احترام سيادة القانون ضئيلا، بما في ذلك الأشكال الدستورية للحكم، حيث تبدو الضوابط الصارمة على ممارسة السلطة التنفيذية حكيمة ومعقولة وفي ذات الوقت هشة للغاية، خاصّة حين تقع البلاد تحت سيطرة قيادة عديمة الضمير وذات سلوك غير مسؤول. لتنسيق فروع الحكومة، قدّم ترامپ على الأقلّ تقديرا متجدّدا لسمات «الجمهورية» وللتوتر الإبداعي، الذي تمّ إدخاله في دستور الولايات المتحدة منذ ما يقرب من 250 عاما. غير أنّ هذه الفضائل بحدّ ذاتها مشروطة. واعتمادا على ما رأينا، لا ينجح القانون والضمير الحسن لمترجميه لمنع التجاوزات الإستبدادية للسلطة الرئاسية، إلا إذا بقيت الفروع الحكومية المتعارف عليها مبدأيّة وحساسة بما فيه الكفاية لفوائد الحكومة الدستورية، بما في ذلك سيادة القانون وتقاليد ضبط النفس. يجب تجنّب توطيد السلطة من قبل ديماگوگي طموح Aspiring Demagogue يعتمد على معارضة معبأة في صفوف المواطنين، بالإضافة الى الكونگرِس والمحكمة العليا الواعية. كما أثبتت النزعة القانونية لألمانيا النازيّة أو الإتحاد السوفيَتي، فإنّ القانون بدون الأخلاق والإستقلال السياسي، هو مجرّد آلية اخرى تستخدمها الدولة لإنكار العدالة واضطهاد المواطنين. قد يكون من المفيد إدراك أنّ المستبدّين يحبّون القانون أكثر من الديمقراطيين.

ومع ذلك، إذا لم يخضع القانون لضغوط التغيير وكان مرتبطا بشكل صارم بالماضي، الذي لم يعد يخدم الناس، فسوف يعمل كأداة للسياسة الرجعية. سينتج مأساة إنسانية وأزمة سياسية. أضف الى ذلك، أنّ الإنتهازية القانونية يمكن أن تضرّ ايضا بنظام النزاهة الدستورية، كما كان الحال عندما تمّ إرسال الأمريكيين اليابانيين، بمن فيهم المواطنون، في بداية الحرب العالمية الثانية الى معسكرات الإعتقال لأسباب أمنية مزعومة طوال فترة الحرب، وهو اجراء أقرته المحكمة العليا. دفعتني هاتان الحالتان الى فهم أنّ الضرر الجسيم يمكن أن يحدث بالتساوي عندما يعمل القانون على سدّ المسارات الى العدالة الإجتماعية، كما يحدث عندما نفتح البوابات، التي تسمح للمطالبات الأمنية بإولوية على حقوق الإنسان الأساسية.

في سياق الكساد الكبير، أتذكّر أنّ والدي اصطحبني معه الى واشنطن لزيارة المحكمة العليا وأنا في سنّ الثامنة أو التاسعة. لقد ذهب للحصول على دعم لجهوده المعارضة لخطة روزفلت لتوسيع عضوية المحكمة العليا. أحضرني أبي، كما افترض الآن، للمشاركة في تجربة زيارة هذه المؤسسة المرموقة للحكومة الأمريكية. شعرت في ذلك الوقت، كما لو أنّنا سنقضي اليوم في حديقة حيوانات شهيرة لمشاهدة حيوانات نادرا ما نراها، مثل نمور الثلج. إلتقى أبي بشكل فردي مع سلسلة من القضاة، الذين أدركت فيما بعد أنّهم كانوا أشهر رجال القانون في البلاد، من قبيل لويس براندِز وهارلان فِسك ستون، مدرس وصديق والدي في كلية الحقوق، وفِلِكس فرانكفورتر.

كان يوما حارا من أيام شهر حزيران في العاصمة واشنطن، وأتذكر منه ثلاثة أشياء. اطلعني ستون على أنّ خزانة الكتب خلف مكتبه تحجب بابا خفيّا يفضي الى غرفة كبيرة تشبه غرفة الإستقبال. وهي نوع من الغرف الخاصّة الخفيّة، التي جذبت انتباهي الى المخابئ السرية. كما اتذكّر أنّ براندِز أمسك بيدي ونحن نعبر أحد الشوارع الواسعة في واشنطن للعثور على مطعم لتناول الغداء. وفي نهاية الأمر كله، تعبت بعد تلك السلسلة من الإجتماعات، التي حاولت خلالها عبثا عدم اظهار الملل. أتذكّر أنّني اعترفت أخيرا لأبي بأنّني «سئمت من القضاة» I am Judge–Sick. اتذكّر بأنّه طغى عليّ إحساس غامض في ذلك الوقت بأنّ الغرض من تلك الإجتماعات هو تأمين الدعم لوجهة نظره القائلة بأنّ روزفلت يمثل تهديدا وجوديّا لسلطة القضاء واستقلاليته، وعلى وجه التحديد تقويض المحكمة العليا. بدا أنّ أولئك الذين التقينا بهم متعاطفين مع مخاوف والدي.

عانى أبي من عدة مشاكل صحيّة خطيرة، وتحمّل خيبات أمل رومانسية، وكان دائما يعاني ضائقة مالية، وتوفي عام 1956 عن عمر يناهز 62 عاما. علمتني السلبية، التي عاشها خلال مرحلتي طفولتي ومراهقتي، دروسا استخدمتها لتوجيه سلوكي في اتجاهات مختلفة. لقد حاولت تجنّب تلك المزالق الخاصّة به قدر المستطاع. حتى الآن، وكنت محظوظا في هذه النواحي على الرغم من تجاربي الرومانسية المبكّرة، التي انتهت جميعا بشكل سيء، ولكن دون مرارة أو أيّ

شعور مؤلم بالفشل من جانبي. لم اتابع ولم أكن أغري نفسي أكثر من أيّ وقت مضى بملاحقة إغراء الحِسان، كما فعل والدي خلال الفترة التي اعقبت طلاقه من والدتي.

تمّ اختبار تقديري الواقعي لتلك القضايا بشكل محدود، وربّما تمّ اثباته بواسطة زازا گابور، التي كنت اعشقها. بدأ تأثيرها في سنوات المراهقة المبكّرة واستمرّ لأكثر من عقد من الزمن. جذبتني حياتها الجنسية المتألقة وانخراطها النشط للتمتع بالحياة بعمق، لكنّني لم أكن بعيدا عن الواقع. كنت اعلم أنّه على الرغم من استمتاعها بصداقتي إلا أنّ زازا كانت تكبرني بثلاثة عشر عاما. كان من دواعي سروري أن اتيحت لي الفرصة لتجربة تجسيدها للغنج الأنثوي الممزوج بالسحر والدلال. الآن وبعد أن اصبحت حرّا للإنخراط في الخيال، اعترف أنّني لو علمت بسعي إيمانويل ماكرون لمطاردة برِجيت عندما كان في سنّ 15 عاما وكانت في سنّ الأربعين، ربّما كنت سأستجمع شجاعتي وأجعل نفسي اضحوكة أمام الجميع. كانت زازا دافئة وصريحة معي وضحكنا كثيرا. لقد علمتني كيف العن باللغة الهنگارية. لقد عرضت هذا الجزء من حديث الشارع في بودابست مع مجموعة من الصبيان في قطار متّجه بنا الى ولاية مَين للذهاب الى المعسكر الصيفي. ثمّ فوجئت عندما قامت إمرأة كبيرة السنّ عبر الممرّ بتوبيخي بسبب «حديث الحضيض» Gutter Talk فلعنتها باللغة الهنگارية، ولم افعل ذلك ثانية منذ تلك اللحظة. ثمّ شاءت الأقدار أن يُعاد تدريبي بعد 20 عاما حين تزوجت من مجريّة غير موقرة. هذه هي الأنماط الغريبة، التي نسمّيها «حياة».

المربّيات والخادمات والخدم

كانت ممارسة شائعة لدى الطبقة الوسطى في مانهاتِن في ثلاثينات القرن الماضي، حتى بالنسبة لأولئك الذين يعيشون في الجزء الغربي العلوي من الجانب الغربي ولديهم موارد مالية معتدلة، لتوظيف النسوة اللواتي يقدّمن المساعدة المنزلية من الطبخ والتنظيف وترتيب البيت ورعاية الأطفال الصغار. كانت شقتنا كبيرة، ونتيجة لشغفي في ذلك الوقت، كانت لدينا حتى طاولة تنس

في غرفة يمكن استخدامها في معظم مساكن المدينة كغرفة مخصصة لحفلات العشاء. أذكر هذا كطريقة للإشارة الى أن تعلقي الشديد بالرياضة قد بدأ مبكّرا. ولا زالت الرياضة لحدّ الآن جزء من حياتي، حيث ما زلت استمتع بلعب كرة التنس وكرة الطاولة.

اتذكّر والدتي وهي تستشهد بالصورة المبتذلة لعصر ما قبل سپوك Pre-Spock Era «الأطفال يُنظر اليهم ولكن يجب ألّا يُسمَع لهم صوت!» وبدا في حالتي ايضا، «ألّا يُنظر اليهم إلّا بأقلّ قدر ممكن». في المناسبات القليلة، التي التقينا فيها بعد مغادرتها المنزل، عاملتني أمّي كشخص بالغ أكثر من أبي. رُبّما لم تكن مثقلة بالشعور بوجود شيء مميّز بين الأمّ والأب. أنا بالأحرى استمتعت بذلك. وبهذه الروح، ابلغتني ذات مرّة أنّ والدها الثري أخبرها من قبل أنّه سيوظف أفضل محام في البلاد إذا ارادت الحصول على وصايتي. إدّعت أنّها لم تقبل ذلك العرض لأنّها كانت متأكدة من أنّه ستنتج عنه معركة قانونية قبيحة طويلة مع أبي، ولن تكون جيّدة بالنسبة لي. لقد شكّكت حتى في ذلك الوقت أنّ هذا كان دافعها الحقيقي للتساهل بأمر الوصاية.

أتذكرّ لاحقا أنّه كانت لدينا طاهية مجريّة وخادمة مهاجرة من أيرلندا، إسمها برَيدي هُران لَيري، التي اعتنت بي، على سبيل المثال من سنّ 5 سنوات حتى 12 عاما. كانت برَيدي حنونة وصديقة بقدر ما كانت مربّية ورفيقة جيّدة. أخذتني كثيرا الى كنيسة سَينت پول الكاثوليكية الواقعة على مسافة قريبة من شقتنا في مانهاتِن. سمح لها ذلك بحضور القدّاس. لقد سمعت وشاهدت وأنا مفتون الى حدّ ما بأسرار طقوس الكنيسة. نظرا لأنّه كان القدّاس يُتلى باللاتينية، لم تكن لديّ أيّة فكرة عمّا يُقال أو يُفعل أثناء الأداء، ولم تحاول برَيدي أن تشرح أبدا، لأنّها بطبيعة الحال لم تفهم ما يُقال. ومع ذلك، فإنّ هذا التعرّض للممارسات الدينية جعلني أحسّ بالإنتماء للمجتمع، وهو الإنتماء الذي يتقاسمه أولئك الذي يحضرون مراسيم الصلاة في الكنيسة بانتظام. إذا نظرنا الى الوراء، إعتقدت أنّني ما فاتني منذ ذلك الوقت أن بدأت أحسد من يتحسّس مشاعر المجتمع والروحانية، التي بدت حاضرة في ذلك المحيط الديني، أو في أيّ محيط ديني تقريبا. كان لديّ اعتقاد مضلل أنّني لم افقد فكرة أنّ الدين هو **بالضرورة** دعوة

لتحسين ذواتنا وتغذية انفسنا نحو الأفضل. في وقت لاحق كطالب اصبحت مفتونا بمقارنة الأديان. لم أطوّر أبدا ارتباطا مؤسسيًا دائما بأيّ دين معيّن، على الرغم من أنّه بسبب تجاربي المبكرة في التواجد في الكنيسة، شعرت بأنّني أقلّ ارتباطا باليهودية مقارنة بالمسيحية خلال فترة طفولتي.

وفي وقت لاحق، اصبحت أشعر بالفضول حول جميع الأديان، مع استعدادي للغوص في أيّ منها ودراسة تقاليده. ومع ذلك وطوال حياتي لم أكن أرغب أن ألتزم بأيّ دين منظم سوى بطريقة سطحية بداعي الفضول أكثر من الإلتزام. مرّة واحدة فقط في أواخر العشرينات، اقتربت من الإنتماء الفعلي. وحتى هذا التصميم لم يدم طويلا وكان مشكوكا فيه ومتشابكا برومانسية التورّط. تخيلت نفسي في حالة حب لأمرأة كاثوليكية متديّنة كانت هي نفسها قد تحولت من الإسلام. ابلغتني أنّها ستأخذ مشاعري على محمل الجدّ إذا اعتنقت الكاثوليكية لأوّل مرّة. كنت اعرف في ذلك الوقت أنّه يجب الفصل بين الإنتماء المؤسسي والإرتباط العاطفي. ولكن في حالة الأرتباك التي واجهتها، اندمج الواقعان معا. في النهاية وقبل ساعات من موعد تعميدي المقرّر، شعرت بوجع ضمير فانسحبت.

خَلف برَيدي شخص أمريكي من أصل افريقي، كان أول مّن يدخل حياتي بطريقة شخصية قويّة. إسمه وِلِس مَوسلي في الأصل من مدينة كَنزَس بولاية مِزوري. عندما جاء للعمل لدينا كان قد تخرّج حديثا بتفوّق من جامعة كالِفورنيا. كان في عمر 28 عاما، وبدا لي كشخص بالغ مكتمل التكوين. كان طويل القامة (6 اقدام و3 بوصات) نحيفا وحسن الكلام. كان من المُفترض أن تكون وظيفته لدينا بمثابة فترة توقف مؤقتة خلال سعيه للحصول على وظيفة في أحد المسارح. ما زلت لا أفهم لماذا لم يتحقق ذلك، على الرغم من أنّه يبدو من المحتمل أن تكون العنصريّة قد لعبت دورا في حرمانه. إمتلك وِلِس صوتا آمرا Commanding Voice وكان ذكيّا بشكل مذهلٍ. علاوة على ذلك كانت لديه أكثر ضحكة معدية Most Infectious Laugh واجهتها على الإطلاق. كان وِلِس رائعا وساحرا وذا موهبة كوميدية ومثليّا بلا خجل. جعلته هذه المزايا جميعا شخصية كارِزميّة.

أزعجت شخصية وِلِس المتقدة والدي، الذي كان عنصريّا الى حدّ ما

وغير متقبّل للمثلية الجنسيّة. ومع ذلك وعلى الرغم من كونه «منزعجا» لم يكن على الإطلاق «رافضا» لحالة وِلِس وبدا مقدّرا لصفاته المُحبّبة العديدة، رغم الأختلافات الشاسعة بينهما. كان هناك مستوى من المودة والإحترام لبعضهما البعض، وهو الذي جعلني اعتقد، على الرغم من تنميط مقاربتهِ معَ وِلِس، أنّ أبي أظهر استعدادا تعويضيّا لعمل استثناءات، لأنّ بعض اصدقائه المُقرّبين مثليين بشكل علني. مثلما كان تأثير خدم الأسرة عليّ أكثر من تأثير اسيادهم، ربّما فتح رجل مثليّ عينيّ على متاعب الحياة ومباهجها أكثر ممّا فعل الناس العاديّون. خلال سنوات مراهقتي وخبرتي الجامعيّة المبكّرة، قدّمني وِلِس الى دائرة اصدقائه المتعدّدة الأعراق، وكثير منهم منخرطون في الفنون، وأخذني معه مرّة الى حفلات مثليّ الجنس. مرّة أخرى وكما هو الحال مع الكنيسة، لاحظت بشدّة مشهد المثليين دون اصدار أحكام عندما شاهدت رجالا يظهرون علاقات جسديّة حميمية مع بعضهم البعض. لم أشعر بأيّة جاذبية، أو حتى إزدواجية، في الحفاظ على مسافة اجتماعية على أمل تجنّب المواجهات المحرجة.

مرّة واحدة فقط، بعد أيام من وفاة والدي، سعى وِلِس الى نوع من الحميمية الجسدية معي من خلال القفز الى سريري بينما كنت مستلقيا. عندما تركت سريري ممتعضا بشكل واضح، إنسحب بهدوء دون التقليل ممّا اصبح صداقة دافئة. أتذكّر أنّ شعوري الوحيد بعد ذلك كان الأمل في ألّا أكون قد جرحت مشاعره من خلال طريقة رفضي. بقدر ما استطيع أن اقول، فإنّه لم يشعر بأي أذى. أدركت بعد سنوات فقط، أنّه كان هناك بلا شكّ جانبا عنصريّا أيضا. عندما يرفض صبيّ ابيض تقدّم/تحرّش رجل اسود بهWhite Boy Rejects a Black Man's Advance، يجب أن تكون لذلك نغمات عنصريّة Racial Undertones شديدة حتى لو كان الدافع وراء ذلك الرفض بريئا.

أثّرت بقايا لقاءات الطفولة هذه على مَن أصبحت فيما بعد، وغرست رفضا صارما للحكم على خيارات الآخرين لأسلوب حياتهم. ظلّ الأمر كذلك على الرغم من أنّني اتبعت مسارا تقليديا الى حدّ ما. لقد سُررت أنّ اصدقائي في المدرسة الثانوية والجامعة اجتمعوا حول وِلِس في مطبخنا حيث كان يجلس

بهدوء وسحر وذكاء آسر. فقط أختي جوان، المضطربة عقليا ولكن مُحبّة ودودة ذات حيوية رائعة، كانت جذابة نسبيّا داخل حدود شقتنا. كان لها ولوِلِس تأثيرات مغناطيسية على اصدقائي.

نحن جميعا بحاجة الى اشخاص نقتدي بهم

كان كلّ من وِلِس واختي، على الرغم من الصعوبات الهائلة التي يواجهانها، قدوة إيجابية بالنسبة لي، وبالإضافة لذلك جعلاني أدرك عيوبي. وِلِس كأمريكي أفريقي ذكي ولطيف ومضحك ولائق ومثلي الجنس قد ساعدني بلا شكّ في رؤية الناس كما هم، وليس من خلال الإنماط الضارة، التي شيّدتها العنصرية البيضاء والفصل الطبقي الذاتي، الذي ساد الأعراف الإجتماعية في شمال البلاد، الذي يشعر بالرضا عن نفسه. للأسف لم يجد وِلِس النجاح الذي كان يحلم به على المسرح. ولكن على الرغم من خيبات الأمل والقيود، ظلّ شخصية حيّة ومحبوبة. هل هناك إنجاز في الحياة أعظم من هذا؟

عندما كنت مراهقا، تعرّض والدي لبعض الضغط من قبل اصدقائه البروجوازيين الى حدّ كبير «لصرف وِلِس» الذي أحبّ العيش مع الطبقة المميزة في مانهاتِن، رغم سيطرتها التقليدية على مصير الآخرين الأقلّ حظا. السبب الذي طرِح هو حمايتي من أن اصبح مثليّا فاسقا، لا سيّما في غياب ارشاد الأم التي تركت المنزل. لحسن الحظ، استشارني والدي فطلبت منه ألّا يلتفت لتلك النصائح غير المرغوبة وغير الضرورية، فنجحت مناشدتي.

ظلّ وِلِس عنصرا أساسيّا في عائلتنا حتى وفاة ابي. كان هذا عرضا مثيرا للإعجاب بشكل مميّز لاستعداد أبي للإبتعاد عن التقاليد الرجعية، التي اعتنقها، إذا كان ذلك هو ما تمّت دعوته لإفساح الطريق لمن أحبّهم. أصبح وِلِس يعاني من مشكلة خطيرة في الشرب، وقد احتجزته الشرطة في عدة مناسبات لإغرائه شركاء جنسيين في شوارع مدينة نو يورك في وقت سادت فيه المواقف المعادية للمثليين والعنصرية لا سيّما بين افراد الشرطة. على الرغم من عقود التقدّم المُفترض في التغلب على العنصرية المتأصلة، أشكّ في أنّ وِلِس كان سيُحقق مستقبلا أفضل في المناخ الحالي.

دراسة القانون والحياة

كان والـدي محاميـا لـم يفكّر كثيرا في القانون بل أكثر في تكوين صداقات دائمـة مـع العديـد من وكلائه، الذين بـدا منبهرا الى حدّ ما بالعديد منهم، خاصّة وكلائه المشاهير. لم يدفعني أبدا الى اتباع طريقه المهني، لكنّه كان الطريق الوحيد الـذي عرفتـه كمراهـق. كنـت أفتقر الـى فكرة واضحة حول مـا يفعله المحامي، بخلاف حمل الكثير من المستمسكات السميكة الثقيلة لقضايا مختصرة، وصداقة الوكلاء والأمل في نوع من التسويات المُربحة، التي كانت في حالة أبي متخيلة أكثر من كونها حقيقية. كانت لديه حكايات عن حالات وشيكة كان يرويها كثيرا لشرح محنته الإقتصادية الحالية. ألقى باللوم جزئيا على رفض شركائه القانونيين قبـول رسـوم طارئـة مـن اصحاب رؤوس الأموال، الذيـن كانوا من بين عملائه. وفقا لروايته، كان يمكن أن يحقق العديد منها نجاحات كبيرة، لو كان شـركاؤه أكثر صبرا، ولكانوا جميعا أثرياء نسبيّا. لقد استمعت الى حكاية الفرص الضائعة هذه، ولم أكن مقتنعا بها علما بأنّي لم أشكّ بكلماته إطلاقا.

لقد تولّدت لديّ فكرتان متناقضتان الى حدّ ما خلال تلك السنوات، لكنّهما ليسـتا دقيقتيـن تمامـا. أوّلا، يشـعر المحامون دائما بالملل مـن عملهم. ثانيا، إنّ مهنـة المحامـاة هي طريق سـلس الـى حدّ معقول للإحتـرام الإجتماعي والأمن الإقتصادي في المجتمع الأمريكي. يقدّم القانون خطة B C لأولئك الذين مثلي، ممّن لا يملكون المواهب العلمية أو الفنيّة، وليس لديهم شهيّة للعمل خاصّة في ميدان الطبّ، وليس لديهم وعي بأنّ حياة الخدمة العامة قد تكون خيارا.

في وقت لاحق، عندما التحقت بكلية الحقوق دون أدنى فكرة عن نوع المهنة، التي يجب أن أتابعها، شـعرت بالإسـتعداد للإنجراف الى أيّ مكان يودعني فيه التيار في النهاية. كان أن ينتهي بي المطاف في الحياة الأكاديمية بعيدا عن توقعاتي بشأن مستقبلي، كأن أصبح رائد فضاء أو عازف بيانو. في تلك السـنوات دُفعت الى الأمام بسـبب الشـعور بالتوتر بأنّني يجب أن أعدّ نفسي لنوع من المهنة وألّا سأغرق الى الحضيض. كان لديّ بعض الإهتمام بالتعبير عن افكاري من خلال الكلام والكتابة، وليس عن طريق المحاماة. بدا

لي في وقت مبكّر أنّ المحامين الناجحين، الذين عرفتهم عندما كنت طفلا كانوا إمّا يساعدون الإثرياء على أن يُصبحوا أكثر ثراء أو يسعون الى تقليل آلام وكلائهم الأثرياء، الذين كانوا يفعلون اشياء سيئة. في وقت لاحق، أصبحت أقدّر أنّ بعض المحامين كانوا ابطالا وآخرين عاشوا حياة مثيرة، خاصّة المحامين المجانيين Pro Bono والمحامين ذوي التوجّه التقدّمي. لقد تأثرت بشكل خاصّ بصداقتي مع لِنُرد بودين، وهو محام يساريّ موهوب يُحبّ قضاء الوقت في نادي جامعة هارفَرد، وكان فخورا بشهادته في القانون من تلك الجامعة، مثلما كان والدي فخورا بكونه ضمن طاقم البحرية الأمريكية.

لقد تعاملت مع تحديات مرحلة البلوغ بمشاعر مفادها أنّ الحصول على شهادة في القانون هو طريقة محترمة لتأجيل اختيارات الحياة وخلق خيار من شأنه أن يسمح لي بالطرق على العديد من الأبواب بمجرد حصولي على تلك الشهادة. تعلمت أيضا من والدي تقديس الكلمة المكتوبة والمنطوقة، وكنت اتطلع الى رؤية إسمي يوما ما على صفحة مطبوعة. تخيلت أيضا إثارة الحشود الكبيرة بينما كنت اتحدث من شرفة تطلّ على ساحة كبيرة مليئة بالحشود المتحمّسة المتجاوبة والمتعلقة بكلّ كلمة أقولها. كنت أزعج نفسي أحيانا لأقوم بتمثيل هذه الأوهام الديماگوگية أثناء النوم.

على الرغم من الإعتماد المهين المتأخر في الحياة على «أجهزتي» (الكومبيوتر المحمول والآي پاد والآي فون)، لم أفقد أبدا ميلي للكلمة المكتوبة/المطبوعة، وآمل أن أموت قبل أن يحصل ذلك. أمّا بالنسبة للتحدّث، فقد طوّرت عن طريق الكثير من الممارسة قدرتي غير الجذابة للتعبير عن الأفكار والمشاعر بوضوح وبشغف موثوق به. أعتقد أنّني تجاوزت ما كان يمكن توقعه في شبابي. لقد شعرت بالتواضع من خلال حصولي على درجة C في موضوع الخطابة العامّة. كما أنّ أدائي كمتحدث يشوبه خجل عام محرج قد صاحبني طوال حياتي. على الرغم من آلاف الأحاديث العامة، لم افقد أبدا الخوف الوجودي من أن أبدو أحمقا في عيون أولئك الذين أحترمهم أو أهتمّ بهم.

الرياضة والألعاب

لا استطيع أن اتذكّر أصول حبّي للرياضة والألعاب، لكنّني أعرف أنّه بدأ مبكّرا، وظلّ معي طوال حياتي، حين تكيّفت على مدى عقود مع مرافق المكان وقيود العمر.

لقد تعلمت لعب البيسبول عندما كنت في الثامنة أو التاسعة من العمر وضُربت في رأسي مرّة أثناء اللعب، لكنّ كرة الطاولة أصبحت «رياضتي» المفضلة الرئيسية في وقت مبكّر. جاء ت لعبة كرة المضرب والأسكواش وكرة السلة وحتى كرة القدم الأمريكية في وقت لاحق. بلغت حياتي الرياضية ذروتها في مدرستي الثانوية حيث تمكنت من اللعب في فرق كرة السلة والبيسبول وكرة المضرب. لعبت ايضا البيسبول ضمن الإتحاد الأمريكي The American Legion في منطقة فان كورتلاند پارك، وكان من حسن حظي أن أحظى بأفضل يوم لي في المضرب عندما صادف حضور أحد مسؤولي دوري البيسبول ليشاهد تدريبات الفريق. شعرت بالدهشة والإثارة لتلقي دعوة للمشاركة في دوري كبير في ملعب پولو گراوند، حيث لعب فريق نو يورك جاينتس قبل انتقاله الى مدينة سان فرانسسكو. كنت متوترا عندما جاء اليوم العظيم بالنسبة لي. خفت عندما ضربت ضدّ مجموعة من الرماة الصغار المتوحشين، الذين كانوا يقذفون الكرات من تلّ كبير. لم أتعوّد من قبل على شيء كهذا. أعلم أنّني كنت سعيدا بالذهاب الى نادي المزرعة ذي المستوى الأدنى ضمن فريق نو يورك جاينتس، لو قبلوني. أظهرت سرعتي في الركض وعدا كافيا، الّا أنّ رميتي من القاعدة الثالثة أعطت تلميحا بسيطا بأنّه قد تكون لديّ يوما ما إمكانات كبيرة في الدوري. لم يكن ذلك التلميح كافيا، ولذلك وُدّعتُ بالإبتسامات الوديّة.

تعلمت الشطرنج في نهاية المدرسة الثانوية، ولعبت بكفاءة على مستوى الهواة، ودرست اللعبة فقط بطريقة سطحية متقطعة. يظلّ الشطرنج نشاطا يجلب لي المتعة، ولكن لم يكن لدي أبدا اصدقاء ثابتون في هذه اللعبة. إستمتعت دائما بمعرفة المزيد عن اللعبة من خلال لعب لاعبين أفضل. لم أكن اهتمّ بالخسارة إلّا عندما ارتكب أخطاء فادحة أقلّ من مستوى مهارتي، ممّا سمح للخصوم

الأضعف بالإنتصار، والذي ربّما كان دليلا على سمة شخصيّة تجلت في العديد من المباريات التنافسية. العب من قت لآخر مع إبني دِمِتري، الذي يتمتع بالتفكير والصبر والمنهجية. وهو أمر لا يخالف الطريقة التي يفكّر بها أو يعيش حياته.

ما زلت ألعب الشطرنج، ولكن في السنوات الأخيرة تقريبا وبشكل حصري، العب مع أحد خصومي من برامج الكومبيوتر، الذي يثبت مهارات القائد الكبير ويثبت ذلك بهزيمتي باستمرار. لم أفز قطّ ضدّ برنامج ChessPro. في بعض الأحيان أصل الى نهاية اللعبة على قدم المساواة، ولكن سرعان ما يتغلب عليّ بالمناورة. أدرِكُ أنّني لا أملك الدافع أو المعرفة لتحقيق إمكاناتي الكاملة في لعبة الشطرنج. لكنّني أظل راضيا عن مستوى اللعب الكفء. وهذا الإفتقار الى التفاني الجاد هو الذي حدّ من لعبي لكرة المضرب.

أثناء تواجدي في جامعة بِرِنستُن، كان العديد من أقرب الصداقات لي مع خصوم كرة المضرب والاسكواش المنتظمين. كنت ألعب يوميا وأضحي بالغداء وببناء الشبكة الأكاديمية Academic Network Building الذي يترافق في العادة مع أوقات تلك الوجبات. لقد استمتعت بالقدرة التنافسية لدوري الأسكواش وقدّمت أداء جيدا في لعبة كرة الطاولة، واصبحت على أفضل مستوى على مرّ السنين. وعادة ما كنت أفوز بالبطولات في مرحلة الكلية الأولية ومن بعدها في كلية الحقوق. وصلت ذروتي في كرة السلة وفي بطولة كرة الطاولة على المستوى الوطني في عام 1955. لقد وصلت الى الجولة الثالثة، ولكن على حساب رسوبي في اختبار نقابة المحامين في نو يورك NY Bar في محاولتي الأولى.

عند دخول الكلية أصبحت لعبة اليوكر على الفور من ضمن اهتماماتي، حيث ألقت بظلالها المظلمة، شبه المميتة خلال سنتي الأولى في جامعة بَنسِلفَينيا في مدينة فيلادلفيا. كنت العب اليوكر في كلّ ليلة تقريبا وكنت أربح باستمرار، ولم يكن لدي سوى دافع ضعيف لإكمال مهام الدورة التدريبية أو الحصول على قسط كاف من الراحة لأكون منتبها في محاضرات اليوم التالي. قرب نهاية العام الدراسي، تمّ إجباري على ادراك تكلفة تلك السلوكيات الغريبة Antics، لكنّني كنت بطيئا في اصلاح طرقي الضالة Wayward Ways، على الرغم من أنّني

فعلت ذلك في النهاية بسبب الخوف من الفشل بشكل أساسي.

لقد تمكنت أيضا من الحصول على موقع تقريبا ضمن فريق كرة السلة للطلبة الجدد في بَنسِلفَينيا، وحظيت بشهرة كبيرة وبقيت ألعب مع الفريق حتى آخر شوط. كما لعبت كرة المضرب الفردي في الفريق الجديد. وخلال هذا الدور قمت بزيارة جامعة بِرنستُن وخسرت أمام خصمي بعد المشقة وقطعان النفس، حيث انتهت معظم كراتي في الشبكة. يمكنني تذكّر تلك الهزيمة المريرة وكأنّها جرت بالأمسِ! لازمتني الإخفاقات بمرور السنين أكثر من النجاحات.

لم تختفِ حياتي الرياضية والألعاب تماما. كنت ناجحا بشكل معتدل على مرّ السنين في لعب البوكر والشطرنج والبِليارد ولعبة الداما Checkers وفي كوني «لاعب نادي» مقبول في كرة الطاولة والبولِنگ Bowling وكرة المضرب والأسكواش. كان من الممكن أن أكون بمستوى أفضل الى حدّ ما لو تلقيت دروسا وعملت بجدّ بمفردي. لكنّني لم أحشد طاقتي أو أمتلك الطموح الكافي، وبالتالي بقيت راضيا بالتنافس مع أولئك الذين هم في مستواي الى حدّ ما. حتى لو حاولت بجهد أكبر للوصول الى إمكاناتي، فمن المحتمل ألّا يكون الفرق كبيرا. كنت أفتقر الى الإمكانات الجسدية والعقلية اللازمة للتميّز الحقيقي في الألعاب الرياضية أو الألعاب بشكل عام.

في الوقت ذاته، منحتني مشاركتي بالرياضة والألعاب فوائد استمرّت مع تطوّر حياتي عبر مراحلها المختلفة. أعزو صحتي العقلية والبدنية كشخص بالغ الى تفانيّ بالرياضة والألعاب. يبقى علاجي، وكما أحببت أن أشرح، وجدت مثل هذه اللعب أكثر فعالية وأرخص بكثير وأكثر ارضاء من تجربتي مع ثلاثة من المعالجين النفسانيين المحترفين Professional Therapists. وفّرت الرياضة والألعاب ملجأ لما احتجته من شعور التوازن عندما سارت الأمور بشكل سيء في المنزل أو في العمل. أصبح زملائي من لاعبي كرة المضرب والأسكواش المنتظمين ولا يزالون هم الأصدقاء الحقيقيون خارج الملعب.

إنّ إبنيّ دِمتري ونوح موهوبين رياضيا أكثر منّي، وفي النهاية تغلبا عليّ حتى في كرة الطاولة وكرة المضرب، وهزمني إبني الثالث، كرِس، في لعبة الأسكواش منذ 40 عاما أو نحو ذلك، عندما كنت لا أزال ألعب بأعلى مستواي. أن أكون في

عائلتي أفضل ثالث لاعب في كرة المضرب وكرة الطاولة وثاني أفضل لاعبين في الأسكواش لا يوحي بإمكانات أولومپيّة. ومع ذلك، فإنّ وجودي بالمستوى المتوسط لم يقلل أبدا من استمتاعي بالرياضة، حتى بعد أن قللت ركبتي المصابة من حركتي الرياضية الى ما يقرب الصفر. كانت الرياضة مصدرا قويّا للترابط مع أطفالي الذكور، والذي استمرّ حتى وقت اصبحوا في منتصف العمر. وأكثر من ذلك مع زوجتي هِليل، التي تبيّن أيضا أنّها موهوبة في الألعاب الرياضية، التي تعتمد على التنسيق بين حركتي العين والكرة.

تساءلت أحيانا عمّا إذا كانت انجازاتي المتوسطة في الرياضة والألعاب ليست ايضا من سمات مسيرتي المهنية كمدرس وكاتب. في أكثر اللحظات انتقادا لذاتي، أنسِب نجاحي المهني الى المثابرة وليس الى الموهبة. لقد تقبلت ما ذكره جَيمس بَولدِون في كلمته عندما ذكر، «ما وراء الموهبة، كذب كلّ الكلمات المعتادة؛ الإنضباط والحبّ والحظّ، ولكنّ الأهمّ من ذلك كله هو التحمّل Endurance». في أوقات أخرى، أشعر أنّ لديّ قدرة خاصّة الى حدّ ما على التحليل والتفكير في القضايا السياسية والقانونية الصعبة، وكذلك تحديد هويتي الفكرية بطرق يجدها الآخرون المتعاطفون أصيلة الى حدّ ما ومُبتكرة وبعيدة عن الإتجاه السائد لأكون تقدميّا عنيدا. لقد جلب لي هذا المزيج مكاسب وخسائر قليلة في كلّ مرحلة من مراحل حياتي.

جاءت الثقافة الكلاسيكية في وقت لاحق

لقد نشأت محاطا بسكان نو يورك المحنكين Sophisticated، ولكنّ الغريب أنّني لم اتواصل كثيرا مع الحياة الثقافية للمدينة، التي أحاطت بي. لم تلعب الموسيقى الكلاسيكية ولا الأوپرا ولا المتاحف وحتى لا موسيقى الجاز والرقص والشعر والأفلام الجادة، أيّ دور في تربيتي. لقد شاهدت بعض العروض متوسطة المستوى مثل مسرحيات برودوَي الموسيقية مثل جنوب المحيط الهادي *South Pacific* وقبّليني يا كَيت *Kiss Me Kate* والشباب والشابات *Guys and Dolls* وقليلا من مسرحيات شكسپير، لا غيرها. إنجذب أبي في سنوات شبابه الى الأدب الجادّ من النمط الكلاسيكي، لكنّه رفض المشهد الفني/الأدبي المعاصر،

ورفض الفن التجريدي وكتابة تيار الوعي والجمل الطويلة، التي تميّزت بها أعمال جَويس وفولكنر. ومن المفارقات أنّ هذا بالضبط ما أحببته لاحقا.

لـم يكـن عنـدي تحمّل أو فرصـة او الإنضباط لـدروس البيانو أو الرقص. ونادرا ما كنت اتعرّض لطرق اخرى لتعميق علاقتي بالأنشطة الثقافية، على الرغم مـن أنّـني كنـت أعيـش في بؤرة اعظم مركز للثقافة المعاصرة في العالم. كان من المفارقات الى حدّ ما أن أعيش ليس بعيدا إطلاقا عن مركز لِنكِن خلال السنوات الأربع والعشرين الأولى لي على هذا الكوكب، ولكن لم أحضر هناك أبدا حفلة باليه أو أوبِرا أو حفلة موسيقية.

قُمنـا بزيـارة منـزل واسـتوديو جاكسُـن پَولـوك، حيـن كنت في سـنّ 12 أو 13 عامـا. كان پَولـوك بالفعـل رسـاما معاصرا مشـهورا يعيـش ويعمل في منطقة هامپتُـنز. إشـتهر بتجنّـب نقـاد الفـنّ والمترجميـن الفوريين لأعمالـه. ومع ذلك دعانـي للحضـور الى الأسـتوديو الخاص به لمشـاهدة بعـض اعماله التي كانت قيد التنفيذ. لم يسبق لي أن رأيت لوحات رسمها باسلوب الرسم المثير للجدل والمتمثـل بـرَشّ الألوان عشـوائيا على ارضية اللوحـة Controversial Drip Style Painting، الـذي اتقنـه. شـعرت بالإطـراء من قبل شـخص كنت أعـرف أنّه فنان مشهور. استمعت عن كثب ونظرت الى اعماله باهتمام شديد وهو يشرح بصبر سبب تطويره لأسلوب رَشّ الألوان ورسم الخطوط كطريق الى الجمال والنشوة، وبالتالـي التغلـب علـى ما يعتقد أنّه الإرث المنهـك للفن التصويري أو التمثيلي Figurative or Representative Art. لقد كانت تجربة عاشـت معي وأتذكّرها في كلّ مرّة أرى فيها لوحة لپَولوك معلقة على حائط متحف.

في وقت لاحق فقط في سنوات دراستي الجامعية الأخيرة، بدأت التعرف علـى تلـك الأبعـاد الثقافيـة وحاولـت أن أتعلـم قـدر الإمكان عـن الدين والفن والفلسـفة والحضارات غير الغربية، كما كنت أعرف عن الرياضة. كنت ارغب في الإنخراط مع أشخاص، خاصّة الفتيات، اللواتي شاركن ثقافيّا وحيويا بشكل حسّي Culturally Engaged and Sensuously Alive.

مع استمرار الرياضة في جذب اهتمامي طوال حياتي، كذلك كانت الثقافة حيـث أنّـي منفتـح على مجموعة واسـعة من طرق التعبير الفنية، وخاصّة الشـعر

والأفلام والأدب والرسم، وبدرجة أقلّ الموسيقى والرقص والأوبرا والمسرح. هذا الحبّ للثقافة، العالية والشعبية، لم يُثري تجربة حياتي فحسب، بل خفّف أيضا من حدّة معتقداتي السياسية وطموحاتي المهنية.

أثناء زواجي من فلورنس، زوجتي الثالثة وأم أبنيّ دِمِتري ونوح، إستمتعت واستجبت بشكل إيجابي الى المسرح التجريبي المعروف في نو يورك باسم «خارج برودوَي». شاهدت اعمالا مسرحيّة لرِچرد فورمّن وروبرت ولسُن وجِرزي گروتوفسكي، التي غالبا ما تمّ عرضها في لا ماما أو المسرح العام أو أكاديمية بروكلِن. مرّة أخرى، وعلى الرغم من الحرص على أن اكون مرتبطا ثقافيا، فإنّي نادرا ما كوّنت صداقات مع شخصيات فنيّة إبداعية، ما لم يكن هناك جانب فرعي رومانسي.

كتبت الشعر منذ أواخر العشرينات من عمري، ونشرت بضع قطع خلال السبعينات، لكنّني لم أؤمن بنفسي كشاعر «حقيقي» إلّا في بعض الأحيان في عزلة عندما كنت اعجَب احيانا بقصائدي. أخيرا في الخامسة والثمانين من عمري، قمت بنشر مجموعة قصائد تحت عنوان «في انتظار قوس قزح». تمّت الإشادة بهذه المجموعة بحرارة، ولكن فقط من قبل الأصدقاء والأقارب، ممّا كبح الكبرياء الزائفة. في الوقت نفسه، جاءت بعض التعليقات الإيجابية من بعض القرّاء، الذين لهم اهتمامات شعرية ومواهب جميلة رائعة للتمييز، ممّا جعلني آمل وأحيانا أعتقد انّهم لم يكملوا حقيقة قراءة مجموعتي الشعرية بكاملها.

سأبقى في «الخزانة» كشاعر لبقية حياتي، ما لم يُخرجني أحدهم، وهو ما سأكون ممتنّا له بلا شكّ. من وقت لآخر،أميل لأن أبعث اشياء الى مجلات الشعر لمعرفة ما إذا كان بإمكاني أن يكون لي حضور أكثر وضوحا. هذا التناقض تجاه عملي لا يزال بدون حلّ، وما زلت غير راغب في أخذ نفسي بجديّة أكبر إذا تطلب الأمر منّي صرف الوقت والطاقة.

أدرِكُ شيئا غريبا. أنا خجول حيال الرفض، لكنّني جريء في معارضة ما لا أصدّقه. لا مانع أن يُنظر اليّ على أنّني خاطئٍ أو يساري أو طوباوي أو أيّ شيء آخر، إذا كانت المخاوف تتعلق بآراء راسخة حول القضايا العامة. لم أحبّ أبدا مناقشة آرائي ووجدت التجربة مستقطبة وغير مجزية. لكنّني أرحّب بالمحادثات

والحوارات المؤدبة Civil Conversations and Dialogue، بما في ذلك مع أولئك، الذين أختلف معهم، وأحيانا بشكل خاصّ معهم. ليس من المُستغرَب أن أجد أنّني غالبا ما اتعلم من المعارضين المُحنكّين أكثر من الحلفاء. تمّ اختبار هذا الأمور على موقعي، وهو طريقة للتواصل مع جمهور غير معروف وغير مرئي الى حدّ كبير. وهونشاط بدأته بعد عيد ميلادي الثمانين.

أن تكون يهوديّا

تعلمت في وقت مبكّر من حياتي أنّ كون المرء يهوديا له دلالة في المجتمع الأمريكي. غير أنّه لم تتح لي الفرصة مطلقا كطفل للتعرّف على التقاليد اليهودية وممارساتها الدينية. في المنزل، لم اتناول الطعام والأكلات العرقية مثل Bagels and Lox صباح يوم الأحد، ولم يتم اصطحابي الى كنيس يهودي في الأعياد اليهودية. اتذكّر شطائر البسطرمة ومخلل الملفوف وكعكة الجبن الرائعة في مطعم Stage Deli on Sixth Avenue أو كافتريا Lindy’s on Broadway، القريبين من شقتي لبضع دقائق مشيا، إذ كانت أماكن الإستراحة اليهودية الشهيرة هذه على مسافة قصيرة من شقتنا. لقد جرّبت مواقع «الطعام المقدّسة» هذه كجزء من مشهد وسط مانهاتِن أكثر من كونها أماكن يهودية بشكل خاصّ.

ليس لديّ ذكريات عن أبي وهو يتحدّث عن اضطهاد اليهود أو معاداة الساميّة أو إسرائيل، أثناء أو بعد الحرب العالمية الثانية. كان المصدر المهيمن على هويته هو جهوده المستمرّة طوال حياته ليكون ويُنظر اليه على أنّه أمريكي كامل الأهلية. لقد كان مشغولا خلال طفولتي بالتهديدات الخارجية، التي شكّلتها ألمانيا على المستقبل الأمريكي، بل وأكثر من ذلك من قبل اليابان. خلال سنواتي حتى الجامعة، كنت من بين عدد قليل من اليهود في مدرستي، التي كانت نسبة الطلبة اليهود فيها 90%، وربّما الوحيد الذي كان مطلوبا منه حضور الدروس في الأعياد اليهودية.

كان ابي ودودا مع إدگر نَيثِن، المحامي المحافظ البارز في نو يورك واليهودي من طائفة السفرديم الأرثوذُكس Orthodox Sephardic Jew، الذي اصبح رئيسا لمانهاتِن بورو Manhattan Borough في وقته وداعما لبيان تومَس

دِيـوي عندمـا ترشـح للرئاسـة عن الحزب الجمهوري ضدّ هـاري ترومَن. تمّت دعوتنـا مـن قبـل إدگـر لقضاء ليلة الإنتخابات عام 1948 في مقرّ دِيوي الواقع في نقابـة المحاميـن بمدينـة نـو يورك في شـارع رقم 44. لقد كانت تجربة لا تُنسـى وتركت لمسـة في ذاكرتي. سـاد جوّ احتفالي خلال المسـاء حين بدا واضحا من النتائج المُبكّرة أنّ دِيوي في طريقه للفوز. كان هذا قبل أجراء مقابلات الخروج والإسـتطلاعات العلميـة، كمـا نعرفها الآن. غادر دِيـوي مقرّه في منتصف الليل تقريبا ليأخذ قسطا من الراحة والنوم قبل القاء خطاب النصر المتوقع صباح اليوم التالي. غير أنّ ذلك الخطاب اقتصر على بيان اتّضح أنّه بيان للتنازل والإعتراف بالهزيمة في الإنتخابات. كنت غير مبال بنتيجة تلك الإنتخابات، على الرغم من إحراجـي لأنّنـي كنـت قد كتبت إفتتاحية لجريدتي المدرسـية دعمت فيها دِيوي. لقد جعلني ذلك رجعيا خارجا عن الجو اللِبرالي بأغلبية سـاحقة في مدرسـتي الثانوية فيلدستَون في نو يورك.

كجـزء لتعزيـز أحلامـه البحريـة، أرسـلني والدي الـى أكاديميـة الأدميرال فرّگَوت. وهي أكاديمية بحرية تسبق الدخول الى الكلية البحرية في منطقة تومز رِفَـر بولايـة نـو جـرزي. أمضيـت هناك فتـرة صيفين. واجهـت أوّلا ما يمكن أن أسمّيه معاداة الساميّة «الناعمة». كان الإنضباط السادي الذي يمارسه المدرّبون أسـوأ بكثيـر ممّـا يتصـوره العقل. لقـد أرادوا أن يجعلوا حياتنا نحـن المتطفلين على الحياة العسكرية جحيما، سواء كنّا يهودا أم لا. كان العاملون ينظرون الينا بسخرية داخل المعسكر، على أنّنا مجرّد سائحين يراقبون قسوة الحياة الأكاديمية في تلك المؤسسة. أراد جلادونا تجربة المذاق المرّ للتسلسل الهرمي والإنضباط والعقاب، الذي كان على ما يبدو السـمات المميزة لخبرتهم الطلابية التدريبية، التـي اسـتمرّت أربـع سـنوات. لقد أجبِرنا علـى ارتداء الزي الرسـمي والوقوف لسـاعات فـي حالـة تأهّـب في شـمس الصيف اللاهبة على السـطح الخرسـاني لساحة العَرَضات. ذات مرّة أغميّ على صبيّ ضعيف القلب بالقرب منّي، وحين سارعت لمساعدته، تمّ تأنيبي بشدة ثمّ عقابي.

ما كان يعنيه لي كوني يهوديّا، لـم يصبح يوما مهمّا خلال طفولتي، لكنّ هذا لـم يزعجني أبدا. كان والديّ معاديين للدين وكذلك معاديين للعرق، ويشتركان

في نسخة متشدّدة الى حدّ ما من التوجّه العلماني والقومية المدمجة بنبرة إنسانية غير متماسكة للأخلاق الشخصية والهوية العرقية السطحية. كانت والدتي غير مبالية تماما بالدين وبراگماتية وماديّة في تعاملاتها الخاصّة، ووضعت جانبا، وبالأخرى عزلت نفسها أكثر ممّا كنت عليه عن جذورها العرقية.

والداها الطموحان اجتماعيا، جدّي هنري وجدّتي إيفا، لم يخبراها حتى عندما كانت طفلة أنّها يهودية. لقد اكتشفت ذلك فقط في سنّ 18 عاما أو نحو ذلك عندما رفضت جمعية لعبة كرة المضرب الأمريكية طلبها للعضوية. لم تذكر لي أبدا كوني يهوديا ولم تتحدّث عن مخاوف تتعلق بالهولوكوست أو حتى صعود هتلر للسلطة. كان شقيقها، وهو رجل اعمال ناجح وجمهوري معتدل، منتميا الى نواد اجتماعية يهودية في مدينة نو يورك، على ما يبدو «لأسباب مهنية» وشجّع اطفاله على المشاركة في النشاطات اليهودية لليافعين، بما في ذلك حفلات الرقص السخيفة. دُعيت مرّة لأحدها من باب المجاملة العائلية وتمّ وضع إسمي على قائمة المدعوين، لكنّني شاركت ببرود في تلك الأمسيات.

لم اتجاوز الشعور بالحرج، وأحسست بالنفور من تلك الأبّهة والحيلة والنفاق والتظاهر خلال تلك الأحداث الطنانة، التي يتمّ فيها تكليف شخص غريب بمرافقة الفتاة من شقتها ودعوتها لحلبة الرقص. شعرت بأنّني غير لائق، وفي كلّ مرّة مررت بهذه العملية البائسة المتمثلة في ارتداء الملابس الخاصة والإلتقاء في الموعد المحدّد، أقسمت أنّ هذه ستكون المرّة الأخيرة. أعترف ببعض المشاعر المتناقضة، التي نشأت من عدم ملائمتي الإجتماعية، التي اصطدمت الى حدّ ما بازدرائي لمثل تلك الطقوس الفارغة المتمثلة لاستمالة النخبة. وحين أعود للتفكير بذلك، يتولد لدي إحساس بأنّ التجربة برمتها كانت ستكون مختلفة لو حدث أيّ من الأمرين؛ لو كنت أكثر ثقة في حلبة الرقص، ربّما كنت قد تغلبت على إحساسي بالضيق الإجتماعي. وكما كان الأمر، فإنّ عدم كفاءتي كراقص، جسّد إحساسي بأنّني في غير مكاني. الإحتمال الآخر، الذي لم يحدث أبدا، هو أن اصبح مفتونا عاطفيا بأحداهن. ربّما كان هناك احتمال ثالث. إذا كانت عائلتنا غنيّة، كما كان الحال مع إبني خالي الأكبر سنّا منّي، واللذين لم يبدوا منزعجين مثلي من مزايا مكانتهما الإجتماعية. بدا الجميع المشاركون في

تلك المناسبات أثرياء، أو على الأقلّ تصرفوا بارتياح وكأنّهم أثرياء يتعاملون مع ما يحيط بهم، باستثنائي أنا.

في النهاية، اخترت المشاركة، ولكن بطريقة مؤذية أشعر نحوها بالخجل حتى بعد عقود. لقد تعمّدت الإساءة لشريكتي المخصّصة في أحد الأمسيات، والتي من المتوقع أن التقي بها في منزلها وأحضرها للرقص واعود بها بعد نهاية الأمسية. ما فعلته كان فضيعا. تركتها تنتظر وهي مرتدية فستان السهرة حتى دون عناء الإتصال الهاتفي والتظاهر بالمرض. إشتكت من سلوكي السيْ للجنة تنظيم تلك السهرات، فتم ادراج إسمي في القائمة السوداء. لم تتمّ دعوتي مرة اخرى حتى الى حفل الكرة للفتيات اليهوديات المبتدئات. يؤسفني أنّني عاملت تلك الفتاة، التي لم أكن اعرفها، بطريقة غير مهذّبة، وربّما مؤلمة. كان ينبغي عليّ الإتصال وأتحلى بالحشمة والإعتذاروشرح السبب بطريقة ما. علمني تسلسل الأحداث الكئيب هذا بأنّني لا أنتمي لتلك الطبقة. أعترف أنّه بعد تلك الواقعة شعر جزء صغير منّي بالندم، وشعرت بالحسد من تلك النفوس اللطيفة، التي كانت تتطلع بلا تفكير لمثل تلك الحفلات. لقد كانوا يتطلعون الى المطالبة بمكانتهم في المجتمع الراقي، حتى لو كان الى حدّ ما عرقيّا مقتصرا على ذلك العالم الصغير المزدهر من الصبايا والصبيان المحكومين على ما يبدو من قبل الطبقة اليهودية المتنفذة في نو يورك. لم يبدُ أنّهم يمانعون في احتلال المرتبة الثانية، عندما يتعلق الأمر بصعود الدرجات العليا للهرم الإجتماعي في أمريكا.

كبرت وأنا لا اشعر بالخجل أو الفخر بكوني يهوديّا. لم أكن مهتما جدّا بأهمية هذا الأمر بالنسبة لحياتي في تلك السنوات الأولى. بالنظر الى مشاعر طفولتي المتأخّرة، أدركت أنّني بدأت آمل أن تصبح هويتي الدينية ليست بذات أهميّة مع تقدم العمر. كنت أدرك بشكل عام ما إذا كان اصدقائي يهودا أم لا، ولكن في وقت مبكر كان كافة اصدقائي تقريبا يهودا. كانت الفتيات اللواتي أحببتهنّ أكثر اعتبار من الصف الثالث حتى المدرسة الثانوية معظمهنّ يهوديات. تُثير اهتمامي الآن تلك الثنائية الإجتماعية،التي اشركتني وكانت ثنائية أن أكون يهوديّا أو غير يهودي. كانت تلك هي البدائل العرقية على ما يبدو في الجانب

الغربـي الأعلـى من مانهاتِن، ولـم تتدخّل الهويات العرقية والإجتماعية والدينية فـي خيالـي. بالطبـع، علـى العكس من ذلك هو حقيقة أنّ الحيّ والمدرسـة كانا فـي الغالـب مـن اليهـود، حتى لو كانت حياتنا الإجتماعية في المنزل أكثر تنوّعا، والتي كانت تكاد تكون فريدة من نوعها مقارنة بأصدقائي.

على الرغم من ذلك، وحتى عندما كنت صغيرا كنت غير مرتاح عندما يعلن الأصدقاء اليهود أنفسهم من أنّهم «الشعب المختار»، وحاولوا إثبات ذلك الإدّعاء من خلال تلاوة احداث البقاء اليهودية رغم الإضطهادات المتعدّدة والرجوع الى التأثيـر والإنجـازات اليهوديـة، التـي تتجاوز أعدادهم بكثير. لم أشـكّ أبدا في أنّ اليهود قد حققوا العديد من الإنجازات لصالحهم، لكنّني شـعرت بشـكل حدسـي أنّ مثل تلك الإدعاءات عن الإستثنائية، لها جوانبها المظلمة. لقد تفاعلت بشكل سـلبي مع مزاعم التفوّق اليهودي، خاصّة إذا تمّ تفسـيرها من خلال دليل الأهمية والثـروة والتأثيـر، وشـعرت بالنفور من تلـك العنصرية الضمنية قبل أن أكون على دراية بالمفهوم بشـكل واع. بطريقة ما، نجوت مبكّرا من الصورة النمطيّة السـلبية لأبـي عـن الأمريكييـن من أصل افريقي والنسـاء والمثليين، وحتى لاجئي الحرب العالمية الثانية. منذ ذكرياتي الأولى، كنت أرغب في قبول الناس كأفراد بغضّ النظر عـن عرقهـم ودينهـم وطبقتهم، وربّما وجدت نفسـي أكثر انجذابا الى الغرباء أكثر من المألوف، والذي ربطته بمشـاعر التضامن. عرّفت نفسـي بأنّني غريب مثلهم، وبالتالي رأيت نفسـي، مهما كان ذلك الشـعور مضللا، ضحية للتمييز. ربّما كنت في حيرة من أمري أن أكون ضحية معتدلة في محيط عائلتي المباشر مع الوصمات الإجتماعية القاسية والإستبعاد الذي تتعرّض له النساء والأقليات الأفريقية.

إنّه لمن المغري للآخرين، خاصّة أولئك الذين ينتمون للقناعات الصهيونية، ربـط مواقفـي المتناقضـة وتجربتـي الضحلة مـع اليهودية بموقفـي النقدي اتجاه إسرائيل. لا شكّ أن هناك بعض الروابط، لكنّني لا اعتقد أنّ هذا هو تفسير سبب التزامي بهذه القضية الخلافية بالذات. لقد بقيت بعيدا عن الجدل حول إسرائيل والصهيونيـة لفتـرة طويلـة، علـى الرغم من أنّني كنت أدرك أنّ الدعم لإسـرائيل ذهب دون جدال داخل دوائري، ولكن بعد مرور سنوات عديدة لم افهم القضايا جيّـدا بمـا يكفـي للحصـول على رأي مسـتقل. الرأي، ناهيك عن المشـاركة في

النهاية بنشاط ما، أعتقد أنّ موقفي النقدي اتجاه إسرائيل والصهيونية يعكس حقيقة واقعية، ويجب الحكم عليه من هذا المنظور وحده دون الخوض في تفسيرات نفسية.

أن تكون أمريكيا

بخلاف كوني يهوديا، كان كوني أمريكيا في طفولتي حقيقة لم أفكّر بها أكثر من كونها عاطفة، لا تختلف عن تنفس الأوكسجين. باستثناء القومية الشوفينية لأبي الى حدّ ما ووطنيته الموثوقة، فقد أخذت هويتي الأمريكية كأمر مسلم به بطريقة طائشة وغير نقدية. لقد استغرق الأمر منّي سنوات، على سبيل المثال، لمراجعة وجهة نظري غير المدروسة عن يوم الإحتفال بكولومبُس، واعتباره يوما أفضل بكثير أقضيه في الحِداد على إساءة معاملة سكان أمريكا الأصليين بدلا من الإحتفال بملاح المحيط الذي جلب معه الإستعمار. كنت افتخر بالنصر الذي حققه الغرب في الحرب العالمية الثانية، واعتبرت بالتأكيد انتصار الحلفاء نتيجة عادلة لحرب كبرى هزمت الأعداء الأشرار. في الوقت نفسه، ظلت ساحات القتال والصدمات الوجودية له مجرّد افكار واحصائيات بالنسبة لي. فشلت تلك الأحداث في استحضار الأحزان، التي كان ينبغي بالتأكيد أن تكون مصدر فهم صحيح لحرب مدمّرة تسببت في معاناة بشرية حادة ودمار هائل. إمتد عدم احساسي الى أولئك الذين هم من بين الشعوب المهزومة، الذين على الرغم من قدر كبير من التواطؤ لم يستحقوا أبدا الفضائع التي لحقت بهم. لقد أصبت بالحزن وأنا لا أزال طالبا، خاصّة بسبب استخدام القنابل الذرية وحملات القصف والحرائق الستراتيجية، التي شنّتها القوات المنتصرة، كانت تلك صورة لارهاب الدولة على نطاق واسع. إنّ كتاب WG Sebald الإستثنائي حول **التاريخ الطبيعي للدمار**، يحلل ببراعة مدى صعوبة تعامل المثقفين الألمان مع تجاربهم المدمّرة للموت الجماعي والدمار الناجم عن القصف الستراتيجي بسبب الصعوبة المؤلمة، التي لم يتمّ حلها في الإعتراف بطرق حقيقية ببربريّة معتقل أوشفِتز.

سافرت الى أوروبا للمرة الأولى في عام 1954، وأدركت انّ الآخرين كانوا ينظرون اليّ من منظور هويتي الأمريكية. في البداية كنت اتصرّف بشكل دفاعي

وتصدّيت للإنتقادات، التي صدمتني على أنّها خطأ سطحي أو واضح. شعرت لأوّل مرّة بطفرة حقيقية من الفخر الوطني تصعد الى السطح من مكان خفيّ في أعماق وعيي. على الرغم من هذا الإكتشاف الذاتي لكوني أمريكيّا خلال رحلاتي داخل أوروربا ذلك الصيف، كنت مفتونا بالإختلافات الوطنية، التي واجهتها وشعرت بالإثارة من خلال التعرّض المباشر الأوّل للثقافات الأجنبية أثناء سفري بمفردي.

على الرغم من هذه القومية الإفتراضية Default Nationalism، فقد كان لزياراتي الى أوروبا تأثير عميق ودائم ممّا دفعني نحو نظرة عالمية تحلّ محلّ كوني أمريكيا بالولادة. لقد نظرت الى السفر باعتباره جانبا ثريا وقيّما الى ما لا نهاية في حياتي المهنية والشخصية، وبُعدا أساسيا من تجربة التعلم مدى الحياة. كان السفر الدولي يحرّرني من الإنضباط والمسؤوليات الشاقة للروتين العادي. لكنّه أدّى ايضا الى الإلهام والصداقة واللقاءات غير المتوقعة وحتى المغامرة. خلال سنوات ما قبل زواجي من هِليل، كان السفر يوفر لي أحيانا ملذات اللعب الرومانسي المثير.

بذور السخط السياسي

خلال السنوات الأخيرة من طفولتي، دعنا نقول في سنّ المراهقة المتأخّرة، بقيت غير منظم تماما وغير ملتزم بالسياسة. لم أتحرّر من تأثير والدي، بينما كنت أجادل في نظرته للعديد من السياقات المحددة، خاصّة عندما تحدّثنا بمفردنا. كان محاميا وصديقا لبعض المتشدّدين المناهضين للشيوعية، الذين كانوا في الأربعينات والخمسينات يحتسون الوسكي أو البَربُن بينما يشجبون وجود «الورود الوردية» Parlor Pinks في الحكومة وفي هوليوود. كان الشخصية المركزيّة في تلك المجموعة هو إسحاق دَون لِفين، وهو روسي شغوف الى حدّ ما بالعيش في المنفى وألف عن ذلك كتبا. من المُفترض أنّ دَون، كما يسمّيه اصدقاؤه، قد حضر جنازة لِنِن قبل مغادرة روسيا وأصبح معارضا لدودا في اعقاب الثورة الروسية ومن ثمّ الحقبة الستالينية لاحقا. كان دَون هو الذي أحضر الگزندر كيرينِسكي، الزعيم الروسي لفترة وجيزة بعد ثورة شهر شباط التي

اطاحت بالقيصر من السلطة في عام 1917. حضر الضيف الى منزلنا في الفترة المبكّرة من منفاه الأمريكي، والذي اعتقد أنّه أصبح من موكلي والدي لفترة من الوقت. كان لطيفا وهادئا في الأوساط الإجتماعية وفقا لما أتذكّره عنه. لكنّه لم يزل منشغلا برفع مستوى النشاط المناهض للسوفيَت في الولايات المتحدة.

لقد أعلنت أنّني غير سياسيّ في تلك الفترة، ليس فقط لأنّني لم أكن أعلم ولكن ايضا وبرغم الأوقات المضطربة، كنت غير مبال بلا تفكير Mindlessly Disinterested. كان الوجود السياسي الغربي كبيرا خلال تلك السنوات، التي اعقبت وفاة فرانكلِن روزفلت وحلول فترة هاري ترومَن وچَرچِل وديگول، الأبطال الخارقين الكاريكاتوريين الى حدّ ما. ربّما لم يكن ترومَن يستحقّ هذا الدور. لقد بدا وكأنّه رئيس جاء بالصدفة، وتبيّن أنّه أداة جيّدة التجهيز للمؤسسة الأمنية الناشئة في الحرب الباردة والزعيم المسؤول بشكل غير معتاد عن إلقاء القنابل الذريّة على المدن اليابانية عام 1945. كان چَرچِل أيضا قائدا عظيما للحرب في بريطانيا، لكنّني علمت لاحقا أنّ حياته المهنية كانت ملطخة بنظرة التفوّق الأبيض على العالم ومهنة حكومية رفيعة المستوى تضمنت جرائم الحقبة الإستعمارية ضدّ الإنسانية، خاصّة في أفريقيا ولكن أيضا في آيرلندا. كان ثالثهم ديگول مذنبا أيضا بارتكاب مخالفات استعمارية، لكنّه يستحقّ الثناء لكونه منارة فخورة للوحدة الفرنسية المناهضة للفاشية أثناء عيشه في المنفى خلال الحرب العالمية الثانية، وكذلك في النهاية وضعه خاتمة للحرب الدامية في الجزائر. أظهر ديگول لاحقا صفات قيادية استثنائية ووطنية تستحقّ التبجيل لتفادي حرب أهلية مخيفة كان يمكن أن تجري على التراب الفرنسي.

عدة ظلال رمادية اللون

اعتقد أنّ طفولتي لم تكن سوداء ولا بيضاء ولا حمراء ولا خضراء، بل كانت عدة درجات من اللون الرمادي، سواء إن قيست بالإنجاز أو المزاج أو الطموح. تمكّنت وتعاملت بشكل أساسي وقت كنت أفتقر الى احترام الذات والأحلام والتعاطف والإلهام.

لقد شعرت بالخجل الى حدّ ما من ظروف عائلتي وأحسست بالحرج

من حقيقة أنّ والديّ كانا مطلقين وأختي نزيلة في مستشفى للأمراض العقلية. علاوة على ذلك، وعلى الرغم من أنّني وجدت والدتي ووالديها باردي المشاعر ومنفصلين، لكنّني كنت أحسدهما على الثروة الطائلة التي يمتلكانها، والى حدّ ما ربطت مشاكل والدي الإقتصادية بمشاعر خيبة الأمل الشخصية في الحب والمهنة، ممّا أدى الى إحساس متدهور بتقديره لذاته. غير أنّ عائلة أمي، أسرة پولاكس، منحتني شعور التسامح ومنحتني علانية التميز المريب لكوني «الخروف الأسود» في العائلة. وعلى هذا النحو، سأبقى بعيدا عن الأنظار معظم الوقت. قارنتني جدتي بشكل سلبي مع إبن خالي، وهو الأبن الوحيد لخالي من أمي موريس الناجح جدّا. بدا لي وكأنّني ولد ضائع يُرثى لحاله، باعتباره ضحية سيئة الحظ لأسرة مفكّكة وأب مكافح Pitiable Lost Boy, the Hapless Victim of a Broken Family and a Struggling Father.

بالنظر الى سنوات طفولتي تلك، لا استطيع أن أشير الى أيّة لحظات عظيمة تستحقّ التمجيد. كانت هناك فترات فاصلة من السطوع والوعد حيث خفّت درجة اللون الرمادي لتصبح بيضاء تقريبا. ولكن سرعان ما تلاشت الى اللون الرمادي مرّة أخرى. حدثت إحدى اللحظات المشرقة عندما قرّرت أنا وصديقي، جَيمس سيمون، وكنّا مُعجبين بنفس الفتاة، وهي پاولا لِفين، أن نمنحها معا سوارا بسيطا كهدية تخرّج من الصف السادس. أرسلت پاولا رسالة شكر لكلّ منّا، ولكن على الجانب الآخر من رسالتي كتبت، «الحبّ، وأعنيك أنت». ظل صدى تلك الكلمات يتردّد في داخلي لسنوات. لقد حاولت النظر الى الجزء الخلفي من رسالة جَيمس على أمل أن لا أجد كلمات مماثلة، وفعلا كانت الصفحة فارغة. لكنّني كنت حينها خجولا لدرجة عدم تمكّني من اغتنام الفرصة، وإنتقلت پاولا الى مدرسة أخرى فتبخّر الغرام. كانت هناك أيضا لحظة مشرقة في حياتي وهي اختياري بعد اختبار تنافسي لأخذ الدور القيادي في مسرحية للصف السادس حول حياة سيمون بَوليفار، زعيم أمريكا اللاتينية، الذي حرّر القارة من حكم الإستعمار الأسپاني. كان ذلك الأداء المسرحي ذروة تجربتي في تلك المدرسة.

إذا نظرت الى الوراء، أجد فقط بعض الإستمرارية الحقيقية المتمثلة في

حبّي الدائم للرياضة وما يصاحب ذلك من شدة المنافسة في جميع المجالات. لقد سعيت للوصول الى الكفاءة في كلّ ما تعهّدت به، لكنّني فشلت في بذل الجهد الإضافي لتحقيق التميّز. لم تكن لديّ مشاعر أيّ استياء اتجاه أولئك الذين أدّوا بشكل أفضل منّي. أدرِك الآن أنّني كنت افتقر الى الإنضباط للوصول الى مستوى أعلى من خلال التدريب والدراسة المنسّقة. أعتقد أنّ هذا الموقف تجاه الإلتزام والطموح شكّلا مقاربتي المستقبلية للعمل وممارسة النشاطات الرياضية. كان معدّل الذكاء الخاصّ بي منخفضا جدّا خلال السنوات الأولى. بدا أصدقائي وكأنّهم على ما يُرام فيما يتعلق بشأني. لا شيء مميّزا، بدون وعد أو سمات مميّزة، نوع من الوجود الرمادي وبلادة يكملها الجبن/الخجل وخوف شديد من الرفض Dullness Complemented by Timidity and an Acute Fear of Rejection. إنّ كوني فتى عديم الصفات جعلني غير واضح في شخصيتي، وبالكاد شخصية لا تُنسى Indistinct in Personality, and Hardly Memorable.

لو نظرت الى الوراء من موقع الحاضر، فأنا مرتاح لما اصبحت عليه فيما بعد وأؤكّد السعي لتحقيق اهداف تقدّمية على حساب التقصير في الإعتراف المهني والمكانة. أدرك ايضا أنّه بعد الطفولة توفّر لي حظ جيّد بشكل غير عادي فيما يتعلق بحياتي المهنية وصحتي، فضلا عن كوني مستفيدا من صداقات عديدة وحميميّة عاطفية. حدثت نقطة تحوّل مهمة سأناقشها في الفصل التالي، حين كنت طالبا في جامعة پَنسِلفَينيا عندما أدّى الخوف من كارثة شخصية وشيكة الى استجابة تحوّلية نحو الأفضل، غيّرتني الى الأبد.

لقد تجاوزت الحدّ الفاصل بين الطفولة والبلوغ فقط عندما حدث تطوّران هما، إعتناق مبدأ الإنسانية الثقافية Cultural Humanism وما صاحب ذلك من ارتفاع في احترام الذات ممّا سمح لتخيلاتي الرومانسية بأن تصبح علاقات فعلية. في بعض النواحي، لم اتجاوز العتبة الى مرحلة البلوغ، حيث استمرّ الطفل في الداخل في التجوّل بحريّة، ممّا سمح لي بالمضايقة. وهي حقيقة استغلها إبني دِمِتري بشكل أفضل من اطفالي الآخرين، الذين بدا عليهم أنّهم مدمنون على العمل ليلا ونهارا. أمّا هِليل، فليست مرتاحة تماما من هذا الطفل الداخلي الباقي على قيد الحياة، ولا تحبّ استعراضي الخارجي، خاصّة عندما أضايق النساء

الجميلات. التطوّر الآخر هو أنّني أصبحت مقتنعا أنّه بمزج طريقة تدريسي بروح الدعابة المرحة Playful Humor، عندها فقط أصبحت محبوبا ومُقدّرا كأستاذ في صفوفي ومؤلفا للكتب ومتحدثا عن رأيي في الساحة العامة.

النشأة بدون قدوة

ما تعلمته من خلال التفكير بطفولتي، هو أنّ والديّ قد ساهما في نضوجي النفسي من خلال إخفاقاتهما، بقدر ما ساهما في نجاحاتهما أو مشاركتهما في حياتي اليومية. على الرغم من أنّ أبي محبّ ومثير للإعجاب من نواح كثيرة، فقد أثّر عليّ في محاولتي الجاهدة لتجنّب خيبات أمله وأخطائه في النظرة السياسية والرومانسية والمساعي المهنية. يبدو أنّني قد أفلتُ من تلك الأفخاخ، التي وقع في شركِها في المراحل الأخيرة من حياته التعسة. في الوقت نفسه، أعتزّ بذكرياتي عن حنانه مع الناس وأساسيّات كرامته وتواضعه، فضلا عن تقديره الحيّ لمفارقات الحياة His Lively Appreciation of the Ironies of Life.

أمّا أمّي فكانت بالطبع أكثر إشكالية بالنسبة لي، لكنّني لم اتعلم عدم الردّ بالمثل على افتقارها للحبّ والحنان بالنسبة لي. بدأت ممارستي مدى الحياة في محاولة رؤيتها كما يراها الآخرون، وبالتالي عدم الإنغماس في الذات مثل العمى المصحوب بالإستياء أو إظهار الغطرسة، التي تعرف كلّ شيء. كما أنّ السنوات الأخيرة قد مكّنتني من التخلص من هجمات التضليل Smears من قبل الخصوم الصهاينة دون التردّد في التزامي أو الإشتغال بلا جدوى في صياغة روايات مضادة عدوانية تبرّر نفسها بنفسها.

القسم الثاني

داخل المؤسسة الأكاديمية
WITHIN THE ACADEMY

علـــى الرغم من أنّني كنت اتوق للحرية، التي توفرت بالإبتعاد عن المنزل، إلّا أنّني سرعان ما اكتشفت أنّني لا أطيقها. لقد شعرت بسعادة غامرة في البداية، لأنّني قادر على القيام وافعل بالضبط ما أريده في بيئة جامعية متســـاهلة. قادني هذا الغياب المحيّر للإشراف الى التعثر بشكل سيء، لدرجة أنّه كان من الممكن أن يصبح بسهولة سقوطا يغيّر حياتي إذا لم أسعى للحصول على انضباط ثابت. حدثت سلســـلة من الإستيقاظات وأنا طالبا في ثلاث جامعات من بين جامعات النخبة Ivy League. كانت فترة انتقال شخصي دفعتني في نهايتها الى اختيار مهنة أكاديمية بشكل غير متوّقع تماما. وهو خيار ما زلت أؤكّده، على الرغم من بعض خيبات الأمل طوال الطريق.

تخليت في جامعة بَنسِلڤَينيا عن موقفي الإنعزالي المتفرّد وبدأت أجد الإثارة في مواجهة الأفكار الصعبة واكتشـــاف أنّ لديّ وجهة نظر خاصّة بي. بعد أربع ســـنوات كطالب جامعي تخرّجت شـــخصا مختلفا تماما عمّا كنت عليه عندما وصلت الى الحرم الجامعي. كنت لا أزال في مرحلة ما قبل السياسة من منظور تطوّري الشخصي. ولكن يبدو أنّ اللبنات الأساسية لمستقبل مثمر قد تمّ وضعها. كان الأســـاتذة المُلهمون في جامعة بَنسِـــلڤَينيا مسؤولين جزئيا عن هذه الصحوة المتأخّـــرة، بالإضافة الى توجيه العديد من أصدقائي من الطلبة. في هذه الجامعة أيضا، إستجبت لأوّل مرّة للشعر الجاد وبدأت علاقة حبّ استمرت مدى الحياة بطرق غنائية للرؤية والشعور والمعرفة والمشاركة والتعبير.

الفصل الثالث

الإنهيار والتعافي في پَنسِلڤَينيا

التعثر الأكاديمي

بدأت كطالب واع في جامعة پَنسِلڤَينيا، أحضر صفوف الدراسة بانتظام وأقوم بالقراءات المطلوبة وحصلت على درجات جيّدة خلال الأشهر القليلة الأولى. لكنّ عادات الدراسة الجيدة هذه لم تدم طويلا بعد عطلة عيد الميلاد، حيث تمّ استبدالها بالمقامرة ولعب البوكَر كلّ ليلة تقريبا حتى بعد منتصف الليل، وتخصيص العديد من ساعات النهار للرياضة.

لقد حكمت على نفسي في الأشهر الأولى على أنّها تجسيد معيب للخجل الخالص Sheepishness لحدّ أنّني كنت أمضي أسبوعيا بخنوع لطقوس الأخوّة الجامحة واندفاعاتهم غير الملائمة Uncongenial College Ritual of Fraternity 'Rushing'. كنت غير آمن بما فيه الكفاية لدرجة أنّني شعرت بالحاجة الى شهادة مؤسسية للقبول الإجتماعي. لم يزعجني حتى موضوع العرق والدين، سواء كان مسيحيّا أو يهوديّا، فقد كنت أسعى لإيجاد مكان مناسب يتقبلني مع توقعات اجتماعية منخفضة بما يكفي لدعوتي للإنضمام. في هذا السعي الطائش، كنت آمل أن تتمّ دعوتي من قبل منظمة اخوة Fraternity لها هيبة في الحرم الجامعي، مهما كانت حمقاء وعبثية. كان لمنظمات الأخوّة علامات شخصية بارزة (رياضيون ومهووسون ومن عائلات ثرية) وسمعة طيبة، وكنّا جميعا كطلاب على دراية بأنّها تضمّ الصور المتنوّعة من الفائزين والخاسرين.

أتذكر خيبة الأمل غير المقنعة لأحد اعضاء الأخوّة البارزين، الذي سألني إنْ

كنت على صلة بإسرة فَولك في مدينة بِتسبَر گ Falks of Pittsburgh.عندما أجبت بالنفي ردّ بنبرة جليلة، «حسنا، هذا سيء للغاية»، إكتشفت لاحقا أنّ الأسرة المذكورة كانت فاعلة خير ومنها قادة بارزين في المجتمع، وهذا بعيد كلّ البعد عن خلفيتي المالية الضيقة. هذا الإهتمام بالمكانة والصلات أدهشتني في ذلك الحين كصورة لنموذج المشاعر المقيتة لمنظمات الأخوة الطامحين اجتماعيا.

بينما كنّا نسير معا في إحدى الأمسيات بعد انتهاء التدريب الرياضي، سألني زميلي في كرة السلة من إنديانا أد گريم بصوت ودود، «لماذا لا نذهب الى مبني الأخوة سويّة؟» أجبته، «نحن لنا مبنى أخوة مختلف. أنا يهودي». أجابني، «أنا آسف، لم أعرف ذلك». لست متأكّدا من أنّنا نادرا بعد ذلك ما تبادلنا كلمة أخرى، وانتهت صداقتنا. لم نستعِد أبدا العلاقة غير الرسمية، التي جمعتنا خلال الأسابيع الأولى لوصولنا للحرم الجامعي. كان أد شابا محترما ولم يكن خبيثا. كان ينحدر من خلفية ريفية خام من الغرب الأمريكي الأوسط، وفي العادة لدى ساكني تلك المناطق بعض الإنطباعات السلبية عن اليهود. وهذا على الأرجح يفسّر سبب عدم كفاية اهتمامنا المشترك بكرة السلة للحفاظ على صداقتنا.

أعتقد أنّه أكثر ممّا أدركت خلال نشأتي في نو يورك في ثلاثينات واربعينات القرن الماضي، كان اليهود مقولبين بشكل سلبي في المناطق النائية للمجتمع الأمريكي. ربّما أكثر ممّا اعترفت به لنفسي في أيّ وقت مضى، فقد تبنّيت في تلك السنوات نزعة والدي للتخلي عن تحدّي اصلاح أفكار الآخرين بشأن التحيز العرقي Ethnic Prejudice في البلاد، ممّا سمح للإفتراءات بالبقاء دون استجابة. ما زلت أشعر بالخجل من سلبيتي حين واجهت مظاهر يومية من معاداة السامية، حتى لو، كما في هذه الحالة، كانت النظرة السلبية بدون نيّة عدائية.

بالطبع كنت على علم بتأسيس دولة إسرائيل عام 1948، وهو العام الذي تزامن مع تخرّجي من مدرسة فيلدستَون الثانوية. اتذكّر أنّني فوجئت بالنصر العسكري للقوات اليهودية على قوات العديد من الدول العربية المجاورة في «حرب الإستقلال» الإسرائيلية. ولكن على مدى عقود كانت هذه الأحداث ليست أكثر من مجرّد أفكاربعيدة بالنسبة لي. لقد وقعت الأحداث «هناك» وليس لها أيّ تأثير محسوس على حياتي. أعترف أنّني لم ألاحظ أيّ شيء مخالف

فـي التحريـف الأوريلـي للمصطلحـات Orwellian Twist of Terminology، التي استخدِمت لوصف «حرب الإستقلال البطولية» والصراع، الذي حازت فيه حركة منظمة مسلحة من المهاجرين الأجانب العسكريين ما كان يُعلن أنّه «إستقلال». في الحقيقة كان نوعا من انتزاع ملكية غالبية السكان العرب الأصليين ممّا كان وطنهم في فلسطين، ثم قمع من تُرِكوا وراءهم. تمّ تجريد ما يصل الى 750 ألفا قسريّا ممّا يمتلكون، أو بلغة اليوم تمّ تطهيرهم عرقيا خلال تلك الحرب المبكّرة. وهذا يعني «الإستقلال» لإسرائيل و«النكبة» للفلسطينيين، الذين لم يتمّ تجريدهم من ممتلكاتهم فحسب، بل طُرِدوا وحُرِموا من خيار العودة الى حياتهم وبيوتهم ووطنهم.

فرض العديد من الحروب، بما في ذلك حرب الإستقلال الأمريكية، تفكيكا مماثلا الى حدّ ما، وتمّ تمجيد معظم قصص الأصول القومية العنيفة من قبل المنتصرين، بينما تمّ تشويه أو محو معاناة الخاسرين. إحتفلت الولايات المتحدة بحرب الإستقلال الخاصّة بها، وكان هناك انعكاس مماثل للسجلّ التاريخي، إذ تمّ أخذ تجربة الأمريكيين الأصليين في الإعتبار. في تجربتي وحتى يومنا هذا، يُنظر الى مأساتهم على أنّها محنة تافهة Trivial Misfortune لا تستحقّ الذكر وسط امجاد ثورة المستوطنين ضدّ الحكم الإمبريالي البريطاني. أقرّ بالذنب خلال شبابي في تهم عدم الحساسية الحضارية Civilizational Insensitivity. بعد ذلك بوقت طويل فقط، بدأت في إعادة تفسير تلك المستجمعات التاريخية من منظور الضحايا، فشكّلت نوعا من الفهم المعقد والدقيق، الذي يثير مشاعر التعاطف وحتى العار، والإستعداد المجرّد لإصلاح اخطاء الماضي. إنّ تعزيز مثل هذه المشاعر من خلال اعمال الخلاص الملموسة، مثل التعويضات وانشاء المتاحف وتشريع التعديلات الإجتماعية والإقتصادية، تظلّ مشبوهة لا تتجاوز كونها إيماءات لِبرالية دون تأثير سلوكي.

قامت الحرب الأمريكية أساسا ضدّ الإمبراطورية البريطانية، ولكن تمّ بالفعل نفي الهنود الأمريكيين بشكل أساسي الى ما أسماه تومَس جفِرسُن «العمق المالح» The Briny Deep لإفساح المجال لرؤيته «إمبراطورية الحرية». لا يتم الإعتراف بمثل هذه المفارقات أو التصرف حيالها إلّا بعد فوات الأوان لفعل

أيّ شـيء باسـتثناء ذرف دمعة رمزية أو اثنتين، والإسـتيلاء على جزء من ثقافتهم كمـا لـو كان تراثـا مقدّسـا. وأخيـرا وبعـد أن أصبح الضرر غيـر قابل للإصلاح، تمكّن المنتصرون من دعم بناء متحف أو متحفين لإحياء ذكرى الوجود النابض بالحيـاة لمثـل هـذه الثقافات المهزومة والمقهورة. بالنسـبة لأولئك الذين لديهم تحـوّل عقلـي أكثـر عالميـة، يظهر بعض النـدم ولكن ليس ندمـا حقيقيا، وتظهر مقاومة متأخّرة للقوة الناعمة مكرّسة للحصول على بعض الإنصاف من المظالم التاريخية. حتى بعد مقتل جورج فلويد، فإنّ القليل من اللِبراليين على اسـتعداد للإنتبـاه الـى الحجج المتعلقة بالتعويضات المالية والعنصرية المنهجية، حتى لو كانوا مستعدين للإعتراف بظلم الماضي الجسيم وإيذاء اسلاف هؤلاء المُطالبين. مثل هذه الأعمال الظالمة عند الإعتراف بها، يتمّ تجاهلها عموما باعتبارها خطايا من الماضي، لآباء لا ينبغي أن يزورها أبناؤهم وبناتهم، وبالتأكيد ليس الأجيال اللاحقة من أحفادهم.

فـي ليلـة العضويـة السـريعة في منظمة الأخـوة في ولاية پَنسِـلفينيا، ذهبت بمفـردي الـى مبنـي أخـوّة يهـودي Jewish Fraternities كُنـت دُعيـت اليه. كانت هنـاك حاجـة الـى دعـوة أوليـة من قبل أحد افراد المنظمة فـي منزل أخوة معين. كانـت هـذه هـي الخطـوة الأولى وبمثابة مقدّمة مقلقة للقبـول أو الرفض. لو لم يكـن هـذا الفصـل الإجتماعي شـبه الرسـمي موجودا، لكنـت بقيت مع صديقي الرياضي المسيحي من إنديانا، ولـم أشعر أبدا بأيّ دافع للإختلاط باليهود فقط، أو مع أيّة مجموعة اخرى في هذا الشأن. كنت لا أزال خلال تلك الفترة عضوا فـي فريـق كـرة السـلة للطلبـة الجدد في جامعة پَنسِـلفينيا، والـذي كان يُنظر إليه بالنسـبة ليهـودي فـي تلك الأيام على أنّـه اوراق اعتماد أفضل من المظهر الجيّد وشخصية رابحة وكوني طالبا متميّزا ولي علاقات سابقة مع فتيات في منظمات الأخـوات Sorority Members، وربّمـا حتـى كوني إبن أسـرة يهودية ثريّة معروفة نتيجـة ذلـك، علـى الرغـم من الإحـراج الإجتماعي والإفتقار الـى الروابط ذات الصلـة، كأقـارب أو اصدقـاء اعضـاء في إحدى هذه المنظمـات. تلقيت دعوات عدة واخترت Phi Epsilon Pi (Phi Ep)، وهي احدى منظمات الأخوة المعروفة في جامعة پَنسِلفينيا.

خلال السنوات الثلاث اللاحقة، التي قضيتها في پَنسِلفينيا، كنت اتواجد بشكل هامشي في منزل الأخوة، وأتناول من حين لآخر وجبة مع بعض الأصدقاء. لم أكن معروفا إلا بالفوز ببطولات تنس الطاولة السنوية، وكوني عضوا مخلصا في فريق الأخوة اليهودي للعبة البَولِنگ، الذي فاز ببطولة الدوري لمدة عام واحد ضدّ 26 فريق أخوة أخرى. لقد استمتعت بتلك التجربة على الصعيدين الإجتماعي والرياضي. وعندما جاء فوزنا، كان الأمر رائعا من خلال مفاجأة فريق البطولة السابق.

كان زميلاي في شقة القسم الداخلي أكثر وعيا من الناحية الإجتماعية والسياسية ممّا كنت عليه، وكانا ما سمّيته لاحقا «اللِبراليين الجيدين». لم يوافق أيّ منهما على مفهوم الأخوة Fraternity Concept ورفضا المشاركة في أمسية العضوية السريعة وتجاهلاني الى حدّ ما حين ذهبت وانضممت. جئت في وقت لاحق لأعرف وجهة نظرهما النقدية، على الرغم من أنّني كنت غير مرتاح بشكل غريزي بسبب طقوس الترابط الأخوية، التي حققت بعض التقاربات المكثفة في حياة عدد قليل من اصدقاء الكلية. ذهبت للتوّ لأوضح إختفاء انعدام الأمن لديّ تحت تلك السحابة الرقيقة من القبول على مستوى المؤسسة الإجتماعية. لم أكن أبدا راغبا في الإنغماس في شرب الخمر بكثرة أو المشاركة في المواقف الرجولية القهرية Macho Attitudes لأشقائي المتحمسين حول قضايا مثل المواعدة والجنس والمرأة والسباب Dating, Sex, Women, and Cursing. أخرجت نفسي من مشاهد نشاطات الأخوة، دون الإنسحاب كليّا. وربّما كان ذلك استعارة لكيفية الإبتعاد عن العديد من مسارات العوائق الأكثر رعبا في الحياة.

قبل سنتي الأخيرة في جامعة پَنسِلفينيا، إقترب منّي عضو فرات Frat Member بشكل مفاجئ الى حدّ ما واقترح أن أترشّح لمنصب رئيس منظمة الأخوة. أراد صديقي أن نجعل المكان أكثر كمركز ثقافي وأقلّ من مكان لحفلات بذيئة رخيصة، وكنت في رأيه مَنْ يستطيع خلق هذا التحوّل. رفضت ودار في ذهني بشكل هزلي سيناريو مرعب للفوز فعليا، على الرغم من أنّني أدرك تماما أنّ الفوز في مثل هذه الإنتخابات كان أمرا مستحيلا للغاية بالنسبة

لي. في الحقيقة، غالبا ما كان الأخوة المنتظمون يضايقونني بشأن عادات الغياب عن حضور المناسبات. ومع ذلك، فإنّي أعترف أنّه حتى بعد مرور هذا الوقت الطويل، شعرت بالإطراء حينها من اقتراح صديقي لتحدّي واقع الحال كقائد لحركة الإصلاح، حتى لو أدركت حينها أنّ الفكرة كانت سخيفة لأنّني لم أكن لأنتُخَب أبدا، ولن أحصل إلا على أصوات أقليّة صغيرة من الأخوة الساخطين Disgruntled Frat Brothers.

الهروب من الركود والملل الأكاديمي

كما ذكرت سابقا، فزت في الغالب في لعبة البوكَر خلال سنتي الأولى في الجامعة، وكان هذا كلّ ما كان لي التباهي به، وكاد أن يتسبّب في رسوبي. كطالب مبتدئ كان أدائي سيئا وأنهيت العام الدراسي كطالب «تحت المراقبة الأكاديمية» Academic Probation. حصلت على درجة D في الفرنسية ومثلها في موضوع الإنشاء الأولي وحصلت على درجة F في الفيزياء. وهذا الأخير نتيجة للنوم وتغيّبي عن الحضور الى الصف، لدرجة أنّني تغيبت حتى عن أداء الإمتحان النهائي. كان ذلك عرضا مذهلا لأسلوب حياتي غير المسؤول، على الرغم من أنّ النوم بشكل سليم كان إنجازا من نوع ما. كان هذا الواقع الرهيب، الذي جلبته على نفسي محبِطا وشكّل بعض المخاطر المسدودة، التي أدركت لحسن الحظ أنّها مهدّدة لمستقبلي بما يكفي لإثارة الرعب، ممّا دفعني الى البحث عن مسار تصحيحي لسلوكي قبل فوات الأوان. لم استخدم أزمة الحياة هذه لمعرفة من أنا أو ما الذي أريده. بدلا من ذلك، كنت اتصرف بشكل تكتيكي. لا شكّ أنّها كانت عملية إنقاذ في آخر لحظة.

قمت أوّلا بتغيير تخصصي في الجامعة من كلية الآداب والعلوم الى كلية وارتن لإدارة الأعمال، معتقدا بطريقة ما أنّه إذا بدأت من الصفر، فقد أكون أفضل وألغي الماضي وأمضي قُدُما. شعرت في البداية بالإهانة من التحاقي بكلية إدارة الأعمال، رغم السمعة العالية، التي تتمتع بها وارتن. بدت هزيمة ثانية، عندما فشلت برؤية نفسي من خلال عيني والدي. لقد نظر الى التعليم الجامعي من خلال منظور كلاسيكي، وكان رافضا لجميع اشكال التدريب

المهني، بما في ذلك شهادة كلية إدارة الأعمال المرموقة باعتبارها مضيعة للوقت بشكل أساسي. وهو موقف جئت لأشركه فيه لاحقا. لم يقدّر أبي شيئا آخر في التعليم الجامعي بخلاف تعلم قراءة النصوص الصعبة في الأدب والفلسفة واكتساب رباطة الجأش للتحدّث عن علم الكلاسيكيات الغربية العظيمة في الماضي. كما رأى في التعليم الجامعي فرصة لتطوير الطلاقة في الفكر المجرّد من خلال دراسة المنطق والفلسفة والرياضيات. بدت وارتن في هذه النواحي، مخيّبة للآمال بالنسبة لي ولم تقدّم أيّا من تلك التحدّيات الفكرية المتطورة.

وبشكل غير متوقع، سألني ألَن أوسر، الذي سيواصل مسيرته المهنية الناجحة ليصبح محرر قسم العقارات في صحيفة نو يورك تايمز، لأصبح رفيقه في السكن في العام الدراسي المقبل. كان ألِن من عائلة يهودية من الطبقة المتوسطة في فورَست هَيلز واصبح مرشدي الثقافي بحكم الأمر الواقع، لا سيما، بذل قصارى جهده لتعريفي بامجاد الموسيقى الكلاسيكية وتعقيداتها. وكان هو نفسه مجتهدا وعازف كمان موهوب، لكنّه متواضع للغاية. لقد فوجئت، ولكنّني تحيّرت Surprised, yet Puzzled بدعوة ألِن. وخوفا من أنّه قد يغيّر رأيه، قبلت على الفور دون تفكير لثانية، ولم أندم أبدا على قراري. تأملت احتمال أن يكون لديّ مثل هذا الشريك الجاد، الذي يشاركني شقتي في القسم الداخلي، وهو يشبه دخول دورة تأهيل لكافة الطلبة، الذين هم «تحت المراقبة الأكاديمية» Students on Probation.

بسبب افتقاري الى الثقة بالنفس والخوف من الرفض الصريح، لم أكن أجرؤ أبدا على الإقتراح بأن نصيح شريكين في الشقة. كنا وقتها مجرّد معارف عابرين، كان طالبا قويّا قائما على أسس جيّدة هي كلّ ما لم أكن عليه. أزدهرت صداقتنا على مدى السنوات الثلاث التالية، على الرغم من أنّها اصبحت غامضة بعض الشيء في بعض الأحيان بسبب منافسة غير معلنة، ربّما لأنّني بدأت أفعل ما هو أفضل من إداءه في العديد من المواضيع التي درسناها معا. تزوّج من زميلته في الجامعة، جانِس، وهي نفسها طالبة متألقة في الفلسفة ولها مواهب أكثر من أيّ منّا. كان زميلنا الثالث في الشقة هو بِل لَوفر، الذي ينحدر من عائلة من الطبقة العاملة في بروكلِن. كان محبوبا للغاية وعاقلا جدّا ومتواضعا فاصبح

صديقا مقرّبا. عشنا جميعا دون مشاجرات كبيرة على مدى السنوات الثلاث التالية في شقة صغيرة على طراز سكن الطلاب مع غرف منفصلة صغيرة لكلّ واحد منّا. كنت افتقر الى أيّة ميزة سياسية في تلك الفترة، ولم أكن أفعل الكثير لمواكبة الأخبار بخلاف قراءة العناوين بين الحين والآخر وتركيز طاقتي على أن اصبح شبه متعلم من الناحية الثقافية وإيجاد الصديقات المرضيات جنسيّا أو المحفزات عاطفيا. ولم أكن آمل بعد في اكتشاف مثل هذه الصفات المجتمعة في إمرأة واحدة. كنت على دراية تامة «بأوراق اعتماد جاذبيتي المتدهورة» My Own Shabby Attractiveness Credentials ولم يكن لديّ الكثير لأقدّمه لهذا النوع من النساء، الذي حلمت أنّ أحبّه ويحبّني.

الإستمتاع بالحياة في جامعة پَنسِلڤَينيا

أصبح الجانب الأكاديمي من حياتي فجأة ليس قابلا للإدارة فحسب، بل أصبح ايضا جذّابا وحتّى ممتعا ومثيرا في كثير من الأحيان. كان «انتشاء فكري» Intellectual High برفقة ألِن حين سجّلنا معا في صفّ للدراسات العليا في الفلسفة، درّسه عميد الكلية الموقّر گلِن آر مورو. تطلّب عمل الصفّ مهمة واحدة، وهي قراءة متعمّقة لكتابات أرسطو، التي غطّت نطاقا واسعا من المجالات الفلسفية. في الوقت الذي كنّا فيه طلبة جامعيين، شعرنا بالذهول معتقدين أنّ أرسطو يعرف كلّ شيء عن كلّ ما يمكن معرفته، وأنّ مورو يعرف كلّ ما يعرفه أرسطو. ما زلت أميل الى الإعتقاد بأنّ ارسطو في يومه كان شامل المعرفة مثل أيّ إلـه[بينما كان أكثر اعتدالا ورحمة من معظم الآلهة الإغريقية المتجوّلة في عالمه القديم.

كانت مطالعة أرسطو تحدّيا مخيفا، خاصّة في البداية. ولكن بحلول نهاية الفصل الدراسي أصبحت تجربة مرضية للغاية. يعكس هذ بشكل خاصّ التوجه النموذجي للأستاذ مورو. كان مورو نموذجا للإستاذ المخلص والمتفاني في موضوعه المختار، وعلى دراية بكلّ زاوية وركن Every Nook and Cranny من فكر أرسطو. لقد بنى حياته المهنيّة بالكامل حول تدريس الفلسفة اليونانية الكلاسيكية. كان هذا يعني بالنسبة له إفلاطون وأرسطو، مع بعض الإيماءات

التقديرية لفكر ما قبل سقراط. كان مورو ناعم الكلام وبعيدا بعض الشيء، يرتدي ملابس محتشمة ويبدو خجولا اجتماعيا. يتناسب كلّ هذا تماما مع صورة هوليوود للعميد الأكاديمي لكلية من جامعات النخبة Ivy League. وبهذا المظهر اللطيف، ألقى مورو محاضرات مضيئة ثريّة illuminating and learned مخصّصة للموضوعات، التي حرّكت فكر أرسطو واسع النطاق بشكل لا يُصدّق. لم يكن مفاجئا أن تكون تجربة الذروة في الحياة بالنسبة لأرسطو تأكيدا غامضا على «التفكير غير المدروس» Unthought Thought وربّما كان ذلك بمثابة مفارقة Irony بالنسبة للفيلسوف، الذي تعمّق كثيرا، لدرجة أنّه بعد قرون استمرت «عطاءاته الفكرية» في تحفيز أذكى العقول بيننا.

كان الجلوس في صفّ الحلقة الدراسية Seminar Room محاطا بطلبة أذكياء ومتعمّقين في الفلسفة على مستوى الدراسات العليا، تضخيما لفخري وبناء ثقة متزايدة في قدرتي على الأداء الأكاديمي، ممّا دفعني الى العمل الجادّ واستيعاب المواد بأفضل ما استطيع. في البداية كان هدفي الوحيد هو تجنّب أيّ تكرار للنتائج الأكاديمية المخيّبة في سنتي الأولى. وفي النهاية، حصلت على درجة A وكذلك الحال بالنسبة الى ألِن، تاركا كلينا مبتهجين. في الحقيقة تفاجأت بعض الشيء وبالتأكيد شعرت بالإرتياح. لم يلتحق أيّ منا من قبل في مقرّر للدراسات العليا، ولم تكن لدينا أيّة فكرة عمّا يمكن توقعه. لقد أنهينا المقرر خوفا من الأسوأ لأنّ الإختبار النهائي كان تحدّيا كبيرا للغاية. طلِب منّا في الإختبار النهائي تقييم نهج أرسطو لمجموعة من الموضوعات الصعبة، ووجدنا أنّ هذه المهمة صعبة بالمعنى الدقيق للصعوبة. كان التسجيل بهذا الموضوع ذروة المغامرة الفكرية، التي يمكن أن تقدّمها الجامعات في بعض الأحيان.

مررت بتجارب أكاديمية أخرى مثيرة خلال السنتين الأخيرتين في جامعة بَنسِلفَينيا، وكلها وليس صدفة خارج كلية وارتُن. لا يجب أن أرفض تجربة وارتِن تماما فقد خدمتني جيّدا من خلال استعادة ثقتي الأكاديمية بعد تعثّري في السنة الأولى. لقد اعطتني فهما كافيا للإقتصاد لتجنب الظهور كأحمق عندما أواجه لاحقا حياة الرسوم البيانية والنماذج والإحصائيّات، التي يستخدمها الإقتصاديون اليوم لتحمّل صياغة السياسة العامة. درست في بَنسِلفَينيا 17 مقرّرا في الإقتصاد

وكتبت أطروحة حول دورات الأعمال، وتمّت مساعدتي كثيرا في تلقي إرشادات لا غنى عنها من أيرفِنگ كرافِس، الخبير الإقتصادي عالمي المستوى. رغم أنّ حياتي اعتمدت عليها، لا يمكنني وصف فرضيّة اطروحتي أو الإستنتاجات، التي توصّلت إليها. كلّ ما أشرت إليه لتلبية متطلبات الأطروحة يظل مغلقا الى الأبد في صندوق أسود!

مِمّا لا شكّ فيه أنّ ذروة خبرتي الطلابية في جامعة پَنسِلڤَينيا كانت ثلاثة مساقات دراسية Courses مع إدوَرد أوبري، أستاذ الفكر الديني المحترم للغاية والمخيف الى حدّ ما، والذي يدفع طلبته للدراسة والبحث بحماس. كان هذا المشروع في بدايته مشروعا مشتركا آخر مع ألِن، الذي انسحب من المقرّر الدراسي بعد البداية، التي وجدها شاقة جدّا، في حين مضيت في دراستي كما المطلوب.

كان المقرّر الثالث والأخير مع الأستاذ أوبري أصعب تحدٍ فكريّ واجهته على الإطلاق. تألف من تطوير إطار الدين الشخصي بخصوص مواضيع معينة على نطاق واسع، والتي كان من المقرّر تناولها في التقارير/البحوث القصيرة الأسبوعية طوال الفصل الدراسي. كان أوبري صارما دون رحمة في جعلنا نفكّر بوضوح واتساق في موضوعات شاقة مثل الله والطبيعة البشرية والغرض من الحياة والمؤسسات الدينية والأخلاق والمعرفة والموت، مع اعطائنا تعليقات مفصّلة على التقارير الأسبوعية التي نسلمها في موعدها. ركّزت عينا أوبري بشدة على توقع أنّه ينبغي مراجعة تقاريرنا في ضوء ملاحظاته وإعادة تقديمها لمزيد من التدقيق. لقد أراد منّا أن نكون واضحين قدر الإمكان في عرض وجهات نظرنا، ومعالجة أوجه القصور، التي لاحظها في أيّ موقف نختاره. ما كان يُصدر أحكاما ولم يكشف لنا أبدا عن أيّ انتماء مؤسّسي خاصّ به عندما يتعلق الأمر بالمعتقدات والشكوك، التي يبدو أنّ مهمته التربوية مكرّسة تماما لتغطيتها والخوض فيها. وهو نموذج دائم بالنسبة لي كمعلم، فقد كان معلما/مرشدا مُلهما Inspirational Mentor/Teacher.

لم يكن الأستاذ أوبري غير كاشف لمعتقداته الخاصّة فقط، لكنّه أيضا لم يؤكّد حتى على الحدّ الأدنى من التركيب الميتافيزيقي لله Metaphysical

Construct of God. لقـد اعتبـرت أوبـري آنـذاك والآن نموذجا غير عادي للتميّز التربوي والتعمّق العلمي والإرشاد الرقيق والحياد الشخصي والتوقعات الصارمة والتعليم المتفاني. على حدّ علمي، لم ينشر الكثير خلال حياته الأكاديمية لكنّه تـرك انطباعـات لا تُمحـى لـدي معظم الطلبـة وحفّزنا على أداء يتجـاوز قدراتنا واسـتمع دائمـا باهتمـام لمـا كان يجـب أن نقولـه. لقـد عرّفتني تلـك المقرّرات الإسـتثنائية في الفكر الديني على كثير من الكتاب، الذين تركت أعمالهم تأثيرا عميقـا تفكيـري فـي ذلك الوقت، وما زلت اقدّر كتاباتهم. من بين هؤلاء، مارتِن بوبَر وكارل جاسپَرز وسَورِن كِركگارد ورانيهولد نيبور، وبضعة آخرين غيرهم.

وبتشـجيع مـن أسـتاذي أوبـري، ذهبت الى كلية هافِرفـورد القريبة لحضور محاضرتين إسـتثنائيتين ألقاهما بوبر، الفيلسـوف اليهودي العظيم، الذي كان في زيارة لحرم الكلية المذكورة لمدة أسبوع. جلس جمع صغير نوعا ما من الطلاب تحـت شـجرة بلـوط فـي نصف دائـرة حول هذه الشـخصية القصيـرة والعاطفية والكارِزميـة ذات اللحيـة التوراتيـة الطويلـة، والتـي لا يـزال اسـلوبها الخطابـي محفـورا فـي ذاكرتـي. نقل بوبر الحكمة والحضور، الذي لا يُنسـى لنبي يهودي خرج مباشرة من صفحات العهد القديم ليكون واحدا بيننا.

عندما طرح أحد الحاضرين بشجاعة سؤالا على هذا الشخص الأكبر عمرا، قام بوبر من مقعده وسـار ليقترب من الطالب وقام بالقاء نظرة تفحّص في عين الطالب من مسافة ذراع وتمعّن في وجهه قبل الردّ. خلق هذا السلوك لنا جميعا لحظـة تقديـر لمفهـوم «أنا/أنت»، الذي كان المحور الشـهير لنهج بوبر في عيش حياة دينية. بعد مرور سبعين عاما، ما زلت مفتونا بالحدّة الحيويّة لذلك التفاعل البشري. لم تتكرّر تلك الحيوية على الإطلاق على الرغم من حضوري لقراءات شـعرية لتي أس إليَوت وبابلو نيرودا. سـاعدتني هذه الشـخصيّات الثقافية الثلاثة الأيقونيـة علـى فهـم أنّ الشـدّة والعاطفة لا تقـلان، أو ربّما أكثر من أهمية العقل والبيانات والمعلومات في اللحظات السـامية للعيش والحب والتعلم Supreme Moments of Living, Loving, and Learning.

كما أعجبني مقرّر متقدّم في الأدب المقارن درّسه استاذ لامع إسمه أدولف كلارمَـن، الـذي كان ملهمـا ومُثقِفـا فـي نفس الوقت. كانت تفسـيراته للشـعراء

والروائييـن المعاصريـن هي تجربتـي الأولى لعجائب الخيال الأدبي. حين يترك قاعـة المحاضـرة، غالبـا مـا شـعرت بالـدوار ونصفي متحمّـس والنصف الآخر مرتبـك. عندمـا بـدأ الكـورس، لـم أكن قد فسّـرت أو فكّرت بجديّـة في قصيدة واحدة من قبل. كانت مهمّتنا الأولى هي كتابة مقال عن رواية راينر ماريا ريلكَه بعنـوان *Duino Elegies*، وهـو نـصّ بـدا لـي في اللغة الإنكليزية أسـهل قليلا في الإسـتيعاب من النّصّ الأصلي باللغة الألمانية، وهي لغة أجنبية لم أدرسـها من قبـل، علـى أيّـة حال. جاهـدت لفهم دورة ريلكه الشـعرية Celebrated Cycle of Poems 'Rilke's، ولم يكن هدفي الأول في كتابة المقال المطلوب أكثر طموحا من تجنّب الإحراج.

أتذكّر شعوري الشديد بالتخوّف عندما تمّت إعادة المقالات الى اصحابها من الطلبة بعد اسبوعين. حصلت على درجة A+ فأصابتني الدهشة، وكنت على وشـك البـكاء. علـى عكس أوبـري، الذي ملأت تعليقاتـه الهوامش، كان توقيع كلارمَـن جنـب الدرجـة هـو كلّ ما مكتوب. ما زلت أتسـاءل عمّـا إذا كنت حقا أستحقّ تلك الدرجة. على أيّة حال، كانت تلك بمثابة بداية مجيدة لعلاقة حبي الدائمة بالشعر، وعلى نطاق واسع بجماليات اللغة.

في ذلك الوقت سمحت لنفسي ومنحتها الإذن بأن أكون «شاعرا مغمورا»، وهو الأمر الذي سـاعدني في توجيه قلبي وروحي لاحتضان الشـعر، الذي بلغ ذروته بعد سـنوات في ارتباط غرامي قويّ بسـالي أِبلتُن. وهي الشـاعرة الحقيقة والكائن المُشعّ، الذي عبر سمائي، وأنا في طريقي ذاهبا الى مكان ما حين كنت أدرّس في ولاية أوهايو بعد عقد من الزمن.

وهذه ذكرى أخرى من درس كلارمَن متعلقة بمهمّة الفصل الدراسي الرئيسية لدينا. كان علينا أن نختار كاتبا واحدا تمّت مناقشة أعماله في المحاضرات، ونقرأ بشكل نقدي إنتاجه الأدبي بكامله. وعلى هذا الأساس نقدّم مقالة شاملة طويلة لتقييم ذلك الإنتاج.

أليكم مساهمة أخرى ناجمة عن سحابة الجهل، التي كانت تظللني. إخترت فرانز كافكا، مستفيدا من القراءة الدقيقة لرواياته وقصصه القصيرة غير العادية، وتذكـرت سـعيي لجمـع كافة المواد والأمل غيـر الواقعي تماما في جعل مقالتي

تبدو ثاقبة ومتماسكة دون أن أكشف نفسي بوضوح. كمبتدئ أدبي وبعد نجاحي في مقالتي عن رِلكه، أتذكّر شعوري بخيبة أمل عندما لم أحصل إلّا على درجة A. كيف يمكن أن تتغيّر التوقعات بين عشيّة وضحاها!

أتذكّر أيضا إحساسي بأنّني في غير محلي إجتماعيا فيما يتعلق بالآخرين في أحد المقرّرات الدراسية. كان واحدا من تلك المقررات النادرة، حيث كان إذن الأستاذ شرطا أساسيا. كان معظم الطلبة اعضاء نشطين في ميدان الأدب داخل الحرم الجامعي، وشكلوا مجموعة صغيرة حصرية مكتفية بذاتها، على أنّ العضوية فيها تكون فقط عن طريق الدعوة بعد التمحيص الطويل. حاولت إخفاء مشاعري كوني متطفلا غير مهذب وغير مثقف وقادم من وارتِن، كان قد تعثّر بمحض الصدفة الى هذا الجو الأكاديمي المخلخل. قمت بعملي بمعزل عن الآخرين، ونظرت بحسد الى أنّهم كانوا يهنئون بعضهم البعض على تألق هذا أو ذاك. لقد ادهشتني هالة الفكر الخالص هذه، وتساءلت عمّا إذا كنت سأحقق في أيّ وقت من الهدوء والإحساس الفائق بالذات لجذب مثل أولئك الفتيات ذوات الذكاء والشهوة الجنسية، من اللواتي مزجن شغفهن بحب المعرفة واللغة باتقان واضح لألغاز إيروس Mysteries of Eros.

جزء مهمّ آخر من تجربتي الدراسية في پَنسِلڤَينيا تألف من سلسلة من مقررات في تاريخ الفن بدون التسجيل رسميّا فيها، لا سيّما محاضرات دَيفِد أم روب، الكاتب البارز عن تاريخ الفن الغربي والمترجم الحادّ للرسامين البارزين ولوحاتهم، وكذلك منحوتاتهم، إضافة الى فنّ العمارة. على الرغم من تفوّقه الأكاديمي، كان صفّه عبارة عن قاعة محاضرات نازيّة، حيث قام بإهانة الطلاب الذين يصلون في وقت متأخّر، وغالبا ما كان مساعده يغلق باب القاعة ويُعامل ساعات التدريس على أنّها أحداث مقدّسة تجري داخل مساحة مقدّسة مغلقة، والتي غالبا ما بدت كذلك. إذا تركت اسلوبه الإستبدادي جانبا، وهو ما فعلته، وجدت نفسي قادرا على المشاركة في سحر روب. لقد كان قادرا على القاء محاضرات جليلة جعلت شرائح اللوحات التي ناقشها تنبض بالحياة بطرق أثّرت على تجربة العمل الفني طوال حياتي. كان انغماسي في تاريخ الفنّ أيضا تعبيرا عن ذاتي الجديدة. كنت أفرض على نفسي طواعية مقرّرات من الجشع الثقافي

المحـض Sheer Cultural Greed، وأقـوم بمراجعـة المحاضـرت ثلاث مرّات في الأسبوع بالإضافة الى جدول مزدحم من المقررات الدراسية، التي سجّلت فيها للحصول على الدرجات المطلوبة.

بعـد عاميـن وخـلال رحلتي الأولى الى أوروپـا، زرت العديد من الكنائس والمتاحف الشهيرة، وادركت مقدار ما تعلمته من محاضرات الأستاذ روب. لقد أعطاني الفرصة أن أقدّر أكثر مجموعة متنوّعة من الأعمال الفنيّة والمعمارية في روما وپاريس ولندن وفِنِس وفلورنسا. اكتشفت خلال تلك الفترة في داخلي ذلك الإحتـرام والتمتـع يالثقافـة العالية، والتي بدأتْ أخيـرا في إزاحة تربيتي الصغيرة Philistine Upbringing الى حدّ ما، إن لم يكن بالكامل.

أثنـاء تواجـدي فـي جامعـة پَنسِـلڤَينيا، عملت لعدة فصول مـن الصيف في محطـة تلفزيـون دو مونـت في نو يورك. واجهت عدة تحديات باسـتمرار خلال عملـي هنـاك، لكونـي بـدون خبرة ذات صلـة بالعمل التلفزيونـي. ومع ذلك تمّ تكليفي بالمساعدة في العديد من برامج أوقات الذروة Prime –Time Programs، أوّلا كمجمّع للدعائم، قريبا جدّا كمساعد مخرج. كان التلفزيون في وقت مبكّر وكان كلّ شـيء جديـدا، مـع الكثيـر مـن الإرتجال وعبء عمـل أكبر ممّا يمكن للموظفيـن مـن التعامـل معه والضغط المسـتمرّ والصداقات السـريعة والضغط النفسـي والإضطرابـات القصيـرة والبرامج العاديّة الـى حدّ ما والفرص الوظيفية الجيدة. حصلت على وظيفتي مجاملة لأنّ والدي كان المحامي الشخصي للألِن دو مونت، مالك القناة ومخترع تكييف أنبوب أشعة الكاثود Cathode–Ray–Tube Adaptation الذي دعم تقنية التلفزيون المبكّرة. أتذكّره كشخصية بسيطة ولطيفة أطلق ايضا العديد من القنوات التلفزيونية وأنشأ شركة انتاج. كانت هذه المشاريع ناجحة في البداية لكنّها فشلت فيما بعد أو ضمّتها الشبكات القائمة.

إعتقـد العديـد مـن مخرجـي التلفزيـون لقنـاة WABD المسـمّاة «نافـذة نو يـورك علـى العالـم»، أنّهـا كانت ممتدة الـى حدّ بعيد. نتيجة لذلـك، تمّ تكليفي بمهـام تجـاوزت قدراتي وكشـفتني كمراهق خجول متخلّف. كان من السـخف أن يُطلـب منّـي توجيه التدريبات علـى الأعمال الدرامية مع ممثلين مخضرمين، لكنّني فعلت ذلك. كان هناك جوّ من الإثارة في الإستديو وجهود محمومة لجعل

الأشياء تعمل والكثير من التواصل الإجتماعي في الوقت المتبقي. إكتسبت قدرا كبيرا من المصداقية المرغوبة والأحرى في حاجة إليها مع زملائي في المدرسة الثانوية خلال تجنيدهم لتقديم عروض رقص إضافية في برنامج موسيقى لأمريكا اللآتينية بعنوان، *Miguelito Valdez and the Mambo*. بدأ البرنامج واختتم عروضه الأسبوعية بتناوب الراقصين بسعادة لأداء المامبو على حلبة رقص مزدحمة. أصبح بعض هؤلاء الراقصين أصدقائي وكانوا ممتنّين لي لتمكين عائلاتهم من رؤيتهم قبل العرض على شاشة التلفزيون، التي كانت لا تزال جديدة بما يكفي لتكون مثيرة في حياة معظم الأمريكيين. تعزّزت التجربة بشكل أكبر من خلال دفع الأجور بمستوى ما طلبه اتحاد النقابات لأداء ما كان أصلا عملا مرحا.

خلال السنوات التي قضيتها في پَنسِلڤَينيا، أصبحت صديقا ودودا مع رَي گرينبلات، الذي التحق بعدي بسنة. كان لاعبا في فريق كرة القدم في المدرسة الثانوية ألأمريكية في مدينة گرين بَي في ولاية وِسكونسُن. كان رَي يتمتّع بالذكاء والقدرة التنظيمية لتجميع سجلّ أكاديمي مدته أربع سنوات بدرجات على مستوى A+ في كافة المواضيع، ممّا جعله أكثر إثارة للإعجاب، لأنّ مثل هذه الدرجات مخصصة للعمل الإستثنائي حقا. للأسف فقدت الإتصال به بعد التخرج. زوّدني رَي بمستوى غير قابل من التفاني للتميّز الأكاديمي المستدام، ووضع مشاهد عالية بحيث تكون بعيدة عن متناول البشر العاديين. على الرغم من ملفه الأكاديمي الممتاز، بدا أنّ رَي يفتقر الى تلك الصفات التي لا يمكن تحدّيها من المخاطرة والإستقلالية العنيدة والأصالة، التي تؤدي الى إختلاقات فكريّة. حتى هذه الصفات ربّما لا تكفي. من الضروري أيضا وجود خطّ متناقض يتمثل في الثورة ضدّ مراعاة المعايير المجتمعية الحالية واحتقار الحكمة التقليدية والمضي دون موافقة التيار الرئيسي.

خلال مسيرتي التدريسية، كان لديّ العديد من الطلبة الرائعين، الذين استمرّوا فيما بعد للحصول على وظائف متميّزة ومنتجة وحتى نموذجية كعلماء ومدرسين وناشطين. ولكن لم يتمكّن أيّ منهم فتح أرضية جديدة كافية لتحقيق اختراقات فكريّة أو مجتمعيّة. تخطر ببالي افكار عن اختراقات أصدقائي من النوع الذي حققه نُعوم چومسكي وإدوارد سعيد ودان إلزبَرگ وگراسيلا چيچِلِنسكي

ومَري كالدور وروبرت جَي لِفتُن وهَورد زَنّ. كلّ من هؤلاء يمتلك نوعا مميّزا من المزاج المتناقض مع إحساس اليقين بشأن صواب المسارات التي إختاروها. لطالما أثير هذا الإختلاف بين التميّز الأكاديمي والإختراق القائم على الإبتكار في الفكر والعمل. أنا أضع نفسي في المنطقة المنزوعة السلاح لفصل التميّز الفكري عن الصدارة المجتمعية، ولا أحصد ثمار الإنجاز الأكاديمي في متناول يدي ولا أحصل على الثناء من سمعة عامّة إيجابية. ومع ذلك أشغل حضورا أكاديميا وأخلاقيا واعتبر نفسي ناشطا محترما، بين أولئك الذين يشاركونني فكري التقدّمي، أجندة سياسية وأخلاقية.



خَجولٌ ينمو في كلية الحقوق بجامعة ييل

الإنجراف نحو دراسة القانون

مـع اقتـراب نهاية سـنواتي الأربع في جامعة پَنسِـلڤَينيا، بـدأت أفكّر فيما يجـب أن افعلـه بعـد التخـرّج. علـى الرغم من أنّ درجاتي في مدرسـة وارتِن لإدارة الأعمـال، وضعتنـي فـي المرتبـة الثالثة في صـفّ المتخرّجين، إلّا أنّني لـم أغـرى بالفـرص المربحـة في ميدانـي إدارة الأعمـال أو إدارة التمويل. لم تكـن لـديّ أهليـة أو اسـتعداد للعمل. كنت أفكّر في مهنـة أكاديمية في العلوم الإنسـانية والحصول على شـهادة الدكتواره، على الرغم من أنّني كنت حينها منجذبا عاطفيّا غير أنّني كنت شديد الحساسية اتجاه منظر الدّم والألم لأفكّر فـي دراسـة الطـبّ. فـي ضـوء ذلك، تصورت أنّ مسـتقبلي مرهـون بطريقة ما بدراسـة القانـون والحكومـة. في الوقت نفسـه، ما كنت راغبـا في تكرار حياة والـدي كمحـام غيـر راض عن حاله فـي الغالب، ولم تكن لديّ أيّة فكرة عمّا قـد يعنيـه العمـل فـي الحكومة، على الرغم من أنّنـي لم أكن منزعجا في ذلك الوقـت بصـدد قضايـا الضميـر والقناعة، التي ستنشـأ بعد عقـد من الزمن. في النهاية، سعيت للإلتحاق بكلية الحقوق بشكل أساسي كخيار افتراضي، معتقدا أنّه على الأقلّ سـيُبعد المهنة والوظيفة لمدة ثلاث سـنوات أخرى، مع إتاحة المجال أمامي لاستكشـاف التضاريس الثقافية Cultural Terrain التي وجدتها محفّزة خلال سنواتي الأخيرة في پَنسِلڤَينيا.

سـجّلت في منتصف التسـعينات لإجراء اختبار الكفاءة في كلية الحقوق،

ممّا دفعني، على عكس المدرسة الثانوية، الى تحقيق درجات عالية. تقدّمت بطلب الى كليتي الحقوق في هارفرد وييل، وتمّ قبولي في كليهما. دفعت مبلغ 50 دولارا لأمنح نفسي مزيدا من الوقت للتوصّل الى قرار بدا بالغ الأهميّة في ذلك الوقت، لكنّه ما كان مهمّا في وقت لاحق. تتمتع كلية الحقوق بجامعة ييل بسمعة طيبة في جعل دور المحامين ذي صلة طيّبة بالمجتمع، ممّا يعني ظهور بدائل وظيفية بخلاف الإستقرار في ممارسة مكتبية من نوع وول ستريت في بعض المدن الأمريكية الكبيرة. لقد قرّرت اختيار جامعة ييل لهذا السبب، على الرغم من أنّ ذلك يعني التخلي عن رغبتي في العيش في منطقة كَيمبرج في بوسطن. بعد أن اصبحت طالبا في جامعة ييل، بدا لي أنّ تلك الفضائل فقدت جاذبيّتها في ذهني. شعرتّ أنّ تجربتي في YLS كانت تقليدية أكثر من صورتها الترويجية، التي جذبتني للتسجيل فيها.

شعرت بالرهبة بعد حضور صف تمهيدي وعلمت أنّ ذلك الصف الصغير في جامعة ييل، الذي ضمّ 120 طالبا أو نحو ذلك، منهم 44 طالبا بيننا ممّن كانوا إمّا من الطلاب المتفوقين أو أنّهم احتلوا المركز الأوّل في تصنيف كلياتهم. يقودني هذا الآن الى تذكّر سؤال ميشيل أوباما لنفسها في مراحل مختلفة من حياتها، كما ورد في مذكّراتها، «هل أنا جيّدة بما فيه الكفاية؟» ضمّ صفنا في السنة الأولى بشكل أساسي الرجال البيض مع عدد قليل من النساء وواحد أو إثنين من الأمريكيين من أصل افريقي، ولم يوجد آسيويون. لدهشتي نوعا ما، ونظرا للماضي الإجتماعي الكئيب، بدأت في تكوين صداقات بسهولة الى حدّ ما. أصبحت من المعارف الودّيين لپات روبرتسُن، نجل عضو مجلس الشيوخ من ولاية فرجينيا الغربية. المثير للدهشة،أنّ پات اصبح فيما بعد زعيما دينيّا بارزا ومضيفا لبرنامج تلفزيوي وحتى ترشح لرئاسة البلاد. أثناء وجوده في كلية الحقوق، كانت لدى پات هوية مختلفة تماما. كان عضوا في مجموعة جنوبية من طلبة القانون المعروفين بحزبيتهم وعادات الدراسة غير الإعتيادية والأسلوب اللطيف وشرب الخمر بكثرة. من الممكن أن تكون هذه الإنطباعات مبالغا فيها، بل وخاطئة تعكس الحسد أكثر من الملاحظة الواقعية. لعبت الكثير من كرة الطاولة في الطابق السفلي من مبنى كلية الحقوق، حيث حظيت مهارتي

بإعجاب أكثر بكثير من أدائي في الصفوف الدراسية حول أسباب القوانين وطرقها.

تضمّن منهج السنة الأولى المطلوب في جامعة ييل سلسلة من المواضيع والدروس الأساسية (العقود والأضرار والقانون الدستوري والملكية والقانون الجنائي) وكانت الصفوف الدراسية كبيرة خلال نصف فصل السنة الأولى بأكمله على الأقلّ. عملت بجدّ وبشكل معتدل، كالعادة خوفا من الأسوأ الذي يذكّرني بسجلي الرهيب في نهاية سنتي الأولى في پَنسِلڤَينيا. لكنّني شعرت أيضا أنّني أمتلك الكفاءة الكافية لحلّ الألغاز القانونية لمعقدة للتعامل مع تحدّي جامعة ييل. شعرت بالثقة فيما يتعلق بالتحليل القانوني وتجريدات الفكر المفاهيمي Abstractions of Conceptual Thought. وفي نفس الوقت، كنت اعتبر نفسي أدنى من العديد من زملائي الموهوبين. كانت درجاتي على ما يُرام في نهاية الفصل الدراسي الأوّل، لكنّها كانت أقلّ بقليل من مقياس مجلة القانون The Law Journal Cutoff، والذي كان الإختبار الأساسي لأداء النخبة.

لقد تأثرت بالجودة العالية لأداء أعضاء هيئة التدريس. عرف كلّ من أساتذتي كيفية جعل القانون ممتعا وصعبا ممّا جعل الطلبة منتبهين وعلى الحافة، ممّا أثار المخاوف من جعل المرء أحمقا إذا طُلب منه أن يبدي رأيه. كان التدريس يجري على «الطريقة السقراطية». سؤال تفاعلي Interactive Question ونوع ردّ على شكل الحوار مع الطالب المستجيب، الذي يتمّ اختياره عشوائيا من قائمة الصف. كانت هناك فرص إضافية للتطوّع عندما يتعثر روتين السؤال والإجابة. أتذكّر أنّ الأستاذ أخبرني عدة مرّات خلال الشهرين الأولين أنّني بدوت كمحام. شعرت بهذا وكأنّه مجاملة من أولئك الأساتذة، بالإضافة الى توفير مناسبات للإثارة اللطيفة من قبل الزملاء المتوترين Nervous Classmates في الصف.

ظللت خجولا في جامعة ييل، ولكن بدرجة أقلّ وأكثر مهارة الى حدّ ما في معظم البيئات الإجتماعية. لحسن الحظ كنت بعيدا عن أن أكون «أحد الأولاد»، ونادرا ما شاركت في التجمّعات الذكورية المتكررة في Maury's، مكان الإستراحة الشهير في الحرم الجامعي، حيث كانت الجعة وفيرة وحيث يقوم الشباب بسرد آخر اخبار «الفتوحات الجنسية». توجد قاعدة غير معلن عنها

أنّه لا تتمّ مناقشة أيّ شيء جوهري على الإطلاق. وحدي، كنت أحلم بممارسة الجنس مع فتيات بالكاد أعرفهن، وأقرأ قصائد لشعراء بالكاد أفهمها.

تساءلت أيضا عمّا إذا كان عليّ أن أربط نفسي بنوع من التجمّع الديني، وحضرت العديد من اجتماعات الكويكرز Quaker Meetings، متأثرا بالصمت ولكن سرعان ما انزعجت من دنيوية Mundaneness ما دفع بعض المؤمنين للتعبير عن آرائهم. بعد كلّ هذا الوقت، ما زلت أتذكّر إنزعاجي عندما انتهكت إمرأة في منتصف العمر الأجواء الهادئة في اجتماعات الكويكرز الصارمة والتعبير عن شكواها بشأن إبنها المراهق، الذي فشل مرارا وتكرارا في اداء الواجبات المنزلية الموكلة إليه يوميا بإفراغ قمامة الأسرة. توقفت عن الحضور، وألقي باللوم لفقدان اهتمامي على مثل تلك التفاهات. لكنّني أشكّ الآن في وجود اعتبارات أعمق، لا سيّما عدم قدرتي طوال حياتي على الحفاظ على الإلتزامات تجاه أيّ مجتمع منظم، حتى الكويكرز، الذين يفتخرون بكونهم غير ديماگوگيين Non–Dogmatically Constituted.

لست متأكّدا من سبب عدم نجاح المشاركة المجتمعية والمؤسسية بالنسبة لي. ظهر أنّني غير قادر على تشكيل مواقف من الولاء أو الكبرياء القائمة على الإنتماء لمؤسسة ما، حتى كخريج نشط أو على الأقلّ كشخص يشعر بأنّه مضطر للإستجابة لنداءات التبرّع المالي. هذا ما شعرت به، لكنّني لم اتصرف على الإطلاق تقريبا بموجبه. كان الفضول، الذي يجد من الحنين الى الماضي، خاصّة بالنسبة للفتيات، هو حول كيف اضحت حياة أولئك اللواتي حلمت بهنّ ذات مرّة. ونظرا لكوني مشغولا بنفسي فقط، لم أستجمع الطاقة أبدا لمعرفة ذلك، وفقدت الإتصال مرارا وتكرارا أو تمنّعت عن نبش الجذور العميقة.

في حين انّ روابط عائلتي ضحلة مقارنة بعلاقات هِليل، شريكة حياتي منذ فترة طويلة، فقد حاولت في السنوات الأخيرة الحفاظ على التواصل مع الأصدقاء المنتشرين في جميع انحاء الكوكب، وهو الأمر الذي يجعل الإنترنَت ووسائل التواصل الإجتماعي أسهل. أحاول أيضا أن ابقى على اتصال مع حياة ابنائي، التي ما زالت تتكشّف. من المحتمل أنّ يردّ كلّ منهم، وليس بشكل عادل، أنّهم تعلموا ممارسات الإنفصال Practices of Detachment منّي!

الطريق غير السالكة

تتفاخر كلية الحقوق بجامعة ييل أمام العالم، بأنّه بعد إكمال السنة الأولى، فإنّ منهج الدراسة خلال العامين التاليين يترك الطلاب أحرارا لتخصيص برامجهم الأكاديمية في ضوء اهتماماتهم وطموحاتهم المهنية. يستخدم ما يقرب من 90% هذه الفرصة بشكل معقول لتطوير تخصصهم التقني في القانون، مثل الضرائب أو حقوق الملكية، التي من شأنها أن تغري المجندين في وول ستريت لزيارة الحرم الجامعي وتشجيع الطلبة لبناء حياة مهنية ناجحة. لقد استغليت مرونة جامعة ييل لتحقيق مجموعة مختلفة من الأهداف، والتأكّد من أنّ نصيبي عند التخرج لن يكون جذابا لشركات المحاماة المرموقة لضمان عدم تلقي أيّ عرض قد يُغريني للسباحة في التيار الذهبي. لقد دفعت النظام الى أقصى حدوده، أو ربّما أبعد من ذلك. أعترف أنّني لم أكن مدركا تماما لما كنت أفعله إلّا بعد حدوثه. في ذلك الوقت كنت أتابع فقط حيث قادتني إهتماماتي، والتي كانت موجّهة بشكل متزايد لتأكيد الآخرين والغرابة من جميع الأنواع Affirming Otherness and Exoticism of all Kinds، خاصّة على الصعيد الدولي، والحفر بعمق قدر المستطاع في منابع المعرفة الإنسانية. حتى مع ادّعاء كلية الحقوق بجامعة ييل بأنّها غير مبالية بشأن إعداد خريجيها لامتحانات المحاماة على مستوى الولاية والمهن القانونية القياسية، شعرت أنّه كان عليّ أن أتعامل مع الإتجاهات المهنية السائدة Vocational Mainstream Vectors، التي لا تزال تشكّل خيالات وخيارات المناهج لمعظم زملاء الدراسة.

في كلية الحقوق، كان الفيلسوف أف أس سي نورثروب، الذي ألّف كتابا مؤثرا بعنوان «لقاء الشرق والغرب» بعد الحرب العالمية الثانية. عارض هذا الأستاذ الأفكار اتجاه القانون وتسوية النزاعات في الغرب وقارنها بتلك السائدة في آسيا، ولا سيّما في الهند. أخذت معه مقرّرين دراسيين، على الرغم من عنوانيهما اللذين كانا حقا «العالم وفقا لفلسفة نورثروب»، فكانا «وليمة للأفكار» Feast of Ideas والتخمينات والتحليلات الفلسفية الرائعة حول التوفيق بين الحضارات المتنوّعة، كمساهمة لتحقيق السلام الدائم في العالم. في وقت

لاحـق، قـدّم نورثـروپ تصويرا تنبؤيا رائعا للآفاق الدولية المسـتقبلية قبل عقود مـن ظهـور كتـاب «صراع الحضـارات» Clash of Civilizations، الذي طلع علينا بـه هَنتِنگتُـن. توقـع نورثروپ مجموعة تفاعلية لعرض الإسـتجابات غير الغربية لفرضيـة الصـدام الحتمـي، التـي تطـوّرت تحـت شـعار «تحالـف الحضارات» Alliance of Civilizations.

كانـت فكـرة أن اصبـح عضوا فـي هيئة التدريس بالجامعـة غائبة تماما عن ذهني، حيث واصلت النظر الى مستقبلي على أنّه يعتمد على الجهد وليس على الموهبة. أيضا، كان تدريس القانون في تلك الأيام شيئا لا يتمّ عادة بعد التخرّج مباشـرة. كانـت التعيينـات المنتظمـة لأعضاء هيئة التدريس فـي كليات الحقوق غير معتادة، إن لـم تسبقها عدة سنوات من الخبرة المؤقتة في «العالم الحقيقي»، ككاتب للقضاة أو العمل في مكتب للمحاماة أو القيام بشـيء ما في الحكومة، ويُفضّل أن يكون ذلك في واشنطن. لقد اقتربت من مستقبلي بلا خطة ولا هدف ولا حتى إدراك أنّني كنت غير مسؤول.

بدلا من ذلك، كرّسـت طاقاتي للفقه القانوني الهندي لدرجة أنّني حاولت التسـجيل في السـنة الأولى في صفّ اللغة السنسـكريتية، حتى أتمكّن من فهم النصوص الهندية حول القانون والفلسفة بشكل أفضل، والتي تحتوي على العديد مـن مـن المفردات والعبارات السنسـكريتية والپراكريتيـة Prakrit غير المترجمة. إقتربت بخجل من مدرس اللغة السنسـكريتية في جامعة ييل لطلب السـماح لي بالإنضمام الى صفه بعد أسبوعين من بدء الفصل الدراسي. كان الأستاذ غريب الأطوار وهو أصلا من فييّنا. عندما طلبت الإلتحاق، أخبرني بصوت جاف غير مرحّب أنّه يمكنني الإنضمام الى الصفّ إذا كنت أرغب، لكنّني ربّما لن أتمكن من اللحاق بالطالبين الآخرين اللذين باشـرا الدراسـة في الوقت المحدّد. سـألته كم فاتني. فتح نصّ كتاب السنسـكريتية للمبتدئين، ولدهشـتي السـارّة، أشار الى المقطع الأول من الصفحة الأولى.

أجبته بحماقة، «ليسـت هناك مشـكلة». إسـتغرق الأمر منّي بضعة أيام فقط لأدرك كـم كنـت مخطئـا ومـدى صحـة رأيـه. ما يفسّـر هذه الصدمـة لتوقعاتي، كان التركيز خلال سـاعات الصفّ اليومية على كيفية قراءة نص «الديفانگاري»

Devanagari، وهـو تحـدّ وجدتـه صعبا للغايـة. تعني هذه الصعوبة أنّني غير قادر علـى إكمـال المهـام الحاليـة بغضّ النظر عن محاولتي. ومع ذلك كانت دراسـة اللغة السنسكريتية بشكل عام تجربة لا تُنسى، ربّما مع لمسة من السخرية. هذا هـو أكثـر مـا أتذكّـره بوضوح عن كلية الحقوق بعد 60 عاما. اصبحنا نحن الطلبة الثلاثة في الصف أصدقاء، ربّما بسـبب كثافة التجربة المشـتركة التي ميّزتنا عن أيّ شخص آخر نعرفه، مثل العضوية في جمعية أو طائفة سريّة.

كرّسـتْ مقالـة فـي النشـرة الإخباريـة لكليـة الحقوق في جامعـة كولومبيا، لفضـح رعونـة نهـج جامعة ييل في تدريس القانون. لقد اختارت تسـليط الضوء على تدريس السنسـكريتية وطريقة العزف على آلة التوبا Tuba playing من قبل صديق في فرقة محلية. يبدو أنّ المقال الصحفي مُصمّم أصلا للنيل من سـمعة الجوّ التعليمي لمنافسـتها، جامعة ييل. سـعى مقال كولومبيا لإثبات تفوّق إعداد طلابهـا لمهنـة فـي القانون، وهو ما غاب عن نقطة أنّنا كنّا إسـتثناءات في جامعة ييـل. كان أداء معظـم زملائنـا جيّـدا في وول سـتريت أو بما شـابهه. في الواقع، صعدت جامعة ييل الى أعلى المراتب الأكاديمية بفعل كلية الحقوق لتحلّ محلّ جامعة هارفرد، على الرغم من عدم الإعتراف بذلك بسبب «العلامة التجارية غير التقليدية» Brand of Unorthodoxy.

كانت تجربة التعلم الأكثر ديمومة في جامعة ييل من تلك المواجهات الغريبة مع نورثروپ والسنسكريتية، هي نتيجة للدراسة تحت إشراف مايَرز مَكدوكَلْ، ومن ثمّ مشاركته في تدريس القانون الدولي مع عالم الإجتماع الأكثر نفوذا في جيله، هَرولد لاسوَيل. كان الأستاذان يطوّران أطار معرفيّا لتأمين المعرفة المتاحة للتأثيـر علـى عمليـات اتخـاذ القـرار للقضاة وواضعـي السياسـات، التي تعالج المسائل الناشئة عن التفاعل بين القانون والسياسة، مع إشارة خاصّة الى الساحة الدولّيـة. لقـد كان نهجـا للقانون والتفكير القانوني الموجّه للسـياق العام والقيم الدافعة بدلا من كونه قائما على القواعد ومقيّدا بالسـوابق، في محاولة لإدخال «الواقعيـة القانونيـة» الأمريكيـة في العصر الحديث القائم على علم المعرفة. لقد كان مثل هذا التشريع في القطب المعاكس للتصميم التفسيري القانوني ونقله من «الأصلانية» Originalism، التي كانت مهيمنة للغاية في الدوائر القانونية المحافظة

مثل المجتمع الفدرالي Federalist Society. كان المقرر الدراسي للأستاذين مَكدوگلْ ولاسوَيل «القانون والعلوم والسياسة» تعبيرا عن وجهة نظر إدّعت أنّها تنقذ القانون من الموضوعات الذاتية للحكم الفردي وكان الهدف منها توجيه القضاة والمسؤولين الحكوميين وكذلك المحامين ليكونوا أكثر استنارة لكي يُرسوا أسس نتائج أكثر «علميّة». كانت جهودهما لمزج العلوم الإجتماعية مع الدراسات القانونية محفزة بالنسبة لي كطالب، لكنّها مرهقة للغاية لتحقيق مهمتها المُعلنة المتمثلة في توجيه المُشرّعين والقضاة والمسؤولين الحكوميين المُجهّدين للتوصّل الى قرارات أكثر إستنارة وأعمق أخلاقية.

كانت الإبتكارات الفقهية المشتركة للأستاذين مَكدوگلْ ولاسوَيل متجذّرة في التربة المعياريّة لِلبرالية الديمقراطية، التي تمّ تلطيفها من خلال احترام واقعي مربِك الى حدّ ما لمصادر «القوة الفعّالة»، كما توقعتها حكومة الولايات المتحدة خلال الحرب الباردة. وفقا لتنظيرهما، لم يكن القانون مستقرّا أو واضحا بطبيعته، وعكس على الأكثر نتيجة البحث الدؤوب عن «التوقعات المعقولة» الناتجة عن القواعد والسلوك السابق. لا يمكن تمييز هذه التوقعات بشكل موثوق به ألّا بعد مراجعة شاملة لسياق القرار الذي يأخذ في الإعتبار المدخلات المتوقعة من النظام الإجتماعي والإقتصادي والثقافي الأوسع والآثار المترتبة عليه، كما يجب أن يتمّ تقييمه من خلال منظور علم الإجتماع. وبطبيعة الحال، فإنّ جعل هذه الأشياء تبدو «علمية» ولكون الإستفسار مرهقا، بالنسبة للعديد من الخبراء القانونيين، صيّرها معقدة وغامضة بلا داع. دافع مَكدوگلْ عن آرائه الخاصّة بشجاعة كبيرة، وأظهر ثقة لا حدود لها في أنّ نهجه في القانون قد حدّد المسار الأساسي لمجتمع حُرّ مُستنير. إنّ مثل هذه التعظيم، إذا كان مقدّما من قبل معظم الآخرين، لكان قوبل بابتسامات ساخرة وباستنكار إنْ لم يكن السخرية الصريحة. ومع ذلك، كان مَكدوگلْ دافئا وعاطفيا ومخلصا بشدة للطلاب والأصدقاء لدرجة أنّ نرجسيته الفكرية لم تزعج أحدا، والغريب انّها أضافت الى سحره المغناطيسي. أكثر من أيّ شخص قابلته عن كثب، كان لِمكدوگلْ في الحياة حضور مسرحي يفوق خيال الكاتب المسرحي.

كان مَكـدوكَلْ مقتنعـا ومقنعـا بـأنّ عمله يمثل اختراقا فـي التفكير القانوني وكان بمثابة موجة المستقبل العاتية، ليس فقط في أمريكا، ولكن في جميع انحاء «العالم الحر». ساد في تلك الفترة وعي الحرب الباردة على المجتمع الأكاديمي في البلاد، وكان مَكدوكَلْ من مؤسسـي إمبراطورية أكاديمية رئيسـية وشـبكات عالميـة قبـل أن تظهـر الإنترنـت. كان فعّـالا للغايـة فـي وضع طلابـه المفضلين والمخلصيـن لـه في الجامعات والمناصـب الحكومية ومكاتب المحاماة الرائدة في جميع انحاء العالم. لقد كانت تجربة مدهشـة بالنسـبة لي أن أتعرّض فكريّا وشـخصيا لتأثيـر هـذا الرجـل العظيم. أصبـح رائدا في التعليـم القانوني الوطني بحكـم قـوّة الشـخصية والسـحر بسـبب اجتهـاده القانونـي المبتكـر Innovative Jurisprudence. لم يكن هناك شـكّ في أنّ كثيرين ممّن أعجِبوا بالرجل فعلا قد عملـوا ذلـك بالرغـم من اجتهاده، علما بأنّ أكثـر أتباعه إخلاصا قد احبوه لكلي الخصلتين فيه. إنّ صورة الأسـتاذ مَكدوكَلْ لم تتناسـب أطلاقا مع صورة مجلة فانِتي فَير لاسـتاذ بارز في جامعة نخبة Ivy League يرتدي بدلة «ثقيلة» نوعا ما، ودائما سـروالا داكنا مرفوعا جدّا على جسـمه بحمّالات ويرتدي قميصا أبيض وربطة عنق عديمة اللون ونظارة سميكة. وعادة ما يكون لون عينيه أخضر، جذّاب منيع ومحبوب Forbidding, and Lovable كأنّه مغطى بغطاء يكشـف عنه صوت مدوّ وضحكة ملعلعة، تنتج جميعا بشكل عام إحساسا محيّرا بدا في الوقت نفسه مجرّدا بشكل محيّر، ولكنّه شخصيّ للغاية.

أنا مدين بمسـيرتي الأكاديمية للأسـتاذ مَكدوكَلْ أكثر من أيّ شـخص آخر. إسـتمرّ تأثيره وتفانيه على مدى سـنوات عديدة، على الرغم من خلافاتي العامة الشـديدة مع مواقفه بشـأن قضايا السياسـة الخارجية الأمريكية المثيرة للجدل. شـعرت أنّه كان بارعا في إيجاد طرق لتأييد كافة الأشـياء البغيضة، التي تفعلها الولايـات المتحـدة فـي جميع أنحاء العالم، بينما كان يدين كلّ ما يفعله الإتحاد السـوفيتي وأصدقاؤه، حتى لو كان خيرا. لقد كان من انصار الحرب الباردة بلا خجـل، ولأنّـه كان يقـدّر العلاقة الشـخصية أكثر من التوافـق الأيديولوجي، كان يبذل جهدا خاصّا لطمأنتي بأنّ أيّ شـيء نختلف بشـأنه، ليس له أيّ تأثير على رأيـه فـي قدرتـي المهنيّـة. من ناحيتي، لم أرغب في خلق خيبة أمل لديه عنّي أو

فقدان دعمه لي. ومع ذلك، وجدت نفسي غير قادر على التظاهر بقناعة ومشاركة رؤيته القومية واجندته.

في أكثر من مناسبة عندما كنّا معا في مؤتمرات أكاديمية، كان أستاذي يدين بشدة مقاربتي للقانون الدولي باعتبارها خاطئة تماما، وأسوأ من ذلك غير مسؤولة سياسيا ورجعيّة من الناحية الأخلاقية. أتذكّر ندوة نقاش عن نيكَراكَوا في منتصف الثمانينات في جامعة نو يورك، حيث دعمت بإخلاص موقف حكومة الساندَنيستا Sandinista Government. صرخ أساتاذي في وجهي من المنصّة لتأييدي «نظام شيوعيّ». وبعد انتهاء فترة المناقشة، إقترب منّي استاذ القانون الدولي الكندي، الذي كان من بين الحضور، وقال بنبرة متسامحة، «دِك، ألا تدرك أنّك تعضّ اليد التي تطعِمُك؟» إستند موقفي في ذلك الوقت الى التعبير عن أفكاري الحقيقية، التي قدّمتها بطريقة محترمة واستمعت بعناية لما قاله الآخرون في المقابل. إذا تسبّب ذلك في بعض ردود الفعل السلبية، وهو ما حدث على الأرجح، على الرغم من أنّه ليس مع أستاذي، فقد كنت مستعدّا للتعايش مع ذلك والقبول بنتائجه.

في مناسبة أخرى، على ما أعتقد في جامعة ييل، كان هناك اجتماع لمناقشة الإتجاهات الحديثة في الفقه القانوني Modern Trends in Jurisprudence. بحلول ذلك الوقت، كانت لديّ رباطة الجأش الكافية لأواجه التحدّي، بما في ذلك الجرأة لإخبار أستاذي مَكدوكَلْ بأنّه لم يستوعب تماما فقهه القانوني. لقد جادلت بأنّه أكثر تقدّمية في تطبيقاته المناسبة للأحداث الحالية والسياسة الخارجية، عمّا كان يعترف به. لقد جادلت أنّه نظرا لأنّ الإلتزام المهيمن لنهجه هو تعظيم «قيمة الكرامة الإنسانية»، فإنّ هذا وحده يجب أن يدفع مَكدوكَلْ الى تبنّي نهج انتقائي لدور أمريكا في العالم الثالث. لدهشتي السارّة، ضحك الأستاذ هذه المرة بدلا من أن ينفث حماسته بالصراخ، وردّ بالقول، «أنا أتفق معك في نصف ما تقول!» لم استكشف النصف الآخر أبدا لأنّني كنت سعيدا جدّا بهذا الإمتياز الحماسي الجيّد، الذي لم اتوقع الحصول عليه منه مطلقا.

ما كان مدهشا للغاية بالنسبة لي على مرّ السنين، كما هو الحال مع والدي، أنّ ولاء مَكدوكَلْ الشخصي وصداقته لم يتزعزعا أبدا، وباعطاء الأولوية المطلقة

لهما على أيّة خلافات في الرأي حول القانون أو السياسة. كان على مرّ السنين أقوى من أيّدني، ولم أكن وحدي في ذلك. كان من اللافت للنظر أنّ مجموعة اتباعه قد غطّت الطيف الأيديولوجي من اليمين المتطرّف الى اقصى اليسار وشملت العديد من النساء كما الرجال، وهو أمر غير معهود للغاية في ذلك الوقت. لقد كان دعمه القويّ لعملي ووعدي الأكاديمي بلا شكّ سبب الإعتراف بي وبنجاحي المهني المبكّر.

حتى اشدّ منتقديه كانوا يهدأون بفعل سحر شخصيته الجنوبية وطرقه للبروز في المناقشات.أي أنّ الجميع، باستثناء عدد قليل من الفقهاء الخصوم، الذين كان يحطّ من قدرهم علنا، سعداء لوجودهم ضمن دائرته الواسعة من الأصدقاء والمعارف. لقد تشرّفت بقبولي ضمن مجموعة داخلية من المتدربين، الذين ذكرهم ذات مرة بحضوري، كأربعة مفضّلين لديه. الآخرون هم روزلِن هِگنز، التي اصبحت قاضية في محكمة العدل الدولية. وكذلك بِرَنز وِستُن، الباحث الممتاز في حقوق الإنسان، ومايكِل ريزمَن، الذي خلف استاذنا الكبير في شغل مركزه بكلية الحقوق في جامعة ييل فيما بعد. إنّ مثل هذه القائمة هي بلا شكّ غير عادلة للعديد من الآخرين، بما في ذلك المؤلفين المتعاونين معه من جميع انحاء العالم، بمن فيهم علماء قانونيون بارزون مثل فلورَنتينو فِلسيانو وبي أس مورتي ولَونگ چوچِن ووِليم بَرِك وآخرون. لقد وضعوا مجلدات ضخمة حول مواضيع قانونية متشعّبة مثل استخدام القوة والفضاء والنظام العام للمحيطات وحقوق الإنسان وتفسير المعاهدات والنظام الدستوري. ليس من قبيل المبالغة الإدّعاء بأنّ شهرة الأستاذ مَكدوگلْ بصفته باحثا، تدين بالكثير لمشاركته الموهوبة في البحوث الدراسية التعاونية، على الرغم من أنّ ذلك يعني بالنسبة لشركائه المختارين العمل بدون تمحيص وفق إطاره، الذي وضعه بالتعاون مع الأستاذ لاسوَيل، حول العلاقات بين القانون والحكومة والمجتمع.

على الرغم من أنّني كتبت بحثا أو بحثين تحت إشراف مَكدوگلْ، كان أحدهما عن الإمتداد خارج الحدود الإقليمية لقوانين مكافحة الإحتكارات الأمريكية، وكان هذا موضوعا ساخنا في ذلك الوقت. ومن حسن حظي أنّني لم أصبح متعاونا معه بشكل كامل، فلربّما لم أكتشف شخصيتي القانونية مطلقا.

حاول استاذي تجنيدي للقيام بتوسيع تعاوني طويل الأمد في ذلك البحث الدولي لمكافحة الإحتكار، غير أنّه في ذلك الوقت عانى من انفصال الشبكية في كلتي عينيه، ممّا جعله ضريرا تقريبا، فتوقف المشروع خلال الفترة المتبقية من وقتي في جامعة ييل.

شعرت بالحزن للضعف الخطير في بصره، ومع ذلك اعترف بمشاعر الإرتياح الممزوجة بالحزن في ذلك الوقت. أدركت أنّه كان من الصعب وغير الملائم بالنسبة لي تكييف أيّ استفسار علمي مع إطار القانون والعلم والسياسة المفصّل بعناية. جعلني أدرك أنه إذا قمت بأيّة كتابة لاحقا، فلن أشعر بالأصالة إلا إذا صدرت بشكل أساسي من عمليات التفكير الخاصّة بي. لم أكن مناسبا لأن أكون خبيرا أكاديميّا، على الرغم من أنّني كنت مرتاحا لكوني صديق سفر ومُعجبا مخلصا وطالبا وفيّا ومتعاونا على قدم المساواة. بالطبع، حتى عندما اصبحت باحثا كبيرا بنفسي، لم اتغلب أبدا على إحساسي بالخضوع لهذا المعلم العظيم. وبالعودة الى الوراء، شعرت بأنّ مَكدوگلْ أب بديل تقريبا Almost a Surrogate Father بالنسبة لي، ممّا حفّزني على بذل قصارى جهودي ودعم نفسي وترسيخ ثقتي والتواجد من أجلي في أيّة لحظة من الحاجة الحقيقية. نحن الذين نتمتّع بفوائد الإرشاد من مثل هذا الملاك الحارس اللطيف نشعر بأنّنا مباركون حقا، حتى لو كنا أدركنا تأثير تلك السنوات تماما في فترات لاحقة.

أحد الأشياء، التي فشلت في تعلمها من أستاذي، وربّما أفضل لي،هو إيمانه المذهل بالأهمية، التي لا جدال فيها لعمل حياته وقيمة مساهماته في إعادة بناء القانون الدولي. لم يُظهر أستاذي أبدا أيّ شكّ في نفسه، بينما أنا لا أتحرّر منه تماما. بازدراء فكاهي لعمل الآخرين، الذين اختلف معهم، واحتضانه الدافئ لأولئك الذين مدحهم، جذب مَكدوگلْ العديد من الطلاب السابقين والشخصيات البارزة الى دائرة ساحرة من الإيمان المشترك. خارج حضوره، كانت هناك نوبات من عدم التصديق وأصوات القانون الدولي التقليدية تشكو من غموض النهج وتعقيده الذي لا يُسبَر غوره. كانت هناك أيضا همهمات إنتقادية بين الحين والآخر ضدّ تحيّزه الأيديولوجي. لكنّه لم يبدُ أنّ تلك الأصوات

المعادية تزعج مَكدوگلْ، الذي كان مروّجا ذاتيا بارعا لأفكاره ومتجاهلا تماما لمنتقديه.

حتى في مواجهة شكوكي السياسية المتزايدة، فقد دعمت فكريّا الإستراتيجية الفقهية العامة لإطار عمل مَكدوگلْ/لاسوَيل. لقد ساهمت بنشر مقاتين في القانون الدولي الرئيسي في احدى المجلات، التي يطلقون عليها أسم The New Haven Approach، وبقي الأسم عالقا في ذهني.

إعتقد مَكدوگلْ بشدّة أنّ شخصيات أكاديمية بارزة مثل لو هَنكِن في جامعة كولومبيا ودِك پاكِسر وروجر فِشَر في هارفَرد، كانوا «طفيليين» في مقارباتهم للقانون الدولي وسرعان ما سيحلّ محلهم ممارسو نهج نو هَيفِن في عملهم وتأثيرهم. (بالمناسبة وتعريفا للقراء، مدينة نو هَيفِن هي عاصمة ولاية كَنَتِكَت، التي تقع فيها جامعة ييل - المترجم)

كان توم فريدمَن أتعس مواجهة لي في جامعة ييل. وهو صديق مقرّب من أيام دراستي الجامعية في فيلادلفيا. كان طالبا لامعا ومحبّبا لطيفا، على الرغم من وربّما بسبب أسلوبه غريب الأطوار. ذكّرني أسلوبه في المشي والحديث بشخصية محبوبة قد خرجت من صفحات قصة ساحر \الأوز *Wizard of Oz*. كنا رفاقا في جامعة پَنسِلڤَينيا وسوية خارج منظمة الأخوة وزميلين في فريق البولِنگ. تمّ قبوله في كلية الحقوق بجامعة ييل، لكنّه عاني ممّا وصفه لي والداه بأنّه «إنهيار عصبي» قبل وقت قصير من الموعد المقرر لبدء الدراسة. كانت تلك خيبة أمل شخصية حيث توقعنا مشاركة شقة بعد السنة الأولى من العيش في السكن الجامعي. تمّ وضع توم في مصحّة عقلية بالقرب من منزله في باي سِتي بولاية مِشِگَن، ولم أره أو أسمع منه أبدا مرّة أخرى. بعد بضعة أسابيع وأنا في جامعة ييل، أبلِغت أن توم قد مات، سواء منتحرا أو بسبب العلاج. لم يتّضح الأمر بعد.

تخرّجت في كلية الحقوق بجامعة ييل، وقد أبليت بلاء حسنا لأكون في جمعية الشرف الأكاديمية المخصّصة لأولئك الذين وضع متوسط درجاتهم ضمن 10% الأعلى في الصفّ. عندما دُعيت الى المنصّة أثناء حفل التخرّج في فناء كلية الحقوق كواحد من الطلبة المتفوّقين، أحرجت نفسي بفشل في اختبار

اللياقة. لسوء الحظ، جعلت من نفسي موضع السخرية لأنّني كنت أرتدي قبّعة التخرّج المعتادة فقط، ولكن بدون الروب Gown المطلوب. بدوت وشعرت بالسُخف بعد أن قللت من أهمية المناسبة دون تفكير وأثرت موجة من ضحك الجمهور. لم يعجب الأمر العميد يوجين أف روستو، وهو أستاذ سابق لي ثمّ مسؤول رفيع المستوى في وزارة الخارجية وصهيونيّ متحمّس.

لم تكن تلك أسوأ لحظات لي خلال سنواتي الثلاث في جامعة ييل. الأسوأ منها هي المرّات، التي تعرّضت فيها تقريبا لسلب ما أحمل من المال أثناء المشي ليلا من مكتبة كلية الحقوق الى غرفتي المُستأجرة خارج الحرم الجامعي خلف صالة هُجِنسُن. في تلك الفترة، كان هناك عداء مستحكم شرس في مدينة نو هَيِفن، لكنّه تضاءل لاحقا عن طريق شراء الأراضي المحيطة بالحرم الجامعي والإجراءات الأمنية الأخرى. خلقت هذه منطقة عازلة وقائية قللت من احتكاك فقراء المدينة بساكني الحرم الجامعي من أبناء وبنات العائلات الثرية، دون إثارة للهيجان الطبقي والعِرقي.

كان يوجين روستو، الذي أصبح عميدا لكلية الحقوق خلال سنتي الثانية في الكلية، تقليديا ببراعة ومبتكرا في الفكر وطليقا في التعبير وموثوقا به من قبل المؤسسة، سجله خال من الفشل ويرتدي ملابسه بشكل جذّاب ويتحدث بلغة رصينة مصحوبة بحركة جسدية، كما لو كان الشريك الأداري في مكتب شهبر للمحاماة أو مؤسسة مالية رائدة في وول ستريت أو في العاصمة واشنطن. بذل جين قصارى جهده ليُحسّن سمعة جامعة ييل كمكان لتدريب المحاماة المجانية Pro Bono Lawyering والتفكير المنحرف إجتماعيا Socially Deviant Thinking. كما كرّس طاقته لتحسين آفاق طلاب جامعة ييل للحصول على أفضل الوظائف في مكاتب المحاماة الرائدة والمؤسسات المالية في وول ستريت ودوائر الحكومة المركزية في العاصمة واشنطن. إكتسب الإنتباه من خلال تفوّقه على هارفَرد في سباق الهيبة Prestige Race الدائم بين كليات الحقوق الرائدة. كانت كلية الحقوق بجامعة هارفرد تتحرّك متأخّرة في الإتجاه الأيديولوجي المعاكس تحت تأثير الدراسات القانونية النقدية. لم تعد جامعة هارفرد تريد أن تكون معروفة في المقام الأوّل بتعليم أولئك المدرّبين على تقديم الخدمات القانونية للنخبة

الثرية من طبقة WASP في البلاد. في هذا السياق، إحتفت باعضاء هيئة التدريس الراديكاليين مِثل دُنكَن كِنِدي والمنظر القانوني البرازيلي البارز روبِرتو مانگابيرا أونگَر، الذي عمل لاحقا كمستشار للسياسيين اليساريين البرزيليين الطموحين.

سمعت في السبعينات أنّ أونگَر يلقي سلسلة من المحاضرات التفصيلية خلال ندوة لأعضاء هيئة التدريس بجامعة پِرنستُن في ولاية نو جَرزي، ويتحدّث بشكل لا تشوبه شائبة دون ملاحظة واحدة. تضمّنت عروضه تمييزات معقدة وقوائم تصنيف طويلة. لم أكن متأكّدا أبدا ما إذا كان أداء أونگَر نتيجة حفظ نصه المكتوب أو عرض مذهل لعقل منظم جيدا أو مزيج بين الإثنين معا. ومهما كان الأمر، فقد كان رائع الأداء. لقد حدث أنّ كلية الحقوق بجامعة ييل تفقد سمعتها كمكان يرعى فيه الطلاب ضمائرهم بالإضافة الى تدريب عقولهم. وقد عكس ذلك إصلاح العميد روستو، الذي اعطى الأولوية للتغلب على هارفَرد في مجال المهنة القانونية السائدة. إنتزعت جامعة ييل المرتبة الأولى من جامعة هارفرد بين كليات الحقوق الأمريكية، على حساب تشويه صورتها كمختبر قانوني للتغير الإجتماعي، وبالتالي تضاؤل الإحترام لها، ربّما بشكل غير عادل. حين كنت طالبا، كانت جامعة ييل هي التجربة التعليمية الوحيدة، التي جعلتني أشعر بالراحة اتجاهها كمؤسسة تعليمية.

بطريقة مختلفة، ذكّرتني تجربة ندوة أونگَر بمحاضرات نعوم چَومسكي اللغوية في پِرنستُن قبل ذلك بعقد أو نحو ذلك. حضر المحاضرة الأولى جمهور غفير، ومع بدء سلسلة المحاضرات، تضاءل الجمهور حتى وصل الى عدد قليل. كانت عروض چَومسكي غامضة وعنيدة من الناحية الفنية. قد تكون تلك رغبته عن قصد أو عن غير قصد، لم أكن متأكّدا أبدا. في المحاضرات، كان چَومسكي، الذي يُنسب إليه الفضل في تطوير «علم اللغة البنيوي/التركيبي Structural Linguistics»، طرح مقارنة أفكاره، التي سمّاها «وجهة النظر القياسية The Standard View بأفكار منتقديه، الذين رفضهم بسلطوية لم تترك أدنى شكّ لمن يعتقد أنّه على صواب ومن كان على خطأ. كما هو الحال مع مَكدوگَلْ، وعلى الرغم من تباين إيصاله الهادئ وغير العاطفي، لم يعطِ نعوم أبدا أدنى تلميح من الشكّ الذاتي، ولكن على العكس من ذلك كان واثقا من نفسه بهدوء بحيث

يمنع ردود الفعل العدائية أو التحدّيات من الجميع، باستثناء النقاد الواثقين جدّا من أنفسهم. نظرا لأنّ نعوم كان صديقي وضيفي في منزلي، شعرت بضرورة الجلوس في ثلاث محاضرات لم أفهمها ولم أقدّرها، بينما كنت معجبا بنزاهته وتجاهله الواعي لفقدان جمهوره.

كانت محاضرات نعوم اللغوية تختلف تماما عن محادثاته السياسية، حيث يبذل قصارى جهده للتفاعل مع الجمهور بكامله، مع إظهار إتقان مذهل لمجموعة واسعة من المواد الأولية والثانوية وحتى ذات المستوى الثالث. كان يوزّع الرؤى السياسية المضيئة بحريّة من خلال معالجته الشاملة والساخرة في كثير من الأحيان للقضايا الملموسة لعالم الحياة السياسية في الداخل والخارج. ما كان صحيحا، سواء الحديث عن النظرية اللغوية أو الحقائق السياسية، هو أنّ نعوم نقل ثقة هادئة في صحة آرائه وتصوّراته وتفسيراته جنبا الى جنب مع ازدراء ساخر دقيق مصوغ بأدب لمن تجرأ على الإختلاف معه. وبعيدا عن الكاميرا، كان نعوم خجولا ولطيفا ومحبوبا بطريقة مختلفة تماما عن أستاذي مَكدوگلْ، الذي توجّه علنا وسرّا نحو من اختلف معه بقوة كما رياح الإعصار.

جزء آخر من تجربتي في جامعة ييل يتعلق باهتمامي المستمر بالدين والفلسفة. عقدت أمري في سنتي الثانية في ييل أن أذهب كلّ يوم جمعة من مدينة نو هَيفِن الى جامعة كولومبيا في نو يورك، لحضور سلسلة من الجلسات التعليمية مع استاذ الزن الياباني Japanese Zen Master، دي تي سوزوكي. وهو الذي يرجع اليه الفضل في تقديم نهج الزن من الفكر البوذي الى الثقافة الغربية. في هذه المرحلة من حياته الطويلة في الدراسة والتفكير، كرّس سوزوكي ساعتين للقراءة من كتب زن المقدّسة Zen Scriptures. وهي تركة رهبان بوذيين سابقين، قرأها بصوت منخفض بالكاد يمكن تمييزه، أكثر بقليل من صوت خرير الماء الجاري في جدول صغير. في كثير من الأحيان كان هناك وميض من البصيرة Flash of Insight، يجعل الرحلة والتجربة تبدو ذات قيمة تتجاوز الإحساس الراقي بلمس التجسيد الحي للتقاليد المقدّسة بخفة.

كانت هناك تقاليد متّبعة في كافة هذه المناسبات لكلّ جلسة جمعة. قبل دقائق قليلة من دخول سوزوكي القصير النحيل مرتديا ثوبا بوذيّا الى غرفة الندوة

المزدحمـة، كانـت فتـاة يابانية شـابة جميلة ترتدي الزي التقليـدي تدخل الغرفة وهـي تحمـل وشـاحا حريريـا يابانيا ملوّنا فيه مجموعة مـن اللفائف. تضع الفتاة اللفائف على المنضدة أمام مكان جلوس الأستاذ. أكره أن أعترف بعد 65 عاما، أنّ التخيّلات المسـتوحاة مـن طقوس فتح النصـوص الملفوفة كانت ذات قيمة أكبر بالنسبة لي من العروض التقديمية شبه المسموعة، التي ألقاها سوزوكي.

بعد عقود وبصفتي زميلا اصليا في جمعية Lindisfarne، التي كانت تجتمع سـنويا فـي معبـد جماعـة زن البوذية Green Gulch فـي مقاطعة مارتن القريبة من مدينة سَـن فرانسِسـكو، أتيحت لي العديد من الفرص لسـماع رِچَرد بيَكر، أوّل رئيس معبد زن أمريكي المولد، يتأمل بصوت عالٍ. كانت لديه تلك القدرة النادرة علـى إثـارة الـروح بلغـة نقيّـة، ممّا جعلني مذهولا لكونها تشـبه الـى حدّ ما لعبة Go اليابانية، وفي نفس الوقت بسيطة بشكل خادع، لكنّها عميقة للغاية. سمعت أنّ الدَلاي لاما سـيقيم في أوسـلو ندوة عن جائزة نوبل للسـلام في عام 1991. وهو العام الذي مُنِحت فيه الجائزة الى أونگ سـان سـوكي. إمتلك الدَلاي لاما موهبة مماثلة من البساطة المتطوّرة، بالإعتماد على الإستعارات اليومية لوصف الجوانب، التي كانت تلمّح سابقا للتجربة الإنسانية.

الطريق الذي سرت فيه

كنت بطيئا في العثور على طريقي طوال الحياة، وعادة ما أحسد، على الرغم من الشـعور بالشـفقة في بعض الأحيان، أولئك الذين رسـموا مستقبلهم. بسبب عـدم اليقيـن المتأصّـل هـذا، من خـلال العادة والحظ الجيّد بشـكل عام، تركت حياتي تتكشّف بشكل عفوي الى حدّ ما والمضي فيها وعدم الشعور بالميل الى تحقيـق هـدف وظيفـي مـن خلال جهد مركّز للوصول الى ما بعد الحاضر. حتى الآن، وعلى الرغم من بعض خيبات الأمل البسيطة، أنا سعيد لأنّني تركت ذلك يحدث.

يمكننـي أيضـا الإعجاب بأولئك الذين يتعاملون مع مسـتقبلهم الشـخصي بشـكل أكثر اسـتباقية. إلتقيت في تركيا أخيرا بشـابة تبلغ من العمر خمسـة عشر عاما أو نحو ذلك، وهي على وشك انهاء دراستها الجامعية في اسطنبول. قالت

إنّها منذ أن كانت في الحادية عشر من عمرها أرادت أن تصبح مخرجة أفلام، وكانت على يقين من أنّ أكاديمية نو يورك للأفلام هي المكان المناسب لعدة سنوات قادمة، كي تدرس في طريقها الى تحقيق احلامها. لم استطع الإستماع إلّا بحسد خفيّ لتلك الحكاية، التي تتسم بهذا الوضوح الشديد في سنّ مبكّرة، والمصحوب بتركيز منظم على كيفية التحكّم في المستقبل من خلال إتباع الطرق الموضّحة وغرس الخرائط في العقل. لطالما كنت حريصا على الإستجابة لنصيحة الشاعر هَنري دَيفِد ثورو «لاتباع قوس قزح أحلامك»، ولكن نادرا ما كانت لديّ الأحلام المطلوبة، وبالتالي عشت لفترة طويلة بالإنجراف والصدفة وأيّ شيء أنزلق نحوه بشكل عشوائي عبر رافد تجربتي. في الآونة الأخيرة فقط وبفضل رحمة العمر، انزاحت عادة الإنجراف وأنا اتنقل في المياه الضحلة من العمل واللعب بينما تستمرّ رحلة حياتي تحت سماء مظلمة ملبّدة بالغيوم.

مع اقتراب الفترة، التي امضيتها في كلية الحقوق بجامعة ييل، من نهايتها، بدأ إحساسي بالذات السياسية يتشكّل ببطء، وفي الحقيقة تشكّل أيضا استجابة للوضع التاريخي. الجو العام سيطرت عليه المواقف القويّة المعادية للشيوعية والتطرّف الهستيري والقمعي من خلال مآثر عضو مجلس الشيوخ جَوزِف مكارثي من ولاية وِسكونسُن، الذي صنع إسمه وسمعته السيئة من خلال اتهام الأمريكين البارزين بأنّهم حلفاء سرّيون للإتحاد السوفيتي. دمّرت مثل هذه المناورات السياسية المؤسفة العديد من الأرواح الشريفة، التي تتعارض مع الإدّعاء بأنّ أمريكا هي الدعامة المركزية «للعالم الحرّ».

أتذكّر عام 1955، وهي سنة تخرّجي في جامعة ييل، لعدة أسباب. كانت جلسات مكارثي في مجلس الشيوخ الأمريكي تحقق في الإختراق الشيوعي المزعوم للقوات المسلحة الأمريكية. طلب صديق منّي توزيع عريضة تعارض المكارثية بين زملائي الطلاب. كانت بالنسبة لي تجربة تعليمية استمرّت مدى الحياة. لقد فوجئت بعدم رغبة معظم الطلاب في التوقيع على تلك العريضة، بمن في ذلك اصحاب الآراء اللِبرالية. كانوا يخشون أن تظهر أسماؤهم على «القائمة السوداء»، على الرغم من سمعة جامعة ييل بأنّها مرفأ للمتطرفين. بحلول عام 1955 بدا جميع زملائي من خريجي القانون تقريبا حريصين على عدم تعريض

فرص عملهم للخطر في مكاتب المحاماة المرموقة، والتي يُفترَض أنّها محافظة ومناهضـة للنشـطاء وغيـر متعاطفـة مع أيّ عرض عام للمشـاعر السياسـية، التي يمكن اعتبارها انتقادية للنظام القائم.

في وقت لاحق فقط بدأت أدرك سـرّ التجربة. لقد كانت تعبيرا جزئيا عن خجل الأمريكيين اللِبراليين في دورهم كمواطنين، على الرغم من الدعاية اليومية، التي تؤكّد على «الحرية». كما أنّها عبّرت جزئيا عن الوزن الثقيل للإمتثال، الذي تفرضه طموحات النخبة المهنية، التي عادة ما تتحقق في محيط محافظ. خلال تجربتي، تمّ تأكيد تصوّرات ييل هذه، ليس فقط فيما يتعلق بأولئك الذين مارسوا القانون، ولكن أيضا بشأن أولئك المكلفين منّا بتعليم العقول الشابّة. لقد أصبت بخيبـة أمـل لأنّـه علـى مـرّ السـنين كان لديّ عدد قليل جدّا مـن زملائي في هيئة التدريس، الذين احبطوا العمل المهني بالجبن، سـواء داخل الصفوف الدراسـية وخارجها. في الأساس، كان معنى الحياة في مجتمع ديمقراطي على المحكّ، لا سيّما امتيازات وتحدّيات المواطنة القائمة على قناعات جَفِرسُن بأنّ الإنتخابات والتصويت، على الرغم من أنّهما لا غنى عنهما، لن يحافظا في حدّ ذاتهما على الديمقراطية المزدهرة.

كانت صدمتي الخفيفة الأخرى خلال سنة التخرّج هي الغاء منحة فولبرايت الدراسـية، التي حصلت عليها لقضاء عام دراسـي في جامعة لِكناو الهندية بغية الإستمرار في دراسة القانون الهندي. عوقبت الهند لأنّ حكومتها فشلت في دفع ثمن PL480 من القمح، الذي تلقته خلال حالة طوارئ غذائية في البلاد. بدأت خيبة الأمل الشخصية هذه في تكيّفي مع الطرق المنحرفة والقاسية للدول ذات السيادة، بما في ذلك حكومة بلدي. لماذا معاقبة الهند بحرمانها من فوائد وجود زملاء من منظمة فولبرايت، أو بشكل أدقّ، لماذا نعاقب هؤلاء الأمريكيين الذين عملوا بجدّ للحصول على فرصة العمر هذه؟

كما يحدث غالبا، تمّ استبدال باب مُغلق بشكل غير متوقع بباب آخر مفتوح.

القسم الثالث

الحياة المهنية

PROFESSIONAL LIFE

بعد الإنتهاء من كلية الحقوق بجامعة ييل، وبســـبب سلسلة من الحوادث، أتيحت لي الفرصة لتدريس القانون في جامعة ولاية أوهايو لمدة عام واحد. لكنّ الأمر انتهى بي بالبقاء لمدة ســـتة أعوام. غادرت بعد ذلك لزيارة جامعة پرِنســـتُن لمدة عام، وانتهى بي الأمر بالبقاء لمدة 40 عاما. تقاعدت في عام 2001، وتمّ التحاقـــي منـــذ عام 2002 بطرق محدودة مختلفة بحرم جامعة ســـانتا باربرا في كالِفورنيا، بالإضافة الى التدريس في جامعات أخرى كاستاذ زائر، بما في ذلك عـــدة جامعات في أوروپا. أثناء كتابتي لهذه الســـيرة، ولكوني غافلا من الناحية المهنية لقضية العمر، قبلت تعيينا جزئيا لمدة خمس ســـنوات في جامعة كوين مَيري بلندن كرئيس لفرع للقانون العالمي، وهو منصب مشترك مع أربعة باحثين آخرين.

الفصل الخامس

الصحوة في جامعة ولاية أوهايو

تحقق الصدفة

لقد حدث تحوّل غير متوقع في حياتي الأكاديمية في ولاية أوهايو، بسبب سلسلة غير معقولة من الأحداث غير المتوقعة، والتي ظهرت لاحقا متماسكة بما يكفي لتكون أكثر وضوحا كي توصف بأنّها «مصير» Destiny. مرّة أخرى، كنت مستعدًا لقضاء عام بعد التخرّج في كلية الحقوق بجامعة ييل كباحث في برنامج فُلبرايت في الهند، عندما انهار الترتيب فجأة. لقبول زمالة فُلبرايت هذه، تعيّن عليّ الغاء قبولي السابق للعمل الكتابي مع القاضي جاك وِنشتاين، وهو قاض فِدرالي بارز في مدينة نو يورك. يتمتع القاضي بسمعة كونه أحد أفضل القضاة الفِدراليين في البلاد، وعملي معه كمساعد لمدة عام كان سيُشكّل تجربة إنتقالية ممتازة من كلية الحقوق الى مهنة القانون التقليدية. أتذكّر أنّ القاضي وِنشتاين فخور وواثق من نفسه وذو شخصية باردة الى حدّ ما. لقد كان ردّ فعله صارما حول قراري بالإنسحاب من العمل معه، ورُبما نقل الشعور المفهوم، وربّما الصحيح، بأنّني أتخلى عن فرصة وظيفية رائعة مقابل تجربة هشة الى حدّ ما في الهند، سوف لن تؤدّي الى أيّ مكان. لو كانت الوظيفة التدريبية في المحكمة العليا في الولايات المتحدة بدلا من محكمة أدنى، أشكّ بأنّني كنت سأتخلى عن مثل تلك الفرصة الخاصّة، وعلى الأرجح، كانت حياتي ستتخذ مسارا مختلفا تماما.

في الحقيقة، لم يحدث ذهابي الى ولاية أوهايو بسهولة. كنت في مدينة

نـو يـورك خلال الصيف أدرس بشـكل عشـوائي لاجتياز اختبـار نقابة المحامين في المدينة وأفكّر بمستقبلي. أدركت أنّه على الرغم من جهودي في جامعة ييل لإبعـاد نفسـي عـن مهنـة محامـاة النخبة، فقد ينتهي بي الأمر بالتسـوّل للحصول علـى وظيفـة قانونيـة عاديـة. لقد صدمتني دورة الإسـتعداد لاختبـار النقابة على أنّهـا مضيعـة للوقـت، وليسـت ذات صلة بما إذا كنت سـأجتاز تلك الطقوس أم لا. لقد تحمّلت الحرارة والرطوبة في صيف مانهاتِن لواحدة من المرّات القليلة في حياتي. كنت أذهب عادة الى مخيّم صيفي أو كالِفورنيا طوال فترة مراهقتي، باستثناء صيفين حين عملت في محطة التلفزيون، وكنت مشغولا للغاية لدرجة أنّني لم ألاحظ حتى الطقس، الذي لا يُطاق في الغالب.

أثناء التفكير في مستقبلي، الذي لا آفاق له بعد، تلقيت مكالمة غير متوقعة مـن اسـتاذي مايـرز مكدوگَل، الذي سـألني إن كنت مهتمـا بتدريس القانون في جامعـة أوهايـو لمـدة عام واحد بسـبب المرض المفاجئ لعضـو هيئة التدريس، الـذي يقـوم بتدريـس مـادة القانون الدولي. كان اسـتاذي جاهـزا للتوصية بي إذا أبديـت اهتمامـا. فـي أقلّ من ثلاثين ثانية، قلت «بالتأكيد»، فتمّ تحديد مقابلة في الأسبوع التالي مع عضو هيئة التدريس في الجامعة المذكورة، كارل فولدا، الذي كان يزور مدينة نو يورك بالصدفة. كان كارل باحثا ألمانيا لطيفا جاء الى هذه البلاد لاجئا وبدأ بتدريس القانون الدولي الخاص، واصبح فيما بعد صديقا لاسـتاذي مكدوگَل. كانت واحدة من تلك المناسبات المتكرّرة للغاية عندما تصرّفت مثل الضبع، ومع ذلك تمكّنت بطريقة ما من الظهور بمظهر الحمل الوديع.

إلتقيـت الأسـتاذ فولـدا عند مدخل مبنـى نقابة المحامين في مدينة نو يورك وسط حي مانهاتِن في يوم حارّ بشكل غير اعتيادي من أيام شهر حزيران. سألني كارل أين يمكننا تناول غداء في مطعم قريب هادئ، مشيرا أنّه لا يهتم بالطعام، ولكنه سـعى الى مكان مكيّف للهروب من الحرارة. كنّا عبر الشـارع من فندق الگونكوِن، حيث يكون بهوه الشهير مكان الإستراحة العادي لحشد العاملين في مجلـة نـو يوركـر فـي تلك الأيام. أوضحت لكارل إنّني أعلم أنّ المطعم مكيّف، ولكن لـم تكن لديّ أيّة فكرة عن الأسعار. كان رده بكلمة واحدة واثقة «حسنا». أجلسـتنا نادلـة، ولشـدة دهشـتي التفتت إلـيّ قائلة بصـوت ودود وحميم تقريبا،

«جميل أن أراك ثانية خلال وقت قصير!»

شعرت بالإرتباك الشديد من تلك الكلمات، وجلست صامتا كالحجر لا أعرف كيف أردّ إذ شعرت بالإحراج الشديد. إفترضت على الفور أنّ فرصتي للتدريس قد انتهت قبل أن تبدأ، وأنّني انكشفت تماما بكوني كاذبا ماكرا، وبالتأكيد لا أعطي الإنطباع عن شخصية مناسبة لتدريس موضوع القانون الدولي طلبة المحاماة الطموحين.

بعد سنوات فقط، عندما اصبحت واثقا بما يكفي لأعترف لكارل بمعاناتي خلال ذلك الإجتماع الأوّل. أخبرني أنّه كان أيضا متوترا للغاية بشأن مسؤوليته لإصدار حكم عن شخص ما بهذا الصغر يمكنه التعامل مع تدريس طلبة القانون بعد فترة وجيزة من تخرّجه في كلية الحقوق. وبناء عليه لم ينتبه حينها للخلل الظاهر في شخصيتي، ولم يكن يتمتع بالبصيرة الكافية لتوقع أنّني سأفشل في اختبار نقابة المحامين في نو يورك. وهي الشهادة الحيوية التي يحتاجها كلّ محام شاب. لو كان على علم، لكان من شبه المؤكّد أنّه قد تجاوز الأمر، كما فعلت حين أتيحت لي الفرصة لاحقا لإصدار الأحكام على المتقدمين لتعيينات اعضاء هيئة التدريس. في الحقيقة أنّ نادلة مطعم فندق الگونكوِن كانت مخطئة ببراءة، حين قالت ما قالت، لأنّني لم اتناول وجبة هناك من قبل على وجه التحديد لأنّ الأسعار باهضة. علما أنّني قد قابلت بعض الأصدقاء في بهو الفندق في كثير من الأحيان.

بعد مرور عدّة سنوات حين كنت أدرّس في پرِنستُن، طلب منّي محامي أعضاء منظمة بادرماينهوف الإرهابية في ألمانيا المساعدة في إعداد الحجج القانونية، التي ستُقدّم في المحاكمة. رتّبنا لقاء في بهو فندق الگونكوِن بعد ظهر أحد أيام الخريف. عندما دخلت، قام رجل من على الأريكة ليُحيّيني. جلسنا فأشار الى أنّه سيبدأ «المقابلة» في غضون بضع دقائق. لاحظت وجود شاب يجلس في الجهة المقابلة وهو يحدّق في وجهي، فافترضت بشكل صحيح أنّه الشخص الذي وافقت على مقابلته. أدركت أنّ الرجل، الذي رحبّ بي أوّلا قبل دقائق قد أخطأ في هويتي. كان ينتظر شخصا آخر. ذهبت عبر البهو لمقابلة المحامي الذي كان في انتظاري، وتركت ذلك اللقاء الخاطئ القصير وأنا أضحك بإحراج.

إحتضان جامعة ولاية أوهايو

قبلت بسرعة عرض وظيفة مؤقتة في جامعة ولاية أوهايو، ووصلت الى كُلومبُس بصحبة زوجتي وطفلي الرضيع كرس، محاطا بالتحدّيات الصعبة الناشئة عن الزواج المنهار. كانت زوجتي الأولى، رينَيه، مفتونة بوالدي لدرجة أنّها أخبرتني بأنّها لن توافق على الطلاق ما دام والدي على قيد الحياة. أتذكّر أنّني تأثرت بتلك المشاعر، التي عزّزت إحساسي بأنّه مع تقادم العمر واختلاف الظروف، لربّما سنكون منسجمين معا ونقدّر بعضنا بعضا ونعيش بشكل متناغم. إحترمت موقف رينَيه، التي أرادت أن تتجنب إحداث خيبة أمل لأبي. ومع ذلك، أصبح من الواضح أنّه لم يكن من المُفترض أن نكون شريكين في هذه الحياة أصلا.

على الرغم من المشاحنات المنزلية، وقعت على الفور بحب حياتي الجديدة كأستاذ شاب، في الواقع أصغر سنّا من معظم طلبتي، الذين كان كثير منهم يدرسون الحقوق بعد عودتهم من الخدمة العسكرية في الحرب الكورية. لدهشتي وعلى الرغم من مخاوفي، فقد صدمني التدريس الجامعي على الفور باعتباره وظيفة أحلم بها، وكتدريب لما كنت اتمنّى بشدة أن يصبح مهنتي المستقرّة. لم تكن لديّ أبدا أيّة أفكار من قبل حول اختيار الحياة الأكاديمية وتفضيلها على الشهرة والثروة المحتملة، التي قد تكون متاحة لي إذا كنت قد حصلت على وظيفة دائمة في مكتب محاماة كبير في المدينة.

سرعان ما اصبحت مرتاحا لاحتمال قضاء حياتي بأكملها في كُلومبُس كعضو في كلية الحقوق. وهو الأمر الذي كان مخالفا لآراء أصدقائي من اعضاء هيئة التدريس في جامعة ولاية أوهايو، وجميعهم تقريبا خارج كلية الحقوق، من الذين سعوا بشكل موحد الى مؤسسات أكثر نفعا وانفتاحا وكانوا دائمي الشكوى من الجو الجامعي الرتيب. وكلّ ذلك باستثناء كون الجامعة من بين العشرة الكبار في عالم الرياضة المجنون، الذي يطغى على ضحالة الحياة الثقافية Thinness of Cultural Life في كُلومبُس ذاتها، ويبرز الطابع القاحل Barren Character للحياة داخل الحرم الجامعي.

إستمر جميع زملاء هيئة التدريس غير الراضين عن جامعة ولاية أوهايو

كصرح أكاديمي تقريبا، بتلقي عروض من جامعات أخرى، ممّا يمكن أن يحقق رغباتهم للعمل في مجالات واعدة «أفضل وأكثر اخضرارا»، خاصة في مناطق الساحلين الشرقي والغربي للبلاد. غالبا ما شعر أولئك الذين ظللت على تواصل معهم، بخيبة أمل في موائلهم الأكاديمية الجديدة، لحدّ أنّهم اعترفوا بالحنين الى الأوقات السعيدة والمجتمع الفكري اليساري الناقد النابض بالحياة، الذي ازدهر في كُلومبُس، وما قدمته ولاية أوهايو، والذي لم أجده مطلقا في جامعة برِنستُن، على الرغم من تألقي بشكل كثيف عال. لقد كانت بيئة فكريّة واجتماعية متعدّدة التخصّصات، تقدّر الصداقة وتغذّي اللِبرالية وتترك الفكر والعمل على رسلهما، وتسّهل العيش المتسامح وقت التشابكات المثيرة بفعل العقاقير الترويحية والكحول Recreational Drugs/Alcohol. لقد وجدت السنوات، التي أمضيتها في كُلومبُس أكثر إرضاء واشباعا من الناحية المهنية من أيّ شيء مررت به سابقا. بطبيعة الحال، كان أمرا حدثا أن أكون بمفردي واكسب عيشي بطريقة محترمة وأكوّن صداقات مع مثقفين متجانسين، كانوا جميعا عناصر أساسية في هذا الفصل السعيد من حياتي.

كان عميد كلية الحقوق واعضاء هيئة التدريس فيها ودودين للغاية، ممّا جعلني أشعر بأنّني لست غريبا في بيئة الغرب الأوسط غير الرسمية والحقيقية ولكن ليست عميقة، ونادرا ما تكون حميمية. كان التدريس في البداية تحدّيا يوميّا، لا سيّما وأنّه تمّ تكليفي بتدريس مادة القانون الجنائي. وهو مقرر دراسي للسنة الأولى سجّل فيه حوالي 200 طالبا وطالبة. كما درّست موضوع المحاكم الفدرالية، وهي مادة تقنية للغاية، لم أدرسها بنفسي حين كنت طالبا في القانون. تمكّنت من الإحتفاظ بمهمة أو اثنتين ضمن لجان القسم إضافة للتدريس. ولكن ما إذا كنت قد فهمت أكثر من 50% من المواد جيّدا بما يكفي لتوجيه الآخرين وارشادهم، فهذا سؤال سيظل بلا إجابة الى الأبد. أكثر من أيّ وقت مضى في خبراتي التدريسية المستقبلية، كان طلبة جامعة أوهايو يقدّرون بشدّة جهودي، وعندما انتهى الفصل رُفِعت معنوياتي بحفاوة بالغة، وهي خطوة أبعد من التصفيق المعتاد، الذي يتلقاه الأستاذ استحسانا في ختام آخر محاضرة في الفصل الدراسي.

ما أدهشني خاصّة في البداية، هو جودة اساتذة كلية الحقوق بجامعة ولاية أوهايو. من وجهة نظري، لم تكن أقلّ خبرة أو تكريسا من الناحية التربوية، ممّا كنت قد جربته بجامعة ييل، التي يُفترَض أنّ كلية الحقوق فيها هي الكلية الأولى في البلاد. كرّست هيئة التدريس في جامعة ولاية أوهايو طاقاتها للتدريس أكثر من التهافت لنيل منح البحوث الدراسية، وأظهرت عزوفا عن السياسات التافهة لإدارة كلية الحقوق، التي يبدو أنّها تثير غضب زملائي، الذين كانوا اذكياء للغاية ولكن دون الكثير من النفوذ أو المكانة في الحرم الجامعي. لقد لاحظت مثل هذا التحوّل الإداري نحو الداخل في جميع المؤسسات الأكاديمية. يتمّ توجيه الطاقات العقلية نحو أهداف صغيرة تحدث صراعات ومنافسات مقنّعة بين اعضاء هيئة التدريس، وهذا ما يعيق التقييم الموضوعي لمؤهلات المرشحين للترقية أو التثبيت في الوظيفة. وهي القرارات الوحيدة المهمة حقا الموكلة باعضاء الهيئات التدريسية ولجانها الخاصّة.

كانت كلية الحقوق بجامعة ولاية أوهايو أقلّ ميلا من الناحية الأيديولوجية، وأكثر تركيزا لجذب العقول القانونية المتاحة من جامعة پرنستُن أو جامعة ييل، على الرغم من أنّ الإجماع حول من هو «الأفضل»، لم يعكس في كثير من الأحيان فكرتي حول من هو المرجّح ليكون «مثيرا للإهتمام» ويُشجّع المساهمات «الإبداعية» في الفكر القانوني والممارسة. كان تركيز زملائي في جامعة ولاية أوهايو على الإتقان التقني Technical Mastery والدقة التحليلية Analytic Precision، الى جانب الموقف المتعالي والساخر Condescending and Cynical Attitude تجاه الوعي الإجتماعي أو مشاركة المواطنين، على الرغم من وجود بعض اللِبراليين هنا وهناك في كلية الحقوق، الذين شاركوني على الأقل في عدم ارتياحي اتجاه تقييم الحرفية المهنية Valuing Vocational Craftsmanship قبل كلّ شيء. لقد طوّرت عدم ثقة غريزي في مهنة حصرت أداءها بشكل عام بالفوز أو الخسارة، وكانت فخورة بعدم اكتراثها المتعمّد بالمعاناة الإنسانية أو الظلم بشتّى انواعه. لحسن الحظ، كانت هناك استثاءات لا تُنسى.

تعمّق اهتمامي بالقانون الدولي، لكنّ الموضوع كان «مملوكا» في جامعة أوهايو من قبل الأستاذ رَونلد ستانگر. وهو شخص جيّد سرعان ما اصبح استاذا

الى جانب زوجته اليونانية الحنونة، الگزاندرا. بالكاد أستطيع أن أتذكّر تدريس هـذا الموضـوع، ولكـن لا بُـد أنّنـي أديته بشـكل جيّـد. على عكـس مَكدوگل، كان رولـي تقليديّـا مـن الناحيـة الفقهيـة القانونية، واصبح مُدرّبـي أكثر من كونه مصدر إلهامي الأكاديمي. كانت شخصيته مزيجا من الحشمة والتواضع والذكاء والمكملة بسـخرية ذاتية جذابة وممزوجة بانسـجام مع اسـلوبه اللطيف الدافئ والعاطفـي. أصبحـت أقـدّر بشـدة توجيهاته النافعة، علـى الرغم من اختلافنا في الخلفيـة والنظـرة الفقهيـة. ومثلمـا كان الحال مع مَكـدوگل، بالغت في قدراتي ووعدي وبدا أكثر تكريسي لتطوير مسيرتي المهنية أكثر ممّا كانت عليه. شعرت بأنّه أعجب بشكل مفرط بأوراق اعتماد جامعة النخبة الخاصة بي، والتي اعتبرها بشكل خاطئ بمثابة بوابات تلقائية تقريبا لتحقيق الرغبات. في ظلّ هذه الخلفية، ليس من المُستغرب على الرغم من قربه كصديق، أنّه رأى أكثر منّي أنّ وجودي فـي جامعـة أوهايـو هـو فقـط كمحطـة طريق مؤقتة الـى ما أقنعته بـه التصنيفات الجامعيـة المختلفـة، بـأنّ الجمهـور هـو الأرض الموعودة للوصـول الأكاديمي للثروة والسلطة في المجتمع الأمريكي.

تمّ التأكيد على رولي وتقديره بشـدة من قبل مجتمع كلية الحقوق وحظي باحترام كبير محليّا، ولكن بدون سـمعة أو جاه أوسـع من هذا المجال، وشـبه والدي في كثير من النواحي، بدون سياسـته الرجعية. لقد اشـتركا في اقترابهما من النجوم عندما يتعلق الأمر بالمشاهير، إلا أنّ رولي استجاب للتلألؤ في عيون النجـوم الأكاديميـيـن بـدلا من البارزين في هوليوود والحكومة والشـركات، من الذين ادهشوا أبي.

ما بعد الحياة المهنية: الرعاية والمحبة والمشاركة

الـذي أحـدث الفـارق فـي حياتـي وأنا في ولايـة أوهايو، كان سلسـلة من «الإنفتاحـات» علـى مسـتقبل غيـر متوقع، سياسـيّا ورومانسـيا ومهنيّـا. بعد فترة وجيزة من مجيئي الى مدينة كُلومبُس، واجهت عنصريّة في الجامعة على شكل تمييز في السكن ضدّ الطلبة السود، الذين حُرموا من السكن المريح بالقرب من الحرم الجامعي بأسـعار معقولة. أجبِروا على الإسـتقرار في مسـاكن غير ملائمة

ورخيصة بإيجارات أعلى. عندما اكتشفنا أنّ معظم هذا السلوك التمييزي كان مرتبطا بالعقارات المملوكة لأعضاء مجلس أمناء الجامعة، كان من الصعب تحمّله حتى بالنسبة لِلبراليين السلبيين في العادة. ولذا فإنّ عددا قليلا منّا، أعضاء هيئة التدريس المبتدئين ومعنا غير الحاصلين على شهادة الدكتوراه، أن نضع موجزا قانونيّا يدّعي عدم دستورية هذا النمط التمييزي، واستهدفنا تسمية أعضاء مجلس أمناء إدارة الجامعة، كمُدّعى عليهم في إجراء رسمي. من دواعي ارتياحنا وإراحة زملائنا المتردّدين، أنّ مالكي العقارات المرتبطين بإدارة الجامعة، تراجعوا وتخلوا عن التمييز ضدّ المستأجرين الأمريكيين من أصل أفريقي. سحبنا الدعوى القانونية وشعرنا بالإرتياح الى حدّ ما في تلك المناسبة وتمكّنا في ذات الوقت من حماية وظائفنا دون المساومة على ضمائرنا. شعرنا أيضا بخيبة أمل لأنّنا كنّا متفائلين بشأن نتيجة الدعوى والإستمتاع باحتمالية تحقيق مثل هذا النصر رسميّا في المحكمة، حتى لو كان يعني ردّ فعل عنيف متعلق بحياتنا المهنية.

كانت هناك دروس من «العالم الحقيقي» في جامعة أوهايو، من التي ما زلت سعيدا برفضها، حتى وأنا في سنّ التسعين. كان جَف دَيِفز عضو مساعد كبير في كلية الحقوق، وهو مخادع فظّ الى حدّ ما ودود القلب، ويحظى بالإعجاب محليّا لنجاحه كمحام في المحاكمات. جاء الى مكتبي ذات يوم وكان هدفه إعطائي محاضرة قصيرة في الحكمة الدنيوية Worldly Wisdom. بادرني بالسؤال عمّا إذا كنت قد أدركت أنّني اعطيت إبن أحد الرجال الكبار في أوهايو درجة D؟ إعترفت باعطائي الدرجة لكنّني قلت أيضا أنّه ليس لديّ أيّة فكرة عن نسب ذلك الطالب المسكين. عندها ابتعد جَف عن طريقته اللطيفة والطيبة الى حدّ ما، ولم يبذل أيّ جهد لإخفاء غضبه واحتقاره مدوّيا، «إكبّر! تعلم كيف تعيش في العالم الحقيقي!» إستمعت إليه دون الردّ بما يتجاوز هزّ رأسي قليلا لأعلمه أنّني كنت أستمع. قال جَف أنّه يمكنني تعديل الدرجة باخبار مكتب التسجيل بأنّني ارتكبت خطأ تقنيّا في ورقة درجات الصف، التي قدّمتها للمكتب المذكور. قلت له بتصميم واضح أنّه لن أقوم بمثل ذلك ما لم يكن هناك سبب وجيه لأقوم بما إقترحه.

وبـدون أن يُضيـف قـولا آخـر، غادر جَـف مكتبي دون أن يعـود إليه ثانية. إفترضت أنّ معظم زملائي كانوا سيستجيبون كما فعلت، لكنّني لم أحاول معرفة ذلـك مطلقـا. لـدى العودة الى الماضي، أدركت أنّني أخطأت بعدم ابلاغ مكتب العميد بالحادثة. حدثت تجربة وحيدة مماثلة أخرى بعد سنوات وأنا في جامعة بِرنستُن، عندما قام استاذ علم الإجتماع المشـهور المقرّب من رئيس الجامعة، وليَم بَوِن، بزيارة غير متوقعة لمكتبي. أراد إخباري بأنّني أعطيت درجة D لنجم فريـق كـرة السـلة فـي الجامعـة، والـذي كان أكثر صلـة بنجل المـدرّب الحالي المعروف على المستوى الوطني لفريق جامعة جورجتاون. أخبرني أنّ درجتي كانت بمثابة لطمة للرياضة في جامعة بِرنستُن، ويجب أن أكون على اسـتعداد لرفـع تلـك الدرجـة. بحلول ذلك الوقـت، لم اخضع أو أعبّر عن غضبي، لكنّني أخبرت بهدوء فاعل الخير المؤسسي Institutional Do–Gooder هذا، الذي كان في السـابق صديقا، أنّني لن أفكر بفعل مثل هذا الشـيء. على عكس مناوشـات صاحبنا في جامعة أوهايو معي، غادر أستاذ علم الإجتماع مكتبي بصمت. لا شكّ أنّه نقل خيبة أمله من «جمودي غير الناضج» الى مدرّب كرة السـلة بِيت كارِل، المحبوب حقا، والذي كان يشاركني أحيانا في لعبة كرة المضرب. من المحتمل أن «مبعوث الفساد» هذا قد أبلغ رئيس الجامعة، وهو ايضا صديق ومنافس في لعبتي كرة المضرب والأسكواش. نادرا ما اتفقنا على قضايا السياسة، ومع ذلك فقد حافظنا على صداقة غير رسميّة على مرّ السنين. كان بِل بَوِن خبيرا اقتصاديا موهوبا في التيار السـائد، وتخصّص في العمل والتعليم واصبح رئيسـا للجامعة وحظـي بإعجـاب كبيـر، حيـث تعامل مع الضغوط المتناقضـة في الوظيفة بذكاء إنساني، وبما يتوافق مع تحالفاته ومعتقداته ذات الطابع المحافظ.

كان من الممكن أن تكون كلتا التجربتين في أوهايو وبِرنستُن قاتلتين من الناحيـة المهنيـة بالنسـبة لـي. ولكن لحـدّ علمي، لم تكن هنـاك أيّة موجات من السخط، قدر تعلق الأمر بالحادثتين. وقد حرصت كما كان من قبل على رفضي القاطـع لتغييـر تقييماتـي لأداء الطلبـة بسـبب الضغوط من أيّة جهـة كانت. أثناء تواجـدي فـي جامعـة ولايـة أوهايو، وعلى الرغم من رضـاي العام عن المكانة، التي وصلتها، كانت حياتي الداخلية منغمسـة في المقام الأوّل في الإسـتجواب

الذاتـي، الـذي أدرك الآن أنّـه مـن نواح كثيرة مظهر من مظاهر المراهقة الطويلة. بالنسبة لمعظم الأشخاص، تتمّ هذه التأملات، عندما يكونون يتقاضون رواتبهم للقيام بواجباتهم الوظيفية.

على النقيض من الجوانب العملية والإنجازات في حياة البالغين، واصلت استجواب نفسي، ساعيا الى فهم كيفية العيش بشكل أصيل، والذي أصبح عندي بحثا مـدى الحيـاة، علـى الرغم من أنّني توقفـت منذ فترة طويلة عن التعامل مع الحيـاة علـى أنّهـا لعبة شـطرنج. فـي ولاية أوهايو، ملأت دفتـر يومياتي كلّ ليلة بتأملات حول صعوبة العيش وفق قيمي. كنت أحاول ايضا معرفة كيفية العيش بشـكل أكثر أصالة دون تبنّي أسـلوب حياة الزُهد، لأنّ التقشـف كأسـلوب حياة لـم يَـرُق لـي ابـدا. لقـد كان بعيـدا جدا عن مذهـب «المتعة الحكيمـة» Prudent Hedonism، الذي أردته أن يكون خيارا جادّا لكنّه بعيد المنال. ومع ذلك، بقيت اتصـارع مـع مثـل هذه المخاوف، وأخيـرا أرهِقت بالتنازلات فسـمّيتها «الأنانية المعقولة» Sensible Selfishness. كان الطموح الأخلاقي المتواضع، ليس أصليا على الإطلاق، وهو «عدم إلحاق الضرر»، وبشـكل واقعي لأحداث تسـبّب أقلّ قـدر ممكـن مـن الضّرر. إلا عندما أكون في حالة «تسمّم/نشـوة جنسـيّة» Erotic Intoxication تكـون القضيـة من نوع آخر. أشـعر أنّـني أوفيت بهذا التعهد، الذي كان الى حدّ ما منغمسا في الذات.

كان روبَرت ومَيري إليوت من اصدقائي المقرّبين في جامعة ولاية أوهايو. كانا زوجين لِبراليين من السـاحل الشـرقي للبلاد بشـكل واضح. هو أسـتاذ للغة الإنگيزيّـة وكانـت مَيـري تدعمنـي بحـرارة، وتعاملنـي بسـبب فارق السـنّ بيننا بـدفء الأمّ وولعهـا. علّمنـي بـوب أصـول لعبة السـكواش، وهذه هـي حياتي. أصبح السـكواش فيما بعد علاجي الشـتوي المفضّل ومصدرا رئيسـيا للصداقة في جامعة پرِنستُن.

سيّا سيّا في أوهايو، جرى تنبيهي الى قبح السياسة اليمينية، كما مثلتها جمعية جون بَرش، من خلال السياسـية التشـهيرية ضدّ بوب إليوت باعتباره مخرّبا، ثمّ تصويره على أنّه متعاطف مع الأفكار الشيوعية، واعتقد مهاجموه بأنّه يجب أن يُطرد من الجامعة. في ذروة أزمة «مطاردة الساحرات في كُلومبُس» هذه، طُلِب

منّي تقديم بوب في محاضرة عامة حول الدفاع عن الحريات المدنية في خضمّ اضطراب الحرم الجامعي، الذي احدثه نشاط جمعية بَرش لتحريض الأساتذة ضدّ زملائهم التقدّميين. لقد انتهزت المناسبة للإحتفال بصداقتنا وللتعبير عن دعمي غير المشروط لإلتزام بوب بالحريّات السياسية، بما في ذلك الحقّ في الدفاع عن وجهات النظر المختلفة. في هذه المحاضرة، التي حظيت بحضور جيّد نظرا لشعبيّة بوب بين الطلاب وزملائه في هيئة التدريس وكردّ فعل للسمعة السيئة الناتجة عن التغطية الإعلامية لترويج هجوم جمعية بَرش، كان لتقديمي له تأثير عميق وترسيخ لصداقتنا. لكنّه كشف من ناحية أخرى، عن «تفوّقي» الملحوظ بصفتي يساريّا لِبراليا، واستعدادي لفضح مناورات الجمعية المذكورة بشكل علني باعتبارها «مثيرة للجدل».

كان من المخيّب للآمال بالنسبة لي على مرّ السنين أن أقرّ بأنّ قلة بشكل لا يُصدّق في المجتمع الأكاديمي كانت على استعداد لتحمل مثل هذا الحدّ الأدنى من مخاطر التعرّض لليمين بشكل علني عام. فضلوا التعبير عن أيّة وجهات مثيرة للجدل لديهم في الحدود الخاصّة لحفلات الكوكتيل أو أثناء تناول القهوة بعد الظهر. إدّعى البعض أنّ الصراحة تكون أكثر فعالّيّة، إذا كانت مخصّصة للمواقف المحميّة، حيث قد يحقق التأثير بعض النتائج. لقد اعتبرت مثل هذا التكتم على أنّه خدمة ذاتية، وشعرت أنّ الدوافع الأساسية لأولئك، الذين تربطهم مثل هذه الروابط بالسلطة والأقوياء، هي الحفاظ على تلك الروابط القيّمة. يتطلب مثل هذا الهدف تجنب الإستفزازات العامة، بما في ذلك الإنتقادات الشديدة لسياسات الحكومة القائمة.

بالطبع، قد يكون للدعاية المصاحبة للجدل العام عواقب وخيمة. كنت أؤمن في ذلك الوقت، وهو أمر مشكوك فيه بأنّه على حافّة جنون العظمة، بأنّ ذلك التقديم البسيط لصديقي وزميلي ربّما أنهى أيّ أمل في أن اصبح عضوا ثابتا في هيئة التدريس بالجامعة. وعلى الرغم من تلك الإنذارات، لم يضعف عزمي للوقوف في تضامن عامّ مع صديق، ودعم قيم المجتمع الحرّ في ظروف معيّنة. في كلّ مرّة أتيحت لي مثل هذه الفرصة على مرّ السنين، عزّزت التزامي وبنيت ثقتي بالواجب الأخلاقي لقول الحقيقة والشهادة العامة، ممّا يتطلب الإستعداد

لوضع اعتبارات المهنة جانبا. لقد نما هذا الضمان بمرور الوقت، وفي مواجهة دفع سعر متزايد، خاصّة إذا تمّ قياسه من خلال إغلاق العديد من الأبواب بشكل محكم في وجهي، والتي من المحتمل أن تكون مفتوحة على مصراعيها إذا أبقيت فمي مغلقا وواصلت عملي كخبير في القانون الدولي، دون إحداث أيّة موجات خلاف علنية أو إتخاذ مواقف مناهضة للمؤسسات.

في ولايه أوهايو واجهت معارضة مؤسسية غير عاديّة وغير متوقعة للتدريس بما يتجاوز المطلوب. كان لدي أصدقاء في العلوم الإنسانية دعوني لتدريس صف تمهيدي في الأدب المقارن، وهو مقرّر مخصّص للترجمة الإنكيزية للأدب العالمي وقراءات لكتب عظيمة. كنت متحمّسا لمنحي تلك الفرصة، على الرغم من أنّني لم أحصل على أيّ أجر إضافي. نظرا لإفتقاري الى أوراق اعتماد عادية، فقد دُعيت بلا شكّ لتدريس مثل هذا المقرّر بسبب نقص المدرّبين المؤهلين، ولا بُدّ أنّني كنت مثقفا بما فيه الكفاية لتحمّل هذا التحدّي. ذهبت بكل سرور عبر الحرم الجامعي ثلاث مرّات في الأسبوع لأدرّس عن هومر وگوتَه وكامو وفورستَر، وآخرين غيرهم. إستمتعت بعلاقة جيّدة مع الطلبة، ولكن كان للأمر تداعيات.

وصلت الأخبار الى عمادة كلية الحقوق عن تدريسي المذكور كمتطوّع. قاد ذلك عميد الكلية الى استدعائي «للتشاور». إقترح العميد بنبرة أبويّة الاّ اقوم بتدريس هذا الموضوع مرّة أخرى. إدّعى أنّ ذلك سيخلق انطباعا غير مرحّب به، وهو أنّني لم أحصل على ما يكفي من الواجبات في كليتي وبشكل غير مباشر في جامعة ولاية أوهايو. وبخيبة أمل حقيقية، إتّبعت بخجل تلك «النصيحة» العملية. لم أكن متأكّدا ممّا إذا كانت تلك توصية أم أمرا، لكنّها جعلتني أتساءل عمّا إذا لو تجاهلت تلك النصيحة «الودّيّة»، فإنّني سأصنّف على أنّني لست «لاعبا جماعيا». أن تكون موثوقا به في مثل هذه المواقف شبه الرسمية دائما، هو ما يتم احتسابه كثيرا في الحياة الأكاديمية، حيث تتضمّن الإهتمامات الأكثر ستراتيجية عادة مخصصات الميزانية وتصوّرات الصواب السياسي.

في الوقت ذاته، أكّدت تجربة التدريس التطوّعية هذه تعلقي القويّ بالعلوم الإنسانية، وخاصّة الأدب والفلسفة. أدّى هذا الوعي الى نشوء مشاعر ندم من حين لآخر لأنّني لم انضج مبكرا بما يكفي لتوجيه حياتي نحو الأفكار والقصائد

بدلا من القانون والسياسة. في وقت لاحق، صرت أكثر إيجابية بشأن الأهمية الأخلاقية والسياسية المحتملة للقانون. الى جانب ذلك، بدا أنّ الإهتمام بالقانون والمجتمع يتجنّب مشاعر عدم الإنتماء، التي يعاني منها العديد من اصدقائي في الدراسات الإنسانية، ممّن كرّسوا حياتهم لإخبار الطلبة عن كيفية قراءة النصوص المؤثرة ثقافيا، بينما يبحثون عن طرق لإيجاد صلة مجتمعية بهذه الإلتزامات المهنية مدى الحياة.

بعد ذلك بجيل، حدثت ثورة عفوية بين علماء العلوم الإنسانية ثمّ تنظيمها للتغلب على هذا الشعور بعدم الأهمية للمجتمع. وقد أدّى ذلك الى قيام بعض أكثر العلماء الموهوبين باختيار موضوعات غير إنسانية للبحث والتدريس وذات أهمية مجتمعية حالية، على الرغم من أنّها بعيدة كلّ البعد عن الإنشغالات العلمية التقليدية المرتبطة بمجالات اختصاصهم. أفكّر في أصدقاء مثل إيلين سكاري، ممّن يكتبون عن التعذيب و11 سبتمبر والسلطة الدستوريّة والنووية. أو كِرِس نوفيلد، الذي يدرّس الخيال العلمي في الصفوف الدراسية أثناء إجراء بحثه الرئيسي حول ألأزمات المالية الوشيكة، التي تهدّد جودة التعليم العالي في الولايات المنحدة. كما لا تفوتني إِلزابث ويبر، التي تستكشف الأعماق الفلسفية لاستجابات مكافحة الإرهاب في هجمات 11 سبتمبر، بدلا من قصر نشاطها على القنوات الضيقة للقراءات العميقة للفلسفة الألمانية، التي تتطلب فكريا بقيّة حياتها الأكاديمية.

وعلى أيّة حال، فإنّ تدريسي لمادة الأدب المقارن، على الرغم من كونها مرضية، لم تعد أكثر من نقطة قاتمة أنظر اليها باعتزاز. ممّا جعل هذا المشروع الإنساني جديرا هو أنّه جنبا الى جنب مع اهتماماتي الدينية، قد منعني من منح نفسي بالكامل الى الإنتماءات السياسية أو تعريفات المكتبة للمنح الدراسية أو الخضوع غير المشروط للوظيفة. لقد قادني كلّ ذلك الى هجينة Hybridity من صنع نفسي عندما يتعلق الأمر بالمنح الدراسية والنشاطات السياسية، والأهم من ذلك كله، الإحساس. جاء هذا الإحساس الهجين لحثّ أكثر جهودي العلمية أهمّية.

ربّما وبشكل أقلّ تفضيلا، كشفت أيضا عن ضعف شخصيتي مدى الحياة، خاصّة طموحي الى أن أكون كلّ الأشياء لكافة الأشخاص، وافتقاري الى «الذات» المحددة بوضوح، وبالتالي تلمّسي باستمرار من أجل فهم أفضل

لهذا الأمر أو ذاك. وهذا ما دفع النقاد القاسين الى صرف النظر عن دراساتي باعتبارها هواية أو خيالية، في أحسن الأحوال. وهذا إغتراب فظيع أو عمل هاو Dilletante. لحسن الحظ بالنسبة لي، قوبلت تلك الإنتقادات بمديح من قبل المجتمع العلمي التقدّمي، وخاصّة العلماء الروّاد من غير الغربيين.

التحكّم في الفكر السرّي

كانت هناك مغامرات جانبية سياسية أخرى، نموذجية لعصر الحرب الباردة، والتي يبدو أنّها تستحقّ التذكير. ربّما كانت الحكاية الأكثر روعة هي جلسة خاصّة غير عادية بناء على طلب عميد كلية الحقوق فرانك سترونگ. وهو في منتصف العمر ويتمتع بمهارات اجتماعية حاذقة في منطقة الغرب الأوسط من البلاد. بفضل تلك المهرات وبدعم من روح الدعابة، التي تنتقد الذات، كان فرانك على رأس القائمة المختَصرة ليصبح الرئيس القادم للجامعة، وهو ما حدث بالفعل بعد بضع سنوات. على الرغم من أنّ فرانك كان نموذجا للعميد المتراخي الودود، إلّا أنّه كان حريصا ماكرا؛ حريصا على عدم اتخاذ خطوات متعثّرة على طول مسار صعوده الى قمّة الهرم الأكاديمي. بصوت متوتّر بشكل غير معهود، فسّرت في ذلك الوقت أنّه بسبب إحراجه من كونه رسولا مكلفا بأخبار غير جيّدة، أخبرني فرانك أنّه قد تمّت زيارته مؤخّرا من قبل أفراد في مكتب التحقيقات الفدرالي، الذين سألوه عمّا إذا كا يعرف مَن هو هذا «رِ چَرد فَولك» في كلية الحقوق؟

أبلغ اعضاء مكتب التحقيقات الفدرالي فرانك، أنّني كنت مديرا لمعهد التنويم المغناطيسي في نو يورك، والذي كان يُستخدَم كواجهة تجنيد نشطة لعضوية الحزب الشيوعي خلال الأربعينات، بدأ من عام 1942. أبلغت فرانك أنني بالكاد كنت في سنّ 12 عاما في ذلك الوقت، ولم أسمع بمثل هذا المعهد أبدا. ضحك بلطف وتنهّد بارتياح قائلا أنّه يشعر بالسعادة لمعرفة الحقيقة، مضيفا أنّه لم يُصدّق أصلا ما حذّره مكتب التحقيقات الفدرالي منه. إختتمّ حديثنا بالقول إنّه شعر بأنّه ملزم بالتأكّد من عدم وجود خطر أحمر كامن في كلية الحقوق، ممّا قد يجعلها، وهي البعيدة عن التوجّهات السياسية، لتصبح هدفا لمطاردة

الساحرات! النتيجة، التي تكشف عنها مثل هذه الحادثة السخيفة، المدى الذي يمكن أن تضرّ فيه أعصاب الحرب الباردة بحياة الناس. من المحتمل أن يكون عميد آخر لديه شكوك خاصّة به أو يكرهني، لكان اتخذ خطوات للتأكّد من أنّني لم أحصل على موعد معه كي يخبرني بهذا الإدّعاء الكاذب. لقد تعرّض العديد من الأشخاص الطيبين للأذى في حياتهم المهنية والشخصية خلال تلك الفترة من هِستيريا الحرب الباردة، ولم يتم منحهم فرصة لشرح أو سرد جانبهم من القصة.

لم يتطرّق فرانك لتلك الحادث ثانية، ولم يذكرها لي أيّ شخص آخر نقلا عنه. وكما هو مقترح، هناك خطر نادرا ما يتمّ الإعتراف به مرتبط بهذا النوع من التواصل بواسطة القنوات الخلفية السريّة مع مسؤولي الجامعات، على الرغم من أنّ القضايا الملتهبة تعكس الإهتمامات السياسية المتغيّرة بمرور الوقت. لقد عايشت خلال العقد الماضي أو نحو ذلك، استخدام هذا النوع من التواصل ضدّي لأغراض التشهير والقمع. أدركت تماما عودة المقاتلين الصهاينة الى المسرح في جامعات أمريكا الشمالية وأوروپا لإدراج تعيينات أعضاء هيئات التدريس في القائمة السوداء وإلغاء المؤتمرات وتشويه سمعة المتحدثين، الذين يُعتقد أنّهم ينتقدون إسرائيل. إنّ تهديد الجامعات بالدعاية السيئة ووقف تقديم المنح المالية الكبيرة للجامعات وبرامجها. يتمّ تطبيق الضغط لحظر أو إلغاء المواعيد الأكاديمية والأحداث المجدولة، بما في ذلك االدعوة لإلقاء المحاضرات وحتى إلغاء المؤتمرات الكبيرة. تشير تجربتي الشخصية الى هذه التكتيكات المخادعة، التي غالبا ما تنجح لأنّ البيروقراطيين ومسؤولي الجامعات بدون استثناء تقريبا، هم كلاعبين في فِرَق ولديهم مخاوف بشأن ما يرغب رؤساءُهم والإداريون فيه، ويخشون الجدل والإنكشافات، التي تصاحب ذلك، خاصّة إذا كانت تتعلق بالآثار السلبية للتمويل، والمتورّطين فيها. الأمن أفضل من الأسف Better Safe than Sorry!

الجامعات العتيدة والأكثر رسوخا وثراء، عادة ما تكون أكثر ثقة بالنفس وتتصدّى للنقاد غير المسؤولين وضغوط المجتمع، بما في ذلك المتبرّعين الأثرياء تحت ذريعة، «أتمنّى أن أتمكّن من المساعدة، لكنّ الحريّة الأكاديمية تحظى بتقدير عال في هذا المكان، حتى بالنسبة لوجهات النظر، التي يكرهها

الكثير منّا». عادة ما تكون هذه هي النهاية، على الرغم من أنّها تجري في الحقيقة بهدوء، ولكن بشكل متآكل. تنتقل «الكلمة» الى العمداء ورؤساء الأقسام أنّه من الأفضل تجنّب الأحداث والمتحدثين، الذين يُنظر اليهم على أنّهم مثيرون للجدل واستفزازيّون، ممّا يجعل الدفاع اللِبرالي النموذجي عن الحريّة الأكاديمية في كثير من الأحيان تهديدا هيكليّا لانفتاح النقاش والحوار. لقد وجدت أنّ العديد من إداريي الجامعات يُظهرون دفاعا عن الحرية الأكاديمية في الموقف العامة، بينما يُقوّضون أو يقيّدون هذه الحرية بشكل غير معلن أو مُباشر، من خلال التذرّع باعتبارات الكياسة واللياقة المؤسسية. وبشكل أكثر واقعية من خلال الإدّعاء بعدم وجود التمويل باعتباره سببا لرفض مقترحات المؤتمر المثيرة للجدل، أو محاضرات اعضاء هيئة التدريس المدعوّين. لا توجد طريقة لحساب عدد المتحدّثين المثيرين للجدل، من الذين تتمّ دعوتهم، أو اعضاء هيئة التدريس الشبّان المثيرين للجدل، والذين لم تتمّ ترقيتهم أو تثبيتهم أو تعيينهم أصلا. الأشكال الضمنية للتحكّم في الفكر وإنكار التوظيف هي أكثر خداعا بكثير ممّا يبدو للعيان، وهي بالتأكيد أكثر انتشارا من الأشكال الصريحة والبدائية.

عندما تنتهي الصداقات

يثير اهتمامي السؤال حول الصداقات ولماذا تنتهي أو لا تنتهي. يمكن أن تعكس خيبات الأمل العاطفية من نوع أو آخر، لكنّ خبراتي القليلة عن الصداقات المُنقضية، قد نشأت بسبب مشاركات سياسية قوية على جانب واحد من صراع غير مشترك. حتى الصداقة القائمة على مركز قويّ للجاذبية العاطفية والخبرة المشتركة، يمكن أن تتعثّر في ظلّ مثل هذه الظروف. مع هاري فرانكفورت، كانت حول الصهيونية والإرتباط بإسرائيل، ومع فؤاد عَجَمي كانت ميله الى اليمين في كافة قضايا الشرق الأوسط. مع منصور فرهَنگ، كانت بطيئة في إدانة الطبيعة الإستبدادية لجمهورية إيران الإسلامية. ومع بيري بامير والعديد من الأتراك الآخرين، كانت تتعلق بتقديري الدائم لإنجازات إردوگان وحزب العدالة والتنمية فيما يتعلق بالتطوّرات في تركيا. لا أتذكّر صداقة انتهت خلال حياتي كشخص بالغ، بسبب بعض الخلافات الشخصية، على الرغم من أنّ قربي من

جون سپيرلِنگ، مؤسس جامعة فِنِكس، تلقى ضربة مؤكدة بعد أن شعرت بكوني ضحيـة بسـبب ولعـه، قبل ترامپ، بعلاقة المعامـلات Transactional Relations. كان تافهـا، ولكـن بالنسـبة لـي كان تخريبيّـا للثقة الأساسـية للصداقـة الحقيقية. بالغ جون في اسـعار المعاطف التي اسـتوردها من اليونان وباعها لي ولآخرين حين كنّا نتقاسـم شـقة في كُلومبُس لمدة عامين. بالطبع، تختلف الصداقات عن العلاقات الرومانسية والعائلية في هذه الأمور. إذا فشلت الصداقات، فإنّها دائما ما تنطوي عل حالات فرديّة من خيبة الأمل الشخصية، وليس أمورا تتعلق بالثقة والإلفة اليومية. مع خيبة الأمل الرومانسية، دائما ما تكون قضايا الخيانة الجسدية والعاطفية ذات أهمية قصوى، على الرغم من أنّه في بعض الأحيان وبعد خفوت الوهج وحلول الروتين، فإنّ النهاية تلوح في الأفق. بالنسبة للعائلة المقرّبة، عادة ما يكون هناك شعور بالخيانة وانفسامات عميقة في الشخصية، وغالبا ما تكون مزعجة تعكس نزاعات الملكية والمال والميراث.

الصلات الإنسانية

كان اسـتيقاظي خلال سـنوات كُلومبُس فكريا وكذلك سياسـيّا ورومانسيّا. لقـد اصبحـت صديقـا لأرِك كالَـر، وهـو مهاجر ذو فكر اشـتراكي جاء من براغ، وهـو مؤلـف كتاب «الإنسـان المقياس والبـرج والهاوية» *Man the Measure* and *The Tower and the Abyss*. وهو عالم إنساني متميّز بفضل سعة الإطلاع الثقافي والمهارة اللغوية والحساسية الإنسانية والسمعة العلمية. أدّى تعيينه خلال زيارة له الى جامعة أوهايو بطريقة ما الى تكوين صداقة وثيقة بيننا، ساعدتني في بلورة إحساسـي نحو اليسـار ونحو العلوم الإنسـانية مرّة واحدة وإلى الأبد. كان أرِك مناهضا قويّا للعسـكر ومعاديا للإمبريالية، وقبل كلّ شـيء مؤمنا بيقين في افكار هَيِگل وقوّتها وقدرتها على إحداث تأثيرات تحويلية. إحتلّ أرِك أيضا بُعدا ثمينا ومستقبلا غير متخيّل في مدينة پرِنستُن فيما بعد، حيث عاش حياة علمية هادئة دون ارتباط رسميّ بالجامعة.

كانت له صداقات قويّة مع العديد من أشهر اللاجئين الأوروپيين، بمن فيهم آينشتاين وتومَس مان وهِرمَن بروك. كما قام بتحويل منزله في المدينة المذكورة

الـى صالـون. كان مـن دواعي سـروري الكبيـر أن أعيش لمـدة عامين كصديق، وكمستأجرفي المنزل، الذي امتلكه في شارع وان إيفلِن پلَيس، وحيث كان يعيش مع رفيقته المخلصة لِلي. كانت لِلي سيدة متفانية لا تمتلك روح الدعابة ومثال للمـرأة البورجوازيـة القويـة، ذات الدوافع القوية لإصلاح الشـخصيات الضالة، مثل حالي. كان أرِك هو الإستحواذ المرغوب، الذي مثّل لها جائزة قيّمة منحتها مكانة وقبولا اجتماعيا أيضا. كانت تشعر بالغيرة والإستياء من أنّ أرِك كان جذّابا حتى في سـنّ السـعبينيات من عمره وله ميل للنسـوة الأصغر سـنّا منه واللاتي اسـتجبن لسـحر العالـم المسـنّ، الـذي لم يُخفِ الإسـتمتاع برفقتهـنّ. فقط في الثمانينيـات مـن عمـري، تعلمت بنفسـي أنّ الطاقات الجنسـيّة لا تتضاءل، على الأقل في العقل، وأنّ وجودها يمكن أن يكون تهديدا مزعجا للشـريك الأنثوي المُخلـص. كانـت هِليـل تعلمني هـذه «الحقائق» منذ أن التقينا. وعلى الرغم من أنّني تجنّبت التشابكات العميقة، ألّا أنّ ذلك منحني فرصة التعلم البطيء وأحيانا الصعب لكبح اندفاعاتي.

وقبلها في جامعة ولاية أوهايو، كان وجود أرِك حدثا وممثلا مثاليا للثقافة الأوروپيّة العالية. تمت دعوته الى الحرم الجامعي من قبل أوسكَر سِدلين، وهو مفكّر ألماني قومي متطرّف الى حدّ ما وأروسـتقراطي اجتماعيّا. إحتقر مدرسـة فرانكفورت التي ضمّت يساريين وانصار ما بعد الماركسية. أدار أوسكر، الذي كنـت ودودا معـه، القسـم الألمانـي فـي الجامعة كإقطاعية. ومـع ذلك كان لديه طعم للموهبة وثقة كبيرة في حكمه، ممّا سمح له بتجاهل الإرشادات الأكاديمية العاديـة. بهـذه الـروح، واثناء تدريسـه للغة الألمانية في برنامـج اللغات الصيفي فـي كليـة مِدِلبَـري في ولاية فِرمونت، اكتشـف سـيگَرد بَركهارت، وسـهّل عليه الصعود والتطور المهني واصبح لاحقا صديقي المقرّب. كان سيگَرد، الألماني المولد مترجما لامعا للأعمال الأدبية، وخاصّة شكسپير. كان يحاول تجديد لغته الألمانية في برنامج الإنغماس الصيفي في مِدِلبَري عندما اكتشفه سِدلين، الذي أذهلته مقالات سـيگَرد الأسـبوعية باللغة الألمانية المنشـورة في صحيفة الكلية. رأي فيها وحدّدها على أنّها أعمال نقد أدبية قابلة للنشر لكونها ذات جودة عالية. ذهب سيگَرد الى اثبات ذلك، وأكثر منه الى الإعتراف بجودة المنحة التي حصل

عليها، لغرض اكمال دراسته العليا.

كان سيگ أكثر شخص يميل الى الكمال وعرفته جيّدا تماما، والذي ربّما كان السبب وراء تلك المعرفة. ما كان مقتنعا على الإطلاق بعمله أو حياته مهما كان موضع الثناء والإعجاب من قبل الآخرين. ربّما كان بحاجة الى المعاملة المُميّزة الخاصّة، التي تلقاها من أستاذه ومشرفه سِدلين، الذي أثار موقفه «التملكي» تجاه سيگ الشكوك في أنّه ربما يكون قد انجذب عاطفيّا الى هذا الحبيب الأصغر الموهوب، «الذي اكتشفه». إذا كان الأمر كذلك، فهو لم يتلقَ أيّ تشجيع من سيگ، الذي كان متحمسا للجنس الآخر. كان من الصعب تفسير سلوك أوسكَر، على الرغم من أنّه بدا غير موافق على علاقة سيگ بسكرتيرة القسم، التي تزوّجها لاحقا. وأكثر من ذلك، قرار سيگ «غير المخلص» بمغادرة جامعة ولاية أوهايو والذهاب الى جامعة كالِفورنيا في سَن دياگو. بدا هذا القرار بمغادرة كُلومبُس مدفوعا جزئيا على الأقلّ بالرغبة في الهروب من سطوة أوسكَر وعواطفه وطريقته الإستبدادية. وبرفقة زوجته الثانية المخلصة پَگي، انضم سيگ الى مجموعة من الأصدقاء، الذين غادروا جامعة ولاية أوهايو كمجموعة لبدء برنامج العلوم الإنسانية في جامعة كالِفورنيا، وبالذات في أحدث حرم جامعي لها، وهي تنمو بازدهار آنذاك.

بعد سنوات قليلة، وفي وقت قريب من عيد ميلادة الخمسين، أقدم سيگ على الإنتحار، وربّما يعود ذلك الى عجزه عن تحقيق الكمال المنشود.

كان سيگ نجل قسّ پروتِستانتي لِبرالي. تمّ إرساله الى أمريكا عندما كا ن طفلا للهروب من السنوات النازية، ولم يعُد أبدا لتلك البلاد. كانت نظرته الخاصّة أخلاقية للغاية ومبدأيّة تماما، وكان شخصا رائعا لا تشوبه شائبة مثل أيّ شخص عرفته جيّدا. ربّما لهذا السبب كان غير لائق لتحمّل المعضلات الحتمية والتأثيرات المتناقضة للحياة على كوكب الأرض. لقد وجدت أنّه لا يمكن للفرد أن يأمل في العيش بسعادة دون أن يكون فيه شيء من فكر الهندوسية، أي أن يكون غير منزعج نسبيّا من تناقض تجربة الحياة والتعايش الداخلي بين الأضداد. يبدو أنّ صديقي سيگ قد افتقر الى تلك الرغبة الحاسمة في الإعتراف بالحاجة الى عدد قليل من الزوايا المظلمة، حيث يمكن الإحتفاظ بالأسرار حتى عن

أولئـك الذيـن نحبّهـم أكثـر. كما فـي بعض الأحيان، يجب علينـا الكذب. نحن نسـخر مـن التناسـق Consistency زاعميـن أنّـه مطلب عقول تافهـة، لكنّ قلة في الغرب يمكنهم التعايش دون إظهاره. باستثناء الحالة الجمالية عند مشاهدة لوحة أو قراءة رواية، فإنّنا نعتمد على منطق يخلط بين العقلانية والإتسـاق، ونأسـف لمن يتصرّفون بطريقة غير عقلانية وغير متّسقة.

لحظة تخدير

كان سـيگ مهمّا بالنسـبة لي بطريقة أخرى. أثناء وجودنا في ولاية أوهايو، أقنعنا عالمة نفس تعمل في الجامعة، وهي صديقة تدرس التغيّرات في السلوك تحـت تأثيـر العقاقيـر المخدّرة، واجراء تجـارب مضبوطة حول إدراكات الوقت Perceptions of Time. وافقـت علـى القيـام بذلـك في منزلها الحديث الواقع في مجمّـع سـكني مخطـط مـن قبل معمـاري محلي مبتكِر. كانـت التجربة غريبة لا تُنسـى. علـى مـا أذكـر، تمّ اقتـراح دعوة صديق للإنضمـام للتجربة وتمكّنت من اقناع سيگ، فوافق خلافا لإحكامه الأفضل. ذهبت الى معرض ولاية أوهايو في الصباح، حيث تمّ حثي على إعداد ذهني للتجربة من خلال القيام بشيء لم يكن مرهقا. لا شيء أفضل من تبديد التوترات من القيام بزيارة ترفيهية الى الأجنحة المفضلة المتنوعة في معرض ولاية من الغرب الأمريكي الأوسط State Fair.

تمّ إعطاؤنا جرعات من العقار بناء على وزن كلّ منّا، ولكن بطريقة ما حدث عكـس فـي تلـك الجرعات. أعطيـتُ الكثير وكان نصيب سـيگ الجرعة الأقلّ. وبسرعة اصبح ذلك واضحا من خلال كيفية استجاباتنا. كان للعقار تأثيرات قويّة متعـدّدة علـيّ، ولـم يكـن هناك أيّ تأثير تقريبا على سـيگ. قد يرجع ذلك جزئيا الى الجرعة القليلة، وربّما جزئيا بسبب إتقانه للفضائل البروسية لضبط النفس.

عندما أشارك في تجارب يرى البعض أنّها من المحتمل أن تكون تحويلية أو ذات آثار نفسيّة عميقة، فأنا لا أتردّد بالمضي فيها. أحاول تعليق أيّة مخاوف أو شـكوك واستسـلم تماما وبلا خوف قدر الإمكان، واثقا من مرونتي العاطفية الأساسـية لحمايتـي مـن أيّـة نتائـج كارثية. شـعرت تحت تأثير ذلـك العقار، أنّ الوقـت يمـرّ ببطء أكثر، وسـمعت الموسـيقى بشـكل مختلـف ورأيت اللوحات

التجريدية لمضيفتنا النمساوية بألوان زاهية ثلاثية الأبعاد، وعانيت من فقدان مخيف للذاكرة وتحمّلت فترة من جنون العظمة Paranoid Interlude، إعتقدت خلالها أنّه كان معنا ضيوف غريبون الى حدّ ما يتنقلون داخل المنزل ويخططون لإعدامنا، والى حدّ ما بطريقة فلم الرعب *Get Out*.

خلال وقوعي تحت تأثير ذلك العقار المخدّر، عبّرت عن إحساسي بتلك اللحظات Psychedelic Moments في شيء من النثر إعتقدت أنّه كان صاعقا ذا معانٍ عميقة Electric with Deep Meanings. عند قراءته في صباح اليوم التالي، وجدته نثرا ميكانيكيا مشبّعا بالكليشهات Mechanical Prose Drenched with Clichés.. لقد عانيت بالتأكيد من مشاعر ذوبان الذات في ذروة تأثير العقار، الذي قادني حين كنت تحت تأثيره الى الإعتقاد بقوّة أنّ الناس يجب ألّا يخاطروا بمثل هذا العقار، الذي يشوّه العقل خلال تجربة كيميائية من هذا النوع، على الرغم من الكشف الحسّي المثير. كنت سعيدا لأنّني فعلت ذلك مرّة واحدة، لكنّني تعلمت أنّني لم ارغب أبدا في المخاطرة مرّة أخرى. لقد استخدمت من وقت لآخر عقاقير أخرى غير مخدّرة، واكتشفت أنّني أتفاعل بقوة أكبر من معظمها. كانت تجربتي الوحيدة ذات مرّة مع عقار الأكستَسي Ecstasy شديدة للغاية، ربّما بسبب اقترانها بالأعشاب الضارّة، ممّا دفعني الى إعلان الحبّ للغريب القريب، خلال التجربة بأكملها في شقّتها حين أصرّت على أن نتعرّى. لقد كنت مفعما بالحيوية الذهنية، على الرغم من أنّني تجنّبت ببعض الجهد عواقب الحياة الواقعية، التي كانت على جدول أعمال مُغريتي ذات الخبرة في الخلطات الصيدلانية My Pharmaceutically Equipped Seducer!

وقت للإستكشاف

نظرا لأنّ الحبّ والجنس والسياسة تبدو في كثير من الأحيان متشابكة في مجموعة متنوعة من الطرق المحيّرة، ربّما كانت تجاربي في كُلومبُس على هذا المنوال الأقل غرابة من الطريقة التي صدمتني بها القوى الأساسية Elemental Forces. بعد الإنفصال والطلاق «المتحضّرين» الى حدّ ما، والذي أعقب وفاة والدي في شهر تشرين الثاني من عام 1956، تركت رينَيه كُلومبُس واستأنفت

حياتها في فانكوفر في كندا، لتربية إبننا كرِس كأمّ عزباء. كان طلاقا ودّيا، وكنت مطيعا وغير متقاعس في إرسال حوالات الدعم على اساس شهري، والقيام بزيارات سنوية وأحيانا نصف سنوية. نشأ كرِس «طبيعيّا»، ممّا عكس قيم والدته ونظرتها للعالم، وعنى أنّه سيكون محافظا اجتماعيا وسياسيّا. أصبح كرس عضوا محترما وفاخرا في نقابة القانون الكندية وظلّ على اتصال جيّد بعائلة والدته وأقاربها. على مرّ السنين، تمكّنا من إدارة علاقة لائقة بين أب وإبن، لكنّها غير مألوفة. ليس فيها حواف حادة من السخط ولا روابط قويّة من التعلق. لقد كان متوترا بعض الشيء من وقت لآخر، واحيانا توترات غالبا ما افسدت استمتاعنا خلال ممارستنا للمباريات في اللعب الرياضية. وخلال العشرين سنة الماضية أو نحو ذلك، استفادت علاقتنا البايولوجية من انسجام زوجتينا، وأولدت بعض التقدير المتبادل لعيش الحياة بشكل جيد.

في الفترة التي اعقبت وفاة والدي ثمّ الطلاق، كنت بمفردي وفي حالة مزاجية تجريبية استكشف العلاقات مع مجموعة متنوّعة من الشابات، بحثا عن نوع من النيل الجنسي والإثارة والتحرّر، لكنّني استُهلِكت في الغالب من خلال البحث العبثي لتحمّل الحبّ. على وجه الخصوص بين طلبة الدكتوراه واعضاء هيئة التدريس الأصغر سنّا، كان هناك ميل في جامعة ولاية أوهايو الى الخلط بين السماح الجنسي والتجمّعات الإجتماعية السياسية التقدّمية، التي كانت تميل الى أن يكون لها مركز ثقل إشتراكي معتدل. وعلى الرغم من أنّ اليسار من الديمقراطيين كان أقلّ دوگماتية من معظم أشكال الماركسية، فنادرا ما احتضن الشيوعية احتضانا صريحا. كان تطوّري الخاصّ في هذا الجو هو «التسوّق» Shop Around، دون الوقوف بعيدا أو احتضان الإجماع، مع استمرار البحث عن هوية خاصّة بي، على أمل أن أجد بطريقة ما المرأة المناسبة التي تمنحني المساحة العاطفية لأطوّر نفسي. الآن فقط، أتساءل عمّا إذا كان الوقوع في وضع البحث المطوّل هذا محاولة غير واعية لملْ الفراغات، التي خلفها غياب والدتي وطبيعتها غير المحبّبة.

تضمّن جزء من بحثي خلال هذه الفترة، ما يمكن أن يُسمّى الحياة الداخلية، والتي اوضحتها لنفسي على أنّها روحانية ودين وأصالة Spirituality, Religion,

and Authenticity. لقـد كنـت بالتأكيـد مسـكونيّا Ecumenical مـن حيـث النغمة والمضمون مع وجود عداء ضمني للقبيلة Implicit Anti-Tribal Animus. كنت أفكّر بشكل متزايد باعتبار أنّني «إنسان» وليس «يهوديّا»، وشعرت بانجذاب أكبر الى البوذية والمسـيحية أكثر من اليهودية أو الإلحاد. كان هذا جزئيا بسـبب أنّ تلك التقاليد الأخرى ليست تقاليد «قبيلتي»، ويرجع ذلك جزئيا الى أنّ تعليمي وخبرتـي كانـا مرتبطيـن ارتباطـا وثيقا بذلـك «الآخر» الديني. أيضـا، كان فهمي السطحي المحزن لليهودية باعتبارها منشغلة بشكل غير متلائم بقانون «الوصايا العشر» وعامل العِرق. على النقيض من ذلك، اعتقدت أنّ المسيحية أكثر استجابة لتطلعاتي الروحية الى «الحبّ» ومعاداة الإمبريالية والمجتمع والبوذية، باعتبارها تركّز على التعاطف والعمل الصالح وكذلك المسـار الوسـط واليقظة. أدرك أنّ هـذه الصـور المختزلـة لوجهـات النظـر الدينية المعقدة، تصل الى حدّ التبسـيط المفرط المضلل في ضوء التفسير الإنتقائي. ومع ذلك هذا ما شعرت به وفكّرت فيه.

علـى الرغـم مـن معاداتـي لفكرة القبيلة، وما يتعلق أيضا بالأسـرة والدولة، شعرت الى حدّ ما بالعزلة والوحدة الميتافيزيقيّة، ممّا جعل فكرة الإنضمام الى مجتمع ديني جذّابة، على الرغم من أنّها لم تزِد عن كونها فكرة مجرّدة. سيعلمني المسـتقبل أنّ ترجمة هذا الدافع الديني الى واقع مؤسسـي، أثبت أنّه جبل تعجز قدراتي على تسـلقِهِ. على عكس تجربة العقاقير أو العلاج، لم أكن قادرا وغير راغب في التحقق من ذهني عند بوّابة المؤسسة، التي يجب على المرء المرور من خلالها. لم أتمكّن أيضا من الإشتراك في الإدعاءات الميتافيزيقية التي تصادمت مع نظريتي العلمانية والعقلانية. وعلى الرغم من سعيي لتلقي الإلهام من الشرق، لـم أتخـلّ أبـدا عـن وجهـة نظري التنويرية الراسـخة بعمق، والتي شـدّدت على العقلانية والعلمانية والتجريبيّة. في الوقت ذاته، سمحت لي تأكيداتي الوجودية علـى الروحانيـة، خـلال تقلبات الحيـاة بالصعود والهبوط والبقـاء متقبّلا لطرق المعرفة الدينية والشعريّة. أجد نفسي أيضا منبهرا أنّه حتى في مواجهة الحداثة، فـإنّ العديـد من الأشـخاص الذين يعيشـون حياة البؤس يجـدون معنى لحياتهم مـن خـلال مشـاركتهم في دين منظم. في هـذا الصّدد، وبينما كان ماركس محقا

بشأن الدين باعتباره مادة افيون فيما يتعلق بالوعي الثوري، فقد كان مخطئا جدّا في التغاضي عن علاقة الدين بحياة البشر كاملة، خاصّة بالنسبة للكثيرين، الذين يعيشون حياة محرومة مادّيا. الدين مصدر قويّ لتقدير الذات والرفاهية والإعتدال والمجتمع. ولكن بعض المواقف والتوجّهات الدينية يمكن أن تحشد الأتباع لإحداث ضرر فردي وجماعي رهيب. بعبارة أخرى، إنّ انخراطي السياسي، مهما كان قدر ما بلغت به شخصيتي بشكل عام، لم يُبطِل أبدا السعي وراء الرفاهية الروحية، بينما أدرك أنّه في السياقات التاريخية، يمكن للدين في مظاهره المتعدّدة أن يعمل لصالح هذه الأهداف أو ضدّها. أفتخر بنفسي، ربّما بدون مُبرّر كاف، لقدرتي على قبول وجهة نظر غير مستقطبة عن علاقة الدين بالظروف الإنسانية، دون أن أكون معارضا لتأثيره وأثّره.

ربّما يساعد هذا في تفسير سبب عدم اندماجي تنظيميّا مع أيّة حركة سياسية وعدم شعوري بالراحة مع الروحانية غير السياسية للعصر الجديد، التي اجتاحت كالِفورنيا قبل حوالي 50 عاما. للأفضل أو الأسوأ، لم استطع أبدا أن أحرّر نفسي من هذا النوع من التهجين بين تداخل المعتقدات والإلتزامات لما قبل الحداثة وما بعدها، وهو مزيج من **الشرق والغرب**. غالبا ما كان الوقوف بعيدا عن الآخرين يعني الوقوف منفردا، الأمر الذي أبقى البعض بعيدا عنّي مسافة ذراع على مدار حياتي، ولكن لحسن الحظ بعيدا عن الجميع.

الفصل السادس

تجربتي في هارفرد

هارفرد/كَيمبرِج

كنت راضيا تماما عن حياتي وهي تتكشّف في أكاديمية ناشئة في جامعة ولاية أوهايو، وبدت مقبولة مهنيّا كمدرس وشخصيّا كجزء من المجتمع الفكري الأوسع في الجامعة المذكورة. بعد بضع سنوات من التدريس هناك، تلقيت منحة من مؤسسة فورد لبرنامج مصمّم لرعاية «أساتذة القانون الشباب» من خلال تمويلهم لقضاء عام في الدراسة والبحث والكتابة في أيّ قانون رائد يُدرّس في كليات الحقوق في البلاد. دون تردّد كبير وعوضا عن القرار باختيار جامعة ييل، فضَلت الذهاب الى جامعة هارفرّد. قبل خمس سنوات سعيت للإنتماء الى كلية الحقوق بجامعة هارفرد ولكن ذهبت في النهاية الى ييل. جزئيا هذه المرة، كانت فرصة لإرضاء شوقي السابق للعيش في منطقة كَيمبرج وتذوّق البيئة الثقافية الشهيرة. كنت اتطلع ايضا لقضاء بعض الوقت في جامعة هارفرد، التي تتمتع بسمعة عالية باعتبارها أعظم جامعة في العالم.

كان الوصول الى جامعة هارفرد في خريف عام 1958. وبدون اصدقاء مقرّبين في الجامعة، ظهر الأمر شاقا في البداية ومعقّدا بسبب الإستقبال البارد، الذي تلقيته من عميد كلية الحقوق الرائع إروين گرِسولد. حقق هذا الرجل لاحقا شهرة وطنية كمحام عام شجاع في حكومة الولايات المتحدة. كانت تلك هي أوّل مواجهة لي مع «نسخة هارفرد» من الغطرسة على نموذج گرِسولد Ivy League Griswold، الذي لم يتعامل من قبل مع زميل بمنحة من مؤسسة فورد،

ضمن البرنامج المشار اليه الخاصّ باعضاء هيئة تدريس القانون من الشباب. أخبرني ببرود أنّه لا يمكنني التجوّل في كلية الحقوق لمدة عام، وأصرّ على أن أسجّل في برنامج للحصول على درجة علمية، واظهر نفاذ صبر واضح بأنّ استفاضتي بالحديث على عكس ذلك مضيعة لوقته الثمين. لم يستغرق الأمر وقتا طويلا حتى أدركت أنّ خيار ماجستير القانون اقتراح خاسر ويتضمّن في الغالب مقررات مطلوبة وليس هناك مزايا مهنية. تمّ تصميم هذا النوع من برامج الماجستير بشكل أساسي في عالم كلية الحقوق باعتباره بقرة حلوب تدرّ المال مقابل خدمة المحامين الأجانب الباحثين عن معرفة تمهيدية بنظام القانون الأمريكي. قرّرت التسجيل في برنامج الدكتوراه الذي يؤدي للحصول على درجة في العلوم القانونية JSD. تمّ تصميم هذا البرنامج لخدمة الأكاديميين الأجانب والمحليين الطموحين، خاصّة أولئك الذين يسعون للهروب من كليات الحقوق دون سمعة وطنية. كانت متطلبات الدورة التدريبية أقلّ بكثير، وشدّدت بدلا من ذلك على أطروحة علمية عرضة للرفض إذا لم يتمّ اعتبارها «مساهمة في المعرفة». وقد اقترن الأمر في النهاية بامتحان شفوي شامل مرعب تجريه لجنة هيئة التدريس المكلفة بالإشراف على الأطروحة. يمتدّ نطاق الإمتحان الى ما بعد تقديم نصّ تلبية متطلبات الأطروحة. كنت اقيم في جامعة هارفرد للعام الدراسي 1959/1958 فقط. لم أتمكن من إكمال الأطروحة حتى عام 1962، حين كنت عضوا في هيئة التدريس في جامعة پِرنستُن بدون منصب ثابت Tenured، وكنت خائفا الى حدّ ما ممّا قد يحدث لو تمّ رفض اطروحتي في جامعة هارفرد.

بغضّ النظر عن القلق، كانت سنة هارفرد تجربة مثيرة من نواح كثيرة، ليس لأنّني تعلمت الكثير من القيم الدائمة في كلية الحقوق. ما وجدته مفيدا بشكل دائم في تطوّري الفكري كان بعيدا عن مجال تخصصي في القانون الدولي. استاذا القانون الدولي الرائدان في جامعة هارفرد هما رِچَرد باكِستَر ولويس سَون، اللذان درست على أيديهما مواضيع بدافع الفضول أكثر من الإهتمام الحقيقي. كما أنّ العديد من المفكّرين المُبدعين المقيمين في كلية الحقوق بجامعة هارفرد، كانوا أكثر تحفيزا للطلبة، بما في ذلك كِنگمَن بروستر، الذي اصبح لاحق رئيسا لجامعة ييل، وروجر فِشَر، الذي حقق المزيد من الشهرة.

كانت علاقاتي غير الرسمية مع كلّ من كِنگمَن وروجر كصديقين، أكثر من كونهما أستاذين عمّقا فهمي للقانون الدولي والقانون بشكل عام.

أكثر ذكرياتي ديمومة عن روجر، الذي كان في طريقه الى تقديم احاديث طويلة مكرّسة حول موضوعات الحيوانات الأليفة الخاصة به وحول كيفية حلّ أكثر مشاكل العالم صعوبة بحماس صبياني. كانت تلك المناسبة التي كنّا فيها على متن العبّارة متجهين الى جزيرة مارثا فِنيَرد. توقّف المحرّك فجأة وبدأ القارب يهتزّ وسط أمواج المحيط، وإتّضح أنّ مكجورج بُندي كان على متن تلك العبّارة. بقينا نحن الثلاثة معا لمدة ست ساعات حتى اكتشف مهندس العبّارة حلا لمشكلة عطل المحرّك. كان لدى روجر يوما ميدانيا، حين أعطى بُندي مجموعة من الحلول غير المرغوب فيها لأكثر مشاكل اليوم إلحاحا. وكما كان جزء من روح هارفرد، فإنّ القوّة أكثر أهمية من التواصل الإجتماعي. وقد انقذني روجر لأنّ ما دفعه كان تلك الفرصة النادرة لتوصيل آرائه الى بُندي، الذي كان حينها مستشارا بارزا في البيت الأبيض خلال رئاسة كِنَدي. لقد استمعت الى ما كان شبه مُنولوج بقدر ما استطعت، وفاجأت نفسي بالشعور بالأسف إتّجاه بُندي، الذي كان في خطّ النار لروجر لعدة ساعات. ومن الواضح أنّه شعر بأنّه مضطر لأن يبدو منتبها، على الرغم من أنّني شعرت أنّه ما كان سعيداجدّا باخباره بما يجب القيام به في واشنطن لتصحيح الأمور، من خلال كلام هذا الصبي الكشفي Boy Scout اللامع في جامعة هارفرد. بلا شكّ كان روجر موهوبا ومفكّرا واضحا يستخدم لغة بسيطة لاختراق القضايا المعقدة، لكنّه متعجرف بسبب اعتقاده أنّه قد وجد إجابات استعصت على الآخرين قبل أن يتمّ تقديم طلبات البحث عن حكمته. فضّلت قراءة روجر على الإستماع إليه، وهي وجهة نظر أعتقد أنّ بُندي أدركها، حين كنّا ضمن جمهور أسير على متن العبّارة المتوقفة.

في جامعة هارفرد، كنت بطبيعة الحال، وعلى الرغم من كوني مُضَللا الى حدّ ما فلست أكثر من صنيعة فكرية للإستاذ مكدَوگل ونهج جامعة ييل المُضلل للقانون الدولي. لم أكن موضع تقدير خاصّ من قبل علماء القانون الدولي هؤلاء، الذين كانوا من الوضعيين القانونيين بلا خجل Unabashed Legal Positivists، معتبرين أنفسهم اساتذة بجامعة هارفرد يتربّعون على قمّة الهرم

الأكاديمي. لقد رفضوا بشكل ساخر نهج جامعة ييل للقانون الدولي باعتباره «سياسة» وليس «قانونا». وعلى الرغم من كونها وديّة على المستوى الشخصي، فقد جرت تفاعلاتي مع كلية القانون الدولي في هارفرد في جوّ من الإزدراء المتبادل، الذي لم يتبدّد أبدا على مدار العام.

على الرغم من بذل قصارى جهودي في الأداء، كانت أدنى الدرجات في سجلي بجامعة هارفرد في مقرّرين دراسيين حول موضوعات القانون الدولي، حيث كانت لديّ خلفيّة جيّدة بها. لقد درّست القانون الدولي في السنوات الثلاث السابقة، ودرست القانون الدولي بشغف قبلها عندما كنت طالبا. هذه هي الأحكام المسبقة والأجندات الخفيّة للأساتذة الدائميين في أكثر مراكز التعليم احتراما. واجهت طيلة العام تحدّيا للتعامل مع هويتي المزدوجة الغريبة في جامعة هارفرد كأستاذ مساعد في كلية الحقوق الأمريكية، بينما كنت في الوقت ذاته طالب دراسات عليا مسجّلا وخاضعا للتقييم من قبل مدرّسين بارزين بمناهج فقهية غير ملائمة Uncongenial Jurisprudential Approaches.

وفي النهاية سارت الأمور على ما يُرام، وتمّ تعويضي أكثر من خلال تقديري المفرط من قبل عضوين آخرين في كلية الحقوق. كان أحدهما جاك داوسُن، الذي قدّم مقرّرا دراسيا لعدد قليل من الطلبة حول نظرية القرار القضائي. وكان الآخر هو لَون فُلر، الذي تضمّن تدريسه مقرّرا كبيرا في القانون الجامعي في الفقه. وهو موضوع أثار اهتمامي على الرغم من أنّني لم ادرسه مطلقا أثناء وجودي في جامعة ييل. تضمّن المقرّر تأملات رائعة من قبل فُلر حول مناظرته المشهورة في ذلك الوقت مع هارت أوكسفرد حول ما إذا كان الحكم النازي متسقا مع نظام القانون الألماني أم لا. كان فُلر قد درّس رِچَرد نيكسُن القانون عندما كان الأخير طالبا في جامعة دُوك، وكان يبدو الى حدّ ما بعيدا عن شخصيته وسوء فهمه بعد بضع سنوات عندما اصبح جزء من جماعة الثقة التي تقدّم المشورة لِنِكسُن حين ترشّح للرئاسة عام 1960. إعتقد فُلر أنّ الأخلاق مضمّنة بالضرورة في النظام القانوني بطريقة تجعل الإحتجاج النازي بالنزعة القانونية باطلا. على النقيض من ذلك، تبنّى هارت موقفا مقداما بصدد موقف النوكِلسِنايت Neo–Kelsenite Position، حيث جعل الإجراءات الشكلية

لإنشاء قانون النظرة الأخلاقية لنظام قانوني معيّن، غير ذي صلة. تعرّفت لاحقا على هِربَرت جيّدا خلال ندوة استمرّت اسبوعا حول الوضعية القانونية لمركز روكفِلر في بيلاجيو بإيطاليا، فوجدته شخصا ممتعا ودودا أكثر بكثير من فُلر، ولكنّ النقاش الملحمي حول ما إذا كانت الأخلاق أم لا، جزء لا يتجزّأ من القانون، فقد إنحزت الى جانب فُلر.

وعلى أيّة حال، حصلت على أعلى درجة تمّ منحها في ذلك العام في مادة الفقه القانوني، مِمّا خفّف من قلقي الى حدّ ما، بعد أن خشيت أن أكون أقلّ درجة من غالبية طلاب القانون في جامعة هارفرد، وجميعهم محامون طموحون لامعون. تطلب امتحان الفقه مدة 48 ساعة لوضع إجابات عن عدة أسئلة نظريّة صعبة. لقد أكملت متطلبات الإمتحان الخاصّة بي مع بقاء وقت كاف لمساعدة صديقتي الهندية المتعثرة. كانت طالبة ماجستير بخلفية تعليمية في الهند، ممّا تركها غير مجهّزة للتعامل مع هذه القضايا الفقهية، حتى لو حصلت على مدة شهر لتقدّم مجموعة موثوقة من الإجابات. فكّرت لسنوات بأخلاقيات إظهار المودة والتعاطف من جانبي، والذي كان سيُعامل على أنّه مثال خطير على «الغش» لو تمّ اكتشافه في ذلك الوقت. بمعنى آخر، لم تكن تستحقّ اجتياز الإمتحان، ولكن ما كان يجب أن تسمح هارفرد لها أصلا بالتسجيل لافتقارها الى الخلفية الأكاديمية المناسبة. كانت تبيع العقارات في منطقة بوسطن، حين التقينا بعد سنوات عديدة. لقد استمتعت في هارفرد بدفئها وحميمتها العاطفية. كانت تتمتّع بسحر هنديّ وجدته جذّابا ومغريا بشكل ناعم.

كانت بالنسبة لي مغامرة رومانسية بدت طبيعية الى حدّ ما في بيئة هارفرد. إسمحوا لي أن اطلق عليها إسم روتي، وهي امرأة شابة جميلة من مجتمع پارسي في بومبَي. وهي من طائفة هندية مشتقة من الزرادشتية، كما كانت تُمارس في السابق في إيران. كان الپارسيس مجتمعا صغيرا ضيّقا للغاية، غنيّا معتادا على الزواج المختلط، وكان من المتوقّع أن تتزوّج قريبا من قاضٍ پارسي حصل نفسه على شهادة في القانون من جامعة هارفرد قبل عدة سنوات وشجّعها على أن تحذو حذوه. لقد جاءت الى هارفرد مع قليل من المال، ولكن مع عدة صناديق مليئة بالأساور الذهبية، التي كانت تبيعها كلما احتاجت الى النقود.

نشـأت بيننـا صداقـة دافئـة مصحوبة بإيحاءات رومانسـية. بـدت روتي ذات مرّة على وشـك التخلي عن مجتمعها في الوطن إذا كنت مسـتعدّا للزواج، وهو ما لم أكن عليه. شعرت بالعاطفة وحتى الحبّ، ولكن لم أكن مغرماواعتقدت أنّنا لـن نكـون سـعداء لفتـرة طويلة عندما نعيش معا. عـلاوة على ذلك، بعد طلاقي مـن رينَيـه، اصبحـت أكثر حذرا، على الأقلّ مؤقتا، واصبحت أكثر مسـؤولية في التمييـز بيـن الإفتتـان والإلتزامـات طويلة الأمد. من المسـلم به، كما اتضح فيما بعد، أنّ حذري ما كان بدرجة كافية.

فـي نهايـة مقـرّر الفقـه القانوني، نظّمـت روتي وصديقاتهـا الهنديات حفلة تقديـر صغيـرة للإسـتاذ فُلـر، مـع سـخرية غير معلنـة لامتنان روتي بشـأن درجة نجاحهـا. كانـت ليلة سـقط فيها الثلج بغـزارة وتعرّضت عند توجهي الى الحفلة لحادث تصادم سـيارتي الوحيد عندما اسـتدرت عند الضوء الأحمر في كَيمبرج واصطدمت بسيّارة غير قادرة على التوقف. ولحسـن الحظ كانت تلك السـيارة تسـير ببـطء وقادمـة مـن الإتجـاه المعاكس، فانزلقـت ببطء باتجاه سـيارتي ولم تسبّب أيّة إصابات وكانت الأضرار طفيفة. أتّضح انّه «حادث صديق» لأنّ سائق السـيارة الأخرى كان طالبا في هارفرد. تبادلنا معلومات التأمين، ولم أسـمع أيّ شـيء آخـر. لكـنّ الحـادث أخّر وصولي الى الحفلة، خاصّـة وأنّني وافقت على أن أكـون المضيـف المشـارك. وفـي تلـك الأيـام القديمة لم تكـن هناك هواتـف محمولـة ولا توجـد وسـيلة للإتصـال وإبـلاغ تأخّـري. على الرغـم من الطقس السـيء وحادثتي، إنتهى المسـاء بسـعادة. يبدو أنّ الأسـتاد فُلر، المتوتر الى حدّ مـا والمحافـظ إجتماعيـا، قد تمتع بشـكل كبير باهتمام تلكم الشـابات الهنديات اليقظات المليئات بالحيوية والضحك، كما فعلتُ أنا أيضا.

راولِز وتِلِك

كمـا فـي بَنسِـلفَينيا، كانـت أكثر تجاربي الأكاديمية إثـارة وتأثيرا هي خارج مجال تخصّصي المفترض، في الفلسفة والدين والأدب. لطالما فكّرت بتجربتي في جامعة هارفرد على أنّها جمعت بين القانون والفلسـفة، وعكسـت اطروحتي لنيل درجة دكتوراه في علوم القانون JSD هذا التقارب في المصالح. جلست في

سَمِنار تدريبي لمدة شهر قام بتدريسه جون راولِز، الذي على الرغم من التأتأة، قد قدّم الى حدّ ما سلسلة من العروض المحفّزة. لقد تشرّفنا، نحن الطلبة، بالإستماع الى قراءة مسودّة متقدّمة الى حدّ ما لما نشره بعد أكثر من عقد من الزمن لكتابه بعنوان نظرية العدالة 1971 (*Theory of Justice*). أستُقبِل الكتاب، الذي تمّ الإعلان عنه بضجّة كبيرة على نطاق واسع قبل نشره، وأصبح الأكثر تأثيرا والأوسع دراسة ومناقشة للمعاجة الحديثة لموضوع العدالة. وكان من الواضح أنّه أكثر الأعمال الفلسفية إثارة للجدل في اللغة الإنكليزية في النصف الثاني من القرن العشرين. أفضل ما أتذكّره عن تلك التجربة الفكريّة المميّزة هو الدقة المفاهيمية الإستثنائية لنصّ راولِز، التي كشفت عن عمق خارق لفهم كيفيّة تأطير المواقف المُقنِعة فلسفيا How to Frame Philosophically Cogent Positions.

كما استمتعت أيضا وتعلمت من محاضرات وِليَم إيرل الفلسفية المفعمة بالحيوية حول الوجودية، التي قدّمت طرقا للتفكير كانت تستجيب للحقائق التجريبية للوجود في الحياة المعاصرة، دون الإستفادة من الدعائم الميتافيزيقية، التي تبدو غريبة. لقد وجدت الوجودية أكثر صلة بمخاوفي من الإنشغالات القاحلة Arid Preoccupations لفلاسفة اللغة والمنطقيين، الذين سيطروا على المشهد الإنكلوأمريكي. وبالنسبة لي، كانت النظرة الوجودية للعالم أكثر ملائمة من العمل الرائد لراولِز حول العدالة المتجذّرة في التقليد اللِبرالي السائد للفلسفة الإنكلوأمريكية.

ممّا لا شكّ فيه أنّ أفضل ما لديّ من «مغامراتي في الأفكار» خلال وجودي في جامعة هارفرد، كان التعرّض للعقل الرائع لبَول تِلِك، عالم اللاهوت البروتستانتي العظيم، الذي نجح ببراعة في جعل المعتقد الديني منسجما مع العلم والفن والحداثة، وحتى حقائق ما وراء المعرفة العقلانية. على الرغم من أنّه كان في شفق مسيرته التدريسية، إلّا أنّه ما زال الحماس يتلألأ في عينيه الى جانب مزايا ذات لمعان غير عاديّ من التعبير خلال إلقاء محاضراته. بينما كان منهجيّا في تطوير الموضوعات، فإنّه تطرّق الى العديد من القضايا ذات الإهتمام المعاصر، ومصادر الحصول على الرؤى، التي تلقي الضوء على أحلك زوايا

المعرفة. قدّم تِلِك العديد من التفسيرات للقضايا الرئيسية الجديرة بالملاحظة لأصالتها ووضوحها. درست معه مقرّرين، أحدهما عن التاريخ الفكري للإصلاح البروتستانتي والآخر عن الفنّ والدين.

أتذكّر أنّ تِلِك قارن هارفرد بمدرسة الإتحاد اللاهوتية، حيث كان قد درّس سابقا قبل فراره من المانيا النازية وقدومه الى الولايات المتحدة. كان هناك تنافس مثير للجدل مع المفكّر الديني العظيم الآخر من جيله وهو راينهولد نيبور، الذي تصادف أنّه ألماني أيضا. أخبرنا تِلِك أنّ جامعة هارفرد هي أفضل في تلبية احتياجاته من سبل الراحة المتوفّرة Creature Comfort، لكنّ مدرسة الإتحاد كانت أكثر إرضاء فيما يتعلق بتطلعاته الروحية. لقد فهمت هذا على أنّه يعني أنّ التّحديات الفكرية والسياسية في تلك المدرسة كان لها تأثير معزّز، في حين قدّمت له هارفرد بيئة أكثر انسجاما وارضاء وتفاديا لِلإختلافات المؤلمة حول المسائل المبدأيّة، التي طرحها نيبور في مسائل اللاهوت والسياسة. تعلمت من القراءة اللاحقة، كثيرا جدّا عن هذين المفكّرين الشاهقين، اللذين لم يكن عملهما مقيّدا بحدود الإنضباط. شعرت بمزيد من القرابة مع تِلِك، الذي نأى بنفسه أكثر عن مجالات سياسة القوّة، في حين أضاف تعليق نيبور المستنير والثاقب حول قضايا العالم، الى مكانته في الساحة العامة الأمريكية.

إي إي كِمِنكز وفيدِل كاسترو

تجربة أخرى خلال تلك السنة، أكملت إحساسي بالسبب، الذي جعل جامعة هارفرد ومنطقة كَيمبرِج تتمتعان بمثل هذه الجاذبية الساحرة لأولئك الذي انغمسوا في الثقافة والسياسة. ربّما يكون السبب في أنّ تلك السنة الواحدة في هارفرد لا تزال ذات مغزى بالنسبة لي، هو أنّها جعلتني على إتصال أوثق مع ملذّات العقل المتنوعة داخل الحرم الجامعي وخارجه. في إحدى أمسيات الربيع المبكّر، ذهبت الى مسرح ساندرز لسماع كِمِنكز يقرأ شعره بإيقاع موسيقي جلب إثارة لقصائده لم اشعر بها من قبل حين قرأتها بمفردي. يمكن لقراءة الشعر، خاصّة لشاعر موهوب موسيقيا كما فعل كِمِنكز، أن تكون تجربة تحويلية حقا، حيث تقشعرّ لها الأبدان وتوقظ الروح وفوق كلّ شيء تعمّق فهم ما لا يوصف.

ما زلت أتذكر كما لو كانت تلك القراءة البارحة لقصيدة «أنا أغنّي لِأولاف» مع احتفالها البارع بالنزعة السلمية المتحدّية والمناهضة للحروب.

في وقت لاحق من ذلك المساء، ذهبت الى متنزه الجامعة على ضفة نهر چالز لاستمع الى فيدِل كاسترو وهو يُلقي حديثا ممتعا للغاية. قام مكجورج بُندي بتقديمه، واعقبه عميد إحدى كليات جامعة هارفرد. تحدّث كاسترو من على المنصة العالية للجمهور الكبير المتجمّع في المتنزّه، بينما كان حرسه يتجولون فوق جدار مجاور. كان كاسترو قد خطب قبلها بأيام قليلة في الأمم المتحدة بعد استيلاء الحكومة الكوبية على السلطة، وكان هذا اللقاء الجماهيري جزء من جولة انتصار كاسترو في الولايات المتحدة بعد تولي الحكومة الكوبية السلطة مباشرة، وقبل أن تقرّر واشنطن بأنّه «العدو رقم 1» في نصف الكرة الغربي.

من الواضح أنّ نقطة انهيار العلاقات لم تأتِ نتيجة اصطفاف كاسترو مع موسكو أو تمسّكه بالماركسية. جاء الإنفصال عن الولايات المتحدة لأنّ كاسترو أمّم صناعة السكّر، وهي العمود الفقري للإقتصاد الكوبي. كانت صناعة السكّر مدعومة بشكل كبير من قبل دكتاتوريّة باتيستا الفاسدة، التي حكمت كوبا في السابق كدولة عصابات بتواطؤ مع واشنطن. إنّ ما فعله كاسترو، دون شكّ فيه شعور لذيذ من السخرية بلفت الإنتباه الى مظالم الماضي وإعادة تأكيد السيادة الكوبية على مواردها الطبيعية. عرض تعويضات للمُلاك الأجانب، الذين تمت مصادرة مزارعهم للسكّر ومنشئآت التكرير، مقابل مبالغ تستند الى القيم المفرغة بشكل كبير للإصول التي قدّمها المستثمرون، ومعظمهم من الأمريكيين، إستنادا الى فترة باتيستا لأغراض الضريبة. ومعروف أنّ تلك السجلات الضريبية الفاسدة للغاية لفترة ما قبل كاسترو، قد سجّلت عائدات وأرباحا أقلّ من قيمتها الحقيقية. إذا تمّ العمل بموجب تلك التقييمات، فإنّها ستجعل تلك الإستثمارات الأجنبية في صناعة السكّر بلا قيمة تقريبا. كشف نهج كاسترو الطريقة التي خدع بها المستثمرون الأجانب الحكومة الكوبية وشعبها على مدى سنوات عديدة بالتواطؤ مع المسؤولين الحكوميين الكوبيين الفاسدين. ألا ينبغي أن يؤخذ الإثراء غير العادل في الإعتبار عند تقييم التعويضات المستحقة لهؤلاء المستثمرين الأجانب،

الذي استغلوا بلا خجل الوضع لفترة طويلة بالتعاون مع القيادة الكوبيّة الفاسدة؟

زاد الإعتماد الكوبي اللاحق على الإتحاد السوفيتي بسبب العداء المحموم من قبل واشنطن، والذي بلغ ذروته بالتدخّل الفاشل لغزو خليج الخنازيرمن قبل الكوبيين المنفيين بدعم من وكالة المخابرات المركزية في عام 1961. ألقى المحافظون باللوم على رفض كِنيدي توفير غطاء جوّي للعملية العسكرية الغازية. هذه المهمة المناهضة للشيوعية جعلت بعض المحليين المهتمّين بفكرة المؤامرة يعتقدون أنّها كانت وراء اغتيال كِنيدي بعد ذلك بعامين. بالطبع، تمّ اتّباع الكثير بطرق ابرزت حقد ومخاطر الحرب الباردة، ومنها اغتيال چي كِڤارا بمساعدة وكالة المخابرات المركزيّة في بوليفيا ومحاولات اغتيال كاسترو الخمسين المبُلغ عنها، ومحاولة شتى الوسائل، بما في ذلك تزويد الزعيم الكوبي بسيگار متفجّر ووضع سموم مختلفة في طعامه. أدّت العقوبات القاسية المستمرّة حتى يومنا هذا، الى دفع كاسترو الى الأذرع الأيديولوجية الجامدة للإتحاد السوفيتي، وبلغت المسألة ذروتها خلال أزمة الصواريخ الكوبية شبه المروّعة،عندما كان الأشخاص العقلاء والمُطلعين مقتنعين تماما بأنّ حربا نوويّة ستحدث بسبّب التعنّت، ممّا اضطر واشنطن وموسكو على التراجع. وكما اظهر المسلسل التلفزيوني الوثائقي، الذي أعده أوليفر ستَون وپيتر كوزنِك عن فترة الحرب الباردة بشكل مقنع، أنّ منع حدوث المواجهة النووية كان لأنّ قائد غوااصة سوفيتية امتنع عن تنفيذ أمر بإطلاق طوربيد نووي على حاملة طائرات أمريكية. وبشكل أكثر موثوقية، أوضح مارتِن شِروِن في فلمه عام 2020 *Gambling with Armageddon*، أنّ تجنّب الحرب النووية عام 1962 كان مجرّد حظّ فقط.

ربّما أثارت علاقتي الشخصية بهذه الأحداث، دون وعي منّي، بسبب ما لمسته من المشاعر الوطنية لكاسترو، التي ظهرت واضحة ذلك المساء في كَيمبرِج.

بصرف النظر عن كتابة المقالات الأكاديمية، التي تدعم حقّ كوبا بموجب القانون الدولي في تأكيد السيادة على مواردها الوطنية، حتى لو كانت تعني تجاوز المستثمرين الأجانب، وهي قضيّة حساسة اختلطت فيها مخاوف الحرب الباردة مع إنتشار الرأسمالية العالمية، كان اتصالي بكوبا متقطعا. ولكن بعد سنوات

عديدة من حديث كاسترو في جامعة هارفرد، طُلِب منّي كتابة مقدّمة لكتاب احتوى على مقالات باقلام محامين تحدّوا شرعيّة العقوبات الإقتصادية، التي فرضتها حكومة الولايات المتحدة على كوبا. قيل لي أنّ كاسترو كان سعيدا بذلك الكتاب. وقد أثّر ذلك على المسؤول الكوبي للسماح لأبني دِمتري، بإكمال فِلمه الوثائقي الممتاز الذي استكشف بوضوح إيجابيات وسلبيات الحياة في كوبا دون إهانة الجمهور برسالة تعليمية. تمّ تعليق التصوير في إحدى المراحل لأنّ السلطات الكوبيّة اكتشفت أنّ كراهيتها للمثلية الجنسيّة سيُنظر اليها بشكل حاسم في الفلم. عندما وافق كاسترو أخيرا، تمّ التوصّل الى حلّ وسط بشأن محتوى الفلم، واستمر الفلم في تلقي الثناء في المهرجانات، بما في ذلك في برلين، حيث عُرض تحت عنوان منتصف الليل في كوبا (8991). كنت وما زلت فخورا بابني دِمتري لعمل الفلم. استغرق الأمر منه ست سنوات، وواجه على طول الطريق تحدّيات التمويل وعقبات السفر، لكنّه استمر ببذل جهوده حتى انتهى منه. إنّ ما حققه يظلّ مهمّا لفهم المحن العديدة التي تواجهها كوبا بتحدّيها الإستثنائي للهيمنة الأمريكية في نصف الكرة الأرضية الغربي، والتي ما زالت مستمرّة لعقود في مواجهة النفوذ الجيوسياسي الشديد الذي تمارسه الولايات المتحدة.

لقاء إلزبَرگ

خلال سنتي في جامعة هارفرد، إستأجرت شقة في ضاحية ألستُن الواقعة ضمن الحدود البلدية الكبرى لمدينة بوسطن. وهي ليست بعيد عن الحرم الجامعي، رغم وقوعها على الجانب الآخر من نهر چالز. كان ألِن أوسر، زميلي في الكلية في پَنسِلفَينيا، يعيش مع زوجته في مكان قريب في ضاحية مِلتُن، ورأينا بعضنا البعض من وقت لآخر. تأثّر ألِن بشدّة وانجذب الى الصحفيّة برِندا مورفي، التي التحقت بهارفرد ذلك العام. إفترض ألِن أنّني سأكون مفتونا بنفس القدر بذكائها وسحرها، فرتب لقاء كان بمثابة «موعد أعمى» Blind Date، (بمعنى موعد غرام دون سابق معرفة). وهو اللقاء الوحيد لي على الإطلاق معها، وما كان ناجحا، أجرينا محادثة سطحية وبدا كلانا يُدرك على الفور تقريبا أنّ الكيمياء الرومانسية بيننا مفقودة. كانت برِندا ذكية ومحبّة للحياة ورائعة Worldly, Smart

Cool and Rather، علـى خـلاف مـا أنـا عليه. بدلا من الحبّ من أوّل نظرة، كان لقاءنا يعني التباعد منذ اللحظة الأولى في جو ما قبل برنامج Tinder التلفزيوني.

قبل أن نفترق ذلك المسـاء، وافقت على أن نلتقي في الأسـبوع القادم في شـقتها، حيث سـتدعو شـخصا آخر وصفته بأنّه ذكيّ وأنيق بشكل ملحوظ، وهو صديقها دانيَل إلزبَرگ، الذي كان حينها نجما صاعدا في جامعة هارفرد في مجال الدراسات الستراتيجية. ما كنت قد سمعت باسمه من قبل، وهو الذي ارتقي الى مسـتوى أعلى في تلك السـنوات بعد القاء سلسـلة من المحاضرات العامة، التي تمّ الإعلان عنها على نطاق واسع حول منطق التهديدات النووية وفائدتها. كان هذا موضوعا عزيزا على قلوب المفكّرين الحربيين في ذلك الوقت، من الذين، فـي رأيـي اعتقدوا بشـكل غير مسـؤول، أنّ التهديدات النوويـة تخدم الأغراض السـتراتيجية لحلـف الناتـو، إذا تمّ اسـتخدامها بـذكاء دون زيادة مخاطر الحرب النووية فوق المسـتويات المقبولة. وفّرت التهديدات النووية للولايات المتحدة طريقا آمنة مفترضة لاستخدام الأسلحة النووية بشكل مفيد، دون «هدر» إمكاناتها الستراتيجية. كحدث إجتماعي، لم يكن العشاء في الذاكرة إذا لم يقم دان بعمل اشـياء رائعـة. لقـد أدى ذلـك الـى عدم وجود رغبة من جانـب أيّ منّا في ترتيب أيّـة اجتماعـات مسـتقبلية، ناهيك عن الشـروع في صداقات. مـن المحرج لحدّ ما، أنّني اتذكر المناسبة لتناول الطعام أكثر من المحادثة التي جرت أثناء ذلك.

على أيّة حال، كان العشـاء أكثر صعوبة من الموعد الغرامي مع بريندا قبل اسبوع. شعرت أنّ محادثاتنا في ذلك المساء بدت متوترة ومهذبة طالما تمكّنت من الإبتعاد عن شـغف دان في ذلك الوقت، والذي فسـرته ربّما بشـكل خاطئ، على أنّه إفتتان بالنزعة العسكرية الأمريكية وأيديولوجية الحرب الباردة. جعلني ذلك المساء أدرك أنّني انجرفت الى اليسار خلال السنوات الثلاث السابقة، التي قضيتها في جامعة ولاية أوهايو، ممّا جعلني أشعر بعدم الإرتياح بشكل واضح من شخص بدا مفتونا جدّا بالحرب، وايضا دافع عن دور أمريكا في العالم. لم أتخيّل أبدا أنّ دان كان مقدّرا له أن يُصبح المُنشقّ السياسي الأكثر شهرة في العالم بأسـره عند إصدار أوراق البِنتگون، بعد أكثر من عشـر سـنوات. لقد ظلت شهرة دان باقية ومعزّزة بمسـاهماته المتكررة المناهضة للأسـلحة النووية والداعية الى

العصيان المدني، وأحاديثه القويّة حول العالم وكتبه شبه الطائفية والمقلقة للغاية Semi–Confessional and Deeply Troubling Books. عاد إرث دان الى الظهور خلال العقد الماضي باعتباره سابقة للإفصاحات المذهلة للإبلاغات المتمثلة «بمخالفات» چلسي مانِنگ وإدوَرد سنودِن وجوليَن أسانج. وتقديرا لمساهمته في تقديم تلك العروض أمام الضمير العالمي، حصل بجدارة على جائزة **أولف بالمه** لعام 2018 في ستوكهولم، والتي تُمنح في العادة لإظهار الشجاعة الأخلاقية.

الصداقات: إيقاعات العمل واللعب

من نواح عديدة كانت صداقاتي مع جورج أبي صعب وشاؤول مندلوفِتز هي الجزء الأكثر ديمومة من سنتي في هارفرد، وكانت أكثر قيمة من الناحية المهنية، على الرغم من اختلافها عن خبراتي التعليمية الرسمية. كان جورج أفضل عقل قانونيّ تدريبا بين طلبة الدكتوراه في جامعةهارفرد. وهو مسيحي مصري لامع ذو أسلوب كريم أكسبه عاطفة واعجابا على نطاق واسع، وبشكل ملحوظ حتى بين أولئك الذين اختلف معهم. قمنا بالعديد من جولات التمشّي لمسافات بعيدة على طول ضفة نهر چالز، وتحدّثنا عن النساء والقانون والأفلام، بينما كان غروب الشمس يلقي شعاعه على اعضاء الفرق الرياضية للجامعة وهم يتدرّبون استعدادا للسباقات القادمة. كان جورج يميل أكثر منّي نحو التفكير القانوني على غرار نهج هارفرد. كان تقدّميّا سياسيا ومتطوّرا اقتصاديا ومحافظا فقهيا على الطراز الأوروبي.

إدّعى جورج دائما أنّه خليط بين شخصيتي زير نساء وپاشا، لكنّه يخفف من أيّة استجابة نقديه لمثل هذه الصور النمطية، بالتأكيد دائما على نزع السلاح! «كما تعلمون، أنا عربي»، واعترف بفنطازيته للعثور على شريكة خاضعة ستعشقه وتخدمه دون أن تتوقع الكثير في مقابل استثناء الإستمتاع بأمجاد تفوّقه الفكري والنعمة الإجتماعية والعطف الشخصي والسمعة المهنيّة. ظهر بعد سنوات قليلة أنّ جورج وجد ضالته، رغم أنّ المقصودة ما كانت عربية. كانت روزمَري سيّدة برجوازية سويسرية ناعمة الكلام وممتعة وذات تعليم جيّد، نظرت الى جورج كأنّه هدية من السماء، ممّا جعل حياته أفضل في نواح كثيرة، حتى أنّها كانت

تعمل بمثابة سائقة تنقله أينما يريد على مرّ العقود.

مع شـاؤول، اصبحت الصداقة أكثر فأكثر عمقا مقارنة بالحال مع جورج. كان شـاؤول ذكيّـا ومثاليّـا وفخـورا بصراحـة وحازما بشـأن هويتـه اليهوديّة. ثمّ كان أسـير زوجة غير سـعيدة الى حدّ ما عصابية أصرّت على أن يلعبا دورا في النشـاطات الدينية لطائفة الموحّدين Unitarians مهما تطلب الأمر منهما. خلال الثلاثيـن عامـا، التـي اعقبت تجربتنا المشـتركة في هارفرد، تعاونتُ مع شـاؤول في العديد من مشـاريع النظام العالمي، وكان أكثرها طموحا هو مشـروع نماذج النظـام العالمـي المعروف باسـم WOMP. تطوّرت بيننـا صداقة قريبة حقا، رغم وجود بعض الخلافات الحادّة والتنافس.

كُنا أنا وشاؤول وجورج نتسكّع معا كثيرا. وبشكل لا يُصدّق ونظرا لكونه يهوديّا متحمّسا من الموحّدين، قام «بتنصير» صداقتنا من خلال تسميتها بالثالوث المقدّس! نصّب نفسـه على أنّه الأب وجورج باعتباره الأبن وخصص لي دورا باعتبـاري الـروح القُـدس. وهذه بالتأكيد طريقة غير محترمة وغير وصفية، إن لم تكـن هرطقـة، لوصـف صداقتنـا العميقـة غير المتوقعة. علقت التسـمية على مرّ العقـود باعتبارهـا طريقنـا الخاص للإعتراف بالجـودة الخاصّة لهذه العلاقة. من المثير للدهشة، أنّه على الرغم من تباعدنا الجغرافي وتنوّع شخصياتنا وتحدّيات حياتنا المختلفة، إزدهرت روابط صداقتنا هذه منذ مغادرتنا جامعة هارفرد. إنتهزنا الفرص للإلتقاء في جنيف ونو يورك كلما تقاربت رحلاتنا. أعتقد أنّ كلّ واحد منّـا، بطرقـه المختلفـة، أراد أن يحافـظ على هذه المتعـة الأخيرة للحياة الطلابية فـي جامعـة هارفـرد، على الرغم من الضغوط واختياراتنا الحياتية المُتميّزة، التي جاءت لاحقا. بقينا ندرك أنّه في هارفرد كان لدينا ولمرّة واحدة، الوقت اللازم لرعاية صداقة دائمة لن تتكرّر في مكان آخر، وتبيّن أنّها صداقة حقيقية.

عندمـا قدّمـت أخيـرا اطروحتي في خريف عام 1963 بعنوان «كفاية القانون الدولـي لعصـر الحـرب البـاردة» The Adequacy of International Law for the Cold War Era، تألفت لجنة الإختبار من أرفع أخصائيي القانون الدولي بجامعة هارفرد. ضمّت اللجنة المذكورة الأساتذة مِلتُن كاتز ورِچَرد باكستَر وروجر فِشَر ولِويس سـوَن. تمّ تحديد موعد المناقشـة بشـكل محرج وأنا في منتصف سـنتي

التعليمية الثانية في جامعة پرِنستُن. كانت المناقشة بمثابة نوع من الفصل الأخير لتجربتي في هارفرد، فضلا عن كونها الفصل الأخير من تعليمي الرسمي لعام 1963.

لم أعد أتذكّر ما إذا كنت اخشى أو أرحّب باحتمال دعوتي للدفاع عن نهج مَكدوگَل. ما كانت لديّ أيّة فكرة عن كيفية الإستعداد لمثل هذا الإختبار المفتوح واللامحدود. يمكن أن يسألني اعضاء اللجنة أيّ شيء عن المجال الأكاديمي ومنشورتي وأطروحتي. إستقليت القطار من پرِنستُن متوجّها الى بوسطن وأنا اشعر بالضعف والقلق، ولم أكن أعرف ماذا سيكون مصيري في صباح اليوم التالي.

إستندت جميع الأسئلة، التي طرحها عليّ هؤلاء الأساتذة الأربعة المشهورون طوال فترة الأمتحان بالكامل، الى مقالتي الأولى المنشورة في مجلة Temple Law Quarterly. ركّزت تلك المقالة على موضوع المفاهيم الأفقية والعمودية للقانون الدولي Horizontal and Vertical Conceptions of International Law. بمجرّد أن بدأت تدريس القانون الدولي في ولاية أوهايو، أصبحت منشغلا بمسألة كيفية إقناع الطلبة المتشكّكين بأنّ القانون الدولي هو حقا قانون، على الرغم من افتقارنا لقدرات التنفيذ وعدم وجود المؤسسات الحكومية المرتبطة بهذا القانون لفعل ذلك داخل الحدود الأقليمية لولاية أوهايو في الولايات المتحدة الأمريكية. لقد ركّزت على تميّز القانون الدولي كنظام قانوني أفقي، ولم أحاول أبدا تقديم الحالة غير المعقولة بأنّ القانون الدولي هو قانون بنفس المعنى مثل القانون في مجتمع محلي يحكمه جيّدا، والذي حدّدته على أنّه نظام قانوني عمودي.

جادلت أنّ القانون فعّال وموثوق به في العديد من المجالات ذات الأهمية العملية في الحياة الدولية، حتّى في غياب قدرات التنفيذ، شريطة أن يكون منطق المعاملة بالمثل قابلا للتطبيق أو أنّ هناك مصالح مشتركة متصوّرة موجودة، كما هو الحال مع تنظيم السفر الجوّي الدولي وتأمين السلامة البحرية وتنظيم الدبلوماسية والتعامل بين الدول واحترام الحصانة السيادية. هذا النظام بين الدول ذات السيادة المتساوية هو ما أسميته **بالنظام القانوني الأفقي**. أوضحت لطلبتي

في حينه، أنّه يتمّ انتهاك القانون المحلي بشكل مُتكرّر على الرغم من قدرات الشرطة وإجراءات التنفيذ المعقدة. كان هذا واضحا فيما يتعلق بجرائم ذوي الياقات البيضاء White Collar Crimes. إنّ هناك العديد من حالات الخروج على القانون في بلدنا، ولا شيء أكثر عارا من المعايير المزدوجة، التي يستخدمها القانون والمؤسسات الحكومية للتمييز ضدّ الأمريكيين من أصل أفريقي. ومع ذلك، يشكّ قلة في وجود النظام القانوني الوطني، على الرغم من وجود دعوات متكرّرة لسدّ الثغرات وإجراء إصلاحات محدّدة وتحقيق تنفيذ أكثر قوّة وإنصافا فيما يتعلق بالعرق والطبقة. البعد الرأسي للنظام العالمي يمثل تجاوزا جيوسياسيا للمساواة القانونية بين الدول. يمكن توضيح هذه «الرأسية» من خلال حقّ النقض في مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة وازدواجية المعايير فيما يتعلق بحقوق الإنسان وإفلات الفاعلين الجيوسياسيين من العقاب عندما يتعلق الأمر بالمساءلة عن الجرائم الدولية.

بعد ما لم يكن سوى محادثة ممتعة مع هؤلاء النجوم البارزين في جامعة هارفرد، تحوّلت «محنتي» المُخيفة للدفاع عن أطروحتي الى موقف وكأنّه نزهة مريحة للتجوّل في المتنزّه. عدت الى پِرنستُن ذلك المساء بشعور من الإنجاز أنّني حصلت على درجة الدكتوراه من جامعة هارفرد دون مجهود كبير، وبديون غير معترف بها من الإمتنان للعميد گرَيسوولد. كان لديّ شعور بأنّ الأساتذة في لجنة مناقشة أطروحتي في هارفرد، نظروا للأمر باعتباره واجبا من الطقوس يُتوقع منهم أداؤه، بدلا من أن يكون، كما أعلِن، اختبارا حقيقيّا لمؤهلات المرشّح. لم يتعاملوا مع المناسبة باعتبارها مناسبة تتضمّن تقييما جادّا لما إذا كنت مرشّحا مستحقا لدرجة الدكتوراه أم لا، على أساس ما قدمته للوفاء بمتطلبات الدرجة. أحدثت «علامة هارفرد التجارية» The Harvard Brand ضربة صغيرة في ذهني، على الرغم من أنّني كنت المستفيد، ولم يخطر ببالي مطلقا الإعلان عن رأيي الشخصي.

لو نظرت الى الوراء، اعتقد أنّ السنوات، التي امضيتها في جامعات النخبة Ivy League، پَنسِلفَينيا وييل وهارفرد، قد أعدّتني للعمل في أغزرها، وهي جامعة پِرنستُن. بسبب عدم قدرتي على التماهي مع المؤسسات، لم أحاول

أبدا الإستمتاع بإرضاء أية تجربة كخرّيج فيها ولم اشعر بأيّ أحساس بالإلتزام «بردّ الجميل» لهذه المؤسسات لما قدمته لي بالتأكيد، وهو دخول سهل الى محترف عزيز كمهنة في الحياة الأكاديمية. لم تكن حياتي المهنية هي ما استمديته من أيّ من تلك المؤسسات فخرا من إنتاجها، لكنّ هذا خارج عن الموضوع. لقد خدمت أغراضي من خلال توفير الموارد الثقافية والعلمية، التي مكّنتني من التعلم والمضيّ قدما في محيط مثالي، ولهذا ما زلت ممتنّا للغاية. إنّ مواقع هذه الجامعات للتعلم وجيوب الترابط الإجتماعي النخبوي تستجيب بشكل لا شعوريّ لرغبات وقيم المواقع المالية في مدن العالم العظيمة، وخاصّة نو يورك وقلاع السلطة في واشنطن، التي تتطلع باهتمام كبير الى الوظائف المكرّسة للدبلوماسية والمالية والأعمال التجارية، وكذلك مهنتي القانون والطبّ. في وقت لاحق فقط، أدركت أنّ ييل وهارفرد وبِرنستُن عملت أيضا كمراكز تجنيد رئيسية لوكالة المخابرات المركزية، بل وقدّمت مستشارين مؤثرين حول كيفية استخدام الثقافة بشكل فعّال كسلاح أيديولوجي في الحرب الباردة. أفترض أنّ هذه الجامعات العظيمة، التي تطوّرت في إيقاع بسيط إثر مدّ وجزر في التغيّر الإجتماعي، يمكن وصفها بأنّها مراكز متميّزة للتعلم والتنشئة الإجتماعية للنخبة، حيث يتمّ وضع موارد المعرفة بشكل مباشر، وحتى بشكل غير مباشر، في خدمة السلطة والثروة والمنزلة/المقام Power, Wealth, and Prestige.

الفصل السابع

العودة الى جامعة ولاية أوهايو

لم تزعجني العودة الى جامعة أوهايو بعد أن أمضيت سنة في هارفرد. كنت اتطلع الى استئناف حياتي التدريسيّة والكتابة، وكذلك إحياء الصداقات وايجاد مكان للسكن، واعتبار كُلومبُس إقامتي الدائمة. لم أكن متأكّدا على الإطلاق ممّا إذا كان المستقبل ستنتج عنه أيّة مشاركات ناشطة إضافة لهويتي المهنية كمدرّس/باحث.

ما ازعجني شخصيّا في وقت لاحق هو روح جامعات النخبة، بأنّ «النشاط» يجب أن يقتصر إمّا على تقديم المشورة للحكومة أو العمل كمستشار بأجور عالية في القطاع الخاصّ. ما كان مُستهجنا، ومع ذلك تمّ التسامح معه رسميا باعتباره حرية أكاديمية، كان نشاط المجتمع المدني، خاصّة إذا كان يعبّر عن اتجاه مناهض للمؤسسة. كنت سلبيا كطالب، ولم أكن أدرك أنّ هناك احتجاجات عامة في ذلك الوقت. كانت سنوات دراستي الجامعية من 1948 لغاية 1955، هادئة على أيّة حال بالنسبة لي، ممّا يكشف انفصالي السياسي أكثر من كونه وصفا للواقع. كانت المخاوف الرئيسية، التي أهتمّ بها الناشطون في تلك الأيام تدور حول تجنّب الحرب النووية وإنهاء الحرب الكورية، والتساؤل عن مدى الجديّة في التعامل مع جو مكارثي في توليد هستريا مخيفة حمراء. بشكل عام، لم اتمكّن من ملاحظة كافة هذه الهزّات السياسية. كنت لا أزال مشغولا بمحاولة فصل نفسي عن نظرة والدي المناهضة للشيوعية، دون معرفة ألى أين أذهب بمفردي.

ما حدث في كثير من النواحي، هو أنّ حياتي البالغة لم تبدأ إلا بعد أن انتقلت الى كُلومبُس في خريف عام 1955. تبلورت ملامح حياتي، التي عشتها

خلال العقود اللاحقة، من خلال تلك السنوات الست، التي امضيتها في جامعة ولاية أوهايو كعضو هيئة تدريس جديد في كلية الحقوق. في هذه المنطقة النائية في الغرب الأوسط فقط، بدأت في اكتشاف مَن كنت وما سأصبِحُ عليه، والأهم من ذلك كله، مَن أردت أن أكون عليه. عند قبول عرض التدريس في جامعة ولاية أوهايو، قمت بتخفيض درجة الإحتمال مقدّما على أنّها عقوبة بالسجن لمدة عام في «الگولاگ الأمريكي». لكنّني سرعان ما تغلبت على هذه الغطرسة المقيتة، التي يحملها سكان الساحل الشرق للبلاد، واقتنعت بالحيوية الفكرية والسياسية والشخصية، التي عشتها في ولاية أوهايو منذ اليوم الأول.

الآن وبعد الإقامة في هارفرد، إعتقدت أنّ جامعة ولاية أوهايو ستملأ الفراغ السياسي لبقيّة حياتي! ما لم تحققه رابطة جامعات النخبة أبدا، نجحت فيه جامعة «العشرة الكبار في لعبة القدم» على الفور تقريبا، على الرغم من أنّه لم يكن انطباعي، كما قد يُفترَض، من خلال مآثر الرياضة.

ما وراء الروتين، الذي توقعته عند عودتي الى ولاية أوهايو، جاء ما لم يكن متوقعا في شكل سحر ورومانسية، إتضح أنّهما يمثّلان تحدّيا بقدر ما كانا مُرضيين.

الحبّ المشعّ

عندما دخلت سالي أپلتُنحياتي، كانت قصة مختلفة تماما عن علاقاتي الرومانسية السابقة. هذه المرّة كنت أنا المُحتاج وهي التي تحكّمت بشكل كامل في الحدود العفيفة لشكل علاقتنا الحميمة. قبل كلّ شيء، جعلتني سالي إدرك تماما حدودي الدينية. عندما التقينا، كانت معروفة لي سابقا فقط بكونها «شاعرة تمّ نشر قصائدها» Published Poet. كانت طالبة دكتوراه في قسم اللغة الإنگليزية، محبوبة وتتمتع بتقدير كبير في كلية الآداب. تمّ تقديمنا لبعضنا البعض عن طريق أحد معارفنا من الشرق واسمه جين لِختِنشتاين. تزوّج جين من صديقته السابقة، وهي زميلتي في شقة سكن جامعة ييل خلال سنتي الأولى هناك. كان شخصية بارزة في حدّ ذاته، يعمل كصحفي مستقل عندما عاودنا الإتصال في مدينة كُلومبُس، ومرتبطا بشكل غير وثيق للعمل في مجلة Esquire. كان يطمح

الـى أن يكـون كاتبـا روائيـا جـادّا وتخلـى عن هذا الطموح بعد سـنوات واصبح صحفيـا محترفـا. ظهـر جيـن في وقت لاحق في سـانتا باربرا، وعـاد الى حياتي متزوّجا من مديرة المتحف في فرع جامعة كالِفورنيا هناك. إنجذب جين بشـدة الى سـالي، التي نقلت لي ازدواجية مشـاعرها نحوه واسـتيائها من علمانيته غير الخجولة وشخصيته غير الواضحة، التي كانت تتعارض مع ذروة كيانها النابض بالحيـاة. كانـت فـي العـادة كريمـة جدّا اتجـاه الآخرين، ولم تكـن تنتقد أبدا أيّ شـخص، ولا تعنـى أبـدا ولا تشـترك فـي القيـل والقال. لذا بدا هـذا الإبتعادعن جين غير معهود، واستعدادها لمشاركة هذه المشاعر معي، جعلتني اتعامل معها كبادرة ثقة في صداقتنا الجديدة.

عندما التقيت سالي، كانت مصمّمة على أن تصبح راهبة ومستعدة لدخول الديـر حـال الإنتهـاء من متطلبات دراسـتها لنيل درجة الدكتوراه. كانت بالنسـبة لـي تجربـة جديـدة لمواجهـة شـخص مصمّـم علـى عيش حيـاة دينية مكرّسـة. لقـد امتلكـت بالتأكيـد المزاج، الذي سـيجعل مثل هذا الإلتـزام موثوقا به. لكنّ استجابتها العاطفية المرحة أشارت الى احتمالات أخرى أكثر دنيوية. ربّما كان تأثيري الدائم على حياة سـالي هو ايقاظ مشـاعر منافسـة كافية لدفعها الى إعادة النظر فيما إذا كانت الحياة في دير الراهبات هي الإختيار الصحيح لحياة الفرد.

كانت سالي متألقة وغنائية ساحرة وممتعة الصحبة وذكية ومحبوبة بلا عيب ورقيقة القلب اجتماعيا. وضعت لنفسـها معايير عالية بينما كانت متشـكّكة الى درجـة مـا فـي طبيعة خلفيتي. لقـد انجذبت جزئيا نحوها بسـبب التزامها الديني الشـديد، ووجدت النيران السـاخنة لمعتقدها حسـيّا، بينما كانت في نفس الوقت تقربني من مذبح التحوّل الديني Altar of Conversion أكثر ممّا كنت أتخيله ممكنا. ربّمـا كانـت دوافعـي مختلطة، على الرغم من أنّني بذلت قصارى جهدي داخليا وخارجيا لفصل مشاعري اتجاه سالي عن الإهتمام الشخصي باستكشاف إمكانية أن اصبـح كاثوليكيـا ممارسـا. كانت سـالي نفسـها قد تحوّلت الـى الكاثوليكية، فهربت من طفولة أسقفية من الطبقة العليا Episcopal Upper–Class Childhood، تعاملت مع الكنيسة كمكان للقاء أقرانها الإجتماعيين واشخاص مهمّين، ولكن بطرق تفتقر الى المشاركة الروحية. ألقى إدمان الكحول المدمّر والإختلاط في

عائلتها بظلالهما على تربية سالي في الساحل الشرقي، ودفعها ذلك بلا شكّ للبحث عن شيء مختلف جذريّا.

شجّعت سالي اعتقادي بأنّني قد اكون قادرا على كتابة قصائد ذات مستوى معيّن، فبدأنا نتبادل القصائد كلّ يوم خميس. كنت سعيدا للقيام بذلك على الرغم من أنّني شعرت بالضغط لكتابة قصائد لن تكون مخيّبة للآمال. كانت سالي تستجيب بصراحة عندما تعلق الأمر بالنقد والإقتراحات. جعلتني أشعر أنّني ما كنت أضيّع وقتي في كتابة القصائد. وبخلاف ذلك، اصبحنا قريبين وشاركنا الأصدقاء واشتركنا بالحياة الثقافية. لقد ارتبطت باصدقائها من المثقفين الكاثوليك وشكلنا مجموعة ملتزمة بالقرءات الأسبوعية للشاعر تولكِن. وهو شاعر خرافي في أوكسفُرد وشكّل موضة كبيرة بين المثقفين في ذلك الوقت. عندما انتهينا من قراءة مجموعة من اشعار تولكِن بصوت عال، غالبا ما ناقشنا تحدّيات التوجّه الديني في الأجواء الأكاديمية العلمانية. أتذكّر بعض الإتصالات مع جون نَونَن، الذي اشتهر لاحقا بدوره كقاض فدرالي ذي آراء كاثوليكية قويّة، والذي تخرّج في جامعة هارفرد وهو غير راض عن التجربة الكلية في الحرم الجامعي. وصف جون طموحه في إنشاء جامعة من الدرجة الأولى بهوية كاثوليكية أساسية وصريحة. لم يعتبِر نَونَن أنّ جامعتي نوتِردام أو جورجتاون كاثوليكيتين بما يكفي أو متميّزتين أكاديميا بما يكفي لإرضاء رؤيته.

دعاني عضو في مجموعة تولكِن، وهو استاذ فلسفة ذكي للغاية، إسمه توني نِمِتز، لقضاء عطلة نهاية الأسبوع معه في دير فرنسِسكان بالقرب من مدينة كلِفلاند. طُلِب منّي خلال خلوة التحدّث فاتيت على ذكر الملاحظات، التي رسمت مساري الشخصي، فتلقيت بعد ذلك ترحيبا حارّا من تلك المجموعة البالغة التقدير من الرجال، الذين استجابوا ايضا لذكاء توني وحكمته بحماس مماثل. كنت ارغب في اداء جيّد، ليس فقط من أجلي، ولكن أيضا لأنّني كنت آمل أن تصل التعليقات الإيجابية الى آذان سالي. لقد سعيت لتأكيدها لي كشخص، بقدر ما أردت حبّها.

كما بذلت سالي قصارى جهدها دون أن تمارس أيّ ضغط لمشاركة حياتها الدينية معي. لقد اصبحت مكرّسة للغاية لكاهن الكنيسة في مدينة پورتسمُث في

أوهايو. قدنا السيّارة لعدة ساعات لحضور قُدّاس الأحد في كنيسته، والأهم من ذلك ذهبنا الى قدّاس منتصف الليل قبل عيد الفصح. وفي فجر ذلك اليوم ذهبنا الى شقة الأب هَوَرد الخاصّة. لقد تأثرت جدّا للمشاركة في تلك التجربة، وكنت سعيدا لأنّها جعلتني أقرب الى سالي أو لأنّني كنت مفتونا جدّا بتلك الطقوس، التي لم اعرفها من قبل. كان كلا العنصرين حاضرين، كما كان أيضا صدى حضوري في طفولتي في كنيسة الحي في مانهاتِن، ممّا سمح لمربّيتي الأيرلندية بالحفاظ على إيمانها على الرغم من كونها بعيدة عن وطنها، أيرلندا.

في مرحلة ما، أخبرت سالي أنّني كنت آمل أن نتمكّن من الزواج في المستقبل. إشرت الى رغبتي في تلقي تعليمات من كاهن محليّ كإعداد ضروري لتحوّلي الى الديانة الكاثوليكية. كانت أكثر تقبّلا ممّا توقعت وأتذكّر قولها خلال العشاء في مطعم، إنّها لم تتوقع منّي أبدا أن اسعى للحصول على هذا الإلتزام القويّ. وعندما فعلت ذلك، إعتبرت أنّه دليل على الجديّة، التي احدثت فرقا كبيرا بالنسبة لها، كما لو كانت منح إذن للتعبير عن مشاعر أقوى ونوايا أكثر جرأة. بعبارة أخرى، كانت أكثر استجابة لإعلان التزامي ممّا كنت أتوقعه أو توقعته. بعد ذلك، شعرت بأنّنا «واقعون في الغرام»، ومع ذلك ما زلنا عفيفين ولم نسمح بالتعبير عن تلك المشاعر الدافئة والعطاء بشكل حسّي قبل الزواج. وهذا موقف جديد بالنسبة لي، لكنّني كنت أحترمه.

مقاومة الإغراءات الكاثوليكيّة

تولى القس الشاب الحساس، الأب جَيمس كوني، في أبرشية كُلومبُس مهمّة توفير المعلومات لما قبل تعميدي الفعلي. كنّا نلتقي بانتظام لمناقشة العقيدة بشكل عام والعقيدة الكاثوليكية بشكل خاصّ. لقد استمعت باهتمام، على أمل أن تنجح العملية لأنّني لم ارغب في خيبة أمل سالي، ولا حتّى هذا القسّ، الذي بدا أنّه يعتبرني متعاطفا محتملا جدّا، وفعل كلّ ما باستطاعته. كنت أعلم أنّ علاقتي مع سالي ستنتهي إذا لم افِ بهذا الإلتزام. ومع ذلك، في عقلي الشخصي وعقلها، لم نرغب في أن تفقد هذه العملية نزاهتها من خلال تحويلها الى تلبية رغبات شخصية خاصّة.

أخيرا في صيف عام 1960، إتصلت بالأب كوني من مدينة نو پورت في ولاية رود آيلند، حيث كنت ألقي محاضرة كجزء من البرنامج الصيفي في الكلية البحرية. أخبرته أنّني مستعد للتعميد ككاثوليكي، فبدا مبتهجا. على متن الطائرة القادمة من الشرق، أتذكّر أنّني كنت متوترا وخائفا، وتصرّفت بشكل غير معهود عندما قابلت صديقا عن طريق الصدفة على متن تلك الطائرة.

كان الأب كوني ينتظرني في المطار واصطحبني الى مقرّ أبرشيته حيث دعاني للمكوث في عطلة نهاية الأسبوع. سألني عمّا إذا كنت ارغب في أن أسأل زملائي المعروفين في جامعة ولاية أوهايو وزميلين من مجموعة قراءة قصائد تولكِن، وهما توني نِمِتز وبِرنارد أو كيلي، إذا كانوا على استعداد ليكونوا شهودا في حفل التعميد. سالي، بطبيعة الحال، هي الشاهد المفضّل لديّ، لكنّها لم تكن موجودة في كُلومبُس. كانت تقيم في مخيّم صيفي للكتاب والشعراء. طلبت من الأب كوني بعض الوقت للتفكير في الأمر، فوافق وانسحبت الى غرفتي. بقيت اصارع التوتّر بين رغبتي القوية في عدم إحداث خيبة أمل، وإدراكي بأنّني لا استطيع قبول العقيدة الكاثوليكية، لا الميتافيزيقيا ولا اللاهوت. تذكّرت التفكير في أنّ الأشخاص، الذين يولدون في مثل هذه العقيدة، لا يتعيّن عليهم المرور بعملية الإلتزام هذه، إلّا إذا شعروا بأنّهم مُجبرون على التخلي عن هويتهم الأصلية. في النهاية، كان اللاوعي المتمثل في التنوير والمناهض للمؤسسات أكثر تجذّرا عندي ممّا كنت أدرك. خرجت من غرفة نومي معلنا أنّني لست مستعدا للتعميد. لم يخفِ ذلك الكاهن اللطيف خيبة أمله، واستمر يُظهر عطفه وحنانه، كما كان الحال مع سالي، على الرغم من أنّ قراري سيكون له تأثير سلبي ظهر بعد وقت قصير، وإن لم يكن على الفور بصدد المسار التصاعدي لعلاقتنا.

كانت مغادرتي الى جامعة پِرنستُن حدثا نهائيا لا رجوع عنه. بعد أن تلقيت الدعوة في أوائل عام 1961، أوضحت سالي أملها في أنّني لن أقبل. إستنتجت أنّ پِرنستُن كانت مركزا رئيسيا لعلمانية النخبة، وهي ما وصفته بمكان «التعليم الجاف» المخصّص للحفاظ على النظام القائم. لقد نسيتُ حتى تلك اللحظة أنّ تحوّل سالي الى الكاثوليكيّة مرتبط بخبرتها العملية التكوينية وقربها الشخصي من المجتمع العمالي الكاثوليكي، الذي أسسته وقادته دوروثي دَي. وهي

شخصيّة تقدّمية حقيقية وجذّابة كان لها تأثير قويّ على شخصيّات كاثوليكية ملهمة مثل تومَس ميرتُن ودانيَل بَريگَن. بالنسبة لسالي لم تكن پرِنستُن مجرّد قلعة للثروة والنظام القائم، التي كافحت دوروثي دَي ضدّها نيابة عن الفقراء والضعفاء، ولكن من المحتمل أيضا أن تبدو العودة لها رجوع الى عالم عائلة سالي، الذي جلب عليها البؤس خلال مرحلة طفولتها بالذات. لم اتعامل مع معارضتها لخيار پرِنستُن بحساسيّة شديدة في ذلك الوقت، معتبرا أنّ مخاوفها مبالغ فيها. كنت أسعى بلا شكّ الى صرف الإنتباه عن طموحي المهني التقليدي المعترف به للتدريس في جامعة مرموقة. أدركت أيضا أنّ وجودي في پرِنستُن كان سيسعد والدي لو كان على قيد الحياة، وكانت محاولتي الأخيرة لأظهر لوالدتي المتعالية وعائلتها أنّني لم أكن، بعد كلّ شيء، قضيّة خاسرة. أفترض أنّني تأثرت أيضا بأصدقاء هيئة التدريس مثل رولي ستانگر، الذين لم يصدّقوا أنّني تردّدت ولو للحظة قبل التصريح بالقول «نعم» البهيجة والمتوقعة حين أتيحت لي هذه الفرصة.

ربّما تمّ دفعي أكثر في اتجاه پرِنستُن بسبب القلق اللاواعي. بدأ نقاء سالي يخيفني عندما اقتربنا من بعضنا البعض، خاصّة فيما يتعلق بحُبّي لها. شعرت بالثقة في أنّني سأصبح بطريقة ما مخيّبا لآمالها وسألحق الأذى بها بشكل رهيب. وبفعل ذلك، جرحت نفسي الى الأبد. في قرارة ذهني، أدركت أنّني لست مستعدّا بعدُ للزواج الأحادي Monogamy سواء في الروح أو الجوهر، وأنّ هذه الحقيقة ستؤدي بطريقة أو بأخرى الى القضاء على الزواج من شخص يعيش مُثلا عليا تماما، كما بدا أن سالي تفعل. بهذا المعنى، عرضت عليّ پرِنستُن الهروب من الكاثوليكية وسالي، وهو الأمر الذي لم اعترف به لنفسي، لكنّه سرعان ما اصبح واضحا. كتبنا الرسائل في البداية، لكنّ سالي لم ترغب في متابعة ما أصبح بالنسبة لها طريقا مسدودا. سرعان ما تزوّجت من شخص آخر ورُزقت بأطفال، وبقدر ما اعرف، عاشت حياة هادئة في شمال نو يورك وحافظت على روابطها القويّة بالنشاط الكاثوليكي على غرار الخطوط، التي رسمتها دوروثي دَي ودانيل بَريگَن. إلتقينا مرّة واحدة فقط في السنوات اللاحقة، عندما كنت شاهدا خبيرا في المحاكمة الجنائية للعديد من الناشطين الكاثوليك، الذين قاموا بعصيان مدنيّ في

قاعدة عسكريّة. كانت سالي من بين الحضور، وجاءت للتحدث معي في فترة الإستراحة، وتبادلنا عبارات المجاملة، دون تأثير كبير. ومع ذلك ظلّ توهّجها ولم أندم أبدا على الآثار الرفيعة والدائمة لأشهرنا القليلة الحميمة.

على الرغم من عدم حصول قبلة عاطفية واحدة، تظلّ سالي أعزّ ذكرياتي الرومانسية، حتّى تزوّجت من زوجتي الحالية هِليل، التي لم تتلطخ من جانبي بأدنى شبهة مخيّبة للآمال. لقد كانت متفوّقة كما هي، ولا يمكن أن تكون هناك مجاملة أكبر أو الشكوى من شخص كان جذّابا للغاية من الناحية الإنسانية.

دعوة پِرنستُن للعمل

حين تلقيت دعوة بشكل غير متوقع من جامعة پِرنستُن لقضاء عام في مركز الدراسات الدولية، تلقى صديقي رولي الأخبار من صديقه گاردنر پاتِرسُن، عميد مدرسة وودرو وُلسُن في الجامعة المذكزرة، قبل الإتصال بي رسميّا. بحث رولي عنّي على الفور في كلية الحقوق ووجدني وأنا وسط محاضرة لي. طرق الباب وطلب منّي إيقاف التدريس كي يطلعني على الأخبار العاجلة. وهذا ما فعلته بالطبع. إفترضت الأسؤا، وأنّ شخصا ما قد مات أو كانت هناك حالة طوارئ.

في البداية، أذهلتني الدعوة وتجاوزت حماستي. لقد كانت في الحال حدثا تجاوز احلامي وهدّد بشكل خطيرالحياة، التي كنت أبنيها لنفسي منذ وصولي الى كُلومبُس. كانت وراء تلك الدعوة قصة اكاديمية ساخرة الى حدّ ما، نتجت عن تشجيع تعييني من قبل العديد من الشخصيات البارزة في المؤسسة. أنا متأكّد تماما من أنّ أولئك الأفراد قد ندموا لاحقا على هذا الدعم المبكّر، حيث اصبحوا يعتبرونني الخصم اللدود وليس الحليف الأيديولوجي، كما ظنوا وقتها. لم تظهر الإصطفافات في الحرب الباردة المشاعر السياسية فحسب، بل فصلت أيضا الأصدقاء عن الأعداء. تساءلت أثناء كتابتي لهذه السيرة عن نفسي، وما الذي جعل هؤلاء المؤيدين المتحمّسين للفكر والعمل الجاري، لا سيّما فيما يتعلق بالأمن القومي والحرب الباردة، ينظرون اليّ في وقت مبكّر كواحد منهم. جعلتني تحرّكاتهم اللاحقة في التباعد أدرك أنّ مزاعم الإحتراف القائم على الجدارة في الحياة الأكاديمية كذبة مضللة. المعيار الحقيقي المحدّد للتمييز

الأكاديمي هو التشابه العلمي والسياسي في التفكير، وغالبا ما يتمّ عرضه دون وعي. صحيح أنّ القليل منّا قد بذل قصارى جهودة لتطبيق معايير موضوعية عند التصويت على اسئلة التوظيف والتثبيت والترقية. ومع ذلك، عند العودة للماضي، لا أشعر بأيّ ندم لأنّني كنت من المستفيدين من سوء الفهم! لقد جعلني ذلك اتساءل عمّا إذا كنت قد سمحت لشخصيتي السياسية بالبقاء خفيّة لفترة طويلة. لقد «تفوّقت» على نفسي في السنوات المقبلة، أو بشكل أكثر دقة، لقد هزمتني ضغوط الأحداث وعرّت هويتي السياسيّة، خاصّة الحرب الأمريكية في فيتنام.

بصمة جامعة ولاية أوهايو

كانت تجربتي في كُلومبُس وولاية أوهايو عموما، بالتأكيد فترة تكوينية سياسيا وشخصيّا. لقد حرّرتني من التأثير المحافظ المستمر لوالدي، ودفعتني بشكل دائم نحو اليسار، لكنّه اليسار المستقل من دون ولاء أيديولوجي أو جمود عقائدي أو انتماء تنظيمي. أعطاني ذلك شخصيا الثقة في قدراتي على السحر والجذب، لكنّه تركني مرتبكا أبحث عنها في «الآخرين»، وهو ارتباك سيستمرّ حتى التقيت بِهليل بعد 35 عاما.

عندما حان الوقت لتوديع جامعة ولاية أوهايو ومدينة كُلومبُس، شعرت بالصمت. تمّ تأطير مغادرتي على أنّها مؤقتة، وهي إجازة لمدة عام واحد لإجراء الأبحاث وتدريس دورة واحدة للخريجين في جامعة پِرنستُن. لقد غادرت مع توقع وتأكيد مؤسسي بانّني استطيع العودة، على الرغم من أنّه كان معروفا لي ولهيئة التدريس في جامعة ولاية أوهايو أنّ دعوة جامعة پِرنستُن تضمّنت إمكانية الحصول على فرصة وظيفية دائمة، وحتى إشارة الى أنّه في وقت ما في المستقبل، سأحصل على كرسي شاغر لوقت طويل في القانون الدولي. شعرت بالتحدي والإثارة من الناحية المهنية لفكرة التواجد في پِرنستُن، على الرغم من أنّني كنت أدرك أنّها حالت دون أيّ مستقبل مع سالي، وهي خسارة ستزداد سوء، مهما حاولت تبريرها، إذا تلقيت رفضا متواضعا من پِرنستُن بعد عام.

انطلقت الى پِرنستُن محمّلا بهذه المشاعر المتناقضة وفضولا بشأن ما كان

ينتظرني. لكنّني ما زلت غير خال من الشكّ الذاتي. شعرت بالقلق حيال احتمال العـودة الـى كُلومبُـس تحـت سـحابة من نوع ما، ووجـدت الرغبة ليس فقط من قبل حراس جامعة پرِنسـتُن، الذين تخيّلتهم على أنّهم غيلان على طراز القرون الوسطى، ولكن من خلال حبّ حياتي حتى ذلك الحين.

الفصل الثامن

پرِنسـتُن وفترة الأربعين عاما القادمة

لعبة الإختباء والبحث

وصلت الى پرِنسـتُن لقضاء عام للبحث والتدريس، وشـعرت ببعض عدم التصديـق أنّـه بعد تجربة الضعف المشـوبة بالمراهقة Experiencing Adolescent Mediocrity، قـد دُعيـت الآن للإنضمام الـى هذا المجتمع التعليمي والأكاديمي المتميّـز. فـي الوقـت نفسـه، كنت عازما على حماية نفسـي من خيبة أمل مخيفة في حال انتهى ما شعرت به وكأنّه رحلة خيالية انتهت بسقوط مدمّر، وهو الأمر الـذي بـدا ممكنـا تماما.على الرغم من هذا القلق، أخبرت الآخرين أنّه سـيكون من الجيّد أن أعود الى جامعة ولاية أوهايو دون أن اتلقى أيّ عرض للتثبيت في جامعة پرِنسـتُن. وبطريقة ما، فإنّ تلك المشـاعر، على الرغم من عدم اختبارها أبدا، جعلتني أقلّ تخوّفا. شـعرت بما يكفي بالنسـبة لي أن أغمس اصبع قدمي في بُركة پرِنسـتُن دون أيّة توقعات اخرى، على الرغم من أنّه كان من المحتمَل جدّا أن يُطلب منّي، مهما كان ذلك بشكل مؤدّب، أن أعود من حيث أتيت. كان ذلك سيشعرني بالتواضع ولكن ربّما لا يعيقني.

وكمـا حـدث، فإنّنـي حصلـت على منصـب عضو هيئة تدريـس بعد بضعة أشهر ودون الكثير من المتاعب. طُلب منّي إلقاء محاضرة عامة واحدة حضرها اعضاء هيئة التدريس المُثبتين، ممّن يحقّ لهم الإدلاء بأصواتهم. وبعد أن قمت بذلك، عُرِض عليّ تعيين لمدة ثلاث سـنوات كأسـتاذ مشـارك غير مُثبّت، ولكن مع التأكيد على أنّ كرسـي القانون الدولي سـيظل شـاغرا على أمل أن تتاح لي

هذه الفرصة الخاصّة إذا حصلت على التثبيت. وهذا ما حصل بعد ثلاث سنوات فـي وقـت لاحـق. أدركت حينها، ولم أغيّر رأيي أبدا، أنّني كنت محظوظا للغاية لتلائم مؤهلات هذا التعيين مع كرسي يتمتع بامتيازات جيّدة بينما كنت لا أزال صغير السّنّ نسبيّا.

فيما يتعلق بالمؤسسـة، حتى قبل وصولي كنت قلقا من سـمعة پِرِنسـتُن في التكبّـر الإجتماعـي والنخبويـة والمحافظـة السياسـية وصورتهـا كمحطة لتجنيد الواسـپ WASP للمهـن التأسيسية، لا سـيّما فـي الماليـة والحكومـة. سـرعان مـا أدركـت أنّ معظـم المتعجرفيـن يتمركّـزون بيـن الطلاب الجامعييـن البيض وجميعهـم مـن الذكـور، مـع عدد قليل من الأقسـام الرفيعة في العلوم الإنسـانية وبالطبـع الخريجيـن، خاصّـة كبار المتبرعين، الذين شـعروا بالإسـتحقاق لتنفيذ رسـالتهم. بشـكل خجـول الـى حـدّ مـا، أعترف أنّني لم أكن علـى دراية بتراث پِرِنسـتُن العنصري، على الرغم من أنّني على مرّ السـنين عرفت المزيد والمزيد عـن الهيـاكل العظميـة العنصريـة، التي تزيّن خزانة پِرِنسـتُن وتتحدّث بهدوء عن ماضيهـا. كان تأثيـر خريجـي الجامعـة المحافظين خلال سـنواتي الأولى للعمل فيهـا، عاطفيـا وحنينـا الى الماضي. كانوا يبذلون قصارى جهودهم للحفاظ على الجامعة حسب الصورة، التي يتذكّرونها عنها.

عندمـا وصلـت الحـرم الجامعي في خريف عام 1961، وجدت جميع طلبة المرحلة الأولى في الجامعة من الذكور البيض تقريبا، ومعظمهم من ذوي الشعر الأشقر. لم تُنقل روحهم الرجولية المزعومة والمبالغ فيها الى حدّ ما، بشكل غير عادل من خلال سـخرية تسـتنكر الذات وتصف حياة الحرم الجامعي بأنّه «دَير خلال الأسبوع وبيت دعارة في عطلات نهاية الأسبوع». على الرغم من أنّ هذا الوصف الذاتي من المُفترَض أنّه نشـأ في پِرِنسـتُن، إلا أنّه يصدق الآن لتصوير الحياة في الأحرام الجامعية للعديد من الكليات والجامعات.

بدأت پِرِنستُن تغيير هويتها في منتصف الستينات من خلال اتخاذ سلسلة من الخطـوات المؤلمـة «للأطفـال» وتهدئة الموالين لصورة «النمر» من خلال زيادة وجود الأناث وفق حركة متواضعة في كلّ مرّة صغيرة جدّا في البداية بحيث تكون غير مرئية للجميع باستثناء المطلعين. كانت هناك اعتراضات على طول الطريق

وإدّعاءات غاضبة بأنّ رئيس پرِنستُن، روبَرت گَوهين، كان يخون تقاليد «النمر» من خلال فتح الجامعة أمام النساء والأقليات، ممّا سيغيّر طابعها مع مرور الوقت بطرق أساسيّة. لسوء حظهم ولحسن حظّ بقيتنا، كانت موجات التغيير قوية للغاية وكانت لدى گَوهين مهارات اجتماعية ممتازة بالإضافة الى مؤهلات پرِنستُن التقليدية العالية. جاءت أوّلا عضوة هيئة التدريس سوزَن كيلر، عالمة الإجتماع البارعة اجتماعيا والمتطوّرة وذات الذوق الرفيع. سرعان ما اصبحنا اصدقاء، ثم جاءت حفنة من طلبة الدراسات العليا، الذين لم يمكنهم التأهل للقبول إلا إذا قدّموا ادّعاء سخيفا الى حدّ ما أنّهم فقط يمكنهم اكمال تعليمهم في پرِنستُن. على سبيل المثال، اللغات الغريبة التي تدرّسها پرِنستُن والتي لا وجود لها في مؤسسات مماثلة. ثمّ وصل فيض من الطلبة المقبولين في الدراسات العليا، قيل أنّ بعضهم على ما يبدو بسبب اخطاء مكتب القبول، حيث افترِض أنّ بعض الأسماء الأجنبية غير المألوفة كانت من الذكور وظهر أنّها تعود الى أناث. كانت هذه التطوّرات تافهة بما يكفي لتجاوزها تقريبا دون أن يلاحظها أحد من قبل الخريجين أو مجلس أمناء الجامعة. بالمناسبة، كان المجلس متردّدا في الإشتباك مع تقاليد پرِنستُن، ومع ذلك حاول أن يستجيب بحذر للضغوط من أجل التغيير والتكيّف مع الروح الحديثة للمساواة العرقية والإثنية والجنسانية Modern Ethos of Racial, Ethnic, and Gender Equality. حقا إنّ الموازنة لم تُرضِ أيّا من المُحدثين والتقليديين لكونها بطيئة جدّا ومتناقضة بالنسبة للمجموعة الأولى وسريعة جدّا ومشكوك فيها بالنسبة لمجموعة المحافظين.

ما كان يهمّ مجموعة الخريجين، بصرف النظر عن الرياضة، هو مرحلة الدراسة الجامعية الأولية Under-graduate College، التي كانت الجزء الأخير من مجتمع الجامعة الذي خضع لعملية تجميل لشدّ الوجه الجنساني والعرقي Facelift Gendered and Racial. كانت هذه التجربة الجامعية، التي تدوم اربع سنوات جذابة للعديد من خريجي جامعة پرِنستُن، حيث تعيدهم عاما بعد عام للقاءات في الحرم الجامعي تمثل حنينا الى الماضي، والتي تبلغ ذروتها في تظاهرة P Rade على طول شارع ناسو في المدينة. يتجمع المتظاهرون خلال فصل التخرج وهم يرتدون بدلاتهم البرتقالية والسوداء المصمّمة خصيصا لكلّ

سنة تخرّج تغطي نحو 75 عاما أو نحو ذلك. قد يكون المشهد سخيفا لغير مواطني مدينة پرِنستُن، ولكن بالنسبة للخريجين المشاركين فهي فرصة لاستعادة الذكريات الجميلة.

عندما بدأ قبول النساء كطالبات في الجامعات عموما، إنكسر سدّ معارضة الخريجين دفعة واحدة على الرغم من تناقضهم السابق. زادت العملية الإدارية لقبول النساء في الصفوف الجامعية بشكل متعمّد وبونيرة حلزونية عالية، تداخلت مع قبول أكثر لليهود والمتقدمين الأمريكيين من أصل افريقي. ربّما لم تكن عملية التكيّف هذه مع القيم والتفضيلات التعليمية في أواخر القرن العشرين لتحدث بدون القيادة التقليدية العمقية، ولكن المستنيرة والماهرة والملتزمة لرئيس الجامعة روبَرت گوهين. وهذا إطراء في محله بالرغم من اختلافاتنا السياسية. كان لعدة سنوات مشغولا بالتعامل مع اعضاء جمعية الخريجين الأكثر تمرّدا وردّ على إداناتهم المريرة لسياساته بعقلانية ولطف. في النهاية ساد گوهين وحصل على احترام ومودّة الجميع باستثناء عدد قليل من الموالين لجمعية «النمور»، التي لم تصالح داخل الحرم الجامعي ولا خارجه. (ظهر النمر كرمز لجامعة پرِنستُن في أواخر القرن التاسع عشر، وبحلول عام 1911، تمّ ترسيخه كرمز للجامعة. تمتاز جمعية نمور الحرم الجامعي بأنّها هادئة وشرسة وراقدة ومتفشّية ودفاعية وعدوانية وصاخبة ومبتسمة ونائمة ومستيقظة، ودائما ما تكون نبيلة، حسب ما ورد في تعريف گو گِل لها- المترجم)

أثناء اضطرابات الحرم الجامعي المرتبطة بحرب فيتنام، كان گوَهين أحد الرؤساء القلائل لجامعة كبرى، الذي لم يستدعِ الشرطة أبدا الى الحرم الجامعي لقمع الإحتجاجات، وكان فخورا بذلك بحقّ. واصل حواره الودّي مع أولئك الموجودين في المعسكر المناهض للحرب، بمن فيهم أنا نفسي، وبأمميّة صادقة (لقد وُلد في الهند وعمل لاحقا كسفير أمريكيفي دلهي بعد التخلي عن رئآسة جامعة پرِنستُن)، والتزامه بالتعليم وبعالم مسالم وحقوق الإنسان، جعلته محبوبا عند أولئك القلائل من الذي اعتقدت أنّهم في «معسكر اليسار». هذا طبعا على الرغم من أنّه ينتمي الى نخبة الواسپ، التي تدير الجامعة دائما منذ تأسيسها، وعلى الرغم من جهوده الإصلاحية، على ما يبدو أكثر ثقة وشعورا بالراحة مع

اعضاء النظام المعمول به.

كانت حياته المهنية في حدّ ذاتها غير تقليدية لكنّها مثيرة للإعجاب بل ورائعة. كان في منتصف الثلاثينيات من عمرة كأستاذ مساعد في قسم الكلاسيكيّات في الجامعة حين حُرِم من تعيين المدة المتاحة. يبدو أنّه خسر أكاديميا في تنافس مع زميله الشاب في الكلاسيكيّات. وبدلا من الإضطرار الى البحث عن وظيفة في مكان آخر، وفي خطوة مُذهلة بالنسبة لِپِرنستُن، تمّ اختياره من قبل مجلِس أمناء الجامعة ليكون الرئيس القادم، على الرغم من صِغر سنّه. كان گوهين اختيارا رائعا، حيث كان مظهره وسلوكة مناسبين للظهور في متحف الشمع كرئيس لجامعة پِرنستُن، وفي نفس الوقت رئيسا قادرا على التغيّر مع الزمن. لم يتمّ الكشف عمّا إذا كان سيتم اختياره ليكون معروفا على أنّه من سيُغيّر المؤسسة. ربّما تمّ اختياره على وجه التحديد، لأنّه كان يُعتقَد أنّ لديه المؤهلات اللازمة لإجراء التغييرات، التي طال انتظارها في پِرنستُن. وعلى أيّة حال، جدث ذلك وكان گوهين الوكيل الرئيسي للتغيير وأميرا للكياسة خلال فترة رئاسته للجامعة.

لم تكن الحياة الأكاديمية في الجامعة مختلفة تماما على السطح عمّا جربته بالفعل في جامعة ولاية أوهايو، باستثناء أنّه كان هناك وقت أقلّ وميل للصداقة وما يمكن تسميته «الحياة الفكريّة والثقافية الترفيهيّة». كانت المرافق التعليمية والرياضية من الدرجة الأولى، والصغر النسبي للحرم الجامعي يجعل كلّ شيء في متناول اليد عن طريق المشي أو ركوب الدرّاجة، بما في ذلك المسافة من المنزل الى المكتب. لقد طوّرت أصدقاء التنس والأسكواش أسرع ممّا وجدت من زملاء مناسبين في القسم. لم أقم خلال السنة الأولى بإحداث أيّة «موجات». قمت بعملي ودرّست سمنارا صغيرا في غرفة مخبّاة في اعماق أكوام مكتبة فايرستون العظيمة. إستأجرت منزلا صغيرا من الشخص الذي حللت مكانه كاستاذ للقانون الدولي. كنت أعيش بمفردي في البداية مع عدد قليل من الأصدقاء في المدينة، ولا أحد من الجامعة. فوجئت بوجود مزيد من الأشخاص في هيئة التدريس في المدينة، ممّن كانوا زملائي في مدرسة فيلدستَون الثانوية في نو يورك. كانوا أكثر من الذين عرفتهم في جامعتي پَنسِلڤَينيا وكلية الحقوق

في ييل ورُبّما من أكسِتَر وگراتُن ولورنسڤِل. على الرغم من أنّني لم أقم بإجراء مسح قطّ.

بدأت أشعر بالإنزعاج تدريجيّا من الطريقة التي حظى بها محللو السياسة، الذين لهم إتصالات بواشنطن، بامتيازات على المواطنين المنخرطين بالنشاطات، وأكثر من ذلك تقريبا من المحرّمات على النشاط المدني لأعضاء هيئة التدريس. لقد انزعجت من تلك المعايير المزدوجة، وهي جزء من الشفرة غير المكتوبة التي اتّبعها جميع زملائي تقريبا سواء بوعي أوبغير وعي. لقد تمّ التعامل مع هذه المواقف على أنّها اوراق اعتماد إيجابية وعامة على الملاءمة والمكانة لدعوتهم للتحدّث أو التشاور مع الأقوياء سياسيّا وماليّا، لكنّهم مشكوك فيهم والإتصال بهم غير صحيح من الناحية السياسية وتعريف الذات على أنّها فكريّة عامة تتحدث «الحقيقة الى السلطة». في هذا الصّدد، كان من الرائع دائما أن تتمّ الدعوة للتحدّث في مركز أبحاث في واشنطن، أو حتى أفضل من ذلك أن يعمل الأستاذ على سبيل الإعارة في أيّ قسم من مؤسسة الأمن القومي، بما في ذلك وكالة المخابرات المركزية، أو حتى التعاون خارج الكاميرا مع صانعي السياسة. لم يكن أمرا لطيفا أن يُنظَر اليكَ على أنّك منشقّ عن إجماع الحزبين، الذي وضع حدودا للمناقشة «المسؤولة». كان من الواضح أنّ حرّاس الحرم الجامعي إعتبروني لأوّل مرّة لاعبا في فريق الحرب الباردة، وربّما لأنّ أكثر المؤيدين لي صوتا عندما تمّ تعييني لأوّل مرّة، كانوا متحصنين بشكل واضح. وفقط تدريجيّا أشتهرتُ بكون هويتي منشقّا في المجال العام. عندما حدث ذلك، تمّ التسامح معي أوّلا، ولكن سرعان ما تمّ تهميشي على مستوى المؤسسة بكاملها.

صحيح، لقد كانت حقبة الحرب الباردة، وبصرف النظر عن الإنغلاق الأيديولوجي الذي ساد في حينه، كانت تسمية مرشّح محتمل لعضوية هيئة التدريس «ماركسيّا» بحدّ ذاتها كافية لحذف اسمه من قائمة قصيرة للمرشحين المُفضّلين. بعد الخضوع لمثل هذا التحيّز في اجتماع اعضاء هيئة التدريس في القسم في مناسبة واحدة على الأقلّ، دافعت عن مرشح للتعين أمام اعضاء هيئة التدريس قائلا، «هذا خطأ. إنّ الرجل ليس ماركسيّا، أو بأيّ حال من الأحوال ايديولوجيا». في الماضي، شعرت بالخجل لأنّني لجأت الى هذا النوع من

التفكيـر، والـذي يؤكّـد ضمنيّـا صحّة الفرضية الرئيسـية لإجماع هيئـة التدريس بأنّهم حرّاس البوابة. يحرجني الآن أنّني كنت أعكس المزاج الأكاديمي المطابق، الذي جعله معادلا أكاديميّا للخطيئة الأصلية لإضفاء الشرعية على وجهات النظر الماركسية أو حتى الگرامشية Gramscian، التي كان ينبغي أن ترحّب بها مؤسسة أكاديمية واثقة من نفسها مثل جامعة پِرنستُن.

إعتقـدت حينهـا، بـل وأكثـر مـن ذلـك الآن، أنّ هـذا النـوع مـن التصحيح السياسي الأكاديمي حرم الطلاب من تحفيز الإتصال التربوي بسلالات متنوعة مهمّة دوليا من الفكر التقدّمي، وكذلك حرمان مجتمع الحرم الجامعي من فوائد التعدديّـة. بالطبـع كان مـن المقبـول أن تكون ناقدا للماركسـية أو اللينينية بروح «إعـرف عـدوّك». فـي جامعـة پِرنسـتُن، كان أحـد أفضل منتقـدي الأيديولوجية السـوفيتية علما متميّزا في شـخص روبرت سـي تُكَر. أصبح بوب معروفا على المسـتوى الوطني ويحظى باحترام كبير بعد نشـره السـيرة الذاتية لسـتالِن، التي جـاءت فـي عـدة مجلـدات. كان بوب مناصرا للحريـة، ومن المفارقات الى حدّ ما، أنّه كان أقرب أن يكون رفيق روحي السياسي في الستينات أكثر من أيّ عضو آخر في قسم السياسة. إنضم بوب الى معارضة حرب فيتنام علنا. كما تعاونّا في اصدارين يدعوان الى نزع السلاح النووي للسياسة الخارجية الأمريكية بِدءاً من تبني تعهّد «عدم الإسـتخدام الأول» المُعلن. نُشِـرت جهودنا في سلسـلة بيانات داخليـة وظهرنـا جنبـا الـى جنب مع إثنين من المتخصصين الأمنيين الرئيسـيين، اللذين عارضا مقترحاتنا بشأن نزع السلاح.

أعطى كلّ من تُكَر وستيڤِن كَوِن، المحاضر اللامع والمترجم الرائد للفكر السـوڤَيتي المعاصِر، پِرنسـتُن فهما مُسـتنيرا وواضحا للغاية من ممارسـة الحرب الباردة. وهو أمر غير معتاد في تلك الفترة. لم يكونا بين أولئك الذين أرادوا أبقاء الرتب الأكاديمية في العلاقات الدولية والنظرية السياسية خالية من الماركسيين. تبنّـى كَـوِن وتُكَـر خطابـا لِبراليـا، كما لو لـم تكن هناك طريقـة موضوعية أخرى لمناقشـة الواقع السياسـي. قد يفاجئ الكثيرين أنّ الفلاسـفة السياسيين وزملائي في قسـم العلاقات الدولية في الجامعة، كانوا أكثر عداء للمسـاهمات الأوروپيّة القاريّة في فهمنا للواقع السياسي أكثر من الماركسيّة اللينينية. كان والتَر كوفمَن،

الباحث البارز في فكر نيچَه، الإستثناء الوحيد في الجامعة بأكمَلِها. كان يُنظر إليه على أنّه شيء من الفضول الفلسفي، لا علاقة له بالفلسفة المعاصرة السائدة. كان يتمتع بمتابعة كبيرة بين القرّاء العامين والطلاب الجامعيين، ولكن تمّت معاملته في جامعة پرِنستُن كزخرفة فلسفية غربية لأنّ اهتماماته المهنية لم تتطابق مع اهتمامات ڤيتِجنشتاين وكواين ورَولز وديوي، وقوانين القرن العشرين المصاحبة لها، الپراگمَتية والليبرالية والمنطق واللغويات.

كانت هناك جوانب أخرى مقلقة خلال سنواتي الأولى في جامعة پرِنستُن، بما في ذلك التعلق الإشكالي بمركز الدراسات الدولية، والذي حدث بشكل غير مريح أن يكون الراعي المؤسساتي لدعوتي الأصلية بالمجيء لهذه الجامعة. كان المركز تحت إشراف كلاوز كَنور، العقلاني في الأسلوب الفكري والتقليدي في محاذاة الحرب الباردة والإستبدادي الى حدّ ما كمسؤول. حقق المركز تحت قيادته سمعة سيئة كمركز أبحاث رائد للدراسات الستراتيجية، على الرغم من أنّه يقع خارج واشنطن وغير مرتبط بالحكومة. قام كلاوز بتأييد «مفكّري الحرب» مثل هِرمَن كان وتوم شِلِنگ وبِرنَرد برودي وألبرت ولِستتر وألِيكس جورج. كان كلاوز متخصّصا في حلف الناتو ومناهضا للشيوعية بشدّة ومتحمّسا لمؤسسة راند RAND. ولذلك اعتبر أنّ الواقعية التاريخية لهَنري كِسِنجر قديمة الطراز وغير مهنيّة. كان مهاجرا ألمانيّا غير يهودي مناهضا للنازية، وأراد أن يعتبره الآخرون لِبراليا اجتماعيا ومنفتح الذهن. لقد كان الأوّل وليس الأخير ممّن يظهرون ازدراءلآراء الذين رفضوا الدراسات الستراتيجية للحرب الباردة وافتراضاتها الأيديولوجية كمؤشرات مناسبة لتشكيل السياسة فيما يتعلق بالأمن القومي والدولي.

أيّد كلاوز الإتجاه السائد للفكر الستراتيجي واستخدم لغة البِنتگون، التي تدّعي العقلانية، ودافع عن استخدام عقيدة الردع النووي والتحالفات الأمنية لتعزيز اهداف السياسة الخارجية الأمريكية. وقبل كلّ شيء، دعم السعي لتحقيق التفوّق العسكري في تنافس الأسلحة، الذي ركّز على أوروپا مع السوڤيَت. وجدت نفسي محشورا بين جهودي للتوافق مع الجامعة وعدم ارتياحي المتزايد فيما يتعلق بالبيئة الفكرية، التي شكلها صقور الحرب الباردة وسيطرتهم الصارمة

على الخطاب الأكاديمي حول السياسة الخارجية والأمن القومي في تلك السنوات، والتي امتدت ايضا لتشمل مناهج الإعلام. امتازت هذه المجموعة من المفكّرين من دعاة الحرب بأنّها ذكيّة للغاية، حيث تبنّت نهجا تحليليّا مخيفا ورائعا ومنفصلا عن الدبلوماسية والستراتيجية وصنع الحرب. إعتقدتُ أنّه كان من الممكن أن ينتهي الأمر بيدها بسهولة، إذا اعطيت النفوذ الكامل، ممّا ينتج عنه خراب لا يوصف للعالم بأسره.

وجدت نفسي مجدّدا متخوّفا مرّة أخرى من الخطر الكارثي في حقبة ترامب وحاشيته من المستبدّين والشوفينيين والعسكريين، أكثر ممّا كان عليه الحال خلال الحرب الباردة. ظهر المواطنون في المجتمع الأمريكي نائمين سياسيّا ومشتتي الإنتباه وغير مطلعين على حقائق الأمور. ومن جهة أخرى، من السهل اقناع العسكريين بدعم الدبلوماسية العدائية. يبدو أنّه ما إذا كان ردّ الفعل المناهض للعنصرية في ضوء مقتل جورج فلويد في شهر مايس من عام 2020 على أيدي الشرطة سوف يُترجَم الى نهج دولي أقلّ عسكرية، يبدو مشكوكا فيه الى حدّ كبير. وذلك لأنّ التركيز الجديد لإجماع السياسة الخارجيّة بين الحزبين يدفع نحو المواجهة مع الصين، وهذا ليس فقط من الناحية الجيوسياسية. بل هو توجّه غير مسؤول لكنّه يصرف الإنتباه عن إلحاح القضايا المحلية التي يتم دفعها الى الخلف.

يجب عليّ أن أعترف بأنّ عدم نضجي الفكري والسياسي الخاصّ بي، فضلا عن المواقف التقليدية الى حدّ ما بصدد الشؤون العالمية، دفعتني الى الغربة بصمت خلال سنواتي الأولى في جامعة بِرنستُن. كنت افتقر الى الثقة في أن أكون معارضا بشكل علني، وكانت لديّ بعض الشكوك حول ما إذا كان عدم ارتياحي اتجاه تلك الآراء السائدة له ما يبرّره، وربّما كنت افكر أحيانا بأنّني مخطئ. على الرغم من كوني اعتبر نفسي تقدّميا بعد الفترة، التي قضيتها في جامعة ولاية أوهايو، إلّا أنّ التعبير عن افكار مخالفة لما يدور حولي كلّ يوم كان تحدّيا لم أتمكّن من مواجهته. لم أكن مستعدّا بعد لخوض حرب مفتوحة مع المفكرين الستراتيجيين والواقعيين السياسيين، الذين سيطروا على الخطاب في الجامعة. إقتصرت على أن أكون شبه دخيل متجهّم الى حدّ ما، إلى أن دفعت

حرب فيتنام وجهات نظري الى المخالفة في العلن.

لهذه الأسـباب، قد يُتوقع أن أكون الآن متناقضا بشـأن كتابي الأوّل الذي نشرته بعنوان، «القانون والأخلاق والحرب في العالم المعاصر (1963)». تناولت العديـد مـن المناقشـات السياسـيّة المتعلقة بالأمن القومي. وفـي النهاية تقدّمت بطريقة ترويض الى حدّ ما، لكنّه وفي حالة جوّ الحرب الباردة كانت تلك الطريقة مثيرة للجدل الى درجة ما لكونها حجّة لزيادة أهميّة القانون والأخلاق في إدارة السياسـة الخارجيـة الأمريكيـة. كنـت لا أزال حبيس النظـرة المهيمنة للواقعيين السياسيين، الذين اعتقدوا أنّ العالم يعمل وفقا لمعتقدات هنري كِسِنجَر وجورج كَنَن أو زملائهما الأكثر توجّها نحو العلوم الإجتماعية في مركزي الأبحاث في Rand وفي Beltway. كان الإعتقاد الواقعي الأساسي هو أنّ تاريخ العالم والأمن القومي يعكسان قدرات القوّة الصارمة والمواجهات، وأنّ القانون والأخلاق في أوضاع الحرب/السـلام غير ذات صلة تقريبا، باسـتثناء أدوات الدعاية العدائية. وهذا يعني أنّ الفاعلية السياسـية والنفوذ الجيوسياسـي يتركّزان في قدرات صنع الحـرب للـدول ذات السـيادة الكبـرى. وهـذه وجهة نظر موجّهة مـن أعلى الى أسـفل الديمقراطيـة والأمـن Top–Down View of Democracy and Security فـي أواخر القرن العشرين.

من هذا المنظور، كان الإعتقاد بأنّ القانون والأخلاق يشتتان الإنتباه بشكل أساسي، واحيانا خطيران. في الواقع، بين مفكّري الحرب والستراتيجيين الكبار ذوي النفـوذ الأعظـم، قلّـل اعتـدال كَنَـن المقـارن من نفوذه الى حـدّ كبير، على الرغم من الإعتراف به باعتباره المُحلل الأكثر إدراكا وإنسـانية لقضايا السياسـة العالمية. لقد نُظر اليه في السـابق على أنّه المهندس الرئيسـي لصنع السياسـات في الحرب الباردة والتنظير لها. في مرحلة الإحتواء، ومع مرور السنين، أصبح كَنَن متشـكّكا بشـكل متزايد في المغامرات العسـكرية الأمريكية، فتلقى بدوره انتقـادات مـن مفكـري الحرب المتسـلطين علـى أنّه عتيق الطراز في الأسـلوب وبعيدا عن المقتضيات الستراتيجية الحاليّة. على عكس العسكريين في الحرب الباردة، رفض كَنَن اعتبار استخدام الأسلحة النووية والستراتيجية الكبرى عموما بـروح العمـل كأمـر معتـاد، في الحقيقـة اعتبرها ليس أكثر مـن لغز فكري جديد

يختبر قدرات الفكر العقلانية ولا يختلف جوهريا عن الصفات العقلية اللازمة لمواجهة تحدّيات ألغاز مُكعّب روبِك Rubik's Cube.

في المقابل، كان كِسِنجَر مترجما ماهرا لهذا النوع من الواقعيّة البالستية الى لغة تهيمن على الطبقة السياسية في مجلس العلاقات الخارجية، والدولة بكاملها. يمكن للإدارة والمصالح العليا للبِنتكون واجهزة المخابرات أن تفهم وتبني وتتصرّف على أساسها. أحدثت النسخة المنشورة من قبل مجموعة دراسة مجلس العلاقات الخارجية والأسلحة النووية والسياسة الخارجية لعام 1957، التي كتبها كِسِنجَر، ضجّة كبيرة بسبب استعدادها غير الخجول لقبول مخاطر وتكاليف خوض حرب نووية محدودة في أوروبا، بدلا من إظهار أيّ شيء كإشارة الى الإستسلام للضغوط السوڤيتية أو السعي وراء شيء «مجنون» مثل اقتراح إزالة الأسلحة النووية عن طريق معاهدة نزع السلاح، التي يتمّ التحقق منها.

اللحظة/الحركة المناهضة للحرب

اصبحت عملية تغيير پرِنستُن من ماضيها الذكوري متشابكة في الستينات مع الصعود المؤقت وغير المتوقع لنشاط الطلبة المناهضين للحرب. لطالما كان العمق السياسي لهذا النشاط مشكوكا فيه لأنّه بدا مرتبطا ارتباطا وثيقا بضعف هؤلاء الطلبة، وكثير منهم من خلفيات ذات امتيازات، الى التجنيد العسكري المعمول به في ذلك الوقت، مخاطرين باصابتهم وموتهم في حرب لا تحظى بشعبيّة على نحو متزايد لكونها غير ضرورية. جعلت هذه المصلحة الذاتية من دون شكّ إلتزامهم بالراديكالية السياسية مشروطا للغاية، واستجابة معينة على الرغم من صدقها، إلّا أنّها لا يمكن الإعتماد عليها كدليل للمستقبل. كانت النتيجة على المدى القصير هي التخفيف من العلامة التجارية لنخبة پرِنستُن بسبب ما اعتبره التقليديون، وخاصّة في صفوف الخريجين بمثابة عروض تنذر بخطر التطرّف. تلقيت الكثير مَن الشهرة غير المبرّرة وغير المرغوب فيها في تلك الفترة، وكان معظمها ذا طبيعة غير مواتية نتيجة تعليقات الخريجين الغاضبة، التي حرّض عليها بعض اعضاء هيئة التدريس المحافظين الذين استاءوا من تحول

الحرم الجامعي الى «حركة تسييس» Becoming Politicized. بالطبع كان التغيير في پرِنستُن موضع استياء من قبل الحرس القديم، ولا يُعتبر شيئا أكثر جدارة من التحدّي «الصحيح سياسيّا» للطريقة التي كانت تسير عليها الأمور دائما. كانت حقبة ڤيتنام مختلفة، حيث لم يكن الجوّ المناهض للحرب في پرِنستُن موجّها الى الجامعة ولكن الى الحكومة، واستاء الكثير من الخريجيين لهذا السبب. كنت هدفا للردّ المحافظ، حيث اصبحت خارج الحرم الجامعي أكثر المعارضين ظهورا لحرب ڤيتنام قدر ارتباط الجامعة بالأمر.

أسبوعا إثر اسبوع في أواخر ستينات القرن الماضي، حملت مجلة خريجي پرِنستُن الأسبوعية اللامعة رسائل من خريجين غاضبين ينتقدون بشدة دوري في الجامعة، وكتبها غالبا مواطنون من مدينة پرِنستُن ممّن تخرجوا قبل وقت طويل من التحاقي بالجامعة. لقد ألقوا باللوم عليّ لإفساد الجيل الحالي من الطلبة من خلال ارتباطهم بالعلم والكنيسة والعائلة. نتيجة لوعظي في صفوفي الدراسية، قيل أنّ الطلاب الواعدين في السابق قد أصيبوا بخيبة أمل، ممّا جعل حراس تقاليد پرِنستُن هؤلاء يعتقدون أنّ أمريكا يجب أن تمثلهم. صحيح أنّه في تلك الفترة، تبنّى الطلاب نوعا من السياسة الثوريّة الرومانسيّة. التي غالبا ما لم تتحمّل الكثير بعد اسبوعهم الأوّل للعمل في بنك أو في مؤسسة مالية في وول ستريت، عندما يبدأون في تقدير الفرص التي تنتظرهم من خلال العودة الى «حظيرة» المحافظين. وتطلب ذلك فقط أن يتخلوا عن ثورة المراهقين ضدّ النظام الإجتماعي والسياسي والإقتصادي القائم. بالطبع كان هناك العديد من الإختلافات في الدوافع ومستويات الإلتزام التي عكست الإختلافات في الشخصية والطبقة والعرق والشدة النسبية للطموح.

كان العديد من الزملاء في الجامعة، لا سيّما آرنو ماير وستيڤ سُلابي وستانلي شتاين وشِلدُن هاكني، الذي اصبح لاحقا رئيسا لجامعة پَنسِلڤينيا ثم مديرا لمكتبة الكونگرِس، أكثر انخراطا في النشاط المناهض للحرب في داخل الحرم الجامعي أكثر منّي، لكنّهم كانوا أقلّ شهرة خارجه. عمل اعضاء هيئة التدريس هؤلاء كمرافقين سياسيين غير رسميين في المظاهرات والمواجهات مع أفراد أمن الحرم الجامعي. لقد دعموا مبادرات الطلبة، الذي عارضوا أن

يشمل الحرم الجامعي نشاطات معهد تحليل الدفاع، التي يقوم بها مركز ابحاث حكومي يقوم بابحاث سريّة لمكافحة التمرّد. كان يُنظر لتلك النشاطات على أنّها مرتبطة عضويّا بحرب ڤيتنام. تحمّلت الجامعة بعض المخاطر الشخصيّة من خلال دعم الطلبة لحرق بطاقات التجنيد، ممّا يرمز الى إدانتهم لحرب غير عادلة وغير قانونية ورفضهم للخدمة العسكرية خلال سنوات ڤيتنام، حتى لو كان ذلك يعني عقوبة السجن أو الفرار من البلاد. في حين جمعت الأراء السياسية أعضاء هيئة التدريس هؤلاء الى صفوف الطلبة، فإنّ مشاركتهم عبّرت ايضا عن نظرة الوالدين المحلية، التي خلقت مشاعر المسؤولية لحماية الطلبة ودعمهم، خاصّة أولئك الذين واجهوا مخاطر سياسيّة لأسباب تقدّمية عرّضتهم لردود إنتقامية محتملة.

وبقدر ما اعرف من بين هؤلاء المؤيدين للنشاط الطلابي، فإنّ ستيڤ سُلابي هو الوحيد الذي «عوقِب» من قبل قسمه في كلية الهندسة. تمّ حظر ترقيته بشكل غير معقول لمرتبة استاذ، ويبدو أنّه حُرِم من إجازات الغياب الروتينية والزيادات السنوية لمرتّبه في عرض مؤسسي لرفض نشاطه السياسي. كان ستيڤ رجلا جيّدا يتمتع بمُثِل تقدّمية محسوسة بعمق وصادقا بشكل لا غبار عليه ومتواضعا، تجلى إحساسه بعدم التوافق الطبقي داخل بيئة الكلية المتطورة، التي سادت في برِنستُن. كان ستيڤ واضحا في الكلام وبسيطا في اللباس، وسواء كان دقيقا أم لا، فقد كان مظهره وطريقة سلوكه تكشف عن خلفية من الطبقة العاملة أكثر من مظهر واسلوب استاذ في جامعة نموذجية للنخبة. لفد كان نقيضا للصورة النمطية لسترة Crew Tweed Jacket، بينما كان شِلدُن هو تجسيدها الرشيق بكونه رياضيّا موهوبا وارستقراطيا يتصرّف بطريقة حضارية وله جاذبية افراد النخبة. ومع ذلك نُحّي ودُفِع للركود الوظيفي. لم يكن مفاجئا بالنسبة لي أنّه على حدّ علمي لم يتعرّض لعواقب وخيمة نتيجة وقوفه تضامنا مع الطلبة، الذين احرقوا بطاقات التجنيد الخاصّة بهم، وهي جريمة فدرالية. ولم يفعل آرنو وإثنان آخران من ذوي المكانة العلمية والأسلوب الإجتماعي شيئا يعكّر صفو اسلوب حياتهم ومكانتهم الرفيعة والقويّة في الجامعة.

كان «نشاطي» في فترة الحرب الباردة «أكاديميّا» بالكامل تقريبا. وشدّد

على هويتي المهنية كخبير في القانون الدولي في الأماكن العامة، كلما سنحت لي الفرصة. معارضتي المبكّرة لحرب ڤيتنام، مقترنة باحترام كوني عضوا في هيئة التدريس في پرِنستُن ومتخرجا في كليات الحقوق العليا في البلد، جعلتني جميعا مصدرا مفيدا ضدّ الحرب في تلك الفترة. لقد ترأست المجلس الأكاديمي للمحامين المناهضين لحرب ڤيتنام، ثمّ ارتبطت لاحقا بشكل بارز بإعلان من صفحتين نُشِر في صحيفة الواشنطن پوست يحثّ على إقالة رِچَرد نِكسُن بسبب انتهاكه للقانون الدولي وذهبت مرتين ضمن وفدي سلام الى ڤيتنام الشمالية في عامي 1968 وثانية في عام 1972. أدليت بشهادتي أمام سلسلة من لجان الكونگرِس المعنيّة بجوانب الحرب، بما في ذلك لجنة العلاقات الخارجية القويّة في مجلس الشيوخ برئاسة السَنَتَّر وِليَم فُلبرايت، الناقد البارز في الكونگرِس لحرب جونسُن وسياسته، وتحدّثت كثيرا خلال التدريس بالجامعة وخارج الحرم الجامعي. نشرت العديد من المقالات في الدوريّات القانونية ووسائل الإعلام. كما تلقيت نسخة زيروكس من **أوراق الپنتگون** من قبل دانيَل إلزبَرگ مباشرة قبل وقت قصير من ظهور مقتطفات من الكتاب في الصحف الوطنية، بما فيها نو يورك تايمز. كما ترأست لجانا معنية بالحرب والتدخّل في الجمعية الأمريكية للقانون الدولي، واشرفت بحكم منصبي هذا على تحرير سلسلة من أربع مجلدات بعنوان **حرب ڤيتنام والقانون الدولي**، نشرتها مطبعة جامعة پرِنستُن بين الأعوام 1968 الى 1975.

ربّما تكون أكثر اللحظات إرضاء بالنسبة لي في هذه التجربة المبكّرة للإنخراط السياسي ناتجة عن زيارة قام بها كِنزابورو، الكاتب الياباني والناشط المناهض لحرب ڤيتنام، والذي حثتني على دعوته صديقتي العزيزة يوشيكازو سكاموتو، أحدى قادة حركة السلام اليابانية، التي التقيت بها وعرفتها سابقا. في عام 1967، وصل اهتمام الحرم الجامعي بحرب ڤيتنام الى ذروته. تمكّنت من اقناع كِنزابورو بالقاء محاضرة تلقائية غير عاديّة، جمعت جمهورا كبيرا بما في ذلك طلبتي في أحد مقرراتي الدراسية. تألفت المحاضرة من مزيج رائع من الأدب والسيرة الذاتية والسياسة، واطلق عليها عنوان «**موبي دِك وهُكلبَري فِنّ** وحرب فيتنام». نشأ عنصر السيرة الذاتية من إفصاح كِنزابورو عن أنّه تعلم

الإنكليزيـة مـن تلكمـا الروايتين، اللتين اعطاهما لـه جندي أمريكي أثناء احتلال اليابان بعد عام 1945. وإذا وضعنا جانبا موضوع اللغة الإنكليزية، دمج كِنزابورو موضوعـات الروايتيـن لإنتـاج نسـيج حيوي، يصوّر حرب فيتنـام على أنّها براءة أمريكية ضلت الطريق، كما في هُكلبَرِي فِنّ من خلال الشروع في مغامرة مؤلمة وكما في موبي دِك في صورة رحلة في المحيط للتدمير الذاتي من خلال تدمير الشـرّ الوهمي غير المادي. هذه الطريقة الأدبية «لرؤية» تجربة ڤيتنام اسـتقصت أعمـاق فهـم المـزاج الأمريكـي السـائد من الهـوس في مناهضة الشـيوعية دون المسـاس بنيـران الجـدل السـاخنة. لقد كان أداء مذهـلا لاقى صدى عميقا لدى الجمهور، خاصّة الحزبيين. وعندما فاز كِنزابورو بجائزة نوبل للآداب، شـعرت بسعادة غامرة نيابة عنه.

جعلتني مثل هذه الأنشطة هدفا سهلا للمدافعين المتحمّسين للحرب وكذلك جماعـة «الأغلبيـة الأخلاقيـة»، الذيـن كانوا ضدّ وجهة النظـر العالمية المناهضة للحرب، وخاصّة انتشار الثقافة المضادّة، التي تُعتبر تشجيعا على الحرية الجنسية والشعر الطويل والمصبوغ وحقوق المثليين والمخدرات والهيبيين، الى حدّ أكبر بكثيـر ممّـا كانـوا يدعمون مـا كانت تفعله الولايات المتحدة فـي الهند الصينية. كان وِليَـم أف بَكلـي، الأب الروحـي لحركة محافظة جمعت زخما متزايدا على مرّ السنين، ويعود هذا الزخم اليه وهو مؤلف كتاب **الله والرجل في جامعة ييل** عـام 1951. وهـو هجـوم مؤثـر على اللِيرالية العلمانية فـي الجامعات الأمريكية، لردّ فعل يميني لاحق على الأبعاد المناهضة للمؤسسة في حقبة ڤيتنام. اصبحت هدفـا مفضـلا لبَكلـي، الـذي كتـب ما لا يقلّ عـن اربعة أعمدة في مجلة ناشِـنَل رِڤيـو، التـي أسّسـها وحرّرهـا. كرّس نفسـه للتأكيد على أنّ افتقـاري الى الوطنية التقليدية يجسّـد الخطأ الذي حدث في الأكاديمية الأمريكية. اتهمتني هجمات بكلي بكوني نموذجا لاساتذة الأبراج العاجية، الذين يقوّضون المشاعر القومية المفترضة ذات الدم الأحمر والضمير المدني للطلبة والأمّة خلال فترة الحرب. كان عتابه حادّا ومتعلما، لكنّه مثير للسخرية في طريقته، وانتقدني لكوني من ذلك النوع من النخبة، التي جسّـدها هو بذاته. إعتقد بَكلي، وهو كاثوليكي ممارس، أنّ اللِبراليين العلمانيين في الجامعات كانوا يستغلون مناسبة الحرب غير الشعبية

لتقويض انماط السلوك الفاضل في الجمهورية الأمريكية.

بعد فترة وجيزة من مهاجمتي في اجهزة الإعلام في عدة مناسبات، إلتقينا صدفة اثناء انتظار دورنا في مكتب حكومي حين تمّ استدعائي للإدلاء بشهادتي أمام لجنة الكونگرِس، التي عقدت جلسات استماع حول حقوق الإنسان والحرب الباردة. إندهشت حين استقبلني كما لو كان صديقا قديما، ممّا أدّى الى «نزع سلاحي» على الفور. لم أقدر حتى على تذكيره بعدد المرّات التي أدان فيها سياستي وأهان شخصيتي في اعمدته المنشورة في الحياة الواقعيّة. أعتقد أنّ شخصية بَكلي الأجتماعية الأرستقراطية والفعالة الى حدّ ما، كانت لها الأسبقية على سياساته الرجعية. من الواضح أنّه كان قادرا على إدارة النقاشات والأحاديث بطريقة ذكيّة، وفي هذا المكان بدا أنّه افترض أنّ انتمائي الى جامعة پِرنستُن يؤهلني تلقائيا كشخص يشارك ما يكفي من اهتماماته وخلفيته الدنيوية حتى أستحقّ التحدّث معه، على الأقلّ في مثل هذه المناسبة من الإجتماع العرضي. في الواقع، تحدّثنا بشكل مناسب عن هذه المرّة في مناسبة أخرى فقط. بعد نحو عقد أو نحو ذلك، كنت عائدا من السويد الى الولايات المتحدة، وكان بكلي وزوجته جالسين بالقرب منّي. فكّرت في إعادة تقديم نفسي ولكن تذكّرت الأعمدة السيئة والمعاملة المتعجرفة التي يعامل بها معظم ضيوفه في برنامجه التلفزيوني Firing. Line، فاخترت الإستمتاع بمشاهدة فلم على متن الطائرة بدلا من تجديد الرفقة معه.

في الواقع، لو حدث تشويه للعقول في تلك الفترة من التطرف في الأحرام الجامعية، لكان ينبغي أن يعكس مخاوف الخريجين. كان الطلبة المتطرفون هم من «أفسدوني»، حيث كان شغفهم أقوى بكثير وأفضل تعبيرا مقارنة بافكاري المعتدلة والواقعية لمناهضتي للحرب ومعتقداتي اللِبرالية. لقد وجدت هذا التحوّل نحو النشاط السياسي التقدمي بين الطلبة في جامعة پِرنستُن مشجّعا للغاية، حتى عندما تمكّنت من السيطرة على قلقي بأنّ مزاج الحرم الجامعي لم يكن أكثر من انحراف مؤقت للمصلحة الذاتية عن اعراف النخبة، وتصرّفت كما لو، وبالتأكيد كنت آملا، أنّ هذا التيّار التدريجي سوف يزداد قوة بمرور الوقت.

بصفتي ناقدا معروفا للحرب في ڤيتنام، دُعيت كثيرا للعب دور قيادي

في احداث الحرم الجامعي المتعلقة بالحرب والسياسة الخارجية، ونادرا ما رفضت مثل تلك الدعوات. لكنّني كنت مخطئا جدّا في افتراض أنّ الزيادة في نشاط الحرم الجامعي قد عبّرت عن تطوّر لا رجعة فيه وسيستمرّ في اتجاهات مرغوبة. كنت على خطأ وفكرتي ساذجة مفادها أنّ فشل حرب ڤيتنام سيولد زخما كافيا للترويج للبدائل التقدمية للمستقبل في أمريكا. أدركت لاحقا كم كنت بعيدا عن الثقافة السياسية الأمريكية، التي ظلت ميّالة نحو دعم الأولويات القومية والعسكرية والرأسمالية، بينما كانت بطيئة في التغلب على المظالم التمييزية الداخلية المرتبطة بالعرق والجنس والطبقة. كان صُنّاع الرأي في المجتمع الأمريكي حريصين دائما على نسيان مظالم الماضي، وكانوا يغضبون من أولئك المتطرّفين من أمثالي، الذين اعتُبِروا عازمين على تذكير الجمهور بالأخطاء والجرائم.

لذلك وعلى الرغم من المخاوف، فقد قللت من أهمية الحالة المؤقتة لهذا المزاج السياسي في الحرم الجامعي النشاط، ومدى اعتماده على مجموعة خاصّة من الظروف المقدّر لها أن تختفي بمجرد أن تصمت المدافع. لم يعد ذلك المزاج أبدا بقوة مماثلة خلال فترة وجودي في الجامعة الى حدّ التقاعد، ربّما لأنّه لم يحدث أبدا بعد ڤيتنام أن كانت المصلحة الذاتية لهؤلاء الطلبة المتميزين عرضة لتحدٍ يهدّد حياتهم. سرعان ما عادت الحياة المجتمعية في البلاد الى طبيعتها بعد ڤيتنام، خاصّة بعد إلغاء التجنيد الإجباري واستبداله بجيش محترف طوعي بالكامل. تمّت إعادة الحياة المهنيّة والنخبوية على الفور تقريبا الى طاولة اللياقة الجامعية، ممّا أعاد الى الموضة عملية «المشاجرة» 'Bicker المستخدمة في بِرنستُن لتوجيه دعوات «نادي الأكل» Eating Club للطلاب المفضلين. كانت نوادي الأكل هذه ملاذات بِرنستُن القديمة المؤلفة من الطلبة الذكور البيض من الطبقة العليا والعنصرية الخفيفة اللطيفة Genteel Racism، وهي طريقة بِرنستُن لضمان أنّ هؤلاء الطلبة المؤهلين، لن تفوت عليهم فرص الإستمتاع بالكحوليات والإثارة الجنسية والشبكات الإجتماعية لمنازلة الأخوة الآخرين في البيوت اليونانية Greek Frat Houses في الجامعات الأقل شأنا في كافة انحاء الأرض، دون التعرّض للإهانة باعتبارها «بيوتا للأخوّة». أبقت نوادي

الأكل طلبة پِرنستُن بعيدين عن الشبكات الإجتماعية الوطنية لتبقى متفرّدة، تشبه الى حدّ ما «السجلات الإجتماعية»، التي تميّز مواليدهم عن بقية مواليدنا.

تمّ التعبير عن الإتجاه المحافظ في الجامعة في ابعادها التعليمية والأكاديمية، التي تختلف عن الميل السياسي اليميني لمجلس أمنائها والخريجين الأكبر سنّا بشكل معرفي، عن طريق الإحجام المؤسسي بعدم تغيير المناهج التقليدية والأساليب التربوية. كانت هذه المواقف مصحوبة برفض عنيد لتضمين طرق التعليم المبتكرة أو التخصصات الناشئة مثل التصوير الفوتوغرافي والتأمّل Meditation ودراسات الأفلام. عندما يتعلق الأمر بالسياسة، سرعان ما اكتشفتُ أنّ هناك بعض الأقسام الرفيعة، مثل اللغة الإنگليزية والتاريخ، التي أيّدت روح پِرنستُن القديمة للتفاعل بين المحافظة الإجتماعية والفكرية والسياسية، بينما في القضايا الإجتماعية الواسعة مثل إلغاء الفصل العنصري والسياسة الخارجية، كانت الجاذبية في الحرم الجامعي أقرب الى ما يمكن أن أصفه بأنّه «لِبرالية الحرب الباردة».

ما الذي أثار رفض اعضاء هيئة التدريس على نطاق واسع، كما اقترح بالفعل، هو ظهوري في الساحات العامة، والذي اتخذ شكل الإنضمام للمواطنين الناشطين في القضايا المثيرة للجدل. اعتُبرت الدعوة السياسية من قبل عضو هيئة التدريس خروجا غير مرحّب به عن المفهوم الأوروپي أو Weberian للأستاذ باعتباره محايدا سياسيّا، بقدر ما يتعلق الأمر بالموقف العام. بالطبع كان هذا الإخصاء Neutering تاريخيا جزء من النضال التحرري في أوروپا لتحقيق الإستقلال الذاتي للتعليم، فيما يتعلق بالملوك والأساقفة الحاكمين. لقد عكس الحلّ الوسط، الذي تمّ التوصّل اليه في النضال لفصل المعرفة العلمانية بشكل عام عن التعدّي المهيمن والخانق للحرية في الصفوف الدراسية، من قبل الكنائس ذات النفوذ الوطني، خاصّة الكنيسة الكاثوليكية، ومعها الأنظمة الملكيّة.

لقد انجذبت لأوّل مرة الى الفكر الأوروپي كطالب جامعي في پَنسِلڤَينيا عندما شعرت بقرابة أدبية/فلسفية/عاطفية مع نيچَه وجاسپَروسارتر وكامو وتيلار دي شاردان ودريدا، أكثر بكثير من ميلي الى لوك وجون ستيوَرت مِل وهوبز ودِيوي. بذلت قصارى جهدي للإعجاب بمدرسة فرانكفورت بسبب تنظيرها

الإجتماعي الديمقراطي وما طُرِح فيها من آراء من قبل أدورنو وهوركهايمر وهابرماس. لكنّني لم اشعر بالحماس الكافي لعملهم أو وجودهم. على الرغم من الجهود الحثيثة والمحاولات العديدة، لم أتمكّن من قراءة أعمالهم بجديّة. باستثناء أدورنو وتحوّله الذهني اللامع. صدمني الآخرون، ربّما بشكل خاطئ، على أنّهم امتدادات إنسانية لعقلانية التنوير بدلا من ذلك النوع من الراديكالية المستنيرة روحيا، من التي كنت ابحث عنها، على الرغم من أنّه عندما تشكلت تلك الإعجابات كنت لا أزال في دور البحث. واصلت بحثي عن هوية سياسية وثقافية يمكنني تسميتها هويتي، وأنا مُتعبٌ اتدحرجُ جرّاء تلقى اللكمات.

«في خدمة الوطن»

يُفهَم عموما أنّ المثل الأعلى المحدّد لمهمة جامعة بِرِنستُن، «إنّ بِرِنستُن في خدمة الأمة». وهي عبارة تُنسب الى وودرو وِلسُن، الذي فقد مصداقيته مؤخّرا. تعني هذه العبارة أنّه من الجيّد أن يقوم عميد الطلبة بتجنيد الخريجين الجامعيين في وكالة المخابرات المركزيّة، أو أن يكون أعضاء هيئة التدريس بمثابة مستشارين منتظمين لمؤسسة راند أو البِنتگون. كان من المستهجن بشدّة أن يُظهر اعضاء هيئة التدريس دعهمهم للمتهرّبين من الخدمة العسكرية أو مَن يعارضون التجنيد لصالح وكالة المخابرات المركزية في الحرم الجامعي. في وقت لاحق، حتى المشاركة في حملة BDS(*)، المرتبطة بالحركة المناهضة للفصل العنصري في جنوب أفريقيا، أصبحت مثيرة للجدل إذا تمّ تجاوز الخطوط بين المسيرات الإحتجاجية الهادئة والعصيان المدني الرمزي. أدركت لاحقا أنّني اصبحت مهمّشا إداريا في الحياة الجامعيّة بسبب نشاطي بمجرّد أن اكتسب موقفي ضدّ

(*) تعني BDS المقاطعة وسحب الإستثمارات وفرض العقوبات. لقد كانت حملة عالمية أقرّتها الأمم المتحدة لممارسة ضغط اقتصادي على حكومة جنوب أفريقيا للتخلي عن سياسات وممارسة الفصل العنصري. تمّ إطلاق حملة BDS ثانية من قبل تحالف من 170 منظمة غير حكومية لمساندة القضية الفلسطينية في عام 2005، دون دعم من الأمم المتحدة. استهدفت الحملة الجديدة تحقيق الحقوق الفلسطينية بموجب القانون الدولي. تعرّضت حملة المقاطعة (ضدّ إسرائيل - المترجم) هذه في الولايات المتحدة وأوروبا الغربية للهجوم على أنّها معادية للسامية، وهو ما ينفيه منظّموها ومؤيدوها بشدّة.

حرب ڤيتنام اهتماما عامّا أوسع، بينما حصلت في كثير من الأحيان على دعم إنتقائي من خلال القنوات الخلفية للمستويات العليا في الجامعة. قيل لي مرّة بشكل غير رسمي من قبل مسؤول متعاطف وفي نبرة في منتصف الطريق بين الإهانة والثناء، أنّ نشاطي يكلف پِرنستُن مليون دولارا سنويّا.

أن تكون منبوذا الى حدّ ما في الحرم الجامعي، لم يكن شيئا سيئا تماما. لقد حرّرني على مدى سنوات عديدة من التعيينات الإدارية الجامعيّة الشاقّة، وإن لم يحرّرني من الأعمال الروتينية على مستوى القسم، الأمر الذي كان سيعني اجتماعات اللجان المملة والساعات التي قضيتها في صياغة التقارير. لست متأكّدا من سبب وضع مثل هذا التمييز، ولكن ربّما لأنّ انشطة الأقسام لا تلاحظ خارج نطاقها المباشر، بينما يُنظر الى الرؤية على مستوى الجامعةعلى أنّها نوع من التصويت على الثقة من قبل أولئك الذين يديرون المؤسسة.

أفلتت منشورات الأساتذة من الرقابة غير الرسمية ما لم يُنظر اليها على أنّها تحتوي على ميل «ماركسي». وحتى في مثل هذه الحالات، لم تحدث الرقابة إلا بشكل غير مباشر وفي مستويات ما قبل الحيازة على التثبيت Tenure، ولكن غالبا ما تكون عن طريق الرقابة الذاتية. وإذا حدث ذلك فسوف يتجلى في أشكال خفيّة من النبذ الأكاديمي. إنّ أيّ شخص مقدام بما يكفي للتفكير ضدّ بذور الأيديولوجية، سوف لن يتخطّى حراس بوابات جامعات النخبة، في المقام الأول.

إذا تجاوزت أبحاث اعضاء هيئة التدريس والعمل المنشور مجال الجدوى السياسية وفقا لمعايير واشنطن، فقد تمّ التعامل معها على أنّها «خيالية» وسرعان ما تمّ رفضها من قبل التيار الأكاديمي السائد باعتبارها مواد أحلام أو تمارين غامضة في الإنغماس في الذات، ولا تستحقّ اعترافا أكاديميا جادّا. تمّ تخصيص الدعم البحثي والثناء المهني لأؤلئك، الذين في العلوم الإجتماعية ممّن بنوا نماذج رسميّة أو ساهموا في دراسات تجريبيّة أو كمّية أظهرت اجتهادا مدفوعا بالبيانات جنبا الى جنب مع الإعتماد على المنهجيات «العلمية». كان من الممكن أيضا تناول العشاء مع نجوم الفكر السياسي والقانوني، إذا كان يُنظر للمتحدّث على أنّه يشرح بالتفصيل پراگمتية دِيوي أو لِبرالية جون رَولز.

إنّ حماسي وإصراري على سياسة خارجية أمريكية تقوم على القانون الدولي ومستجيبة للمبادئ الأخلاقية المشتركة على نطاق واسع، لم تتناسب مع النموذج السائد المستخدم لترسيم حدود المجال الممكن. تجاوزت هذه الدعوة خطين أحمرين. كان يُنظر اليها على أنّها نقد راديكالي وتخمين طوباوي في آن واحد، ممّا جعلني شيئا غريبا في مؤسسة مثل پرِنستُن، حيث تمّ خلط «العقل بالواقعية»، وكانت الواقعية معنيّة ضمنا بدعم المصالح الأمريكية على نطاق عالمي. إعتبر الأساتذة المهتمّون بالسياسة دعوتي للواقعية المقيّدة قانونيا على أنّها مثال غير مسؤول على «التغريد خارج السرب» في مسألة «التفكير الجماعي الأكاديمي»، لا سيّما فيما يتعلق بالميدان الفرعي المتصاعد «للدراسات الأمنية». قلت في الغالب لنفسي، «لماذا لا توجد دراسات للسلام؟» على الرغم من أنّني كنت أتوقع الإجابات الساخرة، إلّا أنّني لم اتوقف مطلقا عن طرح السؤال على نفسي. أنتظرت حتى قدم مفكّر السلام النرويجي يوهان گالتُنگ إجابات بارعة مقنعة من خلال توضيح السلام والعدالة.

على عكس المدافع السائبة المفترضة Supposedly Loose Cannons مثل نُعوم چومسكي وهَوَرد زِنّ، اللذين يمكن أن يحتقرهم «الخبراء» كهواة، كان عليّ أن أكون أكثر صدقيّة بسبب مهنيتي فيما يتعلق بالقانون الدولي والعلاقات الدولية. لقد جعل ذلك النقاد يركّزون على مواقفي المثالية أو المتناقضة المزعومة اتجاه العالم، بدلا من افتقاري الى المؤهلات ذات الصلة.

أتذكر كيف انتحى كارِل كايسن بي جانبا مرّة، وكان يعمل سابقا في معهد ماسَچوسِت للتكنولوجيا، ثمّ مديرا لمعهد پرِنستُن للدراسات المتقدمة، والذي اشتهر عالميا بعد أن هيأ وقت الحرب الملاذ الآمن لألبرت آينشتاين ومجموعة من علماء الفيزياء والرياضيات اللاجئين والمتميّزين للغاية. عُرِف كارِل في پرِنستُن بصفته العضو المتعجرف «الأفضل والأذكى» من مؤسسة كَيمبِرج للأدمغة Cambridge Brain Trust في فترة جون كندي. كانت هذه المجموعة، التي حلّت نفسها واختفت ذاتيا Self–Anointed Group، هي التي حلمت بحرب ڤيتنام ثمّ حاولت عكس التيّار قبل اغتيال كندي، دون جدوى.

أخبرني كارِل، بعد تناول العشاء مع أحد متحدّثي الجامعة، أنّ آرائي حول

ڤيتنـام سـيكون لهـا تأثير أكبر إذا توقفـت عن «الوعظ للجوقة» Preaching to the Choir، أي تجمّعات المتظاهرين. وبدلا من ذلك أن أستقل القطار واذهب الى واشـنطن في عطلة نهاية الأسـبوع لأتحدّث بتكتم مع نِك كاتزِنباخ، نائب وزير الخارجيـة آنـذاك. إسـتمعت بـأدب، وذهبت في طريقي دون أن أشـرح لماذا لن أفعل ذلك ابدا، على الرغم من أنّني كنت مولعا بنِك، الذي كنت أعرفه بالأصل كأحد أتباع الأستاذ ماك عندما كان طالبا في كلية الحقوق بجامعة ييل، ثمّ بصفته باحثا مبدعا قام باستكشـاف واجهة القانون/السياسـة بالتعاون من مورتُن كَپلان أثناء التدريس في كلية الحقوق بجامعة شيكاگو.

كان مـن الصعـب فـي ميـدان العلـوم الإجتماعيـة الحصـول على الإشـادة بإنجـازات أعضـاء هيئـة التدريـس، وهو مسـار لـم اتبعه. ولكن تبعـه العديد من الزملاء، الذين اكتسـبوا شـهرة وعروضا خارجية، وحتى استشـارات مُجزية من خـلال العمـل فـي القضايا العامة ذات الإهتمام المعاصـر بطريقة قضائية أو غير قضائية. من الناحية العملية، كان هذا لا يعني دفن المرء رأسه تحت الرمال ولا وضعـه بيـن الغيـوم، أي اكتسـاب الصلة بالعالم المحيط من خلال التمسّـك بما هو ممكن، والإعتماد على مجموعات البيانات والنماذج الرسمية والتنبؤ بالآراء السياسة القياسية وتجاوز الإنتقادات المتطرّفة للوضع الراهن أو تأكيد التوقعات الثورية حول المستقبل.

وإلـى حـدّ مـا، أدركـت أنّ كارِل كان محقا بشـأن إنْ كان هدفي الوحيد هو التأثير على السياسة العامة بدلا من تعزيز الإرادة الجماهيرية المناهضة للحرب. ولكن لم تكن لديّ أيّة أوهام بأنّه حتى لو تبنّيت تكتيكات من الداخل، فإنّ ذلك لـن يحـدث ذرة مـن التغييـر. لـم يكن لـديّ أيّ جمهور ولم يشـاركني في آرائي العديد من خبراء القانون الدولي المعروفين. إنّ وضعي كمجرّد استاذ كان بعيدا عن أن يكون كافيا لتحريف، ولو بشكل طفيف، وجهات نظر هؤلاء المهتمّين في السياسة، الذين يجعلون الأمور تحدث في واشنطن، أو المسؤولين، الذين لديهم امكانيـة الوصـول لتحريك الأمور والذين كانوا في العادة يخبرون البيروقراطيين بما يريدون أن يسـمعوه كي يفعلوا ما يفعلون. كان هؤلاء المسـؤولون يعرفون بالضبط ما يمكن أن أقول لهم، ولم يهتمّوا أصلا بتلقي محاضرات من قبل خصم

خارجي. أدرك العديد من كبار البيروقراطيين سِرّا أنّ الأمور لا تسير على ما يُرام في ڤيتنام، لكنّهم ما زالوا يفتقرون الى الإرادة السياسية لتوجيه سفينة الدولة في اتجاه مختلف وربّما خشوا من ردّ فعل متشدّد إنْ قاموا بتغيير المسار. على عكس نصيحة كارِل، كنت أعتقد في ذلك الوقت والآن أنّ التغيّرات في السياسة تأتي من الضغوط من الأسفل، وليس من الحسّ العقلاني للمسؤولين. إنّ الأشخاص هم الذين يحدثون تغييرات كبيرة في السياسة، وليس أولئك الذين يتحكّمون في آلية الدولة، والذين يحافظون على استمرار الأمور.

اتذكّر الإستماع الى حديث غير رسمي من قبل جورج بَول بعد اسبوع أو نحو ذلك من استقالته من اعلى منصب في وزارة الخارجية. وهو مؤسس قوي وبطل مؤثر للغاية في نهج حلف الأطلسي والتحالف الأوروبي والمحيط الهادئ في السياسة الخارجية خلال فترة الحرب الباردة. قال لجمهور النخبة في مجلس العلاقات الخارجية، «لقد بدأت أفهم حرب ڤيتنام فقط بعد أنْ توقفت عن قراءة البرقيات القادمة من هناك». كان هذا مثالا نادرا على الصراحة المناهضة للحرب من قبل عضو بارز في الطبقة السياسية الحاكمة. لقد عزّزت هذه الصراحة رثاء الجناح اليميني في الوقت الذي «فقدت» فيه حرب ڤيتنام تأييدها في غرف معيشة العائلات الأمريكية، أو بسبب الهواجس البسيطة للنخب اللِبرالية، وليس في سوح القتال في الهند الصينية. لم يكن بَول منشقا. لقد كان أمميّا لِبراليا مخلصا، وبّخني بغضب مرّة واحدة علنا، عندما شكّكت في جدوى الشبكة الواسعة من القواعد العسكرية الأمريكية في منطقة المحيط الهادئ، خاصّة تلك الموجودة في اليابان. بالنسبة لبَول، حافظ النظام العالمي على الإستقرار خلال فترة الحرب الباردة على أكتاف الوجود العسكري الأمريكي والتحالفات الأمنية، وأنّ إثارة الشكوك حول هذا المبدأ، الذي نادرا ما تحدّى السياسة الخارجية للولايات المتحدة، يرقى الى درجة الخيانة الفكرية من جانبي، أو الأسوأ من ذلك، حماقة جيوسياسية.

لم أكن أعرف كارِل كَيسِن جيّدا، إذ لم تكن للجامعة ولمعهد الدراسات المتقدّمة علاقة كبيرة ببعضهما البعض، ولكن كان لديّ بعض الفهم لمشاكله كرئيس لمعهد مرموق. كان محترفا جوهريا في الحرب الباردة ولِبراليا بخصوص

السياسات العامة، ولم يكن محترما ولا محبوبا من قبل أعضاء عصبة الرياضيات/ العلوم في المعهد، الذي اعتقدوا أنّ مجتمعهم الفكري يجب أن يكون أصوليا، بمعنى تجنّب الأحداث الجارية والإنخراط في سياسة الحكومة المؤقتة. لقد فهموا بشكل صحيح أنّ كارِل كان مصابا بمتلازمة كَيمبرج، التي يُطلق عليها اسم «حُمّى البوتومِك». في الواقع، تمّ اتهامه باهتمامه بتلقي استدعاء الى الخدمة الحكومية في واشنطن، أكثر من اهتمامه بجمع الأموال لتسهيل إنجاز البحوث العلمية في المعهد، أو الإحتفال بنيل أحد اعضاء المعهد جائزة نوبل. كان كارِل واحدا من أولئك الذين يتفوّهون بالسياسة بشكل نموذجي والذين اعطوا الإنطباع أحيانا بمعاملة الحياة الأكاديمية على أنّها «لتمضية الوقت» حتى يتوفر «العمل الحقيقي» في مبني الكاپِتول أو في البِنتگون أو البيت الأبيض. كانت تلك الأماكن هي التي يتم فيها تحديد الأمور، بدلا من الكلام الفارغ الذي يتردد خلال مآدب الغداء لنوادي أعضاء هيئات التدريس أو المجلدات العلمية، المكدّسة على أرفف المكتبات، التي نادرا ما تتم زيارتها. ترتب العمل مع حكومة الولايات المتحدة بهدف ارضاء مجموعة كَيسِن من المثقفين السياسيين الطموحين، أو هكذا بدت الأمور.

كان اتباع كَيسِن ايضا أمميين مخلصين، خاصّة فيما يتعلق بالسياسة الإقتصادية النيولِبرالية. وبالتالي كان يُنظر الى البنك الدولي وصندوق النقد الدولي على أنّهما مكانان احترافيان مهمّان لهؤلاء الشباب، الذين لديهم طموحات في أن يكونوا ناشطين في القطاع العام. تمّ تأييد تأثيرهم في العالم الحقيقي فكريّا وسياسيّا. على النقيض من ذلك، كان هؤلاء المثقفون السياسيون من ذوي المراتب الأعلى ينظرون الى الأمم المتحدة باعتبارها طريقا بيروقراطيّا مسدودا مناسبا «للخاسرين» في ألعاب القوّة/الثروة، التي أثارت اعجاب النخب الحاكمة.

من المؤكّد أن عصبة الرياضيات/العلوم عانت من نقاط ضعف خاصة باعضائها، ومن نوع من الإستبداد الطائفي. فاجأني أندريه ڤَيل، شقيق الفيلسوف الفرنسي والرائد ذي التوجّه الديني، سيمون ڤَيل، ذات يوم بمكالمة اقترح فيها أن نتناول الغداء. أراد التحدّث عن التعيين المقترح لروبرت بيلاه، كزميل دائم

في العلوم الإجتماعية في معهد الدراسـات المتقدمة، وهو احتمال دعمه كَيسِـن بقوة. ما كان معروفا لدى ڤَيل أنّ روبرت بيلاه كان صديقا لي. لقد أمضينا اسبوعا مفعما بالحيوية معا في البرتغال «كخبراء مرجعيين» لمجموعة من القادة الدينيين الملتزمين بتعزيز السـلام في الشـرق الأوسـط. يبدو أنّ ڤَيل كان يأمل أن يقنعني بالإنضمام اليه في معارضة تعيين بيلاه.

وكما حدث في تلك المناسبة، وعلى عكس نصيحته بشأن استغلال النفوذ على سياسـة الحكومة، شـاركت كَيسِـن في حماسـه اتجاه بيلاه. ونتيجة لذلك، خاب ظنّي في ڤَيل لأنّني اعتقدت أنّ بيلاه يسـتحق هذا الإنتسـاب الى المعهد. لقـد تأثـرت أيضـا بأسـلوب ڤَيل العدواني، الذي اسـتدعى الخصومات السـابقة مـع نورمَـن پودورِتز وإرڤِنگ كرِسـتُل، المحرّرَين المؤسسـين لمجلة **كومنتري**. ظهر أنّ ڤَيل لديه هدف أكبر لأنّه سمح لنفسه أن يكون منخرطا في خطة فاشلة للإطاحـة بكَيسِـن مـن منصبه كمدير للمعهد. تمّ تنفيـذ عملية ثأر فاضحة آخرى لِڤَيل على حساب عالم رفيع في جامعة كالِفورنيا في بِركلي متخصّص في علم اجتماع الدين. وهو شخص من أرفع الشخصيات وله سمعة عالمية، وتمت قراءة اعماله المنشورة واعجِب بها على نطاق واسع.

أتذكّـر أنّ ڤَيـل الرافـض تمامـا وغيـر المبـرر لمزايا بيلاه العلميـة عند نهاية فترة غداءنا قد قال، «أعلم أنّني لست عالم اجتماع، لكنّ أخي سيمون ڤَيل كان كذلـك، وأنـا أعـرف بالتأكيـد كيف أفرّق بين درجة النجاح A والفشـل F، عندما أرى عملا يعالج القضايا الإجتماعية». كان ذلك بيانا جريئا ومريرا يحاذي درجة السـخف والإصرار على أنّ إنجازات بيلاه العلمية الإسـتثنائية تسـتحق الحصول على تقدير F. لقد كان من المحبط بالنسـبة لي أن أرى عالم رياضيات مشـهور مثل ڤَيل ينزل الى هذا المستوى في مواصلة صراعه التافه مع كَيسِن. ربّما كانت أفضـل أيامـه كعالـم رياضيـات قد وَلّت، وكان يكرّس الآن فكره الهائل من أجل غايات أكثر قابلية للتحقيق.

من بين المشاركين معي ومع بيلاه في ورشة العمل في البرتغال، استمتعت بشـكل خاص بحضور الأب ثيودور هِسـبَرگ، رئيس كاتدرائية نوتِردَيم آنذاك، والذي كان دائما ودودا ومكرّسـا لتحقيق نظام عالمي سـلمي وعادل. بعد تلك

الورشة، كان لي اتصال متكرّر مع الأب ثيودور، الذي اصبح مهتما وداعما لمشروع النظام العالمي WOMP، الذي شغلني لفترة طويلة. بدا شغفه الخاصّ أكثر بناء بكثير من جهود قَيل لمنع تعيين بيلاه. كانت الأولوية القصوى لسياسة هذا الأب هي إعلان القدس وقبولها «كمدينة دولية» تتمتع بوصول كامل ومتساو لمواقعها المقدّسة عند الديانات الإبراهيمية الثلاث. لقد كان دنيويا ومحترما وعمليّا ومتديّنا دون أن يكون عقائديا أو روحيا ظاهريا. كان شخصا يبدو أنّه يفضّل الإستماع باهتمام على التبشير بآرائه الخاصّة. كان للأب هِسبَرگ تلك القدرة النادرة على العمل على جانبي الموضوع، مع الإحتفاظ باحترام ومودة الجميع وعدم التخلي دائما عن الآراء التي يحملها.

في تجربتي، أقارن دائما بين الأب تَد ونصير كاثوليكي آخر هو الأب مِگَيل دِسكوتو برُكمَن من نيكاراگوا. كان الأب مِگَيل شديد الحزبية وتقدّميا وروحيّا ومساهما رئيسيا في لاهوت التحرير Liberation Theology. أصبح وزير الخارجية في حكومة الساندَنيستا الأصلية بعد وصولها الى السلطة في نيكاراگوا بعد صراع طويل ضدّ سلالة عصابات سوموزا، التي حكمت البلاد وأفقرتها لعقود. أتيحت لي الفرصة في أوائل الثمانينات للعمل عن كثب مع الأب مِگَيل لبضعة أيام في مدينة نو يورك اثناء التحضير لقضية نيكاراگوا قبل عرضها رسميّا على محكمة العدل الدولية في لاهاي. كان مِگَيل بالنسبة لي ولآخرين شخصية ملهمة. أصبح رئيسا للجمعية العامة للأمم المتحدة بين عامي 2008 و2009، وعيّنني في لجنة المستشارين الخاصّة به. عندما طِّردتُ من إسرائيل في شهر كانون الأوّل من عام 2008، عرض مِگَيل تنظيم مؤتمر صحفي داعم في مقرّ الأمم المتحدة لإعطائي الفرصة لأبلغ وسائل الإعلام روايتي للأحداث، وهو أمر مهمّ، بالنظر الى الرواية الإسرائيلية الرسمية لطردي، والتي كانت مضللة وغير أمينة ونُشِرت على نطاق واسع دون سماع جانبي من القصّة. لسوء الحظّ، رفضت العرض، لأني كنت منهكا من ضغوط تجربتي ومتشوّقا للعودة لِكالِفورنيا. نَدمت على افتقاري الى القدرة على التحمّل الأخلاقي، حيث أنّ المؤتمر الصحفي تحت رعاية الأمم المتحدة قد كان منبرا مفيدا لأخبر من خلاله جانبي من القصة، التي تمّ تشويهها ونقلها بشكل خاطئ من قبل وسائل الإعلام الرئيسية.

بعد وفاة الأب مِگَيل أقامت جامعة فوردَم محاضرة سنوية لتكريم ذكرى هذا الرجل الإستثنائي، ودُعيت للمشاركة في القاء المحاضرة الإفتتاحية. إخترت «المصادر الروحية لُلإبداع القانوني»، كموضوع لي وكان وصفا متعاطفا مع بصيرة الأب مِگَيل في الإمكانات التقدميّة للقانون الدولي. لم تكن هذه النظرة موضع تقدير على نطاق واسع بين دبلوماسيي الأمم المتحدة، الذين تمّ تدريبهم في الغالب على أنّ القوة الجيوسياسية القوية هي التي تحكم العالم.

كان الأب مِگَيل والأب تد من النوع غير المعادي، ومع ذلك حقّق كلّ منهما نوعا من الكمال البشري بطريقته الخاصّة التي لا تُنسى. كان من دواعي سروري العظيم أن اعرفهما جيّدا على مدار سنوات عديدة. لم اشعر أبدا بالراحة في مخاطبتهما سواء بالأسم «الأب تَد» أو «الأب مِگَيل» أو «تد» أو «مِگَيل». لم يكن أيّ من اشكال التسمية صحيحا، فأحدهما رسمي للغاية والآخر غير محترم بدرجة كافية. لقد بذلت قصارى جهدي لأيجاد حلّ وسط والإعتماد على الوضع الأكثر رسمية عندما أكون بصحبة الآخرين، خاصّة الغرباء، واصبحت أقلّ رسميّة عندما كنت وحدي أو مع مَن هم في دائرتهما القريبة.

الصعود والهبوط التربوي

كانت معظم تجاربي مع الطلبة والزملاء على مرّ السنين إيجابية ومصدرا للرضا. طلبت جامعة پرِنستُن من كلّ طالب جامعي كتابة أطروحة عليا في مجال تخصصهم. عادة ما كان هذا يسير بسلاسة، ولكن كانت لدي تجربة مخيّبة بشكل لا يُنسى خلال حياتي التدريسية في پرِنستُن، والتي تكشف عمّا يمكن أن يحدث بشكل خاطئ ممّا يتسبب في حدث مؤلم لطالب بريء تماما.

كان عدد قليل من الطلبةإمّا واثقين جدّا من أنفسهم لدرجة أنّهم لم يتمكّنوا من دعوة التعليقات على اطروحاتهم أثناء إجراء البحوث والكتابة، واعطائي الأطروحة بشكلها النهائي. أو أنّهم ما كانوا واثقين لدرجة أنهم أرادوا ردود فعلي وتعليقاتي المستمرة، التي تسبّبت في بعض الحالات التوقف وعدم الإستمرار. إذا كان لا بُدّ لي من الإختيار، فقد فضّلت العمل مع أولئك الذين يشعرون بالثقة الزائدة، على أمل أن ينتجوا الأطروحات الجيّدة. بالطبع، كان معظم طلابي

يقعون بين هذين النقيضين. كان من الأسهل بالنسبة لي في بعض الأحيان اقامة علاقات ممتعة بين الطالب/الأستاذ مع النساء، خاصّة اللواتي يتمتعن بالسحر ورباطة الجأش وعقول الإستفسار. ولكن في كثير من الأحيان كانت اتصالاتي مع الطلاب الذكور أكثر إثراء واستمراريّة. على الرغم من أنّ دوري الإستشاري كان مرضيا، بشكل عام، إلّا أنّ هذا يبدو أنّ إحدى التجارب الرهيبة، التي انطوت على علاقات بين الطلبة/اعضاء هيئة التدريس/الإدارة، تستحقّ المناقشة بشيء من التفصيل لأنّها توضّح هشاشة الإجراءات الأكاديمية السليمة في جامعة كبيرة وآمنة، وقد تضمّنت إساءة استخدام تقدير الدرجات بحيث بدت مبالغة. إذا كنت قد فعلت ذلك، فلم تكن لديّ معرفة بذلك.

كان الأمر يتعلق بطالبة جامعية موهوبة للغاية تصادف أنّها إبنة أخت الكاتب النيويوركي الشهير جون ماكَفي، الذي كان يدرّس الكتابة الواقعية في جامعة پِرنستُن. كانت جين طالبة عالية الأداء في مدرسة وودرو وِلسُن، اختارتني كمُشرف على اطروحتها، ودفعتْ للأسف ثمنا باهضا للقيام بذلك. ركّز موضوعها على شرح وتقييم الأفكار الماركسية حول الإغتراب. عملتْ بجدّ وقدّمتْ اطروحة وجدتها منيرة ومطلعة جيّدا على المصادر العلمية، بالإضافة الى كونها مكتوبة وموثقة ومنظمة بوضوح. لقد قيّمت أدائها دون تردد بأنّها تستحقّ درجة A بوضوح.

كان من المتوقع أن يقوم كلّ عضو من اعضاء هيئة التدريس بعدد من «القراءات الثانية» للأطروحات، التي لم يكونوا مشرفين عليها. إختار ماريون لِڤي، عالم الإجتماع الرجعي، الذي حرص على إهانة خصومه علانية وبكونه ماهرا في الجدل اللاذع وغاضبا حتى من أيّ تلميح للتأثير الماركسي. كانت اطروحة جين من تلك المتاحة للقراءة الثانية والتقييم، وكان ذلك من حقه. إنّ حقيقة كونه منتقدا صريحا للغاية لدوري المناهض للحرب خلال فترة ڤيتنام، ما كان ينبغي بالطبع أنْ يحدث أيّ فرق في تقييمه للإطروحة، إذا شعر بأنّه غير قادر على أن يكون موضوعيا. تمّ اختياره لتقييم اطروحة طالبتي. كان يعرف جيّدا أنّني المشرف عليها، وتوقعتُ أن تنتج عن ذلك ملاحظة شريرة أو إثنتين. لكنّني لم اتوقع أبدا أن يؤدي ذلك الى تقييم غير عادل تماما لجهود تلك الطالبة. التفسير

الوحيـد المعقـول هـو أنّ ماريون لِڤي اختار تلك الفرصة للتنفيس عن غضبه من خلال اعطاء الأطروحة درجة F.

إنزعجـت الطالبـة جيـن ماكَڤي بشـكل مفهـوم من ذلك التقييـم، وكنت أنا غاضبا بدوري. شـعرت بالإحباط في البداية بسـبب عدم معرفة ما يجب القيام به، خوفا من العجز نظرا لاستقلالية الدرجات الممنوحة من قبل الأساتذة، مهما كانت التقييمات تعسفيّة بشأن عمل الطلبة. خضعت كلّ أطروحة لقراءة ثانية من قبل أسـتاذ غير المشـرف، مع تحديد الدرجة النهائية من خلال حسـاب متوسـط الدرجتين. شعرت أنّ ذلك كان انتهاكا صارخا وغير مقبول تماما وجبانا لتقدير اعضـاء هيئـة التدريس. والأسـوأ من ذلك أنّهـا حملت معركة خاصّة بين اعضاء هيئة التدريس في عملية حسّاسة ومعزولة تماما بشكل طبيعي لممارسة درجات اعضاء هيئة التدريس لتقييم أداء الطلبة.

يعمل النظام بشكل عام لأنّ القليل من اعضاء هيئة التدريس لديهم القليل من التحكّم في عواطفهم ومضايقاتهم الخاصّة لإساءة استخدام تقديرهم بطريقة متطرفة وواضحة. حتى بعد سنوات عديدة، تبرز تلك الحادثة على أنّها جهد غير لائق بشكل واضح لإحراج عضو هيئة تدريس آخر وفضحه من خلال إيذاء طالبة بريئة تماما. في معظم الظروف، يكون مثل هذا السلوك غير الائق، أكثر دقة. على سبيل المثال إعطاء اطروحة من هذا النوع درجة منخفضة لم تستحقها، وهي B+ بدلا من درجة A. ولكنّ الحكم بأمان ضمن حدود التقدير البيروقراطي، يجعل من المستحيل تحدّيه.

قبـل هـذه المواجهـة بوقـت طويـل، دأب ماريـون لِڤـي أن يكـون عـدوّي الشخصي في أماكن الحرم الجامعي، على الرغم من مصادقتي له عندما وصلت الى پِرنسـتُن، ومن المُفترض أنّه أعجِب بمؤهلاتي المهنية كمدرّب في القانون الدولي. غالبا ما كان متعجرفا بسـاديّة اتجاه الآخرين خلال ندوات اعضاء هيئة التدريس، ومُهينا حتّى للعلماء الراسـخين من خلال الشـكوى اللاذعة من عدم دقة تعريفاتهم المفاهيمية، التي تعتمد على حججهم وتحليلاتهم، أو شنّ هجوم تافه الى حدّ ما على جودة وثائقهم لأنّها لا تستند بشكل كاف الى مصادر اللغة الأصلية. كان جَيمس رَوزِناو أحد أكثر علماء العلاقات الدولية تأثيرا في جيله.

كان في تلك السنوات عضوا في هيئة التدريس في جامعة رَتكَرز القريبة ودُعيَ للمشاركة في ندوات اعضاء هيئة التدريس الأسبوعية في پرِنستُن. كان جِم، الذي اصبح صديقي العزيز، هدفا سيء الحظّ بشكل خاصّ لماريون في ندوات الكلية الأسبوعية هذه. أصبح عرضة لمثل تلك الألعاب الأكاديمية لأنّه كان لا يعرف اللغة اليولندية ويفتقر الى الطلاقة اللفظية لمواجهة مثل تلك الهجمات المتعجرفة والتلاعب المُدمّر بالكلمات عمدا، والذي صرف الحديث عن الطابع الجاد لجوانب العمل قيد المناقشة.

كان جِم أكثر إبداعا واهتماما في مجال العلاقات الدولية، ممّا كان عليه ماريون في مجاله الفرعي في علم الأجتماع المعاصر آنذاك لدراسات «التحديث». لدى العودة للوراء، أظنّ أنّ المستوى المنخفض للأداء الأكاديمي لماريون قد ساعد في تفسير تبنّي أسلوبه اللاذع في التعامل مع الزملاء والطلبة، والذي صرف الإنتباه عن عيوبه. لم يكن ماريون أكثر من مجرّد مزيّف منسّق للغاية Stylized Fake، يتباهى بخلفيته من ولاية تَكسس وتأثيراته المحافِظة من خلال خيارات أساليب الحياة الطنّانة. كان يتجوّل في الحرم الجامعي برفقة كلاب أصيلة ضخمة Massive Pedigree Dogs وتفاخر بإبقاء أفعى أليفة Pet Boa في منزله وارتدى بدلات ساڤيل Saville المصممة خصيصا، وربطات عنق باهضة الثمن، حتى أنّ إحداها مرصّعة بالألماس!

كان ماريون ربيبا مخلصا للأستاذ تالكُت پارسُنز، عالم الإجتماع الشهير في بناء النظام في جامعة هارڤرد، والذي كانت تجريداته وإطاره المفاهيمي رائجة في ذلك الوقت ومؤثرة على العديد من الموهوبين. يبحث علماء المستقبل عن إطار نظري متطوّر لأبحاثهم. كما بدا في الوقت المناسب أنّه مرتبط بجنون التحديث، الذي تمّ الترويج له بشغف في هارڤرد ومعهد ماسَچوسِت للتكنولوجيا وپرِنستُن، كإجابة للرأسمالية على الماركسية في صراع الحرب الباردة من أجل السيطرة على التوجّه الأيديولوجي لدراسات التنمية، التي اعتمدتها البلدان فيما كان يُعرف آنذاك باسم «العالم الثالث». تلائم ماريون تماما مع هذا الأخدود الأيديولوجي، الذي كان جزء من جهد الغرب لكسب تأييد دول آسيا وافريقيا وأمريكا اللاتينية. وحين انتهى الأمر بخسارة الصراع الأيديولوجي، برزت الخطة ب الى المقدمة.

كان مـن المتوقـع فـي تلـك المرحلـة أن تقوم وكالة المخابـرات المركزية بتغيير الأمور في الإتجاه المطلوب من خلال تغيير النظم عن طريق التدخلات السريّة، كمـا حـدث فـي العديـد من البلدان كإيران وگواتيمالا وچِلِي. أدّت كلّ حالة من مثل هذه التدخلات الخفية لتغيير الأنظمة الى انتهاكات جسيمة لحقوق الإنسان ومعانـاة مطولـة لشـعوب تلك البلـدان، التي أنتُهِكت حقوقها السـيادية من أجل الأولويات الجيوسياسية الأمريكية.

بعـد أن تـمّ شـلَ حركتـي في البداية بسـبب الجرأة المطلقـة لعمل ماريون، أدركت أنّ خياري الأفضل في تلك الظروف الكئيبة هو أن أشـرِك عميد الكلية فـي پِرنسـتُن، وأطلـب توجيهاتـه بعد أن أتمنّى تدخله. وأنـا انظر للماضي الآن، ربّما كان من الممكن أن أكون أفضل من خلال اتباع التسلسل الإداري، وطلب النصيحة أولا من عميد مدرسـة وودرو وِلسُـن، الذي كانت لديّ علاقات ودّية معه. يحيرني أنّني لم أفكّر أبدا في هذا الخيار الأقلّ تصعيدا. كان العميد الإداري للكلية في ذلك الوقت هو آرُن لِمونيك، شقيق نجم كرة القدم الأمريكية الساطع في پَنسِـلڤينيا حين كنت طالبا هناك. لقد وجدت أنّ آرُن شـخص ناضج ودافئ سطحيا، لكنّه يمتلك ذخيرة من الطيبة.

كان ماريون في تلك السنوات شخصية مرعبة ومخيفة في الحرم الجامعي يلاحـق خصومـه خطابيـا بشـكل قـويّ ومهيـن في كثير من الأحيـان ومن خلال نقاشاته الحادّة وانغماسه في تقدير إدارة الجامعة له خلال فترة الهياج، وبسبب استعداده لتأكيد تكريسه غير الصحيح سياسيّا للأحكام المحافظة حول حماية نقاء التعليم العالي في مواجهة الإضطراب الناجم عن ڤيتنام. بسبب هذا التصرف كان ماريون محبوبا بشكل خاصّ من قبل الرجعيين المنغلقين والأعضاء المناهضين لليسار في عالم پِرنستُن، وما كان يُطلق عليه «پِرنستُن القديمة». إستمع آرُن بأدب الى شكواي الغاضبة بشأن سلوك ماريون الفظيع، وردّ ببذل قصارى جهده لإيجاد حلّ وسط غير تصادمي، أتذكّر أنّني كنت عنيدا لدرجة أن تسبّبتُ له في انزعاج واضح.

في النهاية، اقترح آرُن حلا وسطا و«قراءة ثالثة» غير مسبوقة للأطروحة. وربّما دون قصد أوكل المهمة لزميل آخر مناهض للحرب هو پَول سِـگمُند،

الذي كان كاثوليكيا متدينا معاد للماركسية وبالتالي من طابور الحرب الباردة. وهو متزوّج من إبنة زعيم ديمقراطي جنوبي في الكونگرِس. وكثيرا ما تردّدت شـائعات عن صلات سِـگمُند بوكالة المخابرات المركزية، لتخصّصه بأمريكا اللاتينيـة. ربّمـا لـم يرغـب پَـول ايضـا في إزعاج ماريون أو مؤسسـة پِرنسـتُن الإداريـة، لكنّـه علـى الأقلّ اوصى بمنح الأطروحـة درجة B+، التي اصبحت الدرجـة النهائيـة لطالبتـي جين. من الناحية العملية، كان ذلك قرارا مقبولا من وجهة نظر المؤسسة، ولكنّه لم يكن مرضيا من الناحية العاطفية سواء للطالبة أو لـي. لقـد كانـت نتيجـة غير عادلة لتدخّل قبيح فـي الپروتوكول الأكاديمي. غـادرت جيـن الجامعـة في حالة مزاجية من المرارة، التي يمكن فهمها لكونها طالبـة فـي مرتبـة الشـرف بين الخريجين وتحضى بشـعبية كبيرة وشـكّلت لها هـذه الحالـة خيبـة أمـل حادّة. ومـع ذلك حافظت على اعتزازهـا بتجربتها في پِرنسـتُن. إلتحقـت بكليـة الحقـوق في هارڤـرد، وقيل لي أنّهـا احتلت المركز الثالث في صفّها. لم أغفر أبدا لماريون عن تلك الحادثة وتطوّرها من البداية الى النهاية، حيث أظهر أسـوأ جانب من التحزّب الأيديولوجي غير المنضبط والعداء الشخصي المقيت.

سمحت لنفسي أحيانا بالتساؤل عمّا كان سيحدث لو كنت أنا القارئ الثاني لأطروحة أحد الطلبة بإشراف ماريون واعطيت درجة F! لم يكن لديّ شكّ في أنّني كنت سـأقوم بعملي بكلّ جدارة وانضباط شـديدين، ومع ذلك كان سـيتمّ التعامل مع الحادث بقسـوة أكبر، إذا تمّ نشـره على الملأ. كان من الممكن أن يكون أمرا شنيعا بالنسبة لبقايا جامعة پِرنستُن القديمة ضمن اعضاء هيئة التدريس والإدارة وبيـن الخريجيـن، الذيـن يبحثون دائما عن دليل على عدم التسـامح مع التحيّزات اللِبرالية المُفترضة لاعضاء هيئة التدريس. ولو نظرت الى الخلف، فإنّ الجامعة كمؤسسة، لم تفعل شيئا شرّيرا في هذه الحالة. غير أنّ ردّها على طريقة تفكيري كانت رديئة وافتقرت الى المبادئ، حيث تبنّت موقف إدارة الأزمة بدلا من التدخّل لإزالة الظلم الواضح، الذي نزل بطالبتي البريئة.

من الممكن تماما أن يكون شخص آخر غير لِمونيك قد تعامل مع الموقف بطريقـة مرضيـة وأقـلّ بيروقراطية، والذي تضمّن علـى الأقلّ لوم ماريون والغاء

درجتـه، وإرسـال رسـالة بنـاءة الى اعضـاء هيئة التدريس حـول المحاباة، أو هنا عكسها.

أذكر هذه الحادثة بمثل هذه التفاصيل لأنّها أظهرت بوضوح كيف يمكن أن يعاني الطلبة عندما يتصرّف أحد اعضاء هيئة التدريس بسبب الإستياء الشخصي أو التحيّـز الأيديولوجـي بطريقـة غيـر مسـؤولة. مـا حدث هنـا بخصوص درجة أطروحـة، يحـدث أيضا في سـياقات أخـرى، وغـالبا ما يحرف تقييم أعضاء هيئة التدريس المبتدئين أو المرشحين للتثبيت بطرق نادرا ما كانت عرضة للطعن أو الإعتراض. لا ينبغي أن أترك انطباعا بأنّ هذا كان اجراء تصريف الأمور القياسي في جامعة پرِنستُن أو في أيّ مكان آخر. لكنّ أنماط التقييم في البيئة الأكاديمية غالبا ما تكون سريّة أو ذاتيّة بطرق تسمح بالتلاعب غير المكتشف وغير القابل للتحدّي، ويبدو أنّها مُسـتثناة من إجراءات المسـاءلة. يجعل هذا علاقات الثقة والإلتـزام بمعاييـر النزاهـة المفروضة ذاتيا أمرا حيويّا للغاية. عندما لا تكون هذه الصفات قويّة في الثقافة الأكاديمية، فلا بُدّ أن تحدث أشياء سيئة.

العيش والمحبّة

بدأت ترتيبات معيشـتي في مدينة پرِنسـتُن خلال عامي الثاني في الجامعة بشـكل غيـر متوافـق مـع مـا كنت أتخيلـه. عندما جئـت لإجراء جولـة أوليّة من المقابلات قبل عام، قابلت امرأة في الستينيّات من عمرها، مؤرخة مستقلة حرّة تخرّجت أيضا من مدرسـتي الثانوية في فيلدسـتَون قبل جيل، لكنّها سـرعان ما سعت الى أخذي تحت جناحيها. كانت جِنَت مِرسَكي مليئة بالحماس الإجتماعي والسياسـي، وأمّ يهودية بلا اطفال وليسـت شـريكة لأحد ومسـتعدّة للتواصل مع عابري السـبيل المثقفين الشـباب مثلي، وتقريبا تبنيهم. كان من المقرّر أن تغادر في رحلة بحث الى آسيا، لتضع كتابا عن **طريق الحرير** لم يكتمل بعد. عرضت عليّ أن أسـتأجر شـقتها. كانت جِنَت معلمة كلاسـيكيّة، غير حاصلة على شهادة علمية متقدّمة، لكنّها ذكية للغاية ومثابرة. ومع ذلك كانت تشعر بالضيق الشديد بسبب الإفتقار الى أيّ انتماء رسمي في بيئة مشبعة بالمكانة مثل پرِنستُن.

قدّمت جِنَت عروضا مذهلة من الشجاعة الموّجهة للأشخاص ذوي المكانة

الفكرية في العالم الأكاديمي لإثبات أنّها تعرف المزيد عن تخصّصهم أكثر ممّا يعرفونه. كانت قصيرة ممتلئة الجسم وبالتأكيد شجاعة ومتعجرفة الى حدّ ما. كانت هناك رتابة من مستوى معيّن في خزانة ملابسها، التي تعود الى عشرينات القرن الماضي، تتمتع جِنَت بشخصية سياسية حماسية غير ملتزمة لا يسارا ولا يمينا ولا حتى بينهما، ولكنّها نادرا ما تشكّ في مَن وما هو صحيح أو خطأ في الحياة العامة من حولها.

عندما وصلت الى پرِنستُن، كنت سعيدا في البداية لمشاركة شقّتها المريحة أسفل مبنى من ثلاثة طوابق وفوق مكاتب شركة تأمين وطنية، في موقع جيّد في شارع ناسو، وهو الشارع الرئيسي الوحيد في پرِنستُن، وهو سهل سيرا على الأقدام الى الحرم الجامعي. رحّبت جِنَت بي في شقتها، كما لو كنت إبن أختها المفضل والقريب جدّا لها منذ الولادة. إستمرّت جِنَت في تأجيل رحلتها الى آسيا، ومن الواضح أنّها افترضت أنّ الرفقة والطهي والتعبير عن الكرم بدافع النية الحسنة دون أيّة زيادة في فاتورة الإيجار الشهرية، جعل حضورها المستمر هبة من السماء، بدلا من كونها عبئا سبّب لي ضائقة متزايدة. نظرا لأنّها أظهرت الحماية والدفئ واغتنت بالثناء وقدّمت طعاما مطبوخا في الشقة، شعرت بعدم الرفق والإرتباك الإجتماعي حيال اظهار ضيقي بها واستيائي من عدم سفرها. ولكن عندما بدأت التلميحات بأنّها تفكّر في تأجيل رحلة بحثها تماما، إنطلقت أجراس الإنذار في ذهني، وإقترب قلقي من هذا الإحتمال الى مستويات الذعر. نظرا لأنّني كنت أرغب بشدة في الخصوصيّة واحتاج المكان والوقت لذلك، فقد اضطر أحدنا الى المغادرة، وكنت آمل ألا أكون أنا هو من يغادر تلك الشقة.

دفعني ذلك القلق أنْ استجمع شجاعتي لتذكير جِنَت بأكبر قدر من اللطف بأنّني استأجرت شقتها على افتراض معقول أنّها ستمضي في رحلتها وتكون الشقة المكان المناسب لي لوحدي. على الرغم من جهودي لأكون دبلوماسيّا، إلا أنّها أصيبت بألم واضح، لكنّها سرعان ما انتقلت الى مكان آخر. اعتقدت أنّه إذا لم أفصح أخيرا عن مشاعري، فقد يسمح ذلك للوضع بالإستمرار وربّما بقيت طول العام تقنع نفسها أنّني كنت احتاجها وأقدّرها وربّما أعتمد على دورها في الرعاية والدعم العاطفي. لم تكن هذه الآراء خاطئة جدّا. من بعض النواحي،

كانت هبة عظيمة للوافد الجديد الوحيد والخجول مثلي الى مدينة مثل پرِنستُن، خاصّة وأنا افتقر الى معظم المهارات الإجتماعية اللازمة للتغلب على الشكليات والإدعاءات في تلك البيئة.

التواصل المبدئي

أتذكّر أنّه لم يكن لديّ اصدقاء يعيشون في پرِنستُن، باستثناء شعلة دراستي الجامعية في پَن، رينيه. كانت متزوّجة في حينها من طبيب نفساني من لُكسُمبَرگ، إسمه پَول ڤيبَر. كان هذا ساخرا وذكيّا ومعاديا للفكر تقريبا بطرق من الواضح أنّها مهينة ومؤلمة لزوجته رينيه. لقد صدمني زواجها باعتباره أحد خيارات الحياة، التي لا معنى لها، وبحلول الوقت، الذي أتيت فيه الى پرِنستُن، كانت عيوبه تزعج رينيه بشكل واضح. بدت صداقتنا للآخرين على أنّها مغازلة عاطفية، لكنّها كانت متردّدة وكنت خجولا، وظلت صداقتنا ضمن حدود اللياقة البورجوازية. كانت رينية لاجئة من ألمانيا هتلر، هربت مع اختها، التي لم تعمّر طويلا بعد تلك الصدمة، غير أنّ رينيه نادرا ما أتت على ذِكرها. كرست رسالتها لنيل الدكتوراه على مارتِن هايدِگر، الذي رفضته لاحقا دون قيد أو شرط من زاوية فلسفيّة، بدلا من انتهازيته المؤلمة وعدم حساسيته الإنسانية، التي اظهرها بفظاظة وقسوة عند صعود هتلر وبعده. في عمله الأكاديمي، تحوّل هذا المتعاطف مع النازية باخلاص لفكر كرِشنامورتي وممارساته بالإضافة الى الصوفيين الهنود الآخرين. تبنت رينيه قراءة روحية لإفلاطون واصبحت استاذة مشهورة لمقررات دراسية في الدين المقارن والتقاليد الفلسفية.

ثمّ جاء نفتالي أفريات، وهو أيضا شابّ «تبنّته» جِنَت، ورافقته احيانا في حياته الإجتماعية، صاحبته الشابة المحبوبة آگنُس. لقد عاشا منفصلين على قناة گرِگْز، على بعد أميال قليلة شمال مدينة پرِنستُن. ومع ذلك كانا ريفيين منعزلين. لم يكونا زوجين بالضبط، ولكن في كثير من الأحيان معا، ودائما ما يمكن رؤيتها بهيئة شابة تشعر بالدهشة، «آه، ماذا ستفعل بعد ذلك، أيّها الرجل المجنون؟» وهو يشعر بالإرتياح على ما يبدو لوجودها الى جانبه. رابطة غريبة بالتأكيد، ولكن دون شكّ، ترابط A Bonding..

كان نفتالي غير مقيّد إجتماعيا. كان يحدّق بلا خجل في أيّة امرأة ذات شعر داكن طويل أو عيون جذّابة، حتى لو كانت جالسة في الجانب الآخر من المطعم. كان يذكر أوّلا تعليقا دون أيّ تردّد، «ألا يذكّرك وجهها بلوحة من عصر النهضة؟» تعلمت أنّ هذا النوع من التعليق يكون في العادة مقدمة. قبل انتهاء الوجبة، يكون نفتالي اقترب من الطاولة وقدّم نفسه بابتسامة، متجاهلا تماما وجود الرفيق الآخر الذي قد يكون زوجا أو شريكا محتملا. كان يقول بجرأة مذهلة، «أودّ مقابلتك لتناول القهوة. هل يمكن أن تعطيني رفم هاتفكِ؟» كان يقول ذلك بصراخ غاضب وكأنّه ينوي العِراك. كان الشخصان في مثل تلك المناسبات ينظران لبعضهما البعض بدهشة ويُفترَض أنّما لا يعرفان إن كان يضحكان أو يطلبان من النادل إبعاد هذا الأحمق. عادة ما تبتسم المرأة المخاطبة، والأكثر إثارة أنّها غالبا ما تكتب رقم هاتفها على ورقة وتناولها له. بالطبع مثل هذه المضايقات في عصر Me Too ستُصنّف بلا شكّ على أنّها تحرّش جنسي. ومن المحتمل أن يكون الشخص الذي يقوم بمثل هذا التصرّف، كما يفعل نفتالي، متردّدا الى حدّ ما في مثل تلك الدوافع الطائشة. في الواقع كان انطباعي عن نفتالي أنّه كان «يميل للتحرّش بالجميلات» Womanizing Aesthete لكنّه يفتقر الى «عظم مفترس» واحد في جسده بالكامل. هو سعيد فقط باعطاء المصداقية لأسرار خياله الرومانسي المحموم.

على الرغم من هذه الطرق الغريبة، كان نفتالي صديقا مهمّا ورائعا في الجمع بين الأرقام والأفكار والرسومات الفنيّة، ممّا جعل النتائج تبدو جذّابة للعين بينما ينقل أفكاره بأناقة وبشكل مكثّف للغاية. أصبح نفتالي مهتما بشدّة بمختلف المخاطر، التي ربطها بالنمو السكّاني، مقتنعا أنّ لديه شيئا عميقا ينقله، على الرغم من أنّني لم استطع أبدا معرفة ما هو عليه. أثناء التجوّل والإعتماد على اشكال محبّبة من «الأخطاء الإجتماعية» التي شارك في بحث دائم عنها في صورة أزهار أنثوية متفتحة، وجد أخيرا ما كان يبحث عنه. كانت كونتيسة إيطالية توافقت على ما يبدو معه وانجبت إبنا نشأ في سيينا في ايطاليا وأتوا في كندا، كما لو كان طفلا من طبقة النبلاء، ربّما كان ووالداه غير مدركين أنّ إدّعاءات النبل هذه باتت عتيقة الطراز. لم يكن نفتالي مهتمّا فقط بأمراض العالم، ولكنّه ايضا

اهتم بكيفية عيشه كأرستقراطي، ليس ماديّا بشكل فظّ ولكن بمفارقة ذاتية لا تفتر. جعلت هذه كلّ ما فعله يندمج في جوّ مخلخل لا يُنسى من الصداقة المتميّزة.

بضع كلمات ختامية

من المؤكّد أنّ 40 عاما في پِرِنستُن كانت أكثر بكثير ممّا تنقله سلسلة الحكايات هذه، والتي تمّ اختيارها لتحديد السمات البارزة لتجربتي المتضاربة بشكل عام. شعرت طوال الوقت أنّه لامتياز كبير أن أدرّس في هذا المركز التعليمي المتميّز حقا. خلال العقود الأربعة بأكملها، لم أدخل قاعة المحاضرات أو قاعة الندوات أبدا دون الشعور بالتوتر والقلق، وفي نفس الوقت الدافع القويّ للفرصة للتحدث مع الطلبة الموهوبين والمتحمّسين. كان الوقت دائما صعبا ومُمتعا في أغلب الأحيان، لحدّ أنني كنت اتطلع الى الحلقات الدراسية لطلبة الدراسات العليا، التي تمتد لثلاث ساعات في قسم السياسة ومدرسة وودرو وِلسُن. الجامعة العظيمة هي ايضا بيئة ثقافية، وكانت هناك دائما فرص للإستماع الى أفضل العقول واعظم الشعراء ومشاهدة الأفلام، التي لا تُنسى، وكذلك الإستماع الى القادة السياسيين والكتاب المتميزين في ميادينهم. أقامت جامعة پِرِنستُن مهرجانا ثقافيا مستمرا بأعلى جودة. تمكّنت فقط من حضور بعض الفعاليات لأتمكّن من الإستفادة ممّا هو مُتاح، حسب إتاحة وقتي. لم أتمكن من المشاركة في أكثر من عينة صغيرة تمّ اختيارها بطرق تعكس اهتماماتي وعواطفي. وقد خفّف من سعادتي العديد من العروض المحيّرة، التي تخليت عن حضورها بسبب المواعيد والتعب والإنشغالات الإجتماعية.

بطبيعة الحال،شهدت هذه الفترة الطويلة في جامعة پِرِنستُن تقلبات في الصعود والهبوط، خاصّة فيما يتعلق بعلاقاتي المؤيدة والمعارضة اتجاه القادة الإداريين المباشرين على مستوى القسم والعمادة. كنت محظوظا لامتلاك وسائل الراحة، التي لا يمكن أن توفرها إلا جامعة ثريّة. كانت جوان گارسُن مثلا، سكرتيرة استثنائية سهّلت حياتي بشكل يومي لأكثر من 25 عاما، وفعلت ذلك بروح عالية من الدعابة. مساعدو البحث، كانوا مفيدين في مجموعة متنوّعة من الطرق. حتّى ميزانية السفر سمحت لي بالقيام باشياء مرتبطة بالمشاريع

العلميـة، التـي جعلتنـي أفهم أنّ المكتبات هي بداية ونهاية البحث. لكنّ الشـيء الأكثـر قيمـة فـي الغالـب هو ما يقع بينهما. كنت على مرّ السـنين، المسـتفيد من مجموعة رائعة من مسـاعدي البحث، خاصّة كلوديا دَيمُن، التي سـلطت الضوء على المكان، الذي سـارت فيه، وجَنِت لوِنثول، التي تضمّنت مهاراتها العديدة البراعة في التحرير وانقذت ما كتبته من السـمعة السـيئة، بينما تمكّنت في كثير من الأحيان من رفع معنوياتي اثناء النهار الى مستويات مذهلة.

آمل ألّا اكون قد تركت انطباعات من السـخط وخيبة الأمل. بشـكل عام، عشـت حياة مرضية للغاية من حيث المعنى والمتعة اثناء تواجدي في پرِنسـتُن لدرجة أنّني لم أكن اتخيّل أنّها ممكنة إلّا بعد حدوثها. لقد تمّ تحريري في وقت مبكّر من جميع المواد اللازمة للوفاء الشـخصي والمهني، وبوضع لا يمكن أن يكون أعلى داخل حدود اعضاء هيئة التدريس الأكاديمية، وأمن الوظيفة وفرص وفيرة لرؤية العالم وتجربته والأمن الذي يتماشى مع مثل هذا الإرتباط الجامعي. استكمل هذا الرضى الوظيفي بسلسلة من العلاقات الحميمة والصداقات المثرية، التـي سـمحت لـي بالوصول الى الكواكـب إن لم تكن النجوم. لم يكن بإمكاني توقّع مثل هذا المكافأة في الحياة إذا حاولت إعادة تخيّل الآفاق، التي كانت لديّ عندما كنت أصغر سنّا، نظرا لتوقعاتي المنخفضة طوال فترة الطفولة والمراهقة.

هناك ملاحظة أخيرة مقلقة. لم يكن لديّ أيّ رفاق من اعضاء هيئة التدريس في جامعة پرِنستُن عند تعلق الأمر بالخروج من الجو الأكاديمي من أجل المساهمة بالتظاهـرات العامـة أو التعـرّف على الناشـطين فيها. كما ذكرت، كان هناك عدد قليـل مـن اعضـاء هيئة التدريـس، الذين تضامنوا مع الطلبـة المناهضين للحرب أو المناهضين للعنصرية عند حدوث احتجاجات داخل الحرم الجامعي. عندما يتعلق الأمر بجرائم الحرب في فيتنام أو الثورة الإيرانية أو النضال الفلسطيني من أجل الحقوق الأساسية، شعرت بالوحدة في أحسن الأحوال في مواجهة جدران الصمت. في أوقات مختلفة، غالبا ما تساءلت «لماذا؟» دون أن أجد إجابة مرضية حقا. لا شكّ أنّ البعض شعر، وقد اتضح بشكل صحيح، أنّه سيكون هناك ثمن وظيفـي يتعيـن دفعه داخل المؤسسـة، بما فـي ذلك فقدان التأثير والإحترام. لقد عانيت من مثل هذه الخسائر، على الرغم من عدم ندمي على ذلك. إنّ التبريرات

الأكثر سـموّا ودراسـة لخجل الضمير والمواطنة، لها علاقة بالإعتقد بأنّ عضو هيئة التدريس سـيفقد ثقة بعض الطلاب إذا أظهر مواقف حزبية بشـأن الأسـئلة المثيرة للجدل.

كنـت مـدركا أنّ هـذه الطـرق لم يتمّ السـير فيها، ولكن حتـى الآن ما زلت أتسـاءل ما الذي دفعني الى الإنطلاق في مسـاري الخاص، الذي لم يكن مجرّد نشـاط مكـروه مـن قبـل المؤسسـة فقـط. إنّـه تضمـن هويتـي كعالـم يعتمد عل منهجيّات معياريّة غير عصرية لتنفيذ برنامج البحث والكتابة المكرّسـين لتعزيز السلام والعدالة على المدى الطويل، مع إيلاء اهتمام خاصّ لنضالات الضحايا والقهر حول العالم. ليس لديّ أيّة شكوك حول الطريق الذي اخترته، وما زالت سائرا فيه.

علـيّ أن اعتـرف بأنّـني لا أفهـم تماما مـا دفعنـي الى تحـدّي «الإعتبارات الأكادديميـة السـائدة» ومـا اعتبـره العديـد من زملائـي وأصدقائي أنّهـا «الفطرة السليمة». حتى الآن أتساءل كيف طوّرت هذه الشخصية المتناقضة، والتي تبدو في ذات الوقت متناقضة مع سلوكي الداخلي والخارجي المتوافقين.

الفصل التاسع

الحياة: الطلبة والوظائف والخدمة

الحفاظ على الحدود الضبابية

على عكس بعض زملائي في جامعة پِرنستُن ولاحقا في جامعة كالِفورنيا لوس أنجلُس، لم أشعر أبدا بالراحة مع الطلبة الذين يصبحون تحت رعاية أستاذ معين Protégées (مُقلدين). وكما أوضحنا سابقا، فإنّ افتراض دور المرشد يبدو أنّه ينطوي على إرشادات موثوقة، لا تتناسب مع شعوري بالهوية الشخصيّة أو المسؤولية المهنية. لم أكن متأكدا جدّا من نفسي خلال سنوات التدريس المبكّرة في أوهايو، وكنت خائفا جدا من هالة پِرنستُن، كي أكون مرتاحا في ممارسة التأثيرات على حياة الطلاب بما يتجاوز بذل قصارى جهدي في الصفوف ومحاولة أن اكون متجاوبا بشكل مفيد في الأدوار الإستشارية. كما أنّه، نظرا لإحساسي بأن أكون أستاذا أو باحثا كان دائما تفاعليا ومتبادلا. لقد كنت متردّدا بشكل غريزي في تعليق رغبتي في التدريس والتعلم من الطلبة، وهو موقف كان بالنسبة لي غير متوافق مع الطابع الهرمي للإرشاد.

هناك مجموعة خاصّة من القضايا الناشئة عن الصداقات مع الطلبة أو مكان العمل، والتي تتخطى حدود الإحتراف في مجالات العلاقة الحميمة الجنسية والعاطفية. بالنسبة لي، دفعني هذا الى الإبتعاد عن الطالبات ومساعدات البحث وموظفات المكتب. قبل وقت طويل من توعية الرجال أخيرا بالفروق الدقيقة في التحرّش الجنسي من قبل الناشطات النسويّات والمبادئ التوجيهية العامة، بذلت قصارى جهدي لعدم التعدّي على الكرامة واحترام الذات والمساحة الإجتماعية الخاصّة للنساء، سواء كنّ زميلات أو موظفات أو طالبات، بينما

عدم التخلي عن التفاعلات الوديّة والمرحة، التي تنعش المساحات الإجتماعية إذا كانت مصحوبة بحساسيات تتعلق بالجنس والعِرق والدين والخلفية الوطنية. مـع التفاعـل اليومـي في مكان العمل لفترات طويلة، تتطلب هذه الحدود اليقظة التامة وكذلك الإستجابة للأعراف الإجتماعية المتغيّرة.

اقترفـت هفـوة مبكّـرة فـي حياتـي التدريسـية. كانت هناك طالبـة جذّابة في صف القانون الدولي بحدود عمري تقريبا في ولاية أوهايو. صادقتني خلال فترة الوحدة في حياتي بعد الإنفصال عن زوجتي الأولى. استجبت لها وكنّا في علاقة رومانسيّة توافقية استمرّت لمدة عام أو نحو ذلك، بما فيه قضاء صيف عام 1958 معا في أوروبا. كانت حريصة على الهروب من قيود الحياة الطلابية، وسـرعان ما ارتبطت بالعديد من اصدقائي المقرّبين في الكلية ومع طلبة الدراسات العليا الأكبـر سـنّا. تـمّ قبـول علاقتنا علـى أنّها طبيعية، حتى في ظـلّ الأجواء المتغيّرة للحاضر. أصبحت علاقتنا حميمية بعد انتهاء المقرر الدراسـي، ولذلك لم أكن أبـدا فـي وضـع يسـمح لـي بتصنيف أدائها فـي أيّ وقت بعد أن بـدأت علاقتنا. كانت مثابرة وذكية بما يكفي للقيام بعمل جيّد بمفردها. بقينا أصدقاء على مدار العقود التالية، برغم انقطاع الإتصال الرومانسي. ثمّ تزوّجت وانجبت ثلاث بنات أحسنت تربيتهن، خاصة وأنّهن اظهرن مواهب موسيقية تكفلت بهنّ لوحدها بعد وفاة زوجها المبكّرة. لم افقد أبدا إعجابي الشديد بشخصيتها المفعمة بالحيوية والنشاط ودفئها الحسي وإعجابي بتفانيها المحبّ اثناء تربية بناتها الثلاث.

نظـرا لأنّ الإتصـال الشـخصي يعتمـد بقوّة على الإنطباعات والتفسـيرات، يمكـن أسـاءة فهـم الشـخص أحيانـا إمّا عن طريـق الخطأ البـريء أو الإنتهازية، التـي تسـبّب درجـة من الأضرار، خاصّة في العلاقـات الهرمية. لقد مررت بهذه التجربة عندما كنت في پِرنسـتُن. كان لديّ اتصال سـطحي، رغم أنّه قيّم ومثير بالنسبة لي بجورج كينَن، الذي بعد أن ترك الخدمة العامة، اصبح مرتبطا بمعهد الدراسـات المتقدمـة فـي الجامعـة. قدمت مسـاعدته البحثية السـابقة، وهي فتاة أيرلندية شابّة طلبا لوظيفة مماثلة معي، فقبلت طلبها وكنّا ودودين ولكن بطريقة منفصلة ومهنيّة فقط. لم تعجبني قدرتها كمساعدة باحث وقرّرت في نهاية العام عدم إعادة توظيفها. بعد ذلك بوقت قصير، إشتكت الى إدارة الجامعة من أنّني

أنهيت عملها لأنّها ما كانت مقتنعة ببحوثي، ثمّ تضمّنت ادعاء آخر فحواه أنّها رفضت إقامة علاقة حميمة معي. كان هذا خطأ تاما لكلّ من يعرف. لم نلتقِ قطّ خارج المكتب أو في أوقات أخرى غير يوم العمل العادي من 9- 5. قام مكتب الموارد البشرية في الجامعة بالتحقيق في شكواها. ولحسن الحظ بالنسبة لي، أنّ الموظفات في مكتبنا، اللواتي سُئلن عن سلوكي، أيّدن وجهة النظر القائلة بأنّها هي التي كانت تهتمّ بي وتودّ أن تغازلني وأنّها هي من فشلت لأنّني لم أستجب. لو كانت سكرتيرات المكتب مستاءات من سلوكي، لكان من الممكن أن يُسبّب لي ذلك التحقيق الكثير من الألم وبعض الأذى الوظيفي. من المؤكّد أنّ النساء اللواتي يشغلن مناصب مهنية ثانوية غالبا ما يكُنّ اهدافا لرؤساء ذكور «مفترسين» وهنّ يحتجن ويتطلبن الحماية. نأمل أن يقبل الرجال الحساسون هذا المقياس من التعرّض لمزاعم التحرّش غير العادلة كنوع من «التعويضات» للإساءات الذكوريّة في الماضي. ولكن عندما يصل الموضوع الى موقف مثل الذي أشرت اليه في اعلاه تصبح القضية بهتانا وادّعاءات كاذبة وإساءة مريرة.

إنّني ادرك تماما أنّ الأخلاق الأبوية Patriarchal Ethics قد هيمنت على مشهد التوظيف لفترة طويلة جدّا. خلال السنوات، التي امضيتها في جامعة برِنستُن، سمعت العديد من الحوادث القبيحة لمضايقات اعضاء هيئة التدريس، التي لم يتمّ الإبلاغ عنها ولكن دون الوصول الى نتائج عقابية مناسبة. تضمّنت المظالم، التي حدثت بشكل كبير الإيذاء المزدوج للنساء، أوّلا في الإساءة الفعلية وثانيا في الفجوة المصداقية، التي تركت المرأة غالبا مُذَلة حين تمّ تجاهل الشكاوى الموثقة جيّدا أو حتى التعامل معها بسخرية. على الرغم من الجهود الحثيثة، التي تبذلها النساء ألا أنّه لا يزال من الصحيح في معظم الحالات العامة أنّ الرجل يفلت من العقاب من خلال التستر والكذب بينما تتمّ «معاقبة» المرأة لجرأتها على الشهادة وقول الحقيقة.

أشعر أنّ الكثير منّا عالق في دوّامة اجتماعية تمزج بين ديناميات الصواب السياسي والبقايا الخفيّة والصارخة أحيانا، لأشكال قاسية من التمييز الجنسي والعنصرية التي لا تزال مؤذية للغاية. أتذكّر التأملات الحارقة في قصيدة كلوديا رانكِن Citizen الغنائية الأمريكية، التي تروي فيها هذه الشاعرة الجميلة الملوّنة،

كيف تعرّضت للأذى من وقت لآخر عندما افترض اصحاب الإمتياز الأبيض أنّها عاملة منزلية. وجدت نفسها تُسمّى من قبل أحد معارفها من البيض باسم خادمة سابقة فقط بسبب لون بشرتها. كشخص ابيض، شعرت بأنّني مضطر الى معالجة أيّة بقايا من العنصرية المتضمّنة في مواقفي اللاواعية اتجاه الأشخاص الملونين تماما كما يحتاج المجتمع ككلّ الى الإستجابة بشكل جماعي للإنتهاكات وعدم المساواة التي تعاني منها الأقليّات العرقية، ممّا ينتج عنه أذى وصعوبات اجتماعية واقتصاديـة. غالبـا مـا يتمّ تجاهل هـذه الحاجة حتى يظهر نوع من الأزمات، كما حـدث بعـد أن قتـل شـرطي بدون مُبرّر المواطن جـورج فلوَيد والبلد في خضم جائحة كَوفِد. عندما يتمّ الكشـف المفاجئ عن انماط إسـاءة المعاملة، التي تمّ تجاهلهـا، يظهـر التعبيـر عن غضب الضحيـة ويعمل المجتمع المهيمن على حدّ سواء لإعادة تجميع صفوفه ردّا على الغضب المكبوت واسباب الإستياء المُبرّرة.

إذا كان تصحيـح مثـل هـذه الأخطاء التاريخية يؤدّي أحيانا الى تلقي رجال أبرياء واحيانا مهمّين لبعض الضربات من قبل النسويات الغاضبات والمؤذيات Angry or Hurt Feminists على طول الطريق، فهذا أمر مؤسـف وقد يكون غير عـادل للغايـة فـي حـالات معيّنة. ومـع ذلك يجب قبوله سياسـيّا وثقافيّا باعتباره الثمـن، الـذي يجـب دفعـه للتغلـب على مظالـم الماضي - الإحتـكاك الحتمي لعجلات العدالة الدوّارة الناتجة عن عكس وتصحيح بعض أعباء (سوء) التفسير. كما أنّ معاملة المستوطنين للنسوة من السكان الأصليين ومعاملة السود من قبل البيض والفقراء من قبل الإثرياء والمهاجرين من قبل المواطنين، سوف تظلّ هذه المعاملة تتسبّب في مظالم فرديّة في سياق تعزيز العدالة الجماعية. وستظلّ هذه العملية التراكمية بحق تقدّما أخلاقيا حتى لو كانت شـبكة العدالة تعاقب أحيانا بشكل خاطئ.

الطلبة كأصدقاء وزملاء

عنـد التفكيـر مـرّة أخرى، يبدو أنّه من الطبيعـي، بل من المتوقع، أن يصبح طلبة الدراسـات العليا أصدقاء في كثير من الأحيان للأسـاتذة أكثر من الطلاب الجامعييـن. كان هـذا صحيحـا حتـى في جو الفنون الحرّة، الذي كان سـائدا في

برِنستُن، التي كانت بلدة صغيرة تهيمن عليها الجامعة. في بعض المدن الصغيرة، التي توجد فيها كليّات، توجد اتصالات بين الطلبة/اعضاء هيئة التدريس أقوى ممّا كنت أشعر به في برِنستُن. جزء من التفكير هو أنّه في العلوم السياسية، كان كافة طلبة الدراسات العليا المسجلين في الجامعة يعملون للحصول على درجة الدكتوراه. تُمنح درجات الماجستير فقط، إذا فشل الطالب في الحصول على موافقة هيئة التدريس لمواصلة المسار المؤدي الى درجة الدكتوراه. لقد كان نوعا مشكوكا فيه من جائزة ترضية قد تكون أوراق اعتماد مضللة Misleading Credential تماما.

قد تتطوّر درجة معيّنة من التقارب بين الطلاب الجامعيين والمشرفين عليهم من اعضاء هيئة التدريس اثناء عملية كتابة أطروحة عليا، وكانت جانبا مميّزا للسنة الأخيرة من تجربة جامعة برِنستُن. وغالبا ما انتجت اعمالا تكون مثيرة للإعجاب، وكأنّها قد قام بها طلبة الدراسات العليا واحيانا حتى تحقيق جودة قابلة للنشر.

عندما يتعلق الأمر بطلبة الدراسات العليا، كان الشعور بالمجتمع أكبر حيث أنّ حجم المجموعة في أيّ وقت يكون صغيرا. قرّرت الجامعة بطريقة غامضة تحديد عدد طلبة الدراسات العليا، الذي يَسُمح لكلّ قسم من اقسام العلوم الإجتماعية أو العلوم الإنسانية بقبولهم في عام معيّن. إذا رفض الطالب المقبول دعوة، فليس هناك فرصة لقبول طالب آخر مكانه من قائمة احتياطية. نتيجة لذلك، ظلّ حجم مجموعة الخريجين صغيرا، أقلّ بكثير من واحد لكلّ عضو هيئة تدريس. ولكن أولئك الذين يتم قبولهم كانوا من ذوي الجودة العالية للغاية. كانت الإعتبارات غير الأكاديمية، مثل كونك إبن خريج سابق أو رياضيا متميّزا في المدرسة الثانوبة، غير ذا صلة على مستوى الدرسات العليا. وهذا يعني أنّ طلبة الداسات العليا عموما كانوا أكثر موهبة في المتوسط، فضلا عن كونهم أكثر تنوّعا فيما يتعلق بالخلفية الطبقية والعرقية من الطلاب الجامعيين في برِنستُن. كان هذا هو الوضع السائد قبل تجديد سياسات القبول في السبعينات لفتح المجال أمام مزيد من طلاب الأقليّات والبدء في قبول النساء. إحتفظت جامعة برِنستُن بطابعها المميّز كجامعة للبحوث في الخطوط الأمامية، واستمرّت

أيضـا فـي الحفـاظ علـى كليّتها الجامعية (مرحلة الدراسـة الجامعية الأولى) في صميم مهمتها التعليمية. تناقض هذا مع تجربتي السابقة في ييل وهارڤرد، حيث كانت اهتمامات الطلاب الجامعيين في كثير من الأحيان خاضعة بطرق مؤسفة لأولويات برامج الدراسات العليا وأهواء الأساتذة المشاهير.

لقد اصبحت صديقا مُقرّبا للعديد من الطلاب الذين سـجّلوا في مقرراتي الدراسية أو قدّموا اطروحات الدكتوراه الخاصّة بهم تحت إشرافي. هناك الكثير مـن الإختلافـات فـي نصائـح الدكتـوراه. مـا أودّ التأكيد عليه هنا هـو أنّ ملذات الزمالة، تؤدي الى تآكل التسلسـل الهرمي الذي يمكن أن يفصل الأسـاتذة عن طلبتهـم، خاصّـة عندمـا تكـون الفروق العمرية كبيرة. نظرا لأنّ الطالب هو الذي يختار مشرفه، فهناك ميل لأن تكون العلاقات متجانسة، ولكن ليس دائما. ولأنّ عـدد اعضـاء هيئـة التدريـس في المجـال المُختار صغير جـدّا، فإنّه يخلق بعض الرفقة الغريبة.

إفترضت على مرّ السـنين أنّني كنت أكثرا تأثيرا على الطلبة، الذين اهتمّوا بقضايا العالم الواقعي المتعلق بالعدالة الإجتماعية والإقتصادية والسياسيّة. عادة مـا كان لـدى هـؤلاء الطلبـة خلفية خاصّة منحتهم اهتمامـا مجتمعيّا معيّنا لم يتمّ التطـرّق اليـه بالضـرورة من خـلال عملهم الأكاديمي. من حين لآخر كان هؤلاء الطلبة يأتون من اقسام أخرى ويسعون لإشرافي عليهم، ليس من أجل اهتماماتي الأكاديمية بل لأنّهم افترضوا أنّني سأسـتجيب لوجهات نظرهم التقدّمية، وكنت كذلك بشكل عام.

لأسـباب لـم أعـد اتذكّرها، كان لديّ العديـد من الطلاب بعد فترة وجيزة من مجيئي الى پِرنستُن، وكانوا من پورتوريكو. على وجه الخصوص، أقنعني طالب دراسـات عليا في التاريخ، للأسـف لا أتذكّر إسـمه، أن أهتمّ بسياسـة الجزيـرة، التـي كانـت حتـى تلـك اللحظـة معروفة بالنسـبة لـي باعتبارها فقط كوجهة سياحية مفضّلة لأولئك الذين يعيشون على الساحل الشرقي. على أيّة حـال وبنـاء علـى إلحاح هذا الطالب، وافقت على زيارة جزيرة ڤِكِس Vieques التـي تُسـتخدَم مـن قبل البحريـة الأمريكية كميدان لاختبـار القذائف المدفعية وصواريـخ الطائـرات. كانت الإحتجاجات تأتي مـن مجموعات الصيادين في

الجزيرة، الذين تأثرت سبل عيشهم التقليدية واسلوب حياتهم بشكل سلبي بسبب تلك التجارب. لقد عرّفتني الزيارة على واقع استعماري كلاسيكي. شعر سكان الجزيرة بالغضب من الوضع لكنّهم افتقروا الى النفوذ السياسي والأفكار التكتيكية حول كيفية بناء تحدّ فعّال. أعطاني تعرّفي الشخصي على الوضع، والذي تضمّن الإتصال بمن يُسمّون «إندِپندِستاس» (المطالبون بالإستقلال)، زيادة الوعي بالأبعاد السياسية لپورتوريكو. وهو الأمر الذي ساعدني على فهم بعض المفارقات، التي لا تنطبق على جزيرة ڤِكِس ولكن ايضا على الجزيرة الرئيسية. تمّ تجسيد المفارقة الأكثر حدّة في العادة الپورتوريكية المتمثلة في أغاني الإستقلال الحماسية عندما يكونون في الحانات والمقاهي. ولكن عند التصويت على مستقبلهم السياسي، لدعم إقامة الدولة أو الحصول على وضع الكومُنوَلث، فإنّ هؤلاء الأشخاص لم يرغبوا في خسارة بعض المزايا الماديّة، لا سيّما الإعفاء من الإلتزامات الضريبية، وهو أمر كلاسيكي، لتسلط حالة العقل على القلب والعواطف، ممّا يسمح المجال لاعتبارات عملية. نظرا لأنّ پورتوريكو وشعبها قد تعرضا للإهانة خلال رئاسة ترامپ، فقد تمّ استبدال هذه المفارقة بعودة المشاعر المناهضة للإستعمار والمصحوبة بدعوة لتنفيذ حقّ پورتوريكو في تقرير المصير.

كنت أقدّر بشكل خاصّ معرفة أنّ المشاكل الوجودية للناس العاديين لا ينبغي تجاهلها من قبَلِ المثقفين في بحثهم الأكثر ندرة لفهم قضايا الفقر والإستعمار. أعدّتني هذه التجربة الميدانية الموجزة لپورتوريكو لقضايا أخرى تتضمّن تفاعل الشمال مع الجنوب العالمي، الذي جاء في طريقي، وجعلتني أكثر استجابة للعلاقات بين الصفوف الدراسية والمكتبة والنضال من أجل العدالة على ارض الواقع. الذي أدهشني هو أنّ قلة قليلة من زملائي تجرأوا على الخروج من ابراجهم وحصروا مشاركتهم في القضايا العالمية على التصويت في الإنتخابات ومتابعة محطة سي أن أن والقراءات المتأنية لصحيفة نو يورك تايمز والإستشارات. وبالنسبة الى بعض الباحثين الجادّين المهتمّين بالقضايا الحالية، الى مختلف المحفوظات Archives، التي تؤثّر على اهتماماتهم البحثية. كان معظم زملائي ينظرون بازدراء الى الإنخراط على الأرض كمواطن مهتم، أو ما

هو أسوأ، في تضامن علني مع حركة سياسية. إنّ ذلك يتعارض مع اخلاقياتهم المهنية ذات الأسس الأكاديمية. في عزمي على العمل كمواطن جاد، أن أتعمّد طمس هذا الخط الفاصل بين العلم والنشاط السياسي حتى يختفي تقريبا.

ربّما كانت أهم مبادرة مستوحاة من الطلبة خلال سنواتي التعليمية التي بلغت 65 عاما الماضية، هي مقالة مفصّلة بعنوان «الأسلحة النووية والقانون الدولي». تمّت كتابتها بالتعاون مع لي ميرَوِتز وجاك ساندِرسُن وتمّ نشرها وتوزيعها في عام 1981 من قبل مركز دراسات پِرنستُن الدولي. أكثر من معظم الكتابات الأكاديمية، التي قمت بها، كان لهذه المقالة بعض التأثير على قضاة محكمة العدل الدولية، الذين قدّموا لي ملاحظات إيجابية قبل بضع سنوات من صياغة رأيهم الإستشاري التاريخي لعام 1986 حول «مشروعية الأسلحة النووية». كانت الأسلحة النووية ومسألة إلغائها هي الشاغل الأكثر انتشارا على مدار مسيرتي العلمية. وقد يكون هذا أنجح علاج لي للموضوع، والذي لم يكن ليحدث لولا الحماس والطاقة التعاونية لهذين العالمين الشابين. ومؤخرا وبتشجيع وتوجيه تحريري من صديقي السويدي ستيڤان أندرسُن، قمت بنشر كتاباتي جميعا حول الأسلحة النووية ونزعها في عام 2019. لذا فإنّ ما ساعدني أولئك الطلبة على القيام به منذ أكثر من 40 عاما، أصبح شغلي الشاغل مدى الحياة. تعمل المنح الدراسية، كما هو الحال مع التدريس، بشكل أفضل عندما تكون حوارية وليست مجرّد مُنولوج مستنير It is Dialogic, and not just an Informed Monologue.

ربط السياسي بالشخصي في أطراف الحياة الأكاديمية

من بين أكثر طلبة الدراسات العليا إثارة للإهتمام بالنسبة لي، كان أحد الطلبة الذي جاء من جزيرة إيلو إيلو في أرخبيل الفِلِپين. جاء الى صفي من مدرسة پِرنستُن، وهي منشأة منفصلة مؤسّسيا تدرّب طلابها على خدمة الديانة المسيحية بأدوار مختلفة. كان لِستر رويز هادئا ومهذبا وموهوبا فكريّا ومكرّسا لتعزيز بديل ديمقراطي في بلده الأصلي. كانت تجربتي الأولى عن الفِلِپين في السبعينات عندما دُعيت لأكون المتحدّث الرئيسي في مؤتمر عُقِد احتجاجا على

القواعد العسكرية الكبيرة في البلاد، والتي ادّعى النقاد أنّها تهدّد الإستقلال الفِلِپيني والحقوق السيادية. قدّمت حديثي في مانيلا لدعم التحالف المناهض للقواعد، والذي كان يحظى بدعم شعبي قويّ في البلاد، على الرغم من معارضة الحكومة له. شعرت بالقلق بعض الشيء من عنوان رئيسي في إحدى الصحف الوطنية الرائدة يقول، «فَولك يحثّ على نقل القواعد العسكرية الى جزيرة گوام». إنّ «عسكرة گوام» لم ترد في ملاحظاتي، ولم تُمنح لي أبدا الفرصة في وسائل الإعلام لتصحيح مثل ذلك العرض الخاطئ لأقوالي، التي لم يرد فيها ذكرُ گوام أبدا، ناهيك عن الدعوة الى مزيد من عسكرة الجزيرة، وهو ما عارضته.

حين أصبح لِستر تلميذي، ازداد تشجيعي أيضا على اظهار الإهتمام بالفِلِپين من قبل طالب دكتوراه تقدّمي في جامعة پرِنستُن، إسمه والدِن بِلّو، الذي كان ناقدا جذريّا للسياسة الخارجية الإمپريالية الأمريكية. أصبح والدِن من بين أكثر منتقدي الإمپريالية الأمريكية احتراما في منطقة المحيط الهادئ ولا يزال صديقا عزيزا. كان له دور فعّال في تنظيم جلسة للمحكمة الدائمة للشعوب في عام 1980 عُقِدت في بروكسِل وخُصّصت لانتهاكات حقوق الإنسان في الفِلِپين. كانت المحكمة منظمة بشكل جيّد ووثقت العديد من أسوأ جرائم دكتاتوريّة ماركُس، التي كان الشعب الفِلِپيني ضحيّتها. عملت ضمن هيئة المحلفين بالمحكمة ووجدت الإجراءات مفيدة ومؤثرة. نُشرت تلك الإجراءات لاحقا في الفِلِپين واعتبرت أنّها ساعدت في تعرية حكومة ماركُس وتشويه سمعتها، وبدت جنبا الى جنب مع اغتيال بنينو أكينو في المطار لدى عودته الى بلده ثمّ تبعها تزوير الإنتخابات، مفيدة في صعود حركة سلطة الشعب في منتصف الثمانينات، والتي قادت في النهاية الى سقوط حكومة ماركُس ونظامه الدكتاتوري عام 1986.

نظّم لِستر رويز بالتعاون مع اخته الناشطة، التي عاشت في الفِلِپين، زيارة لي مكثفة للغاية لتقصّي الحقائق في البلد جرت في أوائل الثمانينات. عقدتُ العديد من الإجتماعات في مانيلا، بدء من عدة اجتماعات مع ثلاث شخصيّات سياسية معارضة في مجلس الشيوخ، من بينهم جوزِف إسترادا، الذي اصبح

رئيسا للبلاد فيما بعد، وخوزَيه ديوكنو ولورَنزو تانيادا، بالإضافة الى سفير الولايات المتحدة نِكولاس بلات، الذي استقبلني بلطف ولكنّ علمني لا شيء لم أكن اعرفه من قبل. سافرت في جميع انحاء البلاد الى حدّ ما ووجدت نفسي منهكا ممّا اضطرني الى الغاء لقاء مع زعيم من السكان الأصليين قام برحلة طويلة من الريف الداخلي البعيد الى العاصمة ما نيلا لمجرّد التحدّث معي. لقد كنت مرهقا في كثير من الأحيان، لكنّني لم اشعر بالإرهاق أبدا لدرجة أنّني لم ألغ اجتماعا من هذا النوع قبل ذلك أو بعده. لكنّني شعرت حينها كما لو أنّني سأنهار أو يُغمى عليّ إذا مضيت قُدُما. إستسلمت جزئيا للطقس الحار الرطب، والذي كان يمثّل تحدّيا بالنسبة لي. ومع ذلك وبعد عقود، ما زلت اشعر بآلام الذنب لأحباط آمال ذلك الزعيم. أذكر هذه الأحداث بهذا الشكل الموجز للغاية لكنّها بالغة الأهميّة. لقد قمتّ بالعديد من البعثات المماثلة لتقصّي الحقائق في الهند وجنوب أفريقيا وكوريا الجنوبية واليابان ونو زيلندا، بنفس المستوى من الإتصال المكثف بدول أجنبية ولقاء بعض الشخصيات الوطنية الرائدة، كانت جميعا تجربة تعليمية مكثفة ذات آثار طويلة الأمد. يوضح هذا كيف يقوم الطلبة بتشكيل عمل أساتذتهم ورؤيتهم للعالم دون وضع مثل هذا الهدف في الإعتبار.

مثّل پَول واپنَر توجّها مختلفا عندما التقينا اثناء قيامه بدراسة الدكتوراه في جامعة پرِنستُن في الثمانينات. منذ البداية جعلني دفء پَول الشخصي وتحمّله الأخلاقي وميوله السياسيّة الموجّهة نحو نشاط المجتمع المدني والإهتمامات البيئية، أقدّره كطالب متعاطف ومشارك أخلاقيا. جمع پَول بين الإلتزام العميق بالحفاظ على وحشية العالم الطبيعي Wildness of the Natural World والسيطرة الممتازة على العلاقات الدولية. كان نهجه موزّعا أيديولوجيا، ممّا يعني أنّه بدا مرتاحا للعمل مع مايكِل والزَر وكذلك معي، على الرغم من إدراكه جيّدا لهويتنا العدائية، مثل اليهود الذين يفكّرون بشكل مختلف تماما ازاء إسرائيل وفلسطين. تزوّج پَول لاحقا من دايان سِنگرمَن، التي كانت ايضا طالبة دراسات عليا في جامعة پرِنستُن ومتخصّصة في دراسات الشرق الأوسط، ثمّ اصبحت فيما بعد باحثة مرموقة في مجالها.

أصبح پَول صديقا حميما وقريبا بما يكفي ليكون شريكا في لعبتي التنِس والأسكواش. والأهمّ من ذلك اصبح صديقا بشكل مستقلّ مع النساء اللواتي تعاقبن في حياتي عندما كان طالبا في جامعة پرِنستُن. بقينا قريبين بينما هو وهِليل مترابطان للتعاون في تأليف كتاب يتناول تغيّر المناخ. أشكّ في أنّني مارست تأثيرا كبيرا على پَول، على الرغم من أنّه يؤكّد أنّني فعلت ذلك، باستثناء أنّني كنت أمثّل مهنة جامعيّة ووسّعت المعنى الطبيعي «للحياة الأكاديمية»، ليشمل الإستكشاف الشخصي والمشاركة السياسيّة. ربّما يلومني پَول على إبقائه محصورا في الحرم الجامعي عندما فضّل التجديف بزورق الكاياك في البحيرات النائية في ولاية ألاسكا أو بنصب خيمته منفردا في الأجزاء البريّة من ولاية نو مكسيكو.

حدثت لي تجربة قويّة في التأثير المباشر بطالب سابق اسمه آندي شتراوس، الذي انتقل من پرِنستُن الى كليّة الحقوق بجامعة نو يورك، ثمّ حصل على وظيفة أكاديمية ويعمل حاليا عميدا لكلية الحقوق بجامعة دَيتُن في ولاية أوهايو. كان آندي طالبا جامعيّا ذكيّا ومشاركا بدوافع مثاليّة مقيّدة بشعور عملي لما يمكن تحقيقه سياسيّا في ظلّ الظروف القائمة. طوّر آندي التزاما بإنشاء نوع من الهيئة التشريعية العالمية المنتخبة بشكل مباشر والتي تعمل على المستوى العالمي إمّا داخل الأمم المتحدة أو خارجها. يجري انتخاب اعضائها مباشرة من قبل الناس العاديين. أقنعني بالإنضمام إليه في كتابة سلسلة من المقالات لتطوير الحجج لإنشاء جمعية عالمية للشعوب، أو برلمان عالمي. كان نموذجنا هو البرلمان الأوروپي، بما في ذلك تطوّره من مكوّن مؤسسي غير ذي صلة تقريبا في الإتحاد الأوروپي، الى مصدر مهمّ للرأي والتأثير الموازي للمؤسسات الحكومية الدولية المتمركزة في بروكسِل.

لقد تخطّى حماس آندي تردّدي العام في الإيمان بمقترحات لإصلاح المؤسسات. شعرت أنّ المبادرات المؤسسية، حتّى لوتغلبت على مقاومة تأسيسها، ستكون عرضة لضغوط التعاون المرتبط بالنفوذ الجيوسياسي ومصادر التمويل. حتّى وقت قريب جدّا، كانت المحكمة الجنائية الدولية تؤكّد بشكل كبير مخاوفي، مدّعية أنّها مكلفة بتوسيع المسائلة الجنائية الدولية لتشمل جميع

الجناة بغضّ النظر عن الإنتماء الوطني. ولكن من الناحية العملية تركّز فقط تقريبا على افريقيا خاصّة جنوب الصحراء الكبرى، وتجنّب الحالات، التي يكون فيها الغرب هدفا للتحقيق ولوائح اتهام محتملة. لقد بدأ هذا الواقع يتغيّر مع تحقيقات المحكمة الجنائية الدولية المقترحة التي تنطوي على مزاعم عن جرائم حرب أمريكية في افغانستان وسلوك إسرائيل الإجرامي فيما يتعلق بالفلسطينيين. تسبّبت هذه المبادرات في ردود فعل عدائية من قبلِ الولايات المتحدة وإسرائيل، حيث شجبت كلاهما المحكمة الجنائية الدولية باعتبارهاغير مسؤولة جنائيا من خلال تحدّي السياسات الأمنية المشروعة للدول ذات السيادة. وذهبت الدولتان الى أبعد من ذلك لحدّ فرض عقوبات على العديد من مسؤولي المحكمة الجنائية الدولية أنفسهم، لأنّهم قاموا بواجبهم القانوني بإخلاص وهم يبتعدون عن قواعد اللعبة السياسيّة. بطبيعة الحال، من المحتمل أن تكون المحكمة الجنائية الدولية أكثر تهديدا للنظام القائم على البرلمان العالمي، ما لم يكن هذا الأخير قد يُمنَح سلطة لسنّ القوانين. وهذا أمر غير مرجّح الى حدّ كبير في المستقبل المنظور. يبقى أن نرى ما إذا كانت الجغرافية السياسية قادرة على خنق سيادة القانون والمبادرة الديمقراطية العالمية، التي طال انتظارها.

لقد وجدت أنّ التجاوب مع مخاوف طلبتي الحاليين والسابقين بشأن أوجه القصور في المجال العام، كان جزء من فترة تدريبي كمواطن معنّي بقضايا الناس، ولكن صادف أن أكون استاذا/باحثا في ذات الوقت. شعرت أنّ دعم مشاريع مثل جمعية الشعوب العالمية أو المحكمة الدائمة للشعوب، كان نتاجا طبيعيا للرؤية العالمية، التي أيّدتها، وأنّ مشاركتي كانت نتيجة طبيعية. لقد تضمّنت القيام بكلّ ما في وسعي لتغيير النظام العالمي بما يتماشى مع مقتضيات السلام والعدالة والبيئة.

لم اتطرّق الى الإنجراف لعمق النضال الفلسطيني من قبل الطلاب. واعتقد أنّ هذا يعكس حقيقتين. كان هناك عدد قليل جدّا من الطلاب الفلسطينيين في جامعة بِرنستُن. ولذلك انخرطت في أجندة فلسطين/ إسرائيل الى حدّ كبير خارج إطار الجامعة.

ومع ذلك، أودّ أن أذكر طالبا جامعيّا في بِرنستُن، وهو مارك برُزونسكي،

الـذي بـدأ صهيونيّـا متشـدّدا أثناء وجوده في الجامعـة، حيث كان يعارض بعض آرائـي اثنـاء المحاضـرات، التي عُقدت في قاعة كبيرة. كان ودودا مع العديد من ضباط الجيش الإسـرائيلي المسـجلين في برنامج الماجسـتير في مدرسة وودرو وِلسُن للشؤون العامة والدولية. كان يجلس في الخلف وعلى ما يبدو يسخر من كلماتي. ظهر مارك لاحقا بشـكل مفاجئ كصوت ضمير لليهود القلقين بشـكل متزايد بشـأن معاملة إسـرائيل للشـعب الفلسـطيني، وشـكّل لجنة علقت بشـكل نقـدي مـن موقـع المطلـع في واشـنطن علـى القضايـا، التي تؤثّر على إسـرائيل والشـرق الأوسـط، وخاصّة تلك التي تتعامل مع السياسـة العامة. أعطاني مارك سببا للإعتقاد بأنّ تسجيله في مقرراتي الدراسية وحضوره فيها قد أثّر على تطوّره، ومن الواضح أنّ وجهات نظر سياستنا تقاربت على مرّ السنين.

وهنـاك طالـب سـابق أصبح فيما بعد صديقـا حقيقيا، هو تَوم پلَيت. ممّا لا شكّ فيه أنّ صداقتنا، التي وُلدت بعد فترة طويلة من مغادرة توم لجامعة پِرنستُن حيث حصل على درجة الماجستير في ما كان يُطلق عليه آنذاك ببساطة مدرسة وودرو وِلسُن للشؤون العامة والدولية. سهّلت الجغرافية الأمر حين كنت أعيش في سانتا باربرا منذ بداية عام 2002 وتوم يُقيم منذ فترة طويلة في لوس أنجلُس. من بين طلبتي السابقين، يأتي توم على رأس القائمة عندما يتعلق الأمر بالموهبة، لكنّـه يمتلـك أيضـا سـمات أكبر من حياة التبجّح والسـخرية الذاتية، التي تميّزه عـن غيـره. وكمـا هو متوقع، فهذا تـوأم يُحيّر الكثيرين ممّن يقابلونه، على الأقلّ في وقت مبكّر. ولكن تحت جلد توم يوجد إنسان مهتمّ بشكل استثنائي، وربّما يخشى الى حدّ ما من الكشف عن مشاعر أكثر ليونة من التعاطف.

لدى توم تحوّل حادّ في العقل وطوّر اسـلوب كتابة حيويّ مثل شـخصيته. إبتكر مهنة تجمع عدة واجهات؛ الأكاديمية والإعلام، مع تخصّص في الصحافة، خاصـة القضايـا المتعلقـة بالصيـن في السـنوات الأخيرة وايضا المنح الدراسـية الخاصّـة بدراسـة الصحافـة. تمكّـن توم من تطوير «صداقات» مهنية مع سلسـلة من القادة الآسيويين أدّت الى اجتماعات وحوارات حوّلها الى أكثر الكتب مبيعا في المنطقة. ضمّت تلك الحوارات شـخصيّات مثل لي كوان يو وبان كي مون ومثيـل محمـد. أكثـر مـن الطلبـة الآخرين، أعتبرُ توم بطلا للأفـكار التي تتضمّن

ذوقا للأناقة عندما يتعلق الأمر بنمط الحياة والكرم عندما يتعلق الأمر بالضيافة، ونوع من الإعتراف على مضض بأنّ الشخصيات الرئيسية في السياسة الخارجية الأمريكية تستحق التقدير وربّما الإحترام. لا يمكنني أبدا أن أسامحه تماما سواء بإعجابه العلني بهنري كيسِنجَر أو بان كي مون، وكليهما اعتبره من العاملين الأساسيين في عالم مليء بالمشاكل، ولم يلعبا دورا بنّاء في صياغة الحلول، على الرغم من أنّهما قد أثبتا براعتهما في خدمة سيّدهما الجيوسياسي.

وكما طرحت في اعلاه عن أثر الطلبة أثناء التحاقهم بالجامعة، وحتى أكثر بعد ذلك، على مسار اهتماماتي وانشطتي بطرق متنوّعة. لا ينبغي أن يقتصر مجتمع التعلم والمشاركة على الزمان والمكان، اللذين كان الطلبة فيهما موجودين في الحرم الجامعي. من هذا المنظور، نشأت واحدة من أكثر صداقاتي للتعاون الفكري المُرضي من ندواتي لطلبة الدراسات العليا حول القانون الدولي، التي قمت بتدريسها عندما كنت استاذا زائرا في جامعة كولومبيا في السبعينات. كان بوب جوهانسُن، هو الطالب النجم في المجموعة، واستمرّ في العمل كمتعاون مع النظام العالمي وتمتع بمهنية علمية متميّزة في كليّة نوتِردَيم وألف كتابا مهمّا حول التطور الفكري الخاصّ والمصلحة البشرية: تحليل السياسة الخارجية للولايات المتحدة (0891). شكواي الوحيدة خلال العقود الماضية في هذا الصدد هي مشاركتي في مؤتمر تكريم تقاعده في نوتِردَيم. بينما كنت أشعر بالرضا والإثارة نحو بوب، جعلني الحدث اشعر بأنّني أكبر سنّا ممّا كنت عليه، وأنا أحتفل بتقاعد شخص كان يوما ما أحد طلبتي! كانت زوجة بوب لفترة طويلة، روث آن جوهانسُن، مساعدتي في البحوث لعدة سنوات. وهو منصب أدنى بكثير من مستوى موهبتها، لكنّها قامت بواجباتها برشاقتها المعتادة وكفاءتها وروحها المشرقة.

وأخيرا، هناك شِري بُرّ، من بين اصدقائي المقربين منذ كانت وقتها طالبة دراسات عليا في بِرنستُن، وتبعتها في دراسة القانون في جامعة ييل ثمّ التحاقها بكلية الحقوق بجامعة نو مكسِكو. كان هناك عدد قليل من النساء الأمريكيات من أصل أفريقي مسجّلات في جامعة بِرنستُن في السنوات، التي كانت فيها شِري طالبة. جعلتني أكثر وعيا بالآلام التي تسبّبها العنصرية النظامية قبل أن أفهم

الوضـع تمامـا. كانـت لديها مهنيّة رائعة وتخصّصت في القانون والفنون، ولكنّها أجـرت أيضـا ابحاثـا تاريخيـة أصليّة حـول العنصريّة. ومن بيـن الذكريات ذات الصلة، الطلب الإستثنائي على مواهب شِري من قبل كليات الحقوق في جميع انحـاء البـلاد، والذي شـهدته عن طريـق المكالمات الهاتفية مـن العمداء الذين بحثـوا عـن طـرق لاقناعها بالإنضمـام الى اعضاء هيئات التدريـس في كلياتهم. لحسـن الحظّ، توقفت المكالمات ولم اسـتطع التوقف عن الثناء عليها إلّا بعد أن انتهى الأمر بها في اختيار الإلتحاق بجامعة نو مكسِكو، جزئيا لتكون بالقرب من عائلتها. بقيت شِري هناك حتى تقاعدت قبل عام.

الشخصيّات العامة

كان لديّ أيضا العديد من الطلبة الذين استمرّوا في الحصول على وظائف عامة مهمّة، إمّا أسعدتني أو أزعجتني أو تركتني معجبا بإنجازاتهم دون معرفة كافية أو اهتمام بالحكم على ما اختاروا فعله في حياتهم. أذكر العديد من الأشخاص الذين يوحون بالخلفيات المتنوعة للطلاب في جامعة پِرنستُن بأولوياتها المتميّزة في جذب قادة المسـتقبل وتهيئتهم، أو كما ذكرنا سـابقا الشـعار بأنّ «پِرنستُن في خدمة الأمة». أفترض أنّها سـمة من سـمات مهنة اكاديمية داخل جامعة صغيرة نسبيّا تستقطب طلابها من النخب الأمريكية والأجنبية وتتواصل مع بعض الذين يمضون للحصول على وظائف لامعة، وتدوين ما إذا كان وعدهم واضحا اثناء وجودهم في پِرنستُن أو ظهر في وقت لاحق. ربّما ايضا، نظرا لأنّ هؤلاء الطلاب غالبا ما تكون لديهم اهتمامات دولية، وكانت هناك مقرّرات دراسية محدودة في الجامعة، فقد كنت مستهدفا بشكل خاصّ من قبل مثل هؤلاء الطلبة.

القائمة طويلة نوعا ما وسأختار بشكل عشوائي للإشارة الى تنوّع تجربتي. حدث أنّ الأبرز على الإطلاق هو شخص لم أتذكّره جيّدا، وهو روبرت مَولَر، المدير السابق لمكتب التحقيقات الفدرالي والمستشار الخاص المشهور في قضية الجرائم المزعومة المختلفة، التي احاطت بحملة انتخاب دونَلد ترامپ للرئاسة عام 2016. كتب مولر اطروحته العليا تحت اشرافي، وأنا الشخص الوحيد الذي اعترف به رسميا، وهو ما فعله بلطف حين شكرني على المساعدة. أعدت قراءة

اطروحته لأتتبع دوري في ماضيه ووجدت نفسي معجبا بالطريقة الناضجة، التي تعامل بها مَولَر مع مجموعة صعبة من القضايا القانونية الفنية. كتب عن القرار المطعون فيه حول ما إذا كانت محكمة العدل الدولية في لاهاي يجب أن تقبل الإختصاص القضائي للبتّ في النزاع بين أثيوبيا ولايبيريا من جهة وحكومة جنوب افريقيا من جهة أخرى، كان السؤال القانوني الذي جرى التحقيق فيه هو ما إذا كانت اثيوبيا ولايبيريا تتمتعان بالمركز القانوني للشكوى من تمديد جنوب افريقيا لنظام الفصل العنصري الى إدارتها في جنوب غرب افريقيا (الآن هي دولة ناميبيا ولكن كانت تحت الإنتداب الخاضع للسيطرة الإدارية لجنوب أفريقيا). كنت اعرف المواد جيّدا لأنّني عملت طوال العام السابق خلال الفترة 1964 – 1965 كعضو في الفريق القانوني الذي مثل الحكومتين اللتين اشتكتا وناهضتا الفصل العنصري. لقد تأثرت بشكل خاصّ بأسلوب مَولَر المفصّل ودقته التحليلية جنبا الى جنب مع الكفاءة الفنية والحساسية الدقيقة للآثار السياسية والقانونية الأوسع لكيفية تعامل محكمة العدل الدولية مع تلك القضايا الملتهبة المتعلقة بالعرق والقهر الإستعماري. لقد وجدت أنّ تقييمه للسؤال الأساسي دقيق ومفيد. جادل مَولَر أنّه على الرغم من أنّ جنوب افريقيا قدّمت حجة قانونية أفضل الى حدّ ما، إلّا أنّ القانون كان غامضا، وبالتالي فإنّ القضية الأخلاقية والسياسية لقبول الإختصاص القضائي هي النتيجة المفضلة، وهو ما فعلته المحكمة.

ليس بودي ترتيب طلبتي السابقين حسب اهمية مراكزهم، ولكن هناك طالب مشهور آخر أتذكّره بوضوح، على عكس مَولَر، وهو دَيفِد پترايوس، الذي جاء الى پرِنستُن كضابط عسكري في منتصف العمر، لكنّه سرعان ما برز في السنوات اللاحقة واصبح رئيسا لهيئة الأركان المشتركة، ثمّ مديرا لوكالة المخابرات المركزية. لقد تردّدت شائعات بأنّه مرشح جادّ للحزب الجمهوري في انتخابات الرئاسة لعام 2008، لولا تدخّل رغباته الجنسية! أظنّ، وعلى الرغم من أنّ ذلك قد يكون تفكيرا بالتمنّي أو احلام يقظة غير ضارة، أنّه لو لم يُتّهم پترايوس بشكل غير رسمي بتزويد وثائق سريّة لامرأة تقوم بكتابة سيرته الذاتية ولديه علاقة حميمة معها، فلربّما ما كان ترامپ اصبح حتى مرشحا للرئاسة.

كان بِترايوس من بين مجموعة سمنار لطلبة الدراسات العليا قدمته في مدرسة وودرو وِلسُن. كان مشاركا نشطا في التعبير عن آرائه بوضوح وبطريقة قويّة. كان ودودا ومحبوبا وذكيّا ومتفائلا ويبدو أنّه مرتاح للإتجاهات الرئيسية للسياسة الخارجية الأمريكية. أظهر عقلية واثقة من التغلب على التحدّيات وحلّ المشكلات. غالبا ما يُعزى صعوده المهني النيزكي في القوات المسلحة الى عمله في المراجعة الشاملة لدليل مكافحة التمرّد، الذي يستخدمة الجيش الأمريكي، لا سيّما من خلال مراعاة اخفاقات السياسة الأمريكية في فيتنام.

أكّد بِترايوس في مراجعته للدليل المذكور على بناء علاقات تعاونية وثيقة مع السكان المحليين في المناطق والبلدان، التي يوجد فيها تمرد وتتدخل الولايات المتحدة لنصرة جانب دون الجانب الآخر. كان لنهج بِترايوس تأثير على مجريات الأمور في افغانستان والعراق في حينه. لقد شغل منصب القائد العسكري، بعد أن وصلت تدخّلات تغيير النظام في سياق ما بعد 11 سبتمبر، الى نتائج مختلطة بشكل قاطع كانت بمثابة إخفاقات ستراتيجية، إذا تمّ تقييمها بشكل عملي من خلال اهدافها المفترضة.

كان لديّ على مرّ السنين العديد من الضباط العسكريين الآخرين، الذين اخذوا إجازة لمدة عام من وظائفهم المهنية للحصول على ميزة معيّنة من خلال عام من الدراسة العليا الجيّدة. لقد اصبحت صديقا لابن مدرّب التنس والأسكواش، وهونفسه لاعب جيّد. كنّا نلعب الأسكواش بانتظام ودرس معي مقررا في العلاقات الدولية. بعد عودته الى الكلية العسكرية، وَست پَوينت، حيث كان عضوا في هيئة التدريس هناك، دعاني لأكون المتحدث في مأدبة العشاء، التي اقيمت في نهاية دورة تدريبية حول الوضع العالمي، وتضمّنت محادثات لكبار الشخصيات في الأمن القومي في واشنطن. لم يقتصر الأمر على حضور الخريجين العسكريين فقط، بل حضر ايضا مندوبون من الطلبة من أكثر من 100 جامعة امريكية للمشاركة في الدورة. كان هؤلاء الطلبة غير العسكريين سعداء لاطلاعهم طوال الأسبوع على مبررات لسياسة الحكومة من قبل اعضاء مجلس الوزراء ومستشاري الأمن القومي.

لم اتوقع أبدا أن تتمّ دعوتي مرة أخرى الى أكاديمية وَست پَوينت العسكرية،

بعد أن كان عنوان محاضرتي هناك، «**خطر النزعة العسكرية في الحياة السياسيّة الأمريكية**». كانت المحاضرة بعد وقت قصير من نهاية حرب فيتنام حين شعرت بشدة ازاء تلك الحرب، واعتبرت تلك فرصة لا تتكرّر إلا مرّة واحدة في العمر. وعلى ما أذكر، كان الزّوار من الكليات الأخرى متحمّسين بشدة حول عرضي التقديمي، وانقسم طلاب الأكاديمية الى حدّ ما، وكان اعضاء هيئة التدريس في وَست پَوينت منزعجين بالتأكيد، وتجنبوني خلال حفل الإستقبال بعد المحاضرة. شعرت بالأسف لمدير الأكاديمية الجنَرَل أندرو گُدپاستر. وهو شخصية عسكريّة معروفة تمّ تكليفه بمهمّة محرجة تمثلت في تقديمي للحضور. لا أتذكّر ما قلت لشرح خياري للموضوع، لكنّني أتذكّر الجناح الرئاسي الفاخر حيث أمضيت ليلتي، بما في ذلك البار المجهّز جيّدا. لقد سألت نفسي، «هل كان من غير الناضج من جانبي أن يكون ذلك هو موضوع محاضرتي؟» ربّما تسبّب الأمر بصعوبات لشريكي في الأسكواش، الذي تمّ تكليفه بتنظيم تلك الأمسية، والذي لم يتّصل بي مرّة أخرى أو حتى شكرني على محاضرتي. ما زلت غير متأكّد بعد انقضاء كلّ هذه السنوات فيما إذا كنت قد فعلت الشيء الصحيح. اعتقدت في ذلك الوقت، أنّ عدم ابلاغه مسبقا بموضوعي سيعفيه من أيّة مسؤوليات، لكنّني اخشى أنّه تعرّض لانتقادات حادّة لأنّه منحني مثل ذلك المنبر الرفيع في وَست پَوينت. أشكّ أنّ مثل هذا الخطأ قد تكرّر في السنوات اللاحقة.

هناك ضابط آخر دخل فلك حياتي، وهو الأدمِرال وِليَم كرَو. أخذ إجازة من حياته المهنية في البحرية للعمل على الحصول عل شهادة الدكتوراه في پرِنستُن. بعد سنوات، أحبّ أن يروي القصة، التي ذكرها له زملاؤه في البحرية بأنّ اختيار الحصول على شهادة اكاديمية هو أسوأ مضيعة للوقت، وأنّه سيكون خطوة لنهاية مسيرته. تمّ اختيار كرَو بعد پرِنستُن رئيسا لهيئة الأركان المشتركة، وهو أعلى منصب عسكري رسمي، كما قال، وأكّد صحة رفضه لاختيار مسار تقليدي الى قمّة الهرم العسكري. جرى تعيينه أوّلا من قبل رَونَلد رَيگَن ثمّ من قبل جورج بُش الأب. لقد استمتعت واعتقد أنّه من دواعي سروري أنّ كرَو سألني عمّا إذا كان يمكنه تدريس صفي بعد سنوات قليلة من كونه طالبا، وعندما كان يخطط للعودة لحضور حفل التخرّج. بالطبع قبلت ما بدا مجاملة أكثر من كونه تحدّيا،

على الرغم من أنّني لم أكن متأكّدا تماما ما إذا كانت تلك طريقة لشكري على المقرّر الدراسي أم أنّها كانت وسيلة متأخّرة لأخباري بكيفية التدريس. عندما حان الوقت، كان هذا الزميل المرح القادم من تلال أوكلاهوما، والذي عمل الخير في ذلك الوقت وكان كريما متواضعا، قد اعطى للطلاب طعما لطيفا لسياسة واشنطن.

في وقت مبكر من الفترة الطويلة، التي قضيتها في جامعة پرِنستُن، كان سعود الفيصل من المملكة العربية السعودية طالبا في الدورة التمهيدية للطلبة الجامعيين حول القانون الدولي. صادف أنّه تمّ تعيينه في قسم المناقشة الذي كنت مسؤولا عنه، والذي يُطلق عليه إسم «مبدأ» منذ أن قدّم وودرو وِلسُن، الذي فقد مصداقيته الآن، فكرة المطالبة بتميّز أسلوب پرِنستُن التعليمي خلال السنوات، التي شغل فيها منصب رئيس الجامعة. يجب أن اعترف أنّني لم أتمكن أبدا من اكتشاف هذا التميّز خلال 40 عاما من المحاولات، التي امضيتها في الجامعة!

كما يجري في اقسام المناقشة الأسبوعية بشكل عام، خلقت لقاءات المبادئ جوّا شخصيا أكثر من إعداد محاضرة تضمّ 50 – 150 طالبا وسمحت ببعض المهام الكتابية. كان سعود الفيصل شابّا متواضعا وممتعا كتب ورقة بحث جيّدة جدّا عن «مقاربة إسلامية للقانون الدولي». أتذكّر أنّ ورقته كانت مدروسة وتحليليّة وصفية الى حدّ ما، لكنّها بعيدة عن التصلب أو عدم المرونة في تفسيراتها. لم تتطرق ورقة البحث الى المواد شديدة الحساسية التي تتعلق بالحياة الأسرية ووضع المرأة وقانون الأحوال الشخصية. لم يكن لديّ اتصال مباشر به لاحقا بعد عودته لبلاده، حيث سرعان ما اصبح وزيرا للخارجية، وهو المنصب الذي شغله لسنوات عديدة امتدت ما بين 1975 – 2015. سمعت عنه بشكل غير مباشر من خلال اتصالات عرضية مع شقيقه الدبلوماسي الأصغر تركي بن فيصل.

ومع ذلك، لا يمكن لكلّ من حقق الشهرة أن يدّعي خفة الوجود. خلال سنواتي الأولى في جامعة پرِنستُن، إلتحق رِچَرد پِرل بصفته طالب دكتوراه محتمل، سجّل في مجموعة سمناري الصغيرة في العلاقات الدولية المتقدّمة.

لقد كان موهوبا من الناحية المفاهيمية وتحدّث بوضوح ولكن بطريقة قويّة، لكنّه لم يذهلني في ذلك الوقت باعتباره أيديولوجيا بشكل خاص.

في وقت لاحق اصبح رِچَرد پِرل يوصف على نطاق واسع بأنّه ذو الشهرة البارزة للفكر الستراتيجي للمحافظين الجدد في واشنطن، أوّلا في طاقم السِنَتُّر هنري جاكسُن، المعروف من قبل منتقديه باسم «سَنَتُّر من بوِنگ»، الذي كان متشدّدا بشكل صارم ومن الصقور عندما يتعلق الأمر بالسياسة الخارجية، على الرغم من كونه ديمقراطيا. عُيّن لاحقا كمعلم لمجموعة من المحافظين الجُدد من مستشاري السياسة الذين أحاطوا برَيگَن ومن بعده بُش الأب. كان پِرل متشكّكا في القيود المفروضة على الأسلحة النووية ومُعاديا للأمم المتحدة والقانون الدولي ومؤيدا للتدخلات «المؤيدة للديمقراطية» لتغيير النظم ومؤيدا لإسرائيل دون قيد أو شرط. كان هناك العديد من المعتدلين، الذين وجدوا أنّ أسلوب پِرل الهادئ في ممارسة تأثيره خلال مناسبات العشاء الفاخرة المصحوبة بنبيذ معتّق، مزعجا بل خطيرا، واطلقوا عليه لقب «أمير الظلام». بدا پِرل قانعا بأنّه مستشار مؤثّر من وراء الكواليس، وهو أمر غير معتاد بالنسبة لواشنطن، حيث كانت الشهرة العامة عادة جانبا أساسيا من الطموحات المهنيّة لأولئك الذين يمارسون النفوذ. كان دائما هادئا بنبرته ومقاسا في التفكير، حتى عندما كان يؤيد مواقف السياسة الخارجية الإستفزازية الشبيهة بالحرب.

هناك حالة معاكسة تقريبا من البروز الأيديولوجي، وهي حالة نورمَن فِنكِلشتاين. كان نورمَن في الواقع تحت اشراف الأستاذ شِلدُن ولِن، المنظّر السياسي الرئيسي في جامعة پِرنستُن. كنت في البداية القارئ الثاني للأطروحة التي كان يعدّها نورمَن. ولكن عندما اتخذ ولِن قرارا بقبول منصب في جامعة كالِفورنيا فرع سانتا كروز، اصبحت المشرف الرئيسي على اطروحة نورمَن. كرّس الأطروحة المذكورة لتطوّر الفكر الصهيوني كما يُفهَم من خلال قراءة عميقة لكتابات مفكّرين بارزين. لقد وجدت نصّ نورمَن واضحا جدّا ومستنيرا ومقنعا في تحليله واستنتاجاته. ولكن كانت لديّ أيضا بعض الإقتراحات لإجراء مراجعات طفيفة، لم يتقبّلها نورمَن، الذي لم يتلقَ انتقاداتي بالروح التي كان يقصدها. كان ردّ فعله عدائيا غاضبا وناشد التعاطف من اصدقائه بمن فيهم

إدوارد سعيد ونُعوم چومسكي. أتذكّر أنّ إدوارد إتصل بي يوما قائلا وهو نصف مازح، «ما هذا الذي اسـمعه عن محاولتك تدمير نورمَن فِنكِلشـتاين؟» شـرحت له ما حدث بأفضل ما يمكنني.

كان نورمَن طالب دراسات عليا موهوبا بشكل غير عادي، جاء الى پِرنستُن بسيرة ذاتية تضمّنت عددا من المنشورات المقروءة على نطاق واسع، وهو رقم قياسي يليق بشخص عضو في هيئة التدريس لسنوات. لقد إكتسب بالفعل سمعة كبيرة باعتباره باحثا صارما وصداميًا ينتقد بشدّة سياسات إسرائيل وممارساتها. ربّما شعر أنّه كمؤلف منشور، يستحقّ نوعا من الأحترام كطالب دراسات عليا. ولكن بالنسبة لي كان طالب دراسات عليا يسعى للحصول على درجة دكتوراه، وكان واجبي أن أقدّم له ملاحظات صريحة لمسـاعدته على تحسـين أطروحته. علـى كل حـال، إحتـوى كلانا توتراته وحصل نورمّن على شـهادته وأصبح أحد أكثـر النقـاد الأكاديميـين تأثيـرا ومعروفا عالميا للسـلوك الإسـرائيلي، فضلا عن الموضوعـات الأخـرى. كان لنورمَـن صـلات عائلية بالمحرقـة المروّعة، حيث لقـي العديـد مـن افـراد عائلتـه المقرّبين حتفهم في معسـكرات النازيـة. لكنّه تمّ استبعاده بشكل غير عادل من الحياة الأكاديمية، وتمّ ادراجه في القائمة السوداء فعليا بعد حرمانه من الخدمة في جامعة دي پول DePaul University، على الرغم من التوصية الإيجابية من زملائه في هيئة التدريس. ويبدو أنّه تمّ تقويض فرصته من الخارج بفعل رسائل غير مرغوب بها تسللت عبر القنوات الخلفية، بما في ذلك رسـالة من أَلَن دِرشـوِڤتز. إنّها حكاية مؤسـفة، وأنا متأكّد من أنّها سـبّبت محنـة طويلـة الأمـد لنورمَـن، الـذي تمكّن مع ذلك من أن يظـلّ منتجا ومحترما دون المساس بالجودة أو الطابع النقدي لكتاباته واسعة النطاق.

ليس لديّ شـكّ ذهني في أنّ فِنكِلشـتاين كان ضحية للمكارثية الصهيونية Zionist McCarthyism، التـي أضـرّت بالعديـد مـن الأكاديميـين المحترميـن والمتفانين من خلال استخدام تلميحات تشهيرية وقنوات خلفية لتوجيه اتهامات غير مسـؤولة تماما بمعاداة السـامية. في عهد ترامپ اكتسـبت هذه الحملة ضدّ منتقدي إسرائيل قوة الإعصار بالإعتماد على ما يُسمّى «معاداة السامية الجديدة»، في ضوء التعريف الموسّع لمعاداة السامية، الذي اقترحته المبادرة الدولية لأحياء

ذكرى الهولوكوست، جرت المساواة بين النقد القاسي لإسرائيل وبين معاداة السامية. نجم عن هذا التعريف الموسّع ضغوطات شديدة على مستوى الولايات والمستوى الفِدرالي لدعم ردود فعل عقابية رادعة وصلت حدّ التجريم لمنتقدي إسرائيل والناشطين، خاصّة أولئك المرتبطين بحركة المقاطعة. من السخرية الى حدّ ما أنّ فِنكِلشتاين كان معارضا لحركة مقاطعة إسرائيل BDS لفترة طويلة، لكنّه غيّر رأيه مؤخّرا. في مثل هذه الأمور، لا تحدث الحقائق أيّ فرق عندما يُسمح للتشويه بتشكيل الصورة العامة لأيّ شخص.

أتذكّر باعتزاز نَيثِن شامويَريا. كان نَيثِن ايضا طالبا غير عادي، التحق في برنامج الدكتوراه في جامعة پِرنستُن بعد إعلان روديسيا بتاريخ 11 تشرين الثاني من عام 1965، ما كان يُعرف في ذلك باسم UDI، وهو إعلان الإستقلال من جانب واحد. لم ترغب نخبة المستوطنين الروديسيين في مواكبة الإستعداد البريطاني للتخلي عن السيطرة الإستعمارية والسماح بقيام دولة افريقية مستقلة سياسيا. كان نَيثِن محرّرا لمجلة مؤيدة للإستقلال عندما حدث UDI، واختار المنفى على القهر. على مستوى العلاقات الشخصيّة، كان نَيثِن دافئا وجذابا، وكان سياسيّا قوميّا راديكاليا يدعم بقوّة الإعتقاد بأنّ افريقيا ومواردها تعود فقط الى الأفارقة الأصليين، وليس للمستوطنين البيض. كما صُدم من مواجهاته مع العنصرية الأمريكية. لم يكن نَيثِن طالبا لامعا، لكنّه كان ذكيّا وعمل بجدّ، مؤكّدا على دور الأمم المتحدة فيما يتعلق بالحركة المناهضة للإستعمار. بعد الإنتهاء من دراسته في جامعة پِرنستُن، عاد نَيثِن الى افريقيا وانضمّ أوّلا الى التدريس في جامعة تنزانيا، وسرعان ما اصبح عميدا، بينما ساعد في جمع فصيلين معا في العمل من أجل حركة استقلال تنزانية موحدة.

أشركت نَيثِن في عمل مشروع النظام لعالمي فحضر العديد من الإجتماعات وساهم بوجهات نظر لا هوادة فيها لمناهضة الإستعمار والإمپريالية وساعد في تنظيم اجتماع محفز لمنظمة WOMP في نايجيريا. عاد لاحقا الى وطنه زِمبابوي واصبح وزيرا للخارجية ودبلوماسيا محترما في منطقة جنوب الصحراء الأفريقية. عندما جاء نَيثِن الى الجمعية العامة لتمثيل زِمبابوي، طلب مني مرافقته لزيارة الأمين العام، الذي كان في حينه بطرس غالي، الذي كنت اعرفه سابقا في جِنيف.

كانت تلك هي إحدى المناسبات البروتوكولية، حيث من المتوقع أن يخصّص الأمين العام وقتا للقاء أعلى ممثل حكومي رتبة لأكثر من 190 عضوا في الأمم المتحدة. شعرت بإرهاق بطرس وهو يبذل قصارى جهده لإظهار الإهتمام والإستجابة. قدّم نَيثِن قائمة أمنيات تتعلق بتطوير أوليات للبلدان وتفضيل دور قيادي للأمم المتحدة في الحملة العالمية لمكافحة الفصل العنصري.

كانت صداقتي مع نَيثِن مميّزة للغاية. لقد وثقنا ببعضنا البعض واصبحنا قريبين شخصيّا. كنت ايضا صديقا لعلي مزروعي المشهور بنفس القدر. ومع ذلك وعلى الرغم من أنّ علي كان رائعا لوجوده بسبب الألعاب النارية اللفظية المنيرة، إلا أنّه كان دائما في مكان بعيد عن الفضاء الإجتماعي، ولم يثق أبدا في سلامة بيئته تماما، بينما كان نَيثِن بتمتع بتلك السجية المتمثلة بالدفء، الذي يجعلك تشعر بتواصل أخوي. مع الأفارقة ايضا، كانت لديّ علاقة قصيرة ولكن آسرة مع امرأة شابّة من بُتسوانا، إلتقيت بها قبلا في موسكو خلال زيارة جماعية استمرّت عدة أيام، وكان هناك عامل جذب قويّ. وعندما التقينا بعد عام أو نحو ذلك في هراري، اكتشفنا أنّ لدينا علاقة رومانسية قصيرة. هي واحدة من النساء اللواتي دخلن حياتي وتركنها دون التسبّب في خلق جروح، تاركات ورائهن فقط ذكريات غراميّة وحسيّة، وبالتالي فإنّ مشاعر «ما كان يمكن أن يكون» لم تمت أبدا تماما حتى عندما تلاشت في فجوات الإستراحة المظلمة في الماضي البعيد.
العودة الى ما أصبح يُعرف باسم زِمبابوي برفقة هِليل عام 2019 بصفتها مقررة خاصّة للحقّ في الغذاء، سألت مجموعة متنوعة من الأشخاص عن نَيثِن، الذي توفي قبل بضع سنوات. ردّ الجميع بالإيجاب وذكروا بأنّه ما كان مسؤولا فاسدا لدرجة أنّه مات في فقر، وهو أمر نادر بالنسبة للأفراد الذين شغلوا مناصب وزارية في حكومة مُگوابي. إتضح أنّه فيما يتعلق بالقضايا السياسية، ظلّ صاحبي من الموالين لمُگوابي ودافع عن مصادرته المثيرة للجدل للمزارع المملوكة للبيض، وقيل لي أنّه توفي قبل انتهاء مسيرة مُگوابي.

كان لَويد أوكسوُرثي طالبا آخر من طلبة الدكتوراه في جامعة برنستُن وله اهتمام كبير بالأمم المتحدة وكرّس حياته الأكاديمية بكاملها لها. وكطالب تساءل عن الحكمة الراسخة حول العالم، تاركا لي انطباعات عن استقلاليته. لم اتابع

مسيرته المهنية عن كثب بعد تخرّجه من الجامعة، حتى اصبح وزيرا للشؤون الخارجية في كندا ضمن حكومة رئيس الوزراء پيير ترودو. حين كان لويد في ذلك المنصب تميّز في عينيّ لسببين على الأقل. طرح فكرة «الأمن البشري» Human Security كبديل أكثر شمولا وأقلّ عسكريّة من التركيز التقليدي على «الأمن القومي» Security National. لقد كانت فكرة ملهمة حفّزت الكثير من النقاش في حقبة ما قبل 11 سبتمبر، حتى أنّ اليابان دعت لإنشاء لجنة للأمن البشري للنظر في سبل تعزيز المفهوم في سياقات السياسة.

كانت المبادرة الثانية، التي يستحق لويد الفضل في طرحها هي انشاء اللجنة الكندية للتدخّل والسيادة، والتي كانت ردّا على حرب كُسوفو وأدّت الى اقتراح معيار «مسؤولية حماية المدنيين» الذي تبنّاه مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة عام 2004، وكان له تأثير مستمرّ وإنْ كان مثيرا للجدل الى حدّ ما في المواقف، التي تمّ تناولها سابقا على أنّها تدعو الى «التدخل الإنساني». وقد اعطى التلاعب الجيوسياسي لمعيار المسؤولية عن الحماية في الأزمة الليبية لعام 2011 للفكرة باكملها واعطاها سمعة سيئة الى حدّ ما، وساعد في تفسير السبب، الذي جعل الأمم المتحدة وقد وجدت نفسها مهمّشة فعليًا خلال الصراعات الطويلة المدمّرة والمروّعة التي اندلعت في سوريا واليمن، ممّا تسبّب في معاناة هائلة طويلة الأمد ونزوح السكان المدنيين. أكثر من معظم المثقفين، الذين يضعون أيديهم على مقاليد السلطة، استخدم لويد بشكل خلاق وبنّاء فرصته القصيرة نسبيًا.

كانت آن مَري سلوتر واحدة من أكثر طلبتي إثارة للإهتمام، ومن الذين ذهبوا للقيام باشياء كبيرة في «العالم الحقيقي». قابلت آن مَري حين كانت طالبة في السنة النهائية في پرِنستُن. طلبت الأذن لحضور سمنار التخرّج الخاصّ بي في القانون الدولي فسمحت لها بكل سرور. من الواضح أنّ آن مَري في ذلك الوقت كانت من الصعب التعامل معها على مستوى النجاح في بيئة أمريكية؛ ثقة بالنفس وارتداء الملابس العصرية وحسن الحديث والذكاء والإستنارة والودّ والسلوك العملي الواضح. بطبيعة الحال، كانت تعمل بشكل جيّد كطالبة. وبعد ذلك عندما قابلتها في بيئات مهنية مختلفة، بدت آن مَري دائما مسيطرة على الموقف. بعد التحاقها بكلية الحقوق بجامعة هارڤَرد ثمّ تعيينها عضوا في هيئة

التدريس هناك. أصبحت مرتبطة ارتباطا وثيقا بالأنشطة المهنية لآبي چايس، الناشط الماهر في واشنطن، والذي ترك كلية الحقوق بجامعة هارڤَرد لعدة سنوات للعمل كمستشار قانوني لوزير الخارجية، وهو المنصب الذي شغله خلال أزمة الصواريخ الكوبية.

حين كانت آن مَري عضوة في هيئة التدريس في كلية الحقوق، التقيت بها وكان معها آبي في نو يورك باعتباره رئيس لجنة صغيرة أصبحت عضوا فيها ومهمتها تقديم المشورة لحكومة كوري أكينو حول كيفية استعادة بعض العقارات والودائع المصرفية،التي سرقها نظام ماركُس بشكل غير قانوني من شعب الفِلِپين. كانت آن مَري تعمل كمساعدة لآبي في هذا الدور، وألفت لاحقا كتابا مهمّا بعنوان النظام العالمي الجديد، شرحت فيه كيف تمّ تغيير الحوكمة العالمية Global Governance من خلال اشكال مختلفة من الشبكات الحكومية الدولية. على الرغم من أنّ آن مَري كانت ناجحة للغاية في المجال الأكاديمي وظهورها كمعلقة على السياسة الخارجية وكانت ذات حضور قويّ في مجلس العلاقات الدولية، بدا واضحا أنّ انظارها كانت تهدف الى تحقيق مكانة بارزة في القطاع العام، ربّما كوزيرة للخارجية أو سفيرة لدى الأمم المتحدة.

لم يحدث هذا لحدّ الآن، على الرغم من أنّ آن مَري عملت بفعالية كرئيسة لتخطيط السياسات في وزارة الخارجية خلال رئاسة أوباما. وهو منصب أعطى رؤية دائمة لأنّ مديره الأول كان جورج كِنَن. عندما يتعلق الأمر بالجوهر، وجدت آن مَري صقرا لِبراليا حكيما ومستعدّا لتفضيل استخدام القوة العسكرية الأمريكية، خاصّة إذا كانت مصحوبة بغطاء إنساني. في ظروف معيّنة، وجدت دائما صعوبة في معرفة فيما إذا كانت آن مَري صادقة مع نفسها أم أنّها كانت تصمّم وجهات نظرها الى حدّ ما لخدمة طموحاتها. وهو لغز أشكّ في أنّها لم تحله بعدُ. بعد ترك الخدمة الحكومية، كتبت مقالا نوقِش على نطاق واسع في مجلة أتلانتِك، وعنوانه «لا يمكن للمرء الحصول على كلّ شيء». عرضت فيه المفاضلات الصعبة بين الأسرة والعمل، مع التركيز بشكل خاصّ على كيفية إدارة الضغوط التي تنشأ عن لعب دور نشط في القطاع العام مع رعاية النمو الصحي لأطفال الأسرة.

لا تـزال آن مَـري شـابّة تُشـاهد باسـتمرار بمـا يكفي لتلعـب دورا مهمّا في احياء الحزب الديمقراطي لتفادي التجاوزات المختلفة لرئاسة ترامپ. ما إذا كان بإمكانها فعل المزيد عن طريق الأفكار بدلا من استخدام مهاراتها الوفيرة لتنشيط الدبلوماسـية متعددة الأطراف، يبقى علينا أن ننتظر. لطالما وجدت أنّ آن مَري محبوبة وجذابة على الرغم من شـعوري بأنّها حريصة جدّا على أن تعيش حياة رفيعة المسـتوى في واشـنطن، بدورها وفي أكثر من مناسـبة، عزت آن مَري في مناسـبة عامة لحضورها سـمناري الفضل، بأنّه الذي أدّى بها الى القرار بالتركيز على القانون الدولي اثناء دراستها في كلية الحقوق في هارڤَرد وعملها كاستاذة شـابة هناك. ما زلت اتمنّى رغم النجاحات الملحوظة، التي حققتها حتى الآن، بإنّ إنجاز آن المهني لا يزال ينتظرها.

كانت أسلي بالي آخر طالبة دكتوراه تحت إشرافي في جامعة پِرنستُن، وربّما كانت الأكثر موهبة فكريّا في المجموعة، فضلا عن كونها صديقة شخصية دافئة. عـلاوة علـى كلّ هـذا الصفـات، كانـت تركية نقيّة رغم أنّها نشـأت وتعلمت في الأرض الأمريكية. ليس من المُستغرب، من بين كافة طلبتي السابقين الذين أتيت علـى ذكرهـم فـي هـذا الفصل، أن لا أحد أكثر ارتباطا بهِليل من أسـلي. مع أنّي لم أقرّر ما إذا كنت سأبرِز تميّزها كطالبة أو حياتها المهنية، قرّرت أن أشير اليها هنـا، جزئيـا لأنّهـا كانـت نقيضـا لما لاحظتـه في آن مَري، مـع أنّ الأخيرة كانت وتحت ظروف سـعيدة عضوا في لجنة الدكتوراه الخاصّة بأسـلي في پِرنسـتُن. لدى المقارنة بينهما بشكل مبسّط، كانت آن مَري رائدة اعمال في مجال السياسة بنظرتها الليزر الموجّهة الى مشهد واشنطن، بينما أصبحت أسلي نجمة اكاديمية بنظـرة شـديدة بنفـس القـدر مركّزة على قضايا العالم، لاسـيّما تركيا وفلسـطين. أصبحـت ذات أداء متميّـز بينمـا كانـت لا تـزال عضـوة هيئة تدريـس جديدة في كلية الحقوق بجامعة لوس أنجلِس. وربّما مثل آن مَري قد تكون أكثر من ذلك، وبانتظارها انجازات قد لا تُنسى. بالطبع اتذكّر تعرّضي للخشية من أسلي، التي بـدت أكثـر اسـتنارة وإدراكا منّـي، وفي بعض الأحيان أحدثت لي خوفا سياسـيّا نسبيّا، ولكن دائما بلطف.

بودي أخيرا أن آتي على ذكر مولاي هشام بن عبد الله، أمير المغرب، الذي

تخرّج في جامعة پرِنستُن بحدود عام 1990.* لم يدرس مولاي هشام معي أبدا، ولكن تعرّفنا على بعضنا البعض من خلال سلسلة حفلات العشاء الخاصّة، التي نوقشت فيها قضايا الشرق الأوسط والعالم. بعد وفاة والده حين كان طفلا نشأ مولاي هشام في القصر تحت عين الملك الحسن الثاني، التي يبدو أنّها كانت شديدة اليقظة. وهو ملك موهوب لكنّه مستبدّ في العلاقات الشخصية ولا يرحم أعداءه.

عندما اصبحت على اتصال به لأوّل مرّة، كان منشغلا بمستقبل العائلة المالكة في المغرب. كانت لديه رغبة شديدة في خدمة بلده على نحو فعّال. كان يعتقد أنّ النظام الملكي في المغرب يجب أن يتمّ تحديثه وفقا للخطوط الدستورية الإسپانية. ولكن بعد أن عيّن الحسن الثاني إبنه الأكبر ليصبح ملكا باسم محمد السادس، كانت هناك خيبة أمل واضحة من جانب مولاي هشام، لأنّه لم يُطلب منه لعب دور قيادي في الحكومة. أدّى اجتماع لمناقشة مستقبل البلد مع الملك الجديد الى حدوث قطيعة بينه وبين صديقي. تمتّع باقي افراد عائلة مولاي هشام بعلاقة إيجابية مع القصر، حيث حضروا التجمّعات الملكية وتبادلوا الهدايا. لقد زرت المغرب في عدة مناسبات بدعوة من من مولاي هشام، حيث حاولت الجمع في التقارب الإجتماعي بين عائلتينا ونوع من الدور الإرشادي بشأن بعض قضايا السياسة.

ممّا لا شكّ فيه أنّ مولاي هشام بالتأكيد شخص مميّز، حتى وإن كان غير متواجد بالقرب من مركز السلطة والمشورة في المغرب. كان لديه اهتمام لا يهدأ بالعالم أخذه بعد جامعة پرِنستُن الى جامعة ستانفرد للحصول على درجة الماجستير ثمّ الى جامعة أوكسفُرد حيث حصل على درجة الدكتوراه في الدراسات الإسلامية. يظل مستقبله غير محدّد، لكنّه إحدى الشخصيات الإنسانية المؤهلة تأهيلا عاليا، والتي ستخدم العالم ومنطقته وكذلك بلاده بامتياز كبير إنْ أتيحت له الفرصة. سيكون الأمر محزنا في الواقع إذا حُرِم هذا الشخص القدير والمتعلم والحيوي من رغبته في المساهمة في مستقبل مغربي أكثر إنسانيّة وازدهارا، بلد ولادته، الذي يظل عزيزا على قلبه.

ملاحظة ختامية

خاصّـة فيمـا يتعلـق بالطلبـة، الذين اصبحـوا اصدقاء أو قدّموا مسـاهمات بارزة،، فقد قمت ببعض الخيارات الصعبة للحفاظ على هذا النّص بطول يمكن التحكّـم فيـه ومعالجـة المخاوف، التي كانت ذات أهمية قصوى. ربّما في ضوء ميلي الى اختيار الصراحة على السلطة التقديرية(*) Candor over Discretion، فإنّ أولئك الذي لم اتطرق اليهم ربّما قد يرحّبون بهذا التجاهل.

أنتجـت تلـك اللقاءات مع الطلبـة المتميّزين من مختلف الإتجاهات رؤى وتحدّيات بالنسبة لي على طول الطريق. تعلمت بعض الدروس التحذيرية حول صعوبة تحويل الهياكل القائمة بسبب تجربة هؤلاء الموهوبين بأفكار واهتمامات وطموحات متباينة.

(*) في السنوات الأخيرة، تخلى مولاي هشام، الذي يُترجم رسميا الأمير هشام، عن لقبه الملكي، مفضلا أن يُدعى «هشام العلوي». ولكن منذ عرفته لفترة طويلة بلقبه أفكّر فيه بتلك الطريقة وأكتب وفقا لذلك. على الرغم من أنّني بالتأكيد أحترم بل واقدّر رغبته في التخلي عن لقبه الأميري، فالخطوة جزء من التزامه العميق بالمساهمة في التنمية السياسيّة للمغرب باعتباره ديمقراطية دستورية ناضجة.

الفصل العاشر

سانتا باربرا وجامعة كالِفورنيا فيها

إقتناء الأسهم

كما هو واضح ومُقترَح طوال الوقت، تتناسب الحياة الأكاديمية مع اهتماماتي ومزاجي وقدراتي. بطريقة ما وعلى الرغم من التجارب المخيّبة للآمال وبعض الإنحرافات الإدارية المُملة، تقاعدت من پرِنستُن بنفس درجة الحماس، التي شعرت بها عند وصولي الى جامعة أوهايو قبل 46 عاما. وحتى الآن وبالنظر الى أكثر من 60 عاما من التواصل المستمر مع الجامعات الأمريكية والأوروپيّة، ما زلت اشعر أنّه بالنسبة لأولئك، الذين يميلون الى هذا الحدّ ويجدون منازل مؤسسية جيّدة، فهي حياة مميّزة توفر ظروفا مثالية تقريبا لتطوير الذات. هذا لا يعني إنكار الدموع وخيبات الأمل والقيود والمضايقات على طول الطريق. ولكن هذه دائما على هامش انشطتي وغالبا ما عكست تفاهة الطبيعة البشريّة واخطائي الخاصّة والجبن المهني للبيروقراطيات الأكاديميّة والنفوذ غير الصحّي لكبار المانحين. هذه الفرصة للتدريس والتعلم والتفكير بنفسي واتخاذ الإجراءات كمواطن ملتزم جعل صوتي مسموعا في الساحة العامة. لقد كان مرضيا بالنسبة لي من البداية الى النهاية. على الأقلّ كان هذا هو شعوري وأنا على استعداد لمغادرة منزلنا في پرِنستُن في نهاية عام 2001.

سبق قرار التقاعد من جامعة پرِنستُن أربع سنوات بدأت في عام 1997، وتضمّنت تدريسا أقلّ وعدم وجود تكليفات إدارية. لقد عبّر تقاعدي من تلك الجامعة عن قدر من الإرهاق المؤسسي من جانبي، ولكنّ الدافع الأساسي هو

الرغبة في مجموعة جديدة من ظروف الحياة بالنسبة لي ولهِليل. في السبعين من عمري، اعتقدت أنّ هذه ستكون آخر فرصة لي لاتخاذ قرار يغير حياتي. إنّ انفصالي عن الطرق في جامعة پرِنستُن حدث في وقت كنت لا أزال فيه ملتزما بالعديد من القضايا السياسية والعديد من المساعي العلمية والمشاريع الأكاديمية والإستمرار في الإستمتاع بمهنة التدريس والكتابة.

كنت واثقا في ذلك الوقت من أن التقاعد من پرِنستُن لم يكن نهاية الطريق فيما يتعلق بحياتي الأكاديمية الناشطة أو نشاطي الترفيهي في لعب كرة المضرب والشِعر. تمت إضافة اعتبارات شخصية تماما دفعتني الى الإبتعاد، لا سيّما التحدّي الجذاب المتمثل في الشروع ببداية جديدة في بيئة جديدة، لأنّ الكثير من حياتي في پرِنستُن تمّت بشركاء آخرين وألقت بظلال من الماضي. لقد كانت مثل عائق يحدّ من سعادة التواجد مع هِليل. أدّى الإنتقال الى كالِفورنيا أيضا الى تصحيح التضحية المهنيّة التي قدّمتها هِليل عندما تزوجنا في عام 1995 واتفقنا على العيش في مكان واحد. علمت أنّها كانت ملتزمة بمهنة أكاديمية خاصّة بها، وقد ندمت على التخلي عن انتمائها الجامعي التركي. أدرك الآن بشكل أفضل، وأنا آسف، أنّني قمت في وقت سابق دون وعي من جانبي بسنّ النمط الأبوي النموذجي Typical Patriarchal Pattern، الذي من السلم به أنّ المرأة تتبع مهنة زوجها.

وبدون الكثير من المداولات، إخترنا كالِفورنيا كوجهة لنا. كانت أقوى ذكرياتي عندما كان عمري 16 عاما وعشت كضيف في وقت الصيف بمنزل كلوديت كُلبَير، نجمة افلام هوليوود الحائزة على جائزة الأوسكار، والتي كان لها العديد من الأصدقاء المشاهير في صناعة السينما. لقد منحتني معرفة من الداخل للأبعاد الإجتماعية لصناعة السينما. كانت النقطة العالية والمنخفضة في الصيف وجهين لمسألة واحدة. كانت كلوديت صديقة لوالدة إلِزابث تَيلور، وقد رتبتا لي موعدا مع إلِزابث، التي اصبحت نجمة مشرقة في سماء هوليوود بعد أدائها في فلم *National Velvet*. كان من المُقرّر أن يتمّ الوعد بتنسيق مسبق دون علمنا، وربّما من جانبها حتى دون علم أو موافقة. يبدو أنّ التخطيط للموعد عكس مخاوف البالغين في الغرفة مثل كيفية الترفيه عن مراهق وحيد بعيد عن محيطه المألوف.

لقد كان ذلك سيجرى حسب أعراف هوليوود حقا وحقيقة! تمت دعوتنا أوّلا لحضور عرض خاص لفلم *State Fair* في منزل داريَل زانُك، أحد منتجي الأفلام الرائدين، ثمّ الترتيب لزيارة ملهى ليلي جرى فيه الحجز لنا. كنت في ذلك الوقت مفتونا ومذعورا من الإحتمالات. نظرا لافتقاري الى الثقة بالنفس والنعمة الإجتماعية، توقعت تجربة محرجة من البداية الى النهاية. كانت إلِزابث تَيلور مستثمرة بالفعل في كاريزما لن تنمو إلا على مرّ السنين. في اللحظة الأخيرة، تمّ إنقاذي الى الأبد من التجربة عن طريق تدخّل غير متوقع. قبل أيام قليلة من اليوم الموعود، تمّ تشخيص إصابتي بالتهاب الزائدة الدودية الحاد من قبل جرّاح هو زوج كلوديت. تطلب الأمر جراحة فوريّة، وكنت أنا من احتاج الى الغاء الموعد. بغرابة، كان هذا هو الموعد الوحيد الذي خالفته في حياتي كلها، وأشكّ في أنّ إلِزابث قد حدث لها ذلك مرّة أخرى.

وبطبيعة الحال وبمجرّد إدراكي بأنّ الموعد لن يحدث، شعرت بخيبة أمل، غير أنّ مخاوفي السابقة تلاشت. ظلّ هذا اللاحدث متألقا في حياتي الخيالية منذ ذلك الوقت، الى ما وراء الواقع من خلال تضخيمه في مخيلتي على أنّه نوع «من الفرصة الضائعة». ستوفر التجربة ذكرى تدوم مدى الحياة، وربّما، ربّما فقط يمكن أن نصبح اصدقاء. بعد بضع سنوات أخبرتني ژاژا گابور أنّني ذكّرتها بكونرَد هِلتُن الإبن، الذي اصبح الزوج الأوّل لإلِزابث تَيلور. ومن يدري، جعلني هذا أشعر بالأسف لحادث الزائدة الدودية وما تطلبه من فترة الإستشفاء. أنا متأكّد أن الوضع كان قد انعكس، وقد ألغيت الموعد وما كنت ساعيشه على افتراض أنّ إلِزابث استخدمت موضوع الصحة كذريعة واهية.

لم يكن القرار بأنّ سانتا باربَرا هي الخيار الصحيح بالنسبة لنا قرارا معقدا. ما شجّعنا عليه هو عرض مارك جورگِنزماير، مدير الدراسات العالمية في جامعة كالِفورنيا في ذلك الوقت، والذي عرض علينا وظائف للتدريس بدوام جزئي على أساس سنوي، مع احتمالات جيدة بالإستمرارية. أعطانا هذا ارتباطا هادفا بجامعة جيدة. كما أنّ العرض وفّر ما يكفي من الدخل الإضافي لجعل حياتنا خالية من الضغوط المالية. بالإضافة الى هذه الإعتبارات العملية، كان لدينا العديد من الإصدقاء المقرّبين، الذي عاشوا لفترة طويلة في سانتا باربَرا وأحبوا

المكان. كانت لديّ صداقة تعاونية طويلة مع دَيڤِد رِي گرِڤِن وزوجته آن كاكوا، اللذين تشاركا مع وجهة نظري التقدمية حول العالم. لقد ارتبطا على الفور بِهِليل، ولم تكن سنواتنا العشرين في سانتا باربَرا مرضية تقريبا لولا صداقتهما. أصبح دَيڤِد، الذي تمتع بالفعل بسمعة عالمية كفيلسوف دين بطلا بالنسبة لبعض الناس وشريرا بالنسبة للآخرين من خلال توجيهه نقدا مستمرّا لهجمات 11 سبتمبر، ونشر 11 كتابا مذهلا لتطوير حججه ومواجهة الإنتقادات. لقد تشرّفت بكتابة مقدمة لكتابه الأوّل الذي كان بعنوان *The New Pearl Harbor* ودفعت ثمنا باهضا لأنّه كان بمثابة علف لطاحونة التشهير الصهيونية، التي صوّرتني زورا على أنّني صاحب «نظرية المؤامرة» والناطق بحقيقة احداث ذلك اليوم 11/9 *Truther* لإقناع الناس بأنّني لست معاديا لإسرائيل فحسب، بل أنّني مجنون الجناح. من خلال دَيڤِد وآن اصبحنا قريبين جدّا من صديقيهما الروائية نورا گالِگَر والشاعر ڤِنسِنت ستانلي، وكلاهما له مركز وأسهم في شركة Patagonia، لصناعة الملابس الراقية للعيش في الهواء الطلق. وهي مثال نادر على نجاح عالمي لشركة تجمع بين الربحيّة والسمعة المستحقة كشركة مسؤولة إجتماعيّا وبيئيّا. مع مثل هؤلاء الأصدقاء يمكن أن تمطر السماء كلّ يوم وما زلنا نحبّ سانتا باربَرا! هذه هي مباهج الصداقة الحقيقية.

لم نذهب على الفور للإنغماس في كلّ شيء، على الرغم من أنّنا كنّا على وشك ذلك. وجدنا بيتا للإيجار لمدة عام واحد، ووصلنا في اليوم المثالي، الأوّل من كانون الثاني لعام 2002 لبداية جديدة. كان حضورنا لا يزال رسميّا زيارة استكشافية سرعان ما أصبحت في أذهاننا نتيجة حتميّة لما يُرضي الجسد والعقل والروح. على الرغم من أنّ الطقس الجيّد لم يكن حافزا كبيرا في البداية، إلّا أنّه تبيّن بأنّ سانتا باربَرا أكثر جاذبيّة بسببه. لقد رحّبنا أيضا بالقدرة على لعب التِنس طوال العام ونمط الحياة الإجتماعي غير الرسمي أكثر بكثير من پرِنستُن. بالطبع، وصلنا قبل أن تصبح الحرائق الهائلة المشتعلة تهديدات سنويّة للمدينة، التي كانت ستضعف عزمنا على جعل سانتا باربَرا موطنا دائما لنا. وكما كان الأمر، فقد تجاوزنا مرحلة ركوب أمواج البحر، الأمر الذي تطلب منّا قبول حقيقة أنّنا لن نُعتبر مواطنين حقيقيين في كالِفورنيا.

ضمّ قسم الدراسات العالمية في UCSB مجموعة صغيرة من اعضاء هيئة التدريس من الموهوبين والميالين الى التحرّر وخلق مجتمع أكاديمي أكثر ملائمة ممّا كنت أعيشه على مدار اربعة عقود في جامعة پِرنستُن. شعرنا بالترحيب والتقدير وكوّنّا صداقات جديدة بسرعة أكبر ممّا أمكننا التعامل معه في الجامعة والمدينة. كان الوضع على عكس پِرنستُن حيث جعلت شكليات الساحل الشرقي وتوترات طموحات جامعات النخبة، الصداقة تبدو وكأنّها رفاهية. لقد سُرق الوقت بفعل الأولوية القصوى المتمثلة بإنهاء «الكتاب التالي» في جوّ پِرنستُن والشعور بالضغوط المستمرّة من خلال الكتابة والتدريس ومتطلبات الإدارة والتزامات النشاط السياسي.

أعطت صداقتنا الأكاديمية وصداقات المدينة بريقا مفقودا لحياتنا الجامعية في پِرنستُن. ليس من الممكن الإحتفال بمجموعة كاملة من الصداقات، لكنّ القليل منها كان له تأثير خاصّ على حياتنا بحيث جعل الصمت تشويها. أفكّر بجَري سپَنس، المعروف على المستوى الوطني كمحامي محاكمة ناجح للغاية والذي ربح العديد من القضايا الشهيرة، واصبح معروفا لنا بشكل أفضل باعتباره الماس الخام. بشكل مخادع الى حدّ ما، عرض أمام كلّ صورته الخاصّة بولاية وايومنگ، التي أخفت عن الأنظار إحساسا متطوّرا. يفيض جَري بالطاقة الإبداعية الأكبر من التعاطف بالحجم الطبيعي. انتج على مدى سنوات عديدة روايات ومذكّرات محبّبة ودراسات متأنية للقضايا الإجتماعية ولوحات وصور فنية جديرة بأن تعلّق في المعارض وقصائد مسبوكة بعناية تتحدث من القلب. يذكّرني أسلوبه الإجتماعي بأعاصير أوكلاهوما، حين يتحدّى الأصدقاء بلا رحمة بقوة الإعصار، بما في ذلك أخذ المعارف والغرباء على حين غرّة والتحقيق دائما في الآخرين والإستكشاف بقوة لما يؤلمهم وما يُلهمهم. بدا جَري مدفوعا برغبة عميقة في معرفة ما يكمن في جوهر وجود الشخص الآخر، رافضا أن تردعه شرائع الأدب الإجتماعي حتى في اللقاء لأول مرّة. لقد لاحظت وجود اتجاه مماثل لدى جويس كارُل أوتس، الظاهرة الأدبية النادرة والزميلة في جامعة پِرنستُن، التي استخدمت وقتها الإجتماعي «للبحث» عن صفات شخصيّة لكلّ من تقابله. ربّما يكون الناس هم «كتب» الروائيين، التي نجدها نحن الكتاب غير الخياليين على

أرفف المكتبات أو من خلال الرحلات الميدانية الى مناطق الصراع.

كانت إلِزابث وِيبر، طالبة الفلسفة الأوروپية والمترجمة البارزة للفيلسوف الراحل جاك دريدا، حيث عملت معه في پاريس لأكثر من عقد من الزمن، شخصا مميّزا جدّا واصبحت صديقة مقرّبة لنا. جنبا الى جنب مع دريدا، نشرت إلِزابث كتاب مقابلات مع كبار المثقفين الأوروپيين بعنوان «مساءلة اليهودية» *Questioning Judaism*. لقد قبلت التحدّي المتمثل في كتابة مقدمة لكتابها الإستثنائي تماما حول كيف اصبح التعذيب وحرب الطائرات المسيّرة والإحتجاز الى أجل غير مسمّى والإرهاب العنصري، هي الأساس في اعقاب هجمات 11 سبتمبر.* يستحقّ هذا الكتاب اهتماما أكبر بكثير ممّا تلقاه حتى الآن، وإذا كنت اليوم في منتصف عمري فسأبذل قصارى جهدي لتصحيح الوضع. كما هي، إلِزابث هي الصديقة الأكثر ثقة والمصدر المتحمّس للبحث عن الحقيقة لدرجة جعل حتى أكثر الإفلاطونيين سخرية، منبهرين وأخافت بقيتنا. كما هو الحال مع جَري، فهي تبحث عن الأعماق ولا تكتفي بالأسطح. إنّها تمضي على طريق الإستقصاء الفكري بدلا من طريقته المفضلة للتنقيب العاطفي.

كان لِليسا حجّار حضور حيّ ثالث بين أولئك الذين أحببناهم في تجربة سانتا باربَرا. إنّ حماستها للحياة وقلبهاالفائض وروحها السخيّة، سمحت لي أن أغفر لها عشقها للمحامين المجّانيين. وإنصافا لها، فإنّ المحامين الذين تحتفي بهم هم أولئك الذين يعملون من أجل القضايا الإجتماعية على أساس مجّاني. ومع ذلك فهم محامون. تمّ الإعلان على نطاق واسع عن ليسا من خلال صراحتها ومعرفتها وشغفها بأنّها ملكة مناهضة التعذيب في بيئة ما بعد 11 سبتمبر. دائما ما تكون مثيرة للإعجاب أكاديميا عندما تقتصر على جهاز الكومپيوتر المحمول الخاص بها، بينما تحتسي النبيذ وتصبح عشيقة التبجّح، الذي يتطلب فكّ التشفير والكثير من الحب لتفادي إسرافها الخطابي. بصفتها صديقة، كانت ليسا نموذجية، وقد جمعت طاقتها الإجتماعية ما جئنا لنسميه «مجموعة ليسا» المكوّنة من زملاء جامعيين متشابهين في التفكير وغير محترمين بنفس القدر، والذين أحيوا العديد من أمسيات سانتا باربرا المضاءة بالنجوم.

عندما يتعلق الأمر بالظروف المعيشية إجمالا، كانت سانتا باربرا أكبر بما

يكفي من پرِنستُن لجعلها أكثر ارضاء عندما يتعلق الأمر بمشاهدة الأفلام وارتياد المطاعم وزيارة معارض الفنّ. كما أنّ الوجود الفعلي للمدينة بين المنحدرات وشريط ساحلي ضيّق محصور بين الجبل والمحيط وكونها محاطة بشكل رائع بجزر القنال، على مبعدة أميال قليلة من الشاطئ، جعلها مدينة متميّزة. إنّ الجمع بين السماء الزرقاء باستمرار وعدم وجود رطوبة والليالي الباردة والقرب من لوس أنجلِس ومناظر المحيط، جعلت من الواضح الى حدّ ما لماذا اصبحت سانتا باربرا مكانا مفضّلا لإستراحة الأثرياء والمشاهير، خاصّة لقضاء عطلة نهاية الأسبوع بالنسبة لوجهاء هوليوود. ثُمّ جاءت الحرائق والإنزلاقات الطينية بعد أكثر من عقد لتفجّر فقاعة سنواتنا الأولى الشاعرية في سانتا باربرا. كانت هناك حرائق وزلازل خطيرة في ماضي سانتا باربرا، لكنّ السلسلة الأخيرة من الكوارث الطبيعية أثارت الشكوك لتحدّي الرضا والصور اللطيفة، التي تمتعت بها هذه المدينة في الخيال الأمريكي.

تراكم الخيبات السياسية المتتالية

ظلّ التزامي بالكتابة العلمية ثابتا بعد تقاعدي من پرِنستُن وخاضعا لإلهاءات أقلّ. لقد عملت بدون حوافز مهنية بخلاف البقاء غير المحكم في اللعبة الأكاديمية. حاولت تطوير وجهات نظر المواطن الطموح، ولكن في ظلّ الظروف السياسية المتغيّرة، التي بدت وكأنّها سائدة في بداية القرن الجديد. من وجهة نظري أنّه منذ نهاية حرب فيتنام كانت هناك دوامة من الهبوط في التطورات السياسية التي تهمّني أكثر، بما في ذلك السياسة الخارجية للولايات المتحدة والترتيبات السياسية العالمية وبعض حالات الصراع المحددة في إسرائيل/فلسطين وإيران وتركيا. بدت معتقداتي وآمالي والتزاماتي وتوقعاتي السابقة على نحو متزايد بعيدة عن الواقع السياسي الأمريكي في الداخل وفي العالم. وقد أدّى هذا الإنجراف الى الأسفل الى زيادة الزخم السلبي بانتخاب جورج دبليو بُش في عام 2000، والذي تسارع بعد عام في الردّ غير المدروس على هجمات سبتمبر 11. لكنّ الأسوأ بكثير كان انتظار حدوثه في عام 2016، والسنوات التي تلت ذلك.

المعاناة من إيذاء خفيف

في أول إثني عشر عاما أو نحو ذلك بعد التقاعد، قمت أنا وهِليل بتدريس مقرّرات في برنامج الدراسات العالمية في حرم جامعة كالِفورنيا فرع سانتا باربرا وفق عقد مهام التدريس المتفق عليه سنويّا. منذ البداية بدا الأمر وكأنّه ترتيب مثالي، بالنظر الى هيئة التدريس المتعاطفة والطلبة المُقدّرين والمناخ المثالي والإستعداد لأخذ وقت كاف للصداقة. ومع ذلك وكما كان علينا أن نكتشف، فإنّ كلّ ما يلمع دائما ليس بالضرورة ذهبا. لقد تجاوزت كالِفورنيا توقعاتنا وبدت حياتنا مباركة، لكنّنا لم نكن ندرك أنّ السحب المظلمة كانت تتجمع خلف الأفق.

تعطلت التناغمات المُرضية لهذه التجربة المبكّرة السعيدة بسبب العديد من التدخّلات، التي لا يمكن القاء اللوم عليها كلها على الظروف المحلية. شعرت بأنّني كنت ضحية لحملة تشهير صهيونية ردّا على تعاطفي وانشطتي الفلسطينية. لقد استغرق الوقت طويلا لأدرك الدرجة، التي اصبح عندها الإمتناع عن الإنتقادات الحادّة لإسرائيل مهما كان مبررا، الزام سياسي واجتماعي في امريكا الحضرية وطبقتها الوسطى، خاصّة بين اللِبراليين اليهود. كان هناك القليل من الإهتمام بالجوهر المرتبط إمّا بدعم الحقوق الفلسطينية أو دقة مخالفات إسرائيل. لقد ألقيت بعض المحاضرات العامة في سانتا باربرا ولوس أنجلِس وكتبت بعض مقالات الرأي واجريت مقابلات اعلامية محلية عبّرت فيها عن تعاطفي مع المحنة التي يتعرض لها الشعب الفلسطيني. كما طرحت افكارا حول كيفية تحقيق سلام دائم قد يمكّن هذين الشعبين المُحاصرين من العيش معا في سلام، على أساس المساواة في الحقوق.

تمّ توجيه انتقادات قليلة إليّ مباشرة، لكنّني لاحظت أنّ الأبواب الموصدة أمامي الآن كانت مفتوحة على مصراعيها في السابق، كما ضاقت الجوانب الدقيقة في المحادثة الإجتماعية، خاصّة بين النخبة اللِبرالية في دوائرنا الإجتماعية في سانتا باربرا، والتي تحظى بتقدير كبير في المجتمع لاستعدادها لتمويل القضايا(*) اللِبرالية، باستثناء فلسطين بالطبع. أخبرني الأصدقاء أنّ شخصا مؤثّرا في سانتا

(*) يمكن مراجعة كتابها صناديق القتل: إرث التعذيب الذي ترعاه الولايات المتحدة والإحتجاز لأجل غير مسمّى وحرب الطائرات المسيّرة (2017).

باربـرا يعتبرنـي معاديـا لإسـرائيل. علمت أنّ الزوجة الحازمـة للغاية لعميد كلية الآداب والعلوم بجامعة كاِلفورنيا فرع سـان فرانسسـكو كانت صهيونية مسـعورة شـعرت بالإهانة من آرائي. لم يُشـر أحد في تلك المرحلة، على الأقلّ بشـكل صريح، الى أنّ هذه الآراء مهما كانت مرفوضة، هي أراء معادية للسامية. سيأتي ذلك لاحقا، ومعظمه من المنظمات غير الحكومية الصهيونية، التي لديها اجندات سياسـية خاصّـة. فـي هـذه الأوسـاط اللِبراليـة كان من المقبول انتقـاد نَتِنياهو أو شِلدُن أدِلسُن ومنظمة أيپاك، ولكن ليس النقد الأساسي للسياسات والممارسات الإسرائيلية أو النظرة الصهيونية اللِبرالية فيما يتعلق بالحقوق الفلسطينية أو الدور الأمريكي كعامل مساعد.

أصبح من الصحيح سياسيّا في هذه السياقات اللِبرالية الإصرار على أنّ كلي الجانبين يتحمّلان اللوم بشـكل متسـاوٍ عن الفشـل في التحرّك نحو حلّ سـلمي للصراع الإسرائيلي/الفلسطيني. وهذه وجهة نظر رفضتها لأنّها تستند الى «تناسق زائـف»، وهيمنـت علـى قدم المسـاواة في معالجـة مأزق المفاوضـات باعتباره مضللا للغاية، لا سيّما في هذا السياق. الكفاح، وليس التنازلات المفروضة على المظلومين، هو السبيل الوحيد للتقدّم. وكما أصرّ فِردِرك دوگلَس، الأمريكي من أصـل أفريقـي المؤيـد لإلغاء عقوبة الإعـدام والذي هرب من العبودية الى ولاية مَريلاند، «إنّ التسلط لا يُقرّ بأيّ شيء دون مطالبة. لم يكن أبدا ولن يكون».

عندما اصبحت مقرّرا خاصا للأمم المتحدة في فلسطين المحتلة عام 2008، تكثّفت قضايا الإستبعاد الإجتماعي غير الرسمي هذه، على الرغم من أنّها تتخذ دائما شـكلا صامتا. لسـت متأكّدا من سـبب حدوث الكتمان. ربّما لأنّ الناس أحبوا هِليل كثيرا لدرجة أنّه كان هناك بعض التردد في انتقادي بقسوة أو صراحة. ولكـن بمجـرّد أن توليـت هذه الوظيفة فـي الأمم المتحدة، كان هناك العديد من الهجمات التي تمّ الإعلان عنها جيّدا في الساحات الرئيسية من قبل دبلوماسيين إسرائيليين وأمريكيين ودبلوماسيين من الكومِنوَلث البريطاني في الأمم المتحدة. وصفوني بالتحيّز ضدّ إسرائيل وتعاملوا مع تعييني على أنّه توضيح لما اعتبروه على أنّه تقريع لإسرائيل، الأمر الذي جعل الأمم المتحدة على نحو متزايد غير شرعية في عيون الصهيونية.

بالإضافة الى الصعوبات الناشئة عن نشاطاتي التضامنية مع الفلسطينيين، كانت هناك بعض القطيعة السياسية، التي نشأت عن تبنّي وجهات نظر تقدّمية في البيئة اللِبرالية الأساسية التي سادت في سانتا باربرا. كان هناك نوعان من اللِبراليين في الجامعة، أولئك الذين فضلوا هِلاري كلِنتُن على بَرني ساندَرز في عام 2016، لأنّها يُمكن أن تُنتخَب وتنجز الأمور، وكانوا مرتاحين لبايدن في عام 2020 لأسباب مماثلة، بالإضافة الى إرهاق ترامپ والمخاوف الفاشية المرتبطة به، وهو ما أشترك به وإنْ لم أكن مرتاحا. ثمّ هناك ديمقرطيو مونتَسيتو Montecito Democrats(*)، الذين هم لِبراليون إجتماعيا غير أنّ توجّههم الإقتصادي مرتبط بالوول سِتريت، وهم مرتاحون سياسيّا «لإجماع الحزبين» على موالاة العسكر، والتي تبلورت خلال الحرب العالمية الثانية وتصلبت خلال الحرب الباردة وظلت باقية الى يومنا هذا. حتى في مواجهة تصرّفات ترامپ الغريبة، لم يصوّت اصحاب الأسهم والسندات من الديمقراطيين الحساسين أبدا لصالحه، واعتبروه مقيتا ومدمّرا. غير أنّه كان من المُحتمل أن يظلّ الكثيرون في منازلهم بدلا من الإدلاء باصواتهم لصالح

ساندَرز، حتّى لو حظي بأن يكون مرشّح الحزب.

كانت المحن، التي عانت منها هِليل أكثر من مشاكلي في سياق حرمانها من التعيين الدائم في كلية الدراسات العالمية، على الرغم من امتلاكها أوراق اعتماد ممتازة وتشجيعها بشدة على التقدم للوظيفة ونيل الفرصة، التي تمّ تأطيرها لمراعاة اهتماماتها. على الرغم من عدم شفافية عملية تعيين اعضاء الهيئة التدريسية جعل من المستحيل إعادة بناء ما حدث. يبدو أنّها كانت ضحيّة لغيرة تافهة وبعض التدخّل الإداري، ربّما عكس العداء الصهيوني لي. قيل لنا أنّ اعضاء هيئة التدريس في الدراسات العالمية اعتقدوا أنّنا سننسى الرفض بسرعة ونستأنف اتصالاتنا المحدودة المخصّصة مع البرنامج. إذا كان الأمر كذلك، فقد أساءوا الحكم على شخصيّتينا. قرّر كلانا الإستقالة فورا من الدراسات العالمية وقطع علاقتنا وعدم النظر الى الوراء أبدا. وبالطبع لا نسعى أبدا للحصول على أيّة خدمات اجتماعية أو مهنية مستقبلية. كان الكثيرون في الحرم الجامعي

(*) مونتَسيتو بلدة صغيرة منفصلة مجاورة لسانتا باربرا، وسكانها من الإثرياء ومشاهير هوليوود.

داعمين بشكل مؤثر، لكن التجربة تركت مذاقا سيئا أثرّ على العلاقة مع الكلية والجامعة، وحتى مع التجربة الأوسع لنا في سانتا باربرا.

الخبر السارّ هو أنّ هِليل استعادت احترامها لذاتها المهنية بل وأكثر. سرعان ما تمّ تعيينها في عام 2014 مقرّرة خاصة للأمم المتحدة معنية بشؤون حقّ الحصول على الغذاء. وهو منصب مهمّ جعلها على اتصال بجميع الشخصيات البارزة في العالم والمعنية بالسياسة الغذائية. ذهب تعيينها الى الأمام على الرغم من الحملة الصهيونية العالمية لحرمانها من المنصب، الذي أوصت به لجنة حقوق الإنسان التابعة للأمم المتحدة، والتي نظرت في عشرات المرشحين المؤهلين من جميع انحاء العالم. ولماذا هذه الحملة؟ فقط وبصراحة لأنّني زوجها. إنّه شكل وقح من الذنب بالتبعيّة رفضته حتى وزارة الخارجية الأمريكية. امتدّ هذا التواصل الصهيوني الإنتقامي الى كلية الحقوق بجامعة كالِفورنيا في لوس أنجلِس، حيث تدخّل المانحون لمنع تعيينها البحثي في برنامج غذائي على الرغم من عدم وجود أيّة إشارة بخلاف اختيارها للشريك، على أنّها مهتمة بالنضال بين إسرائيل وفلسطين، واهتمامها بالنضال بين اسرائيل وفلسطين، يعني في رأيهم شيئا واحدا هو مناهضة إسرائيل.

لقد اتخذت هِليل موقفا نقديّا للزراعة الصناعية وانحازت الى حركة الإيكولوجيا الزراعية، التي تولي اعتمادا أكبر على الزراعة التقليدية على نطاق صغير. وهي متيقظة ازاء المخاطر الصحية الناجمة عن الإستخدام الواسع النطاق لمبيدات الآفات الزراعية. وهذه تجارة قيمتها مليارات الدولارات ويهيمن عليها عدد قليل من «السفاحين»، وبالخصوص شركتي، سينگانتا ومونسَنتو. أنا فخور للغاية بِهليل والدور الذي لعبته، حيث عرضت مهارتها الإجتماعية الإستثنائية بالإضافة الى تفانيها في صياغة سياسة غذائية إنسانية.

نهاية سحر كالِفورنيا

من دون شكّ، وقعنا تحت تأثير السحر عند وصولنا الى كالِفورنيا واستمر ذلك السحر طوال عقدنا الأوّل هناك. بدت جميع جوانب حياتنا مرضية بخلاف ما تركناه وراءنا في پرِنستُن. تسعة أشهر في سانتا باربرا وثلاثة في تركيا، مع

الكثير من السفر الدولي. وعلى طول الطريق بدت حياتنا مثالية جيدة جدًا لدرجة يصعب تصديقها، لكنّ الأمر كان كذلك.

علمنا بحريق سان ماركو، الذي اجتاح الوادي بالقرب من بيتنا المُستأجر قبل عقد من الزمن منذ عامنا الأوّل في سانتا باربرا. بدت تلك ذكرى تاريخية قليلة الأهمية في بداية الأمر. لكنّ تهديد النيران هذا أخذ منذ العقد الماضي شكلا آخر إذ تبعته حديثا كارثة انهيارات طينية سُميّت Conchita Mudslide في عام 2010، والتي تسببت في مقتل 10 أشخاص، لتذكيرنا بأنّ الطبيعة يمكن أن تضرب بقوة قاتلة بالقرب من La–la Land.

جاءت صحوتنا الأكثر إثارة للقلق بعد عدة سنوات حين انتشرت حرائق الغابات الكبيرة في انحاء كالِفورنيا. أتذكر كنت اقود سيارتي متوجها الى المنزل ليلا في عام 2015، ورأيت ألسنة اللهب تضيئ السماء على مسافة ليست بعيدة جدًا. جاءت الريح لأنقاذنا وحوّلت مسار النيران. في عام 2017، اجتاح حريق Thomas Fire الضخم الذي بدأ في منطقة ڤَنچورا القريبة اتجاهنا بشكل خطير لدرجة أنّه طُلِب منّا الإخلاء من منزلنا في سانتا باربرا لمدة 10 ايام للهروب ليس فقط من الحريق، ولكن أيضا من الأبخرة الضارة، التي جعلت الهواء غير صحي للتنفس، حتى مع لبس الكمَامات.

كان الجانب الإيجابي لهذه التجربة هو أنّنا تمكّنا من إيجاد ملاذ مرضٍ طوال فترة الخطر. ذهبنا الى Fog Catcher's Inn في بلدة كامبريا، على بعد مائة ميل أو نحو ذلك شمالا على الساحل. وهي بلدة صغيرة جميلة ذات موقع رائع ولم تتعرّض لتهديد الحرائق في ذلك الوقت ومنذ ذلك الحين. كنّا مع بعض الأصدقاء المقرّبين، الذين جعلوا الأمر وكأنّنا في إجازة عرضية لم يُخطط لها. ومع ذلك، كان الأمر مؤلما بالنسبة لي الى حدّ ما. كان الألم الناجم عن جراحة استبدال الركبة شديدا للغاية، لا سيّما أنّه كان علينا تناول وجباتنا في المطاعم المحلية، ممّا يعني الكثير من الحركة وفترات طويلة من عدم الراحة. غير أنّ مقارنة ذلك باستنشاق الهواء السامّ في سانتا باربرا، قد جعل الألم هيّنا.

بعد فترة وجيزة من العودة الى سانتا باربرا، وقع الإنهيار الطيني المميت على بعد ميل واحد فقط من منزلنا إثر هطول امطار غزيرة خلال فترة قصيرة.

صدرت تحذيرات بالإخلاء الطوعي، ولكن نظرا لأنّنا قد عدنا للتوّ الى المنزل، لم نلتفت الى النصيحة وعانينا مع الكثيرين ممّن عانوا بسبب البقاء. إستيقظنا من النوم بسبب هطول الأمطار الغزير والرياح العاتية المصحوبة بصوت هدير يُشبه هدير قطار للشحن وأكثر من الرعد. ذهبنا الى شبّاكنا فرأينا سماء ليلية حمراء اللون. إفترضنا أنّه انعكاس لحريق، لكنّنا لم نرَ السنة اللهب. إتّصل أحد الأصدقاء ليطمئن علينا، وأخبرنا عن انهيار طيني حمل حطاما بما في ذلك العديد من الصخور الكبيرة، التي انزلقت من على منحدر الجبال، خاصّة محمولة من خلال فيضان الجداول تاركة وراءها آثار الموت والدمار. علمنا لاحقا أنّ هذا الإنهيار الطيني تسبّب في اضرار جسيمة وكان حدثا جيولوجيا نادرا. إنّ هطول الأمطار الغزيرة المصحوب بهبوب الرياح الشديدة أدى الى انحراف المطر، الذي تسبّب بدوره في ارخاء صخور بحجم السيارات من منحدر جبلي حادّ مع تدمير القشرة الأرضية بسبب الحرائق الشديدة قبل أسابيع. لقد جلب هذا الحدث عبارة «نهاية العالم» الى شفاهنا وأدركنا أنّنا نجونا ليس بسبب سلامة موقع منزلنا أو حذرنا، بل هو الحظ، والحظ السعيد الإضافي المتمثل في عدم العيش بالقرب من أحد الجداول التي جُرِفت فيها الإنقاض الحاملة للموت الى أسفل الجبل بسرعة تفوق سرعة المركبات على طرق النقل السريعة.

سِنُ الثمانين

في عام 2010 أصبحت في سنّ الثمانين. نظمت هِليل حفلا للأصدقاء والأطفال في جزيرة كاتَلينا بفضل كرم ضيافة صديقنا پَول عمر. لقد كانت مناسبة غير عاطفية وسعيدة نجم عنها أمر أكثر ديمومة وهو هدية مدوّنة Blog صمّمتها زينب وأندريه، وكانا وقتها متزوجَين. على الرغم من أنّ الهدية كانت لهما أصلا، لكنّ الفكرة جاءت من هِليل. بعد أكثر من 800 مشاركة، أدركت أنّها هدية ملهمة الى حدّ ما، سمحت لي بمواصلة التعبير عن آرائي حول أيّ شيء وكلّ شيء. أفترض أنّ قبولي لتحدي هذه المهمة قد استند الى اهتمامي الهائل بالعديد من من القضايا والسهولة النسبية، التي أمكنني من خلالها كتابة مقالات قابلة للقراءة، على الرغم من أنّني تلقيت بعض التعليقات بأنّ مشاركتي

كانـت أكاديميـة للغايـة، بحيث لا يمكنها جذب الإنتباه القصير للأشـخاص من قرّاء العصر الرقمي Readers of the Digital Age.

على الرغم من ذلك، تلقيت ردود فعل إيجابية في الغالب، وقد اندهشـت كيف وجد عدة آلاف من القراء مدونتي وسط ملايين المدوّنات، واصبح الكثير منهم متابعين مخلصين. كان لديّ خلال تلك الفترة ارتباط رفيع المسـتوى الى حـدّ مـا بالأمـم المتحدة وبالنضال الفلسـطيني، وكتبت عن هـذه المواضيع أكثر من الموضوعات الأخرى، وكانت آرائي أحيانا متنازعا عليها في شكل تعليقات بغيضة تضمّنت هجمات وتلميحات خبيثة. تأرجحت ردودي ما بين الإستجابة والحجـب، ولـم أجـد أيّا منها مرضيـا للغاية. حتى يومنا هذا، أتجاهل أحيانا قي صمت وأردّ أحيانا بهدوء واحيانا أجيب بالمثل بعداء غاضب. تأتي هذه التجربة كشـيء متوقـع، خاصّـة فـي حالتي وأنا أتخذ مواقف بشـأن القضايـا العامة، التي تجلب الضيق للبعض والغضب للآخرين.

كان الجانب السـلبي لتجربة المدوّنة، خاصّة حتى عام 2014 عندما انتهت مهمتـي كمقـرر خـاصّ، هـو أنّ مشـاركاتي وفّـرت المواد الخـام لأولئك الذين يبحثـون عـن طـرق لتشـويه سـمعتي كمراقـب وناقد للسياسـات والممارسـات الإسـرائيلية فـي فلسـطين المحتلـة. قامـت منظمـة UN Watch الصهيونية بكتابة رسـائل الإحتجاج وتقديمها الى الجهات العليا في الأمم المتحدة والحكومات الغربية، بناء على مدوناتي التي تناولت مجموعة متنوعة من الموضوعات، والتي تكمـل جهودهـم فـي الماضي، وخاصّة لقائي في عام 1979مع آية الله الخميني، بالإضافـة الـى مقـالات الرأي التي ترتبط بالأمريكيين، ومنها السياسـة الخارجية في الشـرق الأوسـط والعنف المتطرّف في الولايات المتحدة، ومجموعة أخرى من القضايا ذات الصلة بتصوّري كأداة منفردة للإرهابيين.

تمثّـل الجانـب الإيجابـي في كتابة المدوّنات على أسـاس منتظم في انشـاء شـبكة عالمية من الأصدقاء والمتابعين، الذين كانوا ممتنين ومتجاوبين بشـكل مفيد. وبدون تعليقاتهم، أشـكّ في أنّني كنت سـاحافظ على الإنضباط لمواصلة كتابة مدونات حول مواضيع متنوعة في الأسبوع والتي كانت بمثابة بدائل لمزيد مـن التعليقـات الأكاديميـة على المشـهد العام. لقد تعاملـت مع عالـم المدونات

علـى أنّـه شـكل حـرّ للتواصـل، حتى أنّني كنت أنشـر قصائدي مـن حين لآخر، بالإضافـة الـى كتابـة مراجعـات للأفـلام التي اسـتهوتني على أنّهـا مهمّة بطريقة أو بأخـرى. وغالبـا مـا أعيـد نشـر مدوّناتي على عدة مواقع صحفية مسـتقلة عبر الإنترنت حول العالـم.

من نواح عديدة كانت تجربة المدونة أكثر إرضاء، حتى عندما يؤخذ جانبها السـلبي فـي الإعتبـار. كانـت أكثر من كتابتي للمقالات المنشـورة في المجلات الأكاديميـة ومـن الكتـب التي ألفتها والتي تجاوزت عدة مئات على مرّ السـنين. على الرغم من أنّني استمتعت باستكشاف الأفكار وتطوير الحجج والدفاع عن الإسـتنتاجات المثيـرة للجـدل ورؤيـة كتاباتـي مطبوعة، إلا أنّني نـادرا ما تلقيت تعليقـات مفيـدة وبعـد مرور سـنوات في كثيـر من الأحيان فقـط. كانت اعمالي المنشـورة عبـارة عـن مونولوجات علميـة، بينما كانت منشـورات المدونة ذات طابـع حـواري أكثـر، خاصّة عندما تصـل التعليقات والردود المحفزة وما يترتب عليها الى ما يُشبه التجارب التفاعلية.

إعادة النظر في حلم كالِفورنيا

على الرغم من المواجهات الأكثر قسوة وصعوبة في ولاية كالَفورنيا، بما في ذلك تجربتنا المخيبة للآمال في جامعة كالِفورنيا في لوس أنجلِس، لم نكن نفكّر أبدا في العودة الى برِنستُن، أو في هذا الصدد الى أيّ مكان آخر، على الأقلّ حتى جاء ترامپ والوباء. كان لدينا منزلنا التركي في ياليكاڤاك في شبه جزيرة بودروم، الـذي جلـب لنـا أشـهرا من الصفـاء وتجربة وطنية بعيدة عن المشـهد الأمريكي المألوف. على الرغم من مجموعة مشاكلها، لا تزال تركيا غريبة بالنسبة لي، مليئة بالوعود والجمال الطبيعي والثقافة العميقة والدفء الإنسـاني، الذي يتمّ التعبير عنه من خلال كرم الضيافة الإسـتثنائي. في الواقع، يجعلنا مطعما الين واليانگ في سـانتا باربرا وياليكاڤاك نشـعر بأنّنا محظوظون للغاية، من حيث تنوّع الجو والإيقاعات الإجتماعيية، التي عزّزت حياتنا على مدار العشـرين عاما الماضية. منذ عام 2016، كان من المريح أن نكون بعيدين جغرافيًا لجزء من كلّ عام عن ظاهرة ترامپ، التي احتجزت عقول وقلوب اعدائها مثلها مثل المتحمّسين لها.

تركيا أيضا لديها مواقعها السوداء الخاصّة، التي لا ينبغي إغفالها ولكن لا ينبغي المبالغة فيها.

أعتقد أنّنا توصلنا الى فهم كالِفورنيا بشكل أكثر واقعيّة في السنوات القليلة الماضية. لقد تلاشى الضباب الوردي سواء فيما يتعلق بالجامعة أو البيئة الطبيعية. نحن ندرك أنّنا في موطن يهدده الإحترار العالمي بطرق تنذر بالسوء بشكل خاصّ. تعدّ حرائق الغابات الأكثر شدّة وتكرارا بمثابة تذكير قاتم بأنّ الكوكب يحترق مجازيا وكذلك حرفيا، وأنّ عدم التوافق بين تقنيات الحداثة والبيئة الطبيعية المحيطة هو الوصول الى العديد من المنعطفات الحرجة، التي إذا لم يتمّ التعامل معها بقدر وشعور من الإلحاح، فإنّها تأخذ المستقبل نحو كارثة تهدّد وجود كافة الأنواع. ومع ذلك منحتنا تجربة حياتنا في سانتا باربرا من البداية الى النهاية الحبّ والسرور والإلفة باشكال عديدة. ربّما اقنع سارتر الكثير من الناس بأن «الجحيم أناس آخرون». لكن تجربتنا اعطت رسالة مختلفة، «الأصدقاء يجعلون لطف الجنة محتملا، بل وممتعا».

خلال وباء الكوفِد قضينا الفترة بكاملها في تركيا، واقتصرنا بشكل أساسي على ياليكاڤاك. أصبحت تجربة الإغلاق صعبة مع مرور الأشهر وتطلب الأمر تكييف خططنا ووجدنا طرقا جيّدة للحفاظ على صحة الجسم والعقل والنشاط وهفهفة الروح. لا يمكن توقع المزيد، ولا ينبغي السعي إليه.

من سانتا باربرا: روابط مع روما ولندن ودلهي وإسطمبول

من بين مزايا الحياة الأكاديمية للباحث/الناشط الذي يركّز على الإهتمامات العالمية، العديد من الفرص للسفر الدولي. دفعتني اهتماماتي وفضولي الى السفر على نطاق واسع منذ كنت طالبا، ممّا ترك بصمة أثقل ممّا كنت أتمناه للآخرين، وأقصر في تلبية مطالب البيئة الخاصّة بي بصفتي مواطنا طموحا. لقد علمتني تجربة الإغلاق المتعلقة بوباء الكوفِد أنّه يمكن للمرء أن يختبر العالم رقميّا وافتراضيّا، دون السفر من مكان لآخر. ربّما ذلك بسبب عمري، الذي يبدو أقلّ انشغالا بالتحديات الوجودية والفرص والروائح والأذواق والإثارة العامة لوجودي في أماكن أجنبية لتبادل الأفكار والمشاعر والضحك وحتى الدموع مع

أولئك الذين تختلف جذورهم الحضارية عن تلك الخاصّة بي.

لقد عشت معظم حياتي السكنية في مدن پرِنستُن وسانتا باربرا و ياليكاڤاك، بينما تشكّلت احساساتي البالغة منذ ولادتي ونشأتي في مدينة نو يورك. خلال حياتي المهنية، كان لدي العديد من الخبرات المتكرّرة في المدن الكبيرة الشهيرة بما في ذلك أمستردام ولندن وپاريس وروما وأثِنا وهَنوي وجِنيڤ واستكهولم ودلهي وپكين ومِلبُرن وسِدني وطوكيو، مع زيارات متكرّرة إضافية للقدس وموسكو وڤيَنّا والقاهرة وبيروت ومكسيكو سِتي وريوديجانيرو وجوهانسبَرگ وبرلين وكيوتو ومانيلّا ومدريد. هذه المدن الأجنبية وشعوبها وتماثيلها وحدائقها ومقاهيها ومواقعها الخاصّة، هي التي أعطت حياتي ميزتها الدنيوية، بل وأعطت أيمانا بملذات المستقبل لو سادت آراءُنا بطريقة ما.

شاركت لعدة سنوات في أوائل الثمانينات، في المؤتمرات السنوية في اليابان حول «يوكوهاما والعالم» غالبا بصفتي متحدثا مدعوّا، ممّا جعلني أفكّر في الإختلافات بين نظام عالمي يتكوّن من مدن ذات سيادة بدلا من دول ذات سيادة. تمّت رعاية هذه المؤتمرات من قبل حاكم المحافظة، الذي كان لديه اعتقاد تخريبي الى حدّ ما، بأنّ مصالح مدينته يوكوهاما لم تتمّ تلبيتها بشكل كاف من قبل الحكومة الوطنية لليابان، لا سيّما من خلال تحالفها الوثيق مع الولايات المتحدة وفشلها في السعيّ لعلاقات إيجابية مع الصين وكوريا الشمالية. لقد وجدت أنّ بعض الحساسيات الحضرية، على الرغم من الماضي المجيد، تهتمّ مع ذلك ببناء مستقبل باهر أكثر من الناس في الريف بعلاقاتهم الأوثق بالعادات والتقاليد والجوانب الحصرية للأمّة ونقص المساحة الإستكشافية لتخيل مستقبل جديد.

من خلال مراقبة الإصطفافات الإنتخابية في موطني الولايات المتحدة ومقارنتها بتركيا، يصبح من المدهش أن تجد أنّ المناطق الريفية توفر القاعدة الشعبوية للقيم التقليدية، بينما تبحث المدن عن حلول أكثر تحرريّة لمواجهة ضغوط الحداثة. بالطبع، تختلف التكوينات السياسية اختلافا كبيرا من مدينة الى مدينة وعبر الوقت، ممّا يعكس مجموعة من العوامل التاريخية والعرقية والإقتصادية. لكنّني أضع أملي في مستقبل عالمي وتعدّدي وتقدّمي على

الحساسيّات الحضرية دون اضفاء الطابع الرومانسي على المدن التي تتميّز أيضا بوجود أحياء كبيرة محظورة من الفقر المدقع وتعاطي المخدّرات والجرائم العنيفة والعصابات وفوضى حركة المرور والتلوّث. أي أنّ أفضل وأسوأ حالة بشرية معروضة حاليا داخل حدود المدينة. صحيح أنّ الإتجاهات المعاكسة للفرار من المدن لتحقيق حياة أكثر نقاء وصحة في البلاد أو مزيدا من الراحة لعائلات الطبقة المتوسطة في الضواحي واضحة، هو اتجاه أعطي دفعة قويّة لردود الفعل على الإجهاد العقلي الناتج عن عمليات الإغلاق الوبائي، كما لاحظنا أخيرا.

وعلى سبيل المثال التوضيحي، دعونا نأخذ الصورة الحكيمة لقصة عام 2020 لمدينة پورتلاند في ولاية أوريگن. وهي ولاية مرتبطة بالقيم التقدّميّة وكانت موقعا للإحتجاجات المناهضة للعنصريّة ردّا على مقتل جورج فلويد، عندما تمّ تحدّي المتظاهرين ليس فقط من قبل الشرطة المحلية والخصوم في المناطق الحضرية، ولكن أيضا من خلال نقل أنصار ترامپ الحاملين للسلاح بالشاحنات من المناطق الريفية المحيطة. في الولايات الأمريكية الأكثر اكتظاظا بالسكان، والتي تمنح أكبر هوامش انتصار الميول السياسية التقدمية، في ولايتي كاِفورنيا ونو يورك، تعكس النتائج المشجّعة ما يحدث في مدنهما. من الواضح أنّ ملامحهما السياسية ستكون مختلفة الى حدّ كبير، إذا تمّ منح حقّ التصويت فقط للأشخاص الذين يعيشون في مناطق لا يسكنها أقلّ من 50000 شخصا. عند النظر الى الخريطة التركية بعد انتخاباتها الوطنية القريبة نسبيّا في السنوات الأخيرة، تمّ الكشف عن نمط مماثل. يبدو للوهلية الأولى أنّ الدولة بأكملها تدعم حزب العدالة والتنمية بقيادة إردوگان، باستثناء عدد قليل من المدن الكبيرة في غرب البلاد، حيث فاز العلمانيون عموما وأنتُخِب رؤساء البلديات التقدّميون. بالطبع، هذه الأنماط ليست موحدة. يجب أن نتذكّر أن صعود إردوگان الى القيادة الوطنية بدأ بانتخابه رئيسا لبلدية اسطنبول. ومع ذلك، فإنّ الآمال في مستقبل حميد للبشرية يتعلق باحترام قيم الريف مع اتباع نهج أكثر حضريّة وتعدّدية للعيش في العالم على نطاق محلي وإقليمي وعالمي. لقد جمعت تجربتي بين متع الحياة المميزة دون التعامل اليومي مع تعقيدات المدن

الكبرى. ومع ذلك، فإنّ توجّهي كمواطن عالمي يشير الى أنّ الجنس البشري يجب أن يجد طرقا لتشكيل نظام عالمي جديد يعتمد على إندماج إبداعي بين الحاجة الى العيش اللطيف على مقربة من جماهير الآخرين المتنوعة وتخفيف الإلحاحات التي تفرضها عدم المساواة الصارخة بين شعوب العالم، والعمل من أجل حماية الصالح العام العالمي. لن تتمكن القبلية، سواء كانت عرقية أو قومية، من مواجهة تحدّيات أكثر من ثمانية مليارات شخص يعيشون معا على كوكب الأرض في القرن الحادي والعشرين. لقد تغذّت حياتي الخاصّة بعمق من خلال تجربة مجموعة متنوّعة من مدن العالم. لقد كانت بمثابة مسارح خاصّة لي تربط ما هو شخصي بالسياسي، وقدّمت منهجا غير محدود لتعليم الكبار.

ما يجعل سحر المدن غير الشخصي ينبض بالحياة هو التواصل مع السكان النابضين بالحياة واللقاءات التي تتجاوز الرضا عن المعتاد وتقدّم للزوّار الذين تستقبلهم اشكالا مبتكرة من العلاقات. تتراوح هذه من الحميميّة الى العدائية وتشمل العلاقات المهنية والسياحية، والأهمّ من ذلك كلّه ما يحدث في الساحات المخصّصة للصداقات القديمة والجديدة.

كانت معظم رحلاتي المتكرّرة منذ عام 1995 مع هِليل، وخاصّة مدن العالم، التي ترتبط بعملها وتتداخل مع الصداقات واحيانا ترتبط بطرق غامضة بحياتنا في سانتا باربرا. بدأ الأمر قبل هِليل مع مَيري كالدُر، التي شملت تعهداتي التعاونية معها العديد من الرحلات الممتعة الى لندن ودلهي، وكانت مرتبطة بمشاريع علمية طويلة الأمد لتشجيع تخفيف الحرب الباردة خلال الثمانينات من خلال ما اطلقنا عليه «عملية الإنفراج من الأسفل». أي من خلال الضغوط التي تمارس عبر المدينة العابرة للحدود. كانت مثل هذه النشاطات بمبادرات المجتمع ومن خلال تعهد عالمي مدعوم من جامعة الأمم المتحدة في طوكيو، بقيادة عالم الإجتماع الهندي الرائد وصديقنا راجني كوثَري، خاصّة حول موضوع «التحوّل العالمي»، الذي تمّ تنشيطه بشكل كبير من خلال مساعدة طالبته الإستثنائية، فاندانا شيفا. لقد حدّدت بنفسها أن تكون رائدة ذات بصيرة لا تُنسى، حتّى كطالبة دراسات عليا، حيث جمعت بين الوعي العلمي الحادّ والإحساس الحيوي والأخلاقي النابض بالحياة.

قابلت في منزل مَيري في برايتُن لأوّل مرّة دانييل آرچوبوگي، أمير الحيوية الرومانسية، والذي اصبح فيما بعد صديقا خاصّا صاغ طرق جديدة في الفكر الديمقراطي. وكان هذا الإيطالي النموذج للمحللين، الذي يتخيلون فقط المواجهة في الحياة الواقعية. كان لترويج دانييلي لدمقرطة المستقبل السياسي صلات كثيرة بعمل دَيڤِد هيلد، وهو مترجم رائد للديمقراطية السياسية لربط التنظيم الداخلي للدولة بعالم يسوده السلام. دعم دَيڤِد، الذي اصبح صديقا لي، جهود WOMP الخاصّة بنا وعمل عن كثب مع مَيري في LSE حول الحوكمة العالمية، مكرّسا اهتماما خاصّا لأوروپا. كان دَيڤِد واحدا من أكثر العلماء وضوحا وابداعا وانتاجا، ومن الذين تعرّفت عليهم شخصيا. إستكشف أفضل أعماله طبيعة الحكم الديمقراطي من زوايا مختلفة. لقد حرم موته المأساوي غير المتوقع في منتصف العمر العالمَ من أكثر عقل خصب وكذلك منع تكوين أعظم اعماله، والتي من المحتمل أن تكون قد ربطت خيوط دراسته الغزيرة في عقدة ذهبيّة واحدة. بصفتي باحثا مسنّا، فقد خطرت لي مثل هذه المهمة في كثير من الأحيان، لكنني لم أجد رأس الخيط بعد!

كانت لي تجارب سابقة بين نوافير روما خلال السبعينات كجزء من مجموعة صغيرة ساعدت ليليو باسو في تشكيل المحكمة الدائمة للشعوب، التي حاولت سدّ الثغرات التي أحدثها الإفلات الجيوسياسي من العقاب بين الدول الكبرى والقانون الجنائي. إتبعت مبادرة المجتمع المدني الجريئة هذه قيادة محكمة برتراند راسِل، التي تزعّمت اصدار حكم قانوني ضدّ الولايات المتحدة بشأن حرب فيتنام، معترفة بعدم قدرة الأمم المتحدة على توسيع تغطية المساءلة الجنائية لأعضاء مجلس الأمن الخمسة. لقد تمّ منح هذا التأكيد للإفلات من العقاب مكانة دستورية في شكل حقّ النقض، وهو الثمن الذي دفعته الأمم المتحدة لإغراء الفائزين الجيوسياسيين في الحرب العالمية الثانية بالإنضمام الى المنظمة والمطالبة بتمثيل مصداقية العالم. كان من دواعي سروري العمل عن كثب مع ليليو باسو، وهو مشرّع ماركسي مؤثّر احاط نفسه بنساء كاثوليكيين مخلصين وأحد اتباع أيديولوجيين مخلصين، هو جياني توجنوني، الذي اصبح صديقي في سياق التعاون القضائي. علمني ليليو أنّه من الصواب حبّ الحياة

ومعارضة جرائم الدولة، وأنّ الإنسجام بين العيش الكريم والعالم العادل أمر طبيعي، بل ضروري. توصلت في تلك السنوات الى الإعتقاد بأنّ روما أثبتت أنّ المجتمع يمكن أن يعمل حتى مع خيبة أمل الدولة، بل وحتى فشلها، وما زلت متمسّكا بهذا الرأي. يعرف الرومان كيف يعيشون، ولكن لا يعرفون كيف يحكمون.

منذ عام 2014، كانت رحلاتنا نصف السنوية الى إيطاليا بحكم عمل هِليل في مجال الأمن الغذائي العالمي. كانت روما المقرّ الرئيسي لمنظمة الأمم المتحدة للأغذية والزراعة (الفاو). غالبا ما اقمنا في منطقة الطلاب سان لورَنزو في شقة يملكها دانييل، ممّا يمنحنا لمحة معاصرة عن حيّ متهدّم من المدينة الأبدية والكثير من التعرّض عبر دانييلي للمشهد الإجتماعي الروماني. لقد ازدهرت روما واحتفظت بسحرها، ولكن كان هناك العديد من الإحباطات بسبب المشهد السياسي الفاسد والمشهد الإقتصادي، الذي اصبحت فيه وظائف الشباب نادرة، ممّا جعل منزل العائلة عند بلوغ سنّ الرشد أكثر ندرة. إزدهرت روما بينما كان الإيطاليون يعانون. من قبيل الصدفة، كانت صداقتنا مع دانييل مرتبطة بلندن لأنّ جزء من حياته التعليمية كان في كلية بِركبَك، حيث كنّا نلتقي في أيّ من المدينتين في نفس الوقت.

يرجع جزء من سبب تواجدنا كثيرا في لندن الى لقاء صدفة مع پِني گرين حين كانت هي وزوجها بِل سپِنس يزوران جامعة كالِفورنيا في سان فرانسِسكو. كانت پِني عالمة في الجريمة وتدير في ذلك الوقت مبادرة لملاحقة جرائم الولاية في كلية الحقوق في كِنگز كولِج في لندن، ودعتني وهِليل لقضاء فصل دراسي كزميلين زائرين مع بعض التزامات إلقاء محاضرات بسيطة. الغريب أنّنا التقينا بپِني وبِل خلال مأدبة عشاء في منزل الصديقين المقرّبين أڤري گوردُن وكرِس نوفيلد، اللذين استقالا من جامعة كالِفورنيا في سانتا باربرا حتى يتمكنا من العيش والعمل في لندن. بعد بضع سنوات اصبحت پِني عميدة لقسم القانون في جامعة كوين مَيري بلندن فعرضت عليّ منصب رئيس قسم القانون الدولي، ممّا يعني وجودي لمدة شهرين سنويّا في لندن طيلة فترة العقد البالغة خمس سنوات. في البداية، تزامنت فترات إقامتنا مع إضرابات في نظام الجامعات البريطانية

بسبب معاشات تقاعد اعضاء هيئة التدريس. ثمّ جاء الوباء، الذي جعل وجودنا المؤقت على أنّه إفتراضي. أن تكون مناسبا أكاديميا في سنّ التسعين، يبدو أنّه يبطئ الشيخوخة بشكل أكثر متعة، وآمل أن يكون فعّالا أكثر من الفايتمينات المضادة للشيخوخة!

على الرغم من أنّ تجربة لندن كانت ممتعة بالنسبة لنا، إلا أنّه كانت هناك بعض التذكيرات غير السارة للهويات الإقليمية. تُعدّ لندن مكانا مركزيا للنفوذ الصهيوني. وهو أمر غير مفاجئ بالنظر الى أنّ المشروع بأكمله لإنشاء وطن لليهود في فلسطين قد اكتسب زخما حاسما هنا قبل قرن من الزمن، عندما أصدر وزير الخارجية البريطاني وعد بَلفُر عام 1917، الذي تعهّد فيه بدعم تأسيس دولة يهودية. الوطن في فلسطين. أينما تحدّثت في لندن بعد أن اصبحت معروفا بصفتي ناقدا لإسرائيل ومؤيدا للنضال الفلسطيني، كان هناك صهاينة مهاجمون بين الجمهور، وغالبا ما كانوا يحضرون مثل هذه المناسبات لمجرد إحداث اضطرابات ومقاطعات. إستدعت مثل هذه اللقاءات شعوري بالضعف الشخصي في إطار منظمة الأمم المتحدة، لكنّني تمسّكت وواصلت البرامج كما هو مقرّر. في إحدى المرّات تحدّثت مع جِرمي كوربِن قبل أن يُصبح رئيسا لحزب العمال البريطاني خلال اجتماع للتضامن مع القضية الفلسطينية. بعد عام أو نحو ذلك، نشرت صحيفة تابلويد صورة لي وأنا جالس بجانب كوربِن، أدّعى التعليق المصاحب للصورة أنّه من خلال التحدّث مع شخص معاد للسامية وسيء السمعة مثلي، أظهر كوربِن تحيّزه المعادي لليهود، ممّا يؤكّد مزاعم مُتّهميه.

من واقع خبرتي، تعكس المدن أمراض العالم، ولكنّها تعمل أيضا كمنصّات ملهمة لتجربة حياة مُرضية وآمنة وخلاقة وافضل صورة لمستقبل خير البشريّة. من المعارض الفنية الى الأفلام التجريبية والمسرح السياسي، تشجعنا الحياة الثقافية للمدينة على التعبير بحريّة عن ازدهار خيالنا الأخلاقي والسياسي، متجاهلين في الغالب حماقات سلطة الدولة. لقد بدأت أحلم بهندسة معمارية عالمية مستقبليّة يصمّمها سكان المدن والفوضويون ومحبو الحيوانات Urban Dwellers, Anarchists, and Animal Lovers.

القسم الرابع

إشراك العالم
المواطنة والشهادة والنشاط

كنت منذ البداية راضياعن الحياة المنعزلة للعالِم/المعلم. بدا ذلك كافيا بالنسبة لي. ومع مرور الوقت شعرت تدريجيّا بعدم الإرتباح حيال عدم نقل افكاري الى الساحات العامة عندما أجبِر طلبتي والآخرون على اتخاذ خيارات حياتية مهمة وخاطروا بفقدان حياتهم واطرافهم وصفاء حياتهم من خلال تجنيدهم في تنفيذ السياسة الخارجية للحرب الباردة، التي بدت وكأنّها تتعارض بشكل متزايد مع قيمهم وقيمي. لقد عارضت ايضاهذا النهج العسكري العالمي لمتابعة أهداف أمريكية على أسس واقعية لأنّه من غير المرجّح أن ينجح، نظرا لوقائع العالم كما هو قائم حاليا. وقد عكس ذلك اعتقادي بأنّ قيود القانون الدولي وميثاق الأمم المتحدة، إذا تمّ تفسيرها بشكل صحيح، لا تخدم المصالح الوطنية الأمريكية فحسب، بل يجب اطاعتها لهذا السبب. ولكنّ القضية مرتبطة ارتباطا جوهريا بالحوكمة العالمية الإنسانية في العصر النووي Humane Global Governance in the Nuclear Age. وعلى هذا النحو، فهي تستحقّ الإحترام.

حين اصبحت أكثر صوتا وانخراطا علنا، قللت من أهميّة الحجج العملية المتعلقة بنجاح الستراتيجية الأمريكية الكبرى وفشلها، وركّزت أكثر على الإعتبارات المعيارية وتمييز الصواب من الخطأ، فقط الظلم القانوني عن غير القانوني. دفعني هذا التحوّل الى حدّ ما ضدّ رغباتي بعيدا عن ملاذات الخصوصية والعزلة، التي عادة ما تصاحب الحياة الأكاديمية، ونحو الأضواء الأكثر إشراقا واحيانا الساطعة لاهتمام وسائل الإعلام بها والجدل العام حولها. بمرور الوقت وعلى الرغم من فترات الإنسحاب، وجدت نفسي أسبح باستمرار ضدّ التيّار، ووجدت أنّ الكفاح من أجل الإستمرار في المضي قُدُما أصبح أكثر صعوبة، وليس أسهل كما كنت أتمنّى. في المراحل الأخيرة من حرب فيتنام، أصبحت واثقا الى حدّ ما من أنّ تدفّق/مسار التاريخ كان الى جانبي. أعتقد الآن أنّ ما فسرته على أنّه تدفّق لم يكن خطأ، بل ينطبق على انهيار الإمبراطوريات الإستعمارية الأوروپية، وليس على الإتجاه الأوسع للغربنة والعولمة الأمريكية المُهيمنة Westernization and American Hegemonic Globalization، فضلا عن آثار الإرتداد التراجعي.

الفصل الحادي عشر

الآثار الدموية لأحذية العسكر الأمريكيين في فيتنام: نزولي من البرج العاجي

المواطنة المشاركة في زمن الحرب

لم يكن في نيّتي أن أصبح ناشطا سياسيّا. جعلتني سنواتي العشر الأولى كمدرّس أدرك أنّ لديّ آراء قوية، ممّا جعلتني أشعر في كثير من الأحيان بالتناقض مع المناخ السياسي السائد في الكليات والجامعات، خاصّة فيما يتعلق بالسياسة الخارجية. لم اختبر هذه المشاعر كدعوة للعمل بل كانت نتيجة بعض الإنفصال عن التيار الرئيسي. لم أؤيد مطلقا بشكل غير مشروط حقائق أو مواجهات الحرب الباردة، أو الإجماع الإداري على أنّه يمكن معالجة العصر النووي بشكل مناسب باعتباره مجرّد استمرار للماضي. جعلتني هذه المشاعر قلقا وملأتني خوفا، لكنّني ما زلت غير مستعدّ للخروج الى الشارع مع أولئك الذين يحتجّون على السياسات، التي كانت نتيجة طرق الحرب الباردة وهذه الرؤية للواقع السياسي. عندما وجدت نفسي أخيرا اتحدّث في مظاهرات واجتماعات صاخبة وحتى في الشارع، أدركت الآن أنّني كنت اتحمّل تدريجيا الأعباء والرضا لما كان يُطلق عليه آنذاك «مثقف عام» Public Intellectual. لم أكن خلال هذه العملية مدركا تماما لتحوّلي. أدّت هذه العملية الخفيّة الى حدّ كبير، والتي حدثت على مدى سنوات، الى بعض التخمين الثاني لنفسي الجديدة الى حدّ ما. نظرا لأنّ اهتمامات مكتبتي ومقرّراتي الدراسية كانت دولية، فمن الطبيعي بالنسبة لي أن أجد نفسي منخرطا في الغالب في القضايا الدولية كلما خضت في أمر من

الأمور. فيما يتعلق بالقضايا المحلية من قبيل العِرق والجِنس والمرأة والعمال، كانت لديّ وجهات نظر لِبرالية يساريّة معيارية تؤكّد على المساواة الإنسانية في جميع الجوانب وسلطة تقديرية واسعة للعيش كما يتمنّى المرء طالما أنّه لا يضرّ بالآخرين، خاصّة الشباب. لم أكن كذلك واعيا بالعناصر المنهجية لهذه التحدّيات الإجتماعية والإقتصادية والثقافية العميقة، كما اصبحت لاحقا.

ما قبل ڤيتنام وكوبا

لقد تطلب الأمر تجربة تحويلية أخرى بالنسبة لي لكي أبدأ في اعتبار نفسي نوعا من «عدوّ الشعب»، كما صوره الأديب النرويجي إ پسُن، أي بصفتي ناقدا جادّا حادّا للنظام القائم ووضع نفسي خارج نطاق المعتقدات والقيم التقليديّة.

لقد تطلب الأمر مني أن ازور في شهر حزيران من عام 1968 شمال ڤيتنام في خضمّ الحرب الدموية، قبل أن أعود لأؤكّد علنا على القيادة الوطنية المثالية لهو چي مِنّه وللتضامن مع النضال الڤيتنامي من أجل الوحدة الوطنية واستقلال ما بعد الإستعمار. كانت هذه الزيارة تتويجا لعملية تحويلية بدأت إثر كلمات كاسترو في كيمرِج حين جاء زائرا قبل عقد من الزمن تقريبا. كما هو الحال، مع أيّ تحديد سياسي مثير، هناك دائما أسباب تظهر لاحقا للتشكيك في مثل هذه القفزات الى ما يقرب من الظلام، وغالبا ما تؤدّي الى تحفظات حول اندفاعات الحماس السابقة. ومع ذلك بالنسبة لي، فإنّ تلك الأمسية الوحيدة في كَيمبرِج من الإستماع الى قصائد كامنگَر وقرائتها وشرح كاسترو لثورته هي ما شكّل التحوّل الأساسي أصلا. إنّ طريقهما التكميلية لفهم العالم حتى الآن لا تزال مقنعة على الرغم من مرور ستة عقود وحدوث سلسلة من التطوّرات اللاحقة غير المُتسقة. إنّ الإفصاحات الأخيرة وأراء بعض المعلقين الجديرين بالثقة تؤيد الآراء التنقيحية للقيادة الڤيتنامية في زمن الحرب، التي اعتبرت هو چي مِنّه ربّما كان الوجه العام للصراع، لكنّه لم يكن صانع القرار النهائي أو كبير الستراتيجيين السياسيين/العسكريين. في حين أنّ هذا التصحيح مهمّ، إلّا أنّه أثّر على أسبابي لدعم الجهد الڤيتنامي البطولي لحماية حقهم في تقرير المصير، وهو حقّ غير قابل للتصرّف يكرّسه القانون والأخلاق والإجماع السياسي.

كخلفية لهذا التحوّل الأساسي في نظرتي اتجاه ڤيتنام، يبدو أنّه من المفيد إعادة النظر في تعاطفي السابق مع الثورة الكوبية. أصبحت في البداية مهتمّا من الناحية المهنيّة بالظهور السياسي الكوبي بصفتي متخصّصا شابّا في القانون الدولي أبحث عن موضوعات بحثية لأكتب عنها خلال فترة عملي كعضو هيئة تدريس في كليّة الحقوق في جامعة ولاية أوهايو. قدمت كتاباتي الإحترافية الداعمة لسياسات كاسترو الإشتراكية الخلفية الأساسية لمشاركتي العميقة والناشطة خلال العقد الأخير من حرب ڤيتنام. أدّى اهتمامي بكوبا الى اتجاهات أخرى، بما في ذلك إثارة صداقتي الحميمة مع ليونَرد بودِن، وهو بلا شكّ المحامي التقدّمي الأكثر موهبة في جيله، والذي مثّل مكتبه القانوني الحكومة الكوبية. كانت صداقتي مع ليونَرد وزوجته جَن (أخت الصحفي اليساري الشهير آي أف ستَون) مصدر ارتياح عميق. أتذكّر قضاء العديد من الأمسيات المثيرة في شقتهم في الوَست ڤِلِج بصحبة كبار المثقفين التقدّميين والدبلوماسيين من الأمم المتحدة.

كان ليونَرد بودِن ساحرا وموهوبا اجتماعيا، كما كان موهوبا من الناحية القانونية. كان معروفا في لعبة الشطرنج في نادي خريجي هارفرد أو في مكتبه وسط مانهاتِن، حيث كان يتولى قضايا الدفاع ويعجّ بالنجوم من المشاهير المناهضين للحرب مثل فِلِپ بَرِگَن وإقبال أحمد وتوني روسو ودان إلزبَرگ، الذين اصبحوا اصدقائه المخلصين. ذكّرتني موهبة الإختلاط بالإحتراف بالصداقة بوالدي، فعلى الرغم من حميمية أبي كانت صداقاته مع شخصيات بارزة مناهضة للشيوعية ومع محاميّ وول ستريت وعدد قليل من أعيان هوليوود، بينما كانت علاقات ليونَرد الإجتماعية مع تقدّميين بارزين، بما في ذلك دبلوماسيين أجانب تراوحت بين السفير الكوبي الى الفائز بجائزتي نوبِل ولِنِن للسلام، شون ماكبرايد. لم يستطع والدي ولا ليونَرد مقاومة سحر النساء، خاصّة إذا كُنّ جميلات.

كان الفخر والبهجة والألم في حياة ليونَرد، بصرف النظر عن حبّه للقانون والنساء والشطرنج، متمثلا في طفلين مختلفين بشكل مذهل. مايكل هو الأكبر وفعل ألأشياء الصحيحة طوال الوقت في عيون والده. تمّ انتخاب مايكل عضوا

فـي هيئـة تحريـر المجلة القانونية لجامعة هارفـرد، وبلغت مهنيته الذروة كمحام من خلال تعيينه قاضيا في محكمة فِدرالية محلية. أمّا ابنته كاثي فقد كانت قصة مختلفـة. لقـد كان الهـدف الرئيسـي لحب ليونَرد الأبوي، علـى الرغم من قيامه بالعديـد مـن الأشـياء الخاطئـة من وجهة نظره، كانت كاثي ناشـطة نسـوية ذات عيون سوداء قاتمة ومكثفة ومتشدّدة ولم تهتمّ كثيرا بطريقة لبسها أو كيف يبدو مظهرها. كانت متحرّكة وذكية وذات وجود ممتع. قامت كاثي بانتقال مفاجئ من كلية برِن مور الى وذرمَن، وانتهى بها الأمر في منظمة وذرمَن السريّة بعد انفجار Village Town House الشهير. لقد كان ذلك حدثا تسبّب في موجات صدمة مثيرة للقلق، حيث كشف أنّه في قلب مانهاتِن كانت مجموعة من الشباب المتطرفين يقومـون بتجميـع عبوات ناسـفة يمكن اسـتخدامها لتعزيـز حركتهم الثورية. بعد الإختباء من القانون والتخفي لأكثر من عقد من الزمن، تورّطت كاثي عام 1981 في عملية سطو مسلح على مصرف واصبحت قاتلة، حيث قُتل حارس المصرف وإثنان من ضبّاط الشـرطة وأصيب آخرون. جرى تنظيم عملية السـطو وقيادتها من قبل ثوّار أمريكيين من أصل أفريقي من **جيش تحرير السود** بدعم العديد من اعضاء منظمة وذرمَن السـرية Weathermen Underground. مع المفارقة المتغيّرة للحياة، خططت كاثي لإنهاء هروبها وتخفيها والسـرقة المخطط لها، من خلال تسـليم نفسـها الى السـلطات الأمريكية في الأسـبوع التالي. ولكن تمّ إقناعها في اللحظة الأخيرة لتلعب دورا ثانويا كسائق وشريك في الجريمة لتظهر لرفاقها في النضـال أنّهـا لـم تتخلَ عن «التضامن الثوري» Revolutionary Solidarity. إتضح أنّ مشـاركتها في هذ الحدث أسـوأ ممّا كان متوقعا. بعد القبض عليها، حُكمت كاثـي بالسـجن لفتـرة طويلة وكانت لهـا مجموعة من المضاعفات، بما في ذلك ولادة ابنها في السـجن. بعد إطلاق سـراحها، تمّ تعيينها كعضو هيئة تدريس في جامعـة كولومبيـا واصبحت فيما بعد مؤسسـا مشـاركا ومديـرا لمركز العدالة في الجامعة المذكورة. هذه المهنة بعد السجن، غير عاديّة للغاية.

قبل اسـبوع أو عشـرة ايام من ذلك الإنفجار الذي غيّر الحياة في قبو منزل في قرية گرِنِچ على بعد عدة بنايات، كان ليونَرد وجَن قد جمعوا بعض اصدقائهم اليساريين، ومن بين هؤلاء ألجَر هِس، أكثر المشاهير شهرة بين المتهمين بخدمة

السوفيت إثناء توليهم مناصب حكومية مهمّة. دُعيت مع زوجتي الثالثة فلورنسا، فسافرنا من پرِنستُن لنكون جزء من المجموعة، التي تمّ تجميعها للقاء كاثي وشريكتها الثورية في المنظمة، جودي كلارك. كان الغرض المُعلن من الأمسية هو التحدّث الى هاتين الشابتين المثاليتين عن الإنخراط في اشكال عنيفة من العصيان المدني وما اعتقد جيل ليونَرد أنّه مغازلة رومانسية لن تؤدي الى أيّ مكان سياسيّا. كان هؤلاء المناضلون من اليسار الأمريكي مُلمّين بشكل أو بآخر بأفكار ماركس، واستمرّوا في الإيمان بشكل أو بآخر بفضائل التجربة السوفيتية، وقبل كلّ شيء اعتبروا الحركة العمالية الموجّهة بالفكر الماركسي الطريق الصحيح للثورة في الغرب. لم يكن لدى الجيل الأقدم من التقدميين السياسيين سوى القليل من الصبر حيال ما اعتبروه راديكالية سياسية مدمّرة للذات بالنسبة لكاثي وجودي.

لقد كانت تجربة حزينة لا تُنسى بالنسبة لي. بدلا من اجتماع للعقول بين الأجيال، أنتج اللقاء حوارا غاضبا أظهر عدم وجود أرضية مشتركة بين الراديكاليين القدامى والثوريين الجُدد، واظهر قبل كلّ شيء عدم التسامح السياسي لهذا الجيل الأكبر سنّا، الذي اعتبر نفسه مع ذلك أكثر حكمة. بينما شرحت كاثي وجودي بصبر وهدوء وجهتي نظرهما، فإنّ الراديكاليين الشيب في الغرفة جادلوهما بقوّة في كلّ خطوة على الطريق، ودعوا الى التفكير والعمل وفقا للأنماط التقليدية للسياسة اليسارية. ومن الواضح أنّهم لم يستوعبوا الأساس المنطقي وراء إحساس اعضاء منظمة وذرمَن بالإلحاح الثوري. إذا نظرنا الى الوراء، فإنا لست متأكّدا من تبرير آراء أيّ من الجانبين أو رفضها تماما في هذا الشأن. هذا الإحساس نفسه بـ «العمل الصحيح»، كما قد يصفه البوذيون، يكمن وراء الجدل الدائر اليوم بين انصار حركة Black Lives Matter وهؤلاء اللِبراليين، الذين يحذّرون من الثورة المضادّة نتيجة عنف الغوغاء وردود فعل الشرطة. كما هو الحال الآن، انتجت تلك «المحادثة» غير الحوارية في وقتها، حالة مزاجيّة في صالة بيت بودِن كانت تتأرجح بين الإحباط والغضب والندم.

شعرت أنا وفلورنسا بالحيرة. لقد علقنا في المنتصف، وأدركنا أنّه بمرور الوقت في ذلك المساء، اصبحت المواقف المتعارضة أكثر تصلبا بطرق تتعارض

مباشرة مع ما كان يأمل آل بودِن حدوثه. هذا الرفض من قبل اصدقائهم للإستماع الى كاثي وجَودي، عنى أنّ مشروعهما التصالحي قد فشل. كان ليونَرد وجَن يشعران بقلق وخيبة أمل عميقة، حيث أدركا أنّ ذلك اللقاء الذي رتّباه مدفوعين بأفضل نوايا الحبّ الأبوي كان بمثابة خيبة أمل مطلقة وأسوأ من لا شيء. مع بدء الحديث ذلك المساء اصبح من الواضح بشكل متزايد لليونَرد وجَن أنّ الإنفصال بين حسّاسيّات الأجيال والتوجّهات السياسية كانت أكبر من اللازم وأنّهما شعرا بالعجز عن التدخّل.

آخر مرّة رأيت فيها كاثي كات في سجن شديد الحراسة في أعالي ولاية نو يورك. بناء على طلب من ليونَرد، ذهبت في زيارة برفقة هِلينا كِندي، المحامية الإنگليزية الشهيرة، التي تولت الدفاع عن بعض نشطاء الجيش الجمهوري الأيرلندي المتهمين بالإرهاب، واصبحت فيما بعد عضوة في مجلس اللوردات. أغرب جانب في حياة ليونَرد بَودِن، على الرغم من أنّ حياته المهنية والإجتماعية بأكملها كانت تغلب عليها الأسباب التقدّمية والصداقات مع الشخصيات الراديكالية الرائدة في عصره، لكنّه نفسه كان في الأساس غير سياسي، ولم يكن له أي ّارتباط أو اهتمام كبير بالقضايا السياسيّة باستثناء ما أثرت به على القانون وعملائه وأثرت بشكل مباشر على اصدقائه والعائلة. كان الأمر كما لو أنّه وُلِد بجينات الحمض النووي التقدّمية. في الواقع كان عمّه لِوِس بودِن باحثا مرموقا في افكار ماركس، ولكن بدون أيّة مهنة للإنخراط في السياسة. كان قدر صاحبي أن يكون المحامي الخبير للمتهمين المناهضين للدولة.

مناقشة شرعية السياسة الأمريكية في ڤيتنام

كانت مساهمتي السياسية والعامة ازاء ڤيتنام نتاجا غير مخطط له للمشاركة في المناقشات السياسية غير الرسمية لسياسة ڤيتنام في أوائل الستينات والتزام متزايد بتشكيل دراستي الأكاديمية وهويتي كمواطن، بحيث تعكس وجهة نظري العالمية ووجهة نظري الأخلاقية والإستجابة للظروف السياسية الحالية وتطلعات المستقبل. كنت أدرك بالطبع أنّ هذا النوع من التوجّه المعياري يتعارض مع الإتجاه الكمّي والتجريبي للإتجاهات الرئيسية في ابحاث العلوم الإجتماعية.

فضـلا عـن كونـه غير صحيح سياسـيا ويتعارض مع المزاج اللاسياسـي لكليات القانون في ذلك الوقت. سعت هذه الإتجاهات العصرية في الأوساط الأكاديمية الى تأسـيس الدراسـات السياسـية والقانونية في المنهجية العلمية، التي ارتبطت فيهـا القيـم بحقائـق الحرب الباردة ومعالجة البيانات التجريبية باعتبارها الطريقة الوحيـدة لتعزيـز المعرفـة في مجال البحث العلمي. بالنسـبة لي، فإنّ تبنّي ما بدأ يُطلق عليه إسـم «الدراسـات المعيارية» (أي الدراسـات التي تركّز على المعايير القانونية والأخلاقية والدبلوماسـية)، كان بالتالي تبني موقف يتعارض مع التيار المعرفي السـائد، الذي كان يحاول جاهدا في تلك الفترة من البحث الأساسـي حول منهجيّات مثل «الإختيار العقلاني» و«النماذج الرسـمية» و«نظرية اللعبة». وهذا يعني أنّ القلق المباشر بشأن رفاهية الإنسان والسلام والعدالة العالميين كان بعيدا عن الموضة، مما يضعني على الهامش لدراسات السياسة والقانون. حتّى المنظرين السياسيين كانوا يسعون الى أسس تجريبية لاستفساراتهم والإمتناع عن الدعوة في الأوسـاط غير الأكاديمية. كان الدافع المناهض للماركسـية في ذلك الوقت هو تفسـير العالم وليس تغييره. لم ينجذب علماء الإجتماع الأمريكيون الى الماركسية إلا من باب الفضول الفكري، والذي سعى بطرقه العقائدية أيضا الـى أن يكـون «علميـا» لتجنـب وصفـه بأنّـه «خيالـي». بنيتُ هويتـي الأكاديمية على أسـاس الأخلاق الحكيمة والتقدمية والمعتقدات والرغبات والتضامن مع الحركات الإجتماعية ونضالات التحرّر ومساعدة الشعوب المتضرّرة، سواء في أمريكا أو أيّ مكان آخر. إذا طُلِب منّي تحديد هويتي الشـاملة، فسـأطلق عليها «الإنسانية ذات الرؤية» مع التقبل الروحي الذي يدمج الألغاز في جوهر الوجود، كبديل لـ «الإنسانية العلمانية» بمفهومها الضيق للواقع الذي يرتكز على إمكانية التحقيق والعقلانية.

شـاركت إبتداء من عام 1963 في العديد من مناقشـات پرِنسـتُن والسـاحل الشرقي حول حرب ڤيتنام بصفتي ناقدا للقانون الدولي، وترأست مجلسا أكاديميا للجنـة المحاميـن المعارضـة لسياسـات الحرب، وكتبت عدة مقـالات تزعم أنّ تورّط الولايات المتحدة في التمديد من حرب ڤيتنام الى ڤيتنام الشمالية، إنتهاك للقانون الدولي وميثاق الأمم المتحدة. لقد أصبحت قبلها معروفا الى حدّ ما بين

المحامين في الساحل الشرقي نتيجة المناقشات العامة التي نشأت عن دعوى Sabbatino المثيرة للجدل والناشئة عن تأميم كوبا لصناعة السكّر. جعلني هذا أشعر براحة معقولة في هذه الواجهة بين الشريط المنظم للمحامين المُمارسين والعالم الأكاديمي. أصبحت هذه الواجهة مسيّسة الى حدّ كبير مع تزايد حدّة المعارضة المحلية لسياسات ڤيتنام.

في الإتجاه السائد، الذي مزج بين معاداة الشيوعية والسياسة الخارجية للحرب الباردة واللِبرالية في قضايا العِرق والرفاهية، تمّ التعامل مع دور القانون بجديّة أكبر بكثير باعتباره موقعا للنضال أكثر من الوقت الحالي، على الرغم من أنّ نفوذه على القادة السياسيين لم يكن أبدا. عظيم عندما يتعلق الأمر بقضايا السياسة الخارجية أو السلام والأمن. كان القانون الدولي في حالات الحرب/ السلام يُنظر إليه من قبل مجتمع السياسة الوطنية بشكل فعّال ودائم وبشكل عملي، حتى في تلك الأيام، التي سادت فيها اللِبرالية على واشنطن. وعلى الرغم من ذلك، فقد اعتُبِر القانون الدولي وثيق الصلة بالنقاش السياسي في الستينات، وعمل كمبرّر عام قيّم للإستخدامات الدولية للقوة حتى لو تمّ تفسيره من قبل جانب واحد لتسهيل التحرّكات العدوانية في السياسة الخارجية الأمريكية. لن يكون هذا في وقت لاحق، عندما اصبح الرفض الساخر للقيود القانونية الدولية سمة من سمات الرئاسات القومية لجورج دبليو بُش، ومؤخّرا وبشكب أكثر حدّة وإن بشكل غير مباشر من قبل دَونلد ترامپ، الذي يبدو في مكان ما بين غير مدرك ومعارض لأهمية القانون الدولي أو الأمم المتحدة، ومن الواضح أنّه لم يهتم بكليهما كثيرا. شهد الميل اللِبرالي للقادة السياسيين في عهد جون كِنَدي ولِندُن جونسُن أنّ الحكومة تبذل قصارى جهدها لإقناع المواطنين والرأي العام العالمي بأنّ تفسير القانون الدولي بشكل صحيح يتماشى مع المصالح القومية الأمريكية في مجالات الخلاف السياسي. لم تكن السياسة الخارجية الأمريكية الناتجة عن حرب فيتنام وقضايا الحرب الباردة الأخرى، في الواقع مقيّدة بشكل كبيرمن قبل القانون الدولي في سياقات الحرب/السلام هنا أيضا. لكنّ القادة السياسيين وكبار مستشاريهم بذلوا جهودا على الأقلّ للتوفيق بين السياسة وتبريرها من خلال الأساليب الحزبية لتفسيرها. لقد ردّيت أنا والمعارضون الآخرون على

هذا النهج العقلاني بحجة أنّه ينبغي احترام القانون الدولي وتفسيره من منظور تنظيمي يأخذ في الإعتبارات المواعظ التاريخية وقيم النظام العالمي للسلام والعدالة عالتي لى المحكّ. لم يكن هذا أقلّ حزبية ممّا ادّعى المدافعون عن السياسة الأمريكية، ولكنّه انطلق من الإعتقاد بأنّ المصالح العالمية في السلام والعدالة والتحرير تجاوزت المطالبات الوطنية بالحقّ التقديري في استخدام القوّة الدولية نيابة عن الأهداف الجيوسياسية مثل حماية الأسواق والإستثمارات والحلفاء الأيديولوجيين.

بذل الموالون الأكاديميّون المؤيدون للسياسة الخارجية الأمريكية، بما في ذلك المتخصّصون في القانون الدولي، قصارى جهدهم لتقديم يد العون للحكومة من خلال تطوير المبرّرات القانونية لمواقف السياسة الخارجية السائدة، التي كانت موضع اعتراضي. وبهذه الروح، تمّت تعبئة مكتب المستشار القانوني بوزارة الخارجية لإصدار وثيقة عامة تزعم أنّ توسيع منطقة القتال لتشمل ڤيتنام الشمالية بعد حادثة خليج تَونكِن في عام 1964، كان له ما يبرّره قانونيّا. كانت الحجّة القانونيّة الرسمية المتوتّرة هي أنّ القرار كان متسقا مع القانون الدولي لأن تمارس الولايات المتحدة حقّها في مساعدة حكومة جنوب ڤيتنام لتمارس حقها في الدفاع عن النفس ردّا على نمط الهجوم من قبل ڤيتنام الشمالية الذي وُصِف بأنّه «عدوان غير مباشر». إستندت هذه الحجّة القانونة الى الوهم المتلاعب بوجود دولتين ڤيتناميتين ذاتي سيادة، ممّا عزّز الدعاية الحربية بأنّ الڤيتناميين الشماليين يساعدون **جبهة التحرير الوطنية** في السيطرة على الجنوب، والمشاركة في نضالهم، من متطلبات ميثاق الأمم المتحدة بشأن «الهجوم المسلح» كشرط مسبق لمطالبة أمريكية صحيحة بدعم ممارسة الڤيتناميين الجنوبيين لحقّهم في الدفاع عن النفس. بعد عشرين عاما، رفضت المحكمة العالمية حجّة قانونية مماثلة استندت اليها واشنطن في تبرير دعمها لسياسات مناهضة الساندَنِستا في نيكاراگوا.

كتبت خلال هذه الفترة في كثير من الأحيان لتوضيح وتفسير وتوسيع إدّعاءاتي المركزية بأنّ القانون الدولي، إذا تمّ تفسيره بشكل صحيح وتبيان أهميته، كان يُنتهك من قبل الولايات المتحدة وحكومة جنوب ڤيتنام بتكلفة

بشريّة كبيرة، وفي معارضة تدفق/مسار التاريخ المناهض للإستعمار. على الرغم من هذه الجهود المضنية، التي بذلتها لإثبات عدم شرعية السياسة الأمريكية اتجاه ڤيتنام، إلا أنّ عملي لا يزال يندرج ضمن النموذج اللِبرالي السائد للنقاش الشرعي حول القضايا الخلافية. تلقيت العديد من الدعوات للتحدّث والكتابة، بما في ذلك المؤسسات المحافظة وحتى من الكليات الحربية، التي تدرّب الضباط من مختلف فروع القوات المسلحة الأمريكية. لم يجعلني تحزبي القانوني حتى الآن خارج حدود المناقشة «المسؤولة». أتيحت لي فرصة جيدة، وفق هذا التصوّر، لقبول نشر مقالاتي ضمن مقالات الرأي في الصحف الوطنية، والتي كانت لا تزال تعمل كاختبارات أساسية لترسيم الحدود الخارجية للمعارضة العامة المقبولة.

في منتصف ستينات القرن الماضي، بدأت مشروعا بالتعاون مع **الجمعية الأمريكية للقانون الدولي** American Society of International Law المعروفة جدّا، بجمع أفضل كتابات أكاديمية على جانبي النقاش حول شرعية السياسات الأمريكية بصدد ڤيتنام، بدءاً من تفسير أهميّة هزيمة الإستعمار الفرنسي في ديان بْيان فو عام 1954. كنت قادرا على إقناع مطبعة جامعة پِرنستُن، التي تعمل بشكلّ مستقلّ عن الجامعة، بنشر كتاب ضخم عام 1968 بإشرافي كمحرر بعنوان **حرب فيتنام والقانون الدولي**. حاول المجلد أن يضرب بنبرة محايدة وتعدّدية معترفا في الواقع بوجود اختلافات مشروعة في التفسير عندما يتعلق الأمر بالحقوق القانونية والخطأ على المحكّ. إستمرت الحرب وامتدّ النقاش الى مسائل التفسير الدستوري وتكتيكات الحرب والمفاوضات الدبلوماسية وجرائم الحرب وأخيرا دبلوماسية السلام. نظرا للطول غير المتوقع للحرب، إنتهى مشروع تحرير الكتاب بأربع مجلدات. لا يزال مصدرا للباحثين الذين يسعون لفهم الأبعاد القانونية الدولية لحرب ڤيتنام، والتي تساعد ايضا في إثراء المناقشات حول الأنماط اللاحقة للتدخّل من قبل الفاعلين الجيوسياسيين في الشؤون الداخلية للدول ذات السيادة. ألتقي من وقت لآخر باشخاص يخبرونني أنّهم تعلموا عن حرب فيتنام من خلال قراءة تلك المجلدات، التي غيّرت نظراتهم بشكل دائم.

لم اتعرّض لأيّ تراجع كردّ فعل على دوري كمعلق أكاديمي ينتقد الدور

الأمريكي في فيتنام وأكتب بشكل أساسي من منظور القانون الدولي. أصبحت دائما خبير الخبراء المناهض للحرب أمام لجان الكونگرِس وفي الأوساط القضائية. وهو الدور الذي لعبته في ذلك الوقت واصبح لاحقا غير وارد حتى في العقد، الذي سبق رئاسة كلِنتُن، أي قبل وقت طويل من تولي قادة رجعيين للسلطة مثل جورج دَبليو بُش ودَونَلد ترامپ. تولى ترامپ الولاية الإنتخابية، وواصلت الكليات الحربية في البلاد توجيه الدعوات لي، وتحدّثت في أماكن متنوعة مثل كلية وَست پوينت في أناپولِس، ودُعيت على الرغم من رفضي، للعمل في مؤسسة راند وإلقاء محاضرات في وكالة المخابرات المركزيّة. سألني العديد من اعضاء مجلس الشيوخ، الذين سعوا للحصول على ترشيح رئاسي لتقديم المساعدة لحملاتهم، بما في ذلك هارولد هيوز من ولاية أيوا وجين مكارثي وجورج ماكگڤَرن وجَري براون. تلقيت دعوة للإنضمام الى مجلس العلاقات الخارجية بصفتي عضوا وشجّعني الموظفون في وقت مبكّر على لعب دور مؤثر في جلب اللِبراليين اليساريين البارزين الى تلك الساحة المؤثرة. لقد أدرك مجلس العلاقات الخارجية أنّ دوره المستقبلي يعتمد على استقطاب بعض الأصوات الناقدة، التي تحدّت السياسة الخارجية الأمريكية خلال سنوات ڤيتنام. كان من المأمول أن يجعل هذا الناس يعتقدون أنّ مجلس العلاقات الخارجية على اتصال بالمشهد الأمريكي المتغيّر. في الآونة الأخيرة، ظهر الإتجاه المعاكس بوضوح، وهو ما يعكس التحول الدراماتيكي نحو اليمين في الجو السياسي. الآن يبدو البحث عازما على تحديد الأشخاص من الإقناع اليميني الذي يمكن أن يساعد في منع مجلس العلاقات الخارجية من الظهور بنبرة صمّاء على الإيقاعات الغريبة لترامپ.

تجربتي الخاصّة هي رمز للإغلاق الخطير لقنوات النقاش العام في الولايات المتحدة منذ ڤيتنام. منع هذا الإغلاق التعبير عن وجهات نظر يسار الوسط، على الرغم من أنّه يتم تعويضه هيكليا من خلال انفتاح أكبر بكثير على منظور اليمين البديل، الذي يطارد الجمهورية حاليا من مراكز السلطة الحكومية في البيت الأبيض والكونگرِس والمحكمة العليا. بالنسبة لشخص مثلي، لم تعد دعوة للإدلاء بشهادته في جلسة استماع للجنة الكونگرِس أو الظهور في برنامج

حواري رئيسي أو مساعدة مرشح رئاسي أمرا بعيد المنال. ولكن بالنسبة لنظرائي اليمينيين، أصبح الأمر الآن أمرا يحدث يوميّا حتى في مثل البيئات الإعلامية اللِبرالية مثل CNN وMSNBC وNY Times، حيث يتمّ تقديم وجهات النظر الواثقة من قبل الجنرالات المتقاعدين ومحللي الإستخبارات على أنّها موثوقة، ويتمّ تجاهل وجهات النظر المعارضة. بشكل عام، وبصورة أقلّ شخصية، تعكس هذه التجربة تضييق النقاش العام حول قضايا السياسة الخارجية بعد هجمات 11 سبتمبر الى جانب صعود جناح المحافظين الجُدد في الحزب الجمهوري، وتكثيفها بسبب ارتفاع اليمين البديل الذي وفّر أسس السياسة. من رئاسة ترامپ، كانت تجربتي هي الحرمان من الوصول الى الأماكن الرسمية والمؤسسية في عملية تدريجية أعادت تعريف شعوري العام بالذات. لقد مثلت الإنتقال الذي استمرّ خلال الأربعين عاما التالية من كوني ناقدا أكاديميا لِبراليا معارضا الى حدّ ما الى عالِم/ناشط معارض.

عبور الخطّ المرسوم

بدأت رغبتي في احترام حدود المعارضة اللِبرالية تتغيّر فجأة في ربيع عام 1968، ولم اتراجع بعدها أبدا. كنت قد عدت مؤخّرا الى الوطن في پِرِنستُن بعد ثلاثة أسابيع متوترة في جنوب افريقيا كمراقب رسمي لمحاكمة سياسيّة لوطنيين ناميبيين من جنوب غرب افريقيا. كانت المحكمة برئاسة قاض أفريكاني في پِرِتوريا، وكانت بحدّ ذاتها تجربة مدهشة لسياسة وممارسة الفصل العنصري في جنوب افريقيا، والتي كانت اكثر اشكال العنصرية فظاعة من التي واجهتها على الإطلاق، وأساءت بشدّة الى شكلي اللِبرالي من الإنسانية. منعتني حكومة جنوب افريقيا من الحصول على تأشيرة دخول للعمل كشاهد خبير نيابة عن الدفاع، ربّما لأنّني كنت عضوا في الفريق القانوني الذي طعن في سياسة الفصل العنصري في جنوب غرب افريقيا، ناميبيا حاليا، قبل عامين في إجراءات المحكمة العالمية في لاهاي. كوسيلة لتأكيد وجودي، دعتني لجنة الحقوقيين الدولية برئاسة شَون ماكبرايد رسميا لمراقبة المحكمة ووافقت على القيام بذلك. لقد كانت رحلة شاقّة من نواح عديدة، والتي تبعها عن كثب هجوم تيت في ڤيتنام، الذي

غيّـر ميـزان الـرأي العام في الولايات المتحدة ضدّ سياسـتها هناك في أوائل عام 1968. أثنـاء وجـودي فـي جوهانِسـبَرگ، طُلِب منّي القاء خطاب حول ڤيتنام في معهد جنوب أفريقيا للشـؤون الدولية، وهو منظمة على غرار مجلس العلاقات الخارجيـة فـي الولايـات المتحـدة و Chatham House فـي المملكـة المتحـدة. تحدثـت بشـكل نقـدي عـن الحرب أمـام جمهور متأثر في جنـوب أفريقيا وكان في السابق داعما للسياسات الأمريكية في ڤيتنام. شعرت أنّ الكثير من الجمهور كانوا يظهرون دعما واضحا لحرب ڤيتنام لتأكيد مصداقيتهم المعادية للشـيوعية في الفصل العنصري في جنوب أفريقيا. يبدو أنّ الفكرة هي أنّه بينما كان هؤلاء «اللِبراليون» ينتقدون بحكمة السياسـات العنصرية في جنوب أفريقيا، فقد تمنّوا أن يُعرَفوا بأنّهم يشـاركون القيادة السياسـية في پريتوريا نظرة مناهضة للشـيوعية، التي توافقت مع سياسـات واشـنطن في إدارة الحرب الباردة. بدأ هذا النوع من الدعم للولايات المتحدة في حربها في ڤيتنام مهمّا من الناحية التكتيكية في ذلك الوقـت لِلبراليـن فـي جنوب أفريقيا، حيث كان منظرو حكومة الفصل العنصري يقاضـون معارضي سياسـتها العنصرية مـن خلال اللجوء الى القوانين المناهضة للشـيوعية، التي تمّ سـنّها لتمكين الدفاع عن اشـكال الفصل العنصري. تسـتمر العنصرية حاملة نفس الراية لتجريم الآراء والإنتماءات الشيوعية المزعومة.

إلـى حـدّ بعيـد، نزلـت أكثر لحظاتي التي لا تُنسـى من السـماء، في جنوب أفريقيا. كنت عضوا في المفوضيّة الدولية للمحيطات International Commission on the Oceans برئاسـة البرتغالي ماريو سـوارِس، وسـألني نائب رئيس جنوب افريقيـا، صديقـي المقـرّب قـادر أسـمال، الـذي يُنسـب اليه الفضـل على نطاق واسـع فـي الإشـراف على صياغة دسـتور جنـوب أفريقيا الجديـد، لكتابة بعض الملاحظـات الترحيبيـة، التي سـيلقيها الرئيس مانديـلا. كانت اللجنة تجتمع في كَيپ تاون بدعوة من الحكومة في أواخر التسعينات. لقد شعرت بالحيرة بشأن الكيفيـة التـي قـد أجد بها لغة مناسـبة لهذه الشـخصية العامّـة في جنوب أفريقيا، وعانيت من أجل الوصول الى الكلمات الصحيحة أكثر من المعتاد. كما تعرّضت لتحدٍ آخر غير متوقع عندما أبلغني سـوارِس في الليلة السـابقة بأنّ نائبة الرئيس البرازيلي قد مرضت، وتوقع منّي الردّ على خطبة مانديلا نيابة عن المفوضيّة.

جرى اللقاء في برلمان جنوب أفريقيا، وعندما سمعت كلماتي تأتي على لسان مانديلا، كان ذلك أقرب ما توصلت اليه من تجربة الخروج من الجسد. عندما جاء دوري للردّ بنفسي، شعرت بهذا النوع من الشعور المخيف، الذي يصاحب التحدث الى النفس في حضور الجمهور. بعد انتهاء حفل الإفتتاح، جاء مانديلا وشكرني على اعداد نصّ خطابه وتجاذبنا أطراف الحديث بشكل غير رسمي، لكن بما يكفي لتجربة إشراقه الأخلاقي His Moral Radiance. ثمّ ذهبنا الى غرفة اجتماعات حيث كان 40 عضوا أو نحو ذلك من اعضاء اللجنة ينتظرون. تجوّل مانديلا في الغرفة بين الحاضرين ليخبر كلّ شخص منهم عن بعض العلاقات، التي تربطه ببلده. لقد كان أفضل عرض للياقة الدبلوماسية التي جرّبتها على الإطلاق، وجعلته أكثر خصوصيّة بفكاهته وروحه المفعمة بالحيوية.

كانت المرحلة الأخيرة عبارة عن حفل استقبال لم يحضره مانديلا، لكنّه أقيم في قاعة مزدحمة مليئة بالعديد من الشخصيات البارزة من جميع قطاعات المجتمع في جنوب افريقيا. كان يوما حارّا ورطبا، وقد أغمي عليّ للمرة الأولى والوحيدة اثناء حديثي مع زعيم قبلي محلي تحدّث بمستوى تزامن مع الضوضاء في القاعة. عندما استعدت وعيي سرعان ما أدركت أنّني قد أذهلت الضيوف بسبب انهياري في وسطهم، وأتذكّر أنّ التوتر جعلني مستيقظا طوال الليلة التالية. وعليه فإنّ أعظم لقاء لي على الإطلاق قد مرّ بهذه العواقب الغريبة.

لدى عودتي من قضاء اسبوعين مكثفين في جنوب أفريقيا، تلقيت زيارة من قبل إثنين من اساتذة القانون الدولي المرتبطين بالنقابة الدولية للمحامين الديمقراطيين IADL. وهي جمعية مهنية أوروبية متطرفة، تشتهر بارتباطها بالحزب الشيوعي الفرنسي. تلقت IADL دعوة من هَنوي لإرسال وفد من المحامين لمشاهدة اضرار القصف في الشمال، واعتقدت هذه المنظمة غير الحكومية أنّه سيكون من المفيد أكثر إذا تمّ إقناع القانونيين الأمريكيين بزيارة ڤيتنام ثمّ تقديم تقرير بالنتائج، التي يتوصلون إليها لمؤتمر يناقش بشكل مكثّف ما إذا كان ممكنا هزيمة «الڤيتكونگ»، كما كان يُطلق على الجبهة الوطنية للتحرير بسخرية من قبل الجماعات المؤيدة للحرب، وهل يستحقّ الأمر تضحيات الجنود الأمريكيين الشباب، الذين شوهدوا بشكل متزايد على شاشات التلفزيون في غرف المعيشة

في مناطق الغرب الأوسط من البلاد، وهم يعودون الى ديارهم من ڤيتنام بنعوش ملفوفة بالعلم الأمريكي Flag–Draped Caskets.

بغطرسة قصيرة النظر، كان مركز الثقل طوال النقاش المناهض للحرب الذي استمر التركيز السياسي عليه، هو ما كانت تفعله الحرب بنا في أمريكا، وبالكاد حتى التظاهر بأيّ قلق بشأن ما تفعله بشعب ڤيتنام. علما بأنّ الأضرار كانت أسوأ عدة مرّات وخلفت آثارا أكثر ديمومة وخرابا أصاب المدن المدمّرة وتهديدا مستمرا باستخدام الغازات السّامة الحارقة Agent Orange، وهي ذروة الأسلحة الكيميائية المستخدمة على نطاق واسع في جنوب ڤيتنام. سواء في افلام ما بعد الحرب مثل *Deer Hunter* أو ثلاثية أولِڤر ستون الممتازة (*Platoon* و*Born on the 4th of July* و*Heaven and Earth*)، أو مذكّرات مكنمارا\للإعتذار للشعب الأمريكي، ركّز التصوير الأمريكي للحرب على الضّرر الذي احدثته الحرب لنا كأمّة وشعب، وليس على ما فعلته الحرب بالشعب الڤيتنامي، والذي كان أسوأ بشكل كارثي من خلال الموت والدّمار. لقد صوّر اليسار السياسي الصراع بدقة من الناحية التاريخية باعتباره أحد آخر النضالات العظيمة ضدّ الإستعمار واعتبره علامة واضحة على تراجع الإمپريالية الأمريكية. لكنّه أبقى نقده سياسيا بشكل مجرّد، دون إظهار الكثير من التعاطف مع المعاناة الجماعية التي عاشها الشعب الڤيتنامي.

كنت في البداية متردّدا لقبول تلك الدعوة لزيارة هَنوي، ويرجع ذلك جزئيا الى أنّها بدت جسرا بعيدا جدّا من الناحية السياسيّة وجزئيا لأنّني توقعت، بشكل خاطئ، أنّ زوجتي فلورنسا ستغضب جدّا منّي إذا فكّرت في مثل فترة غياب طويلة اخرى، خاصّة بعد العودة من رحلة جنوب افريقيا مؤخّرا. أشرت لضيفيّ الفرنسيين الى أنّه لا يمكنني التفكير في رحلة ڤيتنام إلا إذا كانت مقرّرة في شهر حزيران بعد نهاية الفصل الدراسي. بما أنّ الڤيتناميين وافقوا على هذا الشرط، فهذا يعني أنّه ما كان لديّ أيّ عذر اكاديمي للرفض. ولدهشتي حثّتني فلورنسا على قبول المهمة تعبيرا عن معارضتها الشديدة للحرب. لقد كان الوقت هو الذي كان فيه مَكنمارا يلفق «الأخبار المزيفة» بمزاعم إحتيالية أنّ حملة القصف الأمريكية كانت بمثابة «عملية جراحية» في تاريخ الحروب الجويّة. وزعم أنّ قيود

الإستهداف كانت تخاطر بسقوط العديد من الضحايا الأمريكيين من أجل تجنّب المدنيين والهياكل غير العسكريّة في ڤيتنام! وبعد بعض التردّد قبلت الدعوة.

قبل مغادرتي الى پاريس في طريقي الى ڤيتنام طُلِب منّي مقابلة بعض كبار المسؤولين في وزارة الدفاع. حصل زميلي وصديقي في پرِنستُن، رِچَرد أولمَن على اجازة لمدة عام للعمل في الپنتگون كعضو من مجموعة الخبراء المكلفة بتقديم توصيات تتعلق بالسياسة الدفاعية. كان دِك لبراليا مثاليا لرابطة جامعات النخبة في تلك الحقبة. كان يشعر بنفور واقعي من حرب ڤيتنام مقرونا بثقة غير مبرّرة في أولئك الذين تلقوا تعليما من الدرجة الأولى في هارڤَرد والذين اعتبرهم دَيڤِد هالبَرستام دون سخرية بأنّهم «الأفضل والأذكى». لقد انقلب هؤلاء اللِبراليون في عهد كِنيدي ضدّ الحرب لأسباب نفعية بحتة واعتقدوا أنّه بعد انسحاب لِندُن جونسُن من الحملة الرئاسيةعام 1968، كان السلام في ڤيتنام قاب قوسين أو أدنى.بدافع الفضول والشعور بأنّ هذه كانت فرصة لأظهر للآخرين أنّني ما زلت مستعدّا لأن أكون لاعبا في الفريق، قبلت تلك الدعوة واستقليت القطار الى واشنطن وذهبت الى الپنتگون للمرّة الأولى والوحيدة على الإطلاق.

إتضح أنّ هذا كان لقاء مع مورت هالپِرن، نائب وزير الدفاع لشؤون الأمن القومي ومساعدته الخاصة لزلي گِلِب. كان مورت من اصدقاء دِك أولمَن في هارڤَرد اللذين دعما بعضهما البعض بعد التخرّج على طريقة «قبيلة هارڤَرد»، معتقدين أنّ مباركتهما القرمزية كانت تساوي أكثر من تأليف عشرات الكتب، وقد فتحت بالفعل العديد من ابواب مؤسسة الساحل الشرقي. لقد أكّد لي دِك أنّ لدينا هدفا مشتركا في السعي لأنهاء الحرب مبكّرا. كان هذا صحيحا، لكنني خرجت من الإجتماع بإحساس قويّ بعدم التوافق بيني وبين هؤلاء المسؤولين المؤقتين في الپنتگون، واللذين كانا سعيدين بشكل غير اعتذاري بأن يكونا جزء من مؤسسة السياسة الخارجية.

يمكن وصف اجتماعنا في الپنتگون بأنّه كلمات «وديّة» مهدئة تخفي عدة مستويات من السلبية. كانت نوعا من المراوغة «اللطيفة» مع شخص في غاية اللطف. لم يؤدِ الإجتماع الى شيء في النهاية، لكنّه لا يزال محفورا في الذاكرة بسبب وضع الپنتگون والفجوة التي تفصل بين أولئك الذين يتصرّفون

كمواطنيـن ملتزميـن أخلاقيـا، وأولئـك الذيـن يوجّهون افكارهـم ومواقفهم الى دورهم كمسؤولين أمريكيين لا يريدون أبدا أن يُنظر اليهم على أنّهم خارجون عن الإجماع بجديّة. ويسـيرون خطوة بخطوة مع «التفكير الجماعي» البيروقراطي. عندما توجد مثل هذه الهوّة بين نوعين من الشخصيات الأكاديمية، تكون الفجوة واسعة ويمكن أن تصبح سامّة بسهولة نتيجة تغذيها بمشاعر عدم الثقة المُتبادَلة. لقد وجدت أنّ الكيمياء البشرية، في كثير من الأحيان، عاطفية أكثر منها فكريّة أو أيديولوجية. يتعلق الأمر بكيفية تفاعل مناطق الراحة وعدم الراحة. غالبا ما يشعر الحداثيـون Modernists أنّ لعبـة الحيـاة يجب أن تجري ضمن الحدود والهياكل القائمة على أسـاس العقل الأداتي Instrumental Reason، بدلا من أولئك الذين يتصرّفـون أكثـر وفقـا لإيقاعات القلب ولا يقصرون وجهات نظرهم على القيود الواقعية للجدوى. حين استعيد في ذهني اجتماع البِنتگَون أجده يوضح لي أين ومَن لا أنتمي إليه، أو في هذا الصدد أريد أن أنتمي.

مـن الواضـح أنّ إجتمـاع البِنتگَون كان مدفوعا بفكـرة هالِبِرن/گِلب بأنّه قد يتـمّ تكليفـي بحمـل رسـالة وتسـليمها الى القيادة في هَنـوي. كان من المقرّر أن يوقعها كلارك كليفُرد، وزير الدفاع آنذاك، ودين راسك وزير الخارجية المتشدّد. أكّـدت لـي لِـز ومـورت أنّ العجـلات الرئيسـية فـي الحكومة تنقلـب الآن ضدّ الحرب، وأنّ دراسـة سـرية ضخمة تسـتند الى الوثائق الحكومية أثبتت أنّ تلك الوثائق كانت تشـوّه الحرب بطرق من شـأنها أن تدفع بيروقراطية الأمن القومي في واشـنطن لإنهاء الحرب بسـرعة. هذه الدراسـة، التي لم يكن من المتوقع أن تُنشـر على الملأ، إنتهى بها الأمر برؤية ضوء النهار بطريقة دراماتيكية أصبحت سـيئة السـمعة، كما فضحتها أوراق البِنتگَون. في هذا السـياق، لقد تمّ الإتصال بي لتسـليم رسـالة موثوقة بنوايا الولايات المتحدة المفترض أنّها سـلمية لفيتنام الشـمالية، على أن يتجلى ذلك من خلال اسـتعداد القيادة السياسـية في واشنطن للتوصّل الى تسوية دبلوماسية. لم أتفاجأ من أنّه عندما انشق صديقهما في جامعة هارڤَرد، دان إلزبَرگ، عن طريق نشر أوراق البِنتگَون على الملأ، شجب مورت ولِز هذا الخرق لبروتوكول الحكومة، على الرغم من صداقتهم وروابط هارڤَرد المشتركة بين الثلاثة.

قيل لي أنّ حمل مثل تلك الرسالة من شأنه أن يعزّز مكاني في هَنوي الى حدّ كبير، والأهم من ذلك بكثير قد يعُزّز في الواقع احتمالات التوصّل الى اتفاق سلام مبكّر. كنت مقتنعا ومستعدّا للقبول، ولكن بعد ذلك وبنبضة عرضية مخادعة أضافت لِز ومورت شرطا بأنّه يجب أن أوافق على عدم التحدّث علنا ضدّ الحرب في المستقبل. لم يستغرق الأمر منّي لحظة للتفكير في التراجع. أتساءل أحيانا، كيف يمكن أن يؤثّر القيام بهذا الدور كمبعوث معين من قبل الحكومة الأمريكية على تجربتي في هَنوي، وربّما غيّرت حياتي السياسية بشكل أساسي.

شعرت بتأنيب غير مباشر لمثل هذا الشرط، وأدركت أيضا أنّني لو وافقت، فسوف يجعلني أشكّ على النحو الواجب فيما يتعلق بالرعاة الأوروپيين لرحلتي. لقد قبلت بالفعل دعوتهم للتحدّث في لقاء جماهيري كبير بعد عودتي الى پاريس من فيتنام الشمالية. حتّى يومنا هذا ليس لديّ أيّة فكرة عن محتويات الرسالة الرسمية، وربّما لم تتمّ صياغتها بعد وقت اجتماعنا. لم يسبق لي أن شعرت بأيّ ندم أو تفكير ثان بشأن رفض أن أتعرّض للتكميم Gagged، على الرغم من أنّ ذلك ترك لديّ مشاعر كره دائمة للزلي گِلِب، الشخص البارز في الإجتماع. ليس من المُستغرب أن تصبح گِلِب فيما بعد رئيسة لمجلس العلاقات الخارجية وصوتا مدنيا وسطيا بارزا لمؤسسة السياسة الخارجية الأمريكية. أمّا مورت هالپِرن فقد حقق مكانة بارزة في واشنطن كمستشار ونجم مشارك في منظمة غير حكومية ومعلق عام محترم حول قضايا اليوم، التي تتعلق بالسياسة الخارجية والسيطرة على الأسلحة النووية واستخدام القوة الدولية، في وقت لم يحرق فيه جسوره أبدا مع المؤسسة. لطالما كان مورت في ذهني پراگمَتيّا ماكرا ماهرا في الميل قليلا الى جانب واحد دون أن يفقد توازنه. لقد نجح في وضع نفسه باعتباره ناقدا داخليا مؤهلا بشكل فريد، وهو نوع ممثل للمجتمع المدني في واشنطن يتمتع بالأمان الكافي للحصول على مقعد حول العديد من طاولات ومنصّات صُنع السياسات، وقادر بشكل موثوق على تقديم آراء معارضة معتدلة في أماكن نقاش مهمة لخلق انطباعات مضللة عن الحوار والتنوع.

الإنتقال الى المواقع الهامشية

لم يمضِ وقت طويل على تلك الرحلة الأولى لڤيتنام الشمالية حتى أدركت مدى تغيير هذين الأسبوعين لهويتي السابقة بصفتي ناقدا محترما للقانون الدولي، مع انتماءات وخلفية مناسبتين. جعلتني الرحلة التي حظيت بتغطية إعلامية كبيرة، أن أكون منبوذا، على الأقلّ بين صفوف اقصى اليسار، ولم أعد باحثا واعدا، والأهمّ من ذلك، شابّا موثوقا به يتمتع بإمكانيات الخدمة العامة رفيعة المستوى. ما زال الذهاب الى شمال الڤيتنام يضعني مع نفس الفئة سيئة السمعة من الشخصيات المشبوهة مثل جين فوندا وشهرة «هَنوي جين» وزوجها الأستاذ آنذاك ومؤسس SDS، توم هايدِن، الذي اصبح عضوا في مجلس الشيوخ في الهيئة التشريعية لولاية كالِفورنيا. المحظور الثاني، الذي انتهكته، على الرغم من أنّه أكثر غموضا، كان توسيع الساحة الحرجة لموضوع ڤيتنام من خلال التأكيد على أنّ السياسة الأمريكية في ڤيتنام لم تكن مجرّد سياسة غير حكيمة، محكوم عليها بالفشل، ولكن لها عدة أبعاد «إجرامية»، ممّا أثار تلقائيا مقارنة بمحاكمة القادة السياسيين والقادة العسكريين الألمان واليابانيين في محاكمات جرائم الحرب، التي عُقدت وسط ضجّة كبيرة في نورِمبَرگ وطوكيو إثر نهاية الحرب العالمية الثانية.

في أواخر الستينات وأوائل السبعينات من القرن الماضي، تحدّثت في العديد من كليات الحقوق حول أهمية سابقة نورِمبَرگ في كلّ من محاسبة القادة الأمريكيين واعطاء المواطنين أسبابا لمقاومة اللجوء غير القانوني الى الحرب في ڤيتنام. تحدّثت كذلك عمّا يتعلق بانتهاكات القوانين خلال الحروب التي ارتكبت في سوح القتال وجوهرية الستراتيجية لمكافحة التمرّد، التي توجّه العمليات العسكرية.

تمّ لفت ألإنتباه الى هذا الإرتباط بين ڤيتنام ونورِمبَرگ بشكل أكبر بكثير من قبل تِلفُرد تَيلر. وهو جنرال سابق في الجيش وارستقراطي إجتماعي ومثقف على نطاق واسع، خدم بصفته ضابطا عسكريا شابّا كعضو في فريق الإدّعاء في محاكمات نورِمبَرگ. نشر تَيلر كتابا يحمل عنوانا جريئا هو ڤيتنام ونورِمبَرگ.

كان تَيلر ذكيّا للغاية وانسانيا ونخبويّا في الأسلوب. يمكنه إرضاء الجماهير التقدمية في مدينة نو يورك من خلال حفلات عزف مرتجلة للپيانو والموسيقى الكلاسيكية،عندما لا يقوم بتدريس القانون الدستوري في كلية الحقوق بجامعة كولومبيا. لم ينفر الجمهور الأمريكي أبدا من تِلفُرد، رغم كونه جنرالا متقاعدا، لأنّه قصر نقده على شجب الأسلوب الواقعي لسياسة ڤيتنام باعتبارها غير حكيمة. أكّد تِلفُرد خطابيا أنّ ما كانت تفعله الولايات المتحدة في ڤيتنام كان أسوأ من جريمة، إنّه كان خطأ جيوسياسي فادح. لقد ترك هذا التضمين العزيز جدّا على وعي اللِبراليين، أثرا عن نقاء الدوافع الأمريكية وسياساتها الخارجية العسكرية بلا منازع، بينما أدان سياسة ڤيتنام باعتبارها إخفاقا رهيبا في الحكم.

مِن المسلم به أنّ هذه الإدانة اللِبرالية للحرب كانت البداية الخاصة بي في جامعة ولاية أوهايو عام 1960، عندما كانت القضية لا تزال إفتراضية. كان هناك شكّ في أنّ الولايات المتحدة يجب أن تدعم بقوة رفض نظام سايگون ومطالبته بالحكم الشرعي في جنوب ڤيتنام باجراء الإنتخابات الوطنية، الذي كان يُفهم على أنّه استفتاء على إعادة توحيد ڤيتنام وانهاء تقسيم البلد المتفق عليه عام 1954 بعد هزيمة الفرنسيين، فيما كان يُعرف باسم الحرب الهند الصينية. كانت تلك الخطة لإجراء الإنتخابات في عام 1958 حول ما إذا كان شعب ڤيتنام الجنوبية يريد دولة موحّدة كما تمّ الإتفاق عليه رسميّا في اتفاقيات جنيف الموقعة في باريس بعد هزيمة فرنسا عام 1954. لم يتمّ اجراء الإنتخابات على النحو الموعود لأسباب سياسية ضيقة. كان يُعتقد على نطاق واسع في واشنطن، بما في ذلك من قبل الرئيس الأمريكي آنذاك دوايت آيزنهاور، أنّ هو چي منّه كان سيكون الفائز بسهولة لو سُمح لشعب ڤيتنام بالتصويت، بينما كانت اصداء الإتهامات المتبادلة حول «مَن خسر الصين» لا تزال عالقة في الأذهان. أضف الى ذلك أنّه كان من غير المقبول أن تتعرّض واشنطن لهزيمة آيديولوجية أخرى في آسيا في ظلّ اجواء الحرب الباردة. هل ستكون الولايات المتحدة دولة مختلفة اليوم لو سمحت بإعادة توحيد ڤيتنام عن طريق الإنتخابات وليس بعد حرب مدمّرة ومشوّهة للسمعة استمرّت ما يقرب من عشر سنوات؟ في وقت لاحق فقط، أصبح من المفهوم بشكل أفضل أنّه على الرغم من التقارب الآيديولوجي،

إعتبرت ڤيتنام الشمالية الصين تهديدا أكبر بكثير للإستقلال السياسي الڤيتنامي من الولايات المتحدة. بعد ذلك بكثير، اصبحت ڤيتنام، بمجرّد توحيدها تحت قيادة هَنوي، مثالا للنمو الإقتصادي السريع وتخفيف حدّة الفقر، وحديثا السيطرة على انتشار وباء الكورونا بالمقارنة مع أيّ بلد في العالم بأسره.

.لقد أذهلني ذلك الحين وحتى الآن أنّ أدورد سعيد والجنرال المتقاعد تِلفُرد تَيلَور، الى جانب عضويتهما في هيئة التدريس بجامعة كولومبيا، كانا يشتركان على الأقل في حبّهما الإضافي للحياة بالعزف على البيانو ولعبة الأسكواش. لست متأكّدا ممّا إذا كانا يعرفان بعضهما البعض وأنا متأكّد من أنّهما لم يلعبا الأسكواش معا. ولذا يمكنني على الأقلّ أن أدّعي أنّني لعبت مع كليهما في مناسبات مختلفة تماما. كان كلّ من إدوارد وتِلفُرد ايضا، على الرغم من اختلافاتهما في الخلفية الإجتماعية والحياة الماضية، أنيقين يرتديان البدلات الجميلة ومتميزين في ثقافتهما العالية وذوقهما في الطعام الجيّد، وكان كلّ منهما يمتلك نوعا من المكانة الجسدية والهدوء العاطفي المفيد والظاهر في سلوكهما الراقي. أعجبت بكليهما من نواح مختلفة، مع الفارق أنّ إدوارد كان صديقي العزيز بينما كان تِلفُرد صديقا شريكا في السجال حول القضايا ذات الإهتمام المشترك المتعلقة بحرب ڤيتنام وتداعياتها السياسية. وَسّع تِلفُرد لِبراليته الى اقصى حدّ، ولعب دورا رئيسيا في التحدّيات القضائية المثيرة للجدل بشأن سياسات ڤيتنام. وشمل ذلك الدفاع عن ماركُس راسكِن، المفكّر الراديكالي والمؤسس المشارك لمعهد الدراسات السياسية، في محاكمة بوسطن الشهيرة لعدد من الشخصيات البارزة المناهضة للحرب، الذين حوكموا من قبل الحكومة لأنّهم شجّعوا المقاومة غير القانونية من قبل الشباب الأمريكي بعدم المشاركة في حرب ڤيتنام كمجنّدين.

تقويض ميثاق الأمم المتحدة وحظر استخدام القوة

في ضوء الإنخراط الفكري بقضية ڤيتنام، تطوّرت آرائي وقادتني أوّلا بصفتي باحثا ثمّ كمواطن وأخيرا كناشط، الى معارضة الحرب من منظور القانون الدولي جنبا الى جنب مع الإصرار على كوني أجنبيّا أمريكيا سوف تستفيد السياسة في

الواقـع مـن الإلتـزام بفهمي لأهمية القانون الدولـي. بالطبع، كان هناك مدافعون أمريكيـون قدّمـوا الحجـج القانونيـة، التي دعمـت الولايات المتحـدة، وخاصّة تبرير التمديد العسـكري للحرب الداخلية المسـتعرة في الجنوب لتشـمل ڤيتنام الشـمالية. اسـتندت الحجّة الأكثر بروزا لدعم الدور الأمريكي على حقّ ڤيتنام الجنوبية في الدفاع عن النفس ضدّ عدو خارجي. وهذه حجّة مضمّنة في الإطار الأكبـر للولايـات المتحـدة باعتبارها الوصي على العالـم الحرّ ضدّ الطموحات التوسعيّة للشيوعية الشمولية.

كان رأيـي أنّ قضيـة قانونيـة متماسـكة، علـى الرغـم مـن ضعفهـا بسـبب المخالفات الأخلاقية والسياسيّة للمراحل الأولى من التدخّل العسكري والتدخل فـي ديناميـات تقريـر المصيـر Dynamics of Self–Determination، كان يمكن أن تكـون بشـكل تقديـم المسـاعدة العسـكريّة لحكومة سـايگون. وحتـى منح هذه الشرعية، فأنّه لم يتغلب على عدم شرعية تمديد الحرب الى ڤيتنام الشمالية في عام 1965 من خلال تقديم إدّعاء زائف بحجة الدفاع عن النفس «بالنظر الى عدم وجود هجوم مسلح سابق»، والذي نصّ عليه ميثاق الأمم المتحدة باعتباره الحلّ الوحيـد. أسـاس ادّعـاء صالـح بالدفاع عن النفس، هو الهـدف المركزي لميثاق الأمم المتحدة في جهودها لمنع الحروب الدولية الكبرى في المستقبل، وجعل «العـدوان» غيـر قانونـي وتضييق الظروف عندما يمكن لدولة ما أن تلجأ بشـكل قانوني الى القوّة من خلال ادعاء الدفاع عن النفس. بدا لي منذ لحظة مبكّرة من الحرب أنّه لا يوجد أساس قانوني صالح للمطالبة بالدفاع عن النفس في ڤيتنام، وأنّـه ليـس مـن الحكمـة للغايـة طرح مثل هذا الإدّعاء. ومن ثمّ سـتصبح سـابقة مفيدة لأيّة حكومة تسـعى للإلتفاف على قواعد الميثاق بشـأن اسـتخدام القوة. على الفور، كان تأثير هذا الإدّعاء هو توسيع منطقة القتال وحجم الحرب، وقبل كلّ شيء كان مشروعا يهدف الى تقويض حقّ تقرير المصير للشعب الڤيتنامي. وعلى هذا النحو، فهو ذو أثر رجعي جيوسياسي وبعيد عن تطلعات كتلة العالـم الثالث المنشغلة بتحقيق تقرير المصير.

كان يُنظر الى حرب ڤيتنام على أنّها تحدّ كبير لما إذا كان سيتم تفسير ميثاق الأمم المتحدة «جيوسياسـيّا» أم «قانونيّا». وقد شـاركنا في إجماع آراء الخبراء

من رجال القانون في جميع انحاء العالم للتفسير القائم على أسس قانونية، لكنّ المعايير القانونية الحيوية التي على المحكّ كانت خطيرة وضعفت لأنّ النهج الجيوسياسي ساد في ڤيتنام. منذ ذلك الحين، حلت الجغرافية السياسية محلّ مراعاة القانون الدولي في سياق ينطوي على استخدامات دولية للقوة مع عواقب وخيمة على القانون الدولي والأمم المتحدة. بالطبع أنا أزعم أنّ فهمي للقانون الدولي باعتباره قيدا متعمّدا على الجغرافية السياسيّة هو فهم صحيح، بينما يصرّ آخرون ومعظمهم في الولايات المتحدة أو المملكة المتحدة، على أنّ المجتمع الدولي بأكمله مؤطّر من خلال الإعتراف بأولوية الجغرافية السياسيّة، والتي بالتالي من المتوقع أن تبطل القانون الدولي عندما يتعارض هذان المصدران برأي السلطة. وإلا كيف يمكن أن نفسّر حقّ النقض الممنوح للأعضاء الدائميين في مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة بخلاف الإعتراف، في السرّاء والضراء، بأنّ الولايات المتحدة هي أعلى مصدر للسلطة الفعّالة في العلاقات الدولية، بما في ذلك داخل الأمم المتحدة؟ إنّه يمثل اعترافا صادما بأنّه لا القانون ولا الأمم المتحدة يمكنهما تجاوز الإرادة السياسية لتلك الدول ذات السيادة التي تعرّض سلام العالم وأمنه للخطر. يبقى صحيحا أنّ النظام العالمي يدور حول مناورات «الدارونية الجيوسياسية»، ممّا يعني مساءلة الضعفاء وإفلات الأقوياء من العقاب، عندما يتعلق الأمر بمسائل السلام والعدالة.

على الأقلّ خلال حرب ڤيتنام، بذل القادة السياسيون الأمريكيون جهدا جادّا لتبرير افعالهم باللجوء الى القانون الدولي. وهو جهد تكرّر خلال سنوات أوباما للتوفيق بين حرب الطائرات بدون طيار والقانون الدولي، وفق ما يجري منذ سبتمبر 11. على الرغم من أنّ هذه الجهود بعيدة كلّ البعد عن الإقناع، لم تتمّ حتى الآن محاولة علنية في مواقف مماثلة خلال رئاستي جورج دبليو بُش ودونَلد ترامپ. هذه القيادات المستمدّة من الرتب الجمهورية تتذرّع أساسا بالحقوق السيادية ومصالح الأمن القومي كمُبرّر كاف لاستخدام القوة في تنفيذ السياسة الخارجية المصحوبة بالسعي لتقليل المساءلة أمام القانون الأمريكي، حتى فيما يتعلق بالقيود الدستورية المتعلقة باللجوء الى الحرب. في هذا الصّدد، أصبح إطار عمل الميثاق بشأن شنّ الحرب، الذي تمّ إضعافه خلال حرب ڤيتنام

قديما تقريبا، إلا عندما يكون كوسيلة لتسجيل الشكاوى حول سلوك الخصوم اليوم، مثل تحرّكات روسيا في القرم وأوكرينيا. في الواقع، كان القانون الدولي يمرّ بتدهور أهميته في سياق الحرب/السلام منذ حرب ڤيتنام. إمتدّ هذا التراجع الى مجالات سياسية مهمة أخرى مثل حقوق الإنسان وتغيّر المناخ والعلاقات الإقتصادية الدولية، بالتزامن مع انخفاض جودة القيادة الأمريكية العالمية.

أتذكّر أنّه في الستينات كان رِچَرد گاردنر قد واجهني في عدة مناسبات، وكان معروفا بكتاباته حول القضايا الإقتصادية الدولية وترويجه لآراء الحرب الباردة المُتشدّدة. لم يفعل دِكَ الكثير لإخفاء طموحاته الشخصية للنجاح في واشنطن الرسمية بعد أخذ اجازة من كلية الحقوق بجامعة كولومبيا. تمّت مكافأته أخيرا على خدمته وأرائه من خلال تعيينه سفيرا في إيطاليا. عندما اشتكيت له في سبعينات القرن الماضي عن أوجه القصور في السياسة الخارجية الأمريكية بسبب تجميدها «لِلِبرالية الدولية» كان ردّه الساخر وهو يسألني بنبرة متعالية، «ما الذي تفضّله، الأمميّة غير اللِبرالية؟» أجبت بأسلوب لاذع قدر المُستطاع، «لا، أمميّة تقدّمية». الآن نحن نتعلم صعوبات العالم الحقيقي في التعايش مع «الأمميّة غير اللِبرالية». إنّ الموقف الحالي للقومية الإنتهازيّة أو التبادلية Opportunistic or Transactional هو في الواقع أسوأ من منظور القيم الإنسانية ومنع الحرب والإستقرار الإقتصادي العالمي أكثر من الأممية اللِبرالية، التي اعتنقها الحزب الديمقراطي خلال فترة الحرب الباردة وما تلاها.

رحلة التحوّل

في ظلّ هذه الخلفية من التحضير المعقد والوعي السياسي المتطوّر، شرعت في خوف الى حدّ ما فيما تبيّن بشكل غير متوقع أن تكون الرحلة الى ڤيتنام رحلة تحوّلية، على الرغم من أنّه من المُفترض أنْ يتمّ القيام بها لغرض وحيد هو مشاهدة الدمار، الذي أحدثته الحرب الجوية الأمريكية، ثمّ تقديم تقرير عنه. لم يكن اكتشاف أعمق اتجاهاتي السياسية والروحية من بين أهدافي أو توقعاتي عندما حان وقت المغادرة. ومع ذلك، كانت هذه الرحلة أكثر من أيّة تجربة سابقة أو منذ ذلك الحين، ذات تأثير دائم على وعيي الأخلاقي والقانوني

والروحي. قد يكون ذلك لأنّني نشأت كطفل وحيد بحكم الأمر الواقع وأتعامل مع الشعور بالوحدة في منزل بلا أمّ وأب مشغول، علمني أن اعتمد على ذكائي الخاص وفهمي لرسم مسار مستقلّ ومتناقض في الحياة. في السنوات التي اعقبت طفولتي، أخذت إشارات قليلة من مصادر جماعية بما في ذلك الأسرة والبلد والأوساط الإجتماعية، وشعرت بعد سنوات عديدة من التحسّس بأنّني كنت أقف أخيرا على شيء صلب، وكان شيئا خاصّا بي.

لم يكن السفر الى ڤيتنام بسيطا ولا مباشرا. كان يعني التوقف أوّلا في باريس للحصول على إحاطة بالموضوع والحصول على تأشيرة سفر لدخول البلاد. نظرا لأنّ السفر لم يكن مسموحا به لمواطني الولايات المتحدة في ذلك الوقت، كانت التأشيرة تتكوّن من ورقة منفصلة يتم وضعها في جواز السفر ولا يتمّ ختم الجواز نفسه عند الدخول والخروج. تساءلت إنْ كان عمل كهذا يُعتبر تهرّبا من القيود المفروضة على السفر سيقودني الى مواجهة نوع من الطعن أو العقوبة القانونية عند عودتي، وربّما حتى الملاحقة الجنائية. كان الوصول الى باريس في أواخر ربيع عام 1968، الذي لا يُنسى بحدّ ذاته. كانت المدينة في حالة توتر شديد وكانت جامعة السوربون محتلة من قبل الحركة الطلابية التي كان اتباعها يتظاهرون باستمرار ويردّدون شعارات متطرفة تعلن عن مستقبل ثوري، لم يكن ليكون كذلك. كان مضيفو نقابة الحقوقيين ودودين ومتعاونين ومشجّعين. وبعد قضاء يوم في الحي اللاتيني، كنت في طريقي الى كمبوديا وفق حركة النقل المزدوج والإتصالات الجوية بإشراف لجنة المراقبة الدولية ICC. كانت الرحلة أولا الى كمبوديا ثمّ الى ڤينيتان في لاوس وقضاء ليلة في فندق بنوم بنه نغادر بعدها الى هَنوي. ذكرياتي الوحيدة من التوقف في كمبوديا كانت عن حمّال شاب أخذ أمتعتي الى غرفتي وسألني إذا كنت أريده أن يجلب فتاة لتكون برفقتي طوال الليل. عندما قلت «لا» أجاب، «لا تقلق، إنّها أختي». قلت ثانية «لا» فأجاب بابتسامة، «آه، إذن أنت تفضّل الأولاد. يمكنني أيضا أن أرتّب ذلك». بعد أن أكّدت له أنّني اريد قضاء المساء بمفردي، لم نجر مزيدا من المناقشة، لكنّه لم يُخفِ خيبة أمله.

بعد أن استقليت الرحلة القصيرة من كمبوديا الى لاوس، أتذكّر القليل

بخلاف حادث قبيح كشف الكثير وجرى في بهو الفندق، الذي قضيت فيه ليلتي. كان أحد الأمريكيين، الذي يكاد يكون من المؤكّد أنّه جزء من الوجود الأمريكي شبه العسكري في البلاد، يُسدّد فاتورته بالدولار. اعطاه موظف الفندق الفرق بالعملة الورقية المحلية. وعند هذه النقطة قام الأمريكي بالفعل بإعادة النقود الورقية المحلية الى الموظف صائحا بنبرة ازدراء، «لا أريد هذه العملة التي لا قيمة لها». على الرغم من أنّني لم أفصح عن اشمئزازي من هذا السلوك المُبتذل في ذات الوقت، أذهلني الآن كنوع من تفوّق البيض، الذي عندما يتمّ التعبير عنه بشكل فظّ، يؤجّج الكراهية للإمپريالية الأمريكية في البلدان الأجنبية. إنّه عكس ردّ الفعل الذي مررت به بسبب احترامي العفوي للتنوّع الحضاري، ممّا جعلني مترددا في رفض ما هو مألوف أو يبدو «أقلّ شأنا» في البلدان غير الغربية. إنّ موقفي غير القائم على اصدار الأحكام هو جزء من رفض انتقاد أوجه القصور الظاهرة في المجتمعات التي يستغلها الغرب. اشعر حتى يومنا هذا بالذهول من الغطرسة الإمپريالية وعدم الحساسية الإستشراقية، بل وأكثر من ذلك، من غياب النقد الذاتي. أتساءل أحيانا عمّا إذا كنت قد ذهبت بعيدا في الإتجاه الآخر، وأكون مفرطا في الحكم أزاء ما اجده في عالمي الخاصّ، وأفرط ايضا في التسامح اتجاه كلّ ما يحدث في أيّ مكان آخر.

كانت الرحلة من لاوس الى هَنوي على متن طائرة قاذفة قديمة من طراز B–12 أو B–16 من بقايا الحرب العالمية الثانية تُستعمَل الآن لشحن البضائع لصالح لجنة المراقبة الدولية ICC. وهذه هيئة دولية تمّ إنشاؤها بعد حرب فرنسا في الهند الصينية لتسهيل عملية وقف اطلاق النار والإنتقال الى نظام سياسي جديد. شعرت خلال الرحلة بعدم الأمان، إذ كانت ترتيبات الجلوس على متن الطائرة غير مريحة، ولكن لا مفرّ من هذه الزيارة في زمن الحرب، حيث كانت هي الطريقة الوحيدة لوصول أيّ شخص خارجي من الغرب الى هَنوي. أتخيّل أنّ آخرين جاءوا من الإتحاد السوڤيتي والصين بسهولة ومباشرة، وربّما أكثر أمانا. عندما اطلقت محركات الطائرة أصوات عالية حين كانت تخترق عبور جبال لاوس، خشيت أنّها ستتحطم قبل أن أصل الى وجهتي. حتى الآن، اعتقد أنّ الرحلة على متن طائرة تحمل فوق طاقتها كانت على الأرجح أكثر خطورة من

التجوّل في سماء ڤيتنام الشمالية التي تجوبها المقاتلات والقاصفات الأمريكية.

وصلنا الى المطار في وقت متأخّر من الليل واضواء المدينة خافتة أو غير موجودة، ممّا خلق جوّا غريبا بدت فيه المركبات والأشخاص يجوبون المكان وكأنهم ظلال متحرّكة. استقبلني وفد حكومي وتمّ الترحيب بي بطريقة طمأنتني على الفور، وكانت هناك سيارة رسمية تنتظرنا لتقلنا الى فندقنا القريب من المطار. كان الذهاب من المطار عبر النهر الأحمر أشبه بدخول المناطق الخارجية لجحيم دانتي. كنّا جزء من قافلة عسكرية بمركبات دون مصابيح أمامية تتحرّك عبر شبكة مظلمة وتشقّ طريقها عبر جسر عائم مؤقت تمّ تشييده بعد تدمير الجسر «الدائم» السابق بواسطة القنابل الأمريكية. وصلنا بعد ساعة من القيادة البطيئة الى فندقنا. في صباح اليوم التالي بدأنا برنامجنا المعدّ بعناية. كان الإجتماع الأول مع وزير التجارة، ڤام آنه ومساعديه الرئيسيين. تمّ تكليف هذه الوزارة بدون اسباب معقولة بمسؤولية پروتوكول زيارتنا.

بعد أن استقبلنا الوزير بطريقة دافئة ووديّة، ذهب ليقول إنّ الحكومة الڤيتنامية وشعبها يريدان السلام في أسرع وقت ممكن. وعلاوة على ذلك فإنّهما يخوضان النضال ضدّ الحكومة الأمريكية، وليس الشعب الأمريكي. طمأننا بقوله أنّه بمجرّد استعادة السلام يمكن أن تكون للحكومتين علاقات وديّة. أكّد على هذه النقاط بإشارة تاريخية الى المناسبات العديدة على مرّ القرون، التي تمّ فيها صدّ الغزاة الصينيين، ثمّ بدلا من أن يعاملوا كغزاة مكروهين، تمّ إعداد حفلات توديع كبيرة في هَنوي للإشارة الى رغبة الڤيتناميين في اجراء انتقال فوري من الحرب الى السلام وبدء علاقات جيّدة. لقد تأكّد لنا أنّ هذا يمكن أن يحدث في هذه الحرب، على الرغم من الدمار الكبير والمعاناة التي سبّبتها التكتيكات العسكرية الأمريكية. بالطبع، أدركت التمييز المألوف للدعاية الشيوعية بين الحكومة كعدو والشعب كصديق، لكنّ هذا النداء الڤيتنامي بدا أكثر واقعيّة لأنّه كان مدعوما برواية وطنية مطوّلة وانشغال واضح بالدفاع عن السيادة الڤيتنامية، خاصّة فيما يتعلق بالجار الصيني.

كما شدّد الوزير آنه على أخلاقيات القيادة المرتبطة بهو چي مِنّه. وتكرّر هذا مرة اخرى بطرق مختلفة طوال الأيام العشرة. يبدو أنّ صوة «العم هو» تعيش

فـي قلـوب الڤيتناميين، الذيـن اتصلـت بهم، وعقولهم. كان هنـاك تركيز خاصّ على موقف من الإعجاب بإعلان الإستقلال الأمريكي والآمال السابقة في نهاية الحـرب العالميـة الثانيـة فـي أن تسـود قيم الرابع من تمـوز بخلاف الإعلان عن الإصطفافات مع القوى الإسـتعمارية الأوروپية، في حالة فرنسـا وڤيتنام. قيل لنا أنّـه بهـذه الـروح، وعلـى الرغم من الدور الأمريكي في دعم الفرنسـيين، بما في ذلـك توفيـر معظم ميزانية الحرب الفرنسـية في نهاية حـرب الهند الصينية فإنّهم مسـتعدّون للسـلام. من المعروف أنّ الولايات المتحدة قد غطت ما يصل الى 80%من النفقات العسـكرية الفرنسـية. لقد طُلب من أطفال المدارس الڤيتناميين حفظ إعلان الإستقلال طوال فترة الحرب بأكملها. وتمّ عرض هذه الموضوعات في المتحف الثوري المثير للإعجاب للغاية، والذي قمنا بزيارته في فترة ما بعد الظهر في أول يوم كامل لنا في هَنوي.

كان مـن بيـن المعروضـات في المتحف فلم عن سِـيَر مناضلي الثورة وفي طليعتهـم هـو چـي مِنّه. أتذكّـر العبارة الإفتتاحية التي ذكـرت، «هناك العديد من الزهور الجميلة في ڤيتنام، وأجملها هو الزنبق. هناك العديد من الرجال الجميلين في ڤيتنام، وأجملهم بلا منازع هو چي مِنّه أيضا». في بداية الفلم، تمّ تقديم دليل علـى عـزم هو المبكّر على تحسـين الحياة القاسـية للفلاحيـن الڤيتناميين، الذي شـوهدوا وهم يكدحون باسـتعمال المحاريث القديمة وسـط الحرارة الشـديدة. وكردّ فعل طوّر هو إلتزاما قويّا بجلب الحداثة الى البلاد وتخفيف الضغوط عن الفقراء خاصّة في الريف، حيث تعيش الغالبية العظمى من السـكان. بعد انتهاء الفلم، التفت الينا الوزير للحصول على ردّ فعل، والذي كان يمثل طقوس الأخذ والعطاء المشتركة طوال فترة وجودنا في ڤيتنام.

أجبـت بشـكر مضيفينـا الڤيتناميين علـى ترحيبهـم الحـار علـى الرغم من الصعوبات الشديدة، التي تواجه البلاد. كما ذكرت أيضا أنّ الكثيرين في الولايات المتحـدة يعارضـون الحـرب الآن ويعتمدون على المنطق السياسـي برمّته لتبرير مهاجمة ڤيتنام بهذه الطريقة الشريرة. لقد عبّرت عن فهمي أنّ السياسة الأمريكية اتجاه ڤيتنام سعت الى استعادة السيطرة الغربية بعد أن فشل الفرنسيون في إعادة تأسيس الحكم الإستعماري في نهاية الإحتلال الياباني في زمن الحرب. لم يكن

لديّ أدنى شكّ في أنّ هذا المشروع الأمريكي سوف يُهزَم في النهاية. قلت أيضا أنّنا جئنا الى ڤيتنام لنتعلم ونرى بأنفسنا الدمار الذي حلّ بالبلاد، وسوف نشارك تجربتنا مع المسؤولين الحكوميين والجمهور بعد العودة الى أمريكا.

في الأيام التي تلت ذلك، قضينا وقتنا بشكل جيّد. لقد اختبرنا كرم الضيافة وحساسية محترمة لهويتنا الوطنية. أظهر مضيفونا الڤيتناميون تقديرهم لموقفنا المحرج كأمريكيين خلف خطوط العدو في زمن الحرب. لم يُطلب منّا الجلوس على مواقع المدافع المضادة للطائرات أو الخضوع لالتقاط الصور أثناء وجود الڤيتناميين المشوهين بسبب القصف الأمريكي. لقد ذهبنا الى مستشفى ڤيتنامي في ضواحي هَنوي وقمنا بزيارة جناح يضمّ ضحايا القنابل. كان من الصعب التحدّث مع الأفراد المصابين بجروح خطيرة، واتذكّر مدى صعوبة العثور على الكلمات الصحيحة للتعاطف والندم ونحن نقف بين أسرّة الجنود والمدنيين الڤيتناميين المصابين بجروح خطيرة. لم يتمّ قصف الأجزاء الرئيسية من هَنوي، على الرغم من تعرّض اطرافها الى القصف. حتى حواجز دلتا النهر الأحمر تعرّضت للتهديد بهجمات عدة مرّات. كما ذهبنا بعربة عسكرية مع بعض رجال الحكومة الى عدة مدن على بعد ساعات قليلة من هَنوي. وهي المدن التي دمّرها القصف المتكرر ممّا ترك تلك المراكز الحضرية الصغيرة على شكل أنقاض ملتوية.

اتذكّر الذهاب والجو حارّ رطب على طريق وعر في مركبة عسكرية سريعة الحركة بدون وسائد لتخفيف المرور على المناطق غير المستوية، أكثر وضوحا في ذهني من المشاهد والمحطات التي قطعناها. أتذكّر دبلوماسيا في منتصف العمر من منطقة ميكونگ في الجنوب أخبرني أنّ سائقنا قد فقد عائلته بأكملها في هجوم على قريته، ومع ذلك إذا تعرّضنا للهجوم في هذه الرحلة، فسيضحّي بحياته حفظا لنا. لقد كانت روح المسؤولية إتجاه الزوّار تتكرّر باشكال مختلفة خلال فترة وجودنا في ڤيتنام، وغالبا ما تُنسَب الى تعاليم ومُثِل هو چي مِنّه، الذي نصح بالتسامح والمصالحة بما يتماشى مع التقاليد الڤيتنامية العميقة، التي كانت هي نفسها متشابكة مع الأفكارالكونفوشيّة والتأثيرات البوذية.

بعد عدّة أيام في ڤيتنام وانقطاعي تماما عن كلّ ما كان مألوفا في حياتي،

كانت هناك شائعات بأنّ توقف القصف الأمريكي قد ينتهي في أيّ يوم. ساورني نوع من الشكّ بأنّني سأكون محاصرا في هَنوي لعدة أشهر وأنّ الوفد يقيم بشكل ضعيـف فـي منطقـة حرب نشـطة. كانت مثل هذه التأمـلات مقلقة. أخيرا تبنيت موقفـا قدريّـا، وتسـاءلت عـن أفضـل طريقـة للتعامل مع مثل هـذا الإحتمال إذا حـدث، وهـو مـا لم يحـدث. مع زيادة اتصالي بمجموعة من الڤيتناميين، بما في ذلك المترجمين والمسؤولين والمساعدين، أدهشتني عفويتهم ازاء الرعب الذي يهددهم وشعورهم بالفخر للتغلب على نقاط ضعفهم في سياق تصدّيهم للقوّة الجوية الأمريكية. أتذكّر جنديا ڤيتناميا أخبرني أنّ فوجه قد علم أنّه عندما تطير المقاتلات على ارتفاع منخفض لتصيب أهدافها تصبح عرضة الى حدّ ما لنيران البنادق البسيطة في اللحظة، التي تحاول فيها الطائرة استعادة تحليقها الطبيعي. كان هذا مجرّد مثال واحد من العديد التي عبّرت عن استعداد الڤيتناميين الطيبين وذوي البراعة «للقيام بذلك» عملا بروح «نحن، يمكننا أن نفعل ذلك». ربّما أخذ أوباما تلك العبارة Yes, We can نقلا عنهم. روى الڤيتناميون العديد من النكات عن القسوة الشديدة للأمريكيين، مقارنين انغماسهم في الإرتياح الهزلي مع قلة الفكاهة المُستبدّة لدى جيرانهم الصينيين.

كنت خلال زيارتنا مفتونا بالإبتسامات المشرقة لبنات البلد اللواتي تحدثن القليل من اللغة الإنكليزية، التي يعرفنها بسحر آسر. بعد سنوات، تمّ تعميق هذه التجربة وتأكيدها بشكل كبير في عام 1999 عندما نزلت أنا وهِليل لبضعة أشهر في نادي هَنوي بينما كنت أقوم بتدريس دورة مكثفة في الأكاديمية الدبلوماسية الڤيتنامية. إلتقينا هناك بهوين جِياب، التي اصبحت فيما بعد ابنتنا المتبناة بشكل غير رسمي. كانت هوين محبّة ومحبوبة للغاية مبتهجة وحنونة، على الرغم من أنّها وُلِدت في عالم فقير مزّقته الحرب وتحملت ظروف المجاعة في نهاية تلك الحرب.

خـلال ايامنـا العشـرة أو نحـو ذلك فـي ڤيتنام في زمن الحـرب، كان هناك عشاء رسمي كلّ ليلة تقريبا. أتذكّر أنّني جلست بجوار دبلوماسية ڤيتنامية ترتدي ملابس أنيقة وشرحت لي اطباق وجبتنا على أنّها ترمز الى التضاريس المختلفة لڤيتنـام، إذ عكـس كلّ طبـق طعام تضاريـس مميّزة من الجبال والوديان والأنهار

والبحر. وإذا كان الأمر كذلك، كانت وجبة متقنة إرتبط فيها كلّ فصل من الفصول الأربعة بأحد الأطباق المقدمة.

لقاء رئيس الوزراء

ممّا لا شكّ فيه أنّ ذروة زيارتنا وأهميتها العامة كانت اجتماعين مع ڤام ڤون دونگ، رئيس وزراء ڤيتنام. جاء ڤام من هَوي في وسط البلد، حيث كانت تقع العاصمة القديمة وكان التأثير الفرنسي عليها في ذروته. أتذكّر أنّه سألنا عمّا إذا كنا نتابع المسرح والأدب الفرنسيين، وأخبرنا عن مدى استمتاعه بالثقافة الفرنسية خلال شبابه. والأكثر جديّة أنّه سأل عن الآفاق في الولايات المتحدة لإنهاء الحرب، وأشار الى استعداد الڤيتناميين للتفاوض على تسوية سياسية. لدهشتي، تضمّنت قبول وجود عسكري أمريكي في الجنوب وائتلاف مؤقت على أن تنظّم الحكومة انتخابات وطنية تحت إشراف دولي. كان لديّ شعور واضح في ذلك الوقت بأنّني كنت على علم بمبادرة دبلوماسية موثوقة. كنت أعرف أنّ ڤام لم يكن المرشد الأعلى لڤيتنام، وأنّ هو كان الشخصية السياسية البارزة ولكنّه مريض جدّا ولا يستطيع مقابلة الزوّار الأجانب، وأنّ الجنرال جياب كان القائد العسكري الأسطوري لڤيتنام، والذي يعود إليه الفضل في هزيمة الفرنسيين. لكنّه غير راغب عموما في مقابلة الأجانب. أخيرا هناك الزعيم الأيديولوجي لو دوان، وهو شخصية غامضة يعتقد البعض أنّه الشخص الذي يتمتع بسلطة حاسمة في إدارة البلاد وتشكيل دبلوماسيتها الحربية. لم أحاول اكتشاف هيكل السلطة الڤيتنامية، وشعرت بالثقة في أنّ سلطة ڤام ڤون دونگ كانت كافية لنقل رأي الحكومة الأمريكية بشأن الحرب. نظرا لأنّ هذه كانت المرّة الأولى التي التقيت فيها بزعيم أجنبي نشط، رغم أنّني كنت أعرف سطحيا حين كنت طفلا أنّ صديق/عميل والدي ألگزندركيرنِسكي، الزعيم الروسي المؤقت بعد القيصر، والذي كان يفتقر الى هالة السلطة السياسية الفعلية، وعاش في مدينة نو يورك كمواطن خاصّ منفي. لقد تأثرت بزخارف المنصب الرفيع، مكتب ضخم في ڤيلا جميلة. عند وصولنا الى مقرّ إقامته الرسمي، استقبلنا ڤام عند درج المدخل وكأنّنا زوّار مهمّين. وهي مكانة لم نطالب بها ولا نستحقها.

عندما حان وقت مغادرة ڤيتنام، شعرت بحزن غامض كان من الصعب تفسيره. مرّ الوقت بسرعة وأجرينا العديد من الإتصالات، التي عزّزت مشاعر التضامن وزرعت بذور الصداقة. تحدّثنا بثقة الى مضيفينا الڤيتناميين حول البقاء على اتصال ووعدنا أن نتذكّر بحرارة الضحك والدموع، التي كانت صميم هذه التجربة الڤيتنامية، وظهرت على السطح أثناء وداعنا في صالة المطار.

ما حدث عند العودة لپاريس

لا استطيع أن اتذكّر حدوث ذلك، لكنّ وصولي الى پاريس، تمّ التعامل معه على أنّه حدث إعلامي. أعطيت انطباعاتي عن الوضع في شمال ڤيتنام والفرصة لإنهاء الحرب. أجريت مقابلة تلفزيونية مكثّفة مع چالز كولِنگوود من شبكة سي بي أس وكانت لي مناقشة مطوّلة مع مراسل نو يورك تايمز المعروف، هِدرِك سمِث. كان كلاهما مهتمّا بمبادرة السلام المحتملة، التي حدّدها لنا ڤام ڤون دونگ واظهر بعض الإستعداد الى ما قلته عن أضرار القصف، بشكل أساسي على ما اعتقد، لأنّه كانت هناك قيمة إخبارية في تحدّي مزاعم مَكنَماراالمضللة عن القصف الدقيق. ومع ذلك، عندما أثرت عدم أخلاقية وعدم شرعية قصف الريف الڤيتنامي حيث لم تكن في القرى اهداف عسكرية، وكانت المباني البارزة الوحيدة هي المعابد والمستشفيات. واجهت جدارا حجريا من المقاومة السلبية، التي مزجت اللامبالاة بالسخرية الشديدة. قيل لنا عدة مرّات في هَنوي في السابق أنّه عندما كان هناك قصف مكثف، عصى العديد من الطيارين أوامرهم بالعودة الى قواعدهم دون إفراغ حمولتهم من القنابل. وفقا لتعاليم الإنصياع، ألقوا قنابلهم على الأرياف وفي خليج تونكِن. لم تظهر الشخصيات الإعلامية، التي تسعى الى الحفاظ على مصداقيتها، أيّا من المخاوف الأخلاقية، التي اظهرها بعض الجنود المقاتلين، الذين كانت دوافعهم مختلفة وتسعى الى دعم إنسانيتهم بدلا من المصداقية السائدة.

ما ترك الإنطباع الأقوى لديّ في ذلك الوقت، لم تكن التغطية الإعلامية الإيجابية لرحلتي باستثناء مجلة National Review، ولكن عدم اهتمام أكثر الصحفيين لِبرالية وتعاطفا في تلك الأجزاء من عرضي للحرب، التي أدنت فيها الهجوم غير القانوني من قبل آلة الحرب الأمريكية ذات التقنية العالية.

أردت قبل كلّ شيء أن أشارك انطباعاتي عن الفظائع، التي لحقت بهذا البلد الآسيوي الضعيف تماما والذي يعتمد على التكنولوجيا المنخفضة، والذي تمّ تصوير شعبه من خلال قوة الإرادة البشرية المطلقة والحماس القومي للدفاع عن الوطن، مهما كان الثمن. لم أكن في ذلك الوقت مقتنعا شخصيا أنّ هذا التصميم على التضحية من قبل الشعب القيتنامي في ضوء ملايين الضحايا والدمار الهائل، سوف يسود في النهاية. وكما اكتشف العالم، فإنّ المقاومة القيتنامية المستمرّة فرضت تحييدا أخيرا سياسيّا وتغلبت على الهيمنة العسكرية الأمريكية والعزيمة الجيوسياسية.

كان هذا الإنقلاب في ميزان القوى في ڤيتنام بالنسبة لي الدرس البارز لتجربة ڤيتنام. إنّه درس ترفض الطبقة السياسية الأمريكية تعلمه. ولذلك تكرّرت اخطاء الستينات مرارا وتكرارا، على الأخصّ في العراق بعد عام 2003، وفي الأراضي البعيدة الملطخة بالدماء في افغانستان وسوريا وليبيا واليمن. لفهم سبب استمرار هذا الرفض العنيد في مواجهة الكثير من التجارب المتناقضة، فإنّ ذلك يعني اكتساب نظرة ثاقبة الى درجة استسلام الولايات المتحدة لنموذج عفا عليه الزمن فيما يتعلق بالحكم والأمن، وأنّ خيالها محبوس داخل قفص عسكري ضاعت مفاتيحه، وواقع تحت سيطرة المراوغة للدولة الأمريكية العميقة والبنية التحتية للقطاع الخاص المتضمّنة في صناعة الأسلحة ومراكز الفكر ووسائل الإعلام المؤسسية.

العودة الى أمريكا

اثناء عودتي الى الولايات المتحدة، توقعت أن اتعرّض لانتقادات علنية، وربّما حتى مقاضاتي لانتهاك قانون لوگن Logan Act، الذي يعود الى القرن الثامن عشر، والذي جعل الإنخراط فيما وُصِف بأنّه دبلوماسية خاصّة، جريمة بالنسبة للمواطنين الأمريكيين. في الواقع، لم يكن لديّ ما يدعو للقلق. عرضت صحيفة نو يورك تايمز رحلتي على صفحتها الأولى لعدة أيام مع اقتراح بأنّني ربّما اكتشفت مسارا واعدا لإنهاء حرب لا تحظى بشعبيّة على نحو متزايد في الداخل، ممّا تسبّب في انشقاقات عميقة وخطيرة في الجسد السياسي الأمريكي.

حثّت التغطية الإعلامية الحكومة الأمريكية على سماع ما يجب أن أقوله، ومن المؤكّد أنّني تلقيت مكالمة وديّة من وزارة الخارجية تسأل عمّا إذا كنت أرغب في القدوم الى واشنطن لمناقشة رحلتي، أو إذا لم يكن الأمر كذلك، فيمكنهم إرسال مندوب الى «استخلاص المعلومات المتوفرة لديّ». اخترت الخيار الثاني وعقدت اجتماعا ملائما في برِنستُن مع مسؤول صغير في وزارة الخارجية. لم ينجم شيء عن هذا الإجتماع، على الرغم من اعتقادي الراسخ بأنّ القيادة الڤيتنامية كانت مستعدة للتفاوض على إنهاء الحرب، التي كانت أكثر تفضيلا من الناحية التكتيكية والستراتيجية وأقلّ تواضعا دبلوماسيا للولايات المتحدة ممّا تفاوض عليه كِسِنجَر في نهاية المطاف مع الكثير من الضجّة، وجائزة نوبل غير المستحقة لجهوده بعد أربع سنوات. أدّى هذا التأخير غير الضروري في إنهاء الحرب الى خسائر بشريّة كبيرة ومصاعب في ڤيتنام وتفاقم الإنقسام الوطني في الداخل الذي لم تتخلص الولايات المتحدة وتتعافى منه بشكل كامل، بما في ذلك رحيلها المهين عام 1975 من سايگون برفقة الڤيتناميين المتعاونين معها خوفا من الإنتقام، والتسوّل من أجل الحصول على الملاذ.

عثرة بيئية في الطريق

بعد بضعة أشهر وفي خريف عام 1968 وصلت أنا وفلورنسا الى پالو آلتو لقبول دعوة لمدة عام لكي أكون زميلا زائرا في مركز الدراسات المتقدمة في العلوم السلوكية الواقع على تل مجاور لحرم جامعة ستانفَرد. كنت قد أشرت في طلبي الى المركز أنّني انوي تأليف كتاب عن القانون الدولي وحرب ڤيتنام، يجمع بين أعمالي العلمية في الستينات بشكل متماسك. كانت هذه نيتنا عند وصولنا، لكنّه سرعان ما تمّ التخلي عنها.

إتضح أنّ بحثي وخطط الكتابة كانت ضحايا مبكّرة لتجربة المركز. خلال أحد الأيام الأولى لي في المركز، أجريت محادثة غير رسمية مع پيير نويس، عضو هيئة التدريس بجامعة ستانفَرد حين كنا نتناول مشروبا مبرّدا. لدهشتي المستمرة، أنّ تلك المحادثة غيّرت بشكل جذري خططي للبحث، ليس فقط لذلك العام، ولكن بشكل دائم. لم يكن لمثل هذا اللقاء العرضي شبيه في التأثير

العميق على حياتي الأكاديمية. كان پيير شخصا ذا شغف فكري كبير ومالثوسيّا جديدا Neo–Malthusian مقتنعا تماما وملتويا ورائعا، يعمل لسنوات كفيزيائي نظري على الألغاز، التي يتمّ حلها في دراسة القوى الأساسية للحياة والطاقة في جميع أنحاء الكون. كان يعتقد بقوّة أنّ النمو السكاني يمارس ضغوطا لا يمكن السيطرة عليها فيما يتعلق بالإمدادات الغذائية والموارد الأساسية للحضارة، وأنّ هذه الحقائق تخلق تحدّيا غير مسبوق وغير معترف به لبقاء الأنواع/الكائنات، ويستحقّ الإهتمام العاجل من قبل اشخاص مثلي. لم أكن أدرك أنّني مؤثر لهذا الحدّ، ولكن في هذه المناسبة، سمحت لنفسي أن اقتنع بذلك الإنطباع، ولم أندم على ذلك أبدا.

تمّ تكريس بحثي المعاد تشكيله لما كنت أفكّر فيه على أنّه الآن «الإشكالية البيئية» The Ecological Problematique. لقد اعطيت الإستفسار لمسة خاصّة بي، متأثرا بشدّة من المخاوف بشأن حرب مستقبلية تعتمد على اسلحة نوويّة وإيماني أنّها ستكون حاسمة لمستقبل الإنسانية لتعزيز دور القانون الدولي ومنظومة الأمم المتحدة دون إغفال الحقائق المتمركزة حول الدولة. من خلال هذا المجاز الواقعي، قصدت أن آخذ بنظر الإعتبار الدرجة التي سيستمر بها العالم في التنظيم حول القدرات والإرادة السياسية للدول الإقليمية ذات السيادة، خاصّة الدول الرائدة في المستقبل المنظور حتى في مواجهة التوصيات والتعديلات اللازمة من أجل الإستدامة البيئية. في ذلك الوقت تكون الجغرافية السياسية للحرب الباردة هي الإبقاء على هذا الدور الذي يشير في الأساس الى الهيكل السياسي الكامن وراء التنافس بين الولايات المتحدة والإتحاد السوفيتّي. لهذا السبب، ركّزت المناقشات الأكثر تطوّرا حول الظروف العالمية على الجغرافية السياسية للقطبية الثنائية.

بينما كنت أحاول وضع إطار عمل مفاهيمي لهذا العمل الذي بدأ حديثا، جاء المحرر الثقافي لصحيفة نو يورك تايمز، إسرائيل شِنكر، الى المركز لكتابة قصة حول ما يحدث في مثل هذه المؤسسة التعليمية الغريبة، التي لا تحتوي على دورات دراسية أو طلاب أو مكتبة أو مشاريع. لست متأكدا من أنّه اكتشف ذلك مطلقا، لكنّه اختارني كواحد من ستة زملاء لإجراء مقابلات معهم، وبدا

بالأحرى منجذبا الى مواضيع وآفاق كتابي المقترح، الذي كان لا يزال في مرحلة التخطيط. كرّس شِنكر معظم قصته الطويلة عن المركز على مشروع كتابي، والذي ظهر عند نشره أخيرا تحت عنوان هذا الكوكب المهدّد بالإنقراض: الآفاق والمقترحات من أجل بقاء الإنسانية (2791).

أنتجت مقالة شِنكر، التي تشهد على التأثير القوي لدعاية نو يورك تايمز، موجة من العروض من ناشرين بارزين، وهي تجربة لم أعشها من قبل ولا منذ ذلك الحين. في الواقع سافر رئيس دار نشر راندُم هاوس الشهيرة، بِنِت سَيرف، الى پالو آلتو من أجل أن نتناول الإفطار معا لغرض اقناعي بمزايا النشر في داره المعروفة، وهو ما قرّرت في النهاية على القيام به، ربّما عن طريق الخطأ. كان هناك تحوّل شخصي، ربّما يكون قد غير وعيي. كان والدي محاميا لتلك الدار عند تأسيسها وكان يعرف بِنِت جيّدا، على الرغم من أنّه فقد هذا العميل قبل بضع سنوات. تمّ تحويل المسؤولية الى صهر سَيرف عندما تزوج مرّة أخرى. فوجئ سَيرف بعض الشيء حين اكتشف أنّني إبن أد فولك، لكنّ ذلك لم يغيّر من حماسة «البائع» أو أسلوبه. في الماضي كان بِنِت شيئا من صورة ترامپ الرمزية، كونه شخصية رائدة في برنامج تلفزيوني شهير يُسمّى What is My Line?. تضمّن البرنامج مزيجا من الشخصيات في حينها تحمل مقاربات مع برنامج ترامپ The Apprentice.

عرض سَيرف تقديم مبلغ 10 آلاف دولارا كمقدمة، وبدا هذا المبلغ كبيرا بالنسبة لي في ذلك الوقت، على الرغم من مطابقته لعروض أخرى من قبل العديد من الناشرين الروّاد الآخرين نتيجة لمقالة شِنكر. كما قدّم لي سَيرف الخدمات التحريرية من قبل كارل آرسكين، وهو مواطن جنوبي محترم كان محرّرا للروائي وليَم فوكنَر، وكان فوكنر كاتبي المفضّل حينها. كمُحرر، قدّم لي كارل القليل من الإرشادات المفيدة ونشأ بيننا بعض التوتر لأنّه كان يعتقد بقوّة أنّ الشيء الوحيد الذي يهمّ المستقبل البشري هو الحدّ من النموّ السكاني. لم يوافق على تأكيدي على العلل العسكرية والتلوّث البيئي والندرة الوشيكة للموارد الطبيعية. كما لم يعجبه انتقاداتي للدور العالمي للولايات المتحدة. تمسّكت بموقفي على الرغم من عقود من الزمن التي تفصل ما بين دوري

الصغير مقارنة بهذا العملاق الأسطوري الى حدّ ما في عالم النشر. ظهر الكتاب فعلا بطبعة رانـدُم هاوس ولكن دون حماس تسويقي. أدركت في الماضي أنّه كان خطأي أن أتعاون للنشر في راندُم هاوس، وشعرت بخيبة أمل بسبب الغياب الواضح لعدم التشجيع الذي أظهره آرسكين، لكن بدا أنّ الأوان قد فات لفعل أيّ شيء حيال ذلك. يتناقض هذا المستوى المنخفض من الدعم مع الطاقة الترويجية المخصصة لدراسة **حدود النمو** في منتدى روما. جادل كتاب *Limits* في طرح فرضية مماثلة لأطروحتي ولكن بدون بُعد الحرب/السلام وتمكنت من امتصاص معظم الأوكسجين من منطاد التجريب البيئي. كنت اعتقد قي ذلك الوقت أنّ مقاربتي كانت أكثر دقة وأظهرت فهما أوضح للوضع العالمي. ومع ذلك، فإنّ الجمع بين الحملة الترويجية المموّلة تمويلا جيّدا، التي نظمها المنتدى وحقيقة أنّ تقييماته للوضع العالمي قد اعتمدت على نتائج البيانات التي تمّ إعدادها باستخدام الكومبيوتر قد طغت على التسويق والنتائج والتوصيات الخاصّة بكتابي. كانت منهجيّة تحليل البيانات هذه أكثر انسجاما مع الأسلوب الفكري في ذلك الوقت أكثر من منهجي النوعي القائم على القيم والتحليل التاريخي والتفسير السياسي والأدلة التجريبية والفوائد المحتملة لسيادة القانون العالمي. على عكس **حدود النمو**، التي أخفقت منذ فترة طويلة، يبدو أنّ كتابي، على الرغم من أنّه لم يكن له تأثير يُذكر عند نشره، كان أطول عمرا وأكثر نشاطا على الرفوف، وغالبا ما تمّ الإستشهاد به في الأدبيات البيئية الحديثة المخصّصة للقضايا العالمية.

في السنوات العشر الماضية أو نحو ذلك، فكرت في عمل نسخة منقحة عن هذا الكوكب المهُدّد بالإنقراض، والتي غالبا ما شجّعني الآخرون عليها. لكنّني لم أحشد الطاقة اللازمة للقيام بمثل هذا المشروع الضخم. ما زلت اؤمن بتأطير الحجّة البيئية لتشمل نظام الحرب. ومع ذلك يجب تعديل التحليل العام ليأخذ في الإعتبار تغيّر المناخ والتنوع البايولوجي والزراعة الصناعية والهجرة العالمية ومستوى النمو السكاني، فضلا عن الشعبية الديمقراطية الضارة لأشكال الحكم الإستبدادي التي تميل لرفض النظم البيئية. وفوق كلّ شيء ستركّز اعادة الصياغة عل التعقل والحالة الإنسانية باعتبارها تواجه تهديدا بالإنقراض لا يمكن معالجته

بنجاح إلا من خلال تأكيد التضامن العالمي وإحلال الوعي البيئي والأخلاقي محل الجغرافية السياسية واستبدال الحرب بالقانون والآليات اللاعنفية لحلّ النزاعات. يمكن معالجة تحدّيات الحاضر المتفاقمة بشكل إنساني، فقط من خلال صياغة حكم قانوني عالمي قوي مدعوم بالواقع الوجودي للإحساس بالمجتمع العالمي والإلتزام بالعدالة العالمية والأمم المتحدة الأكثر استقلالية وفعالية بشكل كبير.

على الرغم من أنّ معاجة الإشكالية البيئية بدت بمثابة مفترق طرق، إلا أنّها لم تضع حدّا لمخاوفي بشأن حرب ڤيتنام وآثارها غير المباشرة في الداخل وفي العالم أجمع. أثناء تواجدي في المركز، ناشدني عميد كلية القانون في جامعة ستانفَرد، بَيلَسماننگ، أن اقوم بتدريس دورة عن القانون والحرب. تطلب القيام بذلك استثناء خاصّا، حيث فرض المركز مراقبة صارمة تقضي بتخصيص زملائه وقت إقامتهم للبحث فقط. حُرمت جامعة ستانفَرد، على الرغم من أنّها لم تكن منطقة الحرب الإفتراضية، التي اصبحت جامعة كالِفورنيا في بِركلي ميدانا لها وكانت في حالة من الغليان. لقد تأجج ذلك الوضع جزئيا بسبب رئيس غير كفوء وغير حاسم، وبسبب الوجود الإستفزازي في الحرم الجامعي لمركز ابحاث تابع للقطاع الخاص، وهو **معهد ستانفَرد للأبحاث** SRI، والذي كان يقوم بأبحاث متعلقة بالحرب. كان طلبة القانون في جامعة ستانفَرد يطالبون عميدهم بدورة اختيارية تتناول قضايا ڤيتنام، وكنت الوحيد الذي لديه تلك الإهتمامات والشهادات. لقد استمتعت بالنزول الى أسفل التلّ مرّة واحدة في الأسبوع خلال الفصل الدراسي، حيث واجهت في الدورة العديد من الطلاب أكثر راديكالية منّي. فضّل العديد منهم السجن على الإمتثال لمتطلبات الخدمة العسكرية. لقد أدليت بشهادتي في المحكمة نيابة عن أحد الطلاب في مقرّري الدراسي في جامعة ستانفَرد، والذي انجذب ايضا الى الجانب الثقافي من «الحرب الداخلية»، وهو ما يعني تعاطي المخدّرات الترويحية والتسكع مع أطفال الأزهارFlower Children بصفتهم «عائلات» المستقبل. لم يكن من المُفترَض أبدا أن تتراجع مثل هذه الرؤية المستقبلية لأمريكا عن حدود المشهد الثقافي سريعا، كما جرى في اعقاب جرائم قتل مانسُن الصادمة، التي كانت وراء تدبير إيقاظ نِكسُن «للأغلبية

الأخلاقية» Moral Majority.

بحلول عام 1969 اصبحت «الحرب» في الداخل بؤرة الحركة المناهضة للحرب، واصبحت مخاوف ڤيتنام غيض من فيض. كان هذا يعني أنّ الحركة اصبحت أكثر ارتباطا بموسيقى الروك ومخدّرات LSD والحركة النسوية الصاعدة، أكثر من إدانتها لحرب ڤيتنام، على الرغم من أنّ هذه الإنشغالات المتباينة كانت مرتبطة ببعضها البعض في اذهان العديد من الشباب. كنت كبيرا بما يكفي لأشعر بقوّة أن أكون مشاركا في الحركة المناهضة للحرب بينما أشعر بأنّني مجرّد متفرّج متعاطف، أنظر الى الداخل من الخارج، عندما يتعلق الأمر بالحرب الثقافية التي يتمّ خوضها بأسلحة مثل الشَعر الطويل وفتيات الأزهار Flower Girls والموسيقى وكلمات المغنّي بوب دِلَن.

قدّم المركز أهدافا أخرى للفرص، بالإضافة الى مجموعة من النجوم الأكاديميين والشخصيات، الذين تمكنوا أحيانا من الحصول على ادوار مجتمعيّة تفوق مواهبهم. كان جورج شولتز، بلا شكّ أشهر زميل في عامنا، وبسبب تجربتنا المشتركة في جامعة پِرنستُن، بصفته لاعب كرة قدم وناشطا وندّا قاسيا في ملعب التنِس، أصبحنا اصدقاء على متن السفينة، أي صداقة ازدهرت فقط طالما استمرّت الرحلة. كنّا نلعب التنِس على الأقلّ مرّة في الأسبوع، وعندما بدأ نجمه في واشنطن في الصعود، كان من الواضح أنّه يتجه الى الخدمة في الحكومة. لقد أدهشني تواضع جورج الذي لاحظته خلال تناول المشروب في استراحة ما بعد التنِس حين جلسنا للحديث، حين أظهر أنّه مستمع أفضل منّي كمتحدث. الإستماع ليس سمة مرتبطة بالمطلعين في واشنطن.، إذ كان يعلم بمعارضتي لحرب ڤيتنام وسعى منّي الى فهم أفضل لسبب وجوب معارضة أبنائه للحرب. أعطيت أسبابي لمعارضة الحرب، وأومأ برأسه دون أن يجادل، لكنّه امتنع بحذر عن إظهار أيّة علامة على اقتناعه. أظنّ أنّ هذه الصفات أتتْ ثمارها في صعوده الى الصدارة في واشنطن حيث انتقل من منصب وزاري الى آخر. إحتلّ في النهاية التعيينات الوزارية الأكثر شهرة ونفوذا مثل وزارة الخارجية والخزانة، بعد أن بدأ بمنصب وزير للعمل.

لم أفهم أبدا نجاح جورج تماما، بما في ذلك شهرته اللاحقة كمدير

تنفيذي رفيع المستوى ورجل دولة كبير السنّ. يبدو أنّ هذا السجل الإستثنائي من الإنجازات في القطاعين العام والخاص يعتمد على كونه رجلا لطيفا يتمتع بذكاء معتدل ولديه وجهات نظر محافظة تجسد إجماع الحرب الباردة، ويبدو أنّه يتكرر في اسلوب حياته وسلوكه المتواضع. بينما كان يتقبّل وجهات النظر التي تعكس تفضيلات اليمين، لم يكن رافضا لِلبراليين، أو حتى التقدميين من شريّتي. لم اسمع أبدا جورج يعبّر عن فكرة اصيلة أو يتبنى موقفا مميّزا بشأن قضية سياسية مهمة. أكّدت مسيرته المذهلة بالنسبة لي أنّ طريق النجاح بالقرب من قمّة الهرم الحكومي يرتبط عموما بدرجة الذكاء العاطفي واتصالات النخبة والصلات الأيديولوجية أكثر من ارتباطه بالقوة العقلية. في الجزء العلوي، يبدو أنّ الخصائص التي جعلت شولتز ناجحا للغاية لا تعمل مع معظم المقاييس البيروقراطية العالية، ولا يبدو التواضع والفضائل السلبية مثل الإستماع باهتمام، سمات شخصية تؤدي الى النجاح في الساحات العامة. ولذا تظل تجربة جورج في ذروة الحكومة لغزا غير مفسّر.

في الواقع، كان هناك أيرڤِنگ هاو محرر مجلة Dissent Magazine، وهي مؤسسة اجتماعية ديمقراطية شارك في تحريرها مع لِوي كَوسَر، وكلاهما زميلان لي في نفس العام. كانت علاقتي بهما متوترة أكثر بكثير من علاقتي بشولتز. كان أيرڤِنگ وكذلك زوجته أرِن ماك من أشدّ المؤيدين لإسرائيل. كانا يعتقدان أنّ أمن إسرائيل يعتمد على الحفاظ على علاقة إيجابية وثيقة بين يهود الشتات وحكومة الولايات المتحدة. لذلك كانوا حذرين من الحركة المناهضة للحرب، التي انحرف عناصرها نحو التضامن المتعاطف مع نضال الفلسطينيين. بناء على دعوة من أيرڤِنگ خلال ذلك العام، ساهمت بتقديم مقالة «معارضة» تعبّر عن آرائي حول حرب ڤيتنام، لكنّنا كنا بعيدين للغاية فيما يتعلق بالجغرافية السياسية للحرب الباردة والعلاقة بين إسرائيل وفلسطين. كان أيرڤِنگ، بروح اليساريين السابقين، «إشتراكيا» متشدّدا مناهضا للسوڤيت ومدافعا غير اعتذاري عن النهج الصهيوني لسياسات الشرق الأوسط.

ممّا لا شكّ فيه، كان ألبرت هِرشمَن هو ألطف وأكثر إبداعا بين الزملاء ذلك العام. وهو اقتصادي سبح ضدّ تيار النمذجة الرسمية والتحليل الرياضي

Formal Modeling and Mathematical Analysis، ومع ذلك تمكّن من أن يحظى باحترام كبير بين معظم اقرانه المحترفين. كان ألبرت عادة زميلا في معهد الدراسات المتقدمة في پرِنستُن حيث طوّر افكاره النظرية حول كيفية ممارسة السلطة في البيئات الإقتصادية في العديد من الكتب القصيرة والإستفزازية، التي تمّت قراءتها ومناقشتها على نطاق واسع، لا سيّما الخروج والصوت والعواطف والإهتمامات، وايضا التعرّض للإقتصاديين المعاصرين، على الرغم من عدم الإعتماد مطلقا على الرسوم البيانية أو النماذج.

أصبح ألبرت وزوجته الروسية صديقين لنا وتشاركنا العشاء وولعا بلعبة كرة الطاولة. كان ألبرت يهوديّا اوروپيّا تمكّن خلال الفترة النازية من البقاء آمنا. كان خجولا رقيق الكلام وساخرا بهدوء في الأوساط الإجتماعية. اصبح معروفا وحصل على تقدير مهني من خلال تقديم المساعدة والراحة والملجأ المؤسسي في كثير من الأحيان لمجموعة من المثقفين التقدميين القادمين من أمريكا اللاتينية في جامعة پرِنستُن، بما في ذلك فرناندو هَنريكي كردوسو وخوزيه سييرا، اللذين اصبحا بعد فترة من الدكتاتورية العسكرية في البرازيل، من الشخصيات السياسية البارزة. تحوّل التوجّه السياسي من اليسار الديمقراطي الإجتماعي الى الوسط اللِبرالي الجديد، والذي كان يعمل بصفته يمين الوسط في سياق أمريكا اللاتينية.

كانت حياتي المنزلية في ستانفَرد أكثر دراماتيكية من السياسة في تلك الفترة. قرّرت فلورنسا أن تدرس للحصول على شهادة الماجستير في الآداب في النقد المسرحي، وتخلت الى الأبد عن نجاحاتها السابقة كممثلة خارج برودوَي. كان عملها بعد التخرّج تحضيريا لتصبح طالبة دكتوراه في جامعة رُتگرز في قسم اللغة الإنگليزية. بدت وكأنّها تستمتع بهذا التحوّل نحو العمل الأكاديمي، واصبحت مترجمة مطلعة وبصيرة للإتجاهات المسرحية الحالية. كان الأمر الأكثر أهمية بالنسبة لحياتنا هو ولادة دِمتري في 13 نيسان عام 1963 بعد عملية مخاض طويلة وشاقة. سُمح لي بالتواجد في غرفة التوليد في مستشفى جامعة ستانفَرد، وأجريت محادثة طويلة مع الطبيب الرئيسي المعارض لحرب ڤيتنام، والذي كان حريصا على ابعادها القانونية والسياسية. تحدّثنا طوال الليل لساعات

عديدة، وعنما خرج دِمتري للعالم أخيرا، شعرت بالإثارة الكاملة للولادة البشرية لأوّل مرّة في حياتي، واستقبلت فلورنسا الوليد وهي متعبة للغاية لكنّها كانت في غاية الفرح. إتّضح أنّ دِمتري منذ ولادته ومنذ ذلك الحين شيء مُميّز! لم افقد هذا الشعور أبدا، على الرغم من توترات الزواج المنهار وحياتي الخاصّة، التي كان لها أكثر من النصيب المعتاد من الضغوطات والإنشغالات والإضطرابات.

كان من بين أولئك العاملين في المركز، ليَون لِپسُن، المتخصّص في القانون السوفيتي. كان مرموقا من الناحية الفكرية وذا دافع آيديولوجي ظاهر في هيئة التدريس بكلية الحقوق في جامعة ييل، والذي حجب ازدرائه لنشاطي المناهض للحرب. أكثر من أيّ شخص آخر في تجربتي، كان ليّون يشبه في نواح كثيرة عدوّتي في پرِنستُن ماريون لِڤي، التي أشرت اليها من قبل. مثل ماريون، تمكّن ليَون من إدارة مهنة اكاديمية ممتازة في إحدى الجامعات الرائدة، على الرغم من فشله في الحصول على منحة دراسية بارزة. كان أيضا عدوانيّا ولاذعا ومدافعا قويّاعن المحاماة التقليدية والأرثوذكسية السياسية السائدة. أسرّني استاذي مكدوگَل ذات مرة بالقول، «لا أعرف ما هو الخطأ في ليَون، ولكن يبدو أنّه يعرقل جهودي لدعوتك للأنضمام الى كلية الحقوق». لم أتفاجأ كثيرا بهذا الكشف، وحاولت عدم البوح باستيائي منه. كنت أعرف أنّني لم أكن معاديا للسوڤيَت بما يكفي لأثير لؤمه، أو ربّما بسبب كثرة منشوراتي أو ربّما لم أكن من النوع، الذي يرغب أن يكون زميلا له. في الواقع، لم أرغب في مغادرة پرِنستُن الى جامعة ييل في نهاية الستينات، ولم أكن أرغب في رفض عرض ييل لو كان متاحا بسبب جهود الأستاذ، الذي كنت احترمه كثيرا. لحسن الحظ، لم أواجه المعضلة لأنّ الدعوة لم تأتِ أبدا! في أوقات الإحباط في پرِنستُن، كانت لديّ بعض التخيّلات المتناثرة من جامعة ييل، ولكنّها كانت عابرة. علمت من الأيام السابقة في جامعة ولاية أوهايو وجامعة ييل، أنّني لم أكن ارغب في تعليم الطلاب المهنيين أو وضع تقارير الإمتحانات النهائية أو حتى العيش في نو هَيڤِن. كانت جامعة پرِنستُن قريبة من نو يورك، حيث أقمت في ذلك الوقت صداقات ووضعت جدولا تعليميا متواضعا سمح لي بمتعة الحياة الرياضية اليومية مع مجموعة من اصدقاء التنِس والأسكواش، وهي فرصة قد يكون من الصعب

وجودها في مكان آخر.

لقد تطلبت سنوات ڤيتنام مغادرة البرج العاجي وخوض تجربة أوسع للحياة. بالعودة الى پرِنستُن بعد السنة، التي قضيتها في ستانفَرد، شعرت بالسعادة لاستئناف ايقاعاتها الهادئة والمألوفة. تبيّن أنّ هذه الإيقاعات كانت أقلّ هدوء ممّا كانت عليه سابقا، مع استمرار حرب ڤيتنام واستمرار مشاركتي كمدافع وناشط. تلا ذلك نهاية لعبة قبيحة في ڤيتنام، وهي قصف هَنوي خلال عطلة عيد الميلاد. أسفرت جهود كِسِنجَر/نِكسُن للحفاظ على الثقة من قبل الدوائر المؤيدة للحرب في سايگون وواشنطن عن عشرات الآلاف من الوفيات غير الضرورية، ودمّرت العديد من الأرواح في كلي البلدين.

تركت مرحلة الحرب إرثا من المرارة بين الجنود الأمريكيين العائدين وإحساسا عميقا بالخسارة في ڤيتنام، التي كانت محميّة من اليأس الجماعي من خلال الإنتصار الإستثنائي لهذا المجتمع الفلاحي الصغير على الطاغوت العسكري الأمريكي. لم تكن الولايات المتحدة خاسرة كريمة في ڤيتنام. لم تفعل شيئا للتخفيف من المصاعب، التي عانى منها السكان المدنيون خلال نهاية تلك الحرب الطويلة. تضمّنت هذه المصاعب الجوع الشديد، الذي اقترب من خطر المجاعة، وهي حقيقة تتجاهلها الولايات المتحدة في وقت كان بإمكانها محو العديد من الذكريات السيئة للحرب من خلال إظهار التعاطف والكرم. في أفضل الأحوال، يمكننا القول أنّ حكومة واشنطن عانت من قلة خبرتها في التعامل مع تحدّيات الحروب، التي خسرتها. لسوء الحظ، خسرت العديد من الحروب في وقت لاحق، ولا توجد دلائل على تعلمها من الهزيمة.

إكتشفت أنّ ڤيتنام غيّرتني من عدة نواح؛ صورة سياسية أكثر وضوحا واستعدادا لتجاوز المفاهيم اللِبرالية المعارضة المسؤولة، وفوق كلّ شيء التماثل الوجودي Existential Identification مع أولئك، الذي يكافحون في أمريكا والأراضي البعيدة لنيل الحقوق الأساسية، سواء في دانانگ، أو سلمى، سواء من أجل حقوق المثليين والمتحوّلين أو لحقوق المهاجرين وطالبي اللجوء. في النهاية، إخترت تأكيدا شاملا غير قضائي للإنسانية بكلّ تنوّعها كمعيار أخلاقي أعلى للهوية والمجتمع والتضامن. على الرغم من استئناف حياتي الأمريكية،

ألا أنّني لم افقد حبّي لڤينام وشعبها أبدا، والذي اعطى ملمسا حيويا من خلال تواصلنا مع هَوين وابنها وزوجها الأمريكي. ربّما لم تكن ڤينام بطولية في أوقات السلم كما كانت في أوقات الحرب، لكنّ الشعب الڤينامي حافظ على أعزّ ذكرياتي عن تلك الزيارة الأولى لذلك البلد العظيم عند زيارته مرّة أخرى لمدة أسبوعين في عام 2016.

لولا التدخّل الأمريكي لما كانت هناك حرب في ڤينام. كانت حكومة سايگون ستنهار من تلقاء نفسها دون أن تخوض الكثير من الصراع، وكان من الممكن إعادة توحيد ڤينام بسرعة كدولة واحدة. كان الصراع الحقيقي في ڤينام بين الجيش الأمريكي المتدخّل والشعب الڤينامي، الذي كان في الغالب مستجيبا للدعوة الوطنية للقتال من أجل الإستقلال السياسي في صراع بدأ ضدّ الإستعماريين الفرنسيين واستمرّ ضدّ المتطفلين الأمريكيين، الذين ربّما كان عندهم الدافع لذلك، من قبل الجغرافية السياسية للحرب الباردة. أضِف الى ذلك، أنّهم كانوا يسعون بشكل موضوعي لدعم القهر الإستعماري لأمّة آسيوية فخورة وموقرة. لقد كانت أوضح حالة ممكنة لتدخّل عسكري بدوافع جيوسياسية من قبل الغرب لإلحاق الهزيمة بممارسة حق تقرير المصير من قبل دولة غير غربية.

الفصل الثاني عشر

إعادة ثلاثة طيارين أسرى الى الوطن

كانت هناك بعض التطوّرات ذات الطابع النشط أكثر في أوائل السبعينات. إنّ توسيع منطقة القتال في ڤيتنام لتشمل كمبوديا، نتيجة لجهود كِسِنجر/نِكسُن لإضعاف قدرة هَنوي على إمداد قوّاتها في الجنوب، كان يعني كارثة إنسانية وسياسيّة لكمبوديا وتسبّب في ردّ فعل قويّ ضدّ الحرب داخل الولايات المتحدة. نظر القادة الأمريكيون الى المتظاهرين الغاضبين من نوافذ مكاتبهم وتساءلوا ماذا يفعلون. تعاملت وسائل الإعلام الأمريكية مع العملية الكمبودية على أنّها إعادة تصعيد رئيسية للحرب. عرضت قيادة نِكسُن هذه العملية على أنّها ضرورية لخلق جو مساومة موات للتوصّل الى اتفاق مع هَنوي من شأنه أن يقلب الواقع من خلال جعله يبدو كما لو كانت الولايات المتحدة هي المنتصر، على الرغم من سحب قواتها والفشل السياسي في الحفاظ على نظام سايگون ومعاداة ڤيتنام الجنوبية للشيوعية. تحدّى هذا التصعيد الإعتقاد العام المتزايد سابقا بأنّ الحرب الأمريكية في ڤيتنام كانت تقترب أخيرا من نهايتها. عندما بدا أنّ هذا لم يكن كذلك فجأة، تسبّب في إحياء نشاط الإحتجاج المناهض للحرب بمستوى عال من الغضب.

في هذا السياق، بدأت مفاوضات السلام في پاريس بين الطرفين ببطء، مع جدل حول شكل الطاولة، التي جلس حولها المتفاوضون واستغرق حلّها شهورا. على هذه الخلفية، تمّ الإتصال بي لأكون جزء من وفد مكوّن من أربعة اشخاص سيذهب الى هَنوي لإعادة ثلاثة طيارين أمريكيين كانوا مُحتجزين كأسرى حرب، وكان من المقرّر إطلاق سراحهم والعودة الى الولايات المتحدة

تحت رعاية مجموعة سلام مرافقة. لقد تردّدت في البداية عن قبول هذه الدعوة، ولم ادرك على الفور اهمية إظهار أنّ حركة السلام يمكنها أن تفعل ما لم تستطع حكومة الولايات المتحدة القيام به. في هذه الفترة وُلِد إبني نوح، وكنت مُتردّدا في الذهاب في مثل تلك الظروف في رحلة طويلة، على الرغم من علمي أن الطيارين محتجَزون كأسرى حرب في ڤيتنام الشمالية، وظلت القضية ذات أولوية بالنسبة لواشنطن منذ تخليها عن أيّة فكرة عن السيادة في الصراع السياسي. ولهذا المعنى، فقد كانت لحظة انتصار محتملة بالنسبة للحركة المناهضة للحرب لتظهر بفعل دراماتيكي وتبيّن أفعالها بأن حرّرت العديد من اسرى الحرب دون إطلاق رصاصة واحدة، في حين أنّ الهجمات العسكرية المكلفة التي تقوم بها الحكومة الأمريكية كانت فارغة.

بعد بعض الإقناع اللطيف، بما في ذلك التوبيخ لفشلي في القفز على فرصة المشاركة في مهمة سلام تحت رعاية الأمم المتحدة، قبلت الدعوة. كان الأعضاء الثلاثة الآخرون في الوفد من الشخصيات القيادية المناهضة للحرب، وهم دَيڤِد دِلِنجَر، المتهم الأكبر سنّا في أهمّ محاكمة وطنية إثر احتجاجات شيكاگو خلال انعقاد مؤتمر الحزب الديمقراطي عام 1968، وشخص آخر لديه خبرة طويلة ومعروف على نطاق واسع ضمن النشطاء المناهضين للحرب. حُكم عليها بالسجن خلال الحرب العالمية الثانية نتيجة التزامها السلمي الراسخ باللاعنف، وهي كورا ڤايس، المنظِمة الديناميكية وفاعلة الخير في صفوف منظمة «ومن سترايك من أجل السلام»، التي تزّعمتها وظلت على اتصال بعائلات أسرى الحرب الأمريكيين في سجون شمال الڤيتنام، فضلا عن كونها ناشطة بارزة فيما يتعلق بسلسلة من القضايا اللِبرالية اليسارية، بما في ذلك دور قيادي في معارضة الفصل العنصري في جنوب افريقيا. كان دَيڤِد وكورا الرئيسين غير الرسميين لوفدنا حيث تلقيا الدعوة كمشاركين في لجنة الإتصال بالجنود والضباط الأسرى المحتجزين في ڤيتنام، والتي اشرفت لسنوات على البريد ذهابا وإيابا بين اسرى الحرب الأمريكيين وعائلاتهم في الولايات المتحدة، وهي خدمة إنسانية تكمل أجندتها المناهضة للحرب.

كان العضـو الثالـث فـي الوفـد هـو قسّ جامعـة ييـل، وِليَم سلَون كَوفِن، والوزيـر الأول لاحقـا فـي كنيسـة رِفَر سـايد التاريخية، والذي جمـع بين خلفية النخبـة الإجتماعيـة ودور المغامـر كجنـدي مظلي فـي الحرب العالميـة الثانية. لقد هبط بالمظلة خلف خطوط العدو في أوروبا، وتكلم الروسـيّة بطلاقة وكان أحد أفضل المتحدثين العامّين الذين سـمعتهم على الإطلاق، حيث كان يجمع بين الحضور الكارِزمي والذكاء النافذ والنقد السياسـي الحاد، الذي يرتكز على استحضار موثوق به تماما للمُثِل الأمريكية. كان بِل كّوفِن شخصا غيّر وجهة نظر العديد من الأشخاص خلال محادثاته الملهمة التي جمعت ببراعة بين الفكاهة والمثالية، وحثّ الأمريكيين على الإرتقاء الى ما كان يعتقد بحماس أنّه الطريقة الأمريكية الحقيقية.

لقد واجهت بعض الصعوبات في الإحتفاظ بنفسي في مثل هذه المجموعة مـن المشـاهير المناهضين للحـرب، والذين تمّ تعزيزهم بشـخصيتين إعلاميتين بارزتين، وهما پيتر آرنَت، الصحفي المخضرم المولود في نوزيلندا، والذي غطى العديد من الحروب، وكان وقتها يعمل في وكالة أسيوشيتد پرَس. أمّا الصحفي الآخـر فهـو جـون هـارت، المراسـل الأول في محطة تلفزيون أن بي سـي. كان هـذان أول إعلاميـن رئيسـيين من الولايات المتحدة سُـمح لهمـا بالدخول الى شمال ڤيتنام.

نظرا لأنّنا كُنّا غرباء عن اسرى الحرب المُفرج عنهم، والذي كانوا مقطوعين في تفاعلاتهم الإجتماعية العادية وعائلاتهم لفترات طويلة، وقد يكونون قلقين بشـأن ما إذا كانوا سـيثقون بنا، فقد تمّت دعوة أقارب كلّ طيار أمريكي كان من المقرّر إطلاق سراحه بمرافقة الوفد. إنضمت الينا والدة أحد الطيارين المناهضة للحرب، وكذلك زوجة الطيار الثاني. لكنّ الطيار الثالث، وهو ضابط محترف، لم يستجب لهذا العرض ولم نعرف الكثير عن أقاربه.هذه الفكرة المشرقة لتلطيف المواجهـة مـع العالـم الخارجي بعد الحبس في سـجن ڤيتنامـي بعيد، كانت في الأساس فكرة كورا ڤايس، التي طوّرت خلال سنوات من الإتصال موقفا أموميّا اتجاه أسرى الحرب وأسرهم، وخلقت في نفس الوقت علاقات تنشئة للحفاظ على التزامها بأجندة مناهضة للحرب.

إطلاق الأسرى وعواقبه الڤيتنامية

ليس من الواضح ما إذا كان الڤيتناميون قد حدّدوا توقيت إطلاق سراح الأسرى ليكون له تأثير على الإنتخابات الرئاسية المقرر إجراؤها في الولايات المتحدة في شهر تشرين الثاني من عام 1972. لكنّ هذا البعد السياسي للأحداث كانت له أهمية قصوى في تعامل وسائل الإعلام الغربية مع مهمتنا. في السياق السياسي الأمريكي، كان يُنظر الى العودة الآمنة للطيارين الأسرى على أنّها تحدّ حاسم لسياسات رئاسة نِكسُن في ڤيتنام. كانت تتبع مسارا حربيا متناقضا وتصعيدا لطمأنة سايكون والإحتفاظ بالمصداقية كتحالف الأخ الأكبر بينما تدعي في الوقت نفسه السعي الى انهاء دبلوماسي للحرب عن طريق التفاوض. يبدو أنّ «دبلوماسية السلام» لواشنطن تهدف الى انهاء ما اصبح حربا لا تحظى بشعبية كبيرة في الولايات المتحدة بطريقة تخفي الى اقصى حدّ ممكن هزيمة سياسية مذلة. وكانت الهزيمة، حيث كان هناك توقع عام بأنّ ڤيتنام الجنوبية سوف يتم الإستيلاء عليها قريبا من قبل ڤيتنام الشمالية لتكوين ڤيتنام واحدة ذات سيادة تحكمها الحكومة الشيوعية في هَنوي. كان من أجل منع هذه النتيجة المتوقعة بالتحديد أنّ الحرب قد اندلعت قبل عقد من الزمن.

عندما تمّ إطلاق سراح الطيارين الأمريكيين الثلاثة في هَنوي، تمّ التعامل مع المناسبة كحدث عام كبير في ڤيتنام الشمالية، من خلال مؤتمر صحفي كبير تضمّن تغطية غربية مباشرة من قبل الصحفيين آرِنت وهارت. كانت هناك دراما مزدوجة. تزامن استئناف نِكسُن وحتى توسيع حملة القصف الأمريكية مع إطلاق سراح الڤيتناميين لأسرى الحربعبر ممثلي حركة السلام الأمريكية، وليس كما كان أن يكون أكثر تقليدية كبادرة حكومية دولية لتحسين النيّات. من الواضح أنّ الطيارين صُدِموا بدرجات متفاوتة باطلاق سراحهم وسعداء لأنّهم احرار لكنّهم قلقون من اتهامهم بأنّهم متعاونون عند عودتهم الى الوطن. كان الطيارون الثلاثة قبل اطلاق سراحهم قد وقّعوا بيان ندم على دورهم في الحرب، وكتعبير عن معارضتهم لها.

سرعان ما أدركنا أنّه مع الإنتخابات القادمة والقلق السياسي في واشنطن

من أنّ هؤلاء الطيارين من المحتمل أن يشـجبوا نهج نِكسُـن لإنهاء الحرب من خلال تصعيدها. جذبت مهمتنا اهتماما متزايدا خلط حتما بين العناصر الإنسانية والسياسية. تقاطع انشغالنا بالتصوّرات في الولايات المتحدة مع الڤيتناميين ممّا سمح لنا بمعرفة أنّ إطلاق سراح أسرى في المستقبل سيعتمد على إعادة هؤلاء الأفراد الثلاثة الى الولايات المتحدة بمرافقتنا. أدّى هذا الى إدراج تحدّ ركّز على مـا بعـد الإطـلاق بالكامل. كان واضحا لنا أنّ الحكومة الأمريكية سـتبذل جهدا كبيـرا للسـيطرة علـى هـؤلاء الرجال بأقرب وقت ممكن لمنع اتصالهم بوسـائل الإعـلام العالميـة. ثـمّ كانت هناك مسـؤوليتنا ذات الصلة اتجاه الطيارين لمعرفة أفضـل طريقـة لتجنـب حـدوث ذلك. كنّا خائفين الى حدّ ما من أن يتمّ التلاعب بنا من قبل الناشـطين في الوطن، الذين كانوا حريصين على اسـتخدام شـهادات الطياريـن لتكثيـف الدعايـة المناهضـة للحـرب، دون أيّ قلق بشـأن ما قد يفعله ذلك بحياتهم. على نطاق أقلّ، كنّا أنفسنا قلقين الى حدّ ما بشأن التأديب، على الأقلّ بسبب تعبيرات مفترضة عن عدم الولاء اتجاه حرب أمريكية كانت لا تزال مستمرّة عندما كنا في قلب أرض العدو.

لقـد كنـت مفتونـا بهـذا التفاعـل بين وجهـات النظر. وسـائل الإعلام تريد القصـص الجيـدة والنشـطاء الراغبـون فـي الحصـول علـى الفضل فـي اختراق حركـة السـلام، الطيـارون الذين يريـدون الإبتعاد عن الأنظـار واقاربهم يريدون تجربة عودة مريحة لهم. كان كلّ من كورا وبِل حسّاسين بشكل مثير للإعجاب بالنسبة للأوليات الرعوية للوضع، وأوضحا أنّه لا أحد منّا يريد استغلال الطيارين المُفرج عنهم. لقد قبلنا المسـؤولية الأساسـية عن رفاهية هؤلاء الطيارين. أردنا أن نفعل كلّ ما في وسعنا لجعل الإفراج عن اسرى الحرب الأمريكيين المتبقين وكي يحدث ذلك في أسرع وقت ممكن. لقد بذلنا قصارى جهودنا أيضا لفضح التحرّكات الساخرة من قبل حكومة الولايات المتحدة لتجنّب التغطية الإعلامية العدائيـة بـأيّ ثمـن تقريبـا دون أن نبـدو غير مبالين بالجوانب الإنسـانية لإطلاق سراح أسرى كهؤلاء. ولكنّنا اعربنا عن قلقنا بشأن الإجهاد النفسي، الذي عانى منه هؤلاء الرجال، الذين اطلق سراحهم للتوّ وبشأن المعاناة المفترضة من قبل أسرهم حين كانوا أسرى حرب في ڤيتنام.

إتّبعنا قبل مغادرة ڤيتنام خطّ سير الرحلة، الذي أعدّه مضيفونا الڤيتناميون، والذي تضمّن زيارات الى عدة مواقع للقصف الشديد. في الوقت نفسه، قرّرنا أنّ العودة كما أتينا عن طريق لاوس لم تكن فكرة جيّدة إذا أردنا التمسّك بجانب مسؤوليتنا في صفقة الإفراج. شعرنا أنّه من المحتمل أن نفقد سيطرتنا على الطيارين بمجرّد الهبوط في ڤِنَتيان نظرا لمدى التأثير السياسي الأمريكي في المدينة. كنّا نعتقد أنّ الطريقة الوحيدة لتحقيق مرافقة ناجحة تحت رعايتنا هي المضيّ قُدُما عن طريق پكين وموسكو وكوپنهَيڠن ثمّ الهبوط في مدينة نو يورك. حتّى مسار السفر المُخطط له هذا طرح مشاكل تجاوزت ما توقعناه. لم نكن على علم بالتحرّكات السريّة الوشيكة، التي تقوم بها واشنطن لتطبيع العلاقات مع الصين. سرعان ما حظيت هذه الخطوة التي طال انتظارها باهتمام عالمي في شكل زيارة مثيرة لِنِكسُن/كِسِنجَر لپكين.

كان هذا الإحتمال الدبلوماسي ذا أهميّة كُبرى للحكومة الصينيّة لكنّه غير معروف لنا. جعل هذا خططنا للتنقل أكثر تعقيدا وحساسيّة ممّا كنّا نتخيله. أراد الصينيون قبل كلّ شيء تجنب استعداء القيادة في واشنطن عشية الإنتخابات الأمريكية، وبدوا قلقين من أنّ تسهيل مثل هذه الرحلة عبر بلادهم يبدو معاديا وغير ودّيّ. ثمّ كانت هناك صعوبة أخرى لم نكن نقدّرها بالكامل حتى واجهتنا.

لم يكن الترتيب للتعاون بين الصين والإتحاد السوڤيَتي، حتى في شيء بسيط مثل تنسيق خطط السفر الخاصّة بنا، أمرا سهلا. كانت التوترات بين هذين العملاقين الشيوعيين على مستوى الأزمة، وربما عكس جزئيا مخاوف موسكو بشأن الضرر الذي قد يلحقه التطبيع بين الولايات المتحدة والصين لدورهما وطموحاتهما العالمية. تمّ التأكيد على هذا التشابك في القضايا من خلال الإهتمام السوڤيَتي بالعمل بشكل أكثر تعاونا مع الولايات المتحدة من أجل الحفاظ على جوّ الإنفراج. وحتى تغييرنا المخطط للطائرة في كوپنهَيڠن كان أكثر إشكالية ممّا كنّا نتصوّر. إنّ الدنيمارك عضو في الناتو، ويمكن اعتبار السماح بمرورنا بمثابة تحدّ غير مباشر لسياسات الحرب الباردة للولايات المتحدة، وبالتالي ضربة لتضامن الحلف.

بينما كنّا نبذل قصارى جهدنا للتعامل مع الجانب اللوجستي لترتيبات

السفر، أمضينا أسبوعا في الريف الڤيتنامي. بسبب التغطية الإعلامية للإفراج عن الطيارين، تمّ التعرّف على هؤلاء الطيارين من قبل الناس الڤيتناميين أينمت ذهبنا. ولدهشتنا الى حدّ ما، فقد قوبلوا بالفضول في الغالب ونادرا ما بدت علامات الإستيتاء أو العداء في الأمكنة، التي زرناها. مَثّل هؤلاء الطيارون حقائق معاكسة للڤيتناميين والأمريكيين. بالنسبة الى الڤيتناميين، كان الطيارون تجسيدا بشريا لغزاة معادين يمتلكون التقنية العالية ودمّروا بلادهم والعديد من قراهم وقتلوا اطفالهم وأقاربهم الآخرين. بالنسبة للأمريكيين، كان الطيارون ضباطا عسكريين ذوي مهارات عالية وذوي قيم عالية وضحايا بطوليين لما تمّ تصويره على أنّه عدوّ قاس ومسيء. لقد اصبحوا في الولايات المتحدة موضع تعاطف عالمي تقريبا، بعد أن بذلوا قصارى جهدهم من أجل وطنهم، وإن كان ذلك في جهد حربي غبي وفاشل. كانوا يدفعون ثمنا باهضا من خلال أسرهم واحتجازهم في السجون الڤيتنامية.

أطهر كلّ من الطيارين الثلاثة استجابات مميّزة للحرب ووضعهم. في الواقع، تمّ تسمية جميع اسرى الحرب في هَنوي بشكل غير دقيق بأنهم «طيارين»، على الرغم من أنّ بعضهم كانت له أدوار اخرى في الطائرات، التي تمّ إسقاطها. واحد فقط من الرجال الثلاثة المُفرَج عنهم كان طيّارا بالفعل، وهو مارك گارتلي، الذي كان أصلا من ولاية مَين ولكنّه مقيم في ولاية فلورِدا. كان مارك في سجن هَنوي لأطول فترة دامت أربع سنوات. وقد طوّر نظرة قويّة مناهضة للحرب جنبا الى جنب مع والدته المفعمة بالحيوية، والتي سافرت معنا في المهمة وكانت ناشطة ضدّ الحرب. أعرب مارك عن ندمه الحقيقي عل قصف قرى الفلاحين من ارتفاعات شاهقة. كان عموما الأفضل تعليما واطلاعا بين الثلاثة. الأسير الآخر هو نورِس ألڤانسو چالز، أمريكي من أصل افريقي رافقتنا زوجته الخجولة والمخلصة، أولگا. كان ضابط رادار في البحرية الأمريكية على متن طائرة مقاتلة عندما أسقطت ووقع أسيرا بأيدي الڤيتناميين. كان قد عارض الحرب قبل وقت طويل من أسره بعد أربعة أشهر من هبوطه بالمظلة من طائرته المصابة. بعد إطلاق سراحه في هَنوي، شعر نورِس بالقلق من احتمال معاملته كمتعاون مع العدو الڤيتنامي عند عودته للوطن وشعر بعدم الإرتياح لما كان

يحدث، ممّا جعله غير مرتاح بشأن مواجهة وسائل الإعلام. كان من الواضح لنا أنّ هدف نورِس الرئيسي هو «السلام الخاص»، وقد احترمنا تماما موقفه وتعاطفنا مع مخاوفه.

أمّا الأسير الثالث الذي أطلِق سراحه فهو إدوَرد الياس، الذي كان ضابطا مهنيّا مكلفا باستطلاع الصور على متن طائرة غير مسلحة وتمّ تكليفه بمهمة تقييم اضرار حملات القصف. كان منعزلا ومتجهّما الى حدّ ما، وربّما وقع على بيان مناهضة الحرب فقط للحصول على فرص أفضل للإفراج المبكّر دون الإشتراك فعليا في تفصيلات ما اعقب ذلك. حتى عندما كنّا لا نزال في ڤيتنام، بدا أنّه مستعدّ للتبرأ من هذا الفعل، ربّما للمحافظة على مسيرته العسكرية على المسار الصحيح خلال السنوات القليلة المتبقية قبل أن يصبح مؤهلا للتقاعد. على عكس الإثنين الآخرين، اللذين اعتقد أنّهما دخلا الخدمة العسكرية كجزء من الترتيبات مقابل تعليمهما الجامعي، إختار الياس العسكرية كمهنة. كما أوضح أنّ جهودنا لمناهضة الحرب لم تكن ملائمة. لقد كان أيضا يبدو أنّه ليس في سلام مع نفسه وأنّه غير سعيد ومعزول، على الرغم من أنّه تمّ إطلاق سراحه للتوّ من سجن هَنوي. بالكاد تفاعل مع أيّ من اعضاء الوفد وكان مختلفا عن الشخصين الآخرين اللذين كانا ودودَين ووضعا ثقتهما في حسن نيتنا.

قبل مغادرة ڤيتنام، عقد الوفد بدون وجود الأسرى الثلاثة المُفرج عنهم، جلسة مع ستة أو سبعة أسرى حرب آخرين لا يزالون في الأسر. بدت المجموعة بصحة جيدة وتحدّثت بإيجابية عن المعالجة الطبية التي يتلقاها الأسرى. ممّا لا شكّ فيه أنّ اقوالهم كانت تحت المراقبة، وربّما أخفوا الجوانب المظلمة لتجربة سجنهم. حتّى يومنا هذا، لست متأكّدا ممّا سأؤمن به في هذه المرحلة من الحرب. زعم بعض مؤيدي الحرب والعديد من السجناء المُفرج عنهم أنّ كلّ طيّار تعرّض للتعذيب المتكرّر، بينما اعتقد آخرون، بمن فيهم أنا، أنّ أسوأ سوء معاملة كانت حدثت في السنوات الأولى من الحرب، وخاصّة عند القبض على الطيارين. إستولى القرويّون الڤيتناميون على الطيارين بعد إسقاط طائراتهم أو بعد الهبوط بالمظلات على الأرض بعد إصابة الطائرات بالنيران المضادّة.

أجريت محادثتين لاحقتين تستحقان الذكرحول ظروف السجن في هَنوي.

الأولى كانت بعد وقت قصير من عودتي مع جين فوندا وتوم هايدن في منزلهما في سانتا مونِكا. لقد ناشداني للإنضمام اليهما في طمأنة الجمهور الأمريكي بأنّ أسرى الحرب في شمال ڤيتنام لم يتم تعذيبهم. لقد خيّبت آمالهما برفضي الإدلاء بتصريح علني ليس لديّ دليل عليه. على النقيض من ذلك، كانت محادثتي بعد سنوات مع أوّل سفير أمريكي في هَنوي، پيت پيتَرسُن، الذي كان نفسه أسير حرب لمدة ست سنوات ونصف اعتبارا من عام 1966. كان صريحا في إصراره على أنّ التعذيب كان سمة منتشرة في حياة السجن. وهي وجهة نظر عبّر عنها أيضا أشهر هؤلاء السجناء السِنَتور الراحل جَون مكَين. بالطبع، التعذيب غير مقبول ولا قانوني، لا سيّما عندما لا تكون هناك ذريعة للحصول على معلومات عن هجمات وشيكة. لكنّه في نفس الوقت شائع الى حدّ ما في مثل هذه الحالات من الحرب غير المتكافئة، حيث يكون للجانب الضعيف فرص قليلة للتعبير عن سخطه وغضبه ضدّ الجانب المهاجِم، أو السعي الى فرض تكاليف باهضة لمواصلة هجماته.

بقدر ما استطيع أن أقول، فإنّ القيادة الڤيتنامية، على غرار هَو چي مِنّه، أيّدت بشكل أساسي الرأي القائل بأنّ الحكومة الأمريكية، وليس الشعب الأمريكي، هي عدّوهم، وأنّه بمجرّد أسر جندي، يجب معاملته بطريقة إنسانية.على النحو المنصوص عليه في القانون الدولي. أشكّ بشدّة في ما إذا كان هذا الخط الناعم قد جرى اتباعه في جميع المواقف، ولكن حتّى التعبير عنه أنتج عقليّة جماعية أفضل بكثير من ميل الدعاية الغربية الى النظر الى شعب أجنبي ككلّ على أنّه العدو، ويمسكهم بشكل فردي ويحمّلهم المسؤولية الجماعية عن سلوك سلطاتهم، حتى لو كان النظام الدِكتاتوري لا يسمح للناس بالتعبير عن رأيهم في تشكيل السياسة.

تحت القنابل الأمريكية

على عكس زيارتي في عام 1968 عندما كان هناك توقف للقصف. كان القرب من الواقع القتالي للحرب موجودا في عام 1972. تمّ تفسير استئناف قصف ڤيتنام الشماليةعموما على أنّه مرتبط بجهد لتحسين موقف الولايات المتحدة في

مفاوضات باريس وكإظهار علني على التزام الولايات المتحدة بنظام سايگون ليكون على قيد الحياة وبصحة جيّدة، حتى مع تقويض المهمّة السياسية، التي سرعان ما تمّ التخلي عنها. وفي هذا الصدد، كان الإستئناف انتهاكا للقانون الدولي العرفي للحرب، وهو شرط أن تكون استخدامات القوة العسكرية متناسبة ومُبرّرة باعتبارات الضرورة العسكرية للدفاع عن النفس. هنا كانت الأهداف دبلوماسية ونفسية واضحة، حيث تمّ التخلي عن الأهداف السياسية والعسكرية للحرب. ومن ثمّ فإنّ هؤلاء الڤيتناميين الذين فقدوا ارواحهم في تلك الفترة، سواء كانوا مدنيين أو عسكريين، كان نتيجة للإستمرار غير القانوني للعمليات القتالية، التي ينبغي اعتبارها جرائم حرب.

وصلت هذه الديناميكية الى ذروتها فيما سُمّي «قصف عيد الميلاد» في الشمال، وبشكل رئيسي ضواحي هَنوي وميناء هايفونگ والقرى والبلدات المحيطة في شهر كانون الأول من عام 1972. هذه البادرة العسكرية قادت المفاوض الڤيتنامي في باريس، لو دَوك ثو، لرفض جائزة نوبل للسلام عام 1973 عندما عُرِضت عليه بالإشتراك مع هَنري كِسِنجَر، الذي من المُفترض فيه أنّه توصّل أخيرا الى اتفاق لإنهاء حرب ڤيتنام. ودون خجل وكما هو متوقع، قبِل كِسِنجَر الجائزة، على الرغم من أنّه كان متواطئا وغير معتذر بشأن التكملة الإجرامية لقصف عيد الميلاد، لما كان يُفترَض أنّها فترة مفاوضات سلام. لقد أدّت مسيرته في الترويج للحرب الى فضح لجنة جائزة نوبل للسلام لأنّها أعطت للعالم انطباعا بأنّ كِسِنجَر كان رجل سلام يتوافق مع رؤية نوبل عندما أنشأ الجائزة. وهو خطأ تكرّر في عام 2009 عندما مُنحَت الجائزة لأوباما، الذي عكس كِسِنجَر، قدّم في وقت مبكّر من رئاسته بضع نداءات سلام دراماتيكية، ثمّ تخلى عنها لاحقا، خاصّة فيما يتعلق بإسرائيل وفِلسطين والتأييد لعالم خال من الأسلحة النووية. قاد المؤلف والناشط من أجل السلام النرويجي، فرِدرِك هيڤرميل، حملة دولية لأكثر من عقد من الزمن لممارسة الضغط على لجنة جائزة نوبل لتكريم رؤية ألفرَد نوبل للسلام والإمتناع عن الحرب.

كانت الذريعة الواهية لهذا القصف هي رفض ڤيتنام الموافقة على الإفراج الرسمي عن الأسرى الأمريكيين، الذين بلغ عددهم ما يزيد قليلا عن مائة،

والذين كانوا مُحتجزين في هَنوي، قبل الإلتزام بالإنسحاب. وفي حالة غضب، أطلق نِكسُن أكبر حملة جوية في حرب ڤيتنام بأكملها، إذ أسقطت 129 قاذفة B–52 على هَنوي أكثر من 20000 طنا من المتفجّرات خلال 729 طلعة جويّة على مدار عدة أيام قبل يوم عيد الميلاد وبعده. أكّد كِسِنجَر أنّ القصف كان فعّالا لدرجة أنّه جعل الڤيتناميين يركعون على ركبهم، لكنّ الأدلة أشارت الى عكس ذلك تماما. كان نصّ الإتفاق النهائي كما وقعته الحكومتان عمليا هو لغة الإتفاقية قبل بدء القصف. لم يقتصر الأمر على افتقار القصف الى أيّ تبرير عسكري ذي مصداقية، بل لم يكن له أيضا تأثير سياسي، تاركا وراءه انطباعا سائدا بأنّ الولايات المتحدة كانت تتصرّف مثل الفتوّة/الشقيّ الجريح، ممّا يعزّز الإنطباع بأنّها خاسرة سيئة.

أكّدت تجربتنا في الريف القريب من هَنوي هذا النمط العام من القصف العنيف، الذي أنهى عمليا «التوقف» الذي أعلنه لِندُن جونسُن حين انسحب بشكل غير متوقع من السباق الرئاسي في عام 1968. غادرت مجموعتنا قرية ڤيتنامية قبل عشر دقائق فقط من تعرّضها للقصف. جعلتنا رؤية الدخان المُنبعث من الحرائق الناجمة عن القنابل ندرك الخطر الذي نواجهه. إستوعب الطيارون المُفرج عنهم هذه التجربة في مشاهدة الحرب الجوية من الأرض دون إبداء تعليق كبير، على الرغم من إخبارنا بما سمعناه سابقا، أنّ العديد من الطيارين ألقوا قنابلهم في خليج تونكِن، حين لم يجدوا اهدافا مناسبة. ومع ذلك لم يخالفوا أوامر العودة بأن يتخلصوا من حمولتهم من القنابل قبل الرجوع الى قواعدهم. كان واضحا لنا أنّ هذه القرى لم تكن اهدافا مشروعة وفيها عدد محدود من الأبنية عادة ما تكون معابد وكنائس وأحيانا عيادات صحية أو مدارس. لم يكن هذا الإستخدام غير القانوني للقوة الجوية، خاضعا للمساءلة، ممّا يذكّر العالم بأنّ الفاعلين الجيوسياسيين يتمتعون بالحصانة والإفلات من العقاب في حالات الحرب/السلام حتى لو عانوا من الهزيمة السياسية. بعبارة أخرى لم تكن هناك «عدالة» للڤيتناميين «المنتصرين» كما كان الحال مع المنتصرين في الحرب العالمية الثانية، الذين قاضوا القادة المهزومين الباقين على قيد الحياة، وعدم محاسبة أنفسهم. وهذا تماما كما فعلوا مؤخّرا في اعقاب حرب العراق

عـام 2003، حيـث تمّـت محاكمـة ومعاقبة قادة البلاد، الذين وقعوا ضحية حرب عدوانية كمجرمي حرب.

في الحرب العالمية الثانية، تجنّب الحلفاء المسـاءلة في محاكمات جرائم الحرب اللاحقة عن طريق عدالة «المُنتصرين». وفي ڤيتنام تمّ تجنّب المسـاءلة الجنائيـة الأمريكيـة مـن خـلال مـا يمكـن وصفـه «الإفـلات الجيوسياسـي من العقاب»، على الرغم من خسـارة الولايات المتحدة للحرب. إنّ قوّتها ورِفعتها بصفتهـا لاعبـا جيوسياسـيّا، قـد حمياها من المسـاءلة بموجـب القانون الجنائي الدولـي. تمـت إدانـة قصـف عيـد الميلاد، الذي تسـبّب في مقتل مـا لا يقلّ عن 1000 ڤيتناميا على نطاق واسـع في ذلك الوقت. لقد وصفت مثل هذا السـلوك، الذي هو بعيد عن متناول القانون الدولي ولكنّه ينتهك القواعد القانونية الأساسية باعتباره «جريمة جيوسياسـة». وعلى الرغم من أنّ الجرائم الجيوسياسـية ليسـت جـزء مـن القانـون الجنائـي الدولـي بالمعنـى الرسـمي، فـإنّ إدانتهـا هي أحدى طـرق الإعتـراف الأخلاقـي بالمخالفات السياسـية. إنّي آمـل أن يتمّ في وقت ما الإعتـراف بالجرائم الجيوسياسـية كجرائـم بموجب القانون الدولي. في الواقع، إذا كان للنظام العالمي أن يرتكز على الأخلاق العالمية والقيم العالمية، فيجب دمج الجرائم الجيوسياسـية بالمفاهيم السـائدة للحكم والشـرعية. طالما إسـتمرّ الإفلات من العقاب الجيوسياسـي، فمن الوهم المحزن التفكير في إقامة حكم قانون عالمي أو استبدال قانون القوة العالمي غير المنظم.

كانـت أخطـر لحظاتنـا فـي ليلة مقمرة حيث كنـا ذاهبين الى بيت ضيافة في قريـة فـي الريـف لنقضـي ليلتنـا. بينما كـنّ ننتظر في قافلة طويلـة عبور نهر على جسـر عائـم بـدا هشّـا، جاء تحذير مـن غارة جوية وبدّد صـوت القاذفات اجواء الليل السـاكنة في الريف. كنت مقتنعا أنّنا سـنبذل قصارى جهدنا لتجنب مناطق سـقوط القنابـل. قدّمـت القافلـة للطائرات المغيـرة هدفا عسـكريّا ذا قيمة عالية يتكـوّن مـن صـفّ طويل من شـاحنات الجيش مليئة بالجنـود والإمدادات. أكثر ذكرياتي حيوية عن تلك المناسبة المُخيفة قدّمه بِل كوفِن، المغامر الذي لا يعرف الخوف والذي استغلّ هذا الخطر ليعطينا فهما وجوديّا للطريقة التي عطّلت بها هذه الحرب حياة الشعب الڤيتنامي. بينما انغمس بِل في «لحظة اعطاء الدرس»

هذه، ارتجفت خوفا وفي صمت مفترضا أنّ حياتي كانت على وشك الإنتهاء، وحسبت تلقائيا مكاسب حياتي وخسائرها وأنا في سنّ 41 عاما. لأسباب غير معروفة الى الأبد لم يحدث الهجوم واستمرّت القاذفات نحو اتجاه أبعد. لقد عبرنا النهر بسلام وأخِذنا الى سكننا في تلك الليلة. وكما اتضح، شارَكنا غرف نومنا بعوض عملاق، تمكّن من اختراق الشباك المعلقة فوق أسرتنا، ممّا شكّل تهديدا أثبت أنّه أكثر دموية من تجربتنا السابقة في تلك الليلة مع القنابل التي لم تسقط أبدا حولنا. أتذكّر عندما بان ضوء الفجر، لم أتفاجأ برؤية الجدران ملطخة بدماء جديدة وبقايا الحشرات الميتة، التي جلبت لنا البؤس طوال الليل.

المرافقة

نظرا للتوترات الناشئة من تفاعل الشخصيات القوية في المواقف الصعبة، حيث كان الحكم السياسي مطلوبا في كلّ منعطف، كان انتباه وسائل الإعلام العالمية بمثابة مغناطيس وفخّ في نفس الوقت. لقد كانت نقطة جذب حيث كان هناك دائما إغراء لمحاولة إثبات أنّ هذا الجهد من قبَل ناشطي السلام كان له تأثير إيجابي على الرأي العام والوعي، والذي كان أيضا وسيلة لتبرير أنفسنا على أنّنا نتصرّف بإنسانية بنّاءة، بقدر ما كان النقاد يتنافسون على أنّ ما كنّا نفعله كان مفيدا سياسيّا لأعداء الولايات المتحدة؛ القيادة في هَنوي. لقد كانت ايضا فخّا على المستوى الشخصي، حيث خلقت دوافع تنافسية للإستيلاء على أقرب مايكروفون لإعطاء رأي شخصي. أفسحت أنا وبِل كوفِن الطريق لكورا ڤايس ودَيفد دِلنجَر، بوصفنا قادة حركات سلام محنكّين على المدى الطويل وأكثر كِبرا عندما يتعلق الأمر بالعلاقات مع وسائل الإعلام.

في نفس الوقت كان داخل مجموعتنا كما اسلفت القول، إثنان من ذوي الخبرة في مجال الإعلام. مليئا بالحيوية والحيادية لمراقبة الحروب بشكل محترف، كان پيتر آرنِت يذهب الى أيّ مكان على هذا الكوكب من أجل قصة جيّدة، بغضّ النظر عن الخطر، ودون أن يبدو أنّه يمتلك أيّ ميل لتفضيل جانب على آخر. لقد كان نشطا وممتعا في التواجد حوله. كان پيتر جسديا على الجانب القصير شقيّا ورياضيّا بحساسية الجنّ. قابلت پيتر في عام 2017 في

تجمّـع اجتماعـي فـي مدينـة هَو چي مِنّه فوجدتـه بلا تغيير، ولم ينزعج كثيرا من حقيقة أنّ ابنته كانت متزوّجة من جون يو، المعدّ سـيء السـمعة لمذكرات تبرير تعذيب المعتقلين في فترة رئاسة بُش الإبن. حين سألته عن ذلك، إبتسم بلطف واقتصر ردّه على بضع كلمات، «إنّه يعاملها جيّدا». هذه هي فوائد عدم السياسة. في عام 2003، إكتسب پيتر شهرة عالمية من خلال إجراء مقابلة مع صدّام حسين في بغداد عند بداية حرب العراق. تمّ تعزيز الخلفية الدراسية لهذه المقابلة بشكل كبيـر مـن خـلال حقيقة أنّ الحـرب قد بدأت بهجوم جـوّي وصاروخي «صدمة ورعب» ليلا، ممّا عزّز أيضا سـمعة پيتر، التي يسـتحقها كصحفي شـجاع يكون في أيّة نقطة على رأس الأخبار في تلك اللحظة.

الرحلة الطويلة للعودة الى الوطن.

حتّى قبل مغادرة هَنوي، أدركنا أنّ التخطيط للرحلة الى الوطن كان يتعلق بالسياسة أكثر من كونه يتعلق بترتيب خدمات السفر. وجدنا أنفسنا ممزقين بين إيجابيات وسـلبيات الجوع المسـتهلك لوسـائل الإعلام لتغطية هذه الأحداث ومشـاعرنا القويّـة المناهضـة للحـرب وشـعورنا الأساسـي بالمسـؤولية لحماية كرامة المعتقلين المُحرّرين، وخصوصا اعتبارهم اسـرى حرب سـابقين موكلين الى رعايتنا. لقد تمّ قطع هؤلاء الرجال الثلاثة عن اخبار العالم لفترات متفاوتة وكانوا قلقين بشأن كيفية تلقي كلماتهمْ وإطلاق سراحهم في الولايات المتحدة. كانـوا فـي بدايـة اتصالنـا بهم غيـر متأكّدين من مدى ثقتهم بنـا كمراقبين مؤقتين بالنظر الى نشاطنا والدوافع المُفترضة لحركة السلام. ألم نكن في عيونهم خطر جديد يحلّ محلّ الفديم؟

أثنـاء التخطيـط لعودتنـا الآمنة الـى الولايات المتحدـ تـمّ انقاذنا جزئيا من خلال المسـاعي الحميدة للسـفير السـويدي في هَنوي، جان كرِسـتوفر أوبرِگ، نتيجة اتصال كورا القوي بأولف پالم في اسـتوكهولم. لقد اكتسـب هذا الرجل المهيب جسديّا والمتفاعل الإنساني بالفعل، سمعة دولية سيئة وامتنانا من قيادة هَنـوي مـن خـلال جلـب الصحفيين الدولييـن لعرض الأدلة على أنّ نِكسُـن قد بدأ بالفعل قصفا منهجيّا للسدود في دلتا النهر الأحمر. لو استمرّ هذا القصف،

لـكان قـد تسـبب في فيضانـات كارثية والحق الضرر بالمصـادر الحيوية للغذاء، وأدى الى وقوع خسائر كبيرة في صفوف المدنيين. سمعنا تقديرات بأنّ ما يصل الـى مليونـي مدنـي ڤيتنامي كانوا سـيلقون حتفهم بسـبب الفيضانات والمجاعة. كمـا اخبرنـا رئيـس الـوزراء الڤيتنامي، ڤـام ڤون دونگ، أنّ النضـال الوطني كان سيسـتمرّ حتى لو تمّ تدمير كافة السـدود. أخبرنا أنّ ڤيتنام لديها خطة مدتها 50 عاما تتضمّن، إذا لزم الأمر، الإنسحاب الى الكهوف الجبلية. أخبرني الصحفي جاك دِكورنوي، مراسل صحيفة لوموند الفرنسية، المقرّب من القيادة الڤيتنامية، بعد عام أو نحو ذلك وأنا في باريس، أنّه شاهد بالفعل نصّ تلك الخطة التفصيلية لمواصلة النضال من أجل الإستقلال الڤيتنامي على المدى البعيد في المستقبل.

دعتنا خطتنا البديلة للسفر عبر الصين الى پكين ومن هناك الى موسكو ثمّ الـى كوپنهَيگـن، قبـل ركوب طائرة العودة الـى الولايات المتحدة. كانت مهمّتي إبلاغ المسـؤولين في الحكومة الدنِماركية بأنّنا كنّا منخرطين في مهمّة إنسـانية، ونسـعى الـى إعـادة ثلاثة أسـرى حـرب أمريكيين تـمّ إطلاق سـراحهم والعودة للوطـن. أخبرتهـم أنّ عـدم التدخّـل في المهمة سـوف يُسـرّع في إطلاق سـراح السـجناء الأمريكييـن الآخريـن في المسـتقبل. على الرغم مـن أنّه لم يكن هناك أيّ ردّ رسمي مطلقا، فقد تمّ إخباري بشكل خاصّ أنّ مثل هذا الإتصال مرحّب بـه فـي واشـنطن، علـى الرغم من عدم احترامه بالكامـل، إلا أنّه كان له تأثير في منع الإنتقادات الرسمية لرحلتنا.

بعد توقف دام عدة أيام في مدينة ووهان الغربية، قبل فترة طويلة من شهرة المدينة كأصل لوباء الكوڤِد، وصلنا الى پكين وتمّ حجزنا في فندق. وكنوع من تعويض غريب عن هذا الحبس، تمّ إطعامنا بشـكل شـبه مسـتمر وبطريقة ذوّاقة. مـن الواضـح أنّ الحكومـة الصينيـة لم ترغب في أن تتـمّ رؤيتنا أو تحديد هويتنا علنا، وسعت بنجاح الى جعلنا نتجنب الإتصال بوسائل الإعلام. ومع ذلك فقد كانوا متعاونين وودودين وضمنوا أمننا.

حكت محطتنا في موسكو قصة مختلفة تماما. لم يكن هناك أمن سوڤيتي، وظهر مسـؤولو السـفارة الأمريكية وهم يحملون البدلات العسـكرية للطيارين ليقومـوا بارتدائهـا بمجـرّد أن يقـرّروا قبـول عـرض العـودة للولايـات المتحدة

تحـت رعايـة الحكومـة. كاد بِل كوڤِن أن يدخل في معركة جسـدية مع مسـؤول كبيـر بالسـفارة، وأصـرّ علـى أنّنا وافقنا على مرافقة هـؤلاء الرجال الى الولايات المتحدة وإبعادهم من الحجز، الذي من شـأنه أن يمنع اطلاق سـراح من تبقّوا في المستقبل. على الرغم من أنّ الرائد الياس بدا مُتردّدا، إلا أنّ الطيارين الثلاثة قاومـوا ضغـط السـفارة وبقـوا معنـا. ممّا لا شـكّ فيه أنّهم كانـوا يتصارعون مع معضلة مواجهة الإنضباط في الوطن أو كسـر الثقة مع زملائهم السـجناء، الذي ما زالوا في الأسـر والذين شـعروا بالمسـؤولية اتجاه أسرى الحرب الذين تركوا وراءهم في هَنوي، إذا لـم يتمّ نقلهم كما رغب خاطفوهم الڤيتناميون. بعد مشهد من بعض الفوضى في المطار، تراجع المسؤولون الأمريكيون وشرعنا بالركوب على متن طائرة رحلتنا المتواصلة الى كوپِنهَيگِن. بمجرّد الوصول الى كوپِنهَيگِن كانت وسـائل الإعلام حاضرة في المطار بكامل قوّتها وامتلأت غرفة الصحفيين الكبيرة بعشرات من كامرات التلڤزيون. قام وفدنا بشرح المهمة وامتنع الطيارون عن الردّ على أسـئلة الصحفيين أو الإدلاء بأيّة تصريحات. أردنا تصوير المهمة على أنّها ذات طابع إنساني بحت، على الرغم من دلالاتها السياسيّة.

أعطاني أحدهم في مطار كوپِنهَيگِن نسـخة من صحيفة نو يورك تايمز. وفي رحلة العودة شـعرت بالصدمة والحزن لقراءة أنّ صديقي المقرّب والمرشـد غير الرسـمي، ڤولفزانـگ فريدمَـن قـد قتِل في أحد الشـوارع أثناء سـيره من مكتبه في مدرسـة كولومبيـا للقانـون الـى محطة القطار في شـارع 125 حيث يسـتقل القطار الى منزله في وَستچستر. تذكرت عندما قرأت خبر هذه القصة المأساوية، محادثة لي معه قبل بضع سـنوات حين ناقشـنا حادثة مماثلة سـابقة بالقرب من مكتبه في كولومبيـا، حيـث نجـح فـي التخلـص مـن لصـوص طلبـوا محفظتـه. أثنيت على شـجاعته، ولكـن بالإعتمـاد على تجربتي ونشـأتي في مانهاتـن، نصحته بقوة على عـدم تكـرار المقاومـة والتضحية بمحفظته إذا كان سـيء الحظ وحدث شـيء من هذا القبيل في المسـتقبل. أتذكر مناشـدتي له أن يُسـلم ببسـاطة ما يُطلب منه. ردّ ڤولفزانگ بشكل مؤثّر ولكن كما اتضح بشكل مأساوي، إنّه خبر النازية كيهودي نشأ في ألمانيا وتعهد بعدم السماح لنفسه بمضايقات جسدية من قبل أيّ شخص في المستقبل. في الماضي، وبالنظر الى تجاربنا المنفصلة في الحياة، كنّا على حقّ!

أتذكّر أيضا عند قراءة خبر وفاة ڤولفزانگ، رحلة العودة من منطقة قتال عنيف في فيتنام، أنّني سألت نفسي، «أين هي منطقة الحرب؟» من جوانب عديدة، كان صديقي هذا بطريقة ما خارج دائرة المطلعين على قمّة السلم الأكاديمي في الولايات المتحدة، ولم يحصل أبدا على التقدير الذي يستحقه على شكل كرسي دائم بمنحة دراسية إنسانية ومبتكرة. ومع ذلك، كان موته العنيف بمثابة تذكير بأنّ حياتنا كلها مشروطة، وأنّ الكثير من مصائرنا في الحياة، سواء كانت جيدة أم سيئة، تحدّدها قوى خارجة عن إرادتنا.

بمجرد هبوط الطائرة في مطار جون كِندي في نو يورك، إندلع الهرج والمرج. أبلغنا نظام الصوت أنّه طُلب من الركاب «العاديين» مغادرة الطائرة وأمِر الآخرون بالبقاء في مقاعدهم. بعد ذلك صعدت مجموعة من مسؤولي الپنتگون بملابس مدنية الى الطائرة وكأنّهم يقومون باعتقالات، واحتجزت الطيارين الثلاثة بحضور أقاربهم الغاضبين والمصدومين، بدعوى أنّه من مصلحة هؤلاء الأفراد أن يُنقلوا الى منشآت عسكرية من أجل اجراء الفحوصات الطبية عليهم، والتي قد تستمرّ عدة أسابيع. بطبيعة الحال، افترضنا أنّ هذا الإستقبال المؤلم كان في الأساس خدعة حكومية لتجنّب الإتصال بوسائل الإعلام في ذلك الوقت السياسي الدقيق. المسؤول الرئيسي في الپنتگون، فرانك سِڤِرتس، كان طالبا سابقا في جامعة پِرنستُن وكان أحد معارفي. بعد أن تمت مغادرة الطيارين واقتيدوا بعيدا في ثلاثة سيارات منفصلة كانت بانتظارهم على المدرج، كان وفدنا لا يزال جالسا وقد ذُهل الى حدّ ما عن الطريقة التي تمّ التعامل بها لدى وصولنا. إعتذر فرانك لي عن كيفية الإستقبال هذه وأوضح أنّه كان يتبع پروتوكول الپنتگون بشأن معاملة الأسرى المفرج عنهم عند عودتهم الى أرض الوطن.

إنتهت الدراما بمجرّد مغادرتنا المطار. كان إطلاق سراح السجناء قصة عالمية، حيث ظهرت صورة مارك گارتلي على الغلاف الأسبوعي لمجلة تايم. واصلت كورا مواكبة ما يجري نتيجة اتصالاتها بعائلات الطيارين. قمت بتبادل بطاقات عيد الميلاد لبضع سنوات مع گارتلي، الذي كنت أجريت معه العديد من المحادثات الجيّدة أثناء تواجدنا معا. ترشّح لعضوية الكونگرِس، لكنّني فقدت الإتصال به وبالإثنين الآخرين.

الإنعكاسات الشخصية

لا شكّ أنّ العودة الى ڤيتنام الشمالية للمرة الثانية عمّقت تجربتي مع المجتمع وعاطفتي نحو الشعب. أتذكّر المغادرة الثانية من هَنوي وسط الضحك والمرح وما استمتعت به كثيرا قبل أربع سنوات، بينما كان استقبالنا في المطار الصيني عبر الحدود على النقيض من ذلك، منظما وصارما ورسميّا. في رأيي قارنت ڤيتنام كمجتمع ناج لتوه من الحقبة الإستعمارية بالصين كشعب إمبراطوري عريق، على الرغم من أنّ الوضع الآسيوي برمته كان في القرون الأخيرة ضحية لِلإمپريالية الغربية. لم أفقد أبدا إعجابي بالمزاج الثقافي الڤيتنامي وشعبه، لا سيّما قدرتهم على الإستمتاع بالجوانب الكوميدية لأكثر الظروف مأساوية، وهم يتعاملون بطريقة حسنة وإبداعية مع اضطراب ومعاناة حرب مدمّرة. الهدية المُبتكرة في حلّ المشكلات، التي كانت دائما مناسبة للإبتسامات، هي الإرادة، التي تدلّ على قوّة الخيال. على الرغم من مواجهة أكبر الصعوبات، نادرا ما اشتكى الڤيتناميون متقبّلين مصيرهم الحزين كما لو كان قد فرضه الله عليهم، على الرغم من أنّ مجتمعهم مجتمع كونفوشي/بوذي دون أيّ مَيل واضح للحفاظ على الواقع المُعاش بتفسيرات ميتافيزيقية، كما هو الحال في الديانات التوحيدية.

لقد استمتعت بعضويتي للوفد ومهمة الحراسة التي تولاها ومغامرة ابقاء الطيارين تحت وصايتنا وهم في طريقهم الى الوطن. كتبت لاحقا مقالا أكاديميا حول إعادة أسرى الحرب من قبَل مواطنين عاديين باعتباره أمرا يستحقّ الحماية بموجب القانون الدولي الإنساني. تعرّضت شخصيا للهجوم من قبَل المحافظين، بما في ذلك وِليَم أف بكلي لتجرؤي على طرح آرائي المعارضة بشأن المعاملة المناسبة لأسرى الحرب الأمريكيين، وهو مجال يعتقد بكلي أنّه يخصّ الحكومة حصريّا. ما زلت غير مقتنع أكثر من أيّ وقت مضى، بأهلية مراعاة ادّعاءات الحكومة بالسلطة في الأمور التي تؤثّر على السلام والعدالة، لا سيّما عندما تكون القضايا الإنسانية على المحكّ. يعتمد المجتمع الديمقراطي في ظلّ ظروف العالم الحالي بشكل متزايد على المواطنين من ذوي الضمائر

الحيّة والمُخبرين الشجعان لمواجهة سلوكيات الدولة الأمنية العسكرية التي تتسلح بالتكنولوجيا المتقدمة من أجل فرض الرقابة على الشعب. ما فعلناه حينها من أجل هؤلاء الأسرى الثلاثة كان صحيحا في ذلك الوقت وسيكون كذلك الآن.

بخلاف رحلتي الأولى الى ڤيتنام، عززت الرحلة الثانية هويتي العامة كناشط مناهض للحرب، ولكن لم يكن لها تأثيرات تحويلية على تطوّري السياسي، كما فعلت الرحلة الأولى عام 1968. لقد أثارت إعادة أسرى الحرب في عام 1972 اهتماما إعلاميا عالميا، وصل حتى الإثارة والمزيد من الخطر، وكان بالتأكيد أكثر امتاعا بسبب مشاركة هذه التجربة الدرامية العالية مع رفاق متجانسين كانوا أيضا اصدقاء ودودين ومهتمّين. ومع ذلك، عدت هذه المرّة الى پِرنستُن دون تغيير، على الرغم من أنّ التجربة التحويلية السابقة، ربّما تمّ تجديدها وتعزيزها.

العودة لزيارة ڤيتنام بعد الحرب

تابعت الأحداث في ڤيتنام عن كثب وشعرت بخيبة أمل من اللمسات الأخيرة الإنتقامية للولايات المتحدة، التي أضرت في النهاية بالولايات نفسها أكثر ممّا عاقبت ڤيتنام لجرأتها على الإنتصار. لقد فهم الرأي العام الأمريكي النتيجة بشكل أفضل من الطبقة السياسية في واشنطن، التي لم تخفِ رفضها للمزاج العام المناهض للتدخّل. لقد اعتبرت أنّ ردّ الفعل المجتمعي المناهض للحرب والتدخّل بمثابة ترحيب سياسي واستجابة جماعية مستنيرة على تحوّل هائل غير حكيم وخاطئ في السياسة الخارجية الأمريكية. أطلقت نخب السياسة الخارجية ما اعتبرته مزاجا عاما سلبيا سمّي «متلازمة ڤيتنام». كان المقصود من هذه التسمية نقد إحجام الشعب الأمريكي لاستخدام القوة الصلبة الأمريكية في مهام عسكرية بعيدة كنتيجة لتجربة ڤيتنام. لم يكن الأمر كذلك حتى حرب الخليج عام 1991، حيث تمكّن زعيم أمريكي باسم جورج هِربَرت بُش من الإعلان، أنّه «دفن أخيرا متلازمة ڤيتنام في رمال الجزيرة العربية». هذا النصر العسكري بعد ڤيتنام من قبل بُش الأب ردّد اعتقادا سائدا في واشنطن بأنّ الآلة

العسكرية الأمريكية، إذا تمّ استخدامها بشكل صحيح، لا يزال بإمكانها الفوز في الحروب بتكلفة مقبولة. اعتبِرت هذه الحروب الدورية ضروريّة لتعزيز الخضوع للرؤية العالمية، التي وجّهت القيادة الأمريكية الدولية وكذلك لحماية النظام الإقتصادي النيولِبرالي المعولم، الذي تأسس بعد عام 1945. كان إدّعاء بُش الأب بأنّ القدرات العسكرية يمكن أن تحدّد نتيجة سياسية في أحسن الأحوال خطأ، كما اكتشف إبنه بعد مهاجمته للعراق في عام 2003. إذا كانت رهانات الحرب هي منع العدوان الإقليمي، كما هو الحال بالنسبة للكويت عام 1991، فإنّ هناك أهمية أكبر للحسابات الواقعية التقليدية ممّا لو كانت المخاطر تنطوي على تدخّل عسكري تمّ القيام به بقصد فرض مستقبل سياسي يتجاهل الحقوق السيادية بالقوة. كان يمكن لرئاسة بُش الإبن أن تكون أفضل حالا لو تجاهلت إدّعاء والده، وبدلا من ذلك منح متلازمة ڤيتنام الإحترام الحصيف والأخلاقي/القانوني، الذي تستحقه.

بحلول التسعينات، كانت الحكومة الأمريكية مستعدّة لتطبيع العلاقات مع ڤيتنام، ولكن بخطوات محسوبة. ظلت ڤيتنام متقبّلة، بعد أن عانت من مناوشات حدودية مكلفة مع الصين، واعتقدت أنّ أمنها معرّض لتهديد أكثر من قبَل جارتها الشيوعية، التي كانت عدوّها لما يقرب من عقدين بعد مغادرة الفرنسيين للبلاد أكثر من تهديها من قبل المركز الأمريكي البعيد للقوّة الرأسمالية. في الواقع، ستكون ڤيتنام الموحّدة والمستقلة حضورا مستقرّا في المنطقة. وهي نتيجة ربّما تكون أكثر انسجاما مع الأهداف الستراتيجية الأمريكية في آسيا ممّا كانت عليه الحرب الأمريكية في ڤيتنام لو انتهت بانتصار سايگون/أمريكا. هذه هي المفارقة الجيوسياسية، التي لم تحدث قط وما تمّ فهمها بشكل صحيح، ناهيك عن اعتراف مخططي الحرب في واشنطن، الذي سعوا الى استعادة صورة العصمة الأمريكية American Infallibility إذا كان لسياسات الحرب الأيديولوجية الأمريكية في الخارج أن تكون مدعومة من قبل الرأي العام ومخصّصات الكونگرِس.

جاءت فرصتي التالية للعودة الى فيتنام نتيجة لدعوتي للعمل كمحاضر في جولة خريجي جامعة پرِنستُن في جنوب شرق آسيا في عام 1993. بدأت الجولة بالسفينة السياحية في سنغافورة قبل زيارة سايگون، التي أعيدت تسميتها آنذاك

الى مدينة هو چي مِنّه، وعاصمة كمبوديا، بنوم منّه، حيث تضمنت الزيارة «حقول القتل» المرتبطة بأحداث الإبادة الجماعية في البلاد خلال سنوات حكم الخمير الحمر في أوائل السبعينات. كما قمنا بالإضافة الى ذلك برحلة شروق الشمس الى الأطلال الرائعة في أنگور وات. كان التوقف في مدينة هو چي مِنّه قصيرا لكنّه مثير للإهتمام. بدت المدينة نابضة بالحياة وتستمتع على ما يبدو بالعودة الى الحياة السياسية الطبيعية. أظنّ أنّ الأمر يبدو كما هو تماما وكأنّ الحرب لم تحدث مطلقا أو كانت ستظهر بشكل مختلف.

كان هذا التعرّض الأوسع لجنوب آسيا مُرضيا للغاية على المستوى الشخصي. لكنّ التجربة التي لاتُنسى على ظهر السفينة، أنّها اتاحت لي التفاعل مع خريجي جامعة پِرنستُن المحافظين واصدقائهم وأقاربهم، خاصة أثناء تناول وجبات الطعام، التي كانت أكثر أناقة في العرض من جودة الطهي نفسه. لم نكن أكثر من80 شخصا إضافة للطاقم. ظهر دوري كمحاضر في الجوانب السياسية للرحلة البحرية، في البداية بمثابة تحدّ نظرا للميول اليمينية للمسافرين الأكثر وضوحا. أخبرني أحد ركاب رحلة Tiger Alum بروح من الإفصاح الكامل أنّ بعض من كانوا على ظهر السفينة قد فكّروا بالغاء حجوزاتهم عندما اكتشفوا أنّني سأكون أحد المحاضرين. سمعت من خريجي جامعة پِرنستُن أنّ سمعتي كانت كمسعور مناهض للحرب ومعادٍ لأمريكا وكنت أمثّل قوّة شرّيرة في الحرم الجامعي لإضعاف، إن لم يكن قلب تقاليد پِرنستُن المقدّسة. أخبرني أحد الركاب، الذي اصبح فيما بعد ودودا بمرح أنّه توقع منّي الظهور بقرون على رأسي كالشيطان! في المقابل، كانت لديّ تحفظاتي الخاصّة حول هذا التجمّع من الباحثين عن متعة الإثرياء الذين دفع كلّ منهم مبلغ 18000 دولارا لمدة تزيد قليلا عن أسبوعين على ظهر السفينة المتنقلة. كان بين الركّاب العديد من المديرين التنفيذيين من شركة درِكسِل بورنهَم الإستثمارية المشهورة في وول ستريت. اشتهرت هذه الشركة بمغامراتها في شراء السندات غير المرغوب فيها في الثمانينات. كما كان بين الركاب إثنان من أباطرة العقارات في مدينة نو يورك، اللذان اعطياني جرعة من الترامپية قبل ترامپ، وأنّني وجدت تلك الجرعة الصغيرة غير قابلة للهضم.

تلمّس ڤيتنام في حالة السلام

ذهبت مرّة أخرى الى هَنوي في عام 1999، وكانت هِليل برفقتي، للتدريس في برنامج مؤسسة فورد، الذي كان من المُفترض أن يرفع الدبلوماسيين الشباب الى السرعة بصدد التطوّرات الدولية، لمدة اربع ساعات يوميّا على مدار الأسبوع. كان جدول التدريس هذا صعبا، وأكثر من ذلك لأنّ القدرات اللغوية للطلبة كانت غير متساوية. شاركت في تدريس مقرّر حول المؤسسات العالمية بالإشتراك مع پَگي كارنز، وهي استاذة العلاقات الدولية المُطيعة الى حدّ ما من جامعة دايتُن، والتي اعدّت محاضراتها اليومية بضمير فائق. كانت مصمّمة على تعليم الطلبة أكثر ممّا كانوا قادرين على التعلم خلال الوقت المخصّص لنا، بغض النظر عن مهاراتهم اللغوية المحدودة وخلفياتهم الموضوعية الضعيفة. تمّ تلخيص عروضنا باللغة الإنگليزية بواسطة مترجم فوري. الى أيّ مدى يمكننا أن نتخيّل فقط، وإذا علمنا، فمن المحتمل أن نبكي.

وجدنا أنّ الطلاب كانوا ودودين وكان الكثير منهم حريصين على التعلم قدر استطاعتهم. رصدت ثلاث مفآجئات لأنّني تعرّفت عليها بشكل جيّد. أولا، بدا المشاركون مهتمّين بالبوذية أكثر من أهتمامهم بالماركِسية اللينينية، حتى عندما تمّ توجيهها اليهم من خلال الحياة اليومية، والتفكير في الذاكرة التي لا تزال نابضة بالحياة لبطلهم القومي هو چي مِنّه. تمّت دعوتنا لتناول وجبات الطعام في المعابد البوذية واعطينا بعض الأدبيات البوذية لغرض الإطلاع عليها.

ثانيا، بعد الدرس الأخير، قام هؤلاء الدبلوماسيون الشباب بترتيب أمسية كاريوكي، والتي تبيّن أنّها طريقة ناجحة للغاية لإزالة حواجز الطالب/المعلم. لقد منحتني الشجاعة لإظهار صوتي الغنائي المثير للشفقة. في كلّ خبرتي في التدريس في الغرب «الحرّ» لم أختبر أيّة خاتمة ممتعة مماثلة لتلك الدورة التدريبية.

ثالثا، فوجئت بأنّ بعض الدبلوماسيين الأكبر سنّا، الذين شاركوا ذكرياتهم السعيدة عن تجاربهم الأكاديمية السابقة في موسكو، والتي تضمّنت انواعا مختلفة من العلاقات الرومانسية. أظهروا مواقف حنين وامتنان اتجاه الإتحاد

السـوڤيتي لدراسـتهم هناك. كما كانوا يميلون الى تقدير الدعم السـوڤيتي لنضال ڤيتنام الوطني طوال الحرب الطويلة مع الأمريكيين.

تـمّ تعزيـز هـذا التفضيل للإتحاد السـوڤيتي على الصيـن من خلال اجتماع عقدنـاه خـلال رحلـة إعادة السـجناء الى الوطن مع زميل مقرّب سـايق لهو چي مِنّه خلال فترة نفيه في الصين. اصبح هذا الشخص وهو دبلوماسي حكيم فيما بعد وزير خارجية ڤيتنام. قال إنّ ماو نفسـه قد عامل هو بطريقة غير لائقة وغير محترمـة، باعتبـاره أدنـى منزلة من الناحية الثقافية. لقد شـعر أنّ مثل هذه الإهانة الدونية للزعيم الڤيتنامي المبجّل كانت تعبيرا عن معاملة الصين التاريخية لڤيتنام كدولة تابعة بسبب الولاء للصين. كان أحد التعبيرات عن هذا التوتر هو الشعور السـائد بيـن الڤيتناميـين بالغضـب من الصينييـن أنّهم قد أطالـوا معاناتهم خلال حرب ڤيتنام من خلال تثبيط هَنوي عن السعي لحلّ دبلوماسي. أثارهذا غضب القـادة الڤيتناميـين، الذيـن فسّـروا الضغـط الصيني على أنّه رغبـة في أن يواصل الڤيتناميـون النضـال الثـوري ضـدّ الولايات المتحدة بتكلفة باهضـة لڤيتنام بينما يشغلون واشنطن ويتركون الصين وشأنها.

تعقيبا على ذلك، تذكّرت أنّ الأقسام الأولى من أوراق الپنتگون قد ألغت تماما الهوية الڤيتنامية للقوات المقاتلة والمشاركة، واصفة قوّات ڤيتنام الشمالية بأنّها «زمرة الشيوعيين الصينيين» Chicoms. وهذا التفسير الجيوسياسي يعني من وجهة النظر الأمريكية، أنّ العدو في حرب ڤيتنام كانت الصين، وليست الحركة الوطنيـة الڤيتناميـة، الأمـر الذي كان مضللا الى اقصى حدّ. يسـاعدنا هذا الخطأ الأيديولوجـي فـي فهـم الواقـع على فهم سـبب عـدم وجود تأثيـر تقريبا للتفوّق العسـكري الأمريكي، الذي دُفع به الى سـاحات القتال في ڤيتنام، على النتيجة السياسـية للنضـال، الـذي كان دائمـا مسـألة تتعلق بتقرير المصيـر الڤيتنامي، مع تأثيـر طفيـف وغيـر مؤكّـد على الصين. إنّ حقيقة أنّ الصيـن وڤيتنام قد انخرطتا سويّة في حرب دموية قصيرة مع بعضهما البعض، حول بعض القضايا المعقدة والمثيرة للجدل على المحكّ، بعد فترة وجيزة من الإنسـحاب الأمريكي، تظهر الـى أيّ مـدى كان المنطـق الأمريكي الجيوسياسـي الأصلـي للتدخّل في ڤيتنام بعيدا عن الواقع.

برزت بعد بضع سنوات ملاحظة أخرى عن العلاقة الصينية الڤيتنامية، عندما كنت في بِكين كضيف على الحكومة، التي تسعى الى فهم كيف ينظر الصينيون الى تجربتهم في ڤيتنام. جمع مضيّفيّ ما يقرب من 50 خبيرا صينيا في شؤون ڤيتنام في قاعة ودعوني لطرح الأسئلة عليهم. قدّمت المناقشة بوصف نشاطي المناهض للحرب ثمّ طلبت من المجتمعين المتخصّصين تفسيرهم لحرب ڤيتنام. وصف العديد من «خبراء ڤيتنام» هؤلاء بإسهاب وجهات نظرهم، بأنّ ڤيتنام كانت حليفا ناكرا للجميل، مؤكّدين أنّ الصين قد سلمت كمّيات هائلة من الإمدادات خلال مجمل الحرب، بما في ذلك المعدّات العسكرية، دون تلقي أيّ تقدير من القيادة في ڤيتنام. كما قيل أنّ الصين قدّمت تلك المعونة في فترة عانى فيها شعب الصين صعوبات اقتصادية شديدة. وعلاوة على ذلك، فإنّ مثل تلك المساعدة كانت تعرّض الصينيين لخطر كبير جرّاء القصف الجوي الأمريكي المتكرّر لخط السكك الحديدية الوحيد بين البلدين.

إستمتعت أنا وهِليل بوقتنا في هَنوي عام 1999. مكثنا في نادي هَنوي، وهو مكان استراحة للمغتربين ويتوفر فيه العديد من المطاعم الممتازة. إشترينا دراجتين هوائيتين بسيطتين للتجوّل في المدينة، وتعلمنا كيفية التنقل سيرا على الأقدام أو بالدراجات وتحاشي المخاطر الخاصّة من سيل الدرجات الهوائية والدراجات النارية التي تملأ الطرقات وتشكّل حركة المرور في المدينة. كان لدينا معلم لغة جذّاب حاول عدة مرّات في الأسبوع أن يعلمنا اللغة الڤيتنامية الإبتدائية، والتي تبيّن على الرغم من بذل قصارى جهده، أن تكون مهمّة غير مجدية. وجدت صعوبة حتى في التمييز بين الإختلافات اللونية للكلمات، التي يتمّ تهجئتها بنفس لطريقة، ولكن لها معانيَ مختلفة الى حدّ كبير. كان معلمنا صبورا للغاية، وبقي معنا لفترة طويلة بعد فترة التدريس معرِبا عن تصميمه على بذل كلّ ما في وسعه لجعلنا نتعلم اللغة الڤيتنامية. في نهاية وقتنا في هَنوي، قمنا بدعوته للإنضمام الينا في أحد المطاعم القريبة المُفضَلة. إكتشفنا أنّه على الرغم من كونه خريجا جامعيّا، لم يسبق له أن تناول وجبة في مطعم. لقد فتح ذلك لنا نافذة صغيرة على فجوات الدخل والفقر في البلاد.

بعد ثلاثة أشهر أو نحو ذلك من التدريس والإقامة في هَنوي، كان من

المُقرر أن نلقي بعض المحاضرات في مدينة هو چي مِنّه. كان هذا أول تعرّض حقيقي لي للجنوب، حيث كانت رحلة پرِنستُن بالسفينة أقصر من أن تُحسب. وصلنا مصابين بالتسمّم الغذائي في يوم حار شديد الرطوبة، وكانت حال هِليل أسوأ من حالي إذ ما زالت تعاني من الحمّى والغثيان. لقد حافظت بحماقة على موعد للعبة التنس مع بعض الطلبة، الذين واجهوا صعوبة في اتخاذ الترتيبات اللازمة للملعب. لم تكن خطوة حكيمة من جانبي، لكنّني نجوت. على الرغم من كوننا مرضى فقد تمكّنا من فهم الأجواء المتناقضة بين هَنوي ومدينة هو چي مِنّه، التي لا تزال قادرة على التمسّك الى حدّ ما بماضيها الإستعماري الفرنسي في سايگون، وكانت ذات تفكير تجاري بحت بعكس هَنوي ذات التوجّه الحكومي. ومن المفارقات أنّه ينبغي تسمية آخر موقع لمركز ما بعد الإستعمار الفرنسي على إسم الزعيم الأسطوري للحزب الشيوعي الڤيتنامي، بينما احتفظت المدينة الشمالية حيث أقام هو چي مِنّه باسمها التقليدي. على الرغم من أنّ مدينة هو چي مِنّه لم تعد قادرة على دعم الإدّعاء الإستعماري بأنّها، «پاريس آسيا»، إلا أنّها كانت لا تزال متألقة بشوارعها الواسعة، التي تصطفّ الأشجار على جانبيها، لأولئك الذين يميلون الى الإحتفاظ بذكريات إمبراطورية عن أمجاد فرنسا الغابرة.

مغادرة ڤيتنام لآخر مرّة

أدركت عندما دخلت صالة المغادرة أنّه من غير المحتمل أن أعود في سنّي الى ڤيتنام مرّة أخرى. لقد وفّرت لي الزيارة الأخيرة الفرصة لإدراك مقدار ما اكتسبته خلال نصف قرن من الإتصال ووفّرت لي تجربة تعليمية، خاصّة فيما يتعلق بالمحاولة الأمريكية المضللة لمنع التحرير الوطني للبلاد، ممّا تسبّب في ضرر لا يُقاس، وإنّه لحسن حظّ كافة الأطراف، فشلت تلك المحاولة لعكس مسار تدفّق التاريخ. لقد ساعدني ذلك على أن أصبح ما كان من المفترض أن أكونه سياسيّا. ويرجع الفضل في ذلك بشكل أساسي الى شعب ڤيتنام ونضاله وصداقته وإلهامه، حتى الإنتصار في حرب قاسية طويلة ألحقت أيضا ضررا دائما برفاهية الأمريكيين.

لـم تتحمّـل الولايـات المتحـدة بشـكل ملحوظ المسـؤولية عـن الأضرار المسـتمرّة التـي سـبّبتها الحـرب. وتشـمل هـذه التشـوّهات الخلقيـة المسـتمرّة المرتبطـة بالإسـتخدام واسـع النطـاق للعامـل البرتقالـي Agent Orange لتدميـر النباتات الطويلة لمواجهة الكمائن الڤيتنامية. يستمرّ هذا المُبيد الكيميائي الخطير المخـزون والمتجمّـع بكميات كبيرة فـي التربة في تلويث المياه الجوفية والتربة ذاتها والنباتات التي تنمو فيها.

على المسـتوى الشـخصي الأعمق، عبّر اعتناقي الطويل للتجربة الڤيتنامية عن عزمي الخاصّ على أن لا أفسَد بإغراء السلطة والثروة. ومع ذلك لم انفصل عن بيئتي الإجتماعية في هذه العملية. ما زلت أحاول أن أجد نقطة التوازن في المجال العام، التي كنت أبحث عنها عندما كنت طفلا ولم أجدها أبدا، فيما يتعلق بعائلـة أمّـي الغنيّـة والماديّـة. لأنّ هذا البحث ينطوي علـى الجمع بين الأهداف المتناقضة، فإنّ نقاط التوازن عند تحقيقها تكون غير مستقرة ومؤقتة، ممّا يؤدي الى دورات من خيبة الأمل وإعادة تشكيل واستئناف البحث الذي يعكس الآفاق المتغيّـرة للخـوف والأمـل. بعد الحرب الأمريكية في ڤيتنام، كنت متفائلا بشـأن مسـتقبل كلتي الدولتين، لكنّني الآن في خضمّ ترامپ والترامپيين، أخشـى على بلدي الأم وبشكل عام بشأن احتمالات بقاء الإنسان.

تراجعـت مكانتـي العامـة بعد نهاية حـرب ڤيتنام، التي ارتفعت خلالها أكثر ممّـا كنـت أقـدّر فـي ذلك الوقـت. ربّما كانت نقطة نهاية تلك الشـهرة المرحلية هـي منتصـف السـبعينات عندمـا قامت مجلة تايم بعمل تقريـر عن لمحات أهم خمسين شخصية في أمريكا. نشرت مجلة The Village Voice قصة أولئك الذين تمّ تمييزهم في المرحلة النهائية، وذكرتني من بين أولئك الذين يستحقون الذكر. إذا تقرّر إجراء مثل هذا الإستطلاع من قبل مجلة وطنية رائدة في عام 2020، فمن غير المتصوّر أنّني سأكون من بين تلك النخبة، ومن غير المتصوّر أنّني استحقّ حتـى اجـراء مقابلـة، ناهيـك عن البقاء علـى قيد الحياة في عمليـة التدقيق حتى آخر العملية. بدأت البوصلة السياسيّة تتجه نحو اليمين، والتشهير الصهيوني أثّر على سمعتي.

الفصل الثالث عشر

إيران تنفجِر

لماذا إيران؟

منـذ تواصلـي الأول بصفتي عضوا ناشـئا فـي المجتمع الأكاديمي، طوّرت اهتمامـي بقضايـا تدخّل الولايات المتحدة فـي المجتمعات الأجنبية، كجزء من سعيي المستمر للحصول على هوية ناشط علمي/مواطن. يعود هذا الإهتمام الى تقرير بحث قد كتبته بتوجيه من أستاذي مايرز مكدوگل عندما كنت طالبا في كلية الحقـوق بجامعـة ييـل. قد يكون موضوع التدخّل قد جذبني لأنّه أصبح بوضوح وسـيلة لتحـدي الإمتداد العالمي للسياسـة الخارجية للولايـات المتحدة، وعزّز كفاحي الطويل لإثبات ذلك من الناحية العلمية. كما عكست رفضي الأخلاقي كشاب لتوجّه والدي القومي والوطني التقليدي، والذي انعكس في تقرّبي المبكّر للجانب الأضعف في أيّة منافسة سواء في الرياضة أو السياسة أو حتى العلاقات الإجتماعية. كانت سـمة الشـخصية هذه واضحة بشـكل خاصّ في علاقتي مع ولدي دِمتري ونوح. ربّما بسـبب خوفي الشـديد من التدخّل في حياتهما، قمت بحمايتهمـا مـن التعـرّض للقيـم والإلتزامـات، التي أؤمن بها وربّمـا كانت لهذه الحماية آثار ايجابية على الطريقة، التي اختارا أن يعيشا حياتهما وفقها.

وكما هو الحال مع تصميم غاندي للوقوف مع «آخر رجل»، فإنّني اخترت غريزيّا المُسـتضعَف، ليس بشـكل دوگمائي ولكن بروح تأكيد راوِلز Rawlsian Emphasis على الإنصاف، أو في محاولة لفهم كيف يتصوّر شـخص ما ويختبر الواقع. وكذلك ردود الفعل الغريزية على القسوة والمعاناة، التي يمكن تجنّبهما

بما في ذلك ما يتعلق بالحيوانات، باستثناء الحشرات اللاذعة واحيانا النباتات.

تمّت الإطاحة بحكومة مصدّق المُنتخَبة عن طريق إنقلاب أعاد نظام أسرة پهلوي للسلطة في عام 1953. حتى في الخمسينات من القرن الماضي، كان يُفتَرَض على نطاق واسع أنّ وكالة المخابرات المركزية قد لعبت دورا أساسيّا في ترتيب استعادة الشاه لعرشه الطاووسي. ولكن فقط بعد عدة عقود ظهر هذا التورّط الأمريكي الشائن للإطاحة بزعيم مُنتخَب ديمقراطيا بشكل موثّق بالكامل في كتاب بعنوان «كلّ رجال الشاه: الإنقلاب الأمريكي وجذور الإرهاب في الشرق الأوسط» للصحفي المحترم ستيڤِن كِنزَر. جاء هذا الشكل من الدبلوماسية القسرية والسرية للتدخّل ملفوفا في تبريرات الحرب الباردة. لم يتمّ الإعتراف كثيرا بالدوافع الرأسمالية القوية، التي كانت سمة مميّزة للسياسة الخارجية الأمريكية بقدر ما كان التنافس مع الإتحاد السوڤيتي أو كره الوطنية اليسارية. كان الأساس المنطقي الرسمي لتدخّل الولايات المتحدة هو منع، وإذا لزم الأمر، عكس التحرّكات نحو تبني نهج وطني، ناهيك عن اعتماد الماركسية في مسألة التنمية الإقتصادية، أو نحو تبني موسكو كمصدر بديل لدعم السياسة العامة في أيّ من المجالات الإقتصادية أو المجالات الأمنية.

بعد عام من الإنقلاب، الذي تمّ التخطيط له ونُفّذ في طهران، أطيح بحكومة آربينز في گواتيمالا سرّا من خلال التدخّل الأمريكي أيضا. في نفس الفترة كان السوڤيت من جانبهم ينفّذون تدخّلات وحشية، إذ قمعوا بشدة الإنتفاضة المجريّة في عام 1956، وتلتها مبادرات الهيمنة في المانيا الشرقية وپولندا وأماكن أخرى في أوروپا الشرقية. بقدر ما عارضت بقوّة النمط المتماثل للتدخّلات، التي تنفّذها هاتان القوتان العظيمتان المتنافستان، فإنّ هويتي الأمريكية لم تلوّن هذه التقييمات النقدية للسلوك الدولي، بل عكست وعيي السياسي الموجّه نحو القانون. ما زلت مقتنعا بأنّ الدول القوية ستستفيد بشكل عملي من خلال الإلتزام بانضباط القانون الدولي وميثاق الأمم المتحدة، عندما يتعلق الأمر باستخدام القوّة الدولية. في سياقات الحرب/السلام، أفضّل نوعا من الشرعية الإنسانية، التي تصدمني على أنّها تستجيب للأخطار الكامنة في خوض حرب عالمية ثالثة بأسلحة نووية، فضلا عن الإحساس بأنّ الدول الأصغر والأضعف

وشعوبها يحقّ لها التمتع بحكم الذات- العزم والديمقراطية والحقوق السيادية. إنّ معيار تقرير المصير يقوم على الحقوق الأساسية للناس في تقرير مستقبلهم، بشرط أن يتبنّى شكل حكم يشمل الإختلافات العرقية والدينية ويراعي حقوق الإنسان. تمّ تفسير تقرير المصير خلال 75 سنة الماضية على أنّه ينطوي على رفض الإستعمار وما تلاه من الجغرافية السياسية المُهيمِنة ويمثل مسار تدفّق التاريخ. ومع ذلك، تمكّنت إسرائيل بمساعدة ظروف تاريخية خاصّة، من تحدّي هذا التدفّق ونجحت في إقامة دولة استعمارية في منتصف القرن العشرين على أساس المبادئ الإثنية الإقصائية، التي جرّدت غالبية السكان العرب المقيمين من حقوقهم وشرّدتهم بشكل دائم.

أدّت الإطاحة بحكومة مصدّق الى جانب التدخّل السوڤيتي في المجر الى حدوث انشقاق قبل حرب ڤيتنام في تفكيري حول النظام العالمي وتسيير السياسة الخارجية. أوضحت هذه التدخّلات فرض قيود خارجية على وضع الإختيارات الديمقراطية على الدول، التي تعتبر ذات أهميّة ستراتيجية لأيّ من الجانبين في الحرب الباردة.

في ذلك الوقت تقريبا في پِرنستُن، دُعيت للتعليق على حديث علني من قبَل المؤرّخ اللِبرالي الشهير آرثر شلِزنجَر الأبن، الذي وضع ودافع عن استبعاد كوبا تحت حكم كاسترو من منظمة الدول الأمريكية على أساس عدم التوافق الأيديولوجي. زعمت الحجّة الأمريكية الخادعة أنّ قيم الماركسية/اللينينية غير متوافقة الى حدّ كبير مع المُثل العليا لنصف الكرة الغربي، بحيث لا ينبغي تطبيق المعيار الدولي لعدم التدخّل. إعترض تعليقي على مثل هذا التبرير الأيديولوجي للتدخّل في الحقوق السيادية وتقرير المصير لدولة مجاورة صغيرة. أشرت الى أنّ حكومة الولايات المتحدة كانت تعيش في السابق بشكل مريح مع ما كان من الأنسب اعتباره حكومة غير متوافقة أيديولوجيا متمثّلة بنظام العصابات الكوبي المتورّط بقوّة في الجريمة المنظمة. لم يعترض أحد على دكتاتورية پاتِستا الفاسدة المُفسدة، التي حكمت كوبا قبل كاسترو وگِڤارا ورفاقهما، الذين نجحوا في تنظيم الثورة الكوبية وقادوها نحو الانتصار. أتذكر ذلك المساء في پِرنستُن لأنّه جسّد بالنسبة لي النظرة العالمية غير الملائمة لمفكّر لِبرالي رائد

فـي الحـرب البـاردة. لقد أقمت اعتراضاتي ضدّ شـلِزنجَر على أسـاس المبادئ المجرّدة للحقـوق السـياديّة. كنـت مـا زلت افتقـر الى الثقة بالنفـس للتعبير عن دعمـي لنـوع التنميـة الإشـتراكية، التي بـدأت الثورة الكوبية تنفيذها بشـكل مثير للإعجـاب، بالرغـم مـن العقوبات الإقتصادية والعداء لتطوّرها الداخلي من قبل العملاق المجاور شمالا. بعبارة أخرى، ناقشت شلِزنجَر في إطاره اللِبرالي بدلا مـن المزيـد مـن الجـدل حول إنجازات كوبا التقدّمية. بقيـت متردّدا في الوقوف بعيـدا عـن الحشـد، وربّمـا فـي بعض المناسـبات ما زلت أفعل ذلـك. وكما هو الحـال، فأنـا إسـتفزازيّ بمـا يكفـي لإزعاج أثقل اللِبراليـين دون أن أكون تقدّميا بشكل علني بما يكفي لأكون راديكاليا، وبالتالي أتخلى أحيانا عن نفسي سياسيّا في المناطق المحظورة.

في الواقع وكما هو الحال في العلاقات الدولية بشكل عام، كانت المصالح السـتراتيجية والإصطفافات الأيديولوجية للولايات المتحدة، لها الأسـبقيّة على احترام الحقوق السيادية للدول الأخرى واحترام حقّ تقرير المصير. كانت إيران ذات أهميّـة خاصّـة بالنسـبة للغرب، ليس فقط لأسـباب الحـرب الباردة، ولكن لأنّها كانت مصدرا رئيسيا للنفط. كما أكّد التعطش الذي لا ينضب للطموحات الرأسمالية التي تغذّي النفط على الأولويات الستراتيجية. يبدو أنّ عداء الحرب الباردة لمصدّق تجاوز عتبة التسامح الجيوسياسي بسبب وطنيته الإقتصادية أكثر من قصة الخلاف الرئيسية، التي برّرت الإنقلاب وركّزت على تحركاته المزعومة نحو التقارب مع موسـكو. كانت أسـوأ جريمة ارتكبها مصدّق هي تأميم تكتل النفط الأنگلو- إيراني. بعد اسـتعادة الشـاه للسـلطة في عام 1953، عادت صناعة النفـط علـى الفـور الى الملكيـة الخاصّة وإدارتها، ولكـن كان هناك أيضا تحوّل جذري في النمط الوطني لملكية الشركات كي يوازي المشهد السياسي المتغيّر. تـمّ وضـع صناعـة النفـط الإيرانية بعد الإنقلاب في الغالب تحـت ملكية وإدارة كبار منتجي النفط الأمريكيين، بينما اكتفى البريطانيون بالرضوخ لهذه الخسارة.

بالصدفـة المحـدّدة سـلفا، دُعيـت في عام 1958 بشـكل مُفاجئ للمسـاهمة في بحث حول هذا الموضوع عن تدخّل الفاعلين الجيوسياسـيين في الشـؤون الداخلية للدول ذات السـيادة، في مؤتمر حول القانون الدولي المقارن عُقِد في

برُكسِل بمناسبة المعرض الدولي البلجيكي. قبلت دون تردّد وأعددت بحثا حاولت فيه إثبات فرضية الأنماط المتماثلة للتدخّل من قبَل الولايات المتحدة والإتحاد السوڤيتي، اللتين كانتا تنتهكان القانون الدولي وتقوّضان بشكل خطير الحقوق السيادية للدول الأضعف على حساب مواطنيها، في انتهاك لأبسط الفرضيّات المعيارية للنظام العالمي القائم على المركزية والمساواة بين الدول ذات السيادة والمصالح الوطنية الحيوية للدول المكوّنة لها.

اليسار الطلابي الإيراني في أمريكا

قبل اندلاع الحركة الثوريّة في إيران، كان هناك دليل واسع النطاق على وجود مشاعر قويّة معادية للشاه بين الطلبة الإيرانيين في العديد من الجامعات الأمريكية، والتي فهمتها على أنّها مزيج من الوطنية الديمقراطية على غرار افكار مصدّق والراديكالية اليسارية المناهضة للإستبداد والمتأثرة بشدة بتقاليد الفكر الماركسي. اصبحت مشاركا بشكل تدريجي كمؤيد لهذا النشاط من منظور حقوق الإنسان والديمقراطية. مرّة أخرى، كما هو الحال مع ڤيتنام، كانت التدخّلات الإمپريالية للسياسة الخارجية الأمريكية هي التي قادتني على مراحل نحو الإلتزام السياسي. قام الشاه بما يُسمّى «الثورة البيضاء» المصمّمة لجعل إيران حديثة على عجل، بإرسال أعداد كبيرة من الطلاب الإيرانيين للدراسة في الخارج في الجامعات الأمريكية بهدف توفير العمالة الماهرة اللازمة لإدارة البُنية التحتيّة التكنوقراطية المُتصوّرَة للبلد. تمّ تصميم التعليم الخارجي عالي الجودة من قِبَل حكومة الشاه كوسيلة لتسريع انتقال إيران الى الحداثة. تركّزت مجموعات كبيرة من الطلبة الإيرانيين في العديد من الجامعات الأمريكية المشهورة ببرامجها في الهندسة والزراعة. في البداية، بدا هؤلاء الطلبة النشطاء جميعا تقريبا منتمين الى اقتناع يساري علماني جدّا مع القليل من الدلالة على الصلات المرتبطة بالأفكارالدينية. كان من أكثر اصواتهم حماسا وبروزا صوت رضا ابراهيمي، الشاعر الدرامي والمنظّر اليساري المثير للجدل وذي التوجّه التروتِسكي.

كان هؤلاء الطلبة خائفين بشكل مفهوم من ساڤاك، جهاز المخابرات الإيراني الوحشي، الذي كان يُفترَض فيه أنّه يراقب أيّة أنشطة سياسية مناهضة

للشـاه خلال دراسـتهم في الخارج، مع التركيز على اتخاذ إجراءات عقابية عند عودتهم الى الوطن. على الرغم من ذلك، انتقد الكثيرون قيادة الشاه بتحدّ وحِدّة في المناسـبات العامة في الأحرام الجامعية. كان هؤلاء الشـباب الإيرانيون في الغالـب مـن خلفيـات حضريّة من الطبقة الوسـطى، ولـم يكونـوا عموما متدينين ظاهريا.

كان الحدث المحوري في إيران هو نفي رجل دين كان مجهولا الى حدّ ما، واسمه أية الله روح الله الخُمَيني، ردّا على دوره القيادي في دعم الإحتجاجات المتزايدة ضدّ التصرفات العنيفة المناهضة لرجال الدين من قِبَل الشـاه وكذلك ضـدّ اصحـاب الإمتيـازات، وضـدّ تواجد القوات العسـكرية الأمريكية بموجب معاهدة عام 1962. نُقِل عن الخُمَيني على نطاق واسـع في ذلك الوقت قوله إنّه إذا دهس إيراني كلبا، فمن المحتمل أن يُعامَل بقسوة بموجب القانون الإيراني، أكثـر مـن أيّ جنـدي أمريكي قتل مواطنا إيرانيـا عن طريق القيادة المتهوّرة. كان هذا التهكّم رغم كونه استفزازيا، دقيقا. كان يوجد بموجب معاهدة وضع القوّات بيـن البلديـن، حوالـي 45 ألف جنديا أمريكيّا فـي إيران. أعفيَ هؤلاء الجنود من المساءلة بموجب القانون الجنائي الإيراني. في مرحلة ما من فترة الإحتجاج هذه، التي لعب فيها الخُمَيني دورا بارزا، جمع الشـاه جميع رجال الدين المسـلمين البارزيـن معـا، وطالبهـم بالتعهد للولاء له من خلال تقبيل يده، التي وضع حول أحـد اصابعهـا خاتم الشاهنشـاه. خضـع كافة زعماء الديـن المجتمعين لمطلب الشاه، باستثناء الخُمَيني. وردّا على ذلك صدرت الأوامر عام 1965 بنفي الخُمَيني أوّلا الـى تركيـا لمـدة عـام، ثـمّ الى النجف، وهي مدينة دينيـة في العراق، حيث كان من المتوقع أن يتلاشـى ولا يُسـمع عنه مرّة أخرى. وكما عرفنا في الغرب، كانت هذه المعاملة للخُمَيني واحدة من أهمّ أخطاء الشاه التكتيكية عندما يتعلق الأمر بالتعامل مع المشاعر الدينية للشعب الإيراني، فضلا عن تنشيط المعارضة الشديدة من قبَل القادة الدينيين في إيران لحكمه. ليس من المعروف على نطاق واسـع أنّ للحركـة ضدّ الشـاه جـذور عميقة في معارضة والـده العلماني الميال للتوجّهات الغربية رضا شـاه (1925– 1941)، وفي الحركة الديمقراطية الإيرانية السـابقة، التي سـيطرت على البلاد لفترة وجيزة ما بين عامي 1904– 1905. كان

الإستياء المتزايد ضدّ الشاه داخل المؤسسة الدينية القوية على مرّ السنين، هي المكان المناسب لإنتقال الخُمَيني الدراماتيكي من الغموض الديني الى الهيمنة السياسية. لا تزال الظاهرة الخُمَينيّة يُساء فهمها الى حدّ كبير في الغرب، كما صوّرها الكاتب باقر معين ببراعة في كتابه **الخُمَيني: سيرة آية الله**.

صادف في منتصف الستينات أن اطلعت على بعض الكتابات الرائعة لعلي شريعتي، الذي تمّ الترحيب به لاحقا باعتباره فيلسوف الثورة المستقبلية في إيران. من نواحيَ مختلفة، كانت افكار شريعتي تظهر التزامه بالقيم الإشتراكية مع التأكيد بقوّة على الخلفية الثقافية الإسلامية لإيران. ما جعل شريعتي مؤثرا بنّاء هو اعترافه بإمكانيات التعبئة القوية للإسلام مقارنة بأيديولوجية اليسار العلماني، التي كانت تقلق واشنطن. ساعدت عقلية الحرب الباردة السائدة في الولايات المتحدة في تفسير سبب انصدام الحكومة بالحركة الثوريّة عند ظهورها. في الواقع وبسبب العداء المناهض للشيوعية بين المتطرفين الإسلاميين بسبب الإلحاد ونظرتها المعادية للسوڤيَت، إفترضت الولايات المتحدة خطأً أنّ الدين الإسلامي حليف طبيعي في جهدها المهيمن لهزيمة التحركات السياسية في معسكر اليسار، واستخدمت دوافع مختلفة لتجنيد اتباع من صفوف الإيرانيين المتدينين جدّا والناشطين خارج إيران. ممّا لا شكّ فيه أنّ المهارة التكتيكية للخُمَيني أظهرت استعدادا للتحالف مع الدوائر السياسية العلمانية الغربية وحتى اليسارية منها، لتحقيق الهدف الأسمى المتمثل في تحرير إيران من سلالة پهلوي. لكنّ الخُمَيني لم يكن على وشك القفز من المقلاة الأمريكية الى المقلاة السوڤيتية. عندما سعى السفير السوڤيتي للتعبير عن استعداد موسكو للإرتباط بإيران، رفض الخُمَيني ذلك بشكل حاسم، لمخاوفه من تدخّل ثان مؤيد للشاه من قبَل الولايات المتحدة.

وبالتالي، ليس من المستغرب أن تتركّز المخاوف الأمريكية فيما يتعلق بإيران على التهديد المُفترض لحكم الشاه، الذي يشكله حزب توده. تمّ تصنيف توده في دوائر صنع السياسة الأمريكية على أنّه حزب شيوعي خطير موجّه من قبَل موسكو، ونُظِر اليه على أنّه حصان طروادة السوڤيتي. لقد تعززت قدرته كقوّة سياسية من خلال أنّه استمدّ جزء من عضويته بين العاملين في حقول

النفط الإيرانية. كان صحيحا بالتأكيد أنّ حزب توده عكس ميولا سياسية معارضة قوية لنفوذ الولايات المتحدة وشكل الشاه الإمبراطوري للحكم. ولكن ما لم يكن صحيحا هو أنّ الكراهية الدينية لليسار العلماني في إيران ستضمن التوافق الإسلامي مع الغرب والولايات المتحدة. أدّى هذا الإستنتاج الخاطئ الى عواقب جسيمة ساهمت في هزيمة ستراتيجية كُبرى للولايات المتحدة في إيران.

لقد اصبحت في تلك السنوات صديقا حميما لمنصور فرهَنگ، أستاذ العلاقات الدولية الناطق والملتزم بالسياسة في حرم جامعة كالِفورنيا في سكرِمانتو. وهو من أصل إيراني وكان يحمل آراء مؤيدة للديمقراطية كانت متطرّفة ضدّ الشاه، على الرغم من أنّه ليس ماركسيا ولا إسلاميّا. شارك منصور وتأثر بأفكار علي شريعتي ونظر بعين الرضا في وقت مبكّر الى الحركة الطلابية المناهضة للشاه، وبرّر التضامن الفكري مع مجموعات المعارضة الدينية، على الرغم من أنّه كان يفضّل التحديث العلماني اللِبرالي لإيران ما بعد الشاه. على الرغم من السنوات العديدة من الإقامة والعمل الأكاديمي الناجح في أمريكا، إلا أنّ منصور لم يفقد ارتباطه الأساسي بإيران، وسرعان ما اظهر رغبته في إدارة ظهره لتجربته الأمريكية، بما في ذلك التخلي عن الجنسية الأمريكية وانتمائه لجامعة ولاية كالِفورنيا في سكرِمانتو. عندما ظهرت الإضطرابات بشكل غير متوقع وفجأة، بدا أنّ أحلام منصور التي كانت غير قابلة للتصديق قد تحققت. كانت رؤيته الثورية تحرّريّة لخلق مجتمع ديمقراطي تعددي يوفّر حقوق الإنسان للجميع، بما في ذلك التأكيد الطوعي للقيادة الدينية في الحركة الشعبية ضدّ الشاه، والتي اعتبرها الوسيلة الواعدة للتغيير التحوّلي، بالنظر الى مواقف المجتمع الإيراني.

بعد دعمه القويّ للثورة الإيرانية، بما ذلك القبول التكتيكي لطابعها الديني، كان منصور من أوائل المنفيين الغربيين البارزين من إيران الشاه، الذين أصيبوا بخيبة أمل من الإتجاه القمعي الذي اتخذته القيادة الجديدة. بل سرعان ما حوّل خيبة الأمل الى افعال. ولكن خلال الأشهر التي سبقت حدوث خيبة الأمل هذه، لعب منصور دورا مهمّا في المرحلة الأولى في إيران ما بعد الشاه. وبسبب صداقتنا، بقيت على اتصال وثيق به، ومن خلاله بقيت عل اتصال وثيق

بالتطوّرات المضطربة للفترة 1978– 1980. سأعود الى خيبة أمل منصور العميقة من التطوّرات في إيران لاحقا في سياق خيبة أمل علمانية أوسع اتجاه الثورة الإيرانية. بقدر ما استطعت تمييز منصور وغيره من اللِبراليين العلمانيين من إيران، الذين قدّموا دعما قويّا للثورة، أنّهم لم يرغبوا أبدا في تغيير الحركة السياسية، التي دفعت الشاه الى المنفى وأدّت الى سقوط سلالة پهلوي. لم تكن هناك مصلحة في إثارة ثورة مضادّة من النوع الذي انتج الإنقلاب المصري عام 2013، الذي أوصل نظام السيسي العسكري الى السلطة بدلا من محمد مُرسي، الزعيم المُنتخَب، الذي كان المرشّح الرئاسي لجماعة الأخوان المسلمين. في المقابل، أرادت المعارضة اللِبرالية للحكم الثيوقراطي الإيراني إصلاحات جذرية، بما في ذلك الحرية واحترام أنماط الحياة العلمانية في البلاد. على الرغم من أنّ هؤلاء العلمانيين كانوا في الغالب مناهضين للملكية، وعلى عكس مجموعات المنفى الإمپريالية، لم يكونوا يأملون في انقلاب آخر من شأنه أن يُعيد الشاه الى العرش للمرة الثانية.

في السنوات التي سبقت الثورة، تعرّفت أيضا على عبد الحسن بني صدر، الذي كان يعيش حياة منعزلة على ما يبدو في شقة صغيرة في پاريس. كان من السهل الوصول اليه، حيث أظهر إيمانا ذا رؤية مستقبليّة لإيران مسلمة متحرّرة من حكم الأسرة الپهلويّة ومن الرأسمالية الدولية. فاجأني بني صدر على أنّه متواضع وطموح في آن واحد، ولا يخفي أمله أن يكون أوّل رئيس لإيران ما بعد الشاه. كان يعمل على خطة مفصّلة لإعادة هيكلة الإقتصاد الإيراني ليعكس القيم الإسلامية. عندما التقينا لأوّل مرّة، وجدته حالما لطيفا في الأسلوب وغير سياسي بشكل غريب في طريقة وجوده في العالم بينما يعيش في المنفى على الرغم منه. لدهشتي، سرعان ما أدرك بني صدر حلمه العظيم بأن يُصبح أوّل رئيس للجمهورية الإسلامية الإيرانية. لكنّ هذا الصعود الإستثنائي سرعان ما اصبح كابوسا بالنسبة له. أجبِر على الفرار على يد الحرس الثوري المُتطرف في اعقاب ظروف استيلاء الطلاب الإيرانيين على السفارة الأمريكية في شهر تشرين الثاني من عام 1979.

تُعتبر قصة بني صدر أساسية لفهم الأفكار والشخصيات المتنافسة، التي

سعت للسيطرة على الثورة الإيرانية. تروي هذه القصة كيف تمكّن آية الله الخُميني بشكل غير متوقع من أن تكون له اليد العليا في تحديد وتشكيل الثورة الإيرانية، وإزالة اللِبراليين العلمانيين من مواقع النفوذ وتحقيق رؤيته الدينية الراسخة في إقامة جمهورية إسلامية بقيادة الزعيم الديني الأبرز. كما هو الحال في مصر، لم يكن اللِبراليون الإيرانيون يعرفون بلدهم، وبالتالي استهانوا وتفاجأوا عموما بالنداء الشعبي الحارّ والجذور العميقة لقيادة الخُميني. وعلى عكس مصر، كانت المؤسسة الدينية في إيران فعّالة في تنظيم عملية حكم نشطة في سعيها لتحقيق اهداف سياسية. تمّ ذلك في ظلّ ظروف أكثر صعوبة ممّا كانت عليه مصر بعد الربيع العربي. في حين تمّ الترحيب بالإنقلاب العسكري المضاد من قبَل معظم الجهات الفاعلة الحكوميّة الإقليمية الرئيسية في الشرق الأوسط والولايات المتحدة، بالمثل ولكن على العكس من ذلك، في إيران حيث جوبهت العملية الثورية بشكل غبر فعّال من قبَل هذه القوى السياسية نفسها، ممّا تسبّب في إثارة المصاعب والقلق بين صفوف الشعب الإيراني.

ما تعلمته من هؤلاء الناشطين واللاعبين السياسيين الإيرانيين، أوضح كيف تطوّر اهتمامي بالأحداث في إيران. كما أتاح لي الهياج الإيراني فرصة جديدة للتعبير عن معارضة التدخل الأمريكي في بلد بعيد. وقد تعزّزت هذه المعارضة من خلال وعيي المتزايد بقمع أجهزة الشاه العنيف. لقد كان تورّطا مثيرا للجدل منذ البداية، حتى أكثر من التوّرط في ڤيتنام، على الرغم من عدم وجود أيّ دور قتالي أمريكي في إيران.

من النظرية الى التطبيق: كيف حدث المستحيل

في وقت مبكّر من عام 1978، بدأت حركة إحتجاجية في إيران. بطريقة مشابهة الى حدّ ما لبداية الإنتفاضة الفلسطينية الأولى عام 1987 أو ثورة الياسمين في تونس أواخر عام 2010. بدأت بشرارة أوقدت شعلة غير متوقعة تماما. كانت الشرارة التي أطلقت الثورة الإيرانية حادثة وقعت في منطقة نائية من البلاد ولخّصت عنف نظام الشاه عندما واجه علامة لمعارضة شعبية، وفي ظروف غامضة كانت نقطة تحوّل وتحفيز لموجات المعارضة المتزايدة. لماذا تنتج مثل

هـذه الحـوادث فـي بعض الأحيان الزلازل السياسـية، هـو واحد من أعمق الغاز السـلوك البشـري الجماعي، حيث يحفّز الإضطرابات التي تأتي بشكل مفاجآت شبه كاملة ولا يمكن تفسيرها أو تبريرها بعقلانية بعد حدوثها، من قبَل الخبراء الذين «أظهروا» أنّ ما حدث أطلق العنان للإضطرابات الثورية الكامنة، والتي على الرغم من عدم توقعها، يمكن تفسيرها على أنّها أمر لا مفرّ منه. تمّ التغاضي عن الجـذور العميقـة بيـن العلمانيين ورجال الدين لمعارضة النظام الملكي البهلوي الذي احتضن الحداثة الغربية، لا سـيّما الراسـمالية الدولية على حسـاب القطاع الوطني الخاصّ، وما ينتج عنه من حالات الإغتراب Alienation.

فـي البدايـة، ظهـرت حادثـة المعارضة فـي إيران وكأنّها تموّج على سـطح عمليـة حكـم مسـتقرّة وإن كانـت إسـتبدادية. حيـن جـرى انتقاده بسـبب إنكاره لحقوق الإنسـان، ردّ الشـاه باقتضاب وبكلمات سـاخرة، «عندما يتصرّف شعب إيران مثل شعب السويد، فإنّهم يحصلون على الحقّ في التمتّع بحريّات مماثلة». ولكن عندما تزايدت المظاهرات أكثر من أيّ وقت مضى، تكرّرت على فترات 40 يوما، بدأت الحافلة الدينية للحركة المناهضة للشاه في الظهور بشكل متزايد لا لبـس فيـه. أصبـح مـن الواضح أنّ النظـام الملكي الإيرانـي كان يواجه تحدّيا خطيرا ومتصاعدا على الصعيد الوطني لسلطته في عام 1978 مع مرور الأشهر. تمّ تشغيل أشرطة كاسِت تحتوي على رسائل توجيهية ملهمة من آية الله الخُميني، المقيم في فرنسا حينه، في المساجد والمظاهرات في جميع أنحاء إيران. حشدت تلك الرسائل المعارضة ونصحت باللاعنف والوحدة، مع الإصرار على النضال الذي لا هوادة فيه حتى النصر الكامل. وبالتوازي مع ذلك، تمّ انتشار عنف أجهزة الدولة بحريّة أكبر لإضعاف الروح المعنوية للمعارضة، إنْ لم يكن سحقها.

يمكـن ملاحظـة اتجاهيـن فـي سياسـة المقاومـة المُبتكرة هـذه. قام بعض المتظاهريـن بوضـع الزهـور في براميل البنادق مناشـدين الجنـود للإنضمام الى نضالهم السلمي، بينما كان آخرون يهتفون «مطالبين القادة بأن يعطوهم السلاح». بعبـارة أخـرى، كانـت هناك توترات واضحة على مسـتوى التكتيكات، ويبدو أنّ إصـرار الخُمَينـي علـى اللاعنف وحده هو الذي ابقى الحركة موحّدة ومسـتعدة لتحمّل الخسائر دون ردّ. أوضحت الأحداث اللاحقة في إيران أنّ الخُمَيني لم

يكـن مـن اتبـاع طريقة غاندي. كان التـزام الخُمَيني باللاعنف عمليّا بحتا، ولكنه كان دليلا على ذكاء المزايا التكتيكية في إيران، والمتمثّلة في تجنّب الإشتباكات العنيفة مع القوّة النارية المتفوّقة للدولة الإيرانية، ومن خلال القيام بذلك، الحفاظ على مكانتها الأخلاقية العالية.

جاءت نقطة التحوّل في الصراع في شهر أيلول من عام 1978 عندما ردّت القوّات العسكرية الإيرانية عل المتظاهرين المحتشـدين في سـاحة ژُليه بطهران بعـد أن أغلِقتمخارجهـا، وأطلقـت نيـران الرشاشـات علـى المتظاهريـن العُزّل والمحاصرين، أسـفر الهجوم عن مقتل وإصابة العشـرات. الرّد الأمريكي، رغم كونـه مُخيفـا، لـم يكـن بعيـدا تماما عن طبيعتـه المتوقعة. ومع ذلـك، عندما تمّ نشـره، أصبـح اسـتفزازيّا للغايـة بالنسـبة للإيرانيين. أعلن جِمـي كارتر توقفا في المفاوضـات الجاريـة فـي كامـپ دَيڤِد بين وفدي إسـرائيل ومصـر، والتي تمّت الإشادة بها على نطاق واسع لتحقيق انفراج مؤقت من أجل السلام في العلاقات بين البلدين المتخاصمين سابقا. تمّ الإعلان عن هذا التوقف على وجه التحديد للسماح للرئيس كارتر بإجراء مكالمة هاتفية لتهنئة الشاه. حظيت تلك المكالمة بتغطية إعلامية كبيرة لأنّ كارتر أشاد باستجابة قوّات الشاه العنيفة للمظاهرات. كما أفيد على وجه الخصوص أنّ مستشار الرئيس لشؤون الأمن القومي، زبِگنيو برِجنسكي، قد أشاد بعنف قوات أمن الشاه، التي أظهرت أخيرا الصلابة اللازمة للتعامل بفعّالية مع المعارضة الشعبية المتزايدة. أزالت هذه الرسالة من واشنطن، ردّ على ما كان يعانيه المتعاطفون مع الحركة المناهضة للشـاه باعتبارها رسـالة فضيعة، أيّة شـكوك في صفوف الحركة الإيرانية بأنّ حكومة الولايات المتحدة تعـارض مـرّة أخـرى إضفاء الطابع الديمقراطي على التغيير السياسـي في إيران. اعاد هذا الموقف الى الأذهان الدور الأمريكي المُشين على نطاق واسع في عام 1953، والـذي سـاعد الإنقـلاب الموالي للشـاه للإطاحة بحكومـة وطنية مُنتخَبَة ومتفانية وشعبية.

بعـد ذلـك، أشـار الناشـطون الإيرانيون فـي إيران وعلى المستوى الدولي بسخريّة حادّة الى نخب كارتر، سيء السمعة بحلول العام الجديد، عندما حضر فـي عـام 1977 بصحبـة زوجتـه ضيفين على الشـاه في قصر نياڤـران. قال كارتر،

«إيران بسبب قيادتكم الحكيمة هي جزيرة استقرار في واحدة من أكثر مناطق العالم اضطرابا... تحيّة عظيمة لجلالتكم أيّها الملك... وللإحترام والإعجاب والمحبة التي يمنحها لكم شعبكم».

في الواقع، ساهمت مجريات التطوّرات في إيران في إضعاف رئاسة كارتر ثمّ سقوطها لاحقا. والقى المحافظون في أمريكا باللوم على اخطائه المزعومة في انهيار حكومة الشاه في إيران. من الإنصاف القول بأنّ القيادتين قد تأذتا بسبب خيانتهما لحقوق الإنسان. في الحالة الأمريكية، تناقض دعم قمع الشاه بشكل صارخ مع مطالبة كارتر بوضع حقوق الإنسان على رأس أجندة السياسة الأمريكية خلال مرحلة ما بعد ڤيتنام. والأكثر ضررا على مصداقية كارتر في الداخل هو عدم كفاءة واشنطن الضعيفة لإنقاذ حليف ستراتيجي في وقت الحاجة. كانت واحدة أخرى من تلك الحالات، التي أساءت فيها المستويات العليا للحكومة الأمريكية تقديراتها، على الرغم من الوجود المُكثّف لوكالة المخابرت المركزية في إيران وقدرتها للتلاعب بشكل سيء بميزان القوى الناشئ في تلك البلاد. لقد رفضت القيادة العليا الى حدّ ما الإنتباه الى ما كانت تنقله التقارير الإستخباراتية على ما يجري، بأنّه احداث عاديّة. إتضح في مرحلة متأخّرة جدّ أنّ واشنطن قد أرسلت جنرالا بارزا في حلف الناتو الى طهران في مهمّة لحشد الجيش الإيراني للقيام بما هو ضروري للدفاع عن النظام الملكي. لكنّ الجنرال لم يجد أذنا صاغية بين أولئك الذين تشاورمعهم في القوّات المسلحة. أصبح الجيش الإيراني نفسه بعيدا عن القصر بسبب عدم ثقة الشاه نفسه بقواته المسلحة.

في جامعة پِرنستُن ومع ظهور المزيد من التطوّرات في إيران، بذلنا قصارى جهدنا بتشجيع قويّ من العديد من الطلبة التقدميين لفهم حقيقة ما يحدث هناك. من خلال الإستماع الى مجموعة متنوّعة من الأصوات الإيرانية، ربّما نكون قد طوّرنا إحساسا أفضل بالواقع الإيراني أكثر ممّا فعل مجتمع سياسة واشنطن أو وسائل الإعلام الرئيسية. نظّمنا سلسلة من اللقاءات العامة والمناقشات، التي صوّر فيها المتحدّثون الإيرانيون أخطاء الشاه والطابع الخاص للنضال الذي يخوضه الشعب الإيراني. لقد أشرفت بنفسي وتحدثت في العديد من هذه اللقاءات. تشكّلت نظرتنا من خلال الإلتزام الصريح بحقوق الإنسان

والديمقراطية والموقف النقدي ضدّ تدخّل افكار الحرب الباردة والجغرافية السياسية والرأسمالية العالمية. على الرغم من أنّ بِرنستُن ما كان فيها عدد كبير من الطلاب الإيرانيين، كما هو الحال في فيلادَلفيا ونو يورك، بدا أنّ هناك اهتماما كافيا لتوعية جماهير كبيرة وقويّة حول هذه الأحداث.

لقد تلقيت مساعدة كبيرة في أنشطة الحرم الجامعي من قبل اثنين من طلبة الدراسات العليا في أكاديمية بِرنستُن للشؤون العامة والدولية، وهما روبِن بَرود وجون كاڤانو.[1] تصادف أن يكون روبِن وجون من الأشخاص المُبهجين، الذين اضافوا الكثير من المتعة الى جهودنا الأساسية للإستفادة بشكل خلاق من الحرية الأكاديمية لتحقيق فهم أفضل للتطورات الدولية المربكة. بالنسبة لي شخصيا، فإنّ طلبة مثل روبِن وجون هما من جعلني أشعر عبر العقود بأنّ التدريس للحصول على لقمة العيش، قد وفّر لي حياة مجزية أكثر ممّا تخيلته لنفسي. تصادف أن يكون روبِن وجون طالبين في الأكاديمية من ولاية نو هامشَر. لم يلتقيا قبل التحاقهما بجامعة بِرنستُن، وتزوّجا لاحقا وواصل كلّ منهما تحقيق أشياء عظيمة بشكل منفصل وجماعي، ولم يفقدا أبدا التزامهما العميق بجعل العالم مكانا أفضل لكلّ الناس على هذا الكوكب. مع قصة نجاح مثل هذه في نو هامشَر، من يجرؤ على القول بأنّ النظام الفدرالي على النمط الأمريكي قد فشل.

زيارة إيران الثوريّة

لقد جاءتني الدعوة لزيارة إيران بصفتي رئيس لجنة مناهضة التدخّل في شؤون إيران، لقيادة وفد مكوّن من ثلاثة أشخاص بغية الحصول على فهم للتجربة الثورية الإيرانية، التي تتكشّف تدريجيّا والتي اعتقدت أنّه أسيء تفسيرها في الغرب. لم أكن متأكّدا من كيفية جعل الزيارة جديرة بالإهتمام، لكنّني اعتقدت أنّها ستقدّم لي فرصة لا تُقدّر بثمن لزيارة موقع تدخّل أمريكي سيء السمعة سابقا ضدّ القوى الوطنية الديمقراطية في تلك البلاد.

وافق كلا خياريّ على قبول رفقة السفر كأعضاء في الوفد. سألت رامزي كلارك، الذي بقيت على اتصال به منذ أيام ڤيتنام. في غضون ذلك، أصبح رامزي مرتبطا علنا باليسار السياسي، ومع ذلك ظلّ أحد أكثر أصوات الضمير المدني

نفوذا واحتراما في أمريكا. تمّ تذكّره على أنّه وزير العدل الذي انقلب على حرب ڤيتنام، وربّما تخلى عن آفاق حياته المهنية، التي كان من الممكن أن تؤدي الى ترشيح رئاسي. مع جذوره في تكسَس، تردّدت شائعات بأنّه اختار لِندَن جونسُن بديلا له. كان رامزي موهوبا ومُتقشفا في لباسه ومُطلعا على كلاسيكيات الفلسفة والفكر السياسي، ومتواضعا ظاهريا لكنّه معتاد على الإحترام وممارسة القيادة، الأمر الذي تحوّل الى إجهاد في نقاط مختلفة خلال الرحلة.

كان فِلِپ لِوِس هو الشخص الثاني الذي تمت دعوته للإنضمام الى الوفد. كان ناشطا دينيا مناهضا للحرب، إكتسب شهرة عالمية من خلال تحدّي الپروتوكول في مرحلة حرجة من حرب ڤيتنام حين اطلع وفدا زائرا من اعضاء الكونگرِس على «أقفاص النمر» سيئة السمعة في سجون حكومة جنوب ڤيتنام. كان السجناء السياسيون المناهضون لحكومة سايگون يوضعون في تلك الأقفاص الصغيرة المخصّصة للحيوانات. كما قام فِلِپ بإجراءات أخرى مختلفة للفت الإنتباه للإنتهاكات السياسية الخارجية الأمريكية في ڤيتنام وأماكن اخرى فيما يتعلق بالصراعات التي نشأت في «العالم الثالث». على الرغم من هذه العروض العامة الصاخبة(*)، كان فِلِپ إستثنائيا خجولا في اللقاءات الإجتماعية العاديّة. ولكن عندما يتأثر بالغضب الأخلاقي يمكن أن يزأر مثل الأسد، غير مبال بما قد يعتقده الآخرون، غير خائف من ردود الأفعال الأمنية في مواجهة الإضطرابات وغافلا عن الآداب الإجتماعية. بعبارة أخرى، عندما تمّت دعوته كان مستعدّا للمشاركة ومتهيئا لإحداث المتاعب، وإنْ كان دائما غير عنيف. لقد أعجِبت بمزاجه وأسلوبه وكذلك سياسته القائمة على الغضب الأخلاقي.

كنّا مجموعة متناغمة حتى مع وجود بعض الإحتكاكات الروتينية، التي نشأت حتما من تواجدنا معا باستمرار لمدة اسبوعين في مواقف من التوتر وعدم اليقين. كانت لدى رامزي بعض السمات الرائعة التي أقدّرها. لم يدوّن

(*) حتى احتجاجات عام 2020، التي اعقبت مقتل جورج فلويد على يد الشرطة، كانت هذه الأكاديمية تسمّى مدرسة وودرو وِلسُن للشؤون العامة والدولية. ثمّ تغيّر الإسم رسميّا من قبَل سلطات الجامعة اعترافا منها بعنصرية وودرو وِلسُن. كان هذا رئيسا لجامعة پرِنستُن قبل أن يصبح رئيسا للولايات المتحدة.

أيّـة ملاحظـات أبـدا، لكنّه اسـتطاع تذكّـر تفاصيل محادثات معيّنـة اثناء الرحلة، علـى الرغـم مـن أنّنا عقدنا اجتماعات طويلة منفصلة مع عشـرات الأشـخاص. عندما دعا البروتوكول الى تبادل التحيّات، إرتقى رامزي الى مسـتوى المناسـبة بجمل واقتباسات متقنة من الشريعة الفلسفية الغربية، بما في ذلك أرسطو وروسو وكذلك جَفِرسُن وماديسُن.

شـعرت أحيانا بعدم الإرتياح عندما ألقى رامزي «محاضرات» طويلة أمام زعمـاء دينييـن إيرانييـن حول فضائل اللِبرالية الأمريكية وسـيادة القانون وأوصى دون قيد بإمكانية تطبيق هذا النهج الدستوري الأمريكي عل المستقبل السياسي الإيرانـي. كان عـدم ارتياحـي جزئيا بسـبب مثل هذه العروض لما أسـمّيه «روح أدوارد سـعيد» حيـن ناقـش «الإستشـراق السياسـي». كان هـذا الأمريكي البارز والمسـتقيم والطيّـب يُخبـر الإيرانيين بما يجب عليهـم فعله في بلدهم لتصحيح الأمور. كان مضيفونا الإيرانيون على دراية بشهرة رامزي كلارك، وعاملوه كقائد متميّز ومتحدّث رسمي لوفدنا، والذي كان يميل في بعض الأحيان الى تهميش وجهـات النظـر المتباينـة الـى حدّ ما بيني وبين فِلِپ. كنت على وجه الخصوص مهتمّا بطرح الأسـئلة والإسـتماع أكثر من اهتمامي بتقديم المشـورة السياسـية، التي صدمتني على أنّها غير مناسـبة الى حدّ ما، على الأقلّ إن لم يتمّ التماسـها. إعتقدت أنّه بالنظر الى الغرض من زيارتنا، سيكون من المفيد أكثر سماع ما يشعر به هولاء الأشخاص بأنّه مهمّ في المستقبل القريب فيما يتعلق بآمالِهم وتوقعاتهم ومخاوفهم بشأن العملية الثورية الإيرانية، التي تتكشّف يوميّا.

خلقـت الحماسـة الثوريـة الإيرانيـة فـي هـذه المرحلة انطباعـا قويّا بتغلب الوحدة الوطنية، حين انضم الناشـطون الدينيون والعلمانيون، ومشـينا متضامنين في أكبر تظاهرة رأيتها على الإطلاق؛ عدة ملايين من المتظاهرين السلميين بدون وجود للشـرطة في تجمّع حاشـد يسـير في شـوارع طهران بكرامة هادئة مبتهجا بنعيـم هـذا الإحتفـال العلني بالنصر الثوري المتوقـع. من الواضح أنّه رغم عدم مغـادرة الشـاه بعـد مطـرودا من البلاد بعد أيام قليلة مـن وصولنا، ما زال العديد مِمّـن تحدّثنـا معهـم غيـر قادرين على الإعتقاد بأنّ هـذه الثورة غير المُخطط لها ستنجح بالفعل. لم تكن هناك شعارات مثيرة للإنقسام خلال المسيرة، ولم تكن

هناك إشارات الى أنّه بعد أيام قليلة فقط، ستظهر انقسامات عميقة في الحركة المناهضة للشاه، ممّا أدّى الى ظهور أوّل وميض للعنف السياسي داخل الصفوف من شأنه التغلب على الدرجة الإستثنائية من التضامن المستمر على سبيل النفعيّة طالما بقي الشاه مسيطرا على البلاد. تغيّر المناخ السياسي الهادئ للمظاهرة بشكل جذري سريعا بعد أن تحركت العناصر التي يقودها رجال الدين لتعزيز سيطرتها بشكل قسري على الحركة المناهضة للشاه بطرق استبعدت أولئك الذين يُشتبَه بأنّهم يسعون الى مستقبل علماني ولِبرالي لإيران ما بعد الشاه.

لقد اجرى الوفد اتصالات جيدة خلال تلك الزيارة مع آية الله محمود طالقاني، رجل الدين الإسلامي البارز في طهران، والذي اشتهر بكونه لِبراليا اجتماعيا وزعيما اسلاميا يُفترض أنّه يروّج للقيم الإشتراكية. في البداية كان طالقاني متردّدا على ما يبدو حتى في مقابلتنا، لأنّه عارض وجود الأمريكيين في البلاد في ذلك الوقت. ومع ذلك وبمجرّد أن أدرك مضيّفونا أنّ تعاطفنا الواضح والموثوق به كان مع التطوّرات الثورية، غيّر سلوكه تماما ومدّد اجتماعنا الأوّل الى أبعد ممّا كان مقرّرا وسعى الى عقد اجتماعات اضافية تمّ ترتيبها. وكما هو الحال، مع القادة الدينيين الآخرين الذين التقينا بهم، جلسنا على الأرض بشكل دائري. لم يكن هذا الوضع مريحا بالنسبة لي بسبب مشاكل الورك، ومع ذلك تحمّلت الأمر. لقد تأثرت بالإحساس غير الهرمي للمجتمع الذي تولى زمام الأمور. بمجرّد جلوسنا في مثل هذه الدائرة، كان صوت أيّ شخص جيّدا مثل صوت أيّ شخص آخر، وهو ما بدا سمة من سمات الروح الديمقراطية الواضحة في معظم التجمّعات الشيعية. لقد وجدت هذا الجو الإسلامي ملائما، ممّا منحني ثقة زائفة بأنّه على الرغم من الإضطرابات الناشئة، فإنّ كلّ شيء سيكون على ما يرام وستستقرّ جمهورية إيران الإسلامية كنظام دستوري جديد للبلاد، بشرط أنّ القوى الخارجية لا تتدخل. كان أملا بريئا في غير محله.

كان رجل الدين اللطيف والنحيف يستقبل ضيوفه في غرفة انتظار مليئة بالملتمسين الإيرانيين العاديين، الذين يسعون دائما للحصول على الإرشاد أو المساعدة، داعما بقوة العملية الثوريّة. لقد أيّد الإعتقاد بأنّ القيادة الإيرانية الجديدة ستحترم حقوق الإنسان وتكرّس نفسها لرفع عامة الإيرانيين من أعماق

الفقر. إنتقد طالقاني اعتماد الشاه على السياسات الإقتصادية القائمة على ما يتماشى مع أولويات أسواق رأس المال الدولية. وهي السياسات التي تعمل على تكثيف عدم المساواة وترسيخ الفساد في البلاد على نطاق واسع، ولم تفعل شيئا يُذكر للتخفيف من حدّة الفقر.

من الواضح أنّ طالقاني كان معتدلا دينيّا، على الرغم من أنّ أهمية مقاربته التعددية لم تتضح إلّا بعد أن دفع الزخم الثوري البلاد بعيدا في اتجاه أصولي وثيوقراطي. قيل لنا أنّ توجهه الأقل دوگماتية في الإسلام قد شجّعه بشكل كبير أبناؤه، الذين بدوا أنّهم يحملون وجهات نظر اجتماعية واقتصادية تقدمية غربية ذات طابع اشتراكي. اعترفَ تماما بالدور الحاسم الذي يلعبه الخُميني في تخليص البلاد من الشاه، بينما امتنع عن تأكيد ما بدا أنّه الخط المُتشدّد للخُميني بشأن الممارسة الدينية والترتيبات السياسيّة للحكم. بعد ذلك بوقت قصير، أصبح يُنظر الى طالقاني بعين الريبة، إن لم يكن العِداء من قبل الأعضاء القياديين في حاشية الخُميني، الذي لا يزال في باريس. قيل لنا أنّ شعبية طالقاني كانت بمثابة تهديد لتصوّر الخُميني لمستقبل إيران المُفضّل. توفي طالقاني بعد وقت قصير من زيارتنا وانتشرت شائعات بأنّه تسمّم. على حدّ علمي لم يتمّ تأكيد تلك الشائعات أو دحضها. ولذا يخيّم لغز مُحيّر على ذكرى رجل الدين المثير للإعجاب من الناحية الإنسانية.

أثناء وجودنا في طهران، أصبحنا ودودين مع استاذ الرياضيات، الذي كان ناشطا في الحركة الوطنية كمعارض علماني لحكم الشاه. خلال زيارتنا، أصبح قلقا للغاية من النغمات الدينية الإصولية للقيادة الثورية ومن الكشف عن مقاربتها غير التعددية لعملية الحكم المستقبلية، التي يتمّ تأسيسها في إيران. أثارت هذه الإدراكات إنزعاج اللِبراليين غير المتدينين، الذي كانوا نشطاء في الثورة ولكن يبدو الآن أنّه يتمّ ابعادهم جانبا. أخبرنا صديقنا ذات صباح أنّه سهر طوال الليل يقرأ محاضرات الخُميني عن الحكومة الإسلامية وأنّها «أثارت الرعب والقرف داخلي». لقد فسّر رؤية الخُميني السياسية على أنّها تستند الى الهيمنة اللاهوتية والتطبيق الصارم لمبادئ الشريعة، التي تتناقض مع الأفكار التعددية الأكثر مرونة والتي وجّهت في وقت سابق ووضعت الإطار للمعارضة الموحدة ضدّ الشاه.

لطالما تساءلت عمّا حدث لهذا العلماني المحبوب للغاية والذكي وهو يشهد مع مرور كلّ شهر أنّ أسوأ مخاوفه تتحقّق تدريجيّا. بالنظر الى احداث الماضي، يبدو واضحا أنّ العلمانيين اللِبراليين، الذين لعبوا ادورا مهمة في الحركة الثورية، كانوا منشغلين جدّا بالتخلص من الشاه لدرجة أنّهم لم يفكّروا بالمستقبل. وعندما استيقظوا أخيرا كان الأوان قد فات. في المقابل، استفاد المتدينون الأكثر حماسا من رؤيتهم الطويلة للتغيير وكذلك تمتّعوا بدعم الجماهير الإيرانية، التي بدت متدينة بشدّة في تلك اللحظة التاريخية، حين حققت حركتهم انتصارا ملحوظا للقيم التقليدية في البلاد بين الذين تضرّروا وغضبوا من اعتناق الشاه النيولبرالي للعولمة، بما في ذلك احترامه لواشنطن، بل وأكثر من ذلك من خلال نبذه أعمق التقاليد الثقافية والدينية لإيران.

الفقرة التالية في جدول زيارتنا كانت الذهاب الى قُم، المدينة الدينية الصغيرة ذات المساجد والمدارس الدينية. كان علينا لقاء آية الله محمد كاظم شريعتمداري. وهو رجل دين مثقف وشخص يتمتع في الأوساط الدينية بسمعة كونه عالِما إسلاميّا رائدا. كانت المعرفة اللاهوتية والدقة موضع احترام عميق. كان اجتماعا كاشفا تماما، بمعنى أنّ شريعتمداري أثناء ترحيبه بالثورة، امتنع عن ذكر الخُميني بالإسم، متنبّها للتوترات اللاحقة واتهامات الراديكاليين الإسلاميين بأنّ رجل الدين المُبجّل هذا، الذي اشتهر بأنّه من عائلة ثرية مالكة للأراضي في مدينة تبريز، قد تنازل عن حقوقه خلال التعاملات العقارية مع قصر پهلوي. ومع ذلك يمكن تفسير هذه المحاولة بأنّها تشويه لسمعة شريعتمداري بشكل أفضل عند الرجوع الى القضايا الأيديولوجية. عارض شريعتمداري مشاركة رجال الدين في الحكومة، متمسّكا بفهمه للمبادئ الشيعية التقليدية. وبالتالي كان يُنظر اليه بشكل صحيح على أنّه متشكك في أفكار الخُمَيني وممارساته الدينية، التي تدعو الى سيطرة رجال الدين على الأسس الدستورية للجمهورية الإسلامية.

كان الأمر الأكثر جدّية بالنسبة لنا في ذلك الوقت من الإجتماع القيّم ذاته، هو تداعياته العاصفة غير المتوقعة. بعد مغادرة شريعتمداري وجدنا مطعما صغيرا في ساحة كبيرة في وسط المدينة التي تنتشر فيها عدة مساجد. رافقنا شابان من

طهران كانا جزء من مجموعة الضيافة التي تولت الخدمات اللوجستية لزيارتنا، وهما من اعضاء طاقم بَزِرگان. بعد مأدبة غداء ممتعة، مشينا لبضع دقائق حول الساحة الخلابة، وسرعان ما أدركنا أنّنا محاطون بحشد سريع التجمّع يهتف بشعارات غاضبة موجّهة إلينا ويحمل ملصقات الخُميني. على الرغم من أنّ الشعارات كانت بالفارسية، فقد علِمنا من مرافقينا القادمين معنا من طهران أنّنا كنا أهدافا لهتاف غاضب، «الموت للشاه، الموت للأمريكيين». لست متأكّدا من التاريخ المحدّد، لكنّ هذه التظاهرات المناهضة للشاه كانت وصلت ذروتها، وكان من المحتمل أن تكون أكثر كثافة في قُم من أيّ مكان آخر. حدث وجودنا في هذه المدينة الدينية قبل أيام قليلة من مغادرة الشاه الأبدية للبلاد، وكانت التوترات في ذروتها لأنّ نتيجة الهياج لم تُحلّ بعد وبدت محفوفة بالمخاطر.

مع اشتداد اجواء الغوغاء، تعرّضت للضرب من قبل إثنين من الملالي الشباب، اللذين قاداهتافات هؤلاء المئات من الإيرانيين الغاضبين. إزداد خوفي بعكس رامزي القادم من تَكسس، والذي بدا غير منزعج على الأقلّ ظاهريا. حاول مرافقانا الإيرا نيان القول للمتظاهرين بأنّنا لا نعمل في شركة بَل لصناعة طائرات الهليوكوبتر Bell Helicopter وأننا أكبر سنّا من أن نكون جنودا. أوضحا لقادة الحشد الهائج أنّنا أتينا الى إيران بدعوة من الحركة الثوريّة. في البداية، تمّ رفض هذه المناشدات نيابة عنّا، ولكن عندما عرض المرافقان وثائق من مكتب بَزِرگان، تغيّر المزاج على الفور من التهديد الى اظهار الأخوّة. تمّت دعوتنا للمشاركة في وجبة وقدموا لنا بعض الملصقات. شكرنا هؤلاء المناضلين في قُم على عروضهم بالبقاء معهم، لكنّنا تحجّجنا مشيرين الى الإلتزامات بالعودة الى طهران. كنّا في الواقع متأخرين لمدة يوم وفق برنامج زيارتنا. عندما انطلقنا بالسيارة، كنت لا أزال مذهولا بما شعرت أنّه تجمّع هائج على وشك التحوّل الى حشد عنيف من الغوغاء. ظلت تلك اللحظات بالنسبة لي، واحدة من تجارب الإقتراب من الموت، والتي ستظل حيّة في ذهني طوال حياتي، أو على الأقلّ طالما أنّ احداث الماضي لم تنسحب بعد لتصبح ضبابا يغلف الذاكرة. على أيّة حال، جعلتني العودة الى طهران أشعر بالفعل وكأنّها عودة الى «جزيرة الإستقرار»، كما وصفها كارتر! وبالعودة الى الوراء، في ذلك الوقت كانت نتيجة

الثـورة معلقـة فـي الميزان. كان الشـاه لا يزال في البلاد، وكثرت الشـائعات عن تدخّل وشيك من الخارج، وكانت هناك مخاوف من حملة دموية أخرى من قبل قصر بِهلوي المُحاصَر، وهم ما لـم يحدث أبدا. لقد تنازل الشاه عن العرش بعد أيام قليلة، ولـم تتحقق أسوأ مخاوف المعارضة، على الرغم من ظهور مخاوف جديدة مختلفة تماما.

الشاه يتنازل، ولكن هل رحل حقا؟

بعد بضعة أيام نظم مضيفونا وفق برنامج الزيارة رحلة أخرى خارج طهران، هذه المرّة الى مدينة قَزڤين المتوسـطة الحجم، على بعد سـاعتين من العاصمة. تمّـت دعوتنـا لتنـاول طعـام الغداء فـي منزل طبيب محلـي كان ضمن مجموعة مـن الأطبـاء، الذيـن عالجـوا متظاهري الحركة المصابين في مستشـفى المدينة. وقـع حـادث تـمّ الإبـلاغ عنه على نطاق واسـع قبل أيام قليلـة عندما دخل جنود الشـاه وشـرطته المستشـفى والقوا الفبض على بعض الجرحى واحدثوا فوضى وسـط اسـتنكار الأطباء والممرضات. شـارك عدد من النسـوة في إعداد الغداء، بينمـا تواصـل الحديـث مـع حوالـي 24 رجلا في غرفة المعيشـة. تمّ إخبارنا عن الفظائـع، التـي أرتُكِبـت ضدّ العاملين في الجهـاز الطبي والمتظاهرين، بما فيهم الأطبـاء، وكان عـدد منهـم مـن بيـن الحضور معنا فـي الغرفـة. كان الغداء متقنا بمـا يتماشـى مـع التقاليـد الإيرانيية، للتميز في الطبـخ المنزلي. كان الفصل بين الجنسـين أبويّـاً Patriarchal حتـى فـي هـذا الجو اللِبرالي على مـا يبدو. كثيرا ما سـمعنا أثنـاء وجودنـا فـي إيران أنّ الرجـال هم الذين ينخرطـون في الغالب في رحـلات خياليـة، فـي حين أنّ النسـاء يسـلطن الضوء على احداث الحياة سـواء في المنزل أو في السياسـة. ولكن عندما يتعلق الأمر بالتجمّعات الإجتماعية أو المناقشـات السياسـية مع الأجانب، يصبح الأمر في يد الرجال الإيرانيين، الذين تولوا القضية وتركوا النساء في الخلفية كمساعدات وليس كمشاركات.

مـا جعـل اليوم مشـهودا لا يُنسـى بالنسـبة لنا جميعا ونحـن مجتمعين، هو الإعلان أثناء تناولنا القهوة في نهاية الوجبة بأنّ الشاه قد غادر لتوه البلاد وسلم حكـم إيـران الـى شـاپور بَختيار، كرئيس وزراء مؤقت تـمّ تعيينه لترأس نوع من

مجلس الوصاية الملكيّة في وقت كانت الحركة فيه تقترب من النصر الكامل. كشفت التقارير الإذاعية المبكّرة عن شكوك واسعة النطاق بين الإيرانيين حول ما إذا كان الشاه قد تنازل بالفعل أو أنّه كان بالأحرى يضع فخّا لخصومه رفيعي المستوى، الذين من المؤكّد أنّهم سيكشفون عن أنفسهم في مثل هذه اللحظات التحوّلية. عندما عدنا الى طهران والإلتزام بموعد مسبق للقاء بَختيار في وقت متأخر من بعد الظهر، أصبح واضحا أنّ نبأ رحيل الشاه قد تمّ قبوله على نطاق واسع على أنّه خبر دقيق. هبّت الأبواق وعُلِقت ملصقات وافرة معدّة على عجل تعلن النصر من خلال حركة المرور الكثيفة المتزايدة المتدفقة نحو طهران. ظهرت الأعلام الإيرانية فجأة في كلّ مكان، إشارة الى مناسبة إحتفالية ذات أهميّة غيرعاديّة، حين كانت السيارات تأتي بأعداد أكبر وأكبر من جميع الجهات متجهة الى طهران لعرض ومشاركة سعادتها في هذا التحوّل الدراماتيكي للأحداث. كما لم يحدث من قبل، شعرت أنّني ألمس النسيج الحيّ للثورة ولديّ إحساس بصنع التاريخ أمام عينيّ. لم يكن هناك شكّ في ذلك. في تلك الليلة على الأقل بتاريخ 16 كانون الثاني من عام 1979، وتحت سماء صافية كانت الشوارع تنبض بالبهجة الثورية. لقد وُلِدت إيران جديدة. بعد أيام قليلة فقط، إمتلأت تلك السماء الإيرانية نفسها بالغيوم المشؤومة بالعديد من الأشكال، التي تُنذِر بمستقبل أكثر اضطرابا.

لم يكن من السهل الوصول الى المبنى الحكومي، حيث يقع مكتب بَختيار. كانت هناك حشود في كلّ مكان وامتلأت الشوارع بالمارة والسيارات. نجحنا أخيرا وكان رئيس الوزراء كريما، ولم يُخبرنا بأيّ شيء لم نكن نعرفه من قبل. بدا أنّه ارتقى، وإن كان بطريقة خجولة، الى سمعته كمحبّ للفرنكوفيل Francophile، ممّا يشير ضمنيّا الى العلمانية بشكل لا لبس فيه والأسلوب الإجتماعي الأوروبي. كان ذلك نوعا ما شيء من العرض المسرحي.

كان يوجد أثناء اجتماعنا مسؤولون آخرون وأفراد من رجال الأمن، ويُفترض أنّ بعضهم يعمل لصالح SAVAK. كان الجو يشير الى أنّنا كنّا نلتقي مع زعيم رمزي تمّ إخباره بما يمكن ولا يمكن أن يفعله من قِبَل اصحاب السلطة الحقيقيين، والمقصود هنا أيّة سلطة متبقيّة من النظام الحالي المتهالك للبلد.

بعبارة أخرى، لم يكن بَختيار، حتى في غياب الشاه، يدير العرض، ولم يكن من المفترض أن يكون أكثر من بيدق في لعبة شطرنج حيث يتمّ تحريك القطع الرئيسية من قبل الآخرين. أصبح هذا واضحا لنا بعد أن سألنا عمّا إذا كان يمكن ترتيب زيارة للسجناء السياسيين في سجن إيڤين مع المجرمين العاديين في نفس السجن. إلتفت بَختيار الى أحد الرجال الكبار بملابس مدنيّة للتوجيه قبل الردّ على طلبنا. ثمّ أخبرنا أنّه سيكون من الجيّد زيارة السجناء السياسيين، ولكن لم يكن من الممكن في مثل هذه المهلة القصيرة القيام بزيارة الى الجزء من مجمّع السجن، الذي كان يأوي المجرمين العاديين.

بشكل عام، كان الإجتماع مع بَختيار ملحوظا بعدم أهمّيته، وربّما عكس اليقين في تلك المرحلة بشأن ما إذا كانت لعبة القوّة القديمة قد انتهت تماما، حيث ربّما كان الجميع يركّزون على ما إذا كان الشاه سيستأنف حكمه أم لا. ومن المُحتمل جدّا، وكما حدث عام 1953، أن يعود على اجنحة انقلاب تهندسه وكالة المخابرات المركزية. لم يكن هناك وضوح حتى الآن حول ما إذا كنّا نشهد مرحلة صراع لم يكتمل بعد لإعادة تشكيل إيران جديدة أو المشاركة في انهيار السلالة البهلوية. بدا المستقبل وكأنّه معلق في الميزان في تلك الليلة، وجسّده ضجيج الحشود في شوارع طهران والغموض المهيب للوضع السياسي، الذي أظهرته لهجة ومضمون هذا الإجتماع مع بَختيار، القائم بأعمال رئيس الدولة.

في سجن إيڤين

وصلنا الى سجن إيڤين في الموعد المحدّد في وقت متأخر من صباح اليوم التالي 17 كانون الثاني لعام 1979. قيل لنا أن نجلس في غرفة الإنتظار حتى تتمّ دعوتنا للقاءنا بالسجناء. إتضح أنّه كان انتظارا طويلا، وبالكاد مضيعة للوقت. لدهشتي، كان الشخص الآخر الوحيد في غرفة الإنتظار هو المُنشقّ من تَكسس، روس پيرو، الرئيس التنفيذي لشركة أنظمة البيانات الإلكترونية،(الذي ترشّح لاحقا لمنصب الرئيس في الولايات المتحدة كمستقلّ ومحافظ اقتصاديا، متحدّيا أمريكا غير الودّية عادة لاستقبال مرشح يمثل طرفا ثالثا. نجح پَرّو في الحصول على 18.6% من الأصوات الشعبية في محاولته الأولى والأخيرة عام

1992.) ووفقا لسمعة تَكسس في عدم الخوف، جاء پَرّو الى إيران على الرغم من الظروف المحفوفة بالمخاطر في البلاد لِلإفراج عن إثنين من موظفيه المُحتجزَين في السجن بتهمة التجسس. نجح پَرّو بشكل مفاجئ، وفي ظلّ الظروف السائدة في إيران، في ترتيب الإفراج عنهما. لقد جسّدت مساعيه تلك النوعية من الفردية الراديكالية، التي تجعل أهل تَكسس فخورين.

كان من الممتع مشاهدة هذين الرجلين من تَكسس، رامزي كلارك وروس پَرّو، اللذين يحققان إنجازا مبالغا فيه، وهما يتنافسان لفظيّا مع بعضهما البعض. أحدهما طويل ونحيف ولا يزال محبوب المؤسسة اللِبرالية/اليسارية، والآخر قصير ومحافظ اقتصاديا ومشاكِس الى حدّ ما وله إلمام واسع بإدارة الأعمال ويعرف كلّ شيء عنها. بدا أنّ پَرّو لديه إجابات مبسّطة لكنّها لاذعة لجميع الأسئلة الكبيرة، التي تعكّر صفو السياسة الأمريكية في أواخر السبعينات. إثناء وجوده معنا في غرفة الإنتظار في ذلك السجن، طرح پَرّو سلسلة من الخطوط الفردية الذكيّة ردّا على ملاحظات رامزي المصوغة ببراعة حول ما كان يجري في أمريكا. في الواقع شعر كلا الرجلين أنّ واشنطن كانت الى حدّ ما خصمهما. احتلّ رامزي هذا المنصب مؤخرا وبشكل أساسي بصفته من الداخل ويطرح مخاوف خاصّة بشأن دور أمريكا في العالم. كانت افكار رامزي متوافقة مع أفكاري، على الرغم من صياغتها بشكل قانوني أكثر عن طريق الرجوع الى احترام حقوق الآخرين، وأقلّ اهتماما بالآثار الجيوسياسية والإقتصادية. تشاركنا في معارضة هذا النوع من التدخّلات والعسكرة، التي اصبحت سمات أساسية لسياسات ومواقف الحرب الباردة الأمريكية.

كانت لدى پَرّو أجندة مختلفة. لقد أراد أن ينظم العالم وفقا لمبادئه الخاصّة بالمشروع الحرّ، بدءاً من حكومة الولايات المتحدة، التي شعر أنّه يجب أن يديرها رابحون رأسماليون مثله، فردانيون قساة وصلوا الى القمّة بالقوّة والعقل. عارض پَرّو الإنفاق بالعجز والرفاهية، مفضّلا حكومة ضعيفة تعني بنبذ ما يعتقد أنّه الإرث الإقتصادي غير السليم للصفقة الجديدة. بالطبع، لم يغيّر مثل هذا اللقاء الواضح وجهات نظر متعارضة للعالم في كلّ ذرة ينظر بها أيّ من هذين الشخصين العنيدين الى العالم، ولكنّه جعل وقت الإنتظار الطويل يمرّ بسرعة

كبيرة تقريبا. إذا نظرنا الى الوراء وربّما بشكل غير عادل، فقد توقع پَرّو نسخة أكثر إنسانية وذكاء من رئاسة ترامپ، بما في ذلك تشابه عروضهما للنرجسيّة المتطرّفة دون أدنى علامة على الإحراج، وعدم إدراك أنّ كلمة «تواضع» هي جزء من اللغة الإنكليزية.

تمكّن پَرّو من رؤية موظفَيه قبل نقلنا الى قسم السجن الذي يضمّ السجناء السياسيين، والذي كان أنظف وأكثر سعة من المناطق المخصّصة للمجرمين العاديين، الذين أمكننا على الأقلّ ملاحظتهم اثناء السير بجوار زنازينهم المكتظة والمتداعية. تساءلت عن هذا التمييز في المعاملة، والذي ربّما يعكس الإختلافات الطبقية، ولكنّه ربّما يكون أيضا قائما على فكرة أنّ سجناء اليوم يمكن أن يكونوا قادة الغد. إنفصلت عن رامزي وفِلِپ عندما دُعيت للدخول وتمّ توجيهي للقاء رُبّما مائة من السجناء ذوي التوجّهات الدينية، بما في ذلك بعض الذين تمّ إطلاق سراحهم قريبا واصبح بعضهم مؤثرا على الفور في مخطط الأشياء الجديدة. في البداية، تمّ نقلي الى غرفة اجتماعات كبيرة سيئة الإضاءة حيث كان من الصعب القاء نظرة جيدة على مئات أو نحو ذلك من السجناء المنتظرين. بعد أن قدّمني أحد حرّاس السجن، تحدّث عدد من السجناء. كانوا مبدئيا ومفهوما مرتابين بما كنت أفعله في سجن إيڤين في هذه اللحظة الثوريّة، ولم يتردّدوا في إظهار استيائهم من زيارتي. لماذا يوجد أمريكيّ «بريء» في إيران حتى في هذا الوقت، وما هي انتماءاتي؟ تمكّنت مع بعض القلق وبذل اقصى الجهد لشرح سبب وجودي من إقناع السجناء المجتمعين بأنّني كنت في بلدهم للمراقبة والتعلم لإبلاغ الجمهور الأمريكي. كما ذكرت أنّني كنت أترأس لجنة في الولايات المتحدة تعارض سياسات الشاه القمعية. خلال هذه التعليقات، ساورتني المخاوف من أنّه سيكون من السهل على السجناء أن يعتقلوني كرهينة ويطالبون بحريتهم مقابل حريتي. لقد صدمني مثل هذا التكتيك في ذلك الوقت على أنّه ليس فقط معقولا، ولكنّه ممكن للغاية، وكلّ الأشياء تمّ أخذها في الإعتبار. غير أنّه لحسن الحظ لم يحدث ذلك مطلقا.

بعد هذه الإستكشافات المتبادلة، برز متحدث باسم السجناء وطلب منّي أن أعطي انطباعاتي عمّا يجري في إيران. لقد جعلني أدرك أنّ هؤلاء المساجين

قد تمّ عزلهم عن العالم، على الرغم من أنّهم كانوا يعرفون الأخبار المذهلة والمُرحّب بها، التي تشير الى أنّ الشاه قد تنازل عن العرش في اليوم السابق. تحدّثت عن انطباعاتي عن الهياج الثوري والتطوّرات، التي لا رجعة عنها على ما يبدو. لكنّني أشرت الى إحساسي بأنّ الثورة ما زالت تفتقر الى مسار محدّد بوضوح. لاحظت أنّ مقاليد الحكومة المؤقتة بدت وكأنّها بيد المثقفين العلمانيين المعتدلين والتكنوقراط، الذي كانوا يقدّرون وجهات النظر الدينية لكنّهم لم يتصوروا آية الله كزعيم سياسي مستقبلي للبلاد. شعرت أنّ معظم الإيرانيين الذين قابلتهم يعتبرون الخُمَيني الوجه الجماهيري المؤثر بشكل كبير للحركة الثورية، لكنّه ليس شخصا يتطلع بعد أو مجهزّا لتولي حكم البلاد. وهذا الإنطباع أكّده الخُميني نفسه بعد أيام قليلة عندما التقينا به في پاريس. ما إذا كان هناك نصّ فرعي لهذا العرض الخارجي من عدم الإهتمام بكونه القائد الجديد، يظلّ سرّا مغلقا في صندوق أسود.

بعد أن انتهيت من ملاحظاتي المُرتجلة، التي لم تخطر ببال السجناء المجتمعين، كان هناك العديد من الأسئلة، وحتى افراد المخابرات الحاضرين بدوا مهتمّين بما كنت أقوله خاصّة عندما يتعلق الأمر بما يمكن توقعه من واشنطن. كما هو الحال مع الخُميني، كانت هناك مخاوف واسعة النطاق بين السجناء من أنّه قبل مرور فترة طويلة ستكون هناك محاولة انقلاب معادية للثورة من تدبير حكومة الولايات المتحدة. إعتبر هؤلاء السجناء السياسيون رجوع الشاه لاستعادة عرشه تهديدا أكيدا وإمكانية محتملة. إعتقد آخرون أنّ حجم الحركة الثورية ربّما سيُثبط سيناريو مشابها لما حصل عام 1953، ولكن بدلا من ذلك وفي انقلاب جديد، ستسعى واشنطن إمّا لتنصيب قائد عسكري أو ربّما العثور على شخصية علمانية تعد بجلب الإزدهار والديمقراطية للبلاد ككُلّ دون تغيير انحيازها الغربي. حتى في داخل السجن هذا، كان الجو مليئا بالتخمينات حول مستقبل إيران، نظرا للشكوك الداخلية والدولية الموجودة إزاء الوضع السائد وتنوّع توقعات وأهداف أولئك الذين التقيت بهم.

بعد تبادل الآراء، تمّ منح أولئك الذين قضوا في سجن إيڤين خمس سنوات «امتياز» اعداد غدائي في مطبخ السجن البدائي. وكما أتذكّر، كان الطعام جيّدا

على الرغم من بساطته. ما برز آنذاك هو أنّ مسعود رجوي أحد «مضيفيّ» في غداء سجن هو رئيس (منظمة مجاهدي خلق) المتشددة المناهضة لبرامج الشاه الإجتماعية، والتي اصبحت فيما بعد منظمة مثيرة للجدل ومعارضة للنظام بشكل متزايد وفقدت مصداقيتها على نطاق واسع في الأوساط الدولية باعتبارها منظمة إرهابيـة، لكنّهـا اكتسبت الدعم مـن المصادر الغربية المعاديـة للثورة، ولا تزال تتمتع بهذا الدعم حتى الوقت الحاضر.

أعجِبت في ذلك الوقت برجوي. وجدته مشاركا ذكيّا وشابّا نشيطا ومتشوّقا لمناقشة القضايا السياسية الجادّة، وحتى الإستماع الى ما يجب أن اقوله ردّا على اسئلته. في ذلك الجو الغريب للغاية في السـجن، كان رجوي ودودا ومضيافا، ممّـا جعلنـي أشـعر وكأنّنـي فـي بيتي، وهـو الأمر الذي عانيت فيه من السـخرية الشديدة، نظرا لمواقفنا الخاصّة.

زرت رجوي في پاريس خلال العامين التاليين، وفي المرّة الأولى اجريت معه مقابلة نُشرت في مجلة Alternatives، وهي مجلة مكرّسة للقضايا العالمية. عندمـا تحدّثنـا فـي إيڤيـن، كان عازما على سـرد قصة منظمته وكم عدد الشـباب فيها من الذين «استشهدوا» على يد قوات أمن الشاه الدموية. أكّد أنّ كلّ عضو فـي اللجنـة المركزيـة للمجاهدين قد قُتِل. لقـد أزعجتني هذه الرواية القاتمة في ذلـك الوقـت، ولكـن بـدا لي انشـغال رجوي غيـر الصحّي بالإستشـهاد والقمع الشـديد والمقاومة، وما قد يعنيه ذلك لمسـتقبل السياسـة في إيران. كما اصبح واضحـا علـى الرغم من اعتراف رجوي بمسـاهمات شـريعتي، أنّـه كان علمانيا أكثـر منـه إسـلاميّا. لقـد أوضح آرائه ولم يؤيّد آراء آية اللـه الخُميني حول كيفية تشكيل مستقبل إيران. لقد استمعت الى الإحساس باحتمال حدوث مشاكل في المستقبل، وهو ما ظهر فعلا بعد بضعة أيام. بعد وقت قصير من إطلاق سراحه مـن السـجن، كمـا كان الحال مع بقيّة السـجناء السياسـيين، إختـار رجويّ على الفور تقريبا المنفى، وانتقل الى پاريس، حيث يعيش شقيقه الطبيب. هناك مفارقة غريبة في حقيقة أنّ رجوي وصل الى فرنسـا بعد اسـابيع فقط من عودة الرجل الذي سيُصبح قريبا عدوه اللدود الى إيران، ليستقبله ملايين الإيرانيين المبتهجين باعتبـاره القائـد الجذّاب والأصيـل للثورة، وهي ثورة كانت لا تزال قائمة. رأت

القيادة الجديدة في إيران أنّها «إيرانية» وليست «إسلامية»، على الرغم من أنّ هذا سيتغيّر في الأشهر المُقبلة. لم يتضح لي أبدا نوع الدور الذي تمناه رجوي لنفسه وأيّ نوع من المستقبل لإيران.

ما أدّى الى عزل العديد من منتقدي الجمهورية الإسلامية، الذي كانوا متعاطفين مع رجوي ومجاهدي خلق بشكل قاطع، كان مسؤولية الإغتيالات السياسية للخصوم. أضِف الى ذلك، تقديم الدعم للهجوم العراقي على إيران في عام 1980، بتشجيع نشط، وإنْ كان خفيّا، لمنظمة مجاهدي خلق من قبَل الپنتگون.

زيارة السفارة الأمريكية

استغرق الأمر قصارى جهدي لإقناع رامزي كلارك بالموافقة على لقاء السفير الأمريكي في إيران، وِليَم سَوليڤَن. لا استطيع أن أتذكّر التفاصيل، لكنّ رامزي كان له لقاء سابق غير سارّ مع سَوليڤَن خلال فترة ڤيتنام. لقد جادلت بشكل صحيح عن اعتقادي بأنّه لكي يكون عرضنا للواقع الثوري ذا مصداقية عند عودتنا للولايات المتحدة، فمن الضروري أن نكون قد سمعنا كيف نظرت السفارة الأمريكية الى الموقف. بعد كلّ شيء، مهمّتنا الأساسية على الأقلّ كما ادركت أنا والعضو الثالث في الوفد فِلِپ لِوِس، هي معرفة ما يمكننا تقديمه وتقديم تعليق مستنير حول ما كان يحدث في هذا الوضع الثوري الفريد. بالنسبة لرامزي، لم يكن الأمر يتعلق بالتعلم أو الإستماع، بل أكثر في التوجيه والإرشاد.

عندما دخلنا مكتب السفير سَوليڤَن الأنيق، فوجئت بكوني أوّل فرد من الوفد يتمّ استقباله ليس بحرارة ولكن بشكل تصادمي. كانت تحية سَوليڤَن غير الترحيبية هي القول، «أعلم أنّ الپروفِسُر فولك يعتقد أنّني مجرم حرب». لم أكن مستاء تماما من الترحيب بهذه الطريقة. كان ذلك يعني أنّ شهادتي قبل ما أعتقد أنّه بحلول ذلك الوقت أصبحت لجنة العلاقات الخارجية في مجلس الشيوخ الأمريكي برئاسة السِنَتُر فرانك چَيرچ، بأنّ اللجنة تركت بعض التأثير على سَوليڤَن نفسه. في الواقع، أدليت بشهادتي بالفعل أمامها قائلا إنّ تعيين السيد سَوليڤَن سفيرا في إيران، كان خطوة غير مناسبة تقوم بها أمريكا بعد ڤيتنام. إشتهر سَوليڤَن على نطاق واسع بنشاطه غير العادي في مكافحة التمرّد في لاوس اثناء

عمله كسفير هناك، لدرجة أنّ الجَنَرَل وَستمورلاند، أشار باستنكار في مذكّراته الى سَوليڤَن باعتباره ضابطا عسكريّا أكثر من كونه دبلوماسيا. وعلق قائلا، «كان يجب أن يكون قائدا ميدانيا!» كان سَوليڤَن سيء السمعة بشكل خاصّ لقيادته عمليات «الحرب السريّة» في لاوس خلال السبعينات، والتي تضمّنت قصفا عنيفا للأرياف ممّا تسبّب في سقوط العديد من الضحايا بحجّة تعطيل خطوط الإمداد الڤيتنامية من الشمال والتأكّد من أنّ **باثِت لاو**، الحركة الشيوعية في لاوس لن تسود هناك. لم ترِد خلفية سَوليڤَن في مناقشاتنا، التي اقتصرت تماما على التطوّرات في إيران.

نقل لنا سَوليڤَن تفسيرين رئيسيين مهمّين. الأول هو أنّ طاقم السفارة، بما في ذلك هو نفسه، قد «صُدِم» بهذه التعبئة الشعبية الهائلة، التي تحققت تحت راية الإسلام السياسي، والتي نجحت في زعزعة أركان نظام كان يُفترَض أنّه أكثر حليف للولايات المتحدة استقرارا في المنطقة. كان يُنظر الى إيران على أنّها قوة عسكرية هائلة ذات هيكل حُكم اعتُقِد أنّه يتحكّم بشكل كامل في المشهد السياسي الداخلي. توصّل سَوليڤَن بمرور الوقت لتقدير قوّة الحركة وطابعها الديني، وأخبرنا أنّه حثّ واشنطن على قبول نتيجة الثورة بدلا من الإستمرار في معارضة عقيمة. توصّل سَوليڤَن الى قناعة مفادها أنّ موالاة الشاه قضية خاسرة، وهو استنتاج رفضه البيت الأبيض وساكنه كارتر.

كان الأمر الآخر هو توتّر علاقته مع زبِنگيو برِجِنسكي، مستشار الأمن القومي لكارتر، الذي من الواضح أنّه استجاب للتوجيه المُتشدّد للسفير الإيراني في واشنطن، أردشير زاهدي. وبالتالي رفض السماح للسفارة في طهران للقيام بأيّة إيماءات ملائمة أو مطمئنة لمن يأتي بعد الشاه. لم يعرف أحد أبدا ما الذي يمكن أن يحدث للعلاقات الأمريكية/ الإيرانية لو اتّبع كارتر نصيحة سَوليڤَن بدلا من نصيحة مستشاره لشؤون الأمن القومي.

كان من الواضح أنّ السفير سَوليڤَن قد عبّر عن نفسه بشكل رسمي خلال اجتماعنا، ولم يفعل الكثير لإخفاء سخطه من النهج، الذي اتبعته واشنطن، والذي بدا أنّه يُنذر بمستقبل كئيب للعلاقات الأمريكية الإيرانية. وهو مستقبل إتّجه مرّة اخرى نحو اشتداد حدّة المواجهة. بعد أكثر من اربعين عاما، الى أيّ

مـدى كان يمكـن أن يكـون تاريـخ المنطقـة بأكمله لو قـرّرت الولايات المتحدة التعايـش مـع هـذا التعبيـر عن حقّ الشـعب الإيراني في تقريـر مصيره؟ لقد كان نفس النوع من الأخطاء الجيوسياسية والمكلفة، التي ارتكبتها الولايات المتحدة في ڤيتنام وأماكن أخرى.

هناك تفسـيران رئيسـيان لسـبب استمرار مؤسسة الأمن القومي في ارتكاب مثل هذه الأخطاء الجسيمة. أوّلا، هناك فشل للإعتراف بظهور قيود جديدة على الدوّر الفعّال للقوّة العسكرية في النصف الأخير من القرن العشرين في مواجهة المـدّ المتصاعـد للمقاومـة والعـزم والقـدرات الوطنيـة المناهضـة للإسـتعمار. فـي النهايـة، كانـت القومية/الوطنيـة غيـر الغربية أقوى من التدخلات العسـكرية الغربية. سيساعدنا تقدير هذه الحقائق الجديدة للقوة على فهم انهيار الإستعمار الأوروبي على الرغم من الدونية العسـكرية للقوى المناهضة للإسـتعمار. ثانيا، وأقلّ سهولة في التفسير، كان هناك رفض شديد من قِبَل معظم صانعي السياسات وسـتراتيجيي مراكز الأبحاث لصياغة سياسـة خارجية على أسـاس فهم الحدود العسكريّة، ممّا أدّى الى مظاهرات متكرّرة للفشل العسكري في مجموعة متنوّعة من الظروف السياسـية حتى الآن. ومن الغريب أنّه لا توجد تصحيحات مناسـبة لـدورات العنف/الفشـل هـذه. ممّـا لا شـكّ فيـه أنّ الحِفاظ علـى اقتصاد محليّ قائـم علـى الحـرب، يُفسّـر جزئيـا هذا الرفض الذي لا يمكن تفسيره للتعلم من الإخفاقـات العسـكرية المتكـرّرة فـي الخـارج. ما يبدو أنّه يتحـدّى الفهم العام، هـو إدراك أنّـه فـي الظروف التاريخية الأخيرة، غالبا ما تنتج التغييرات السياسـية الرئيسـية عـن طريـق التعبئة الشـعبية للسـكّان المحليين كردّ فعـل لتدخّل القوى الإقتصادية والعسكرية الخارجية، التي تسعى الى فرض إرادتها السياسية في تحدّ للحقوق السـيادية للدول. في الوقت ذاته، يظهِر صعود القادة الديماگوگيين أنّ الشعوب، في الوقت الذي تقاوم فيه التدخّلات الأجنبية، تبدو على نحو متزايد علـى اسـتعداد للخضـوع للقهر الحكومي الوطني، وفـي بعض الحالات، تُعتبِره ضروريّا، لتخليص نفسها بشكل فعّال من الهيمنة الأجنبية، التي يُنظَر إليها على أنّها هي الشرّ الأكبر.

إثـر مغادرتنـا لإيـران، أجـرى وزيـر الخارجيـة فـي حكومـة كارتـر، وارِن

كرِستوفر، الـذي كان قـد خـدم في عهد رامزي كلارك حين كان يشـغل منصب وزيرا للعدل، للتأكّد من أنّ سَـوليڤَن قد ادلى فعلا خلال اجتماع الوفد به بمثل تلك التصريحات الإستفزازية، التي تنتقد واشنطن، وأنّه لم يُبذل أيّ جهد لإعلان تبادل الآراء غير الرسمي. بعد تأكيد رامزي له، يبدو أنّ مسيرة سَوليڤَن المهنية قد تعرّضت لضربة كبيرة لم نتوقعها ولم نعتزمها. حتى ذلك الحين، أعتبِر سَوليڤَن ناجحـا للغايـة مـن خلال الإجـراءات البيروقراطية، ولكن بعد ذلك بدا أنّ حياته المهنية قد تدهورت. كما هو الحال في كثير من الأحيان، يبدو أنّ سَـوليڤَن قد تمّت مكافأته على سجله في جرائم حرب لاوس بتعيينه سفيرا في إيران، وها هو الآن يُعاقب على تقييمه الدقيق والضميري للوضع الجاري في إيران وتشـجيعه لبناء ردّ پراگماتي على انهيار نظام الشـاه. أدرك سَـوليڤَن بالتأكيد غياب القوات المحلية في إيران واسـتعدادها للقتال من أجل اسـتعادة حكم الأسـرة الپهلوية، التـي حكمـت إيـران تقريبا دون انقطـاع على مدى 2500 عاما الماضية. لقد عنى هذا أنّه لم يكن هناك حقا أيّ بديل سياسي للولايات المتحدة سوى قبول الواقع الجديد والأمل في الأفضل.

إنّه لأمر مأساوي أنّ تلك النصيحة لم يتمّ اتباعها، وقد تركت لديّ شعورا متعاطفـا الـى حـدّ مـا مع وِليَم سَوليڤَن، وهو شـعور لم اتوقعه أبـدا نظرا لدوره السـابق فـي لاوس أثنـاء حـرب ڤيتنام. لم أكن أرغـب في إلحاق الأذى به نتيجة صراحتـه معنـا فـي لقائنـا، والذي أظنّ أنّه اتخذ ذلك الشـكل من الشـكوى لأنّه شـعر بالإحباط الشـديد بسبب رفض برِجِنسكي معالجة الوضع الإيراني الجديد بطريقة واقعية.

محادثة مع آية الله روح الله الخُمَيني

قيل لنا قبل وقت قصير من مغادرة إيران، إنّه سيتمّ منحنا فرصة نادرة للقاء آية الله الخَمَيني خلال توقف طائرتنا في پاريس في طريق العودة الى الولايات المتحـدة. تـمّ تقديـم فرصة الإجتماع هـذه كتعبير عن الإمتنان لقدومنا الى إيران فـي ذلـك الوقـت المضطـرب واجـراء محادثات مفيدة مع مجموعة واسـعة من الشـخصيات. وصلنا الى پاريس ونحن نحمل مجموعة متنوّعة من الإنطباعات

القوية، التي نشأت عن اجتماعاتنا خلال الأسبوعين الماضيين. من ابرزها آراء محام بارز في مجال حقوق الإنسان، اشتكى ببصيرة ثاقبة من أنّ «الثورة حدثت بسرعة كبيرة. نحن لسنا مستعدّين لتشكيل المستقبل». ولم تخجل النساء من القول أنّهن قد تحمّلن استياءهن من الهيمنة الأبوية في إيران وذلك للحفاظ على الوحدة من أجل التخلص من الشاه وزخارفه الإمبراطورية. لكنّ هذه كانت حركة محسوبة ومؤقتة. كانت صرخة حشد النساء اللواتي التقينا بهنّ دون استثناء، «نحن التاليات!» ولكن على حدّ علمي بعد أربعة عقود، لم تأتِ لحظتهنّ أبدا. أخبرتني إمرأة «عصريّة» واحدة على الأقلّ، أنّها كانت تخشى في البداية ظهور الإسلام هذا، لكنّها اصبحت سعيدة بعد ذلك لتوفير الوقت والمال، الذي أهدرته في السابق بسبب طقوسها التجميلية ولباسها الغربي. قالت إنّه منذ ارتدت الچادور، اصبح لديها المزيد من الوقت لتركيز طاقاتها على الأنشطة، التي تهتمّ بها حقا. قد لا يكون هذا ردّ فعل نموذجي بين النساء العلمانيات في طهران، ولم يأخذ في الإعتبار التطبيق القسري للإسلام وحظر الكحول الذي يكمن وراء الإنطباع بأنّ الجمهورية الإسلامية فرضت هذه السمات الثقافية الإسلامية كخطوات نحو ترسيخ النظام الإصولي في إيران، البلد الذي كثيرا ما يوصف شعبه لنا، أعتقد الآن بشكل غير دقيق، أنّه محافظ اجتماعيا، ولكن ليس متديّنا بشكل خاصّ.

إلتقينا بالزعيم الديني الإيراني في خيمته الشهيرة في Neufle–le–Chateau، إحدى ضواحي باريس، حيث التقى الخُمَني بالزوار وتحدّث الى وسائل الإعلام. منذ وصوله الى باريس، اصبح الخُمَني أكثر بروزا في الساحة العامة، عن طريق اجراء المقابلات والإدلاء بتصريحات لمئات الصحفيين المجتمعين وإرسال أشرطة كاسيت لأتباعه في إيران والقيام بدور نشط في توجيه المقاومة اليومية، التي كانت تدفع بحملتها لإسقاط سلطة الشاه بحماس غير مُتوقع. كان المترجم الفوري للخُمَيني على ما يبدو هو صادق قطب زاده، الذي تلقى تعليمه في الولايات المتحدة ولخّصت قصته الشخصية عن الصعود والهبوط لتجربة العديد من المؤيدين الأوائل من غير رجال الدين لقيادة الخُميَني. أصبح قطب زاده وزيرا للخارجية في أوّل حكومة مُنتخَبَة، ثمّ ترشّح لمنصب الرئيس لكنّه

كان ضعيفا واتِّهم بخيانة الحكومة التي خدمها وأعدِم فيما بعد عندما بدأت الثورة تلتهم انصارها السابقين. وهو نمط عكس مصير الفرنسيين المناهضين للدين وللثورات الروسية. ولكن في حالة إيران، كانت أيديولوجية ذات عداء ديني اساسي هي التي حفّزت حملات التطهير العنيف في صفوفها.

عندما تحدثت في النادي الفرنسي، بصفتي الضيف الرسمي لمأدبة غداء في مركز التجارة العالمي بعد بضعة اسابيع، كنت جالسا الى جوار السفير الفرنسي لدى الأمم المتحدة، الذي أخبرني قصة مثيرة للإهتمام تتعلق يصعود الخُمَيني من الغموض الدولي والمفاهيم الخاطئة للسلطة في الغرب العلماني. في عام 1978، لم يعد صدام حسين يريد بقاء الخُمَيني في مدينة النجف في العراق، حيث يؤجّج نيران الحركة الإستفزازية المناهضة للشاه في إيران، والتي يمكن أن تنتج أزمة غير مرحّب بها في العلاقات بين إيران والعراق. ردّا على ذلك، تقدّم الخُمَيني بطلب للحصول على تأشيرة فرنسية. طلب السفير الفرنسي في طهران المشورة من الشاه، «هل نصدر له تأشيرة فرنسية؟» إعترف الشاه ضمنيّا بأنّ الخُمَيني خصم قويّ، وأجاب بالإيجاب، «أريده بعيدا عن إيران قدر الإمكان. يُرجى منحه التأشيرة». أصدرت الحكومة الفرنسية تأشيرة الخُميني ولكن لمدة ثلاثة أشهر فقط. وعندما حان وقت التجديد، عاد الدبلوماسي الى القصر في طهران ليُحدّد ما إذا كان الشاه قد غيّر رأيه. نظرا لتأثير الخُمَيني المُتزايد على الرأي العام العالمي اثناء وجوده في مقرّ اقامته في باريس، حثّ الشاه فرنسا مرّة أخرى على تمديد تأشيرة الخُميني قائلا إنّه يريده أن يكون بعيدا جغرافيا عن إيران. يبدو هذا غريبا، لأنّ الإفتراض المُسبق خطأ بأنّ القوّة والتأثير في العالم يظلان من وظائف الجغرافية بدلا من انعكاس الوصول الى الإتصالات العالمية. تجاهلت هذه العقليةالمكانية الإمتداد غير الإقليمي لوسائل الإعلام والرأي العالمي في أواخر القرن العشرين.

جرت هذه المحادثة التي سبقت حديثي في مطعم Windows on the World في الطابق العلوي من مركز التجارة العالمي. وهي المرّة الوحيدة التي كنت فيها حاضرا في هذا المكان الشهير، الذي اصبح فيما بعد مركزا للأحداث، التي غيّرت مجرى تاريخ العالم بعد أن استهدفته هجمات الحادي عشر من سبتمبر

عـام 2001. بالطبـع لـم يخطر ببالي شـيء مـن هذا القبيل في ذلك الوقت، ولكن غالبـا مـا ذكّرنـي مـا جرى هناك بأنّ ما يبدو شـبه دائـم يمكن أن يختفي من وجه الأرض في لحظة.

بدأت محادثتنا مع الخُمَيني ببعض المجاملات، لكنّها سـرعان ما تحوّلت الـي جدّيـة، حيـث وجّـه آيـة الله المشـهور عالميا عدة اسـئلة الينا بينما جلسـنا بهدوء مفتونين بعينيه السوداوتين اللامعتين. سأل عمّا إذا كنّا نعتقد أنّ الحكومة الأمريكيـة سـتقبل بنتيجـة التطـورات الثورية في إيران، وبدا أنّه يشـير الى أنّه إذا كان هنـاك مثـل هـذا القبـول، فإنّ العلاقات الطبيعية بين البلدين سـتكون ممكنة ومرغوبة. ممّا لاشكّ فيه أنّ انشغاله الرئيسي، الذي يشبه ما سمعناه مرارا وتكرارا خلال زيارتنا، هو ما إذا كنّا نعتقد أنّ حكومة الولايات المتحدة ستحاول تكرار تجربـة عـام 1953، وتتدخّـل لإعـادة الشـاه الى العرش. لـم يكن هذا مصدر قلق غير معقول أو ظاهرة لجنون العظمة، بالنظر الى تاريخ علاقة الولايات المتحدة مع إيران منذ انقلاب 1953، وبالنظر الى الأهمية الستراتيجية لإيران كحليف في الحرب الباردة وداعما غير مشروط لمصالح الولايات المتحدة في المنطقة.

سـألنا الخُمَينـي أيضـا، وبشـكل مفاجـئ نوعا مـا، عمّا إذا كانـت الحكومة الأمريكية ستحترم العقود السابقة لشراء الأسلحة على نطاق واسع من قِبَل إيران في الظروف الجديدة لما بعد الشاه. كان من المؤكّد أنّه كان فضوليا بشأن ما إذا كان الشاه، الذي لم يستقرّ بعد في المكان، الذي سيقيم فيه بعد مغادرته، سينتهي به المطاف في الولايات المتحدة. وإذا فعل ذلك، فهل سيؤثر الأمر على السياسة الأمريكية اتجاه إيران. أخبرني منصور فَرهَنگ بعد أشـهر أنّه عندما انتهى الأمر بالشـاه الـى دخـول الولايـات المتحدة لتلقـي العلاج الطبّي على ما يبدو، سـأل الخُمَيني منصور عمّا إذا كان يعتقد أنّ الإدّعاء الصّحي حقيقي. قال منصور إنّه أخبر الخُمَيني بأنّه يعتقد أنّ الصحة هي السـبب الحقيقي، لأنّ الشـاه كان يعاني من مرض السرطان. أجاب الخُمَيني، «إذن، هذا مقبول». غيّر الخُمَيني رأيه بعد اسـتيلاء الطلاب على السـفارة الأمريكية بعد ذلك بوقت قصير، وأخذ شـاغليها الأمريكييـن كرهائـن، ونجح في مطالبة الحكومة بتنفيذ أكثر راديكالية لمستقبل إيران الثوري. يبدو أنّ الأحداث على الأرض تغيّرت، وقد حوّل الخُمَيني أولوياته

من الحماية ضدّ الإنقلاب الموالي للشاه، الى تحقيق رؤيته الثورية لهيكل حكم إسلامي لإيران بعد انقضاء سلطة السلالة الحاكمة.

عندما جاء دورنا لطرح الأسئلة، سألنا عن آرائه حول الحركة، التي يبدو الآن أنّه يقودها والتي نجحت في الإطاحة بسلالة پهلوي، التي كانت تبدو ذات يوم قويّة وغير معرّضة للخطر. كانت إيران منتجا رئيسيّا للنفط وكانت محورا ستراتيجيا في الجغرافية السياسية، التي استحوذت افكارها على الستراتيجية الأمريكية الكُبرى في فترة الحرب الباردة، وكانت دولة أطلقت منها وكالة المخابرات المركزية مشاريع مراقبة وعمليات استخباراتية استهدفت الإتحاد السوڤيتي، وكانت تفعل ما يحلو لها في إيران. إستجاب الخُمَيني دون مراوغة وقال بإيجاز ووضوح شخص مطلع على فهم شامل. وكما هو مُتوقع، أصرّ على أنّه إذا أرادت الولايات المتحدة أن تكون لها علاقات جيّدة مع إيران في المستقبل، فعليها ألا تستمرّ في استخدام الأراضي الإيرانية لتلك الأغراض، على الأقلّ ليس بدون موافقة صريحة من الحكومة الإيرانية.

سألناه كيف ينظر الى الثورة الإيرانية وماذا تعني للمستقبل. قبل الردّ أكثر، قام بتصحيح صيغتنا. «ما حدث في إيران هو ثورة إسلامية وليست ثورة وطنية في جوهرها. بل بالأحرى شكلها الإسلام كدين وحضارة». هذه الإجابة أهم ممّا يبدو لأنّها كانت طريقته غير المباشرة في الردّ على القائلين إنّ المجتمع الأكثر صلة بشعب إيران لم يكن الشعب ذو الإتجاهات القومية، بل مشاركتهم في الأمّة الإسلامية غير الإقليمية، وأنّ الثورة، التي بدأت في إيران لها الكثير من المشاريع غير المكتملة في جميع انحاء العالم الإسلامي. لم يُشِر الخُمَيني بشكل ملحوظ الى التوترات الطائفية المرتبطة بالإنقسام الشيعي/السنّي، الذي كان يطارد المنطقة في أوائل القرن الحادي والعشرين، خاصّة بعد أن شنّت الولايات المتحدة هجومها على العراق عام 2003.

في الإنتقال الى سؤالنا حول دوره المستقبلي، أشار الخُمَيني أولا أنّه دخل السياسة على مضض وفقط لأنّه في إيران، «كان هناك نهر من الدماء يفصل ما بين الشعب والحكومة». ذكر لنا أنّه بعد عودته الى إيران إثر 15 عاما من المنفى، يتطلع الى استئناف حياة دينية هادئة في قُمّ. كلّ شيء عن سلوكه ولغة

جسده أعطى مصداقية لهذا التأكيد كتعبير صادق عن رغبته، على الأقلّ في تلك اللحظة. من المهم أن نتذكّر أنّه كان خارج إيران طوال تلك الفترة ولا بُدّ أنّه تساءل عن الإستقبال، الذي سيحظى به عند عودته من قبل الشعب الإيراني ومن المجتمع الديني في البلاد.

أتذكّر أنّني سألت عن مصير اليهود والبهائيين في إيران ما بعد الثورة، وأنا أعلم بعداء الخُمَيني لإسرائيل والدين البهائي. تردّدت شائعات بأنّ هاتين الأقليتين تواجهان مشكلة كبيرة بسبب تعاونهما البارز مع عهد الشاه. في الخلفية كان وعيي بحقيقة أنّ الشاه الذي لا يؤمن بالثقة وغير الآمن، قد اعتمد على هذه الأقليات الضعيفة والصغيرة الى حدّ ما لشغل مناصب رئيسية وحساسة في الحُكم. كانت فائدتهما مرتبطة بشكل مباشر بضعفهما. على ما يبدو، كان من المُفترض أن يكون أعضائهما ضعفاء ومعزولين للغاية بحيث لا يمكنهم القيام بأيّ نوع من الحركة المعارضة، التي قد تميل الى تحدّي النظام الإمبراطوري.

لم يثق الشاه حتى في قيادة القوّات المسلحة الإيرانية أو نُخب الجماعات العرقية الأكثر نفوذا، والتي شكّلت العمود الفقري للمجتمع الإيراني. ما قاله الخُمَيني في ذلك الوقت أثار اهتمامي وبدا عميق التفكير وتصوير دقيق لآرائه. قال الخُمَيني، «في الواقع لليهود تقليد تاريخي عظيم ولهم دين حقيقي». وأضاف، «بشرط ألا يتورّطوا مع إسرائيل، يكون لهم مستقبل آمن في البلاد. وهذه ستكون مأساة لنا إذا غادروا إيران».

بالنسبة الى البهائيين، كان ردّه مختلفا بشكل كبير. «البهائيون طائفة وليسوا دينا حقيقيا، وليس لهم مكان في إيران الجديدة». ينظر العديد من المسلمين الى البهائيين على أنّهم هراطقة، وليسوا اتباع دين أصيل، بل بالأحرى منشقّون إسلاميا وهذه هرطقة. في الإعتراف بحضرة بهاءالله أو حضرة الباب، الذي عاش بعد محمد كنبي، هو مخالف للإعتقاد الإسلامي بأنّ النبي محمد هو خاتم انبياء الله. علاوة على ذلك، فإنّ اعتماد البهائيين على العقل بدلا من الوحي، يجعل أيمانهم مشكوكا فيه بالنسبة للعديد من المسلمين المتدينين. وكما اتضح فيما بعد، كان الفضل للخُمَيني بعد ذلك بوقت قصير بفرض اعتدال على التحركات العقابية الشديدة ضدّ البهائيين. يعتقد بعض المراقبين للمشهد الإيراني أنّ تدخّل

الخُمَيني هذا أدى الى تجنّب ما كان يمكن أن يتحوّل الى إبادة جماعية. كان الخطر حقيقيا، حين كان العديد من الملالي الشباب الراديكاليين العاطفيين يُطالبون بالإنتقام الشديد من البهائيين.

كشف الخُمَيني خلال المقابلة عن ثلاثة جوانب أخرى من رؤيته للعالم، تبدو جديرة بالملاحظة من منظور الحاضر. بادئ ذي بدء، تحدّث علانية عن إمكانية انتشار الإسلام السياسي في جميع انحاء الشرق الأوسط وشمال افريقيا. في أحاديثه وكتاباته، على الرغم من غرقها في التقليد الشيعي، لم يتذرّع الخُمَيني أو يؤيّد نوع الإنقسامات الطائفية، التي اصبحت واضحة جدّا في العلاقات بين إيران والعديد من من الدول العربية في القرن الحادي والعشرين. كان تعزيز الطائفية أحد أسوأ تركات الإحتلال الأمريكي للعراق بعد عام 2003. لقد جعل الدبلوماسي الأمريكي، پول بريمَر، المسؤول عن إدارة احتلال العراق، من أولويات السياسة إزاحة القيادة السنيّة، التي اعتمد عليها صدّام حسين لحكم الأغلبية الشيعيّة. ساهمت عمليات التطهير هذه ضدّ السنّة، خاصة في المناصب العليا في القوّات المسلحة، في صعود المتطرّفين في العراق، وعلى ما يبدو توظيفهم في المراتب العسكرية العليا في البلد والتمهيد لظهور مشاكل منظمة داعش. ظهر أنّ بريمر كان مخطئا في اعتقادة أنّ القومية العراقية والبلقنة الداخلية ستطغى على العلاقات الدينية والحضارية العابرة للحدود، **مع إضعاف دولة العراق، التي طالما كانت الأولوية الإقليمية العليا لإسرائيل** وما يتعلق بجيرانها العرب. ما تبع ذلك نتيجة لارتقاء الشيعة على أسس طائفية، لم يكن التأكيد المتوقع للقومية العراقية ذات الميول الغربية. بالأحرى ما جرى هو إقامة ارتباط أقوى بكثير مع الثيوقراطية الشيعية الإيرانية. وهي النتيجة المعاكسة تماما للأهداف الجيوسياسية المنشودة للإدارة الأمريكية في هجومها على العراق واحتلاله.

هذه نقطة مركزية يغفلها الفكر الغربي باستمرار أو يربكها. النموذج الوستفالي Westphalian Template للدول ذات السيادة الإقليمية، الذي ظهر في أوروپا منذ القرن السابع عشر لا يتمتع بنفس الفاعلية السياسية والشرعية الأخلاقية في انماط التفكير الأقلّ اقليميا، والتي صار لها صدى في المجالات الإسلامية، لا سيّما في الدول العربية وتركيا وإيران، على الرغم من أنّه ربّما

يكون أقلّ من ذلك في اندونيسيا وماليزيا وپاكستان والهند. كان التخيّل الأساسي للخُمَيني إسلاميّا وغير إقليمي. وقد أدّى ذلك الى اضعاف نظرته على الأقلّ، حتى شنّ العراق هجومه على إيران عام 1980، حين استجابت ردود أفعال طهران القومية وأظهرت قدرات دفاعية قويّة بشكل مدهش مدعومة بتدفق من الوحدة الوطنية.

وجهة النظر الثانية ذات الصلة والتي عبّر عنها الخُمَيني، دون أدنى تلميح من المشاعر الطائفية، كانت موقفا من العداء الشديد اتجاه السعودية لحدّ تشبيه نظام الحكم بنظام الشاه وربط الفساد بتبني النخبة أساليب الحياة والقيم الغربية بخلاف النسخة الوهابية الصارمة للإسلام التي يتمّ دعمها، خاصّة في آسيا. ممّا لا شكّ فيه أنّ هذا العداء اتجاه النظام السعودي قد تفاقم ايضا بسبب حقيقة أنّ أقدس المواقع الإسلامية مكة والمدينة واقعتان في الأرض السعودية. من الواضح أنّ لدى الخُمّيني مشاعر قويّة بسبب موضوع أقدس أماكن العبادة الإسلامية، التي تنتمي برأيه للمجتمع الإسلامي ككُلَ، وليس الى دولة واحدة ذات سيادة.

الردّ الثالث المثير للإهتمام يتعلق بسؤالنا عن المصير المحتمل لمن ارتكبوا أعمالا قذرة نيابة عن نظام الشاه في إيران. أشار الخُمَيني الى توقعه بعقد محاكمات من نوع نورِمبَرگ يتمّ فيها إعداد لوائح تهم بارتكاب جرائم جنائية والنظر فيها ضمن الإجراءات القضائية وتجري وفقا للإجراءات القانونية الواجبة وسيادة القانون. لم تحدث مثل هذه المحاكمات قطّ. وبدلا من ذلك، تمّ إعدام الشخصيات السياسية من المتهمين بلعب أدوار قيادية في تنفيذ سياسات الشاه القمعيّة، بعد إجراءات شكلية موجزة ولم يُمنحوا أبدا أيّ حقّ في الدفاع عن سلوكهم أو أنفسهم. التفسير الذي قدّمه مؤيدوا هذه الإعدامات السريعة هو أنّه لوتمّت احراءات محاكمات علنية، فإنّ شهادة هؤلاء المتهمين البارزين ستورّط العديد من المُقرّبين من الخُمَيني نفسه، الذين عملوا مع الحكومة الأمريكية أو لصالحها عندما كانت الهويات الإسلاميّة مفضّلة في دوائر المخابرات الأمريكية باعتبارها ضدّ النزعات الماركسية.

لقد كانت مجموعتنا في الواقع هي التي أنهت الإجتماع مع الخُمَيني، ممّا

فاجأه على ما يبدو، حيث وقف فجأة وودّعنا بكلمات قليلة وغادر الخيمة على عجل. عندما سارعنا للحاق بطائرتنا، أدركت أنّنا قد اختبرنا للتوّ شيئا ذا قيمة كبيرة على شكل محادثة مفتوحة وكاشفة مع شخصية مُقدّر لها أن تصنع التاريخ لبلدها وللعالم الإسلامي. لقد أدهشتني الشدّة الظاهرة لحساسيّة الخُمَيني عندما وصل الينا. كنت أرغب طوال المقابلة في أن أسأل هذه الشخصية الدينية الموقّرة عن مكان الفرح والسرور في الحياة، لكنّني لم أحصل على فرصة. كنت متردّدا باعتراف الجميع في إثارة قضايا من المحتمل أن يتمّ رفضها أو الإعلان عنها بأنّها غير ذات صلة، وبالتالي ربّما تتدخّل في رغبة الخُمَيني في أن يكون متعاونا ومتجاوبا.

أتذكّر محادثتي في مأدبة غداء للأمم المتحدة بعد ثمانية أو تسعة أشهر مع مايك وَلاس، صحفي قناة سي بي أس الشهير، الذي عاد لتوه من طهران، حين حاول إجراء مقابلة مع الخُمَيني في خضمّ أزمة رهائن السفارة الأمريكية. أدرك وَلاس أنّه أفسد مهمّته وسألني، بطريقة غير مفعمة بالحيوية، عمّا كان يمكن أن يفعله بشكل مختلف للحصول على نتائج أفضل. مشكلة نهج وَلاس، كما رأيتها، تكمن في جزء منها في جهوده الحثيثة لمحاصرة آية الله كما لو كان يستجوب زعيما سياسيّا أمريكيّا في مؤتمر صحفي. كما تمّ التأكيد على عدم ملائمة هذا الأسلوب من خلال صياغة وَلاس لأسئلته بلغة البَزار. تصرّف وَلاس كما لو أنّ إطلاق سراح الرهائن الأمريكيين، الذين تمّ احتجازهم في السفارة في خريف عام 1979، وهي القضية الأبرز في ذلك الوقت، أنّ المسألة كانت عقد صفقة والحصول على ما هو مناسب من المزايا لإيران مقابل إطلاق سراح الرهائن الأمريكيين. هذا النهج قد أخطأ النقطة. بالنسبة للخُمَيني، أثارت أزمة الرهائن قضايا مبدأية تتعلق بالإستخدامات السابقة للسفارة كقاعدة للتدخّل في الشؤون الداخلية لإيران والمخاوف بشأن التدخّلات المُستقبلية، وأيضا القضايا، التي لم يُكشف عنها وتتعلق بالسياسة الإيرانية الداخلية. عَلِم وَلاس باجتماعي مع الخُمَيني، ممّا دفعه لطلب رأيي. بدا بعد ذلك حقيقة أنّه فهم عدم مناسبة نهجه لاستنباط ردود مفيدة من زعيم ديني، ربّما لم يُسبق له زيارة سوق في حياته كلها، وشعر بلا شك بالإهانة من التلميح الى أنّ ازمة

الرهائن يمكن اختزالها لتشبه صفقة روتينية مع صاحب متجر في طهران.

عـاد الخُمَينـي الـى إيـران بعد أقل من اسـبوعين من زيارتنـا له في باريس، واسـتقبلته حشـود متحمّسـة نظرت إليه على أنّه إمام، وهي هوية مقدّسـة للغاية لدى مجموعات متنوّعة من الفِكر الشـيعي تتوقّع عودة الإمام المهدي المُنتظرة والمظفّرة. المهدي إمام إختفى منذ قرون وستشير عودته الى بداية نهاية التاريخ. في الواقع وجدنا أنّ دليلا على النظرة السياسية لشخص ما في إيران ينقله مصطلح الإحترام المستخدم، آية الله أو آية الله العُظمى، مخصّص لأولئك الأكثر تكريسا وقدسيّة، واللقب في الواقع محجوز حصريا للخميني، الإمام. وبدا أنّ الخُمَيني متمسّـك بمـا قالـه لنـا فـي باريس، من خـلال إقامته على الفور فـي قُمّ والعيش وفقـا لروتينـه الدينـي اليومي. ومع ذلك، فإنّ الإضرابات في إيران جعلت حياته غير هادئة. تضمّن جدوله اليومي متابعة مستمرّة للزوّار والصحفيين من طهران، الذين يبحثون عن آرائه، وفي كثير من الأحيان إرشـاده. كان دائما محاطا بعدد كبيـر مـن رجـال الدين، الذيـن دفعوا الى الإعتقاد بـأنّ الخُمَيني وحده هو الذي يستطيع منع الثورة من الإنحراف عن مسارها وتبنّي شكل علماني للحكم. كان هناك قلق حقيقي في هذه الأوساط الدينيّة من أنّ الثورة يمكن أن يتمّ اختطافها مـن قِبَـل العِلمانييـن، ويقودها حاليا قادة أضعف من أن يحموا إيران من اعدائها الداخلييـن والخارجييـن، الذيـن كانوا يمارسـون مجموعـة متنوّعة من الضغوط ويُشكّلون تهديدات معادية للثورة.

ما ظلّ محيّرا في ذهني، وحاولت لفترة من الوقت إقناع اصدقائي العارفين وغيرهم بتفسـير ذلك لي، عن الفروق بين ما قاله الخُمَيني لنا في باريس وما فعله في إيران. كان بإمكان منصور فَرهَنگ، الذي كان على اتصال مبكّر كبير مع الخُميني ويمتلك الأدوات التحليلية لعرض القضايا ذات الصلة، أن يقدّم سيرة سياسية مضيئة لتحوّل الخُمَيني من زعيم ديني في المقام الأوّل كان لديه دائما اهتمام شديد بالقضايا السياسيّة والحاجة الى تحدّي الحداثة والعلمانية الغربية في إيران، ثمّ تحوّل الى شخصية ثيوقراطية واصبح زعيما سياسيّا بعد الثورة يتمتع بالسلطة العليا. بمعنى عميق، كان الخُمَيني حتى اثناء مقابلته معنا بدا أنّه عاش حياة دينية في العراق ثمّ تحوّل الى «سياسي» بشكل مكثّف، وفق

ما اعتبره العديد من الناشطين ذوي التوجّهات الدينية، بما في ذلك العديد من الناشطين من طلاب اللاهوت. هناك عدة خطوط واضحة لتفسير هذا التحوّل من شخصية دينية منخرطة في السياسة الى زعيم سياسي شديد التديّن. ربّما يكون هناك أكثر من تفسير واحد وثيق الصلة بالموضوع. لم يدرك الخُمَيني، وهو خارج البلاد لفترة طويلة، سيطرته على الإحساس الشعبي الذي نشأ عن الثورة. على الرغم من نواياه في پاريس، بدأ العلمانيون والإسلاميون اللِبراليون المسؤولون عن البلاد متناقضين للغاية في النظرة ومتردّدون للغاية في الأسلوب لتحمّل التهديدات المتزايدة المضادّة للثورة. من المُحتمل أنّ الخُميني شعر بأنّ هناك حاجة الى شيء أكثر راديكالية لإنقاذ الثورة من الأعداء الداخليين وكذلك التهديدات الخارجية بالتدخّل. قد يكون من المناسب أيضا أن يكون أقرب مستشاري الخُمِيني من المسلمين ذوي التوجّهات الدينية، الذين اعتقدوا أنّ هذا الزعيم الديني ذا الشخصية الكارِزمية هو الوحيد القادر على قيادة البلاد وفق عملية إنتقالية قادرة على تأمين إنشاء جمهورية إيران الإسلامية، وتجنّب الأفخاخ الغربية والحداثية والعِلمانية اللِبرالية والإشتراكية الماديّة. لا تزال حالة عدم اليقين المركزية، التي أحاطت بالمراحل الأخيرة من رحلة الخُميني قائمة.

عند وصولنا الى الولايات المتحدة، كان هناك مؤتمر صحفي كبير استحوذ فيه رامزي على معظم الحديث. شعرت أنّه تحدّث بلطافة الى حدّ ما دون أن ينقل انطباعي عن هذا الشخص الإستثنائي، الذي بدا أكثر ملاءمة للقرن الخامس عشر مننه الى القرن العشرين. ومع ذلك فقد ظهر في إيران وجميع انحاء العالم الإسلامي وعلى المسرح العالمي، كلاعب سياسي رائد.

فور وصولي الى منزلي تقريبا تلقيت مكالمة هاتفية من محرّر الرأي في صحيفة نو يورك تايمز، دعاني لتقديم ملف تعريف عن الخُمَيني وطلب إرسال النّصّ في غضون 24 ساعة. أخبرني أنّ الشعب الأمريكي لا يعرف شيئا عن «شخصية القرون الوسطى» التي بدت وكأنّها تجسّد روح الثورة الإيرانية. إعتقدت أنّها كانت فرصة جيّدة للتعبير عن وجهة نظر أكثر تعاطفا بشأن ما كان يحدث في إيران. لكنّني كنت أفضّل مزيدا من الوقت لإعداد شيء يتمّ الإطلاع

عليه من قِبَل أعضاء الوفد الآخرين، وأكثر انعكاسا لإحساسي المعقّد حول الخُمَيني وما سيكون دوره في إيران بمجرّد عودته للبلاد. وكما كان الأمر، كنت أحبّ أن أحاول الكتابة عن مستقبل إيران دون نُذِر شؤم مظلمة، ثمّ يتمّ نشر التقرير من قِبَل وسائل الإعلام، التي اعطت احتراما لا داعيَ له للسياسات الفاشلة لنهج كارتر/برِجنسكي الموالي للشاه. أردت أن أنقل إيماني وأملت أن يتمّ استكشاف طريق للتطبيع مع إيران، قبل أن تُسرِع واشنطن لتبني نهج المواجهة. أدركت أنّ هذا ينطوي على مخاطر الرفض والفشل. لكنّني اعتقدت حينها وما زلت أفكّر الآن، أنّها كانت مخاطرة في السياسة الخارجية تستحقّ المخاطرة.

نُشِر مقالي في صفحة الرأي الخاص بتاريخ 16 شباط من عام 1979 بعنوان استفزازي وغير مسؤول لم أطلع عليه مطلقا قبل النشر. كان هذا نموذجا لأسلوب تايمز المتغطرِس. لم يكن العنوان الرئيسي، «الثقة في الخُمَيني» هو الإنطباع الذي أردت نقله على الإطلاق. لم أكن لأختار مثل هذا العنوان مطلقا وما كنت أوافق لو تمّت استشارتي. أولد هذا العنوان أكثر بكثير من مجرّد المقال الدقيق، مجموعة من الإهانات، بما في ذلك التهديدات بالقتل والإدّعاءات بأنّ القيادة الإيرانية الجديدة قد اختطفتني وغسلت دماغي.

غضب بعض اعضاء جمعية خريجي برِنستُن من مثل هذا العرض التقديمي لآرائي في وسائل الإعلام الرئيسية، وربّما أكثر من ذلك بسبب صداقتي الحميمة مع رامزي كلارك. أصبح رامزي يُعتبَر المرتدّ الأكثر صراحة وتأثيرا على المؤسسة الأمريكية ومسلماتها المتعلقة بالأمن القومي، منذ أن نشر دان إلزبَرگ **أوراق البِنتگون** في أوائل السبعينات. ولم يكن هناك عضو من النخبة السياسية قد تحدّى إجماع الحزبين ووضع قيودا ضيّقة على السلوك السياسي المقبول للمؤسسة السياسية للولايات المتحدة.

أكثر من موقفي في حرب ڤيتنام، بما في ذلك رحلاتي الى هَنوي، ولدت هذه الزيارة الى إيران ردود فعل كان لها العديد من التموّجات ممّا جعلني مذهولا الى حدّ ما لأنّني ذهبت الى إيران بشكل أساسي للمراقبة والتعلم دون أيّة أجندة سياسية مسبقة. اهتمامي السابق بإيران هو لحماية حقوق الإنسان، وليس في اختيار مستقبل سياسي للبلاد. ومع ذلك فقد تعرّضت لانتقادات

حـادّة لتدخلـي المزعـوم في الشـؤون السياسـية للبلـد. في الأشـهر التالية، كان كاتـب العمـود اللِبرالـي المؤثّـر في نـو يورك تايمز، أنتوني لِـوِس، ضيفا متحدّثا فـي پرِنستُن. أجرينـا في أحدى حفلات الإسـتقبال محادثة حـول الأحداث في إيران. علم توني بزيارتي ومقالة الرأي واسـتغلّ الفرصة لشـن هجوم شـخصي بغيض. إنتقدني لدعمي للثورة الإيرانية ومعارضتي للشـاه. لقد فوجئت بشـكل خـاصّ بمـدى دعـم لِوِس للشـاه، نظرا لمؤهلاته كصحفـي لِبرالي كان نجما في تلك الحقبة.

أزعجني لِوِس أكثر من خلال متابعة محادثتنا بكتابة عمود لاذع بتاريخ 12 آذار من عام 1979 أدان فيه آرائي باعتبارها سـاذجة بشـكل خطير. لقد صوّرني أيضا على أنّني نموذج لشخص من اليسار الجاهل. تبع هجوم لِوِس بعد بضعة اسـابيع إفتتاحيـة غيـر موقعـة فـي صحيفة التايمـز ذكرتني بالإسـم فقط كمذنب بازدواجيـة المعاييـر، حيـث اشـتكيت بصوت عـال من انتهاكات الشـاه لحقوق الإنسـان والتزمـت الصمـت عندما تعلق الأمر بالسـلوك القمعي مـن قبَل القيادة الإيرانيـة الجديـدة المعاديـة لأمريـكا. فـي الواقـع نشـرت صحيفـة التايمز تلك الإفتتاحية بدون توقيع ولـم تفسح لي الفرصة لشرح آرائي عن إيران ما بعد الشاه. تجاهلت الإفتتاحية حقيقة أنّني قمت بتشكيل لجنة ترأستها وركّزت بالفعل على فضح الإنتهاكات الجسيمة لحقوق الإنسان في فترة ما بعد الشاه.

الإنفجار الثاني: أزمة الرهائن

لم تكن التطوّرات السياسية في إيران سلسلة من الأحداث يسهل تفسيرها. كان خط إتصالي الرئيسي المستمر هو عن طريق منصور فَرهَنگ، الذي تمّ تعيينه ليكـون أوّل ممثـل لإيـران ما بعـد الثورة في الأمم المتحدة، مع وجود مقر إقامة رسمي تحت تصرّفه في الشارع رقم 5 في نو يورك. كانت الإنتخابات قد وضعت الإسـلاميين المعتدلين مثل بني صدر والعلمانيين غير السياسـيين والتكنوقراط مسئولين عن تشـكيل حكومة جديدة في إيران. بقي الخُمَني في البداية في قُمّ، ولكـن بعـد أن اصبـح واضحـا أنّـه على الرغم مـن القيادة المنتخبـة وفي قضايا مهمّة تتعلق بالسياسـة، فقد كان الخُميني بحكم الواقع هو القائد المُعتَمَد. كان

المسـؤولون، الذين يشـغلون مناصب عليا في الحكومة يرجعون إليه. إنّ تسـمية إيران باسم «جمهورية إيران الإسلامية» نقلت بشكل صحيح حقيقة وجود نظام ديني قائم على أساس دستوري ناشئ في البلاد. سواء كان ذلك سببا أم نتيجة، خلقت التيارات المضادة القوية للمعارضة والقمع توتّرا مستمرا في البلاد، بدعم من جماعات المنفيين الموالين للشاه والموجودين في أوروبا الغربية واسرائيل والمملكة السعودية والولايات المتحدة.

كان العـداء للولايـات المتحـدة قضيـة مميزة للقيـادة الجديدة في طهران والجماعـات الداعمـة لهـا والأكثـر تطرفـا، بمـا في ذلـك الطـلاب الإيرانيون المتدينون. تمّ في وقت مبكر محاصرة السـفارة الأمريكية لفترة وجيزة كتعبير عـن الثـورة المسـتمرّة، إذ ظلـت أحـداث عـام 1953 ذات صلـة مـع اسـتمرار المخـاوف مـن أنّهـا كانت مسـألة وقت فقط قبل أن تشـجّع الولايات المتحدة نوعا من الأحداث المضادة للثورة، على الرغم من أنّ خيار الإنقلاب بدا غير متاح بسـبب انهيار القوات المسـلحة للشـاه وصعود الحرس الثوري الى مواقع الأسبقيّة في الحفاظ على أمن الدولة. ومع ذلك، فإنّ هذا لم يثنِ تماما أولئك الذين يفضّلون سيناريو الثورة المضادة عن البحث عن خيارات أُخرى لزهزعة الإستقرار وعكس النتائج.

عبّـر تطـوّران عـن تطرّف العملية الثورية في إيـران والواقع الموثوق به لردّ الفعل المعادي للثورة. أوّلا، كان هناك تركيز متزايد من قِبَل الخُمَيني على الطابع الإسـلامي للثورة، ممّا أدّى الى مواجهات عنيفة مع حلفاء سـابقين في الصراع ضدّ الشاه، وعلى الأخصّ مع منظمة مجاهدي خلق. تمّ تسليط الضوء على هذه المواجهـة عندمـا اغتالت قنبلة شـخصا اعتبـره الكثيرون في إيران أكثر آيات الله نفوذا بعد الخُمَيني، وهو محمّد بهَشتي. إتّهمت الحكومة مجاهدي خلق بتنفيذ عملية الإغتيال، على الرغم من أنّ الحقائق لا يزال يكتنفها الجدل. ومن الدلائل أيضا على هذا الإتجاه، التدفق المستمرّ للتعليقات المعادية لأمريكا، والتي تضمّ إشارات من الخُمَيني على أنّ الولايات المتحدة هي «الشيطان الأكبر».

ثانيا، كان هناك تراكم لمجموعة متنوعة من الضغوط المضادّة للثورة. على الرغم من أنّ الإنقلاب لم يكن قابلا للتنفيذ، إلا أنّ التوتّر على الحدود العراقية/

الإيرانيـة كان يُنظـر إليـه علـى أنّـه يمثّل جهدا محتملا من قبل واشـنطن لتحقيق تغيير النظام في إيران من خلال التدخّل العسـكري العلني. كان من المُعتقد أنّه مع وجود القوات العسـكرية الإيرانية في حالة فوضى، فإنّ أيّ هجوم عسـكري تقريبا سـيؤدّي الى الإنهيار السـريع للنظام السياسـي الجديد. وسـيكون ذلك إمّا متبوعا بدعوة من الوجهاء الإيرانيين للشـاه لاسـتئناف حكمه، أو بمحاولة دعم من الولايات المتحدة لأعضاء النخبة العلمانية الإيرانية لتشـكيل حكومة ليسـت ملكيّة ولا إسلاميّة.

كان تسلسل الأحداث الفعلية مختلفا. تمّ قبول دخول الشاه الى الولايات المتحدة بعد زيارة العديد من البلدان الأخرى. وهذا ما رفع مسـتوى القلق في طهـران، علـى الرغـم مـن أنّه لا يزال هناك غموض عمّا إذا كان وجود الشـاه قد يؤدّي في النهاية الى جهود مكثّفة من قِبل الولايات المتحدة لعكس نتائج الثورة.

دُعيت في هذا السياق مرّة أخرى لزيارة طهران، هذه المرّة من قِبل مكتب بني صدر، الرئيس الحالي للبلاد. كانت الفكرة هي المساعدة بطريقة غير محدّدة للإسراع بإنهاء غير استفزازي لوضع الرهائن في السفارة. كان كلّ يوم استمرّت فيـه أزمـة الرهائن خبرا سـيّئا لرئاسـة جِمي كارتر، ممّا جعـل قيادته تبدو ضعيفة غير فعّالة، وغير قادرة على حماية المصالح الستراتيجية الحيويّة لأمريكا أو حتى حماية موظفيها الحكوميين عندما يكونون في خطر.

قبـل أيـام مـن تلقـي هذه الدعوة الشـخصية من إيران، سُئلت عمّا إذا كنت على استعداد لمرافقة أندرو يانگ، في رحلة مُقبلة الى طهران لغرض التفاوض لإطلاق سراح الرهائن. إعتقدنا أنّه بالنظر الى الضغط على كارتر في حملة رئاسية بعد أشهر، فإنّ هذه الإشارات من إيران ستلقى ترحيبا من البيت الأبيض. إلتقيت مع يانگ ورامزي في منزل والدة رامزي في واشـنطن، لمناقشـة هذا المشـروع المُحتمـل. بـدا يانـگ جاهـزا للذهـاب وكان مؤهـلا جيدا بالمهارات السياسـية ورباطـة الجـأش الشـخصية والخبرة كدبلوماسـي، بعد أن خـدم في الكونگرِس وكممثـل للولايـات المتحـدة فـي الأمـم المتحـدة. كان مـن الأصول السياسـية الإضافية أنّ يانگ ينحدر من ولاية جورجِا، نفس ولاية كارتر. بدا الأمر واعدا، إذ نشأ المزيد من التشجيع لهذه المبادرة من حقيقة أنّ الخُمَيني قد أدلى بتصريح

علنـي مفـاده أنّ إيران سـتنظر بشـكل إيجابي لوصول مبعـوث أمريكي من أصل أفريقـي تُرسـله حكومـة الولايـات المتحدة للتفاوض على إنهاء الإسـتيلاء على السـفارة واطـلاق الرهائـن المُحتجَزين من قِبَل الطلبـة الإيرانيين الثوّار. في ظلّ هذه الظروف، بدا أندرو يانگ هو المبعوث المثالي لمثل هذه المهمّة.

ومـع ذلـك، كان هنـاك شـرط واحـد وضعه يانگ لـم يتـمّ الوفاء به، وهو ما أدّى الـى توقـف هـذه المبادرة قبـل أن تبدأ. أصرّ أندرو يانگ على حصوله على الضوء الأخضر من البيت الأبيض قبل الموافقة على المشاركة في المهمّة، ولم يُعطَ ذلك. في وقت لاحق، أخبرني رئيس مكتب إيران في وزارة الخارجية، وهو موظف مدني ودود غير سياسي، «أنّ برِجِنسكي يفضل أن يرى الرهائن الى الأبد فـي طهـران، بـدلا مـن أن يرى يانگ يحصل على الفضل في إطلاق سـراحهم». هذه هي المنافسات البيروقراطية والسياسية؛ تخيّلات الرجال الطموحين والتي غالبا ما تقوّض التطبيقات الحاسمة للسياسة الخارجية.

شعرت في ذلك الوقت بخيبة أمل من إصرار يانگ على الموافقة المُسبقة، ولكـن فـي وقـت لاحـق اعتقـد أنّـه كان علـى حقّ. بـدون الحصول علـى تأييد رسـمي، كان لا يمكـن ليانـگ إعطاء الخُمَينـي أيّة ضمانات ذات مصداقية حول عـدم التدخّـل أو التحـرّك نحو تطبيع العلاقات. وبدون هذه المقايضة، من شـبه المؤكّـد، أنّ المهمّـة ستفشـل وتـؤدي الـى نقد إعلامي موجّه الـى يانگ لتدخّله الخاصّ في أمور الدولة.

تفاقمت أزمة الرهائن مع اقتراب انتخابات الرئاسـة في شـهر تشـرين الثاني لعام 1980، وملأت الشائعات الأجواء بتقارير عن عملية إنقاذ جريئة للقيام بالقوة بما لـم يتحقق من خلال الضغط الدبلوماسـي أو مناشـدة القانون الدولي. كانت هناك إقتراحات تمّ التحقق من صحتها لاحقا، بأنّ القيادة في إيران كانت مستعدّة للتوصّل الى اتفاق مع خصم كارتر في السـباق الرئاسـي، رَونَلد رَيگِن، وتأجيل إطلاق سراح الرهائن حتى يكون هناك رئيس جديد في البيت الأبيض، وهي ما عُرِفَت باسم «مفاجأة أكتوبر».

قرّرت في ظلّ هذه الخلفية القيام بهذه الرحلة الثانية في غضون العام الى إيران، برفقة إقبال أحمد، صديقي وناشـط السـلام الأبرز في الولايات المتحدة.

وُلِد إقبال في پاكستان وكان متحدّثا لامعا، حيث كان يجمع بين البصيرة والحكمة والعاطفة والفكاهة، واصبح لاحقا معروفا باعتباره أقرب صديق ومعلم سياسي لإدورد سعيد. كان إقبال كنجوم موسيقى الروك وتميّز بقدرة إستثنائية على التحدّث وسياسة تقدّمية وشخصية قويّة ودافئة. غالبا ما كانت تعشقه الشابات، كما لو كان معبودا سياسيّا. إستمتع إقبال بهذا التملق وفي بعض الأحيان زاد من تضخيم مآثره أكثر من المعتاد من خلال تضخيم خبراته الحياتية وتمتعه بالأضواء. في الوقت نفسه، كان إقبال كريما للغاية مع الأصدقاء سواء كانوا بارزين أو مغمورين. أضف الى ذلك، كونه طاهيا جيّدا للطعام الپاكستاني، وغالبا ما شعر بالإحباط بسبب فشله في نشر كتب ومقالات علمية كُبرى تتناول الأهداف التي كان يتوق إليها، وكان من الواضح أنّه قادر على تحقيقها.

وصلنا الى إيران وهي في اصعب الأوقات. كان العراق يُصعّد الإشتباكات الحدودية والحرب على وشك الإنطلاق والتي من شأنها أن تستهلك طاقات كلي البلدين لما يقرب من عقد من الزمن. كانت هذه الإنشغالات تعني أنّنا لم نتمكن أبدا من مقابلة بني صدر، رغم أنّه قام شخصيّا بتوجيه الدعوة. كان حريصا بشدّة على حلّ أزمة الرهائن، مدركا تماما أنّه يفقد قبضته على السلطة بسرعة، ونتيجة لذلك فقدَ احترام الخُمَيني ودعمَه. كما هو الحال مع جميع جوانب الحكم الإيراني، إعتمدت سلطة بني صدر كليّا على الدعم المستمرّ للخُمَيني. كان يخسر بينما كان الخُمَيني يحوّل ولاءه للطلبة، الذين احتلوا السفارة وأصرّوا على أجندة أكثر ثوريّة.

لقد عقدنا لقاءات طويلة غير مجدية، بما في ذلك تناول الغداء مع صادق قطب زاده، المترجم الفوري للخُمَيني سابقا في پاريس والذي يشغل الآن منصب وزير الخارجية. كان قطب زاده عدوانيا ومغرورا وكان يصرخ في موظفيه ولا يُظهر أدنى مؤشر على الذكاء السياسي أو الحساسيّة الدينية. بينما كنّا نتحدث، كان ينظف أظافره بقصاصة أظافر لامعة مطلية بالذهب لم أرَ مثلها من قبل. أعرب عن أسفه لاستمرار أزمة الرهائن، مشيرا الى أنّها تحوّل السلطة أكثر من أيّ وقت مضى بعيدا عن الحكومة المُنتخَبة. كما أشرنا سابقا، أصبح قططب زاده ضحية للثورة، وأعدِم بسبب نشاط مزعوم مناهض للنظام، وهو اتهام قد

يكون أو لا يكون دقيقا.

كما التقينا بإبراهيم يَزدي، الذي سيكون ضحية أخرى مبكّرة لعمليات التطهير رفيعة المستوى للنظام السياسي الجديد. كان شخصية أكثر إثارة للإعجاب ومحبوبة. بعد فترة وجيزة كوزير للخارجية، أصبح يَزدي رئيس تحرير صحيفة **كيان** الجديدة، المصدر الأكثر تأثيرا للأخبار والرأي في إيران والتي قرأها العديد من المثقفين الإيرانيين. كان يَزدي قلقا أيضا بشأن القسوة الثيوقراطية ومن المخططات الأمريكية المتلاعبة، التي نُفِذت سرّا. في هذا الوضع وليس لاحقا، أيّد يَزدي وجهة النظر التآمرية القائلة بأنّ الولايات المتحدة نفسها كانت تُدار من قبَل عصابة يمينيّة ترأستها عائلة روكفِلر، مع وجود مجلس العلاقات الخارجية الذي يعمل كمركز عصبي لها. لقد صدمتني مثل هذه النظرة المؤامراتية باعتبارها تفسيرا ضارّا ومضللا بشكل أساسي للمشهد السياسي الأمريكي، وأقلّ اقناعا من عزو السياسات الى ما يُسمّى «الدولة العميقة» Deep State.

كنت وإقبال سعيدين لمغادرة إيران بعد بضعة أيام مُحبطة. أدركنا تماما أنّ مهمّتنا لم تكن مجدية، خاصّة عندما تشتّت الحكومة بشكل مضاعف بتطهير المعارضة أحيانا بقسوة. وما تبعه كان تعزيز سيطرة القوى الإسلامية الراديكالية على الحكومة من خلال السيطرة على البيروقراطية وبناء المؤسسات، مع تفويض لنشر الإسلام في كلّ زاوية وركن من الثقافة الإيرانية. كما خشيت أن نُحاصَر، إمّا نتيجة اندلاع الحرب مع العراق أو من خلال بعض الآثار الجانبية لمحاولة أمريكية لتحرير الرهائن المُحتجزين في السفارة. عندما انطلقت الطائرة من مدرج المطار في طهران شعرت براحة كبيرة، على عكس ڤيتنام، حيث كانت لديّ مشاعر متناقضة من الوقوع في فخّ محتمل أثناء زيارتي في عام 1968. كنت بالتأكيد أخشى أن أكون عالقا في إيران. وبطريقة ما قبل عشر سنوات، كان لديّ شعور بأنّه لو لزم الأمر، كان بإمكاني أن أبني حياة في ڤيتنام إذا لم أنمكّن من المغادرة. لم أشعر أنّ هذا ممكِن في إيران. شعرت أنّه في إيران ما بعد الثورة سأكون روحا ضائعة وحيدة، هذا إذا نجوت على الإطلاق.

النظرة الى ما مضى

فيما يتعلق بالتنمية الشخصية، كانت إيران تقريبا بنفس أهمية ڤيتنام، ولكنّها لم تكن تحوّلا على الإطلاق. لقد اعطتني تقديرا لفاعلية القيم الإسلامية وامكانية تعبئة الطبقات الدنيا من الجماهير في الشرق الأوسط ومن أجلها. شهدت نفس النمط بنتائج أقلّ تفجّرا، في تركيا بعد عشرين عاما وفي العالم العربي بعد ذلك بعشر سنوات. لقد فهمت أنّ هذه المجتمعات شديدة التديّن، وأنّ العلمنة والأوربة، اللتين احتضنتهما النُخب الحضرية بحماس شديد، لم يتمّ قبولهما أبدا من قبل معظم السكان، خاصّة أولئك الذين يعيشون في القرى المُنتشرة في جميع انحاء هذه البلدان. على الرغم من أنّ التوسّع الحضاري واسع النطاق، إلّا أنّه لم يُغيّر الصلات الثقافية الراسخة والتقاليد الإجتماعية المحافظة والحساسيّات الدينية لأولئك الذين يهاجرون من الريف الى المدن. وهي ديناميكية حفّزها بشكل أساسي البحث عن فرص العمل.

لقد فهمت بشكل أفضل سبب كون القادة المُشبّعين جدّا من الناحية الدينيّة معادين الى حدّ كبير للغرب وللقيم الثقافية، التي صاحبت التحديث في الغرب، مع التأكيد على دور العلم والتكنولوجيا في تحسين حياة شعوبهم. كان كلّ وضع وطني مختلفا، وعكست تأثيرات السياسة الأنماط الوطنية والفرديّة للقيادة بالإضافة الى الإستقبال الذي منحه الغرب لها. عانت إيران من ردّ فعل عنيف نتيجة تحدّيها المصالح الستراتيجية للولايات المتحدة ومن قِبَل الشتات الإيراني، الملكي جزئيا والعلماني جزئيا. وهو الشتات الذي حقّق نفوذا في الحياة السياسة الداخلية للولايات المتحدة وأوروپا بسبب توجّهه والذي يواصل السعي وراء المواجهة، إن لم تكن الثورة المضادّة. حظيت مثل هذه المواقف العدوانية في الآونة الأخيرة، بتعزيز من قِبل حكومتي إسرائيل والسعودية، وحيث تمتعت بدعم غير مشروط في البيت الأبيض في عهد ترامپ، ممّا زاد من مخاطر نشوب حرب في منطقة تعاني بالفعل من مآسيَ سياسية متعدّدة.

وفي نفس الوقت، فإنّ ردّي الأساسي الآن وكما كان آنذاك هو عدم التدخّل. لم أوافق على الرأي القائل بأنّ إيران الخُمَيني أسوأ بالنسبة للشعب الإيراني من إيران الشاه، أو أنّ تغيير النظام الذي تمّ التلاعب به خارجيا لتحسين حالة حقوق الإنسان من شأنه أن يجعل الحياة أفضل للشعب الإيراني. لقد تأثرت بأنّ

الإجماع بين خبراء محطة تلفزيون سي أن أن على أنّ إيران لن تكون قادرة على مقاومـة غـزو العـراق فـي عام 1980، قد ثبت أنّها خاطئة وبعيدة عن الواقع، ومع ذلـك لـم تفقـد مصداقيتها. على الرغم من أنّ الجمهورية الإسـلامية قد تحوّلت الى جمهورية قمعية وقاسية اتجاه خصومها، إلا أنّها أثبتت قدرتها على بناء نظام حكم على أسس إسلامية مستقرّ ودائم بشكل مدهش، على الرغم من الإستفزاز المستمرّ والعقوبات الدولية والتهديدات العسكرية. مقارنة بالأنظمة الأخرى في المنطقة، حُكِمت إيران وفقا لانتخابات حرّة نسبيّا خيّبت آمال النُخب الدينية في بعض الأحيان. في عدة مناسبات، جلبتالإنتخابات قادة الى السلطة الرئاسية كانوا عموما أكثر مرونة من النظرة الإسلامية المُتشدّدة للخميني والمتطرفين من اتباعه، بما في ذلك خليفته المختار آية الله علي خامنئي.

كنت في إيران، خاصّة اصفهان، لحضور مؤتمر قبل الإنتخابات عام 1997، التـي فـاز بهـا علـى عكس التوقعات رجل الدين المعتـدل محمد خاتمي. أتذكّر أنّ العديـد مـن الإيرانييـن غير الراضيـن على الحكومة الثيوقراطيـة اخبروني أنّ المشـرفين الدينيين على العملية السياسـية لن يسـمحوا لخاتمي بالترشـيح، وإذا فعلوا فلن يُسمح له بالفوز أبدا. وإذا فاز بطريقة ما، فلن يُسمح له بذلك. سيُسمح له بتعيين حكومته ولكن بالتأكيد لن يُسمح له باشراك إمرأة في الوزارة. من جميع النواحي، كان هؤلاء النقاد الذين يعرفون كلّ شي، على خطأ. تولى خاتمي عملية الحكم دون أيّ احتكاك سياسي وكان نشطا على الصعيد الدولي، بما في ذلك أخـذ زمـام المبـادرة لعقـد حوار الحضـارات تحت رعاية الأمـم المتحدة في نو يورك، حيث دُعيت للمشاركة فيه. لقد تأثرت بالنبرة الفلسفية للغاية في خطاب خاتمي الرئيسي في تلك المناسبة، ممّا جعل العديد من المفكؤين القادمين من خلفيات حضارية مختلفة يتقاربون معه تمشيّا مع روح مقترحاته.

بطبيعـة الحـال، واجـه خاتمي مقاومة متزايدة من المتشـدّدين الإسـلاميين في الداخل، وكان الرئيس القادم والسـادس لإيران خلال الفترة الممتدة ما بين (2005– 2013) زعيما شعبويّا مثيرا للتحريض، هو محمود أحمدي نجاد، الذي اثارت خطاباته الغرب وصوّر على أنّه يرعى نهجا جهاديا اتجاه إسرائيل. لا شكّ في أنّ أحمدي نجاد اعتمد على لغة استفزازية غير مسؤولة، لامست الأعصاب

الخام في الغرب. لكنّ وجهات نظره أعطيت بشكل غير مباشر ميزة أكثر حدّة من واقعها من خلال الطريقة المُثيرة التي تمّت فيها ترجمتها وتقديمها، لا سيّما من قبَل اصحاب الإصطفافات الصهيونية.

ساد الخط المُتشدد في الخيال الغربي منذ انتخاب أحمدي نجاد. وعلى الرغم من أنّ أوباما لفترة وجيزة وبتكلفة سياسية باهضة الى حدّ ما، إنفصل عن إجماع المواجهة من خلال التفاوض على اتفاقية 2015، التي تناولت البرنامج النووي الإيراني. أصبح مسار العلاقات الأمريكية مع إيران خطيرا؛ المواجهة التي يطلق عليها اتباع ترامپ «الضغط الأقصى». مع سعي إسرائيل وبعض دول الخليج لتغيير النظام في إيران كأولوية قصوى في سياساتها الخارجية، صعّدت الولايات المتحدة في عهد ترامپ دبلوماسية المواجهة. تنكّرت للإتفاق النووي وافتعلت حوادث بحريّة وكثّفت العقوبات، وحتى إغتالت الجنرال الإيراني سليماني بشكل لا يُصدّق عندما كان في العراق لمتابعة محادثات السلام. زادت كافة هذه النشاطات بشكل ملحوظ من مخاطر نشوب حرب إقليمية مدمّرة.

بعد المدّ والجزر في التطوّرات الداخلية في إيران وتنوّع الإستفزازات الخارجية، من المعجزة أنّ جمهورية إيران الإسلامية قد صمدت حتى الآن في وجه العمليات السرية للغرب وإسرائيل، بما ذلك إغتيالات علماءها والهجمات الإلكترونية على مؤسساتها والتحريض على الإضطرابات الداخلية فيها ومجموعة العقوبات المعوّقة التي تقودها الولايات المتحدة. يبدو من المفيد مقارنة طول عمر جمهورية إيران الإسلامية بالفترة القصيرة جدّا لصعود جماعة الإخوان المسلمين في مصر، حيث تمّت الإطاحة بالزعيم المُنتخَب بعد عام في منصبه من خلال انقلاب دموي منظم جيّدا أعاد الحكم الإستبدادي لمصر بتوجيه من جنرال متوحّش. إنّ استدامة إيران تفسّر جزئيا، كما اعتقد، بقبول وجهة النظر اللِنينيّة القائلة بأنّه إذا أريد للثورة أن تنجح، فيجب أن تعيد تشكيل الدولة على صورتها، وألا تحاول انشاء النظام الجديد من خلال التنازل والإعتماد على التضمين والعداء والإعتماد على النخب البيروقراطية والترتيبات المؤسسية السابقة أو النخب الإجتماعية والتجارية الراسخة.

في النهاية، قادتني إيران الى تقدير الدور التمكيني والتحريري أحيانا

للحركات السياسية المستوحاة من الدين، والتي ربّما في بعض الحالات تقدّم البديل الوحيد للخضوع والبؤس الجماعي. ينطبق هذا التعميم حاليّا بشكل خاصّ على العالم الإسلامي، حيث غالبا ما تكون العملية السياسية مشوّهة بسبب التدخّل الغربي، بما في ذلك فساد وتلاعب النُخب، خاصّة مع أخذ وضع النفط في الإعتبار. في الوقت نفسه، فهمت بشكل ملموس أكثر أنّ الدين يمكن أن يصبح مصدرا للحكومة القمعية والتعصّب المجتمعي السيء والتصرف بطرق متطرّفة في سياق اعطاء العقائد والمعتقدات الدينية أهمية عملية، وإيذاء النساء والمعارضين العلمانيين، على وجه الخصوص. أصبحت المجتمعات السياسية في الشرق الأوسط مستقطبة للغاية حول موضوع الدين، سواء كانت معه أو ضدّه.

أضع نفسي في الوسط، والذي غالبا ما يكون مكانا منعزلا غير مقبول من كلي الجانبين. ما زلت اعتقد، على عكس العديد من اصدقائي العلمانيين، أنّه إذا كان للعالم أن يجد طريقة لمواجهة التحدّيات السياسية والبيئية العالمية المتزايدة، فيتعيّن عليه العمل جنبا الى جنب مع الإمكانات الشاملة لأديان العالم العظيمة. كما تكمل ذلك اليقظة الروحية لأولئك الذين لديهم هويات علمانية ووضعوا ثقلهم بشكل خاطئ في العقل الفعّال للتعامل مع أجندة السياسة العالمية.

أكثر من تجاربي الأخرى بخصوص القضايا المُثيرة للجدل، أفسح تحزّبي المُبكّر المناهض للشاه المجال للإنفصال فيما يتعلق بالتطوّرات الداخلية الإيرانية في العقود التالية. الذي استمرّ هو معارضتي للمحافظين الجُدد والضغوط الحقوقية المزعومة لصالح التدخّل والتخريب والمواجهة. ما زلت اعتقد أنّ إيران والولايات المتحدة ستكونان في وضع أفضل في هذا القرن من خلال احترام ديناميكيات تقرير المصير في ظلّ كافة الظروف تقريبا. بالطبع، هناك تكاليف تنشأ عن مثل هذا المسار، ولكن في عالم ما بعد الإستعمار يظلّ هذا هو الخيار الأفضل في نظام عالمي يفتقر الى آليات موثوقة وفعّالة لحماية المصلحة الإنسانية أو تعزيز الرفاهية العالمية. أفضّل أنْ أضع ثقتي في عدم اليقين المتعلق بتقرير المصير بدلا من المكائد العسكرية للجغرافية السياسية، التي غالبا ما تعني التدخّل العسكري.

الفصل الرابع عشر

إقامة دولة يهوديّة في فلسطين

عندما يصبح االشخصي سياسيّا جدّا (أوالسياسي شخصيا جدّا)

لم تكن تجربة حياتي الشخصية والسياسية أكثر تشابكا في أيّة قضية، خاصّة منذ مطلع القرن الحادي والعشرين، أكثر ممّا تداخلت بصدد الصراع الطويل بين فلسطين وإسرائيل. لقد تعمّقت جذور هذه المسألة خلال العشرين سنة الأخيرة من القرن العشرين. كما أوضحت سابقا، كان إحساس طفولتي بكوني يهوديّا ضعيفا، على الرغم من تزامن السنوات الأولى من حياتي مع الهولوكوست في أوروپا. وتعزّز هذا الإحساس من خلال الإتصال بالعديد من اللاجئين اليهود المشهورين الذين كانوا في دائرة أصدقاء والدي في مدينة نو يورك. يبدو أنّ اللاجئين اليهود، الذين عرفناهم يبلون بلاء حسنا في محيطهم الجديد، ولم يفعلوا الكثير لاستحضار انواع التعاطف الذي لا نمنحه الآن لأولئك الفارّين من الإضطهاد ومناطق القتال والفقر. لم تكن لعائلتي أيّة صلات عائلية مع شخص فقدَ أقاربه أو أصدقائه في معسكرات الموت في أوروپا. لم أقم في تلك الفترة بربط الرعب الذي قرأت عنه في الصحف أو سمعته في البث لإذاعي بواقعي الخاصّ. أدركت بطريقة قاتمة أنّه بصفتي يهوديّا، كان من الممكن أن يتمّ نقلي الى معسكرات الموت فقط على أساس هويتي العرقية، ولكنت تعرّضت لهذه الحقائق البشعة، التي مرّ بها اطفال يهود مشابهين لي ونشأت في أوروپا هتلر. أدركت أنّ ما حدث في مسقط رأسي في عام 1930 كان من الممكن أن يكون

مسألة حياة أو موت. لكنّ ذلك لم يدفعني أبدا الى تبنّي إحساس قَبَلي أو حتى قومي Tribalist, or even a Nationalist بالهوية المهشّمة Fractured Identity.

أتذكر أنّني قبلت دون تمحيص السحر المُبكّر لإقامة إسرائيل على أنّها اصبحت دولة نموذجية من خلال الإنتصار البطولي على الدول العربية المجاورة الأكبر بكثير على الرغم من تفوّقها في العدد والتسلح، ممّا جعل الصحراء تتفتح وخلق مجتمعات كِبوتز نابضة بالحياة ومُبتكرة، ويسكنها في الغالب شباب سعداء من الذين بدا وكأنّهم يغنون ويرقصون باستمرار. نجحت إسرائيل في اقناع الغرب بهذه الرواية الوطنيّة، والتي تضمّنت بعد ذلك محو الشعب الفلسطيني أو تقديمه على أنّه من العرب المتخلفين القذرين العنصريين، الذين يميلون الى الإرهاب. كان هناك اعتقاد سائد بأنّ إسرائيل تخلق مدينة فاضلة ناشئة على غرار ما يصوّره فِلم Exodus، والتي من شأنها أن تجلب الحداثة الى المنطقة، بينما تتغلب على كلّ عقبة توضع في طريقها.

لقد تجاهلت هذه الرواية القومية الحقيقة الكارثية المتمثلة في أنّ هؤلاء اليهود القادمين واثناء عملية انشاء إسرائيل، قد هجّروا بقسوة وفرّقوا واضطهدوا الشعب الفلسطيني الأصلي. صوّر جزء من هذه الرواية الإسرائيلية غالبية السكان الأصليين على أنّهم «عرب» مجرّدون من القومية ومتخلفون، لم يكونوا مستعدين للسماح لليهود بإنشاء ملاذ لأنفسهم على جزء من الأرض القاحلة، وهو ما كان ضئيلا إذا ما قورن بالأمّة العربية الوهمية، التي تشمل منطقة الشرق الأوسط وشمال افريقيا بكاملها. إشتمل الموقف الصهيوني على ترجمة واستيعاب الشعار المنسوب للعرب والمتمثل في «رمي اليهود في البحر» بالمعنى الحرفي للكلمة. وقد خلقت هذه الصورة خوفا وجوديّا من محرقة ثانية أدت الى شعور العديد من اليهود بالخوف الحقيقي. كما أدّى الى شعور الرأي العام العالمي بضرورة حماية الدولة الوليدة، لا سيّما في ضوء ذنب الغرب المؤجّل الناشئ عن إخفاقه في الردّ بشكل أكثر فاعلية ضدّ معاداة السامية العنصرية المتطرّفة لألمانيا هتلر.

لم أتعرّض لنسخة مقنعة من الرواية الفلسطينية المضادّة عن الأصلانية والتطهير العرقي والأوربية والإستعمار الإستيطاني والتلاعب الجيوسياسي،

ناهيك عن بداية الإغتيالات المستهدفة والتعذيب والعقاب الجماعي والفصل العنصري. لم أدرك ذلك حتى وقت لاحق. لم يكن لدي أقارب هاجروا الى إسرائيل أو اعتبروا أنفسهم صهاينة، ولم تكن لديّ روابط عاطفية قوية بمصير إسرائيل أو فلسطين. كانت وجهة نظري المُبسّطة في ذلك الوقت والآن هي تفضيل المقاربات التي من شأنها أن تسمح لكلي الشعبين بالعيش معا في سلام ومساواة واحترام متبادَل. لقد عارضت آنذاك والآن إمّا تجاهل مظالم الفلسطينيين وحقوقهم أو إعادة عقارب الساعة للوراء عن طريق التراجع بطريقة ما عن المشروع الصهيوني المُتمثل في إقامة وطن لليهود في أرض فلسطين أو عكسه.

أنا أفضّل التعايش الثنائي على أساس المساواة والإحترام المُتبادَل وحقوق الإنسان.

تغيّرهذا الشعور بالإنفصال الشخصي لفترة وجيزة خلال زيارتي الأولى لإسرائيل في اعقاب حرب 1973 بوقت قصير. إقتربت إسرائيل من خسارة تلك الحرب، وتغلب هذا الشعور بالضعف القومي لعدة سنوات على المزاج الإنتصاري الذي نتج عن غلبة إسرائيل في حرب 1967، التي وسّعت مساحة الأرض الإسرائيلية بشكل كبير وأظهرت قدراتها الهائلة على الحرب وعزّزت بشكل كبير تحالفها الستراتيجي مع الولايات المتحدة. كان لتجربة عام 1973 تأثير عقابي مؤقت على نوع الغطرسة الإسرائيلية والصهيونية، التي سادت أعقاب حرب 1967 وعادت للظهور ثانية بشكل أكثر فظاظة خلال قيادة نَتِنياهو اليمينيّة العدائية الطويلة، لا سيما خلال التحريض من رئاسة ترامپ.

عندما زرت إسرائيل في عام 1973 للمشاركة في مؤتمر وأنشطة أكاديمية أخرى، كان يستضيفني الإسرائيليون القوميون اللِبراليون ولمست بعض الشكوك في هذه الأوساط الجامعية، ولكن لم يتمّ التعامل معها على أنّها ضائعة تماما بسبب القضية الصهيونية. بدا لي أنّني أعتبَر يهوديّا علمانيا أمريكيّا مندمجا ويمكن إعادة تعليمه، إن لم يتمّ تجنيده. وهو ما يبدو أنّ يُفسّر الإهتمام الذي حظيت به زيارتي. لقد تأثرت بشكل إيجابي بالجو الفكري النابض بالإثارة بالأفكار والمُثُل التي واجهتها في إسرائيل، ورؤية السلام التي تبنّاها بعد ذلك العديد من الإسرائيليين الذين التقيت بهم ووجدتها مناسبة. لأوّل مرّة في حياتي،

كنت أقدر وخبرت بشكل إيجابي هويتي اليهودية وشعرت في تلك اللحظة من السّحر المؤقت بأنّني سأعيش حياة مرضية مليئة بالتحدّيات لو اخترت العيش في إسرائيل. لقد نسيت بشكل مخجل خلال تلك الفترة محنة الفلسطينيين. أدركت عند التفكير أنّه مع نشأة مختلفة في الولايات المتحدة، ربّما كنت قد تطوّرت الى حدّ ما على طريقة جَف هالبر، ناشط السلام البارز في إسرائيل الذي يسعى لدعم الحقوق الفلسطينية، بالرغم من أنّه صهيونيّ غير نادم.

تستحق حياة جَف الإسرائيلية التفكير فيها. لقد اصبح عالم انثروپولوجيا في الولايات التحدة قبل أن يهاجر الى إسرائيل ويبني ما أدهشني على أنّه حياة مرضية لنفسه في إسرائيل كناشط صهيوني تقدمي في الواجهة. حاضر في جميع انحاء العالم واصبح معروفا ونال الإعجاب، لا سيّما لقيادته جهود معارضة هدم منازل الفلسطينيين، التي وقفت في طريق المخططات الإسرائيلية التوسعيّة والتهويدية في القدس، أو نُفِذت كعقاب جماعي لعائلات الفلسطينيين المزعومين بأنّهم إرهابيون. على الرغم من موقفه المعارض والإنجراف نحو اليمين الإسرائيلي، لم يُشِر جَف أبدا الى أيّ انشقاق عن هويته الصهيونية أو أيّة نيّة في أن يتغرّب عن إسرائيل. لا يزال يؤمن بأنّ التسوية الإنسانية لليهود والفلسطينيين ممكنة، وفي النهاية ضرورية. لقد حوّل مؤخرا آماله في السلام بعيدا عن نسخة حلّ الدولتين الى نسخة دولة واحدة ثنائية القومية. وهو تعديل رئيسي على المشروع الصهيوني الذي لا يزال سيناريو كابوس لمعظم الإسرائيليين وتقريبا جميع الصهاينة. ويُنظر الى هذا من قبَل الدبلوماسيين وخبراء السياسة بأنّه مهمّة مستحيلة، على الرغم من أنّ هذه المشاعر أقلّ ممّا كانت عليه في الماضي، على الأقلّ في السرّ.

في عام 1973، لم أكن في البداية أعرف ماذا افعل بهذه المشاعر غير المتوقعة للتماهي مع إسرائيل. لم يستمرّ هذا المزاج من التعلق لفترة طويلة بعد عودتي الى أمريكا فتلاشى بهدوء، على الرغم من عدم نسيانه تماما..حتى أثناء تجربة تأكيد يهوديتي، كانت هناك عدة نقاط مظلمة. شعرت بعدم الإرتياح حيال ما بدا جوّا عامّا من عدم الإهتمام باحوال الفلسطينيين وتطلعاتهم حتى بين أولئك الإسرائيليين المُستنيرين. لقد تفاعلت الى حدّ ما ضدّ الإحساس المصاحب بالتفوّق اليهودي، حين اتخذت فكرة «الشعب المُختار» شكل التفوّق

فـي الإنجـاز فـي العالـم، سـواء من خلال التغلـب على القيـود المفروضة على حياتهم أو الناتجة عن العنصرية القائمة على أسس نصوص كتابيّة إدّعت عظمة غيـر متكافئـة لليهود قياسـا بالإنجازات في الفنـون والعلوم والتمويل والأعمال، إضافة الى إنشاء إسرائيل نفسها وقوة تحديثها التي وقفت كشهادة على الموهبة والعزيمـة اليهوديّـة. حتـى لو كان من الممكن التحقق من صحّة هذه الإدعاءات تجريبيّا، فإنّ التعبير عنها كان يزعجني دائما، وبدا مثل هذا التعبير غير حسّـاس بشـكل فاضح لمخاطر ربط العِرق والجينات بقيمة الإنسـان، وهي الفكرة التي يجب على اليهود تجنّبها أكثر من غيرِهم. وكما اوضح المؤرخ الإسرائيلي شلومو ساند، فإنّ مزاعم التفوّق العنصري هذه تستند الى ادعاءات كاذبة ومتلاعب بها عن الروابط الجينية بين اليهود الأشكناز والإسرائيليين في العصر التوراتي.

في هذه المراحل المبكّرة من المشاركة، كانت آرائي ووجهة نظري متقلبة، وربّمـا قابلـة للتأثـر لأنّهـا سـطحية عاطفيـا وفكريّـا. علـى الرغـم مـن أنّني كنت أفصـل نفسـي تدريجيـا عـن النظرة الإسـرائيلية للعالم، إلا أنّـه ادركت في أواخر الخمسينات، أكثر من عام 2020، أنّ النظرات الصهيونية اقتربت من احتكار الحيّز الأخلاقـي المتعلـق بالنضـال الإسرائيلي/الفلسـطيني. يبـدو أنّ التعدّي على تلك المسـاحة بأفكار وتفسـيرات متناقضة يؤدّي بالتأكيد الى ردّ فعل غامض ومزعج للمصداقية. في السنوات القليلة الماضية، بدأت المواقف تتغيّر بسبب دعم ترامپ أحادي الجانب لطموحات إسـرائيل الإقليمية والتوسّـع الإسـرائيلي غير المقنّع والتحوّل من نهج دبلوماسي الى نهج عنصري لإدارة المظالم الفلسطينية، ودرجة أهم حياة السود والفلسطينيين. يبدو النشطاء الآن متحالفين في صراع مُشترك.

إطلاق أوّل رصاصة أكاديمية على سفينة الدولة الإسرائيلية

خلال سـنواتي الأولى في جامعة بِرنسـتُن، ربّما عرّفت نفسـي على الأقلّ مهنيّا، كشخص لم يكن مواليا للصهيونية من خلال كتابة مقالة طويلة في المجلة الأمريكية للقانون الدولي حول غارة إسرائيلية على مطار بيروت دُمّرت فيها 14 طائرة مدنية على أرض المطار. برّرت إسـرائيل هجوم 28 كانون الأول من عام 1968 علـى أنّـه انتقـام قانونـي لحـادث إرهابـي وقع قبل يوميـن عندما هوجمت

طائرة تابعة لشـركة إل عال الإسـرائيلية، وألقي اللوم فيها على الجبهة الشـعبية لتحرير فلسطين. جادلت بشكل قانوني الى حدّ ما أنّه بما أنّ إسرائيل لم تتصرّف دفاعـا عـن النفـس، فإنّ هـذا الهجوم الإنتقامي كان اسـتخداما غير قانوني للقوّة وانتهـاكا مباشـرا للفقـرة 2 مـن المادة (4) من ميثاق الأمـم المتحدة. كتب يهودا بلوم، المُستشار القانوني الإسرائيلي، الذي اصبح لاحقا الممثل الدائم لإسرائيل في الأمم المتحدة، ردّا مطوّلا في نفس المجلة تحدّى فيه تحليلي نقطة تلو أخرى وأكّد أساسـا أنّ إسـرائيل تتمتّع بحقّ «متأصّل» Inherent' في الدفاع عن نفسـها بموجب سـيادتها وأنّ هجومها الموجّه ضدّ الطائرات الخالية كان ردّا متناسـبا. بالطبـع، لا يتـمّ حـلّ القضايـا القانونية من هذا النوع من خـلال النقاش القانوني ذهابا وإيابا، وغالبا ما يكشف المواقف المتناقضة عن التعاطف السياسي للكاتب أكثـر مـن الجوانـب القانونيـة موضـع النقاش. فـي دفاعي رغبـت أن أزعم أنّني عارضت باسـتمرار اللجوء الدولي الى القوّة، التي وسّـعت التفسـيرات القانونية للمبادئ التوجيهية للميثاق، التي تمّت صياغتها لتقييد السـلطة التقديرية للدول ذات السيادة في استخدام القوّة دوليّا دون تفويض من مجلس الأمن.

أقِـرّ بـأنّ مثـل هذا الموقف من التفسـيرات الصارمة يبتعد عن وجهة نظري العامة حول المرونة التفسـيرية عندما يتعلق الأمر بالإلتزامات القانونية الدولية، لكنّني اعتقد أنّ هذا النوع من الإستثناء القانوني لا غنى عنه في العصر النووي، بالنظر الى الفظائع الجماعية الناشئة عن الحرب الحديثة وكذلك إنتهاكات الدول الصغيرة عن طريق التدخّلات ذات الدوافع الجيوسياسية. أرغب أن أؤيّد إنشاء اسـتثناءات إذا كان اسـتخدام القوة في سـياق معيّن مبنيّا بشـكل مقنع على ادّعاء معقـول بوجـود ضـرورة من قِبـل حكومة دولة ذات سـيادة لتجنّب تهديد خطير وشيك أو مستمر لأمنها. الأمثلة التوضيحية لمثل هذا الإستثناء للقواعد الصارمة لتفسير قواعد الميثاق بشأن الإدّعاءات باستخدام القوّة قد تشمل إضفاء الشرعية على التدخّل المسلح لمنع أو تخفيف الإبادة الجماعية، أو ربّما لمعاجة الحالات الخطيرة للإبادة البيئية. لكنّ التلاعب الجيوسياسي للحجج الإنسانية يجعل من المشـكوك فيه الموافقة على اسـتثناءات من حظر الميثاق على اسـتخدام القوّة. كان الهجـوم العدوانـي علـى العراق في عام 2003، والذي افتقر الى تفويض من

الأمم المتحدة، مثالا صارخا على مشروع جيوسياسي لم يكن ليحدث أبدا لو تمّ اتباع ميثاق الأمم المتحدة. حدث تلاعب أكثر دقة في عام 2011 عندما تمّ إقناع مجلس الأمن من خلال نداء الى معيار R2P من قِبل حكومات الناتو للسماح بمنطقة حظر طيران في ليبيا لحماية السكان المدنيين في بنغازي. لكنّ الحقيقة هي أنّ العملية التي نفِذت كانت تدخّلا لتغيير النظام وبلغت ذروتها في اعدام رئيس الدولة الليبي، ممّا أدى الى حدوث فوضى في جميع أنحاء البلاد استمرت طوال العقد التالي والى يومنا هذا.

لقاء گولدا مائير

في هذه الفترة، فوجئت بتلقي دعوة من مارتِن پيرَتز، وهو مفكّر صهيوني بارز مؤيد وناشر لمجلة The New Republicاللِبرالية الى حدّ ما. دعاني للقاء گولدا مائير في جناحها بفندق والدورف أستوريا في مدينة نو يورك. وگولدا مائير هي رئيسة الوزراء الوحيدة في إسرائيل ذات المولد الأمريكي. كانت تزور نو يورك لحضور الإجتماع السنوي للجمعية العامة للأمم المتحدة، الذي يحضره عادة القادة السياسيون في العالم. كانت گولدا، كما يُطلق عليها في أيام ما قبل حركة Me Too، شخصيّة جذابة وغير رسمية في الأسلوب، بينما كانت ثاقبة من الناحية التحليلية ووطنية الجوهر بلا هوادة. رفضت بنقرة من معصمها الحُمقّ، من وجهة نظرها، من مطالبات الفلسطينيين بإقامة دولة. لقد أوضحت لأولئك الإسرائيليين الأخلاقيين بعمق والفلسطينيين غير الأخلاقيين الذين لا يهتمّون حتى بأطفالهم، وردّدت لنا روح ملاحظتها السيئة والعنصرية المشهورة بأنّ السلام سيأتي عندما يهتم الفلسطينيون بحياة اطفالهم أكثر من قتلنا!هذه غطرسة أخلاقية عالية المستوى، رغم أنّني معجب بثقتها بنفسها ووضوحها واتزانها. ربّما بدت گولدا، كما قيل مرارا، مثلا للجدّة اليهودية النموذجية، لكنّها كانت تمتلك عقلا وإرادة من الصُلب، وهو ما ظهر على الفور بمجرد أن بدأت في التحدّث مع أولئك المُكتظين في جناحها الفسيح بالفندق، وعلى الأرجح جمهور مشجع متعاطف. كنت مختلفا عن ذلك الحشد حين استمعت وشعرت بالغربة من نبرة ومحتوى ما كانت تقوله.

العمل في الأمم المتحدة

قادتنـي تجربتـي فـي الأمم المتحدة الى نوع من الوعي بما يعنيه أن تكون يهوديّا لما جرّبته عندما زرت إسرائيل في عام 1973. من ناحية، أتُهِمت بالتحيّز ضدّ إسرائيل، وبأنّني مذنب بما سيحدث في المستقبل. السمة المعروفة باسم معاداة السامية الجديدة، تزعم أنّ منتقدي إسرائيل يخفون كراهية لليهود وراء واجهة انتقادات قاسـية قانونية وسياسـية وأخلاقية لإسـرائيل، الدولة اليهودية المُعلنة من جانبها. إنّ منتقدي إسرائيل، من خلال فرضهم على الدولة معايير أعلى من تلك المطبقة على الدول الأخرى، مذنبون بارتكاب «كراهية اليهود». لقد وجدت هذا الرفض الصهيوني مخادع تماما. لسبب واحد، هو أنّ إسرائيل أكثـر مـن الـدول الأخرى، نشـأت كدولة شـرعيّة وفق عمـل إيجابي في الأمم المتحـدة، والـذي اعطـى المنظمـة مسـؤولية خاصّة لمتابعـة العملية من خلال تحقيـق العدالـة للفلسـطينيين ايضا. هذه المسـؤولية لم تتحقـق، وتحوّلت الى رعب مروّع لفلسـطين والفلسـطينيين من خلال السـماح لإسـرائيل بأن تصبح عضـوا فـي الأمـم المتحـدة دون التعامل مـع المطالبات الفلسـطينية على قدم المساواة. لقد جعل هذا الأمم المتحدة متواطئة في جميع التطوّرات اللاحقة، بمـا فـي ذلـك طلـب تهجير الأمـم المتحدة من قِبل الولايات المتحدة شـديدة التحيـز. كان الحـدّ الأدنـى من التوقعـات، بالنظر الى الهوية العربية لفلسـطين فـي عـام 1947، هـو معاملـة الشـعبين علـى قدم المسـاواة، خاصّة فيمـا يتعلق باحتـرام حقـوق تقريـر المصيـر القابلة للتطبيق. صحيـح أنّ اليهود الناجين من الهولوكوست استحقوا واحتاجوا الى ملاذ آمن، لكنّ ذلك لم يُبرّر، بعد انتهاء الإنتداب البريطاني، تهجير وقهر السكان، وهم أغلبية أهل فلسطين، الذين لم يتحمّلوا أيّة مسؤولية عن الجرائم، التي ارتكبها الأوروپيون ضدّ اليهود. لم يكن بوسـع المحرقة أن تبرّر تجاهل الكيفية التي اعتمدت عليها الخركة الصهيونية فـي الأربعينـات علـى تكتيـكات الإرهـاب لحث البريطانيين علـى التخلي عن دورهـم الإلزامـي وتكليـف الأمم المتحدة المولودة حديثا بالعمل على تسـوية علدلة بين هذين الشـعبين. لسـوء الحظ، فإنّ الأمم المتحدة الخاضعة لوجهة

نظر استعمارية غربية، اعطت احتراما ضئيلا لفكرة تقرير المصير، التي اصبحت معيارا لنظام عالمي جديد ناشئ كان على وشك التعامل مع اشكال الحكم الإستعماري، على انّها فكرة غير شرعية.

السبب الآخر الذي يدفع اولئك الذين في الغرب الى انتقاد إسرائيل، هو مدى الدعم الغربي وخاصّة الأمريكي الدبلوماسي والمالي الذي تتلقاه إسرائيل والمؤشرات على مدى نفوذها في الغرب والإشارة الى مسؤوليتها عن الكثير من الإضطرابات في المنطقة، والتي دمّرت الدول المجاورة الرئيسية في العراق وسوريا وعزّزت معاقبة إيران وعزلها. وأخيرا كان الصراع الإسرائيلي/الفلسطيني قد اكتسب مكانة دولية رفيعة المستوى بسبب فرضه شروط الفصل العنصري على الفلسطينيين، ممّا أدّى الى ظهور معارضة مناهضة للفصل العنصري لا تختلف عن الإنشغال السابق بنظام الفصل العنصري في جنوب أفريقيا، الذي عبّر عن الفصل العنصري المماثل. جادل الغرب عن انتقاداته على الرغم من حقيقة أنّ الأفارقة في أماكن أخرى من القارة كانوا أسوأ حالا. من المهمّ أن نلاحظ أنّ إثنين من أكثر المعارضين للفصل العنصري محبوبين على المستوى العالمي وهما نِلسُن مَندَيلا ودِزموند توتو. كلاهما رأيا في معاملة إسرائيل للشعب الفلسطيني جريمة من نواحيَ كثيرة يمكن مقارنتها، إن لم تكن أسوأ، من المعاملة الأفريكانية للسود في جنوب افريقيا.

بالنسبة لي، فإنّ معاداة السامية الجديدة هي حيلة جدلية شريرة، لا أكثر ولا أقلّ، لها تأثير جانبي مؤسف يتمثل في طمس الحدود بين الدعاية الصهيونية الموالية لإسرائيل ومعاداة السامية الحقيقية. هذه الطريقة في تشويه سمعة من ينتقد إسرائيل تضاعف من السجلّ الطويل للعلاقات الصهيونية الإنتهازية مع معاداة السامية، سواء مع النازيين لدفع اليهود الى الهجرة الى إسرائيل أو مع المسيحيين الإنجيليين أو الحكومات الدكتاتورية واليمينية في جميع انحاء العالم. بينما تلطِخ منتقدي أنماط الجريمة الإسرائيلية في الإساءة الى الشعب الفللسطيني، كانت الصهيونية مستعدّة لإقامة قضية انتهازية مشتركة مع أولئك الذين يتبنون في الواقع كراهية اليهود.

طعنة لِبرالية في الظهر: لجنة مراقبة حقوق الإنسان

بعـد تعييني مقـرّرا خاصّـا مـن قبـل مجلس حقـوق الإنسـان التابع للأمم المتحدة، لمراقبة الأوضاع في فلسطين المُحتلة، أصبحت أكثر وضوحا بصفتي منتقدا لإسـرائيل وبالتالي وجدت نفسـي على شاشة الرادار للناشطين الصهاينة. باعتبـاري يهوديّـا متهمـا جـدّا، فقد شـعرت بالإهانة ايضا بصفتـي «يهوديّا يكره نفسـه». تمّت صياغة مثل هذه التسـميات ليس لتشـوية السمعة فقط، ولكن ايضا لتكون مؤذية، وقد اقترنت بجهود حثيثة لتقديم بلادي وجهات نظر حول قضايا أخـرى مثيـرة للجـدل خـارج سـياقها، وذلك لجعـل الحجّة القائلـة، الى جانب كونـي معـاد للسـامية، بغيضـة. أضف لذلك أنّني أيضا سياسـي يسـاري ضعيف ومُضلل. لقد كانت النيّة واضحة لهؤلاء النقاد في تدوير انتقاداتي القاسـية التي لا يمكن إنكارها للسياسة الخارجية الأمريكية لجعلها تبدو غريبة أو تقدّم الدعم للإرهابيين على الرغم من أنّني توقعت الى حدّ ما أن ترتبط مثل هذه الإدّعاءات بأيّ جهد في الأمم المتحدة لمحاسـبة إسـرائيل على انتهاكات حقوق الإنسـان والقانـون الدولـي. لقـد فوجئـت بمـدى قبـول مثل هـذه الإغتيالات الشـخصية المفضوحـة علـى أنّهـا صحيحة ويُعتقد أنّها معروفة بشـكل أفضل. أصِبت بخيبة أمل في دبلوماسـيي الكومنوَلث الأمريكيين والبريطانيين ذوي الملامح اللِبرالية لارتباطهم بمجتمعات المستوطنين البيض في نشاطات الأمم المتحدة. انسحبت الخيبـة علـى المنظمـات غيـر الحكومية، التي تفاخر بموضوعيتها غير السياسـية عندما يتعلق الأمر بحقوق الإنسان. سعى هؤلاء الى تشويه سمعة مَن يتجرؤون على لفت الإنتباه، من خلال مزاعم كاذبة، للإنتهاكات الإسـرائيلية ضدّ الشـعب الفلسطيني أو إنتهاكات حقوق الإنسان.

مـن بعـض النواحـي، كانت تجربتـي مخيبة للآمال مع لجنـة مراقبة حقوق الإنسان Human Rights (HRW) Watch ومديرها كِن روث. كان الأمر سيئا للغاية لأنّنـي كنـت أتـوق الى الأفضل مـن جانبهم، ممّا يوحي بأنّني لم أفلت تماما من وهمي أنّ أولئك الذين يبنون سمعتهم على تبنّي القيم اللِبرالية سوف يتصرّفون بطريقـة أخلاقيـة فـي مواقـف ملموسـة. الحادثـة برمتها طويلة لا يمكن سـردها

بالتفصيل، لكنّها مخيّبة للآمال بدرجة كافية لدرجة أنّها اصبحت جزء محدّدا من تجربتي التعليمية في أواخر حياتي حول جوهر اللِبرالية المنافق كموقف اتجاه العالم. لقد وجدت هذا مثيرا للقلق لأنّ لجنة مراقبة حقوق الإنسان انخرطت في انتقاد السياسات الإسرائيلية وممارساتها، وتعرّضت هي نفسها لبعض التراجع بسبب ذلك، ربّما تفسيرا لسبب رغبتهم في خلق مسافة بين نهجهم ونهجي، الذي فُسّر على أنّه تضامن مع النضال الفلسطيني..

على عكس (HRW) لم تخف لجنة مراقبة الأمم المتحدة (UNW) تفانيها الصهيوني لإسرائيل وراء إدّعاء لِبرالي بالموضوعية. باختصار كتبت لجنة UNW ومنظمة Bulldog الصهيونية المتطرفة المتمركزة في جِنَيف، والتي لم تفوّت أبدا فرصة للتهكّم والتشهير بي، رسالة الى لجنة مراقبة حقوق الإنسان أشارت الى أنّها صُدِمَت من السماح لشخص لديه آرائي بأن يُصبح عضوا في كيان HRW. في الواقع كنت مجرّد عضو رمزي في لجنة سانتا باربرا غير المهمة للجنة HRW، والتي انضممت إليها أساسا بسبب الصداقة مع رئيستها. لأسباب مماثلة شجّعت طالبا مشهورا سابقا على دعم تلك المنظمة. أصبح متبرّعا وعضوا في مجلس الإدارة وتمتّع بمصداقية إستثنائية كعضو قيادي في العائلة المالكة لبلدعربي. بعد تلقي HRW لرسالة لجنة الأمم المتحدة، تلقى رئيس اللجنة المحلية تعليمات على الفور من قِبل المقرّ الرئيسي في نو يورك بإقصائي من اللجنة، وفُسّر الأمر في ضوء قاعدة فنيّة حول تضارب المصالح الناتج عن دوري الحالي كمُقرر خاصّ للأمم المتحدة بشأن فلسطين للعام الرابع. لم يزعجني القرار عندما أبلغت به ولم أفكّر يالأمر أكثر من ذلك حتى اليوم الذي أصدرت فيه UNW بيانا صحفيا للتهنئة الذاتية إدّعت فيه الإنتصار، قائلة أنّه بسبب مبادرتهم تمّ تجريدي من مهمّتي لأنّ آرائي المعادية للسامية كانت حتى أكثر من اللازم على لجنة لِبرالية تحب مراقبة حقوق الإنسان أن تلتزم بالأمر. شعرت بالخيانة من قبل HRW، التي اعطت مصداقية لمبادرة مراقبة الأمم المتحدة وفشل HRW المحلية في إخباري بصدق ما دفعها الى التصرّف كما فعلت عندما طلبت استقالتي.

لقد صُدِمت أيضا لأنّ صديقتي في سانتا باربرا لم تكن صريحة معي في

اتصالاتها، رغم أنّها اعتذرت عند مواجهتها بخيبة أمل، ولكني لم أشعر بخيبة أمل كاملة. قدّمت ما اعتقدت أنّه طلب روتيني من HRW أن توضح عملها بالإشارة علنا الى أنّ إقصائي كان قائما على نظامها الذي حكم بتضارب المصالح. لقد شعرت بالغضب عندما قيل لي أنّ كِن روث رفض إصدار بيان توضيحي وبالتالي اكتفى بترك الإنطباع في المجال العام بأنّ تفسير UNW للحادث كان دقيقا بالفعل. قيل لي أنّ العديد من كِبار الموظفين في HRW حثّوا كِن على تغيير رأيه لكنّه رفض. تصادف أن أكون عضوا في لجنة مع كِن روث تتعامل مع سوريا في جامعة دَنفر، فكرّرت طلبي، الذي لم يستبعده مع التعليق بالقول، «لا أحد يهتمّ بأيّ شيء يقولونه!» كان شكلا ضارّا من الطمأنينة بالنظر الى أنّ لجنة مراقبة حقوق الإنسان قد اهتمّت بنفسها على حساب سمعتي. رفض روث الإستماع أكثر الى اسباب رغبتي في «تنظيف» السجلّ العام.

في وقت لاحق، أدركت أنّ HRW أو على الأقلّ مديرها التنفيذي، وافق بالفعل على شكوي UNW وخشى عواقب وقف التمويل إذا فشل في التصرّف بالنظر الى الوجود الصهيوني القوي في مجلس إدارة HRW. كان روث مرتاحا بلا شكّ لأنّ لديه مبررأ تقنيا بفعل ما يرجّح فعله لأسباب موضوعية أو أيديولوجية. كان قلقي والذي تبيّن أنّه مُبرّر، أن تتضرَر سمعتي بشكل أكبر الى حدّ ما من الطريقة التي تمّ بها التعامل مع الحدث. واصلت UNW، كما يجب أن يكون متوقعا، الإعلان عن مغامرتها حول الحادث على نطاق واسع دون أدنى ردّ من HRW. لقد منح هذا في الواقع المعترضين على محادثاتي ومشاركتي في المؤتمرات خطأ للهجوم قدّم نوعا معيّنا من المعقولية لإعتراضاتهم. إذا كنت متطرّفا جدّا حتى بالنسبة للمنظمات غير الحكومية المفترضة بأنّها الأكثر لِبرالية في مجال حقوق الإنسان و HRW، فيجب أن تكون الجماهير البريئة محميّة من آرائي البغيضة، وكان من المعقول حرماني من فرصتي الوظيفية.

إنّ الأضرار بسمعتي ليس قضية بالغة الأهمية في المخطط الأكبر للأشياء، لكن كشفها أوضح كيف أنّ منتقدي إسرائيل أكثر ضعفا ممّا كنت أدرَج في القائمة السوداء واعاقب بطرق مختلفة. وعادة ما يكون ذلك سِرّا في سياق نقاش خاصّ هادئ، دون الحاجة الى تفسير أو تبرير. بعد هذه التجربة، لم ارغب أبدا

في أيَ شيء يتعلق بلجنة مراقبة حقوق الإنسان، ولن أغيّر رأيي طالما بقيت قيادة هذه اللجنة كما هي، على الرغم من الإشادة بالكثير من أعمالها.

الحلقة الختامية للإشتباك

لم يكن هناك مسار واضح قادني الى الإنخراط بشكل مركزي مع الناشطين، بخلاف الأكاديميين، في دعم النضال الفلسطيني. لقد كتبت مقالات علمية لم يلاحظها سوى عدد قليل من الزملاء، الذين لديهم مخاوف مماثلة، واعلنت أنّني متضامن بشكل أساسي مع النضال الفلسطيني في الأماكن، التي جذبت انتباه الجمهور. شيء آخر من وجهة نظري التفسيرية، استدعت سياسات وممارسات إسرائيل مواقف انتقادات لا هوادة فيها بسبب الأسلوب الرجعي الذي كان يتطوّر به المشروع الصهيوني على حساب التوقعات الفلسطينية القائمة على القانون والأخلاق، فضلا عن العديد من الإتفاقيات، التي دعت الى احترام حقوق فلسطين، وهو ما قبلته إسرائيل نفسها.. مثل هذا السلوك من جانبي، كان يعني استعدادا للمس الحاجز الثالث للسياسة الأمريكية. لقد كنت منذ فترة طويلة على وعي بهذه الحقائق الكابحة، وحافظت على مسافة آمنة من المشاركات السياسية، التي كانت عروضا شفافة للدعم المباشر للحركة الوطنية الفلسطينية حتى ثمانينات القرن الماضي حين كنت في الخمسين من عمري. لقد كنت بالفعل «محترقا» الى حدّ ما بسبب ارتباطاتي السابقة في ڤيتنام وإيران. ولم استمتع بفكرة أن أحرَق حيّا على حساب النسخة الصهيونية لفكرة «الصواب السياسي». ومع ذلك ودون أن أتعرّض للضغط، إنتهى بي الأمر بفعل ما كنت اتجنّبه منذ فترة طويلة.

لطالما سألت نفسي «لماذا؟» كانت الصداقة مع إدوارد سعيد عاملا بفعل القوّة المشتركة لحججه وقوّة شخصيته. بعد حرب 1967 عندما انخرط في البداية علنا مع الحركة الوطنية الفلسطينية، وسرعان ما تّم تحديده على أنّه المفكّر الفلسطيني الرائد في الأوساط الأمريكية والأوروبيّة لتحدّي الإجماع المؤيّد لإسرائيل من خلال سلسلة من الكتب، التي تمّت مناقشتها جيّدا، وخاصّة The Question of Palestine الذي صدر عام 1978. تضمّن هذا الكتاب نقدا مُدمّرا

لتأثير الصهيونيـة علـى فلسـطين ورواية مروّعـة عن الضحية الفلسـطينية ورؤية مصاغة بطريقة إنسـانية لكيفية قيادة هذين الشـعبين للعيش معا بشـكل لائق في تعايـش سـلمي. ولكـي يحـدث هـذا، أصرّ سـعيد على أنّ روح المسـاواة يجب أن تسـود أيّة ترتيبات سياسـية يتمّ الإتفاق عليها. إقترن سـعيد بتصويره لمظالم تجريد الفلسطينيين من ممتلكاتهم مع الإعتراف بضرورة قبول الوجود اليهودي في البلاد وعدم الطعن فيه. في الوقت ذاته، إعتقد سعيد أنّ السلام المُستدام لا يمكن تحقيقه إلّا إذا اعترفت إسـرائيل بإيذاء الفلسـطينيين بشـكل كامل ورسمي وبصيغـة مفتوحـة وعلنيّـة. على الرغم من أنّ سـعيد لم يتقدّم باقتراح، فإنّ نهجه لـو تـم التصـرف بناء عليه، ربّما أدّى الى انشـاء لجنـة الحقيقة والمصالحة، التي شـعر الكثيـرون أنّها سـهّلت الإنتقـال في جنوب افريقيا بعـد انهيار نظام الفصل العنصري. من منظور الحاضر، من الواضح أنّ رؤية سعيد قد فشلت في الأخذ بعيـن الإعتبـار الأولويّات التوسـعيّة والتواطؤ الجيوسياسـي للولايات المتحدة، فضـلا عـن الإخفاقـات التكتيكية للقيادة الفلسـطينيّة، لا سـيّما الفشـل في طرح نسختهم الخاصّة من اقتراح السلام. هذا المزيج من العوامل المدعوم بالتطوّرات الإقليمية، التي جعلت الحكومات العربية، التي هي بالفعل حذرة من مواطنيها، وحـذرة ايضـا مـن النضـال الفلسـطيني ومنفتحة علـى المصالحة مع إسـرائيل، وتخشـى أن يؤدّي النجاح الفلسـطيني الى ضغوط ديمقراطية في بلدانهم. كانت النتيجة توازن قوى جديدا وإن كان هشّا مواتيا للسعي لتحقيق اهداف صهيونية متطرّفة كما وضعتها القيادة اليمينية في اسـرائيل موضع التنفيذ. ومنذ عام 2017 سهّل تأييد واشنطن الى حدّ كبير أجندة نَتِنياهو، بغضّ النظر عن القانون الدولي أو إجماع الأمم المتحدة.

كان موقع سـعيد في الحياة الفكرية الأمريكية معقّدا، حيث اكتسـب شـهرة باعتباره المتحدّث الفلسـطيني الرائد في الغرب دون أن يفقد مكانته كواحد من أكثر مفسّري الثقافة والأدب تأثيرا وإعجابا في الحياة الأمريكية. سلطت اعماله المبكّـرة الضـوء علـى كتابات وأهميّة جوزِف كونـراد. يمكن النظر الى مثل هذا التركيز على هذا الكاتب بالذات، الذي أضاء الزوايا المظلمة للعقلية الإستعمارية، علـى أنّـه استباقي لكتابته السياسـية التـي قرأها لاحقا على نطاق واسـع. كانت

نقطة انطلاق سعيد الأساسية دائما هي الثقافة، التي يُنظر اليها على نطاق واسع على أنّها تعكس التحوّل الأكاديمي ما بعد الحداثي، الذي اصبح شديد الإنتباه للقراءات الإجتماعية والسياسيّة للنصوص الأدبية الأوليّة. كان كتابه الرائع بالطبع «الإستشراق» الذي رفضه 22 ناشرا، على حدّ قول سعيد لبعض الأصدقاء. غير أنّ پانثيون بوكس تكفلت النشر، فاصبح أحد أكثر الكتب نقاشا وتأثيرا على نطاق واسع في القرن الماضي. على الرّغم من ولادته مسيحيّا، كان سعيد حين عرفته علمانيا بلا خجل. كان له ارتباط طويل وعميق بالأدب الأوروپي والموسيقى الكلاسيكية، وكان هو نفسه عازف پيانو من الدرجة الأولى، واستمتع بكتابة مراجعات نقديّة حساسة للعروض الموسيقية الكلاسيكية، وخاصّة الأوپرا.

على الرغم من أنّه عمل لعدة سنوات كعضو في المجلس الوطني وتحمّل «الرجل العجوز»، كما أشار هو وآخرون بمودة الى ياسر عرفات، إلا أنّه اصبحت لديه خلافات مبدأية وتكتيكية قويّة بشكل متزايد مع نهج الجانب الفلسطيني لإنهاء الصراع، كما هو معمول به في منظمة التحرير الفلسطينية. لقد شعر بشكل صحيح، ومن وجهة نظري، أنّ احترام عرفات وثقته في حسن نية واشنطن كانتا خطأ فادحا وضارّا بآفاق الجانب الفلسطيني في تحقيق سلام دائم. تمّ تأكيد دقة هذا التصوّر لاحقا من خلال البحث الذي قدّمه رشيد الخالدي وجَيرمي هامُند، الذي اوضح الدور المعرقل السرّي الذي لعبته الدبلوماسية الأمريكية باستمرار في جميع مراحل الصراع. خدم هذا السلوك الأولويات الصهيونية التي سعت الى كسب الوقت والتأخير، ممّا مكّن إسرائيل من متابعة اهدافها الإقليمية التوسّعية فيما يتعلق بـ «الأرض الموعودة» لدرجة أنّ الدولة الفلسطينية ذات السيادة الحقيقية أصبحت غير عملية. على الرغم من أنّ سعيد أيّد في البداية قرار منظمة التحرير الفلسطينية لعام 1988 بتطبيع العلاقات مع إسرائيل إذا أنهت الإحتلال بالإنسحاب الى حدود عام 1967، والسماح بإقامة دولة فلسطينية، إلا أنّه سرعان ما رفض مثل هذا النهج. بدأ سعيد في الإصرار على دولة علمانية واحدة ثنائية القومية مع الحماية الكاملة والمساواة في حقوق الإنسان لجميع سكانها، على أنّه السبيل الوحيد لسلام حقيقي يختلف عن وقف النار، الذي صوّره الدبلوماسيون ووسائل الإعلام بشكل خاطئ على أنّه «سلام». توصّل

إدوارد الى الإعتقاد بأنّ نهج الدولتين، الذي أوضحت إسرائيل بشكل متزايد عدم قبوله وتواصل يوميًا سياسة عدم المساواة وتبقي النضال حيًا وتهدف فقط الى الحصول على وقف لإطلاق النار بدلا من حلّ مقبول ومُستدام بين الطرفين وحلّ المحنة الفلسطينية الطويلة.

كان إدوارد متحمّسا لالتزاماته، وكذلك ما يحبّ وما يكره بين المثقفين العامين. كان ينتقد بشدّة الصهاينة اللِبراليين الذي ادّعوا وجهة نظر أخلاقية لكنّهم كانوا مستعدّين عمليا لاستيعاب التوسّع الإسرائيلي وما يصاحبه من إنتهاكات للفلسطينيين. في هذا السياق، اعتبر إدوارد مايكل والزر صورة «ملصق الطفل للنفاق الأخلاقي» الذي أخفى تحيّزاته الصهيونية وراء ستار دخان من التجريدات الأخلاقية التي قللت من الظلم الذي يلحق بالشعب الفلسطيني. كما رحّب والزر بالتعاون مع الشخصيات الفكرية الصهيونية البارزة مثل برنارد لِوِس، وهو مجادل لئيم اعتمد على الغطرسة العلمية لتكديس الإحتقار لمَن اختلف معهم، بمن فيهم أنا بالذات.

أتذكّر نوعا مشابها من الفشل الإجتماعي لعالم الشرق الأوسط، اللبناني الموهوب فؤاد عَجَمي. أصبح فؤاد في الأصل عضو هيئة تدريس زائرا في جامعة بِرنستُن بسبب دعمي الحماسي. بعد بضع سنوات، غيّر نظرته لقضايا الشرق الأوسط والسياسة الخارجية الأمريكية بطريقة تتماشى مع الجغرافية السياسية لواشنطن، كما شكّلتها حركة المحافظين الجُدد. وفي تطوّر مبهر، سرعان ما أصبح محبوبا في كلية دراسات الشرق الأوسط في جامعة جونز هوپكِنز، فأضحى فؤاد بعد فترة وجيزة الصوت العربي الأكثر ثقة على شبكة سي أن أن وكذلك ضيفا متكرّرا في البرامج التلفزيونية الأخرى، التي تتمّ مشاهدتها على نطاق واسع. أصبح «الصوت العربي الرائد في أمريكا»، وحظي بثقة اليمين السياسي واستدعاءاته.

لا أتذكّر كيف تعرّفت على فؤاد عَجَمي واصبحت شفيعه وصديقه العزيز في أوائل السبعينات. كان مترجما أكاديميا موهوبا للوعي السياسي العربي، رغم أنّه عاش حياته كلها في أمريكا. لقد أصبحنا أنا وزوجتي السابقة فلورنسا صديقين مقرّبين لفؤاد لدرجة أنّنا عندما نذهب في رحلات قصيرة لإلقاء محاضرات أو

حضور مؤتمرات، يبقى فؤاد في منزلنا للعناية بطفلينا، ديمتري ونوح. كان أحد الأشخاص القلائل الذي نعتمد عليه ونثق فيه لاداء هذه المهمّة الثمينة. أذكر هذه التفاصيل الشخصيّة لأنّها تشير الى مدى قربنا من «تحوّل» فؤاد.

قمت خلال فترة الصداقة الحميمة هذه وبناء على طلب فؤاد، بترتيب لقاء اجتماعي مع إدوارد سعيد وإقبال أحمد لتعزيز العلاقات التي سارت على ما يُرام لبعض الوقت. جاء الإنفصال بعد أشهرعندما أشار فؤاد الى عدم رغبته في انتقاد إسرائيل في القضايا المثيرة للجدل، والتي شملت بعد ذلك هجمات إسرائيلية على لبنان ومساعدات عسكرية أمريكية لتل أبيب. أتذكّر إقبال وهو صانع سلام دائما، يقترح أنّه حتّى لو كان هناك خلاف حول القضايا السياسية فلا ينبغي التضحية بالصداقة. لم يتحرّك فؤاد معلنا أنّه لم يعد يريد الإتصال. جاءت عائلة فؤاد من قرية شيعية في جنوب لبنان وله أقارب يزرعون التبغ وملكوا بعض الأراضي في فلسطين، وأتّهموا ببيعها للوكالة اليهودية المسؤولة عن حيازة الأرض للمستوطنين اليهود المهاجرين. ألقى فؤاد الى جانب العديد من اللبنانيين باللوم على الفلسطينيين، وتحديدا منظمة التحرير الفلسطينية لتجاوزها على السيادة اللبنانية وتقويض أمنها لقومي من خلال استفزاز إسرائيل. وهذه ديناميكية يُعتقد أنّها تبرّر اهجوم الإسرائيليين عام 1982 وإحتلالهم لجنوب لبنان. ترافقت هذه الأحداث مع طرد قيادة منظمة التحرير ومقاتليها من لبنان، فضلا عن المذابح المروّعة في صبرا وشاتيلا في اعقاب الإحتلال الإسرائيلي بعد أيام من اغتيال الزعيم الماروني بشير الجُميّل.

لم يكن من الواضح تماما الأمر الذي دفع فؤاد الى اليمين، على الرغم من أنّه كان مرتبطا بطرق مختلفة بخيبة أمله من الحركة الوطنية الفلسطينية وربّما تأثير الوجود الفلسطيني في جنوب لبنان. مهما كان التفسير، فقد تضاءلت صداقتنا على الرغم من عدم وجود أيّ انقطاع واضح. أصبح فؤاد حليفا صريحا للأعضاء الصهاينة في مجتمع پِرنستُن، بما في ذلك الشخصيات الرئيسية في مركز دراسات الشرق الأدنى، بدعم من عالم الإنثروپولوجيا المؤثّر كلِفورد گيرتِز. وهو عالم اجتماع يشغل وظيفة دائمة في معهد الدراسات المتقدّمة وصديق فؤاد. تردّدت شائعات عن كون گيرتِز عضوا في لجنة اختيار مؤسسة ماك آرثر، لمنح «جائزة

العبقرية» المرغوبة، وكان فؤاد متلقيا مفاجئا. يشمل هذا الإعتراف الرائع بالتميّز العلمي دعما بالكامل لخمس سنوات من النشاط الأكاديمي غير التدريسي. كان في الواقع إجازة طويلة مكتوبة بأحرف نيون. لا شكّ أنّ فؤاد كان موهوبا فكريّا لكنّ عمله في تلك المرحلة كان مشكوكا فيه، وجعل المشكّكين يفترضون أنّ انحرافه الى اليمين سياسيا خاصّة ما يتعلق بإسرائيل، كان جزء لا يوصف من قصة حصوله على جائزة العبقرية المُشار إليها.

بعد أحداث 11 سبتمبر، اصبح فؤاد مستشارا للبيت الأبيض يقدّره دِك چَيني على ما يبدو، ممّا اعطى وزنا لآرائه حول الأسئلة المتعلقة بالسياسة حول كيفيّة الردّ على العالم العربي ومواجهة صعود الإسلام السياسي. عرض على علم تعليقات عزّزت النظرة العالمية وردود رئاسة جورج دبليو بُش، وقدّم دعمه للحرب العالمية على الإرهاب، بما في ذلك الهجوم على العراق واحتلاله في عام 2003. كان إدوارد غاضبا للغاية من دور فؤاد في إضفاء الشرعية على العداء للإسلام وتأييد إسرائيل وخضوعه المُدلل ظاهريا للنزوات السياسية للجناح العسكري للمؤسسة السياسية الأمريكية. إنتقد دوره في العلن، مشيرا الى أنّ فؤاد أصبح لقبه «العم أبو» أسوة بـ«العم توم»، ولمّح الى تواطؤ فؤاد في المأساة الفلسطينية وقمع التطلعات العربية وقهرها بشكل عام.

بعد سنوات قليلة من استقالة فؤاد من منصبه في جامعة پِرنستُن، وبعد فترة طويلة من ضمور صداقتنا، صادفت فؤاد أثناء السير في أحد شوارع واشنطن. إستقبلنا بعضنا البعض كما لو كنّا اصدقاء قريبين. توقفنا لتناول القهوة بنيّة مشتركة لتجنّب خلافاتنا السياسيّة. لكنّ النوايا نادرا ما تستمرّ، إذا كانت الإختلافات تؤثّر في حياتنا. أعلن فؤاد بشكل درامي أنّ إدوارد كان يحاول قتله. أعربت عن شكّي قائلا إنّني لا أصدّق ذلك. أوضح أنّ إدوارد كان يجري محادثات في مصر وأماكن أخرى في الشرق الأوسط، بما في ذلك لبنان، إنتقد فيها فؤاد بالإسم. لقد ألهب إدوارد الجماهير العربية بإصراره على أنّ فؤاد كان عائقا للنضال من أجل تحقيق أهداف عربية مشروعة، تركّز على تقرير مصير الشعب الفلسطيني. أصرّ فؤاد على أنّ هذا النوع من «الحديث الفضفاض» في المنطقة قد يدفع الى الإغتيال. إفترقنا دون أيّة ذريعة لتجديد صداقتنا الحميمة ذات يوم. أصبح دوري

السابق شبه المُرشد في حياة فؤاد الإجتماعية والمهنيّة قبل التحوّل، ذكرى بعيدة ومتلاشية.

أبرز موت فؤاد الإنطباعات المستقطبة، التي تركها وراءه. بالنسبة لمعجبيه البارزين، كان فؤاد هو الصوت العربي الأكثر جدارة بالثقة في جيله، مطلعا وحاسما ومعتدلا ومتعاطفا مع إسرائيل، وحتّى مؤيدا للتدخّلات الأمريكية لتغيير النُظم، وهو المتغرّب المتجذّر في الثقافة العربية. اصبح فؤاد دائما داعما لأجندة السياسة الخارجية الأمريكية، بغضّ النظر عمّا تنطوي عليه، سواء كانت تحتفل بإسرائيل باعتبارها الديمقراطية الوحيدة في الشرق الأوسط، أو تعمل كقائد من العالم الثالث لحرب جورج دَبليو بُش العدوانية الكارثية، التي أدّت الى تغيير النظام في العراق عام 2003. بالنسبة الى منتقديه، كان فؤاد بالفعل خائفا من تلقيبه «العم أبو» الذي يسعى الى الشهرة والثروة من النخب الإمبراطورية في الغرب ويدير ظهره للمعاناة التي يتعرّض لها العرب. في إحدى الحالات البارزة التي يبدو أنّها تتعارض مع توجهه الجديد، رفض فؤاد إدانة رجم امرأة حتى الموت بتهمة الزنا المزعوم في أحد البلدان المسلمة. كانت دعواه هي عدم الرغبة في اصدار حكم على الممارسات الحضارية غير الغربية. شخصيّا، لم ارغب أبدا في قبول فقدان صداقة حميمة وممتعة ذات مرّة على الرغم من أدراكي أنّها لا يمكن أن تستمرّ. من الناحية الأبوية Parenthetically، جعلني ذلك أقدّر أنّ الصداقة الحقيقية المتميّزة عن العلاقات المهنية والجماعية، لم يكن من السهل تحقيقها في پرِنستُن، وينبغي تقديرها عندما تكون كذلك. كان فقدان هذا الصديق الحقيقي على مذبح الخلافات السياسية بالنسبة لي حلو ومرّ ومناسبة للأسف الشخصي.

كان هذا الخليط من الصداقات والعداوات هو الذي شكّل خلفية انخراطي السياسي العام مع الصهيونية من جهة والحركة الوطنية الفلسطينية من جهة أخرى. في بعض النواحي مثّل إدوارد وفؤاد انواعا مناهضة وساعد تألق كلّ منهما في عرض الإلتزامات المتعارضة في تأطير سعيي للحصول على موقف سليم قانونيا وأخلاقيا. مع مرور الوقت، إتبعت خطى إدوارد وشعرت أنّ فؤاد قد تجاوز خطوط المعركة ليقدّم خدماته دون تحفّظ لمتابعة سياسة رجعيّة في

الشرق الأوسط، بما في ذلك غزو العراق ودعم إسرائيل، وهذا بالنسبة لي إدراك مقلق.

ليس لديّ أيّة وسيلة لقياس المسار المهني والآثار الشخصية لوَضعَي العداء المزدوج للأجندة الصهيونية والتعاطف مع النضال الفلسطيني. ولكن لديّ أدلة كافية لإقناعي بأنّ هناك عواقب سلبية في قطاعات الأوساط الأكاديمية ووسائل الإعلام والجمهور. لقد تلقيت ما يكفي من ردود الفعل المؤكّدة لهذه التصوّرات الخاصّة بالردّ، ليس فقط في أمريكا الشمالية، ولكن في جميع انحاء الغرب، لتجعلني أشعر أنّ هذا التقييم دقيق في الأساس، ولا يغذّيه جنون العظمَة.

على الرغم من أنّها شاركت وجهات نظري بشكل خاصّ، شعرتْ هِليل بقوّة أنّه يجب أن أكون حذِرا في انتقاداتي لإسرائيل والصهيونية لأسباب إحترازية. إحترمت في عدة مناسبات هذه المشاعر وامتنعت أو على الأقلّ خفّفت ردود افعالي المعادية للصهيونية بصدد الأحداث الجارية. نظرا لأنّني قارنت بين عَجَمي وسعيد فيما يتعلق بالمعايير السائدة للإندماج والإقصاء، كنت سأصوّر نفسي على أنّني عكس القطب الصهيوني ألِن دِرچوڤِتز. على الرغم من تحالفاته مع الأشكال الأكثر عدوانية من الصهيونية الإستيطانية، أخفى الى حدّ ما وجهات نظره المتطرّفة وراء ادّعاءات من صحة اللِبرالية المحلية، وظلّ زائرا مُرَحّبا به في البيت الأبيض ومعلقا منتظما على شبكة سي أن أن. لقد احتفظ بهذه «المصداقية» وربّما عزّزها من خلال الظهور كواحد من أبرز المؤيدين والأكثر مصداقية لرئاسة ترامپ بين الديمقراطيين. تجربتي الخاصّة قبل وبعد المواجهات مع هؤلاء الصهاينة الأمريكيين، يشير «المدافعون الأوائل» الى أنّني استمتعت بالوصول السائد من قبل والإستبعاد الإفتراضي منذ ذلك الحين. ما يجعل هذه التجربة ذات أهمية أكبر من الإنتقادات الشخصية، هو أنّها لم تحدث بعد معارضتي المثيرة للجدل لسياسات الولايات المتحدة في ڤيتنام وحتى إيران، ولكن فقط حين دخلت تلك المنطقة النارية، حيت تخشى حتى الملائكة أن تخطوا نحوها!

يجب على أيّ شخص يدّعي أنّه لا توجد معاير مزدوجة عندما يتعلق الأمر بالإعتراض على وجهات النظر السائدة حول إسرائيل/فلسطين، يجب أن يأخذ في الإعتبار هذا التناقض بيني وبين دِرچوڤِتز، أو في هذا الصدد أيّ اقتران

مؤيد ومحتال عندما يتعلق الأمر بقضايا تهتمّ بها إسـرائيل، بما في ذلك أعضاء الكونگرِس، الذين يمكن إدراجهم في القائمة السـوداء للسياسـة الأمريكية الى الأبد لمجرّد توجيه انتقادات معتدلة لتكتيكات الضغط الإسـرائيلية أو الشـكوى من مستوى المساعدة العسكرية الأمريكية. ولكن يتمّ رفع منافسيهم والمدافعين المتطرفين عن الأهداف الصهيونية والتضامن مع إسرائيل، الى أعلى المستويات مـن المصداقيـة السياسـية والنفـوذ. لنأخذ مثلاعلـى ذلك، نِكي هَيلي، السـفيرة الأمريكية السابقة للأمم المتحدة في السنوات الأولى من رئاسة ترامب. إنّها مثال ممتاز لهذا النوع من الطموح. لقد ظهرت كمرشح جمهوري مُحتمل للرئاسة في المستقبل جزئيا على أساس دفاعها عن إسرائيل وتقريع الأمم المتحدة وتهديدها عملا بسياسة القطع والحرق لكلّ من يتعرّض لإسرائيل وآثامها.

في الواقع، أنا لا أمانع إقصائي من أروقة السلطة. لم أحبّ أبدا التعامل مع وسائل الإعلام السائدة، التي ضغطت عليّ باستمرا للتخفيف من حدّة آرائي أو إهدار ساعات من وقتي من أجل تضمين جملة أو عبارة خارج السياق أو تشويه سمعة أحد ما في قصة إخبارية. منذ أن اصبحت منبوذا من قبل وسائل الإعلام في الولايات المتحدة، لم يتمّ الإتصال بي إلّا من قِبل أولئك المرتبطين بوسائل الإعلام البديلة عبر الإنترنت في الغرب أو من خلال وسائل الإعلام من أجزاء اخرى من العالم، غالبا ما تكون حكوماتها على خلاف مع واشنطن أو تل أبيب. تبدو هذه التجربة جديرة بالملاحظة لتوضيح المسـار اليميني المنهجي لوسـائل الإعلام السائدة، والذي يعكس الإتجاهات الأوسع في السياسة الأمريكية، ولكنّه يظهر أيضا إبراز هذا الميل إذا سحق أحد أصابع القدم الصهيونيّة!

عن طريق التجربة

جـاءت تجربتـي المباشـرة مع المحنة الفلسـطينية أكثر علـى مراحل. مثلما اكتشـفت أنّ لديّ صلات غير معروفة عندما اصبحت على اتصال مباشـر بواقع دولة يهوديّة، إكتشفت أنّني شعرت بالبكاء عندما أحسست بشكل مباشر بالمعاناة التي يعيشها الشعب الفلسطيني من قِبل المحتلين على أرضه. ذهبت الى الضفة الغربية في أوائل السبعينات كجزء من مشروع مؤسسة فورد للتحقيق في الحياة

تحـت الإحتـلال الإسـرائيلي. كان مـن المتوقّـع أن انظـر للإحتـلال من منظور القانـون الدولـي الإنسـاني، وانتهـى الأمر بكتابة مقالتيـن ظهرتا في مجلة جامعة هارڤرد للقانون الدولي. كانت إحداهما من عدة أوجه بالتعاون مع بيرَنز وِستُن. وهو صديق وزميل لأستاذي مَكدو گَل، والذي كانت له مهنة بارزة كباحث ونشر مقـالا مطـوّلا حظـي باحترام واسـع في مركز حقوق الإنسـان فـي كلية الحقوق بجامعة أيَوا. أنتج مقالنا الأوّل استجابة منزعجة Acidic Response من قبل استاذ العلوم السياسـية في جامعة رَتگَرز، مايكل كِرتِز، الذي تبيّن أنّه من رعايا بِرنارد لِـوِس. كتـب كِرتِـز ردّه بشـكل نقدي وبنبرة متعالية تحاكي أسـلوب لِوِس. إثناء زيارتنا لبلدات في الضفة الغربية، إلتقينا برؤساء بلديات أصيبوا بالرصاص الحيّ مـن قِبـل قوات الأمن الإسـرائيلية. لقد شـهدنا بالفعل حادثـة كان جنود الجيش الإسرائيلي فيها يطاردون شبابا فلسطينيين ويطلقون نيران الأسلحة عليهم، على الرغم من أنّنا لم نتمكّن من تأكيد ما إذا كان يتم استخدام الذخيرة الحيّة.

تولّد لديّ انطباع بأن الحياة الفلسـطينية تحت الإحتلال الإسـرائيلي كانت وحشية في فترة ما قبل أوسلو، عندما كانت الضفة الغربية بكاملها تحت الحكم العسـكري الإسـرائيلي الموحّـد. وهـو ما يبرّره أدّعاء خبرائهـا القانونيين أنّه منذ فـرض السـيادة علـى الضفـة الغربية، كانت هذه الضفـة «موضع نزاع». ولم تكن إسـرائيل ملزمـة بالإمتثـال لاتفاقيـة جنيڤ الرابعة، المكرّسـة لتحديـد التزامات القانون الإنسـاني الدولي فيما يتعلق بالإحتلال العسـكري. من خلال الإعتماد على المنطق السفسـطي، زعمت إسـرائيل أنّها تتجاهل الإصرار الدولي على أنّ الضفة الغربية الى جانب غزّة والقدس الشرقية هي «أراضٍ مُحتلة» وفق القانون الدولي، وأنّ هذا يتطلب من إسـرائيل، بصفتها محتلة، احترام القانون الإنسـاني الدولـي، بمـا فـي ذلك الإلتزام بعدم تغيير طبيعة المجتمع المدني المُحتلّ مؤقتا بـأيّ شـكل مـن الأشـكال. كما ينبغـي أن يكون مفهوما، أنّه كثيـرا ما يتمّ تحدّي القانون الدولي من قِبل الحكومات إذا لم تكن هناك إرادة سياسية كفيلة وكافية لضمان تنفيذه. ولكنّ الإحتلال طويل الأمد المصحوب بسياسـة المسـتوطنات الخفيـة والخبيثـة، انتهـاك لنـصّ الفقـرة 49 مـن المـادة رقم (6). جعلـت اتفاقية جنيڤ الإنتهاك الإسـرائيلي لدورها في الإحتلال صارخا بشـكل خاصّ. يُجسّـد

هذا الواقع المأساة الفلسطينية. ينحاز القانون الدولي الى جانب الفلسطينيين، لكنّ الإرادة السياسية الكافية اللازمة لتطبيق القانون غائبة، حيث يتمّ تحييدها فعليا من قبل إسرائيل والولايات المتحدة.

في خلفية هذا النقاش، كان المعنى المتنازع عليه لقرار مجلس الأمن رقم 242، الذي بدا في ظاهره انسحاب إسرائيلي من جميع الأراضي التي احتلتها في حرب 1967، لكنّ إسرائيل زعمت أنّها تعتمد على مفاوضات سابقة لتحديد حدود دائمة وحلّ قضية اللاجئين. توصّلتُ الى وجهة نظر مفادها أنّ المحامين الذين يتقاضون أجورا عالية أو ذوي الميول الأيديولوجية هم فقط من يمكنهم إساءة تفسير النيّة الواضحة لقرار 242، وهي حرمان إسرائيل من أيّة فائدة دائمة للحصول على الأراضي الفلسطينية بالقوة. بعد مرور أكثر من 50 عاما، لم ترفض إسرائيل الإنسحاب، بل جعلته مستحيلا من الناحية العملية من خلال بناء أكثر من 200 مستوطنة غير قانونية، بعضها مأهول بالسكان في جميع انحاء الضفة الغربية وتوسيع حجمها وعدد سكانها وامتلاك البلدات بشكل مستمرّ مع بعض الأهداف المستقبلية المعلنة، التي تشير الى أنّ عدد السكان اليهود في هذه الأراضي يصل الى مليوني نسمة. يتمّ تعزيز التوسّع الإستيطاني من خلال التعدّيات الإقليمية الإضافية، بما في ذلك جدار الفصل وشبكة معقدة من الطرق «لليهود فقط». بالإضافة الى ذلك،.إكتسبت حركة الإستيطان وانصار الضمّ نفوذا في السياسة الداخلية الإسرائيلية، ولم يخفوا معارضتهم غير القابلة للتغيير لإقامة أيّة دولة فلسطينية. وخلال السنوات الماضية، أدّى تأييد رئاسة ترامپ لهذه التطوّرات الإستفزازية الى جانب التحرّكات القويّة اتجاه التسوية مع بعض الدول العربية الكبرى، بما في ذلك اتفاقيات التطبيع العربية الأخيرة مع إسرائيل، الى جعل إسرائيل تشعر بالأمن لدرجة أنّ فلسطين لم تعد قضية خلافية بين الأحزاب الرئيسية في إسرائيل إلا في ظروف نادرة. كان أحد هذه الظروف هو الجدل حول الضمّ في عام 2020 وحول المطالبة بالسيادة بحكم القانون على تلك الأجزاء من الضفة الغربية المحتلة، حيث توجد المستوطنات.

كانت تجربتي المباشرة التالية المهمة بشأن إسرائيل/فلسطين هي زيارة غزة في منتصف التسعينات لحضور المؤتمر الدولي الأول لحقوق الإنسان (وربّما

الأخيـر!)، الـذي عُقـد فـي هذه الأرض المُعذبة والمزدحمـة والفقيرة. أتيت مع إقبـال أحمـد ونزلنـا فـي مامـا هاوس، وهو بيـت ضيافة مخصّص لـي في رواية گلوريـا إمِرسُـن الجميلـة عـن العام الـذي قضته في غزّة، والذي نُشِـر في كتاب بعنوان «غزة». حلّ إقبال محلّ إدورد سعيد، الذي تمّت دعوته ليكون المتحدث الرئيسي، ولكنّه لم يتمكّن من الحصول على تأشيرة بسبب اعتراضات ليس من قِبل إسرائيل، ولكن في هذه الحالة من قِبل السلطة الفلسطينية. ألقى إقبال خطابا مثيرا اصبح كمحاضرة عن فشل الدبلوماسية الفلسطينية في أوسلو، وانتقد بشكل عام النهج الفلسـطيني في نضالهم، سـواء فيما يتعلق بالدبلوماسـية أو المقاومة. قـارن إحترافيـة الدبلوماسـيين الإسـرائيليين برحلات الهيـاج العاطفي لنظرائهم الفلسطينيين، والتي انتهت بانتاج اتفاقيات كانت جيّدة لإسرائيل وسيئة لفلسطين. على الرغم من عدم رفضه لإطار عمل أوسـلو، كما فعل إدوارد بالتأكيد، إنتقد إقبال النّصّ الذي وجّه الدبلوماسـية. لاحظ بشـكل خاصّ فشـلها في تأكيد حقّ فلسـطين فـي تقريـر المصيـر، والآثـار الرهيبة لتقسـيم الضفة الغربيـة الى ثلاث مناطق إدارية للتوفيق بين الترتيبات الأمنية الإسـرائيلية والسـيطرة المباشـرة على مسـتوطناتها غيـر القانونيـة. لقـد تفاقمت مثـل هذه البلقنة بسـبب نقاط التفتيش العديدة في جميع انحاء الضفة الغربية، والتي أدّت الى حدّ كبير في إعاقة حرية الفلسـطينيين للتنقـل واخضاعهـم لفترات انتظار يوميـة طويلة كانت مذلة وغالبا ما كانت مسيئة جسديّا. كما انتقد إقبال لجوء الفلسطينيين الى الكفاح المسلح، بحجّـة أنّ التفجيـرات الإنتحاريـة والإرهـاب يمثلان إيماءات عكسـية للمقاومة بالنسـبة للفلسـطينيين. بدلا من ذلك، نصح الفلسـطينيين بالإنخراط في التعبئة الشـعبيّة واللجـوء الـى تكتيـكات غير عنيفـة على نطاق واسـع، متجاهلا حقيقة أنّـه عندمـا لجـأ الفلسـطينيون الى المقاومة اللاعنفيـة، كان عليهم مواجهة القمع العنيف بدلا من إيماءات إسـرائيل المتبادلة التي تشـير الى تسـوية محتملة. إنّ إقبال، بصفته ناشطا تقدّميا مُعتمدا من العالـم الثالث، يمكن أن يفلت من عرض تقديمي يخاطب جمهوره الفلسـطيني بطريقة لا يجرؤ الغربيون التقدّميون على القيام بها. وإنصافا للرجل، فإنّ روح الدعابة والذوق الخطابي صرف انتباه معظم الناس عن غطرسة حجّته Arrogance of His Argument..

أعطانا المؤتمر الذي عُقِد في غزة لمحة عن الفصائل الفلسطينية. وبحسب ما ورد فإنّ عرفات شعر بالإهانه لأنّه لم تتمّ دعوته لإلقاء خطاب الإفتتاح. لم يوافق على الإلتقاء بنا، نحن إثنين من المتحدثين الرئيسيين، على الرغم من حقيقة أنّه سبق أن رحّب بنا في اجتماع طويل غير رسمي حين كان في بيروت. من بين السمات البارزة للحدث، بصرف النظر عن سماح إسرائيل بعقد المؤتمرعلى الرغم من تعرّض غزة في ذلك الوقت لشكل مباشر قاس من الإحتلال العسكري، كانت هناك مشاركة للعديد من الأكاديميين الإسرائيليين وخبراء حقوق الإنسان في المنظمات غير الحكومية. لقد شعرت بالذهول من المشهد غير المتوقع للمركبات المدرعة الإسرائيلية وهي تجوب شوارع مدينة غزة الآهلة بالسكان ببطء، وتبدو اسلحتها جاهزة لحصد أرواح المتظاهرين المدنيين. لقد اعطاني المشهد شعورا غريبا بما يعنيه هذا الإحتلال يوما إثر يوم بالنسبة لسكان غزة، من الناحيتين النفسية والبدنية. لقد إختلف بشكل كبير عن الإحتلال الأقلّ تدخّلا المفروض على الضفة الغربية.

كان الإنطباع الآخر، الذي بقي في ذهني هو الممرّ بالقرب من الحدود والذي تمّ انشاؤه للفلسطينيين فقط من الذين يسعون للحصول على إذن للعبور الى إسرائيل للعمل أو العلاج الطبّي. ممرّ الوصول الذي يجب أن يجتازه الفلسطينيون للوصول الى افراد الحدود الإسرائيلية تمّ تطويقه بالكامل من خلال شبكات من الأسلاك الشائكة ذات سقف منخفض للغاية لدرجة أنّ من يقتربون من النافذة لتسليم هوياتهم وتصاريح العمل الخاصّة بهم أجبِروا على السير في وضع مهين شديد الإنحدار. عندما سُئِل الإسرائيليون عن الممرّ ردّوا بالدفاع، زاعمين أنّ شبكات الأسلاك الشائكة كانت إجراء احترازيا أمنيّا معقولا، من المُفترض أنّهم وضعوه بشكل يكاد يكون من المستحيل على أيّ فلسطيني أن يرفع بندقية ويطلق النار. بدا لي آنذاك والآن أنّ هذا الإعداد لم يكن لغرض الأمن ولكن لايصال الفلسطينيين الى منازلهم وهم يحملون رسائل قهر صارخة. كان يمكن لفلسطيني مسلح أن يركع في الممر ويُطلق النار دون صعوبة، لكن الإقتراب من نافذة المراقبة الإسرائيلية في هذا الموقف المنحني للمتوسّل الفلسطيني، كان طريقة لا لبس فيها لإظهار الدونية أمام التعالي.

تقصّي الحقائق والخطايا

كانت فرصتي التالية للإنخراط مباشرة في المحنة الفلسطينية في عام 2000 في شكل دعوة من مَيري روبِنسُن، الرئيسة السابقة لأيرلندا، ثمّ بعدها المفوّض السامي للأمم المتحدة لحقوق فلسطين، للإنضمام الى جون دوگارد وكمال حسين كأعضاء في بعثة ثلاثية لتقصي الحقائق في مجموعة متنوّعة من الإدعاءات المرتبطة بإدارة إسرائيل لغزّة. كان تركيز هذه البعثة الخاصّة بناهو التحقيق في الإتهامات بممارسة إسرائيل وسيطرتها الإدارية على غزّة، واعتمادها على القوة المُفرطة والعقاب الجماعي والتكتيكات القمعية في انتهاك اتفاقية جنيڤ الرابعة، التي تحكم الإحتلال العسكري. طُلِب منّا قبل الشروع في المهمة، الحضور الى جنيڤ لعرضها على مجلس حقوق الإنسان. كان جون دوگارد فقيها ذائع الصيت من جنوب أفريقيا يحظى بالإعجاب لدفاعه عن حقوق الإنسان وسيادة القانون خلال حقبة الفصل العنصري في بلاده. أمّا كمال حسين فكان محاميا ووزيرا لخارجية بَنگلادَش بعد فترة وجيزة من استقلالها السياسي، وكان معروفا ومحترما في دوائر الأمم المتحدة، لا سيّما نتيجة دوره الأخير كمبعوث خاصّ للأمم المتحدة في افغانستان. نظرا لأنّ المفوض السامي قدّم هؤلاء الأفراد في جلسة عامة لمجلس حقوق الإنسان، لم يكن هناك سوى الثناء، ولكن عندما تمّ ذكر إسمي، طلب دبلوماسي إسرائيلي الإذن بالكلام، على الرغم من أنّ إسرائيل ليست عضوا في المجلس وأشدّ منتقديه مرارة.

اشار الدبلوماسي الإسرائيلي الى معارضة بدء تحقيق باعتباره إهانة لا مُبرّر لها إسرائيل. واشتكى من أنّ إسرائيل تتعرّض للتمحيص على الرغم من إهمال الأمم المتحدة لأوضاع أسوأ بكثير في العالم. بالإضافة الى ذلك قال إنّ ضمّي للبعثة أمر غير مقبول بشكل قاطع. إنتقد لتوضيح وجهة نظره مقالا زعم فيه تحيّزي ونُشِر في مجلة MERIP إنتقدت فيه تعامل إسرائيل مع انشطة المقاومة الفلسطينية الأخيرة من منظور القانون الدولي. كنت في المقال منتقدا بشكل خاصّ اعتماد إسرائيل على القوة المُميتة في قمع الإحتجاجات المحيطة بزيارة أرييل شارون الإستفزازية للمسجد الأقصى في عام 2000، وهي ديناميكية أدّت

بشكل مباشر ومتوقع الى اندلاع الإنتفاضة الثانية. ردّت مَيري روبِنسُن على الإنتقادات بالإشارة الى أنّ أوراق اعتمادي الأكاديمية كانت أكثر من مؤهل كاف لعضويتي في تلك البعثة المهمة.

إتضح أنّها مهمة مرهِقة للغاية لكنّها جديرة بالإهتمام. كنت أعرف جون دوگارد منذ أخذني في جولة حول جوهانِزبَرگ، بما في ذلك بلدة سويتو في عام 1968 خلال زيارتي الأولى الى جنوب أفريقيا. كنت في جنوب أفريقيا حينها في مهمّة دولية سابقة، رغم أنّني غير مرتبط بالأمم المتحدة. لقد تمّ تعييني من قِبل لجنة الحقوقيين الدولية لأكون مراقبا رسميّا لمحاكمة سياسية مكرّسة لناشطي المقاومة البالغ عددهم 35 من قادة جنوب غرب أفريقيا (ناميبيا بعد الإستقلال)، الذين اتّهموا بارتكاب جرائم مختلفة. لقد كان جون شخصا أحترمه للغاية بسبب نزاهته وحنكته وذكائه والتزامه العلني بحماية حقوق الإنسان. لقد أحببت أيضا اسلوبه الودود المنفتح المشوب بلمسة ساخرة لطيفة. من وجهة نظري القانونية، كان جون الى حدّ ما أكثر من اللازم بالنسبة للقانون، حيث بذل جهودا حذرة للغاية لفصل التفضيلات السياسية والمعتقدات الأخلاقية عن تحليله القانوني، ممّا عزّز الوهم بأنّ هذا ممكن ومرغوب فيه. ومن ثمّ في تلك المرحلة، كنت أعتبر أنّ جون وضع قانوني يتمتع بالروح المطلوبة، على الرغم من أنّ اتصاله الوثيق، عبر السنوات مع نظام السيطرة الإسرائيلي التعسفي، قد دفعه الى أن يُصبح تدريجيا صريحا في إدانة السلوك الإسرائيلي دون إخفاء أحكامه السياسية والأخلاقية خلف ستار من التقنيات القانونية.

أمّا كمال حسين فقد اصبح على الفور صديقا ورفيقا روحيا بطريقة عفوية. عمل كمال بمهارة وفعالية لتشكيل إجماع بيننا نحن الثلاثة. تمّ تعزيز التجربة بأكملها بشكل كبير، من الناحية اللوجستية والموضوعية من خلال الحماس والذكاء المُستنير وكفاءة موظفة في الأمم المتحدة إسمها داركا توپالي، التي رفعت ثقتنا أعلى من السماء من خلال تسميتنا «فريق الأحلام». لقد اعتدت أن أكون في الطرف المتلقي لكلّ الإهانات غير المستحقة والمجاملات المفرطة والتشهير من قِبل البعض، في حين أشاد آخرون بالشجاعة والإنجاز المفرط. في الواقع، تصورت مساهمتي على أنّها ليست أكثر من شهادة صادقة وضميرية

لما لاحظته واعتقدت أنّه حقيقي وصحيح، وعزّزته الى حدّ ما بخلفيتي المهنية واهتمامي بالوضوح المفاهيمي والمعياري. كان هذا الإحساس بعملي في هذه القضية وغيرها من القضايا المثيرة للجدل، والتي تركّز على المزج بين الثقة المهنية والمواطنة والمشاركة، هو الذي سمح لي بصدّ حتى أكثر الإهانات الوضيعة دون أن افقد النوم. كما أنّ هذا المزج جنّبني ذرائع الغرور لأنّني حظيت بمدح الآخرين على أنّه ليس أكثر من تعبير عن الإمتنان لقول الحقيقة والشهادة في الأماكن، حيث ابتعد العديد من الخبراء المؤهلين وتحاشوا الأمر بسبب الآثار المثيرة للجدل لظهورهم على أنّهم منتقدون لسلوك إسرائيل.

لقد تماشى الثلاثة منّا في البعثة بشكل جيّد للغاية في جهودنا المشتركة للبحث عن أفضل فهم ممكن للوضع في غزّة. بالإضافة الى عقدنا سلسلة من الإجتماعات في فندقنا The American Colony، الواقع في القدس الشرقية، إلتقينا بمجموعة متنوّعة من الشخصيات الإسرائيلية ذات الصلة في محاولتنا الحقيقية لفهم كلي الجانبين. شملت هذه الإجتماعات أكاديميين إسرائيليين بارزين مثل روث جاڤِسُن ودَيڤِد كرچمَر. كان كلاهما منتقدا لِبراليا لسياسات الإحتلال الإسرائيلي، ومع ذلك أيّدا المشروع الصهيوني وشاركا ما قالا لنا أنّه وجهة النظر الإسرائيلية شبه العالمية بأنّ عودة أيّ عدد كبير من اللاجئين الفلسطينيين الى أماكن إقامتهم قبل عام 1967في إسرائيل كان بمثابة كسر للصفقة، عندما يتعلق الأمر بإيجاد حلّ سلمي. تحدّثنا سويّا خلال زيارتنا كما لو كان لا يزال من الممكن في عام 2000 الإعتقاد بإمكانية إقامة دولة فلسطينية ذات سيادة عبر دبلوماسية أوسلو والتوصّل الى تسوية سياسية بشأن القضايا، التي تفصل بين الجانبين.

حتى في ذلك الوقت، لم أكن مرتاحا للإفتراض المسبق أنّ القيادة الإسرائيلية كانت بالفعل على استعداد للموافقة على الترتيبات التي من شأنها إقامة سلام دائم. كان اعتقادي الخاصّ، الذي تشاركته بشكل خاصّ مع كمال حسن، هو أنّ إسرائيل ستصرّ على مستوى غير معقول من الأمن لنفسها. وهو ما يستتبع بطبيعته مستويات غير مقبولة بشكل دائم من انعدام الأمن والعداء تجاه الفلسطينيين. لقد اعتبرت أنّ نوايا إسرائيل الحقيقية قد تمّ نقلها من خلال الممارسة في الخطاب

الإسرائيلي الداخلي للإشارة الى الضفة الغربية باسم «يهودا والسامرة»، أي كجزء لا يتجزّا من استحقاق اسرائيل التوراتي المزعوم، والغاء القناعة الدولية الراسخ بأنّ الحلّ الوحيد كان هو التقسيم الإقليمي.

عندما تعلق الأمر بإعداد تقريرنا وتقديمه الى مجلس حقوق الإنسان التابع للأمم المتحدة، لم تكن لدينا مشكلة في التوصّل الى اتفاق في الآراء بشأن الإدّعاءات الرئيسية. وجدنا الدليل على لجوء إسرائيل المتعمّد على القوة المفرطة والعقاب الجماعي في غزّة ساحقا وواضحا بحيث لا يتطلب الكثير من النقاش، ويدعو فقط الى تقديم فعّال للأدلة التي دفعتنا الى الوصول الى تلك الإستنتاجات.

تمّ الإنتهاء من تقريرنا وتقديمه وقبوله، واعتبر مكتب المفوض السامي أنّ مهمّتنا كانت ناجحة، وقد عزّزها بلا شكّ حماس داركا الثابت وجهودها الترويجية. لقد تمّ تعيين جون رئيسا لبعثة التحقيق، وهذا بلا شكّ نقطة انطلاق لاختياره في العام التالي كمقرّر خاص لفلسطين المحتلة.

أسوأ لحظاتنا خلال المهمة، من منظور السلامة الشخصية، حدثت في مخيّم خان يونس للاجئين في جنوب غزّة. زرنا المستشفى الرئيسي، حيث كان هناك جرحى جُدد أصيبوا بإطلاقات خطيرة خلال الأربعة والعشرين الساعة الماضية. قرب نهاية زيارتنا وقع حادث إطلاق نار استهدف موقعا عسكريا إسرائيليا كان قريبا بما يكفي ليكون على مرمى الحجر. كان عدد الجرحى الفلسطينيين في المستشفى في حالة خطيرة ووضعوا في حالة تخدير. أخبرنا الأطباء المعالجون أنّ الجنود الإسرائيليين قد استعملوا نوعا من الذخيرة الجديدة التي أحدثت جروحا لم يروها من قبل، وكان من الصعب جدّا علاجها بالطبّ التقليدي. قبل مغادرة المخيّم تجولنا فيه وتحدثنا الى بعض السكان الأكبر سنّا. لاحظنا أنّ العديد من الأطفال، الذين لا تزيد اعمارهم عن 12 عاما، كانوا يرمون الحجارة الصغيرة مباشرة نحو البؤرة الإستيطانية. لم تكن الحجارة تشكّل أيّ خطر إصابة للجنود الإسرائيليين بأيّ شكل من الأشكال. لكنّ البؤرة الإستيطانية تعاملت مع الموقف كأنّه استفزاز. قوبل هذا العمل الرمزي الخفيف من قِبل الأطفال بصوت النقر الخفيف للرصاص الذي اطلقه جنود القوات الإسرائيلية. جعل

هـدوء الرصـاص التهديد يبدو غير واقعي بالنسـبة لنـا، لكنّ مرافقينا المصاحبين من الأمم المتحدة يعلمون خلاف ذلك، وسرعان ما اقتادونا خلف حاجز أمن. اضطررنا الى مغادرة خان يونس قبل معرفة ما إذا كان الأطفال الذين أثاروا الردّ الإسـرائيلي قـد قُتِلـوا أم جُرِحـوا. لقد ترك الحـدث انطباعا حيّا عن التفاعل غير المتكافـئ السـائد بيـن المقاومة الرمزيـة من قبل المدنيين الفلسـطينيين والعنف القاتـل مـن قبـل العسـكر الإسـرائيليين، الذي كان مصـدر إلهام للحيـاة اليومية للمُحتلين والمحتلِين على حدّ سواء.

بعـد انجـاز مهمتنـا ذهـب كلّ منّا فـي طريقه المنفصل، علـى الرغم من أنّ طريقي قد تشابك في كثير من الأحيان مع طريق جون دوگارد، الذي ذهب لتولي مناصب مهمة في مؤسسات مرموقة. وكان كمال نشطا داخل بلده وعلى الصعيد الدولي. في الواقع، اصبحت داركا مسـاعدة لجون طيلة السـنوات التي قضاها كمقـرّر خـاص. وهـي التي وفـرت الرابط الإجتماعي الذي جعـل كلّ واحد منّا على دراية بما كنّا نفعله جميعا. على الرغم من أنّنا واجهنا محنة إنسانية مروّعة في غزّة، إلا أنّها ساءت فيما بعد، كما اكتشفت خلال العقد التالي عندما توليت منصـب المقـرّر الخـاص للأمـم المتحدة المعني بحقوق الإنسـان في فلسـطين المحتلة من جون في عام 2008.

المُقرر الخاصّ (2008- 2014)

شغل جون دوگارد منصب المقرّر الخاص لمجلس حقوق الإنسان التابع للأمم المتحدة في الفترة ما بين الأعوام 2001- 2008. لطالما كانت تقارير جون جيّـدة الصياغـة، وقـدّم فـي نهاية فتـرة ولايته الثانية حججـا منطقية توصّلت الى استنتاجات مهمّة. صوّرت تقاريره احتلال الضفة الغربية وقطاع غزّة على أنّه سمة من سمات الهياكل الإستعمارية الأوروپيّة، وعلى أنّه يعتمد على هياكل الفصل العنصري للسيطرة على الأراضي الفلسطينية التي تديرها إسرائيل. يتطلب الأمر القليل من المعرفة وخيال أقلّ لتوقع ردّ فعل إسرائيلي غاضب. مع اقتراب فترة ولاية دوگارد الثانية كمقرّر خاصّ من نهايتها، أدركتُ أنّ إسرائيل كانت تضغط بشدّة للعثور على خليفة متوافق مع دوگارد ولكن يتغاضى بجدّية عن انتهاكات

إسرائيل الصارخة واليومية للقانون الدولي. ومع ذلك لم يتمّ ضمان نجاح هذه الحملة على الإطلاق بسبب المناخ السياسي لمجلس حقوق الإنسان، وهو أحد المجالات السياسية القليلة في نظام الأمم المتحدة، حيث كان من الصعب على الغرب ممارسة نفوذ كاف للسيطرة على التعيينات الحساسة سياسيّا.

في ظلّ هذه الخلفية، تلقيت أوّل مكالمة هاتفية من عدة مكالمات من مكتب المفوّض السامي في جِنَيف للإستفسار عماّ إذا كنت سأقبل تعييني مقرّرا خاصّا لفلسطين المحتلة، إذا وافق مجلس حقوق الإنسان على توصية لجنة الإختيار، وحصلت على الدعم اللازم من رئيس المجلس. في ذلك الوقت، لم تكن طلبات التوظيف الذاتي من قِبل المرشحين أنفسهم شرطا للتعيين، وبدت عملية الإختيار أقلّ شفافية أو قائمة على الجدارة، ممّا كانت عليه خلال العقد الماضي. يجب على المرشحين الآن إكمال نماذج الطلبات الشاملة. يتمّ فحصها من قبل لجنة من سفراء الأمم المتحدة، الذين يمثلون الحكومات الأعضاء في مجلس حقوق الإنسان. إذا وصل اسم أحد المرشحين الى القائمة المختصرة، يتم إجراء مقابلة معه من قبل اللجنة بأكملها. على هذا الأساس، يُرفَع ترتيب أفضل المرشحين لرئيس مجلس حقوق الإنسان، الذي يتمتع بسلطة اتخاذ القرار النهائي، والذي كان الإجراء المتّبع في حالتي. نظرا لأنّ قرار الرئيس تقديري، فيمكن أن يتأثر بتزايد الضغوط الكبيرة على الحكومة التابع لها، خاصّة إذا كانت تلك الحكومة مدينة دوليا أو تحتاج الى قروض.

بطبيعة الحال، كانت هِليل على علم بالمكالمات الواردة من جِنَيف. لكنّني أخبرتها ألا تقلق من أنّ معارضة إسرائيل والولايات المتحدة ستخرّب أية فرصة كانت لديّ، وكان شعوري صادقا. استمرّت المكالمات بالورود، وسرعان ما أبلِغتُ أنّه تمّ بالفعل اختياري بدون اصوات معارضة من قِبل اجتماع المجلس ككُلّ. إمتنعت كندا فقط عن التصويت، بعد أن تحدّث مندوبها بشكل غير إيجابي عن مؤهلاتي لهذا المنصب. أنا على يقين من أنّه لو لم تنسحب الولايات المتحدة قبل بضع سنوات من عضويتها في مجلس حقوق الإنسان، فإنّ ترشيحي كان سيُعرقل بسبب التصويت السلبي الوحيد. شعرت بالحرج الى حدّ ما بسبب اختياري، في ضوء تأكيداتي المُبكّرة بأنّ ذلك لن بحدث أبدا. على الرغم من

بعـض التناقـض، كنـت مقتنعـا بضرورة قبـول التحدّي الذي تمثلـه هذه الوظيفة المجانية والتي تتطلب العمل والجهدUnpaid and Demanding Position، إضافة الـى توقعـي بـأن يعرّضنـي قبولها لانتقـادات لاذعة، ليس فقط بسـبب تقاريري، ولكن موجّهة الى شخصيتي ونزاهتي العلمية. في الوقت نفسه، كان من دواعي سـروري أنّنـي تغلبـت على العقبات، التي تعتـرض اختياري. علمت لاحقا فقط أنّ حملة إسرائيلية مكثفة ضدّي احبطها تحالف من الحكومات الغربية، استجابة لرغبات السلطة الفلسطينية، التي أيّدت تعييني بقوّة.

لقد واجهت العداء منذ اللحظة التي اصبح فيها وجودي معروفا. كنت اتوقع انتقادات حادة من مصادر أمريكية واسرائيلية. من الواضح أنّ جون بولتُن، سفير جـورج دبليـو بُـش في الأمم المتحدة، اعتبر تعييني مناسـبة للتنفيس عن غضبه. وصفني بولتُن بأنّني «مجنون»، على حدّ قوله باللهجة الأمريكية «كعكة فواكه»، ليس في نيّة للإشادة بي كطعام شهي وقت الراحة، ولكن لنقل الإنطباع بأنّ آرائي غريبة، على الرغم من أنّه لم يُحدّد بالضبط ما الذي قاده لمثل هذا الإسـتنتاج. مضى يقول إنّ تعييني أظهر بالضبط نوع العمل الذي جعل الأشـخاص العقلاء والعقلانيين ينظرون الى الأمم المتحدة على أنّها منظمة فاسدة.

بعـد الإعـلان عـن تعيينـي رسـميّا، تلقيـت مجموعـة متنوّعة من الرسـائل الخاصّـة غيـر التهنئـة الموجهة الى مدونتي أو بريدي الإلكتروني، والتي تحتوي على إدّعاءات فجّة الى جانب التهديدات. عادة ما أطلق عليّ لقب «كاره اليهود» وقـد تغـزّزت مثـل تلك الإتهامات احيانا بلغـة الكراهية والتهديدات بالقتل. لقد قللت من شـأن هذه الآثار الجانبية غير السـارة لتعييني في الأمم المتحدة دون محاولـة لأيّ ردّ أو طلـب مشـورة الأصدقـاء. قبل كلّ شـيء، لم أكن ارغب في إقلاق هِليل، التي تكره بشدّة هذا النوع من الإفتراءات العامة. كانت تأمل خلال سنواتي الأولى كمقرر خاصّ أن اتفاعل مع الإحباطات التي اصابت المنصب، والتي تضمّنت المسـاعدة غير الفعّالة من دعم موظفي جِنيَف، ممّا أمكن دفعي الى الإستقالة احتجاجا.

الغريب أنّ مشـاكلي الأولية تضاعفت بسـرعة، وكانت بنفس القدر أو أكثر تتعلـق بمؤيـدي الفلسـطينيين، الذيـن اغضبتهم فـي أول اجتماع لمجلس حقوق

الإنسان في جِنَيف في خريف عام 2008. لأسباب سياسية ذات دوافع من خلال رغبتي في الإبتعاد عن التفويض المحدود الذي ينظر في الإنتهاكات الإسرائيلية لقانون حقوق الإنسان والقانون الدولي، فقد اقترحت التفويض ليشمل ايضا ألإنتهاكات من الجانب الفلسطيني. إعتقدت خطأ أنّ توسيع مهمّتي بهذه الطريقة سيكون موضع ترحيب لكونه عادلا يشمل الطرفين في النزاع.

لدهشتي، فإنّ الإقتراح، الذي بدا معقولا جدّا بالنسبة لي ومن المرجّح أن يعزّز تأثير وفعالية تقاريري، لن يتلقَ سوى دعم فاتر من الغرب والرفض بشدّة من قِبل السلطة الفلسطينية ومجموعة متنوّعة من الممثلين العرب والمسلمين في المجلس. جادلوا بأنّ الإنتداب على فلسطين المحتلة بصيغته الحالية له نطاق مناسب، وأنّ أيّ جهد لتغيير تركيزه من شأنه أن يؤدّي الى مزيد من التعديلات السلبية أو حتى إلغائه. على المستوى الشخصي، أخبرني العديد من المتحدثين في الجلسة المفتوحة للمجلس أنّه في سياق مناقشة الإنتهاكات الإسرائيلية الأوسع، سأكون حرّا تماما في وصف أهمية الإنتهاكات الفلسطينية للقانون الدولي المعمول به. لقد استفدت من ذلك الإنفتاح على أن أكون عادلا قدر الإمكان في تقييماتي. ولكن في الواقع ونظرا لأنّ حقائق سلوك إسرائيل تعسّفية وغير قانونية، بدت تقييماتي أحادية الجانب للغاية بسبب الهيمنة الإسرائيلية الشاملة وتكتيكاتها القمعية. وبناء عليه، فقد كرّست معظم تقاريري بالضرورة اهتمامها بالسلوك الإسرائيلي. أردت تجنّب التماثل الخاطئ الشائع جدّا في الخطاب اللِبرالي الغربي، الذي تصرّف كما لو أنّ المسؤولية عن الفشل في إيجاد السلام أو حتى الإستقرار، تقع على كلي الجانبين بشكل متساو. وهذا كان مجرّد ظلّ أكثر انعكاسا للحقائق لما كان عليه موقف الولايات المتحدة. لقد مالت الى إدانة الإرهاب الفلسطيني ووبّخت حماس لكنّها غضّت الطرف عن الإنتهاكات الإسرائيلية الصارخة للقانون الدولي.

كانت مشاكلي مع السلطة الفلسطينية قد بدأت للتوّ. كانوا أكثر غضبا من تقاريري الأولية، حيث استخدموا حقهم في تأخير النشر العلني الى أجل غير مسمّى، لأنّني تجرأت على ذكر دور حكم حماس في غزّة والعداء الحادّ للسلطة الفلسطينية اتجاه حماس. إتّصل بي ذات مرّة الشخص الثاني في وفد السلطة

الفلسطينية في كالِفورنيا، وحثّني على الإستقالة بعد أن شكرني على خدماتي للشعب الفلسطيني. علمت أيضا أنّ السلطة الفلسطينية كانت تنشر شائعات في جنَيف، بأنّ لديّ مشاكل صحيّة خطيرة تحول دون القيام بواجباتي المطلوبة. عندما فشلت هذه الجهود في إقصائي، عملت السلطة الفلسطينية تدريجيا لتحقيق السلام معي. بعد العاصفة المُبكّرة، أقمت علاقات وديّة ومثمرة مع ممثل السلطة الفلسطينية اللاحق في جِنَيف، ابراهيم خريشي ونظيره في نو يورك رياض منصور. كان كلاهما دبلوماسيين مطلعين وذكيين وبارعين من الناحية التكتيكية، بينما كانا مترجمين مخلصين لنهج رام الله شديد الحذر اتجاه العلاقات داخل الأمم المتحدة. لقد دفعت السلطة الفلسطينية القضية الفلسطينية، ولكن بطرق ازعجت أقلّ قدر ممكن من الحساسية الأوروپية، وأظهرت أولوياتها في كسب اليد العليا في تنافسها المرير مع حماس.

كان التأثير الأكثر إزعاجا لهذه الحملة التشهيرية، التي صوّرتني على أنّني معاد للسامية ومتطرف في مجموعة متنوّعة من القضايا الحالية الساخنة، هو استعداد كبار مسؤولي الأمم المتحدة والدبلوماسيين من الحكومات المحترمة، بما في ذلك حكومة بلادي لقبول هذه المزاعم من ظاهرها. صُنعت هذه من قبل لجنة مراقبة الأمم المتحدة UN Watch واحيانا بواسطة المنظمات غير الحكومية الصهيونية NGO Monitors المتطرفة، التي تعمل في نو يورك. ستقوم UN Watch بصياغة رسائل استنكار بلغة جيّدة وارسالها الى دبلوماسيين مهمّين رفيعي المستوى في الأمم المتحدة، والذين سيصدرون هم انفسهم بيانات عامة تعتمد على المواد التشهيرية، دون الحصول على جانبي من القصة أو التحقق من صحّة الإدّعاءات ودقّتها.

بعد أن شنّ بان كي مون، الأمين العام للأمم المتحدة آنذاك، إحدى هذه الهجمات عليّ بناء على معلومات UN Watch، اجريت اتصالا هاتفيا مع كبير مساعديه في مقرّ الأمم المتحدة. أوضحت له أنّ ما تمّ التأكيد عليه لا يتوافق مع آرائي وأنّه مُضرّ بعملي في هذا المنصب غير المأجور في الأمم المتحدة. ردّ المسؤول المذكور الهندي بأدب على شكواي بالإعتراف بأنّ مكتب الأمين العام لم يفعل ما أسماه «العناية الواجبة»، ممّا يعني بلا شكّ أنّهم لم يُكلفوا انفسهم

عناء التحقق من مصادر المواد التشهيرية. وعد بإزالة الإنطباعات الخاصّة بعد التحدّث الى الأمين العام، لكنّ ذلك لم يحدث. إشتكيت في رسالة محترمة الى سوزَن رايس، سفيرة أوباما في الأمم المتحدة، بعد أن كرّرت هي الأخرى تحريفات مماثلة، ولكن لم أتلقَ ردّا. وبالمثل هاجمتْ سِمانثا پاورز، إخصائية حقوق الإنسان، التي كانت منتسبة لجامعة هارڤَرد قبل تعيينها في الأمم المتحدة، وكانت في السابق صديقة قريبة، تحيّزي المُفترض. لم تكلف هي الأخرى نفسها عناء الإطلاع على جوهر تقاريري، التي كانت دائما قائمة على الحقائق والقانون، وكثيرا ما اعتمدت على المعلومات التي جمعتها إسرائيل نفسها ووزّعتها. كما قلت علنا في ذلك الوقت، يحتاج الشخص فقط أن يكون موضوعيا بنسبة 10% للتوصّل الى نفس الإستنتاجات التي توصلت إليها!

أذكر هذه القضايا بهذا التفصيل لأنّني اعتقد أنّه يجب بذل المزيد من الجهود لحماية أولئك الذين يقبلون هذه المراكز الطوعية في الأساس من الهجمات غير المسؤولة على كفاءتهم وآرائهم، خاصّة من قبل موظفي الأمم المتحدة ذاتهم. كنت الى حدّ ما بمنأى عن التدخّل بسبب الإستقلال الذي مُنِح للمقرّرين الخاصّين، الذين يستفيدون من كونهم خارج نطاق انضباط الخدمة المدنية في الأمم المتحدة. في مرحلة ما، أوضح بان كي مون لوسائل الإعلام أنّه حتى عندما كان الأمين العام فهو مُقيّد اليدين ولم يكن قادرا على اقصائي إلا إذا تجاوزت شروط فترة خدمتي. كان مثل هذا الإكتشاف غير مرجّح للغاية، حيث وافقت جميع الدول الأعضاء في مجلس حقوق الإنسان تقريبا على عملي، وكان الأمر مُعلنا. ومع ذلك فقد تضرّرت سمعتي الأكاديمية في الغرب، وحتى أمني الشخصي تعرّض لبعض المخاطر، لا سيّما بسبب التلميحات والإتهامات المُتكرّرة بشأن معاداة السامية وافتراض كرهي لليهود. لقد أعتبرت هذه أكثر ضررا من الكراهية الإسرائيلية الجدلية، وهي البديل الذي تمّ دفعه بقوّة في الغرب من قبل الناشطين الصهاينة المتطرّفين.

خلصت الى أنّ شدّة هذه الهجمات موجّهة اليّ، بدليل أنّها تراجعت فعليّا على الفور تقريبا بعد انتهاء عملي في الأمم المتحدة. وقد اوحي هذا لي أن أدرك بأنّ منصب المُقرّر الخاصّ، خاصّة فيما يتعلق بالقضايا الحسّاسة من

هـذا النـوع، أنّـه أكثـر أهميّة ممّا كنت افعله سـابقا. في حالتـي، تمّ أخذ الموقف بالتأكيد على محمل الجدّ من قِبل إسـرائيل وأنصارها. قد يُصاب الرسـول أثناء أدائه لواجبه، لكنّ معظم الرسالة لا يزال قادرا على الوصول، وتزداد الهجمات أحيانا بسبب تأثير تقارير الإستجابة السريعة، التي غالبا ما يتمّ تجاهلها. بخلاف ذلـك، أعلـم مـن خلال التحدّث الى وزراء الخارجية والمسـؤولين الآخرين في العديد من البلدان المهمّة أنّ سياسة بلدانهم اتجاه إسرائيل وفلسطين قد أخذت بعيـن الإعتبـار تقاريـري، التي تضمّنت توصيات سياسـية. كما تمّ الإعتماد على هذه التقارير الدوريّة حول الأوضاع في فلسطين المحتلة من قِبل مجموعة واسعة من الناشـطين في المجتمع المدني، بما في ذلك مجموعات كنسـية مهمّة. على الرغـم مـن أنّ المُقـرّر الخـاصّ قد يتعرّض للهجوم باعتباره متحيّزا وغير موثوق به، فإنّ التقارير إذا كانت مفيدة تنجو من مثل هذه التجاوزات، خاصّة إذا كانت تقدّم أدلة وتحليلات ذات صلة ومفيدة لأولئك، الذين يسـعون الى فهم سـمات معيّنة من المحنة الفلسطينية وكيف تتكشّف للعالم. إذا كان الشخص الذي يشغل منصب المُقرّر الخاصّ لديه أوراق اعتماد جيّدة، فمن المرجّح بشكل متزايد أن يتمّ تصديقه أكثر من «قاذفات اللهب» المؤيدة لإسرائيل. شعرت بأنّني مُحترَم من قِبل المستويات العليا في بيروقراطية مجلس حقوق الإنسان HRC.

كمـا حالفنـي الحـظ الجيّـد غير المتوقع الذي سـاعدني فـي جهودي لرفع مكانـة إنتدابـي كمقـرر خاصّ لمراقبة حقوق الشـعب الفلسـطيني الإنسـانية. تمّ تعيين صديقي القس مِگيل ديسكوتو بروكمَن وزيرا لخارجية حكومة الساندَنيستا السابقة في نيكَراگوا. تمّ انتخابه رئيسا للجمعية العامة لدورة عام 2008– 2009. كان الأب مِگيل صديقا منذ عملنا معا في منتصف الثمانينات من القرن الماضي على شكوى نيكَراگوا للحصول على تأييد اعتراضاتها من قِبل المحكمة العالمية في لاهاي لدعم الولايات المتحدة تمرّد عصابات الكونترا، بما في ذلك وضع الألغـام فـي موانـئ البلاد. لم يسـتَضِف الأب مِگيل فقط حفل اسـتقبال في مقرّ الأمم المتحدة لدعم تعييني في سنتي الأولى كمقرّر خاصّ، الذي حضره الأمين العام، ولكنّه دعاني أيضا رسـميّا الى أن أدرَج كعضو في مجموعته الإستشـارية الصغيـرة اثنـاء خدمتـه في المنصب لمدة عام واحد كرئيـس للجمعية العمومية.

على الرغم من أنّ المهمّة لم تدم طويلا، ألا أنّها كانت اكثر من مجرّد تسمية شرف، واستغلّها الأب مِكَيل الى اقصى حدّ. لقد ساعدت الأب فيما يتعلق بالعديد من القضايا الحسّاسة الى جانب قضية فلسطين خلال فترة رئاسته في الأمم المتحدة. أخبرني دبلوماسيون محنّكون في الأمم المتحدة خلال العام المذكور أنّه لا أحد ذا الطبيعة الروحية للأب مِكَيل قد شغل مثل هذا المنصب البارز في الأمم المتحدة. ويبدو هذا صحيحا بما فيه الكفاية، على الرغم من أنّ بعض المعجبين بالراحِل داگ هَمرشولد قد يعترضون. كان الأب مِكَيل يسترشد بما كان يُعتقد أنّه الإجراء الصحيح الذي يجب اتخاذه بغضّ النظر عمّا يطلبه أهمّ اعضاء الأمم المتحدة. لم يكن موقف الإستقلال هذا شائعا في الأمم المتحدة، ممّا أدى الى الثناء على رؤيته والشكاوى من عدم فهمه لكيفية عمل الأمم المتحدة. ربّما كان كلا نوعي ردود الفعل، التي أثارها سلوك الأب مِكَيل مُبرّرة، على الرغم من أنّني أضع نفسي في المرتبة الأولى لأكثر المُعجَبين به حماسة.

كان تقديم الدعم للحركة الوطنية الفلسطينية من أجل تقرير المصير من بين أولويات القس مِكَيل الأكثر وضوحا وتنازعا. كما كرّس جهوده لتطوير رؤية طويلة المدى لإصلاح الأمم المتحدة والتأكيد على الإلتزام بالقانون الدولي وتحرير المنظمة من إطار القيود الجيوسياسية. كانت فترة عام واحد أقصر من أن تُنجِز مثل هذه التحديات العميقة لنظام المناعة الذاتية لمنظمة الأمم المتحدة. على الرغم من الجهود الشجاعة، لم ينتج عن تفاني مِكَيل المكثف في تمكين الأمم المتحدة واضفاء الروحانيّات عليها في زخم الإصلاح الذي كان يأمل فيه ولم تحدث تغييرات دائمة. قد يُغفر للمُتشكّك قوله إنّ ما أراد مِكَيل ديسكوتو بشدة لم يتسبّب في إحداث أكثر من تموّجات قليلة بالكاد مرئية في الإمتداد المحيطي للجغرافية السياسية، التي اجتاحت الأمم المتحدة منذ فترة طويلة. في هذا المكان حيث يَبتَلِع المصلحون التدريجيون في كثير من الأحيان الثمرة المرّة لعدم الجدوى لحدّ يمكن تشبيههم بالحالمين الأجانب غير المرغوب فيهم وكأنهم قادمون من كوكب بعيد، والذين سيتمّ إبعادهم في أقرب وقت ممكن بهدوء من المبنى بوصفهم مصدر إزعاج للسلام. الإصلاح والسلام العالمي

ليس ما تدور حوله الأمم المتحدة في سلوكها السياسي. لكنّك لن تكتشف ذلك أبدا من خلال الإستماع الى الخطب التي تُلقى باستمرار في قاعاتها، أو قراءة اللغة المستخدمة في وثائقها الرسمية. تتمّ الأعمال الجيدة للأمم المتحدة على هامش السياسة العالمية في الوكالات المتخصّصة التي تتعامل مع الصحة والبيئة والثقافة وحقوق الإنسان والتنمية الإقتصادية والتعليم.

جرح الرسول

يمكن تلخيص جهودي البالغة ست سنوات كمُقرّر خاصّ لحقوق الإنسان في فلسطين المُحتلة على النحو التالي: قول الحقيقة واستخلاص النتائج المناسبة فيما يتعلق بالقانون الدولي وحقوق الإنسان من الحقائق التي كشفت عنها الأدلة المُستمدّة من بلادي بشأن تحقيقات في الإحتلال الإسرائيلي للأراضي الفلسطينية. أكّدت تجربتي ما كنت اشتبه فيه في البداية، وهو أنّ سياسات وممارسات إسرائيل ستكون واضحة ومنهجية وتنتهك بشكل صارخ المعايير القانونية المعمول بها، بحيث تجعل الحقائق واضحة دون الحاجة الى الكثير من التفسير. وهي لائحة أتهام مدمّرة للنهج الإسرائيلي في احتلال الأراضي الفلسطينية التي سيطرت عليها في حرب عام 1967. وما كان لا يزال في تلك السنوات وحتى الآن يُشار اليه بشكل مضلل باسم «عملية السلام». لقد وجدت أدلة عل إنكار حقوق الإنسان وانعدام القانون بشكل كبير لدعم هذا التقييم، الذي اعتقدت بسذاجة أنّ جميع الأيديولوجيين والمدافعين الصهاينة الموالين لإسرائيل سيقتنعون بمثل هذه الإستنتاجات المُدعمة بأدلة جيّدة. إفترضت خطأً أنّ العقلانية والموضوعية ستسودان على المشاعر والحسابات السياسية الفجّة والإصطفافات الجيوسياسية على الأقلّ في مواقع الأمم المتحدة، التي يُفترَض أنّها مكرّسة لتعزيز حقوق الإنسان والإلتزام بالقانون الدولي.

يبدو أنّ القادة الإسرائيليين، سواء بوعي أو بغير وعي، يشاركونني فهمي للمستوى الواقعي فيما يتعلق بأهمية حقوق الإنسان والقانون. وبهذه الروح، تخلوا بهدوء عن جهود الدفاع عن افعال إسرائيل وسياساتها الواقعية، إلا عن طريق اللغة المجرّدة للغاية المتمثلة في «الأمن» أو «الدفاع عن النفس» أو بشكل

أضعف قانونيا بالرجوع الى الإستحقاق التوراتي أو العرقي، «أرضنا الموعودة». وقد تُرجِم ذلك، من واقع تجربتي في كلّ من مجلس حقوق الإنسان والجمعية العامة للأمم المتحدة، الى فشل إسرائيلي وأمريكي في تقديم أيّة حجج موضوعية تدعم المزاعم الإسرائيلية فيما يتعلق بشرعية ممارساتها المُتنازع عليها أو في دحض المظالم الفلسطينية. كانت الجهود الإسرائيلية غير مباشرة وإجرائية، ممّا أدّى الى تحويل أكبر قدر ممكن من المحادثات حول القضايا الموضوعية، وهي المستوطنات واستخدام القوّة والعقاب الجماعي والتعذيب والقدس وغيرها، الى عدم القدرة الإجرائية المزعومة لإسرائيل في الحصول على محاكمة عادلة في الأمم المتحدة، فيما يتعلق بالطبيعة المُتحيّزة للمؤسسات واجراءاتها وموظفيها. في الحقيقة، وجدت أنّ واقع الأمم المتحدة هو عكس ذلك تماما تقريبا. كان بيروقراطيّو الأمم المتحدة على جميع المستويات حريصين بشكل لا يُصدّق على مراعاة حقوق إسرائيل السيادية في المنظمة بالرغم من جهود إسرائيل المستمرّة لتشويه سمعة الأمم المتحدة، لحدّ جعل معظم الحكومات تتصرّف بحذر حين معالجة تحركات اللوم أو إتخاذ اجراءات عقابية ضدّ إسرائيل. بطبيعة الحال، أدّت هجمات إسرائيل على الأمم المتحدة وتحدّيها للقانون الدولي إلى إثارة الغضب والإحباط في بعض الأوساط، وسمعت في كثير من الأحيان آراء موظفي الأمم المتحدة وممثلي الحكومات، ينتقدون بشدّة إسرائيل ووصيّها الجيوسياسي في واشنطن. غير أنّ هذه الكلمات نادرا ما تُلفظ خلال المناقشات الرسمية والعامّة.

خلال فترة عملي كمقرّر خاصّ، أصبح أحد الأهداف الرئيسية هو بناء ما أسميته «سياسة التحويل». قد يبدو الأمر غريبا، لكنّ تجربتي في الأمم المتحدة على مدار ستّ سنوات، كانت عكس ذلك النقد الإسرائيلي المُدبّر. في كلّ منعطف، إلتقيت بمسؤولين كبار وجدتهم يميلون لجرّ أقدامهم للخلف لتجنّب الدوس على أصابع الإسرائيليين. في نهاية عام 2008 عندما كنت محتجزا في زنزانة سجن إسرائيلي ثمّ طُرِدت خارج البلاد في بداية مهمّتي الأولى للأمم المتحدة، شعرت بخيبة أمل شديدة بسبب الإستجابة الفاترة لآليات الأمم المتحدة، من مكتب الأمين العام الى أسفل السلم البيروقراطي، للموظفين المُكلفين بمساعدتي اثناء

مهمّتي. على الرغم من إلزام الدول الأعضاء في الأمم المتحدة بموجب المعاهدة الأصلية بتسهيل أداء تعهدات الأمم المتحدة، لم يتمّ رفع إصبع ولم يتمّ النطق بأية كلمات احتجاج عامة على معاملتي المُشينة. على النقيض من ذلك، تمّ التعامل مع الدبلوماسيين والمخاوف الإسرائيلية باقصى درجات الإحترام، وتمّ السماح لهم بالوصول الى أيّ مكان داخل الأمم المتحدة اختارته اسرائيل للتعبير عن آراء ممثليها، والتي غالبا ما كانت تحريضية. أعتقد أنّ النظرة النزيهة حقا للعلاقة بين إسرائيل والأمم المتحدة والمظالم الفلسطينية، ستظهر على عكس معظم التصوّرات العامة، تحيّزا مؤيدا لإسرائيل يعكس جزئيا امتيازا منهجيّا لمصالح الدول الأعضاء والإستسلام جزئيا للضغط الذي تمارسه الولايات المتحدة. لم يكن الأمر دائما على هذا النحو. في العقود، التي اعقبت قيام إسرائيل، انتقدت الأمم المتحدة بشدة فشل إسرائيل في احترام حقوق الفلسطينيين وارتفعت الى ذروتها مع قرار بأنّ الصهيونية عنصرية في عام 1975، والذي تمّ التراجع عنه ونبذه لاحقا بهدوء،حين تراجعت الأمم المتحدة عنه بعد ذلك بالكامل.

ومثل هذه النظرة المتناقضة للأمم المتحدة يعزّزها خجل السلطة الفلسطينية وتناقضاتها، حين وجّهت على ما يبدو ممثليها بأن يكونوا مُحترِمين ومُتسامحين مع إسرائيل. في المقابل، لا يُظهر الدبلوماسيون الإسرائيليون أيّ تردّد في مهاجمة الأمم المتحدة أو المبادرات الفلسطينية بوقاحة وعدوانية. من المؤكّد أنّ الإعتداءات الإسرائيلية على الشرعية وتحدّي الإجماع الدولي فيما يتعلق بحقوق الفلسطينيين تؤدي الى إحباط دبلوماسي، ممّا يؤدي الى طرح قرارات مؤيدة للفلسطينيين في الجمعية العامة وأحيانا حتى في مجلس الأمن تنتقد إسرائيل، ولكن دون تأثير يُذكر وبدون عواقب وخيمة ملموسة على إسرائيل. هناك عواقب وخيمة، ولكن ليس على إسرائيل! إنّ تأثير تجاهل مثل هذه القرارات قد ساهم في إضعاف القانون الدولي وسلطة الأمم المتحدة بشكل عامّ. عندما يتمّ إنتهاك القواعد الدولية المهمّة بشكل خطير، وبعد ذلك على الرغم من الكشف عنها وتأكيدها، ولا يحدث شيء، فإنّه يُلقي بظلال من الشكّ على ما إذا كان ما يُعتبر قانون حقا. ما إذا كانت الحدّة غير المسبوقة للجدل قبل الضمّ في منتصف عام 2020 سوف تغيّر النمط، الذي تتعين رؤيته من قِبل كلي

الجانبين- ما إذا كانت إسرائيل تتراجع لأكثر من فترة زمنيّة مناسبة. وإذا لم تكن كذلك، فهل سيكون هناك أيّ ردّ فعل جادّ فلسطيني أو إقليمي أو مجتمع مدني أو عالمي، بما في ذلك تبنّي سياسة دولية لفرض العقوبات.

لقد اصبح هذا النمط نوعا متكرّرا من طقوس تشويه السمعة؛ إسرائيل تتباهى فتعترض الأمم المتحدة على السلوك، فتشتكي إسرائيل من التحيّز ضدّها وتستمر، حتى تتكرّر الدورة في إطار موضوعي مختلف. في غضون ذلك، تدين إسرائيل الأمم المتحدة واحيانا يُحجَب التمويل، ويجري ذلك بدعم من المموّل الرئيسي للمنظة وأهمّ عضو فيها. تتجاهل الحكومات القيادية أو تقلل من شأن مسؤولية الأمم المتحدة اتجاه الشعب الفلسطيني، التي تمتد من نهاية الإنتداب البريطاني على فلسطين لإيجاد حلّ عادل لكلا الشعبين. ثبت انّه من المستحيل تحقيق هذا الهدف بمجرّد اضفاء الشرعية على الفرضية الصهيونية الرئيسية المتمثلة في إقامة دولة يهودية بالقوة في مجتمع غير يهودي في الأساس، كعنصر لا يمكن تحديه في أيّ إطار دبلوماسي لحلّ الصراع عل الهوية الوطنية للمنطقة. إذا تمّ أخذ هذا الواقع في الإعتبار، فقد وقع الفلسطينيون على مدى عقود ضحية لنهج الأمم المتحدة هذا، بما في ذلك اقتراح التقسيم الذي قدمته الأمم المتحدة عام 1947، في حين تمكنت إسرائيل من الإزدهار اقتصاديا وسياسيا وتوسّعت بشكل مستمرّ. وفي نفس الوقت تظاهرت بأنّها ضحية معاداة السامية العالمية المفترضة كما تجسّدها الأمم المتحدة. مثل هذه الدعاية التحريفية، تذكّر العالم بأنّه لا ينبغي نسيان الهولوكوست، بينما تبذل إسرائيل في الوقت نفسه قصارى جهدها لإنكار الرؤية الأخلاقية والسياسية، ناهيك عن المساءلة عن النكبة الفلسطينية وحقوق سكان البلاد الأصليين والعديد من المظالم الناتجة عنها، بما في ذلك على وجه الخصوص تلك المرتبطة بالعنصرية والفصل العنصري الإسرائيلي

تحويل الرسالة

لا يمكن أن تستوعب هذه المذكرات المساحة المطلوبة لمعاجة القضايا الجوهرية، التي تمت متابعتها في تقلريري الإثني عشر، التي قدمتها خلال فترة ستة أعوام. كان أبرز ما حاولت نقله الى مجتمع الأمم المتحدة ومحيطه من

المجتمع المدني هي الطبيعة المتطورة للنظام الإسرائيلي القمعي للإحتلال والضمّ والإستيطان والفصل العنصري المنهجي، كما يتضح من فحص السياسات والممارسات التشغيلية المتميزة كما هو مطبّق، من إسرائيل الى الأراضي الفلسطينية المحتلة الثلاث وهي الضفة الغربية والقدس الشرقية وغزّة. ما تعلمته أثناء عملي في منصب المقرّر الخاصّ، أنّني تفاعلت يوميّا مع كلّ من الأمم المتحدة ومجموعة متنوعة من العاملين في المجتمع المدني والصحفيين والناشطين المنخرطين في الأمم المتحدة، سواء كانوا متحزبين أو منتقدين، واحيانا يقومون بكلي الدورين مجتمعين. كان لهذا التفاعل تأثير دائم على هويتي السياسية، ولكن دون تغيير التزاماتي الأخلاقية والسياسية.

حول الأمم المتحدة

أن تكون جزء من الأمم المتحدة، يجعل المرء مدركا لنطاقها فضلا عن طموحاتها المزدوجة المتمثلة في ابقاء حكومات الدول الأعضاء راضية والقيام بمهمتها المتمثلة في جعل العالم مكانا أفضل من منظور السلام والعدالة والتنمية والإستدامة البيئية. في مجلس حقوق الإنسان، تمّ مكاني الأساسي بإعطاء الأولوية لمعالجة مجموعة من حالات الحرمان والأزمات، مع التركيز على الحقوق المدنية والسياسية، ممّا يعكس النهج الغربي على الفردية والحماية من الإنتهاكات الحكومية. لقد فاجأني هذا في البداية لأنّ الغرب يعامل مجلس حقوق الإنسان على أنّه معقل العداء غير الغربي للقيم الغربية في مرحلة ما بعد الإستعمار: لا شيء ليس كما يبدو! في الواقع، تعتبر الحكمة الشعبية أكثر إفادة من وسائل الإعلام الخاضعة للرقابة في الغرب، «مَن يدفع للعازف هو من يقرر اللحن» He Who Pays the Piper Calls the Tune. أو الإستماع الى التحذير الثاقب الساخر، «إتبع المال» Follow the Money.

عندما يتعلق الأمر بالفعالية في جميع انحاء منظومة الأمم المتحدة، وخاصة في مجلس حقوق الإنسان، فإنّ المستوى الأول من الفهم هو أنّ الأمم المتحدة يمكن أن تتصرّف بقوّة عندما تفضّل الجهات الجيوسياسية الفاعلة في مثل هذه المبادرات، ويمكنها حثّ عدد كاف من الدول الأعضاء على المضيّ قُدُما أو

الإمتناع عن التصويت. سوف يتمّ إحباط الأمم المتحدة عندما تستخدم هذه الجهات الفاعلة نفسها لعرقلة العمل. تقدّم إسرائيل/فلسطين وجهة نظر مثالية لاستشعار ما تستطيع الأمم المتحدة وما لا تستطيع فعله في مختلف الظروف الملموسة.

باختصار، الأمم المتحدة قادرة على التحقيق وتوثيق مزاعم المخالفات الإسرائيلية بطريقة موضوعية، وحتى قادرة على التغلب على المقاومة الجيوسياسية للقيام بذلك. ولكنّها تجد نفسها غير قادرة بعد ذلك على تغيير أو معاقبة السلوك الإسرائيلي الخارج على القانون في ارضية الواقع. عندما تحاول الأمم المتحدة اتباع التوصيات السياسية، التي تنتقد إسرائيل، فإنّها تؤدي الى تأجيج الدبلوماسية الموجهة الى المنظمة، والتي ستقودها بشكل عام الولايات المتحدة وغالبا بدعم من الإتحاد الأوروبي. بما أنّ إسرائيل قادرة على تشكيل طريقة تعامل وسائل الإعلام الغربية بشأن هذه القضايا، في حين أنّ الفلسطينيين وانصارهم يفتقرون الى التأثير المقابل، فهذا هو ما يقود الى معاناة الأمم المتحدة فيما يتعلق بحرية التعبير. إنّ الجمهور الغربي غارق في الدعاية العدائية، بدلا من الصحافة الصادقة الموضوعية ألتي تكشف حقيقة المظالم الفلسطينية.

إنّ تقرير گولدستَون حول المزاعم ضدّ إسرائيل وحماس الناشئة عن الهجوم الإسرائيلي الضخم وعملية «الرصاص المصبوب» التي شنتها على حماس في غزّة في2008– 2009، يوضّح مسار الأمم المتحدة وموقفها. لقد بذلت إسرائيل قصارى جهدها لمعارضة مهمّة تقصّي الحقائق حتى الآن. لم يتمكن من منع اطلاق المبادرة أو إصدار تقرير. ومع ذلك رفضت إسرائيل بشكل نموذجي التعاون مع جهود تقصّي الحقائق. وبعد صدور التقرير، نجحت في عرقلة كلّ جهد لتنفيذ التوصيات الحذرة، التي جاءت مباشرة من النتائج المدعمة بالأدلة الواردة في تقرير گولدستَون. لم يكن هذا الحظر كافيا لإسرائيل وجماعات الضغط الصهيونية في الولايات المتحدة وأماكن أخرى. دون قراءة التقرير أو التعليق عليه، شجب الكونگرِس الأمريكي ومعه الحكومة التقرير، على الرغم من أنّه لو تمّ النظر فيه بشكل عادل، فسيكون واضحا لمعظم القرّاء أنّ تفسيراته ونتائجه تميل الى الوراء للمبالغة في أهمية «صواريخ حماس» ولإعطاء اسرائيل

التغطية القانونية الهائلة للشكّ من خلال تجنّب أيّ اعتبار لما إذا كان لإسرائيل ما يبرّرها بموجب ميثاق الأمم المتحدة في شنّ عملية عسكريّة بهذا الحجم في منطقة تعتبرها الأمم المتحدة «محتلة»، وبالتالي محميّة بشكل خاصّ وفقا للقانون الإنساني الدولي. لقد استثنى التقرير القضايا المحيطة ببدء الهجوم عبر الحدود من التدقيق القانوني وحصر التحقيق في الإعتراضات على السلوك القتالي لإسرائيل وحماس أثناء الهجوم.

حتى إجبار وضع توصيات تقرير گَولدستَون على الرّف لم يكن كافيا. إنتقدت القوات الصهيونية، بما في ذلك كبار القادة الإسرائيليين، رئيس اللجنة المرموق رِچَرد گَولدستَون بأبشع الكلمات. وللأسف تراجع الرجل، وهو الشخصية الدولية المعروفة تحت الضغوط المتزايدة، بشكل غير مقنع عن دعمه للتقرير الذي يحمل إسمه في مقال رأي نُشِر على نطاق واسع في صحيفة الواشنطن پَوست. تعرّضت سمعة گَولدستَون الدولية لضربة كبيرة، حيث عارض تراجعه اعضاء اللجنة الثلاثة الآخرون، وكلّ منهم خبير مُحترَم. لم بسلم گَولدستَون من غضب إسرائيل وانصارها الصهاينة على الرغم من كون الرجل صهيونيّا طوال حياته وله أقارب مقرّبون يعيشون في إسرائيل. ولم تشفع له مكانته كرجل قانون من جنوب أفريقيا يتمتع بتميّز وطني ودولي. لا شيء يحمي گَولدستَون من تلك الحملة الشرسة والردّ التشهيري. أوضحت سلسلة التطوّرات هذه كيف يمكن للدول المتسيدة أن تلغي عمل الأمم المتحدة عندما تمارس حشدها ودعمها الجيوسياسي.

في هذا الجو المحموم، وقفت الأمم المتحدة راضية بالإكتفاء بينما كانت دراما گَولدستَون تتكشّف. لم تقدّم الدعم لمبعوثها الخاصّ وشخصيته تُجرجَر في الأوحال وسمعته تتضرّر بشكل لا يمكن إصلاحه. أعطى گَولدستَون عن غير قصد درسا للأمم المتحدة بأن لا تُعيّن أبدا شخصا ضعيفا ظاهريا لأدوار حسّاسة ومثيرة للجدل، لأنّه من المحتمل أن يًصبح أكثر عرضة للهجمات الشخصية إذا نفّذ مهمته بطريقة صادقة. وإذا استسلم بعد ذلك، فإنّه لن يقوّض تلك المهمة فحسب، بل يوجّه ضربة قويّة لمصداقية الأمم المتحدة.

من ناحية شخصية أكثر، شعرت بخيبة أمل من قضية گَولدستَون هذه، التي

جلبت الإنتباه بعيدا عن لائحة اتهام سلوك إسرائيل، التي شكلت جوهر التقرير. لقد عملت مع گَولدستَون في الماضي، سواء في مشروع الألفية لليونسكو لإعداد إعلان عالمي لمسؤليات الإنسان، وكعضو في اللجنة الدولية المستقلة حول كوسوڤو، التي ترأسها. عملت خلال هذه المهام لعدة أشهر وأنا على مسافة قريبة من گَولدستَون واحترمته كقائد إداري واعتبرته صديقا. في الوقت نفسه كرهت نهجه كلما ظهرت اعتبارات حساسة من الناحية الجيوسياسية. ظهرت مثل هذه القضايا عدة مرّات خلال عملية تقييم سلوك الناتو في حرب كوسوڤو عام 1999، حين جعلني أشعر بالإحباط بإذعانه لوجهات نظر واشنطن المتحيّزة بشأن القضايا الحسّاسة.

وبقدر ما يتعلق الأمر بموظفي الأمم المتحدة، مع إيلاء اهتمام خاصّ لمكتب المفوض السامي لحقوق الإنسان، فإنّ تجربتي تشير الى وجود تفاوت كبير فيما يتعلق بالكفاءة والتوقعات. أفضل الموظفين، الذين تشرّفت بالعمل معهم، كانوا موظفين بارزين وقادرين ومجتهدين ومستعدّين لبذل جهد إضافي لإنجاز المهمة. ثم كانت هناك فئة قصدها أن تمضي الوقت وهناك متسلقون بيروقراطيون لم يفعلوا سوى أقلّ قدر ممكن، وفوق كلّ شيء لم يرغبوا في «إحداث أيّة موجات» تنظيمية قد تزعج رؤسائهم أو تثير غضب الحكومات المهمّة. كان الأمر كذلك، مع بعض الإستثناءات بأنّ أفضل موظفي مجلس حقوق الإنسان كانوا إمّا بالقرب من أسفل أو أعلى السلم، مع وجود أضعفهم في الوسط. ربّما كان ذلك انعكاسا لمنطق تشغيلي بيروقراطي أوسع أدّى الى ظهور مهيمن لأشكال المنافسة المهنية؛ سباق الى القاع أو الصعود الى القمة.

كانت تجربتي مع قيادة الأمم المتحدة مختلطة أيضا. عرفت واحترمت العديد من السكرتيرين العامّين SGs قبل بان كي مون، بما في ذلك يو ثانت وبطرس بطرس غالي وكوفي عنّان. ولكن مع BKM توجد لديّ بعض التحفظات، ومعظمها يتعلق بجهوده لإبعاد نفسه عن آرائي بصدد النزاع الإسرائيلي/الفلسطيني. لقد أظهر مدى تعرّضه للضغط من خلال تأييد التشويه العلني لآرائي في عدة مناسبات. وعلى العكس من ذلك، كانت تجربتي مع المفوضين السامين للأمم المتحدة أكثر ملائمة. لقد تعاملت مع مَيري روبِنسُن

ولويز آربور، وفي الغالب مع نافي بيلاي، ووجدت أنّ كلّا منهن ودودة شخصيّا وداعمة من الناحية المهنيّة. في وقت مُبكّر من فترة عملي كمُقرّر خاصّ، أعربت نافي عن تعاطفها إزاء المعاملة القاسية التي تعرّضت لها وشعرت أنّني سأستقيل احتجاجا. أخبرتني أنّه إذا اردت ترك «المقعد الساخن» فلن تكون هناك صعوبة في العثور على وظيفة أخرى في الأمم المتحدة. طوال الوقت، وعلى الرغم من الإغراءات المختلفة للإستقالة، لم أكن أبدا مستعدا لإعطاء من كانوا يعذبونني الشعور بالرضا ونيل النصر من خلال مثل تلك التكتيكات، مع وضع مراقبة الأمم المتحدة في الإعتبار بشكل أساسي، لأنّهم استمرّوا بلا كلل في جهودهم لتشويه سمعتي والتشهير بي.

كان الأمر يستحقّ ذلك

كثيرا ما سألت نفسي خلال تلك السنوات الست، «هل كان الأمر يستحقّ ذلك؟» وكانت إجابتي بالإيجاب. غير أنّني كنت أقلّ اهتماما بالتكاليف الشخصية المرتبطة بالوظيفة وبعض الصداقات، مقارنة بما إذا كنت أقوم بالفعل بأيّ نوع من المساهمة في نضال الفلسطينيين من أجل حقوقهم بموجب القانون الدولي، وبشكل أكثر واقعية في تمكين تحريرفلسطين وخلاصها من الإيذاء الجماعي الواقع عليها منذ فترة طويلة. شعرت أنّه خلال فترة ولايتي، ساء الواقع الفلسطيني على الأرض وتلاشت تقريبا فرص التوصّل الى سلام تفاوضي وعادل ومُستدام. وفي هذا الصدد، يبدو أنّ جهودي بصفتي مُقرّرا خاصّا لم تثمر شيئا لعكس هذه الإتجاهات السلوكية الإسرائيلية المدعمة أمريكيّا والمناوئة للآفاق الفلسطينية.

ومع ذلك، وعلى مستوى الخطاب العام، الذي يساعد في تشكيل الرأي العام العالمي، أعتقد أنّ جهودي كان لها بعض التأثير في توضيح الطبيعة الحقيقية لما كان على المحكّ في جملة الموضوعات المتنازع عليها بشدة خلال تلك الظروف، حيث كانت الجغرافية السياسية تحبط بقسوة العدالة الأولية والأساسية. يُعتبر الخطاب العام موقعا حيويا للصراع في هذا النوع من المواقف، حيث تمارس الأفكار والصور واللغة تأثيرا، وغالبا ما تؤدّي في النهاية الى تغيير ميزان القوى بطرق يصعب قياسها وتمييزها، ولكنّها في الغالب تبدو حاسمة

في تشكيل النتائج السياسية. افترضت كمدرّس وباحث أنّني كنت ميّالا لرؤية الأفكار والتصوّرات على أنّها عوامل تغيير، وقد منحني هذا الشعور بأنّ عملي يستحقّ العناء. والأكثر من ذلك، بقدر ما نتج عن مثل هذه الجهود المتضافرة لتقويض دوري ومصداقيتي، شعرت أنّني يجب أن أقوم بعمل جيّد عندما أدرجني معهد وايزمَن في لوس أنجلس عام 2012 كثالث أخطر شخص معاد للسامية في العالم ضمن قائمة ضمّت عشرة اسماء. حلّ المرشد الأعلى لإيران في المرتبة الأولى وجاء بعده أردوگان، رئيس الوزراء التركي. كان الآخرون المُدرجون على القائمة في الغالب من المثقفين العامّين، الذين ينتقدون إسرائيل، والذين كانوا كُتّابا وتمّ تحديدهم علنا، على أنّهم مؤيدون للنضال الفلسطيني.

على وجه الخصوص، كانت هناك عدّة تحوّلات في الخطاب خلال فترة ولايتي كمقرّر خاصّ، وكان لها تأثير على الطريقة التي نُظِر فيها الى المظالم والتطلعات الفلسطينية وعرضها. إنّني مرارا وتكرارا لفتّ الإنتباه الى طول الإحتلال الإسرائيلي للضفة الغربية والقدس الشرقية وغزّة، وما يعنيه ذلك بالنسبة لحياة السكان المدنيين الفلسطينيين. كانت وجهة نظري، التي اعتقد أنّها جاءت لممارسة بعض التأثير على الحكومات والجهات الفاعلة في المجتمع المدني، أنّ الإحتلال المطوّل، والذي عشته شخصيّا لأكثر من خمس سنوات، ينطوي على نظام غير مقبول من الإجحاف لحقوق السكّان المُحتلين. لقد حمل خَلفي الكندي المثير للإعجاب، مايكل لِنك، هذا الخط من النقد الى حدّ استنتاج أنّ الإحتلال نفسه يجب أن يُعلِن أنّه غير قانوني، وأن تنهيه الأمم المتحدة كمسألة قانونية.

إستغلت إسرائيل من جانبها قوّتها الدبلوماسية ونظرتها القانونية لقرار مجلس الأمن رقم 242 لتقويض الإجماع الدولي على الإنسحاب وعدم الإستيلاء على الأراضي بالقوة، كما جرى في عام 1967، وهو المبدأ الذي حظي في ذلك الحين بتأييد الولايات المتحدة والدول الأوروپية الرائدة. كان هذا الإجماع الدولي المتجسّد في القرار 242 قائما على إقامة دولة فلسطينية على الأراضي الواقعة تحت الإحتلال. لم ترفض إسرائيل الإنسحاب فقط، بل اخترقت المنطقة بكاملها في عدة طرق بما في ذلك تقديم مطالب باسم أمنها وسيادتها المتنازع عليها،

والتي جعلت الإنسحاب كما كان متوقعا في عام 1967 صعبا من الناحية العملية، إن لم يكن مستحيلا سياسيا. وقد حققت هذه النتيجة من خلال إنشاء أرخبيل من المستوطنات غير القانونية والتي تتوسّع باستمرار. كما بنت جدارا فاصلا على الأراضي الفلسطينية المحتلة ووسّعت حدود بلدية القدس ودمجت المدينة، من جانب واحد في دولة إسرائيل. أضِف الى ذلك، أصرّت على ممارسة سيطرة دون عوائق على جميع الحدود؛ أنشطة العبور التي من شأنها أن تضمن استمرار هيمنتها على أيّ كيان فلسطيني قد يخرج من المفاوضات الدبلوماسية، كما اتضح من السلوك بعد فكّ الإرتباط في منطقة غزّة.

ليس فقط إسرائيل، ولكنّ الفلسطينيين والمجتمع الدولي أيضا، ارتكبوا خطأ جعل النزاع اقليميا باعتباره «أرضا مقابل السلام»، بينما الأساس الحقيقي للسلام هو «المساواة والشعب»، أي تصوّر الأمن والسيادة على أنّهما متساويان لليهود والفلسطينيين، واعتبار الفلسطينيين ليس فقط أولئك الذين يعيشون تحت الإحتلال ولكن ايضا اللاجئين في البلدان المجاورة والمنفيّين في جميع انحاء العالم والأقلية، التي تعاني من التمييز والتي تعيش في تلك المنطقة المعترف بها على أنّها إسرائيل نفسها. يظلّ هذا التركيز على الشعب الفلسطيني ككُلّ حاسما لجهود السلام الحقيقية، وكان غياب هذا التركيز دائما عيبا فادحا في شعار الدولتين إذا تمّ تصوّر السلام بالرجوع الى الناس بدلا من الأراضي. لقد غضبت من قيود الإقليمية المصطنعة التي حدّدت ولايتي على أنّها مقصورة على الفلسطينيين الذين يعيشون تحت الإحتلال، ممّا يعكس أيضا الضعف الأساسي لمقاربة التقسيم التي تتبنّاها الأمم المتحدة والتي وضعت حقوق اللاجئين والمنفيين على الهامش الخارجي لأيّة ردود مطلوبة على المظالم الفلسطينية. ونتيجة لذلك أغفِلت الإهتمامات الحيوية وتمّ اهمالها، وهو ما سيُعرّض للخطر أيّ ترتيب يُطرَح كحلّ سلمي للصراع ويترك اللاجئين الإقليميين في الشتات، من الذين ظلت محنتهم دون حلّ. يجب أن نتذكّر أيضا أنّ عائلات اللاجئين الفلسطينيين هي نتيجة غير عادلة للتطهير العرقي في حرب عام 1948، وبالتالي، بقدر ما اقترن ذلك بالحرمان من أيّ حقّ في العودة الى الوطن.

لقد بذلت قصارى جهدي أيضا لتجنّب الإنطباع الخاطئ عن وجود حالة

ثابتة من خلال استكمال فكرة «الإحتلال» بشكل واقعي أكثر ديناميكية وقوّة للعملية المتمثلة في «الضمّ» والإستعمار الإستيطاني والتجزئة السياسية. منذ النكبة، كان تجريد الشعب الفللسطيني المستمرّمن ممتلكاته عملية مستمرّة لا تتجزّأ عن عملية بناء الدولة الإسرائيلية، ويجب ألّا يُنظر إليها على أنّها حدث تمّ تحديده في الوقت المناسب اعتبارا من عام 1948. إنّ استمرار هذه العملية هو الذي تآكل عمدا. في رأيي، سيوقف جدوى الدولتين زيادة سوء الوضع الفلسطيني على الأرض مع زيادة المطالب والتوقعات الإسرائيلية. على الرغم من الإعتراف بأنّ شكل الحلّ المتفق عليه مسألة تخصّ الطرفين فقط، فإنّ الإسرائيليين من ذوي العقلية السلمية يعتقدون بشكل متزايد أنّ دولة ثنائية القومية فقط هي التي يمكن أن تنتج سلاما مستداما، بالنظر الى كلّ ما حدث منذ عام 1947. إنّ جعل الإثنين معا في دولة واحدة أمر بعيد المنال. ويا للمفارقة، تتعارض ميزات حلّ الدولة الواحدة النهائية مع فقدان أو زيادة المصداقية للهيمنة اليهودية من خلال الحفاظ على هذه الهيمنة عبر نظام الفصل العنصري. ومع التوجّه الصهيوني، يبدو هذا حتميّا تقريبا.

في الواقع، فيما يتعلق بالإحتمال الأخير، وضعت الفكرة المركزية للإحتلال في هيكله الشامل للفصل العنصري على أنّه مطلوب من أجل تنفيذ المشروع الصهيوني لإقامة دولة يهودية في مكان ما، كان في السابق لإقامة دولة يهودية ذات أغلبية فلسطينية مميزة. في الواقع، أصبح الفلسطينيون محرومين الى حدّ كبير من حقوقهم في وطنهم. ظلّ واقع بناء الفصل العنصري هذا مثيرا للجدل خلال الفترة التي قضيتها في الأمم المتحدة. ولكنّ هذا التصميم أصبح لاحقا أكثر قبولا كمفتاح لفهم الهياكل، التي تؤدّي الى إيذاء الفلسطينيين وإدراك تفكيك الفصل العنصري باعتباره المسار الوحيد، الذي يمكن أن يؤدّي الى سلام دائم وتعايش حميد من أجل الشعبين.

كان حلّ الفصل العنصري لإسرائيل نتيجة مباشرة وشبه حتميّة للرؤية الصهيونية لدولة يهودية على وجه التحديد في دولة ذات أغلبية غير يهودية. أوضحت إسرائيل جوانبها العنصريّة فقط في القانون الأساسي لإسرائيل عام 2018 كدولة قومية للشعب اليهودي. لم تكن هناك أبدا طريقة إنسانية لتحقيق

هذه الرؤية لدولة يهودية في الشفق التاريخي للإستعمار الأوروبي إلّا باستخدام جميع الوسائل المتاحة للتغلب على المقاومة الحتمية وحتى وجود غالبية السكان المقيمين. أخفت القيادة الإسرائيلية لسنوات عديدة هذه الضرورة الأمنية وراء واجهة الديمقراطية، التي كانت سمة حقيقية للمشروع لأنّه يتعلق بقيادتها اليهودية الديمقراطية الإجتماعية الأصلية. كانت هذه الهوية الديمقراطية أكثر أهمية لتحقيق دعم دولي واسع النطاق، فضلا عن تعزيز الأولوية الصهيونية العليا لجذب واقناع اليهود بالهجرة الى إسرائيل من جميع انحاء العالم. لكي تكتسب إسرائيل الشرعية التي تأتي من لقب «الديمقراطية الوحيدة في الشرق الأوسط»، كانت بحاجة الى إلغاء تصوير الأقلية اليهوديّة التي تُخضع الأغلبية العربية بالقوّة، بينما تقوم بالتطهير العرقي.

تتمّة بركانية

بعد فترة قصيرة من انتهاء عملي كمقرّر خاص، إتصل بي ممثل، كيان هامشي الى حدّ ما في منظمة الأمم المتحدة، وهو المجلس الإقتصادي والإجتماعي لغرب آسيا (العالم العربي) «الأسكوا» ESCWA للقيام بمشروع بحثي على أساس عقد للتحقيق في مزاعم بأنّ إسرائيل، بموجب القانون الدولي، مذنبة بارتكاب جريمة الفصل العنصري.

أقنعت ڤِرجينيا تِلي، عالمة السياسة البارزة، بالإنضمام اليّ. كان لدى ڤِرجينيا سجل متميّز من المنح الدراسية المكرّسة لنظام الفصل العنصري في جنوب أفريقيا، والذي تضمّن تفسيرا لما أدّى الى السقوط غير المتوقع لذلك النظام. عمِلتْ أيضا في جنوب أفريقيا لعدة سنوات في دراسة اكاديمية تعاونية لحلّ الدولة الواحدة لإسرائيل/فلسطين. لقد شكّلنا تحقيق الأمم المتحدة في مزاعم الفصل العنصري على أنّه فحص لسياسات وممارسات إسرائيل مع الإشارة الى الشعب الفلسطيني ككُلّ. لقد اختلف هذا عن حالات التحقيق السابقة، مثل تلك الواردة في تقارير دَو گارد للأمم المتحدة، التي اقتصر فحصها لتهم الفصل العنصري على إدارة الضفة الغربية والتركيز بشكل خاصّ على الأنظمة القانونية المزدوجة التمييزية المنطبقة على المستوطنين اليهود والسكان الفلسطينيين

الذين يعيشون في نفس المنطقة. دون مناقشة حجة وتحليل دراسة الأسكوا، كان استنتاجها المركزي هو أنّ مزاعم الفصل العنصري كانت مبرّرة، وبالتالي استلزم ذلك قيام مسؤوليات الحكومات والمؤسسات الدولية والشركات والأفراد للعمل ضمن اختصاصاتهم لوضع نهاية للفصل العنصري الإسرائيلي المفروض.

وبمجـرّد صـدور التقريـر بتاريخ 15 مارس من عـام 2017، انتج عاصفة من ردود الفعل بقيادة إسرائيل والولايات المتحدة. زُعِم أنّ إدعاء الفصل العنصري يرقى الى معاداة السامية في أسوأ صورها. وكالعادة تمّ إطلاق هذه التهمة الجاهزة دون أيّ فحـص للأدلـة والتحليـل فـي تقريرنـا، ودون تقديم حجج مضادة. كان مدى الغضب الدولي هِستيريّا ومنافقا. القادة الإسـرائيليون انفسـهم اعتبارا من بِن گوريُن الى رابين وأولمرت، قد حذّروا الجمهور الإسرائيلي بالعبرية من أن الفشـل في إيجاد حلّ للمشـكلة الفلسـطينية، سـيحدث في هيكل سيطرة الفصل العنصري المفروض على الفلسطينيين. بالتأكّد أنّ الفصل العنصري الإسرائيلي مختلـف عـن الفصـل العنصـري في جنـوب أفريقيـا، ولكنّه يحتـوي على نفس العنصر المحدّد لعنصر آخر أو عِرق مهيمن يُخضِع عرقا آخر ويُجبره على العيش بشكل جماعي في بانتوستانات Bantustans، حتى يتمكّن من الحِفاظ على المزايا الإستغلالية للسيطرة الآمنة من خلال أُيذاء العِرق المقهور.

وعلـى المسـتوى الرسـمي طالبـت نِكـي هَيلي، مندوبة الولايـات المتحدة الدائمـة فـي مجلـس الأمـن للأمـم المتحدة برفـض تقرير الإسـكوا وهاجمتني شـخصيّا وهدّدت بالآثار السـلبية على تمويل الأمم المتحدة، إذا لـم يتم العمل بموجـب طلبهـا فـورا. للأسـف لـم يهدر الأميـن العام الجديـد أنطونيو گوترِش سـوى وقت قليل قبل الإستسـلام مطالبا الإسـكوا برفع التقرير من موقعها على الإنترنَت. إستقالت مديرة الأسكوا من منصبها بدلا من الإمتثال لهذا الأمر، وتمّ استبدالها بموظف بيروقراطي قام برفع التقرير من الموقع، ولكن لـم يتمّ التنصّل عن محتوياته رسميّا.

مرّة أخرى، تمّ الكشف عن الوجه المزدوج للأمم المتحدة. فمن جهة هناك إسـتعداد للنظر في سـبب جادّ للقلق الأخلاقي من خلال منظور دراسـة أكاديمية ذات توجّـه قانونـي، ومـن جهـة أخـرى عـدم قدرتها على الصمود أمـام التهديد

الحازم من قبل الوزن الجيوسياسي الثقيل لنتائج تلك الدراسة. قد يبدو عدم ملائمة ردّ الأمم المتحدة واضحا لأنّ الدراسة في صفحتها الإفتتاحية احتوت على إخلاء واضح للمسؤولية يُخبِر القرّاء أنّ التقرير يعكس رأي واضعيه ولا يُعبّر بالضرورة عن وجهة نظر الأسكوا أو الأمم المتحدة. هناك المئات من تقارير الأمم المتحدة التي تتوصّل الى استنتاجات مثيرة للجدل بطريقة أو بأخرى، لكنّها عمليّا لا يتمّ الطعن فيها أو التنصّل منها في مثل هذا المُنتدى السياسي المفتوح.

في الواقع تسبّب الهجوم البارز على التقرير في انتشاره وتأثيره على نطاق واسع. أولد الهجوم الذي شنته إسرائيل والولايات المتحدة اهتماما أكبر بكثير حول حجّة الفصل العنصري، ممّا لو تمّ تجاهله أو انتقاده بتكتّم على أسس موضوعية. قبل إصدار الأمين العام أمرا بإزالة التقرير من موقع الأمم المتحدة على الإنترنَت، قامت الإسكوا بالفعل بنشر التقرير عن طريق بوابتها الرئيسية للأمم المتحدة. لا يزال من الممكن العثور على التقرير على الإنترنت في العديد من المواقع. وقد تمّ إعداد ونشر ترجمات له باللغات الفرنسية والإسپانية والعربية والإيطالية من قبل مجموعات المجتمع المدني. تبيّن أنّ نِكي هَيلي كانت وكيل دعاية لا تُقدّر بثمن للتعريف بدراستنا!

ومع ذلك تسبّب الحادث في ضجّة إعلامية أثّرت عليّ بشكل مباشر. كان من المقرر أن القي بعض المحاضرات الجامعية في إنكلترا وإسكتلندا حول نشر كتابي الجديد **الأفق الفلسطيني: نحو سلام عادل**. لم اواجه أيّة مشكلات في الجامعات الإسكتلندية، ولكن حدث اضطراب في كلية لندن للإقتصاد، فالغيت المحاضرات المقرّرة في الأسبوع التالي في جامعة شرق لندن وجامعة وَستمِنِستر، ليس بسبب كتابي، الذي لم يتناول قضية الفصل العنصري، ولكن بسبب تقرير الأسكوا، الذي أصبح بمثابة شرارة الصواعق للتنظيم الصهيوني في لندن، بعد الهجوم الذي حظي بتغطية إعلامية كبيرة في دوائر الأمم المتحدة.

المواطن الرائد

لقد كان إقتناعي العميق أنّ المواطن الرائد، المخلص لدعوته أو دعوتها يُشارك فيما يجري هنا الآن كما يتصوّر ويشرع في رحلة حياة الى مستقبل مرغوب

فيـه. لا توجـد قضيـة فـي عصرنا أكثر إلحاحا من الناحية الأخلاقية بالنسـبة لي، ونظرا لموقعي الإجتماعي كيهودي وأمريكي وأنسان تقدّمي، من محنة الشعب الفلسـطيني ومسـؤولية بلـدي وحكومتـه لإطالـة أمـد هذه المحنة الـى أجل غير مسـمّى. لو كنت هنديّا، فربّما يكون اهتمامي مكرّسـا لتحرير الكشـميريين. وإذا كان من المحتمل أن يكون هناك إسـتقلال سياسـي لجزيرة بورتريكو لكنت في طليعة المناصرين. على الرغم من أنّ هذه النضالات لـم تسبّب الفوضى الإقليمية التي أحدثها الزرع القسـري لدولة يهودية في الشـرق الأوسـط، أبغي أن أسـلط الضـوء علـى الأهميـة الأخلاقيـة للنضال الفلسـطيني. مع مراعـاة أنّه في اعقاب المحرقة، وعندما تمّ إنشـاء إسـرائيل، فضلت المشـاعر القوية في الغرب إنشـاء ملاذ قومي آمن لليهود، ممّا اعطى تعهّدا بمناهضة الإبادة الجماعية بصمام أمان إقليمـي. ومـع ذلـك لا يمكـن اسـتخدام مثل هذه الحجّة بشـكل صحيح كمبرّر لتهجيـر أفـراد شـعب آخـر بالقـوة من أراضيهـم ومنازلهم، ثمّ إقامـة دولة عرقية حصرية مكانهم، ودون موافقتهم.

حاولت أثناء عملي من خلال تجاربي فيما يتعلق بالنضال الفلسطيني، إظهار التفاعل بين تفكيري كأكاديمي مهتمّ بالصراعات الدولية والتزاماتي كمواطن رائد ملتزم وناشـط لديه أجندة تجمع كافة هذه القضايا في رحلتي الحياتية. أفترض أنّ أصالـة تجربتـي هـي أخـذ هذه الإهتمامات الأكاديميـة في مجال العمل العام بدلا من الحدّ من صلتها بالمقررات الدراسـية والمكتبات والمنشـورات العلمية والعطلات المريحة في الأماكن المشمسة. لقد انتظرت الى حدّ ما أن أتساءل قبل الغوص في هذه القضايا المثيرة للجدل في ذلك الوقت، خاصة قضية إسرائيل/ فلسـطين. لـم أذهـب للبحـث عـن الجدل، وعمومـا في الوقت نفسـه، لم أحِبّ الظهور العام. كنت أخشـى أن أخاف، ولذا عندما سُئِلت أو دُعيت كنت أجيب بشكل شبه ثابت. يبدو في هذا الصّدد أنّ سلبيتي المخادعة هي المصدر الغريب للقـوة التـي امتلكهـا، ممّا يُربك النقاد والمُعجبين بي على حدّ سـواء. من وجهة نظري، ومن منظور موضوعي بقدر ما استطيع إدارته، فأنا لستُ منفورا أو خائنا كما يدّعي مُنتقديّ ولا شجاعا ورائعا كما يُصرّ المُعجبون بي.

الفصل الخامس عشر

اللغز التركي

على عكس الإرتباطات السياسية الموصوفة في الفصول الأربعة السابقة، كان انخراطي في أمور تركيا منذ البداية شخصيّا، أكثر منه سياسيّا، على الرغم من أنّ القضايا السياسة اصبحت مع مرور الوقت متشابكة مع القضايا الشخصية. وبسبب هذا التشابك، كان الأمر مختلفا في صفاته الأساسية عن تجاربي الأخرى في المجتمعات الأجنبية، واستمرّ أيضا من أوائل العشرينات من عمري حتى يومنا هذا. في الهند على وجه الخصوص، والى حدّ ما في اليابان، كانت لديّ تجارب قويّة على مدار سنوات عديدة، ولكن ليس بهذه الكثافة على المستوى الشخصي. إنّ دراستي للقانون الهندي وأوجه التعاون على مدار سنوات عديدة، جنبا الى جنب مع الإهتمام العميق بفكر غاندي وحياته بالإضافة الى أكثر من افتتان رومانسي جعل تجربتي في الهند شخصيّة وسياسيّة الى حدّ ما ولكنّها في الغالب أكاديمية وفكرية. في اليابان أيضا، كانت عندي علاقات وثيقة على مدى سنوات عديدة بما في ذلك أنّ والدتي قد وُلِدت في يوكوهاما. وبالمناسبة، منحني العُمدة ذات مرّة مفتاح المدينة. مع ذلك، كان نشاطي المناهض للأسلحة النووية والحرب مصحوبا بصداقات دافئة وعمل تعاوني مع زملائي في الجامعة.

ومع ذلك، فإنّ تركيا تمثّل المشاركة الأسمى خلال السنوات الخمس والعشرين الماضية، بصفتي زوجا مخلصا ومراقبا للمشهد السياسي ومغتربا ومقيما بدوام جزئي، بما في ذلك اثناء جائحة كوفِد وكصديق له معرفة بالعديد من اللاعبين البارزين في السياسة التركية.

أوّل لقاء

جئت لأوّل مرّة الى تركيا عن طريق الصدفة تقريبا، حين كنت لا أزال طالب حقوق في صيف عام 1954. كان ذلك في سياق رحلة منخفضة الميزانية «لرؤية» أوروبا. وهو ما كان يفعله الكثير من طلاب الطبقة المتوسطة في تلك السنوات عند قرب نهاية دراستهم، قبل أن يتمّ اختبارهم في «العالم الحقيقي». وجدت ممرّا غير مكلف الى بريطانيا على ما كان يُسمّى في ذلك الوقت «سفينة الطلاب»، لقضاء فصل دراسي.

أثناء تواجدي على متن السفينة، وصلت الى نهائيات بطولة الشطرنج، لكنّني خسرت عندما ارتكبت خطأ فادحا في وقت متأخر من المباراة. لم يسمح لي خصمي الناطق بالألمانية من تصحيحه، على الرغم من أنّني سمحت له باستعادة مباراة مماثلة بشكل صارخ، وهي الخطوة الخاطئة في وقت سابق. أسوأ من هذه اللحظة الصغيرة المقلقة، إكتشفت قبل فترة وجيزة من النزول في لِڤرپول أنّ جواز سفري وفلوسي قد سُرِقت. لحسن الحظ في تلك الأيام القديمة، التي سبقت ATM إحتفظ المسافرون السياحيون بمعظم اموالهم على شكل AmEx للمسافرين. لهذا السبب لم تزعجني الخسارة المالية بقدر ما تضايقت من فقدان جواز سفري. كانت تلك بداية غير واعدة لمغامرتي الخارجية الأولى. لحسن الحظ ايضا، كانت مخاوفي غير ضروريّة. على الرغم من توترات الحرب الباردة، كنّا نعيش في عصر أكثر إنسانية وهدوءاً، لما قبل 11 سِبتمبر، وعالم ما قبل الجائحة. تمّ اصطحابي بلطف الى خارج السفينة قبل الركاب الآخرين وتمّ نقلي الى القنصلية الأمريكية. وبعد الإجابة عن بعض الأسئلة- تمّ إصدار جواز سفر جديد في غضون دقائق، مصحوبا بكلمات التعاطف. لو حدث هذا الآن، فإنّه بلا شكّ سيتطلب استجوابا مكثفا وانتظارا طويلا قبل اصدار جواز سفر مؤقت يسمّى «جواز الطوارئ». وهذا ما يفترض أنّه هو غير مرجّح هذه الأيام لأنّ سلطات الهجرة البريطانية لن تسمح لي بمغادرة السفينة والوصول الى القنصلية بدون جواز سفر.

على أيّة حال، بعد بضعة أيام في لندن انضممت بترتيب مسبق الى شريكي في السفر وزميل شقتي في نو هَيڤِن، جاك آيِرز، طالب الدراسات العليا في مدرسة

ييل للدراما وممثل طفل نشأ وهو يلعب أدوارا متتالية مع تقدّم العمر، ولعب دور الأبن في مسرحية برودوَي طويلة الأمد **الحياة مع الأب**. كان جاك مثليّا بشكل علني وكان تجربتي الحقيقية الثانية عن الوجود غير المستقرّ للمثليين، بالنظر الى رِهاب المثلية الذي كان موجودا في ذلك الوقت حتى في أكثر الأوساط العالمية، مثل مانهاتِن. لقد وجدت جاك رفيقا مفعما بالحيوية والمرح في السفر، على الرغم من أنّ ميزانيته كانت أضيق من ميزانيتي. بقينا معا عبر بريطانيا والمانيا والنمسا، ثمّ بالقطار حتى الكزندروپُلِس في شمال اليونان، حيث افترقنا. أخذت قطار الشرق السريع المتوجّه الى إسطنبول، بينما توجّه جاك الى أثِنا.

قبل أيام قليلة من هذا الإفتراق أخذنا سفينة على طول الساحل الدلماسي Dalmatian Coast لما كان يُعرف آنذاك باسم يوغسلافيا بدءاً من رِيكا وتوقف عند سبليت وانتهاءً في دوبروفنِك. لقد كانت رحلة مثيرة، وكانت أكثر إرضاء لأنّ صرف الدولار كان قويّا ممّا سمح لنا بتناول الطعام في أفضل المطاعم والنوم في أفضل الفنادق، رغم ميزانيتنا الضئيلة. ولكن أكثر ديمومة من هذه الإغراءات، كان تعليقا طائشا من قِبل جاك قد ترك عليّ عواقب مدى الحياة. كان يتجوّل في جزء آخر من السفينة وكنت أقرأ كتابا. عاد فاغرا فمه تعجّبا وقال، «لقد رأيت للتو أجمل فتاة في العالم!» بالطبع كنت أشعر بالفضول، وكنت متشكّكا. من المحتمل جدّا أن تجعلني توجهاتنا الجنسية المختلفة تماما افترض أنّ حماسته ستنتج آراء متباينة فيما يتعلق بجمال الأنثى. بعد أن قابلت «بياترِس دانتَي» شاركته الرأي، وهوالذي غيّر الكثير من الأشياء بالنسبة لي، على الفور ومع مرور الوقت. وفوق كلّ شيء آخر، اصبحت تلك الفتاة الكندية الجميلة آيرين پيژو فيما بعد زوجتي الأولى، ووالدة طفلي الأوّل.

رُبما شعرت بأنّه ترتيب محسوب، لكنّه كان مجرّد حادث، على الرغم من أنّ البعض قد يُسميه «القدر»، وجدت نفسي في نفس القطار، في الواقع في نفس المقصورة متوجّهين من سكوبي الى اسطنبول. آيرين، التي فضّلت أن تُدعى «رينيه»، كانت تسافر مع صديقتين من كندا أيضا، وكلهنّ أكبر سنّا بقليل ممّا كنت عليه. كنّ ودودات وجميلات، وسرعان ما اصبحت مرتبطا بهذه المجموعة، على الرغم من تركيز عينيّ ورغباتي على رينيه. لقد صادقنا ايضا، كما في الأفلام

الحديثة عن المنطقة آنذاك، شخصية ألمانية مشبوهة ومغامرا في منتصف العمر تبيّن أنّه تاجر مخدّرات أو على الأرجح مجرّد «بغل». إعتقدنا لاحقا أنّ هانز أراد استخدامنا كغطاء اثناء قيامه بأعماله المشبوهة، التي تضمّنت على ما يبدو عدم دفع أو عدم سداد دين لتاجر في إسطنبول. إكتشفت هذا الموقف الخطير عندما عدت الى غرفتي في الفندق في اسطنبول ووجدت محتويات امتعتنا ملقاة على الأرض، ممّا يشير الى حدوث اختراق. في الواقع كان هانز ممتعا أن تكون معه وكان يعرف اسطنبول عن كثب. جعل هذا تجربتي الأولى في هذه المدينة الرائعة بداية لسلسلة ثمينة من اللقاءات مدى الحياة.

بعد عدة أيام معا في اسطنبول، اقنعت رينيه أن تنفصل عن صديقتيها وتواصل رحلتها معي أوّلا الى ايطاليا ثمّ الى شمال افريقيا وأخيرا الى اسپانيا. كما هو متوقع في ظلّ هذه الظروف، اصبحنا حميمَين، بلا شكّ دون الكثير من التفكير ونحن ننتقل من مدينة الى اخرى ومن متحف الى متحف آخر ومن كنيسة الى كنيسة ومن فندق الى فندق. كانت أوروپا بالنسبة لي نوعا من الرحلات الميدانية الثقافية المستمرّة، مستفيدا من دراستي لتاريخ الفنّ خلال العامين الماضيين في جامعة پَنسِلڤَينيا. لقد كان من المثير أن أجد قبالتي في كثير من الأحيان الروائع العظيمة التي عرفتها سابقا من خلال الشرائح التي تضيء بشكل أكبر من خلال التعليقات للعديد من الأساتذة المُحفزّين. جعلني هذا أدرك أنّه بصرف النظر عن حبّ النساء، فإنّني استمدّ فرحا كبيرا من تقدير الجمال البصري للرسم والنحت في بعض الأحيان. لم أتمكّن أبدا من تحقيق مستوى مماثل من التقدير للموسيقى الكلاسيكية، على الرغم من أنّني استطعت أن استمتع ظاهريا بالسمفونيات وقطع الملحنين العِظام، وأتيت الى حبّ الإيقاعات المتقطعة لِسترا ڤنسكي والمبتكرين اللاحقين للتقاليد الموسيقية الأوروپيّة واللاتينية.

بالعودة الى الإنطباعات الأولى عن تركيا، فُتِنت بجمال القرن الذهبي ومضيق البُسفور، واتذكّر السباحة لفترة وجيزة في ذلك الممر المائي المُذهِل، على الرغم من خوفي من تياره السريع. لقد أذهلتني المساجد الخلابة الواقعة على جانبي مضيق البُسفور، وفي حيّ السلطان أحمد، لم تكن لديّ أية فكرة عن نوع الدولة التي كانت في تركيا في ذلك الوقت. على الرغم من أنّه كان

لديّ وعي ضعيف بدور كمال أتاتورك في تأسيس تركيا الحديثة والسعي الى أوروپتها، باعتباره إنفصالا عن امجادها العثمانية الماضية. كما اتضح فيما بعد، كانت زيارتي الأولى لتركيا أكثر اهمية بكثير من حيث كيفية تقدّم حياتي من كونها تجربة سياحية أو التعرّف الأوّل على الرواية السياسية التركية.

عندما حان وقت العودة الى جامعة ييل في سنتي الثالثة والأخيرة، إقترنّا أنا ورينيه بعد أن اصبحنا عشّاقا. كانت رينيه قد التزمت سابقا بدراسة الخدمات الإجتماعية في لندن خلال العام الدراسي القادم. شاركنا التوقع بأنّ هذه لم تكن نهاية صداقتنا الرومانسية، على الرغم من عدم مناقشة فكرة الزواج.

وسرعان ما تغيّر هذا الموقف خلال أسابيع عندما علمت رينيه أنّها حامل وأرادت أن تنجِب واقترحت الإنضمام اليّ في نو هَيڤِن. أصِبت بالحيرة إزاء الموقف في البداية، ولم أكن أعرف ماذا أفعل. فكّرت لفترة وجيزة في الإسقاط، لكنّني لم أشعر بالراحة مطلقا بشأن التفكير في مثل هذا الخيار. وبالنظر الى الوراء، أنا سعيد جدّا لأنّني لم أفكّر بجديّة أبدا في حرمان إبني كرِس من الحياة، التي وهبها بكل ثراء بالحب واللياقة وأطفاله الرائعين، كما هو الحال مع جودي، شريكة حياته المخلصة ووالدة حفيديّ الرائعين ساره وماثيو. سرعان ما تزوّجنا أنا ورينيه في ضاحية هامِلتُن في أونتاريو، حيث كان لها أقارب هُناك. تركت رينيه انطباعا إيجابيا قويّا بين أصدقائي بسبب جمالها وشخصيتها الكندية الصريحة، وأحَبَها أبي على الأقلّ بقدر ما أحِبّها، ممّا منحني ثقة أولية هدّأت قلقي من تحمّل مسؤوليات الأب والزوج لفترة طويلة، قبل أن أكون جاهزا.

في هذه المرحلة، بينما كنت منجذبا الى رينيه، بقيت حذرا الى حدّ ما لأنّني شعرت أنّنا لم نتشارك بشكل كاف إحساسي الساخرالى حدّ ما بالحياة والتقاليد الإجتماعية أو نوع الإهتمامات الثقافية والفلسفيّة، التي كانت في ذلك الوقت في مقدّمة ذهني. كنت معتادا في ذلك الوقت على «مقاومة الثقافة» Counter Cultural قبل أن يشيع استخدام هذه الكلمات. بدون أيّ تصميم، لم أثق في الإتفاقات الإجتماعية البورجوازيّة ودمّرتها بهدوء، بينما بدت رينيه تقبلها إجتماعيا تماما. هذا الإختلاف اليومي في النظرة سلط الضوء على الفجوات في الإدراك. على سبيل المثال، حول أخلاقيات دفع الفواتير في الوقت المحدّد والأمور الأخرى،

التي تبدو تافهة، ولكنّها سرعان ما تضعف روابط العلاقات الحميمة، وتؤدي الى تآكل العلاقات وبناء التوتر. بينما كان القانون هو عملي المهني، لم تكن الشرعية ذات اهمية بالنسبة لي. كنت من حيث المزاج فوضويّا وجزئيّا مسالما، دون التفكير فيما إذا كان مثل هذا التصرّف سينجح في المجالات العامة للمجتمع والحكم. على الرغم من تعليمي في العلوم الإجتماعية، فقد اصبحت العلوم الإنسانية موطني الفكري والروحي، ممّا ساعدني في العثور على طريقي في العالم، وملاذا لعواطفي المغلقة ونقطة مواجهة جريئة لشخصيتي الخجولة.

قضت هذه الفجوات في الإدراك على علاقتي مع رينيه بعد عام أو نحو ذلك، على الرغم من أنّها لم تخرّب صداقتنا أبدا. في غضون ذلك، وُلِد إبننا كرس في نو هَيفِن. كانت رينيه أمّا حريصة بشكل رائع. أنتقلنا معا للعيش في كولُمبُس أوهايو في خريف عام 1955، حيث بدأت مسيرتي التدريسية كأستاذ زائر لمدة عام في كلية الحقوق بجامعة ولاية أوهايو. في الأشهر، التي تلت وصولنا، كانت حياتي الأكاديمية، على الرغم من كونها مخيفة في البداية، أكثر سلاسة من حياتي الشخصية. إستبعدت رينيه فكرة الطلاق ما دام والدي على قيد الحياة، وهو الذي قابل بالمثل حبُها واحترامها له. توفي أبي بشكل غير متوقع في شهر تشرين الثاني من عام 1956، نتيجة سلسلة من السكتات الدماغية الناجمة عن ارتفاع ضغط الدّم. وبالتالي فإنّ تعهد رينيه بتأجيل الطلاق طالما كان والدي على قيد الحياة، لم يمدّ بعمر زواجنا كثيرا.

سرعان ما غادرت رينيه عائدة الى ڤانكوڤَر، واستانفت مسيرتها المهنية في العمل الإجتماعي في كندا، بينما توصّلنا الى ترتيب طلاق هادئ دون حوادث، ولحسن الحظّ «دون مساعدة المحامين». ظللت مسؤولا عن إعالة الطفل حتى اصبح كرِس بالغا، وقمت بزيارات دورية الى ڤانكوڤَر للحفاظ على فكرة حضور الوالدين، والى اقصى حدّ ممكن، لأكون أبا ذا ضمير. طوّرت علاقتي مع كرِس مع بعض التوترات العرضية على مرّ السنين، وبدا بشكل عام أكثر ودية من العلاقة الحميمة. كان تطوّره، بما في ذلك خبرته العائلية ومهاراته في لعبة كرة المضرب، مصدرا عميقا للرضا والمتعة لكلينا، ممّا خفّف من تأثير ما كان يجب أن يكون قد اختبره كرِس بأنّه هجر فِعلي من جانبي.

زيارة تركيا ثانية في عام 1992

عـدت الـى تركيـا بعد ما يقـرب من 40 عاما، وهذه المرّة بصفتي عضوا في وفـد المجتمـع المدنـي الأوروبي، الذي حضر بدعوة مـن الفرع التركي لمنظمة غير حكومية نابضة بالحياة اسـمها «مواطنو هِلسِـنكي» Helsinki Citizens. وهي مبـادرة مجتمعيـة تـمّ تنفيذهـا ردّا على التنافس الجيوسياسـي في جوهر الحرب الباردة. إهتمّت زيارة الوفد بحماية حقوق الإنسان في البلاد، لا سيّما فيما يتعلق بانتهاكات السجون والصراع الداخلي الذي نتجت عنه الفتنة بين الدولة التركية والأقلية الكردية الكبيرة. كان مضيّفونا الأتراك نشطاء ملتزمين فضلا عن كونهم من المثقفين الرائعين. وقد امضينا معظم الوقت تحت إشراف مراد بيلجي، الذي كان مفكّرا شعبيّا رائدا في تركيا. جمع مراد بين إحساس عميق بالإرتباط بالثقافة التركية والتاريخ والسياسة مع المشاعر الإشتراكية الديمقراطية القويّة.

بدأت رحلتنا بالذهاب الى قلب تركيا الكردية، وهي مدينة ديار بكر الشرقية المزدحمة والملونة والفقيرة مقارنة باسطنبول. إستقبلنا في المطار اعضاء لجنة المواطنيـن المحلييـن فـي منظمـة هِلسِـنكي، ونقلنـا طبيـب كردي بسـيّارته الى الفنـدق. كانـت الطـرق مغطـاة بالثلـوج وكان ذلـك في أواخر فصل الشـتاء. تمّ إيقافنا عند إشارة مرور بعد وقت قصير من دخول المدينة، حيث انزلقت حافلة وضربـت جانـب سـيّارتنا. كانـت بداية مقلقة لزيارتنا، وأكثـر من ذلك لمضيفِنا، الذي تضرّرت سيارته كثيرا.

أثناء وجودنا في ديار بكر، إلتقينا بالعديد من القادة والشخصيات السياسية من الأكراد المحليين، واسـتمعنا الى شـكاويهم واصبحنا مقتنعين بأنّ الحكومة التركية مذنبة بارتكاب انتهاكات خطيرة لحقوق الإنسان الأساسية. أراد الأكراد، الذين التقينا بهم أن يُعاملوا كأمّة داخل الدولة التركية، ولكن بترتيبات حكم ذاتي يعتـرف بهويتهـم العرقيـة والثقافية دون قطع العلاقات الرسـمية مع تركيا. كانت الحكومـة التركيـة تقاتـل حزب العمّال الشـعبي PKK. وهو حركة نضال مسـلح يزعم أنّه يسـعى الى إقامة دولة كرديّة مسـتقلة ذات سـيادة في شـرق تركيا. إنّ حزب العمال الكردستاني حركة سياسية علمانية يسارية بقيادة عبد الله أوجلان،

المثقف الماركسي. ألقت قوات الأمن التركية القبض على أوجلان في عام 1999، واحتُجِز منذ ذلك الحين في سجن إمرالي الواقع في جزيرة قريبة من اسطنبول، بعد اتهامه بارتكاب جريمة الخيانة العُظمى، ولكن لم تتمّ مقاضاته لحدّ الآن. على الرغم من اتهام أوجلان بأهداف إنفصالية، إلا أنّ آراءه المنشورة في وقت لاحق دعت الى كونفدرالية تركية، دون أيّ تفكك في وحدة الدولة. حتى بعض النشطاء المعتدلين ظاهريّا من بين الأشخاص، الذين التقينا بهم كانوا أو متّهمين بارتكاب جرائم، بزعم دعم حزب العمال الكردستاني. تمّ إرسالهم الى السجون بموجب تهم بسيطة، حيث تعرّضوا للتعذيب بشكل روتيني.

بعد ديار بكر عدنا الى أنقرة لزيارة مختلف الأشخاص المعنيين بالقضايا الكردية، وسُحرنا واعجبتنا ليلى زينة، وهي كردية انتُخِبت مؤخرا لعضوية البرلمان التركي. أخبرتنا ليلى قصتها عن دخولها الى المعترك السياسي عن مضض بعد اعتقال زوجها وسجنه بسبب نشاط مؤيد للأكراد. وزُعِم أيضا أنّ لديها تعاطفا مع حزب العمال الكردستاني، وهو ما نفته. وكان مثيرا للجدل داخل التيار التركي السائد، الذي عارض بعد ذلك بتحفظ التحرّكات الكردية ليس فقط من أجل الإنفصال ولكن من أجل الحكم الذاتي. بعد ذلك، كان أيّ تفسير للحركة القومية الكردية يُنتقّد على نطاق واسع من قِبل الأتراك من غير الأكراد، أنّه يقوّض عقيدة أتاتورك في دولة تركية مركزيّة قويّة وموحدة وعلمانية ترفض شرعيّة إدّعاءات الهوية دون القومية للأقليّات والجماعات الدينية. دعتنا ليلى لتناول الغداء في غرفة الطعام في البرلمان. لن أنسى أبدا التحديق العدائي الذي تلقته مجموعتنا اثناء مشينا مع ليلى الى طاولة الغداء. إعتبرت النساء ضمن وفد منظمة مواطني هِلسِنكي ليلى، نموذجا يُحتذى به بالنسبة للنساء ورتّبن لمقابلتها بشكل منفصل لمزيد من المناقشات. طُلِب مني مقابلة منظمة غير حكومية شكّلها علماء النفس لمساعدة ضحايا التعذيب على العودة الى المجتمع التركي بعد صدمة الإنتهاكات في السجون التركية. لقد وجدت أنّ هذا تأكيد غير مباشر ولكنّه مقنع تماما للتقارير الدولية بأنّ التعذيب يُمارس في السجون التركية على نطاق واسع.

لم يتمّ تسليم خبرتنا بالكامل للعمل الجاد لتقصّي الحقائق. أحيا مراد، الذي

كان لحسن الحظّ على دراية كبيرة بالمطاعم والمقاهي والحياة الثقافية التركية، تجربتنا خلال الزيارة. كانت له عمّة في أنقرة لديها بعض الصور غير العادية لوالد مراد، من ضمنها صور له مع أتاتورك وحاشيته. عمل والد مراد وزيرا في الحكومة خلال الأيام الأولى للجمهورية الوليدة، وتزوّج من ژاژا گابور عندما كانت في الثامنة عشر من عمرها بعد فترة وجيزة من اختيارها ملكة جمال المجر. على الرغم من أنّ مراد كان الإبن البيولوجي لزوجة تركية سابقة للوزير، إلّا أنّه كان مهتمّا بشدّة باستعادة الصلة المفقودة مع زوجة أبيه الشهيرة. تفاجأ مراد لدرجة أنّه أذهِل عندما علم أنّني كنت أعرف ژاژا منذ أن كنت طفلا لأنّ والدي كان محاميها اثناء طلاق طويل من كونراد هِلتُن ومن كوني صادقتها لاحقا.

لم يكن لدى مراد وسيلة من تلقاء نفسه للتواصل مع ژاژا، ولكن لأسباب لم نتحدّث عنها أبدا، أراد بقوّة أن يكون على اتصال واظهر مشاعر واضحة كونها زوجة أبيه حقيقة. لدي انطباع بأنّه لم يحدث الكثير بعد أن بادر مراد بالإتصالات، وقمت بدوري من خلال العثور على عنوانها الخاصّ في Belle Aire.بكتابة رسالة تقديم، وتبيّن أنّها آخر اتصال لي بهذه الشخصية الجذّابة، التي لا تُنسى.

كان تتويج السبب الرئيسي لوجودنا في تركيا هو عقد مؤتمر صحفي كبير، طُلِب منّي فيه أن أقدّم نيابة عن الوفد توصياتنا المركزية والإستفزازية المُتفق عليها للتعامل مع التحدّي الكردي، ودعم المطالبة بتقرير المصير الداخلي للأكراد، الذي يتوافق مع إحساسنا بالموقف وعكس رغبات أولئك الذين التقينا بهم. لقد صُدِمتُ أكثر من أيّ شيء آخر في ذلك المؤتمر الصحفي من السلوك الحزبي والقومي للصحفيين الأتراك، الذين قدّمو أنفسهم ليس كمحققين مستقلين، ولكن كممثلين غير رسميين للحكومة، يدعون علانية الى سحق المعارضة العسكرية للحركة القومية الكردية، دون أن يشعروا عدم ملائمة انحيازهم هذا بشكل علني. أتذكّر أنّ أحد الصحفيين أخبرني بفخر بعد ذلك أنّه كان يحضر بانتظام اجتماعات مجلس الأمن القومي وكان يعلم أنّه سيكون هناك هجوم عسكريّ للقوّات التركية بالتزامن مع اقتراب عطلة عيد النوروز، التي يُحتفَل بها بقدوم الربيع، وستلحق القوات المذكورة خسائر فادحة بما أسماه «التمرّد الكردي». ومن الجدير بالذكر أنّ ما شعرنا أنّه سيُحقق السلام في تركيا

وينهي القتال هو من خلال منح حقوق متساوية للأكراد والتغلب على المظالم الكردية الأكثر حدّة، مع الحفاظ على وحدة الأرض التركية. تمّ رفض ما اقترحناه من قِبل الصحفيين المجتمعين باعتباره دعاية مؤيدة للأكراد. ربّما كان العِداء الذي واجهناه يعكس الإنطباع بأنّنا نتدخّل فعلا في الشؤون الداخلية لتركيا. هذا فضلا عن التوصية بسياسات تبدو متشابهة لما كان يقترحه زعيم حزب لعمال الكردستاني السجين أوجلان كحلّ للصراع. في عام 2012، أي بعد 20 عاما من ذلك المؤتمر الصحفي لعام 1992، استجاب مستشار رفيع المستوى لإردوان بشكل سلبي وبثقة أنّ القيادة التركية تنتظر اللحظة المناسبة لإطلاق سراح أوجلان من السجن، والسعي الى حلّ سياسي على غرار ما دافعنا عنه.

عندما غادرنا تركيا، لم أكن مُتأكّدا من أمرين مهمّين. أوّلا، هل كانت الحكومة التركية تحاول تشويه سمعة المظالم الكردية من خلال وضع المطالب الكردية بالحقوق الثقافية والإستقلال السياسي تحت راية حركة الكفاح المسلح لحزب العمل الكردستاني؟ أم أنّ المزاعم الكردية باهداف سياسية معتدلة هي واجهة كان وراءها التضامن مع نضال حزب العمال الكردستاني المستمر لتحقيق دولة كردستان المنفصلة؟ ثانيا، هل كان من المعقول أن تعامل الحكومة التركية الأكراد المُتدينين على أنّهم داعمون لحزب العمل الكردستاني ذي الهوية الماركسية والعلمانية؟ هذا السؤال الأخير مهمّ بالنظر الى أنّ الغالبية العُظمى من الأكراد مسلمون متدينون يؤيدون تقاليد ثقافية تعود الى ما قبل الحداثة ولا ينجذبون الى دعم حركة علمانية راديكالية، ما لم يتمّ دفعهم الى اليأس نتيجة القمع. ما بدا واضحا بعد زيارتنا هو استمرار تشويه التعليقات الأجنبية والتركية بافتراض وجود حركة إنفصالية كردية موحّدة ومتطرفة. حتى بعد عقود، لم أتمكّن من تحديد ما إذا كان هناك إجماع بين الجماعات والتجمّعات الكردية المختلفة حول طبيعة الحلّ المقبول، أو فيما يتعلق بتماسك المقاومة الكردية كحركة موحّدة.

لقد حدث الكثير منذ عام 1992، بما في ذلك التحالف بين حزب العدالة والتنمية الحاكم وحزب الحركة القومية المتطرّف اليميني، ممّا يجعل هذا الخيار الواعد لحلّ النزاع، الذي دام قرنا من الزمن يبدو أقلّ أهميّة في هذا الوقت. لقد

تعلمت على مرّ السنين ألا أثِق في مثل هذه المظاهر، ممّا يعني أنّ أيّ شيء إيجابي أو سلبي يمكن أن يحدث فيما يتعلق بالحركة القومية الكردية دون سابق إنذار.

حين غادرت تركيا في عام 1992، شعرت أنّني تعلمت الكثير خلال فترة قصيرة عن هذا الحليف المهمّ في الناتو خلال الحرب الباردة، والذي كان يمتلك في ذلك الوقت مثل هذا السجلّ المروّع في مجال حقوق الإنسان. لقد كانت لحظة تعلم أخرى أدركت فيها أنّ «العالم الحرّ» كان حرّا فقط بالقدر الذي تحدّده الأولويات الجيوسياسية. في حالة تركيا، كانت محميّة من الإنتقادات والتوجيهات في فترة ما قبل حزب العدالة والتنمية الى نفس الدرجة التي تمّ فيها إبراز اخفاقاتها خلال المراحل الأخيرة من حكم حزب العدالة والتنمية. كذلك يبدو أنّ جهود المجتمع المدني والمنظمات غير الحكومية المعنيّة بحقوق الإنسان ليس لها سوى القليل من الزخم السياسي. كانت هذه التجربة في تركيا في ذلك الوقت مختلفة بشكل لافت للنظر عن تجربة تركيا التي ظهرت منذ عام 2002، ممّا أدّى الى إزالة النخب السياسية العلمانية وتحويل مركز السلطة السياسية من المدن الحضرية في الغرب الى الريف والداخل من البلاد. ولم تتمّ ملاحظة هذا التحوّل بشكل كاف. تجاهلت الدوافع الجيوسياسية في دول غرب الناتو أوجه القصور في حقوق الإنسان في تركيا الى ابرزها. كانت تركيا عام 1992 «كمالية» بوعي ذاتي وعلمانية (في التقليد الفرنسي المناهض للدين) تديرها النخب الحديثة من المدن الغربية من البلاد، مع حكومة منتخبة ومقيّدة «بالدولة العميقة» التركية سيئة السمعة، التي تدخلت بشكل دوري عبر انقلابات عسكرية واصدار تحذيرات بلغت حدّ الإنذارات عندما تجاوزت الحكومة المُنتخَبة الخطوط الحمراء، التي نسبتها هذه النخب العسكرية والإستخباراتية غير الخاضعة للمساءلة الى سلطة أتاتورك، التي لا جدال فيها. لا ينبغي الخلط بين استدعاء سلطة أتاتورك وتطبيق أفكار هذا القائد التركي العظيم، ولا مع احتمال استمرار تأكيد أتاتورك على الأفكار القومية القسرية والعلمانية العقائدية، التي كانت تسيطر على البلاد طوال فترة الثلاثينات. توفي أتاتورك عام 1938، ولا يزال غير معروف ما إذا كان بإمكانه تكييف تركيا بشكل مختلف مع التغيّرات

في الداخل وفي العالم. طوال فترة قيادته السياسية، أظهر أتاتورك نفسه على أنّه مبتكِر عظيم كان من الممكن أن يُغيّر مسار البلاد في فترة ما بعد عام 1945 من إنهاء الإستعمار وتقرير المصير أو عالم ما بعد 1978 من عودة ظهور الإسلام السياسي.

كافة الطرق تؤدّي الى اسطنبول

جِئت الى مالطا في شهر كانون الأول من عام 1994 لحضور مؤتمر تمهيدي صغير نظمته الأكاديمية الدبلوماسية بجامعة مالطا. تمّ تخصيص المؤتمر لمشروع **نماذج النظام العالمي**، وكان بحدّ ذاته حدثا جانبيا مرتبطا بالإجتماع السنوي للجمعية الدولية لبحوث السلام. وصلت وأنا اتمتع بمزاج بريء من المهنية. بحلول الوقت الذي غادرت فيه مالطا بعد أربعة أيام، كنت منشغلا عاطفيا بهِليل إلقر، التي ستصبِح في العام التالي زوجتي الرابعة وتغيّر حياتي بشكل دائم وفي طرق أساسية وربطتني بإحكام والى الأبد بتركيا.

إذا كان معظمنا يفكّر في مالطا على الإطلاق، فإنّنا نفكّر فيها كما نراها على الخارطة، كملحق صغير لصقلية، التي حصلت بطريقة ما على الإستقلال، وحتّى العضوية في الإتحاد الأوروبي. أو ربّما نعتبر مالطا واحدة من تلك الجزر المتوسطية العديدة، التي كانت في السابق خاضعة للحكم الإستعماري البريطاني. مع ذلك، بالنسبة للمالطيين، الذين أظهروا فخرا وطنيا يتجاوز حجم الجزيرة ومكانتها، إرتبطت لحظات مجدهم بالنجاة من حملة القصف المستمرّة والحصار من قِبل ألمانيا المُصمّمة على تدمير مالطا كقاعدة بحرية بريطانية رئيسية في المراحل الأخيرة من الحرب العالمية الثانية. والأهمّ من ذلك بالنسبة للكرامة الوطنية المالطية، هو تحمّل حصار البحرية العثمانية في عام 1565، والذي ربط الدراما السياسية المركزية لمالطا بكفاح الشعب الناجح في المقاومة ضدّ خصومهم الأتراك الأقوياء. لقد كان رباطا عاطفيا وتاريخيّا وانتصارا عظيما **لفرسان مالطا** الذين طردهم العثمانيون قسرا قبل بضع سنوات من وجودهم الأصلي في البحر الأبيض المتوسط الى جزيرة رودِس الأكبر بكثير.

وصلت الى مالطا بالصدفة قبل يوم واحد من انعقاد المؤتمر المخطط

لـه مـن قبـل فـرِد تانَر، مدير الأكاديمية الدبلوماسـية، الذي اصبح صديقي خلال وجوده قبل عام كزميل زائر في مركز بِرنسـتُن للدراسـات الدولية. لقد كان فرِد هـو الـذي حـوّل حياتي، عن غير قصد، من خلال تغيير وصولي المبكّر الخاطئ الـى تجربـة تغييـر حياتي. طلب من هِليل، عضوة هيئـة التدريس في الأكاديمية، أن تطلعني على الجزيرة طوال اليوم، وهي مهمّة قبلتها على مضض معتبرة أنّها طلب أبوي على قدم المسـاواة مع مطالبتها بإعداد قهوة الصباح «للأولاد» التي تسـتغرق وقتا أطول. الأسـوأ، على الأقلّ من منظور ترك انطباع دائم عن هِليل، هـو حقيقـة أنّـي وصلـت الى مالطا برفقة زميلتي السـويدية إلِزابِث، التي اعرفها منذ زمن كناشطة سلام تعمل في الكنيسة اللوثرية، واصبحت فيما بعد مشاركة في مشروع WOMP.

كانـت هِليـل دافئـة ورحّبـت بي حيـن التقينا في بهو الفنـدق الذي أقمت فيه. ما زلت أتذكّر تنورتها الزرقاء ذات الطراز الريفي وابتسامتها الآسرة حين تصافحنـا. أخبرتنـي لاحقا أنّ شـعورها الرئيسـي في تلـك اللحظة كان ارتياحا لأنّني لم اظهر كأسـتاذ في بِرنسـتُن المزدحمة التي تصوّرتها. أمضينا اليوم في قيادة السـيارة في جميع انحاء الجزيرة وزيارة مجتمعاتها الغريبة لفترة وجيزة، واكتشـفنا أنّ مالطـا فـي الأسـاس صخـرة كبيرة بلا نباتات تقريبـا وفيها العديد من الأرانب التي تقفز هنا وهناك. أنهينا اليوم بتناول العشاء معا في شفة هِليل والتعرّف على زينب إبنة هِليل البالغة من العمر 14 عاما، والتي ستصبح حضورا رئيسـيا علـى مـدار حياتـي. نشـأت علاقة صداقة ما بين هِليـل وإلِزابث، ولكن بمشـاعر تحفيزيـة مختلفـة. ربّما كان غروري الأكاديمـي أقوى ممّا اعترف به. أدركت هِليل خلال العشاءأنّ الكتاب الذي كانت تقرأه في حينها هو كتابي عن إحيـاء القانـون الدولـي (6891). بالنسـبة لأولئك الذين يميلون الى ذلك، فهذه علامـة مبكّـرة عـن «القدر» الزوجي، ولكن بالنسـبة لي نوع من الطمأنينة، التي كنت اسعى اليها طوال حياتي السابقة.

حيـن وصـل باقـي الزمـلاء فـي برنامـج WOMP في اليوم التالـي، كما هو متوقع، كانت هناك تغييرات في الجو الإجتماعي، حيث أنّ معظم الذين جاءوا كانـوا اصدقائـي، بمـا في ذلك پَري پامير. كانت پَري صديقتي الأقدم والأفضل

من تركيا قبل هِليل. كنت أنزل عندها بشكل حميم من وقت لآخر خلال العقد السابق. تواصلت على الفور مع هِليل وتبادلا الكثير من الشائعات السلبية عن إلزابِث، كما علمت لاحقا. وبلا شكّ كان بعض تلك الشائعات عنّي، لكنّني لم أعرف ذلك. عندما حان وقت مغادرة مالطا، كنت حزينا للذهاب. اصبح الإنجذاب الى هِليل قويّا للغاية رغم وجود فارق السنّ بيننا. أضف الى ذلك، أنّ كلينا كان لدينا شركاء يعيشون «في الداخل»، ممّا جعل احتمالية الرومانسية المستقبلية أكثر من مجرّد خطة أولية لأيّ مستقبل مشترك. كما كان من دواعي سروري أن أكتشف أنّه يمكن في بعض الأحيان استبدال المعقول بالمطلوب حتى هنا، حيث بدا السعي العاطفي للوهلة الأولى تهوّرا. من الناحية العملية، ولأنّنا أردنا أن يحدث ذلك، فإنّ المستقبل تكشّف كما لو كان معدّا سابقا ويمكن تحقيق الإنجاز دون عناء تقريبا، كما هو في نشوة تشبه الحلم. لكنّني اهتممت أوّلا بالضرورة العملية. كنت بحاجة لاستئناف التدريس حيث كان الفصل الدراسي لخريف برِنستُن في عام 1994 على وشك البدء، ولم أكن راغبا في العودة مبكّرا جدّا أو الوصول متأخّرا جدّا لتصبح المسألة جزء من ملفي الشخصي الوظيفي.

ما بعد مالطا

حين استأنفت الحياة بجدّية في برِنستُن، واصلت التفكير بهِليل. لكّن الأمر بدا لي أنّه استرخاء عاطفي بعيد وغير مؤذ سيتلاشى قريبا ضحية للزمان والمكان. ما جذبني الى هِليل، بصرف النظر عن حيويتها وطبيعتها العفوية وعلاقتنا الفورية، كان الإنجذاب الجسدي والإحساس الغريزي بأنّنا يمكن أن نكون معا دون أن نفقد السحر، وهي المشاعر التي تمّ التحقق منها الآن من خلال أكثر من 25 عاما من الزواج، ليس بدون هفوات، ولكن دائما بنوع من المرونة التصالحية، التي تحافظ على العلاقة حيّة نامية. عبّرت تفاعلاتنا المبكّرة عن صداقتنا دون أيّ اعتراف صريح بالجاذبية، فكلانا خجول عندما يتعلق الأمر بالكشف عن المشاعر. تغيّر كلّ هذا عندما جاءت الليلة في برِنستُن بعد شهر تقريبا. حضرت عشاء جامعيّا لتكريم الكاتب كرِستوفر هِچِنز. وبعد حديثه شربت

الكثير من النبيذ ربّما لأنّني وجدت تألقا ساخرا عقيما الى حدّ ما. بروح الإفصاح الكامل، لم يُخفِ هِچنز أنّه وجد محاولتي في الصحافة مملة. لقد تشاركنا هذا الماضي الفاسد من خلال علاقتنا المتبادلة مع مجلة The Nation. عندما يتعلق الأمر بالكحول، نادرا ما تفوّقت على كرِستوفر، ولكن في ذلك المساء قدّمت عرضا جيّدا خاصّا بي. في طريق عودتي من نادي الكلية، حيث تقام مثل هذه المناسبات، الى مكتبي في مبنى كورِن، وأثناء المشي، أصابني اكتمال القمر وشعرت بقلبي ينفجِر. كان لا يزال عصر آلة الفاكس جاريا، وفي ذهول نصف مخمور، كتبت رسالة مفعمة بالقمر الى هِليل، التي استجابت من دواعي سروري بسرعة وبنفس الروح. تمّ إرسال رسالتها الى جهاز الفاكس في منزلي، حيث عثرت عليها إلِزابِث على الفور، ولم يكن مفاجئا أن تسبّبت الرسالة في ردّ فعل متفجّر. بعد بعض الحوارات الغاضبة، تمكّنّا من إعادة الإتصال على الأقلّ ظاهريا قبل أن تعود بعد أيام قليلة الى السويد لتواصل خدمتها في الكنيسة اللوثرية بالقرب من ستوكهولم.

ما تبع ذلك كان بسبب الفضائل التمكينية للحياة الأكاديمية المعولمة، التي لم تكن خيارا لمن هم من جيل والدي أو حتى الآن لمعظم طلاب الجامعات، الذين لديهم فرص سفر محدودة. كنت ألقي محاضرة في جامعة بوسطن تناولت إرث محاكمات نورُمبرگ، وحضرت هِليل بصحبة شريكها التركي، الذي أعطاها مقودا أطول ممّا توصي به الحكمة الرومانسية. إلتقينا بعد حديثي لتناول العشاء وقضينا بعض الوقت معا بطرق أكّدت مشاعري بجاذبية مغناطيسية خاصّة. إقتربنا بما يكفي لتبادل القبلات الرومانسية والعناقات الطويلة في شارع بويلستون، متجاهلين المطر الخفيف الذي نزل على وسط مدينة بوسطن. بعد أسبوع أو نحو ذلك، رتبنا لقاء في بهو فندق والدورف أستوريا في نو يورك، حيث كانت الجمعية الأمريكية للقانون الدولي ASIL تعقد اجتماعها السنوي. في غضون ذلك زارت هِليل سان فرانسسكو بصحبة شريكها التركي. إنتظرت بعصبيّة لعدة ساعات في ما اعتقدت أنّه مكان اجتماعنا المحدّد. أخيرا، استسلمت مرهقا عاطفيا لمخاوفي. أحسست بصداع شديد فجررت نفسي الى متحف الفنّ الحديث على بعد بعض بنايات، حيث تجوّلت بلا هدف بين اللوحات التي

كان الكثير منها مألوفا بالنسبة لي من المشاهدات السابقة.

من الصعب تذكّر ذلك، ولكن هذا قبل أن تصبح الهواتف المحمولة أكثر شيوعا من مفاتيح المنزل. لم تكن لدينا أيّة وسيلة للتواصل. لقد تمكّنا من التئام جروح ما فسرته على أنّه انسحاب نهائي بعد أن أدركت بلا شكّ أنّه من غير الواقعي مواصلة افتتاننا أكثر من ذلك. ولكن في الحقيقة أنّ هِليل قد جاءت في الموعد المقرّر وانتظرت بفارغ الصبر مثلي في طابق آخر من الفندق، كان قد تمّ تحديده بشكل خاصّ حتى يتمكن الناس من العثور بسهولة على بعضهم البعض خلال اجتماعات ASIL.

دُعيت بعد ذلك بوقت قصير لأكون متحدّثا في فرانكفورت بألمانيا في حفل تكريم يورگِن هابرماس، بمناسبة تقاعده من جامعة فرنكفورت. تزامن هذا مع الذكرى المئوية الثانية لنشر كتاب «السلام الدائم لإيمانويل كانت»، وقد اقنعت هِليل بلقائي هناك. بعد كلّ شيء، كانت مهتمّة بالسلام وكنتُ في حالة حُبّ! كانت مناسبة بارزة زيّنتها مجموعة من المتحدثين اللامعين بينهم هابرماس ومارثا نوسباوم ودَيِڤد هيلد. حضر جمهور غفير للإستماع الى الحدث الرئيسي. قد يبدو هذا مفاجئا، لكنّ هذه كانت ألمانيا وعلى عكس أمريكا، للأكاديميين المشاهير متابعون جماهيريون كثيرون.

بعد فترة وجيزة من لقاء فرانكفورت، إلتقيت بها لمدة يومين في روما، التي أحبّتها ودرست فيها قبل عقد من الزمن القانون الروماني في إحدى جامعات إيطاليا. توقفت في روما في طريقي الى بلغراد لحضور مؤتمر آخر. استمتعنا بزيارة روما معا، وبدا التجاوب المزاجي صحيحا جدّا، لدرجة أنّ العقبات المستعصية بعد مالطا سرعان ما تلاشت وكأنّها منحوتات جليدية في منتصف الصيف. كان عدم اليقين المتبقي هو تقييم اطفالنا، وفي حالتها والديها، بما في ذلك الأم التركية ذات السمعة المُستبدّة. إذا سارت الأمور على ما يُرام، كان الأمر كبيرا في ذهني، فكلّ ما تبقى هو المهمة الفوضوية المتمثلة في انهاء علاقاتنا الحالية الأخرى، بأقلّ قدر ممكن من الأذى والإحتكاك.

تبيّن أنّ الأطفال سهلون للغاية تقريبا! في حالتي، استحوذت هِليل على ولديّ ديمتري ونوح على الفور واعطيا موافقتهما مع الرفض الصريح من قِبَل

إلزابث، التي اختصرت علاقتي الجديدة بكلمات قاطعة، «إنّها رائعة!» لم أكن متأكدا من كيفية استجابة زينب للزواج المُحتمل، باستثناء أنّني كنت أعرف أنّها لم تكن مولعة بالرجل التركي، الذي كانت أمها تواعده. أدركت ايضا بسبب صغر سنّها وتعلقها بوالدتها أنّ زواجنا ومعه التعدّي على الفضاء الذي كان حصريّا تقريبا بينهما، سيُشكّل تهديدا لزينب وتحدّيا بالنسبة لي. كانت أكثر هذه التهديدات رعبا هي أنّنا كنّا نخطط للعيش معا في مالطا ومن ثمّ ربما ننتقل الى الولايات المتحدة. وفي الفترة المقبلة كانت هناك أوقات تسبّبت فيها مشاركة مساحة المعيشة والتنافس على جذب انتباه هِليل وتأثيراتها في توتر التنافس. ولكن في الغالب تمكّنا من أن نكون مجموعة ثلاثية متجانسة. لقد بذلت قصارى جهدي للحفاظ على التنافس بيننا ضمن حدود آمنة ونجحت في الغالب، ولكن ليس دائما.

كما كان متوقعا في مثل هذه الحالة، أنّني كنت قلقا من أن تجد عائلة هِليل التركية أنّ الزواج غير مناسب لأسباب عديدة، بما في ذلك ما اعتبرته سنّي المتقدم وأنا أقترب من 65 عاما، والذي أبرز الفجوة بين اعمارنا التي تبلغ 24 عاما تقريبا. أضف الى ذلك الحقيقة المشينة لتعدد زيجاتي السابقة وإقامتي في الولايات المتحدة ووضعي الكافر بصفتي غير مسلم، ناهيك عن مخاوفي المعتادة. بحلول ذلك الوقت، أدركت أنّ إحساس هِليل نحو عائلتها كان قويّا بشكل استثنائي. وهذا هو الحال عادة في تركيا. إعتقدت أنّها لن تمضي قدما في اجراءات مستقبلنا دون وجود إشارات مؤكّدة على موافقة والديها واخوتها وابنتها. ولذا نمت مخاوفي وتزايدت مع اقتراب الطائرة من الهبوط في اسطنبول. بسيرة مثل سيرتي الذاتية، حتى من دون الحاجة الى الضوء الأخضر من عائلة هِليل، كنت اتوقع رفضا لطيفا بينما كنت استعد للسير على المنحدر من الطائرة بعد هبوطها. في الحقيقة، ربّما كنت قد رفضت نفسي، إذا طُلِب مني تقييم موضوعي. وفي هذه العودة الى تركيا، كنت مليئا بالمخاوف والرجفة.

ولكن حين غادر المسافرون قاعة الوصول في المطار، وجدت هِليل بانتظاري بذراعين مفتوحتين. تغلب هذا اللقاء على الفور على مخاوفي، لكنّه لم يُبدّد شياطيني. لم يكن قلقي فقط بشأن الطريقة التي قد تستقبلني بها عائلة

هِليل، بل شعرت ببعض الألم والحزن والقليل من الذنب حيال التخلي عن إلزابِث بعد 7 أو 8 سنوات من الإرتباط في كلّ من پرِنستُن واستوكهولم، بما في ذلك إقامتي في السويد لمدة سنة كاستاذ زائر في جامعة أولف پالمَ للعام الدراسي 1991- 1992. كان لدينا العديد من الذكريات ووجهات النظر العالمية المتوافقة والتجارب السعيدة معا. لكنّنا لم ننجح أبدا في تطوير تلك الروابط الروحية والعاطفية العميقة اللازمة لجعل العلاقة تزدهر بعد أن تهدأ المشاعر الأولية.

إختفت هذه الإنشغالات الكئيبة بمجرّد مغادرتنا مطار أتاتورك الى جزيرة الأميرة هيبالي في بحر مرمرة، على بعد أميال قليلة من ساحل إسطنبول. لقد كانت بداية أفضل رحلة رومانسية على الإطلاق بالنسبة لي، وقد كانت مُميّزة للغاية لأنّ اجتماعنا الأصلي في مالطا قد انعقد ايضا على جزيرة صغيرة ساحرة. يُمنع استخدام السيارات في جزيرة هيبالي ويعتمد الناس على العربات في التنقل. أقمنا سويّة طوال الليل في فندق هيبالي، الذي كان الأنسب باعتباره الخيار المفضّل للأزواج الذين يقضون شهر العسل.

بعد يوم أو نحو ذلك عدنا بالعبّارة الى اسطنبول، وبدأ وقت الإختبار الخاصّ بشكل جدّي. اجتاحتني موجة مدّ جديدة من القلق. إلتقنا بوالد هِليل، الذي كان ودودا للغاية، ممّا جعلني أشعر بالراحة في نفس الوقت تقريبا في حضوره. ذكّرني الى حدّ ما بأسلوب والدي الإجتماعي. لقد امضى الكثير من الوقت في أمريكا وأحبّ إبنته وبدا أنّه ينظر اليّ بشكل إيجابي كشريك محتمل طويل الأمد، على الرغم من أنّه كان محرجا الى حدّ ما، حيث كنّا معا في نفس العمر تقريبا. لم أفقد أبدا إحساسي بالإحترام اتجاهه لأنّه والد هِليل وأنا رفيقها الرومانسي. أفسح العمر الطريق الى المكانة.

بعد أيام قليلة إلتقينا بشقيقَي هِليل، خلوق وأيدين لتناول طعام الغداء في مطعم كباب في اسطنبول. كان الإجتماع غير رسميّ وممتع ومطمئن مثل لقائي السابق مع والدهما. ذهبنا بعد ذلك بالسيارة الى المنزل الصيفي للوالد إيڤَر. يقع البيت ضمن مجموعة صغيرة من المنازل المطلة على الشاطئ في منتجع Kusadesi، ليس بعيدا عن الآثار الرومانية العظيمة في أفسز لم تتمّ دعوتي للبقاء

كضيف في المنزل ولكن تمّ حجز غرفة لي في فندق قِسمَت، الذي يتمتع بموقع رائع يطلّ على البحر ومجهّز بأناقة، حيث كنّا نأتي في وقت لاحق للعب التنس ومشاهدة غروب الشمس ونحن في البار الخارجي باطلالته الرائعة على منظر المرفأ. لم تكن هِليل مستعدّة لتعريفي بإمّها المتدينة، وكانت العضو الوحيد في الأسرة الذي له هذا الميل. لقد أشارت هِليل بتكتم لها أنّني صديق فتاة أمريكية تعرّفت عليّ خلال زيارتي الأولى لتركيا. لقد اعتقدت أنّ هذا قد يكون عقبة حضارية كنت أخافها منذ أن ركبت الطائرة المتوجّهة الى تركيا. تسبّب هذا القلق المُتجدّد في اجهاد لم أكشف عنه. مع هذه المشكلة، التي لم يتمّ حلها، شرعنا في رحلتنا المخطط لها حول الجزء الغربي من البلاد والتي انتهى بها المطاف في اسطنبول بعد اسبوع تقريبا. إتفقنا على الزواج في وقت ما بعد قدوم هِليل الى پرِنستُن عندما ينتهي تعليمها في نهاية تشرين الثاني. ومع ذلك لم أحصل في مثل هذا الأمر على موافقة مسؤول الأسرة، والدة هِليل.

تساءلت وأنا على متن الطائرة العائدة الى الولايات المتحدة، عمّا إذا كنّا قد اتخذنا قرارا متسرّعا للغاية، خاصة ونحن نسير حتى دون إيماءة من أمّها بالموافقة المتردّدة، التي يبدو تأثيرها، كما هو الحال بالنسبة الى معظم العائلات التركية أمرا حاسما في مثل هذه الأمور. كنت أواجه ماضييّ أيضا. فبعد كلّ شيء انتهت زيجاتي الثلاث السابقة بالطلاق، وأنا الذي كنت مسؤولا عنه، ممّا يشير الى أنّه عندما تزوّجت سابقا لم أكن أنظر الى ما هو ابعد من الإنجذاب والإلفة الفورية، وفشلت في مراعاة ما يجعل العلاقة تعمل بمرور الوقت عندما تنتهي مغامرات الخطوبة وفرحة الزّواج وتحلّ فترة الأجندات الروتينية والمتنافسة. لقد مررت أنا وهِليل بتجربة قصيرة مع بعضنا البعض، ولم نَعِش معا لمدة تزيد عن عطلة نهاية الأسبوع قبل زيارتي السريعة الى تركيا. كنت واثقا أنّ هِليل لم تكن ذات مزاج عصبي ولن تتحدّاني عاطفيا بالطرق التي فعلتها فلورَنسا وماري مورِس. لكنّني تساءلت كيف ستجدني، وهي أصغر سنّا مني بحوالي 24 عاما تقريبا، وأنا أكاد أتجاوز السبعين من عمري، واتوقع انخفاض قدرتي البدنية وربما بداية ظهور مشاكل صحيّة في وقت قريب. لم أشعر منذ التقينا، بأيّة عوائق ناشئة عن فارق السنّ، ولكن ماذا عن المستقبل؟ بعد حوالي 25 عاما،

ليس هناك شكّ في أنّني قد تباطأت ووصلت السنّ التي، ممّا يّثير استيائي، أن يفسح الناس المجال لي بشكل متزايد في الطريق أو يقفون لمنحي مقعدا في الحافلات أو القطارات المزدحمة. لحسن الحظّ،، لقد تأخّر عمري الداخلي كثيرا لحدّ الآن. لقد حمتني عادات عملي والتزاماتي الفكرية من الإكتئاب أو الشعور بالعزلة. ولكن كيف لي أن اعرف أنّ هكذا سيكون الحال؟ تخيلت أنّ هِليل لا بُدّ أن تكون قلقة بشأن ما إذا كانت ستتزوّج من شخص غير صالح في البداية وليس شريكا مقتدرا. ربّما لتحويل الإنتباه جزئيا عن إحتمال التدهور الجسدي الوشيك، قمت بتعليم هِليل كيفية لعب التِنِس والإسكواش وكرة الطاولة حتّى أصبحت جيّدة جدّا، لدرجة أنّها كانت تفوز في معظم مبارياتنا، على الرغم من أنّنا ظللنا قادرين على المنافسة بما يكفي لتحقيق ذلك. لا يزال ممتعا حتى الآن لأنّه تمرين جيّد حتى آواخر الثمانينات من عمري.

كان زفافنا بسيطا وتمّ في اليوم التالي لعيد الميلاد عام 1995. أعدّ سو آن مورو، قسيس بِرِنستُن البروتستانتي، مراسيم زواج مناسب كاحتفال مسيحي حسّاس لهذا الإتحاد بين زوجة مسلمة وزوج يهودي. كان العديد من اصدقائنا حاضرين في غرفة الجلوس في بيتنا في مدينة بِرِنستُن، حيث أقيم الإحتفال. قرأنا بعض القصائد التي اخترناها للتعبير عن حُبّنا وآمالنا الأوسع. كانت لديّ خيبتان؛ رفضت هِليل تقبيلي بعد أن نطقنا بعهد الوفاء واظهار التردّد المعتاد لجيلها التركي في التعبير عن المودة الجسدية في وجود الآخرين. أمّا الخيبة الأخرى فهي غياب إبني دِمتري الذي كان بعيدا ومشغولا في عمل فلم وثائقي ممتاز في كوبا.

عدنا بعد الزواج الى مالطا لبقية العام، حيث عشنا مع زينب في شقة تطلّ على البحر في سليما عبر الميناء من العاصمة فَليتا. كانت زينب طالبة في مدرسة البكالوريا الثانوية ومنخرطة بشكل كبير في أنشطة مشاهد حفلات المراهقين المحليين. كان جوّنا الإجتماعي في مالطا مفعما بالحيوية وهيمنت عليه صداقات زينب مع الفتيات والفتيان في مدرستها المحلية الخاصّة. كانت من أوائل المُستكشفين البارزين لما تقدّمه وسائل التواصل الإجتماعي. طوّرت أنا وهِليل صداقات مع العديد من الشخصيات البارزة في الجزيرة، بما في ذلك

جيدو دي ماركو، الذي كان دبلوماسيا للأمم المتحدة ورئيسا للجمعية العامة لمدة عام ثم اصبح رئيس مالطا. نشر جيدو بعد تقاعدة وكمواطن خاصّ خطته المثالية لتعزيز الأمم المتحدة، وترك وراءه إرثا خياليا. وبالنسبة لي لم يكن موته يعني خسارة صديق جيّد فحسب، بل كان موت أفضل ما كان على مالطا أن تقدّمه لنفسها وللعالم.

كانت مالطا إستثنائية من نواحٍ عديدة. اظهرت قصورها الفخمة تطلعات فرسانها، وهي الغنية والملكية التي تشهد يوميًا على التأثير المستمرّ للكنيسة الكاثوليكية. بشكل ملموس، كان هذا يعني عدم الطلاق أو الإجهاض، باستثناء الإثرياء طبعا. وهؤلاء يمكنهم ترتيب قيام الڤاتيكَن بالغاء الزيجات غير المرغوب فيها أو السفر الى الخارج لغرض الطلاق أو إجراء عمليات الإجهاض في مدن أوروپيّة أكثر تساهلا. بدا التأثير الليبي في مالطا قويًا، بما في ذلك امتلاك بعض أفضل الفنادق في الجزيرة. كان غسيل الأموال مصدرا مربحا للثروة، حيث تنافست المصارف المالطية مع المؤسسات المالية الأوروپيّة، وكسبت ايضا العملة الأجنبية من خلال اعتماد متطلبات تسجيل متساهلة للغاية للشحن الدولي. لقد استمتعت بإجازتي من پِرِنستُن في هذا الموطن الجديد والغريب، ووجدت أماكن استراحة في المقاهي في مكان قريب، وعملت على مجموعة متنوّعة من مشاريع الكتابة وحافظت على اتصال فضفاض بأكاديمية مالطا الدبلوماسية في الجامعة. لم يكن انجازي المحلي الملحوظ خلال العام محاضرات عامة عرضية، بل كان فوزي في بطولة تِنِس برعاية الأكاديمية. بعد العام الذي قضيته في مالطا، إنتقلنا الى پِرِنستُن حيث استأنفت تدريسي، ولكن بخطة كانت تتضمن التقاعد والإنتقال الى كالِفورنيا. غير أنّه في الفترة بين عام 1996 الى عام 2001، تعرّفت ايضا على تركيا بشكل أفضل من خلال قضاء كلّ صيف هناك.

تركيا: الإنخراط في السياسة

أكثر من مشاركتي السابقة في قضايا ڤيتنام وإيران وجنوب أفريقيا والهند والفِلپين وإسرائيل/فلسطين، عندما تعلق الأمر السياسي بتركيا كان هامشيا مقارنة بالشخصي، لكنّه بالطبع بعيد كلّ البعد عن الغياب. بطبيعة الحال الجوهر

الشخصي هو هِليل وعائلتها وأصدقائها، وكذلك اطفالي وتجربة حياتي منذ منتصف ستينات عمري. ينبع الجوهر السياسي من مواقفي المتعاطفة اتجاه التركيبة التركية السياسية ذات الصبغة الدينية وتأكيد الحكومة التي تستغلّ سياستها لتشكيل مستقبلها الوطني مع الإهتمام بالتعاون الدولي والإستقرار البيئي وأهميّة حقوق الإنسان. المساواة والتضامن مع نضال الشعوب الضعيفة من أجل الحقوق الأساسية، بما في ذلك وجهات النظر البناءة حول السلام والأمن الإقليميين والعالميين. شعرت أنّ هذه التطورات المرغوبة كانت تحدث في تركيا خلال سنوات إردوان المُبكّرة، لا سيّما بالمقارنة مع الصورة السياسية التركية السابقة في التسعينات وعلى النقيض من الجمود الإستبدادي للدول الكبرى الأخرى في المنطقة. لم يكن تقديري لما بدا أنّ قيادة حزب العدالة والتنمية تحققه خلال سنوات قيادتها الأولى لم تشاركه ولم تقدّره النخب الإقتصادية والإجتماعية التركية، التي كانت تدير البلاد منذ تأسيس الجمهورية التركية على يد كمال أتاتورك بعد الحرب العالمية الأولى. جعلتني ملاحظة هذه المواقف غير المتسامحة أدرِك أنّ هناك شيء مثل «الأصولية العلمانية» يمكن أن يكون عقائديّا وقمعيّا مثل نظيره الديني.

قد لا يكون مألوفا للكثيرين أنّ العلمانية التركية مشتقة من البديل الفرنسي، الذي يُعتبر معاديا للدين بوعي ذاتي، كما يختلف عن البديل الأمريكي المؤيّد للدين، بينما يعارض تحديد عملية الحكم بدين معيّن. كلا الشكلين من العلمانية لهما نقاط قوّتهما وضعفهما كما تظهر الأدوار المتناقضة للدين في حكم هذين المجتمعّين. هناك أيضا فرق صارخ بين درجة التجانس الديني في تركيا بسبب الهوية الإسلامية التي تخصّ أكثر من 95% من سكان البلاد، مقارنة بالتعدّدية الدينية والفئويّة في الولايات المتحدة، حيث ترتبط حتى هيمنة الإنتماءات البروتستانتية على مذاهب أخرى واسعة. غالبا ما تعكس هذه الإختلافات الناحية الطبقية أكثر من المعتقدات الدينية.

خلقت آرائي مسافة اجتماعية وبعض اللحظات المتوترة بسبب فشلي في تأكيد الزوايا الأربع للإجماع العلماني الذي كان مناهضا لحزب العدالة والتنمية بلا هوادة، وحتى أكثر معارضة لإردوان. أوجدت هذه الكراهية منذ اللحظة

التي سيطر فيها الحزب الجديد بشكل غير متوقع على الحكومة التركية واحتفظ بها منذ عام 2002، رفض معظم هؤلاء المُنتقدين المُتشدّدين مراجعة تقييماتهم السلبية من خلال منح الفضل في سجلّ الإنجاز خلال العقد الأوّل من قيادة إردوان. إنّني اعرف أنّني افتقر الى الخبرة اليومية للمجتمع، وبالتالي لم تكن لديّ خبرى مباشرة في إدّعاءات الأذى التي قدّمها الأصدقاء أو الحوادث الملموسة التي تنطوي على التعدّيات على الحريّات المدنية الأساسية. والى حدّ ما، تمّ تعويض هذا النقص من خلال التحرّر من جمود الإستقطاب المؤيد والمتكثّف الذي سيطر على الخطاب السياسي التركي على مدار السنوات العشرين الماضية على حساب تقييمات أكثر موضوعيّة لإنجازات تجربة الحكم في البلاد وعيوبها.

على مستوى أقلّ صراحة من الناحية السياسيّة، تمّ التعامل مع حماسي لكتابة أورهان باموك بسخرية من قِبل العديد من الأتراك في دائرتنا الإجتماعية، الذين انتقدوه بسبب الكتابة الإنتهازية للأجانب والإنغماس في الترويج الذاتي الوقح في سوق النشر العالمية. رفض جائزة نوبل في الأدب، التي حصل عليها باعتبارها غير مستحقة مقارنة بالعديد من الكتاب الأتراك الآخرين. كان كتاب باموك سنّو، الذي يقدّم «الآخر» الإسلامي بتعاطف الى حدّ ما، كتابا وجدته منيرا ومنفتحا، لكنّه حظى بالسخرية من قبل بعض الأصدقاء الأتراك، الذين رفضوا ذلك باعتباره تافها ومثيرا للإهتمام فقط لأولئك الذين ليسوا على دراية بالمجتمع التركي. مرّة أخرى، ترجع هذه المعاداة للباموكية الى الحكايات المروّعة المتعلقة بمواجهات شخصية غير سارة، وبحياته الرومانسية الحارقة. وقبل كلّ شيء، الى عداء معظم الأتراك اتجاه أيّ شخص يجرؤ على انتقاد بلدهم اثناء تواجده في الخارج. في هذا الصدد، جاء الكثير من العداء العام لباموك بعد أن علق على القمع في تركيا والقى باللوم عليها في مذابح الأرمن عام 1915، أثناء مقابلة جرت معه في سويسرا.

في هذين المجالين الحسّاسين، بذلت قصارى جهدي معظم الوقت للإحتفاظ بآرائي لنفسي دون الموافقة مع الآراء التي اختلف معها. اسئلتي المتشكّكة بين الحين والآخر جعلت حتى صمتي يثير اصدقائنا، ربّما لأنّهم حزبيون. وما كشف الأمر هو بعض المقالات التي كتبتها بطلب من صحيفة

زمان. وهي صحيفة من الدرجة الأولى لمجموعة **فتح الله گولن**، الذي تحالف أوّلا مع حزب العدالة والتنمية واصبح لاحقا خصما مريرا وخطيرا. أكّدت صداقتي مع أحمد داود أوگلو، الذي كان وقتها كبير مستشاري رئيس الوزراء ووزير الخارجية، للمعارضين المتشدّدين، موقفي السياسي الخاطئ. قبل معظم الأتراك وجودي الإجتماعي احتراما لهِليل، لكنّ العديد منهم اعترضوا بشدّة على آرائي، ممّا تسبّب في «إطلاق بعض الألعاب النارية» في بعض الأحيان.

أصبح إردوان بعد عام 2011، أكثر سلطوية وخرقا من الناحية التكتيكية، حيث أساء التعامل مع تظاهرات حديقة غازي، وخاصّة ردود الفعل المُبالغ فيها بشكل صارخ على محاولة الإنقلاب عام 2016. لقد دفعت هذه الردود تدريجيا العديد من أبرز شركاء إردوان السياسيين في حزب العدالة والتنمية الى الهامش، وغيّرت وجهة نظري بشكل أقرب الى وجهة نظر النقاد والمعارضة، على الرغم من أنّ بعض اصدقائنا فقط لاحظوا التغيير، وأرادوا إبقائي مُستهدفا كأنّني «عاشق لإردوان»، حسب عبارات التفسير اللطيفة لهِليل. إنّ قول هذا بكوني ملتزما نحوه لا يختلف تماما عن أقوال إسرائيل «أنّ رِچَرد لديه ميل، بقعة ناعمة، اتجاه حماس». واجهت على مرّ السنين الرفض في بعض الدوائر. على الرغم من ذلك، فقد قدّر معظم اصدقائنا ومعارفنا الأتراك، الأرضية المشتركة التي تكمن تحت سطح الخلافات السياسية. لم يكونوا يقبلون فقط، بل كانوا مُحبّين، وهذا جعل الصداقات في البلد خاصّة ودائمة.

إنّ من الغريب في بعض النواحي، بصدد ارتباطاتي السابقة بڤيتنام وإيران وإسرائيل/فلسطين، تعرّضت لانتقادات شديدة في بعض الأحيان بسبب ميلي بعيدا الى الجانب المعادي لأمريكا أو الجانب المعادي لإسرائيل. بينما عندما يتعلق الأمر بتركيا، فإنّ جهودي، على الأقلّ في ذهني، كانت أن أفهم الحقائق المعقدة بقدر ما استطيع ممّا يعني الميل نحو المركز الشاغر تقريبا في تركيا المُستقطبة. تعامل كافة المناهضين لحزب العدالة والتنمية تقريبا مع «حيادي» على أنّه وضعني في معسكر حزب العدالة والتنمية، نظرا للجدل المحتدم، الذي سيطر على المشهد السياسي التركي بعد عام 2002.

الإنقسامات الإجتماعية والإستقطاب السياسي

حتى قبل أن تعرّفني هِليل على «الحياة التركية»، ونحن نسكن في شقة صغيرة في إسطنبول ونقوم بزيارات سنويّة واصبح لديناعدد متزايد من الأصدقاء والخبرات التركية، كان لديّ اهتمام كبير بالسياسة التركية. ركّزت الزيارة عام 1992 تحت رعاية منظمة مواطني هِلسِنكي على التطلعات والمظالم الكردية. كان انخراطي قبل هِليل في القضايا السياسية التركية أكثر شمولا الى حدّ ما. لقد كتبت وتحدّثت عن مذابح الأرمن في عام 1915، بروح التضامن مع ما تصوّرت بكونهم ضحايا، وليس على أساس المعرفة التاريخية الواسعة. كنت على استعداد تامّ لتأييد المزاعم الأرمنية بشأن «الإبادة الجماعية» التركية دون القيام بالواجب الذي يجب أن يسبق دائما إصدار مثل هذا الحكم التجريمي. عند إعادة قراءة ما كتبته، بدأت ألوم نفسي في المقام الأوّل على عدم التمييز بين الإدانات القانونية والسياسية والأخلاقية للإبادة الجماعية. يجب أن يكون واضحا أنّ جريمة الإبادة الجماعية لا يمكن أن تحدث بالمعنى القانوني في عام 1915، حيث أنّ عبارة «إبادة جماعية» لم تكن موجودة حتى عام 1944. وكما أوضح حكم نورِمبَرگ الصادر عن محكمة تقييم الجرائم الألمانية في سياق الحرب العالمية الثانية، لا يمكن أن تكون هناك جريمة ما لم ينصّ عليها قانون سابق. كما أنّني كتبت بتعاطف عن النضال الكردي من أجل تقرير المصير، ثمّ ندمت على ذلك لاحقا. لم ارسم بوضوح التمييز الحاسم بين تقرير المصير المُمزّق للدولة، وتلبية مطالب تقرير المصير داخل الدولة القائمة، هو في الأساس نداء من أجل الحقوق الجماعية للمساواة والحكم الذاتي. أخيرا، لقد ساهمت بفصل عن الدولة التركية العميقة في تركيا قبل حزب العدالة والتنمية في مجلد مُحرّر عن طبيعة الدولة في العلاقات الدولية، والذي ما زلت أعتبره معبّرا عن حقائق أواخر الثمانينات وأوائل التسعينات.

تألفت ارتباطاتي الشخصية والسياسية مع تركيا منذ بدايتها من سلسلة من اللقاءات، وعرّضتني على مدى فترة طويلة الى نوع مختلف تماما من المجتمع، غنيّ بالتقاليد ثقافيّا ومرحّبا بالغرباء وقادني للتفاوض باستمرار على

الخـط المتذبـذِب بيـن التقاليـد والحداثـة، كمـا يجري في المجالات السياسـية والإجتماعية، مع صلة خاصّة بالمسجد والأمّة والسوق والأسرة والعلاقات بين الدولـة والمجتمـع. أصبحـت مدركا تماما لكلّ من الإسـتقطاب الشـديد، الذي يقسّم البلاد بشكل مختلّ وظيفيا، ليس فقط فيما يتعلق بالدين ولكن أيضا فيما يتعلق بالطبقة والجغرافية وكذلك القدرة البشرية على تجاوز هذه الحدود المبنية إجتماعيّا في حالة وجود اشكال أخرى من التوافق. لم تتحدّى هِليل مطلقا العقلية العلمانية بشكل مباشر، لكنّها لم تكن أقلّ تقبّلا لمن هم على الجانب الآخر من الطريق، الذي كنت عليه، بل كانت أكثر لباقة منّي من الناحية الإجتماعية.

تُلامِـس الحيـاة الإجتماعيـة التركية حدودا غامضـة قائمة على عدم التوافق الأخلاقي، الذي يفترض شـكلا سياسـيا. لا أشـعر بأيّ التزام كي استمع باحترام الى كلام فاشسـتي أو عنصري، أو احترام مثل هذه الأفكار البغيضة حول كيفية تنظيم الجوانب الجماعية للتجربة الإنسـانية. أتذكّر بعض الأحداث الإجتماعية غيـر السـارّة فـي برِنستُن حيث تعاملت بشـكل حـادّ مع المدافعيـن عن الفصل العنصري في جنوب أفريقيا. أقنعتني تلك المواجهات بأنّ النقاشات بين وجهات النظر المتعارضة جدّا ليست أكثر من قضايا عبثية قد توفّر شكلا ضارّا من الترفيه للجمهور. لكنّها تركتني أشـعر بعدم الرضا الشـديد وأحيانا بالغثيان. على مدار الثلاثيـن عامـا الماضيـة أو نحـو ذلـك، رفضـت كلّ دعوة تلقيتها للمشـاركة في مناقشات أو ندوات إعلامية معادية لم يكن يوجد لها احتمال في أن تصبح حوارا أو محادثة، بما في ذلك الدخول في مناقشـة مع بِهلوانات «أرجوحة الأسـلاك العاليـة» مثـل بِـل أورالي ومَيِگـن كَلي وألِن دِرچوڤِتـز. أخبرني بعض الأصدقاء أحيانا أنّه لا يوجد شيء إسمه دعاية سيّئة، لكنّني أقدّر الهدوء وراحة البال أكثر من الظهور العام. على الرغم من قيمة الإسـتماع الى رأي الجانب الآخر، لكنّه لا يتمّ تعلم أيّ شيء مفيد أو دائم من خلال المشاركة في المواجهات اللاذعة.

وبنـاء عليـه، فـإنّ الأمـر لا يتعلـق برفضـي في جميع الحـالات لبناء جدار بين السياسـي والشـخصي. لم أتمكن من جانبي الحفاظ عل صداقة مع شـخص معجب بتفان بشخصية ترامپ أو أيّ شخص يتأرجح بثقله إتجاه الفاشية الجديدة بدافـع الكراهيـة أو الخـوف مـن اللاجئين المهاجرين الفاريـن من الكوارث في

بلدانهم الأصلية. لقد أدركت أنّه بالنسبة لبعض الأتراك المناهضين لإردوان، فإنّ أيّ اعتراف إيجابي بانجازات حزب العدالة والتنمية أو قيادة إردوان هو بالنسبة لهم لعنة، مثل تلك الخطوط الحمراء لترامپ والفاشية بالنسبة لي. أستطيع أن أقول هذا بشكل تجريدي لكنّني لا أقبله وجوديّا. هاتان الثقافتان السياسيتان، على الرغم من مشاركة حالة الإستقطاب السّام هذه، ليستا متماثلتين. لا أعرف أيّ شخص داخل دائرتي الإجتماعية يعترف بدعم ترامپ، على الرغم من أنّه إذا كانت القيادة السياسية مقتصرة على السياسة الخارجية، فأنا لست متأكّدا تماما من أنّ البلد أو العالم كان سيكون أفضل حالا لو كان تمّ انتخاب هِلاري كلِنتُن رئيسة عام 2016. أقول هذا بالنظر الى دعمها للتدخلات الخارجية لتغيير الأنظمة واستعدادها الظاهري لرفع التوترات الجيوسياسية مع روسيا الى مستوى ما كانت عليه الحرب الباردة وولادة حرب باردة أخرى كنتيجة محتملة لأفكارها وموقفها اتجاه التجاوزات الدولية لسوق المال، وول ستريت. أذكر الإزدراء الذي أبداه اللِبراليون إتجاهي بعد أن اعترفت بالتصويت لرالف نادر، مرشح الحزب الثالث في انتخابات عام 2000، التي جاءت بجورج دبليو بُش الى البيت الأبيض. لم تكن نتائج التصويت قريبة في نو جَرزي، حيث كنت أعيش في ذلك الوقت، ولكن هل كان صوتي مهمّا لو كنت أعيش في فلورِدا، أو في أيّ مكان ما كانت النتائج المتوقعة فيه متقاربة؟

بعد حرب العراق، اتجهت الى الرأي الذي ما زلت أؤمن به، وهو أنّ الحزبين السياسيين الرئيسيين ما زالا يتمتعان بإجماع حول القضايا الرئيسية المتعلقة بالسياسة الخارجية والعسكر والرأسمالية. اقوم بربط هذا الإحساس بالتقارب في الإعتقاد بوجود اختلافات كبيرة بين الطرفين فيما يتعلق بتأثير سياساتهما الإجتماعية والمحلية على حياة الفقراء والضعفاء، فضلا عن جودة القضاء والسلك الدبلوماسي والتعامل مع التعدّدية والأمم المتحدة. لقد دفعني هذا طول حياتي للتصويت باستمرار لمرشحي الحزب الديمقراطي في الإنتخابات الوطنية، ولكن مصحوبا بشعور شبه ثابت بأنّني أختار «أهون الشرّين». قبل أن أموت، سيكون من الممتع التصويت في انتخابات وطنية اشعر فيها بالرضا حقا لمن أصوّت له. كمرشّح رئاسي، كان أوباما أقرب ما يكون، لكنّ خطط سياسته

الدوليـة خـلال حملتـه الإنتخابية عام 2008 أزعجتنـي. وتأكّدت مخاوفي خلال السنوات الثماني لرئاسته.

فـي بعـض النواحـي خلال السـنوات الخمس الماضية أو نحو ذلك، خفّت حـدّة التوتـرات فـي تركيـا، حيث اصبح العديـد من المؤيدين السـابقين لحزب العدالـة والتنميـة أنفسـهم مُحبطين ومعزولين. وثانيـا أرهِق المعارضون الى حدّ مـا مـن اسـلوب إردوان الإسـتبدادي وفترة ولايته الطويلـة. كما أصبح معارضو حزب العدالة والتنمية من جانبهم، أكثر استعدادا للإعتراف بأنّه لا يوجد مسؤول فـي الوقـت الحالـي قادر على توحيد المعارضة في البلاد وخوض تحدّ إنتخابي ناجح. تغيّر هذاالمزاج الى حدّ ما بعد فوز حزب الشعب الحمهوري عام 2019 في الإنتخابات المهمّة للغاية لرئاسـة بلدية إسـطنبول. إنّ احتمالية ظهور الفائز المفاجئ، إكرام إمام أوگلو، كخصم قويّ لإردوان ومنافس محتمل لقيادة حزب العدالة والتنمية، يعيد إحياء الجدل السياسي في البلاد وكذلك السياسات اتجاه المنطقة، والتي تنتهجها القيادة التركية الحالية، لا سيّما ما يتعلق بسوريا وليبيا.

أعجبني في هذه الفترة بشدة، صدور كتاب هِليل (جدل الحجاب والعلمانية وحرية الدين) الذي نشـرته مطبعة جامعة أوكسـفُرد عام 2012. حللت فيه حظر الحجـاب فـي تركيـا مـن منظـور القانـون وحقوق الإنسـان وأثار نقـدا قويّا. من المحظورات المفروضة على مرتديات الحجاب من ذلك المنظور ما كان محيّرا بالنسبة لـي، علـى الرغـم مـن أنّه ربما كان خطأ أن يواجـه بمقاومة قوية من قبَل دور النشـر التركيـة الرائـدة التـي تعاملت معها بشـأن الترجمة الـى اللغة التركية. كان التفسـير الـذي قدّمـه الناشـرون الأتراك هو أنّ الحجـج المؤيدة والمعارضة المتعلقـة بحظـر الحجـاب كانت بالفعل مألوفة للأتراك لدرجة أنّ إتاحة الكتاب باللغة التركية لن تثير اهتماما يُذكر، ممّا يؤكّد بوضوح عدم وجود سـوق تركية لترويج كتاب هِليل. أشارت تجربتي في تركيا الى أنّ مثل هذا التفكير كان خاطئا تمامـا. ينبـع التفسـير الأصدق لهـذا التردّد حول عدم اسـتعداد النُخب العلمانية لقبول ما يرقى الى النقد الذاتي المعتدل والمسؤول الذي ينبع من تحليل قانوني، إعتبر حظر الحجاب تدخّلا في حرية الدين وحريّة التعبير. ليس هناك شكّ في أنّ حظر الحجاب، كما هو مطبّق، يتدخّل في حقوق الإنسان لعدد كبير من النسوة

التركيات. تمّ تذكير ردود الفعل التركية السلبية على كتاب باموك (الثلج)، التي عكست في نظري أيضا المقاومة التركية للتدقيق الذاتي، بدلا من استبعاد الكتاب لأنّه كان سطحيا وفاضحا وزُعِم بأنّه كُتِب للأجانب. كانت معالجة هِليل وباموك للجدل حول الحجاب واضفاء الطابع الإنساني على حياة الإسلاميين، تهدّد التصوّرات اليسارية الأيديولوجية والكمالية الأتاتوركية لتركيا بشدة، بينما لم تترك مساحة سياسيّة كبيرة للمعارضة أو تعدّدية المعتقدات والممارسات الإجتماعية.

من نواح مهمة، وجدت الأشكال السائدة لعقلية المعارضة مناهضة للديمقراطية وغير متسامحة بعمق. أتذكّر أحد الجيران الأذكياء لمنزل عطلات عائلة هِليل في منطقة كوساداسي، وهو يخبرنا أنّ صوت ابنه يجب أن يُحسب سبعة اضعاف اصوات أولئك الأشخاص المتخلفين وغير المتعلمين، الذين يعيشون في الأناضول. بهذه الطريقة فقط كما قال، سيكون من الممكن تجنّب التقليل من اسلوب الحكم في تركيا، الذي يعتقد أنّه ناتج عن السماح بحساب اصوات كلّ تركي على قدم المساواة. في مثل هذا الرأي، كان القصد من الديمقراطية أساسا هو أن تكون بمثابة تأييد دوري للوضع السياسي الراهن واثبات صحة النظام الإجتماعي والإقتصادي الراسخ، وينبغي تفسير ذلك على أنّه يعني أنّ المشاركة السياسية لا ينبغي أن تمتدّ لتشمل المجتمع بأسره، وأولئك الذي يميلون الى الدين يجب أن يقتصروا على الطبقة الدنيا وأن يُمنعوا بشكل مثالي من ممارسة التأثير في الساحة السياسيّة. نجح هذا بشكل غير رسمي مع الكمالية الأتاتوركية حتى جاء حزب العدالة والتنمية AKP في عام 2002 وفجّر الأسطورة القائلة بأنّ الديمقراطية التفرديّة *Exclusivist* Democracy هي ديمقراطية أصيلة. كما كان متوقعا، حين بدأ حزب العدالة والتنمية بعد عام 2002 في الهيمنة على الإنتخابات التركية وتغيير البيروقراطية لصالحه، كانت هناك مزاعم بأنّ الحزب الحاكم كان يستخدم نفوذه بشكل غير عادل بالنسبة للكماليين. في الواقع، كان الإدّعاء أنّ التلاعبات السياسية الملوّثة دينيّا لحزب العدالة والتنمية كانت مسؤولة عن خلق اشكال غير شرعية من الديمقراطية الإقصائية وديمقراطية الأغلبية Exclusionary and Majoritarian Democracy.

على نفس المنوال، أودّ أن أذكر قبول حزب العدالة والتنمية من قبل الجزء المهيمن من المجتمع التركي لدور القوات المسلحة باعتبارها حارسا للديمقراطية، الى جانب خضوع السياسة الخارجية لمتطلبات حلف شمال الأطلسي، وخاصّة أولويات واشنطن. قبل عقد من مجيء حزب العدالة والتنمية، أخبرني صديق تركي أنّ الجيش وحده هو الذي منع موجة المدّ الإسلامي الرجعية من اجتياح البلاد. وعندما وصلت موجة المدّ بالفعل، وعلى الرغم من الإحتياطات التي لا نهاية لها في عام 2002، كانت الضجّة التي واجهتها مقتصرة على مقاهي إسطنبول، وكان الأمر مجرّد مسألة وقت قبل أن يتدخّل الجيش، وسيكون هذا بمثابة الإطاحة بحكم حزب العدالة والتمية وللحفاظ على الجمهورية التركية كما بناها أتاتورك. كان هناك شعور بالمرارة وخيبة الأمل من قبل أكثر الكماليين صراحة، عندما لم يحدث الإنقلاب، ربّما في وقت مبكّر من عام 2006 أو نحو ذلك، مصحوبا بالإعجاب المستمرّ بالجيش. لقد فوجئت بسرور في عام 2016 عندما رحّب العديد من منتقدي إردوان بفشلها وبالردّ الفوري على محاولة الإنقلاب، التي انطلقت في وضح النهار على ما يبدو. بعد عدة سنوات من هذه الأحداث، ونظرا لرد الفعل القمعي المفرط لأنقرة، ربّما كانت هناك أفكار أخرى، لكنّني لم اسمع تعبيرا عن مثل هذه المشاعر. بدلا من ذلك، فإنّ الشعور المُعبّر عنه هو أنّ سنوات حكم حزب العدالة والتنمية قد غيّرت القوات المسلحة التركية الى حدّ أنّها لم تعد قادرة على تقديم مساعدات إيجابية في المشهد السياسي التركي، وحتى فيما يتعلق بالسياسة الخارجية وبالتالي فهي ليست كذلك. يُنظر الى هذه القوات على أنّها ليست مدفوعة أو قادرة على شنّ إنقلاب. إنّني لست مقتنعا بأنّ هذه قراءة دقيقة للوضع، وأظنّ أنّه إذا فاجاءت القيادة العسكرية الجمهور بانقلاب يعيد النخب القديمة الى السلطة، فإنّ دموع الندم ستّذرف بغزارة في شارع بغداد، المعقل المزدهر للأتراك البيض في إسطنبول.

أعيد هذا الفصل الذاتي بين المجتمع التركي الأقلّ ميلا الى الدين مقارنة بالوطن من خلال حادثة اجتماعية بسيطة، على الرغم من كونها معبّرة ووقعت قبل بضع سنوات. كان زوجان من الصحفيين المعتدلين في إسطنبول على علم بصداقتنا مع عائلة أحمد داود أوگلو، واتصلا بِهليل ليسألا عمّا إذا كان زعيم

حزب العدالة والتنمية الناشئ آنذاك على استعداد لقبول دعوة عشاء في منزلهما. بعد طمأنة هِليل بأنّها تعتقد أنّ أحمد داود أوغلو سيرحّب بمثل هذه الدعوة، إتضح أنّه وزوجته كانا أحرارا في أمسية معيّنة لتلبية دعوة العشاء، وسيكونان سعيدين بالحضور. بدا الصحفيان سعيدين بهذا الرّد، لكنّهما كانا متوترين الى حدّ ما. اتصلت زوجة الصحفي بهِليل في صباح يوم دعوة العشاء وهي في حالة من الذعر الشديد، وسألت عن نوع الطعام الذي يجب تقديمه ذلك المساء، حيث لم يتمّ تناول العشاء من قبل بوجود إمرأة ترتدي الحجاب. لقد حدث أنّ ساري زوجة احمد داود أوگلو طبيبة نسائية تحظى باحترام كبير وتدير عيادتها الخاصّة. إنّها متطوّرة وودودة ودنيوية Worldly، على الرغم من تأكيدها على اسلوب حياة إسلامية. وكما توقعنا، كانت بارعة إجتماعيا ومُستجيبة، وعلى دراية فكرية، مثل أيّ شخص حول طاولة العشاء في ذلك المساء، باستثناء زوجها.

كشفت هذه الحكاية عن غياب مقلق للتفاعل والإدراك حتى بين سكان إسطنبول المُنفتحين. يساعد هذا الفصل في الحفاظ على الصور النمطية والمقارنات الحزينة، التي هي الدعائم اللازمة للحفاظ على الأشكال العدائية والتسلسل الهرمي للإستقطاب. لقد جعلني هذا أيضا أكثر وعيا ذاتيّا بتجربتي الأمريكية. لم أشعر أبدا بالرعاية اتجاه المجتمع التركي، لأنّني عشت في سنّ مبكّرة نسخة عنصريّة وغير واعية تقريبا من الفصل الذاتي أثناء نشأتي في مدينة نو يورك، والتي افتخرت بعد ذلك بكونها سنوات ثقافية مضيئة أكثر انفتاحا من الداخل الشاسع للبلاد، ناهيك عن الجنوب. يجب أن يكون مفهوما أنّ الفصل الذاتي لا يكاد يكون متبادلا وغالبا ما يكون هرميّا، حيث تعتبر مجموعة الفصل الذاتي نفسها متفوّقة من خلال مستويات معيشية أعلى وأحياء سكنية فاخرة. وهذا هو الحال في تركيا، على الرغم من اختلاطها مع أمريكا في القضايا الطبقيّة التي غالبا ما تكون انعكاسات للفئات العرقية. يتمّ فرض مثل هذه التسلسلات الهرمية بشكل غير رسمي من خلال المعايير الإجتماعية، التي لا يتمّ تأكيدها بوعي في كثير من الأحيان. «الذات» التي تقوم بالفصل وتجعل احيائها ومطاعمها ومساحاتها الإجتماعية محظورة، باستثناء الخدم والعاملين، تظهر هيمنتها في الحياة اليومية، ممّا يخلق لها إحساسا بالطبيعة للمزاعم الضمنية

لما يمكن تسميته «الملكية المجتمعية» Societal Ownership.

تحتفظ المدن الرئيسية في الجزء الغربي من تركيا بعناصر من هذا الماضي المنفصل ذاتيا، على الرغم من عقدين من حكم حزب العدالة والتنمية، الذي طمس هذه الحدود، وهو ما ينعكس مرة أخرى في العلاقات الطبقية المتغيّرة. أدّى هذا الى ظهور اتجاهات نحو إلغاء الفصل العنصري الطوعي، والذي يرتبط عادة باعتبارات السوق وبشكل ملحوظ في العديد من مراكز التسوّق والمطاعم والفنادق الفاخرة في تركيا. وهو تطوّر تمّ التعليق عليه أحيانا بشكل نقدي للنخب التركية، التي تتحدّث باستخفاف عن النازحين و«الغزو» الذي جعلهم «غير مرتاحين» ودفعهم للنزوح، دون أن يتأملوا الإذلال الماضي، الذي تحمّله أولئك الذين تجرأوا على إظهار هويتهم الدينية.

تمّ اعتبار الفصل العنصري الذاتي أمرا مفروغا منه في الجانب الغربي الأعلى من منطقة مانهاتِن في أربعينات القرن الماضي، حيث نشأ وأيّدته لا شعوريّا النخب البيضاء، التي تعيش في هذه المدينة، التي يُفترَض أنّها الأكثر عالمية في أمريكا الشمالية. لم يذهلني أبدا مثل هذا الإنفصال منذ الطفولة المُبكّرة، والذي جاء دائما مصحوبا بترميز غير مُعلن من الأعلى والأدنى، على أنّه مبرّر أخلاقيا أو مرغوبا فيه إجتماعيا أو مطلوبا من خلال مناشدات السلامة في الشوارع. ربّما كانت صداقتي منذ فترة طويلة مع وِلِس، المساعد الأسري الأمريكي الأفريقي، قد أسست آرائي عن الصداقة والمودّة ممّا منحني في وقت مُبكّر من الحياة قوّة الإرادة لإبعاد مواقفي عن مواقف والدي واصدقائه العنصريين بشكل معتدل والمعادي للمثليين. من المثير للإهتمام أنّه في السنوات الأخيرة من اعمال الشغب في الحي اليهودي، تكهّن علماء الإجتماع بأنّ مدينة نو يورك تجنّبت أسوأ اندلاع للعنف العنصري، لأنّه كان هناك على الأقلّ اتصال بصري Visual Contact بسبب اعتماد كلّ من البيض والسود على قطارات الأنفاق للتنقل في المدينة. ثمّ التذرّع بعدم وجود مثل هذا الإتصال البصري لشرح اسباب تعرّض ثقافة السيارات في لوس أنجلس للتوترات العنصرية وانتشار عنيف أسوأ بكثير ممّا حدث في نو يورك بسبب الصور النمطيّة السلبية الأقوى. ومع ذلك تمّ نقل كلتا المدينتين بطرق مميّزة وضارة للمقيمين والزوّار على

المستوى الإجتماعي- الحقائق الإقتصادية للعنصرية المنهجية. قد يؤدّي التباعد الإجتماعي الى إبطاء انتشار المرض أثناء الجائحة، غير أنّه مكّن «الأشخاص الطيبين» من التغاضي عن الظلم العميق حتى أجبروا على مواجهة الحقائق غير السارّة في أوقات الإضطرابات.

خلال الفصل العنصري في جنوب أفريقيا، واجهت واقعا مشابها حيث حدث التفاعل البصري الوحيد بين الأعراق للبيض عندما كانوا يتعاملون مع خدمهم السود، الذين طلب منهم القانون من الناحية الفنيّة العودة مساء الى ديارهم في البلدات الأفريقية فقط. من الناحية العملية سُمِح لهؤلاء الخدم عموما، بل صدرت لهم تعليمات، بالنوم في غرف صغيرة في منزل صاحب العمل الأبيض. مرّة أخرى لإرضاء الراحة العملية لأسيادهم البيض، الذين سعوا للحصول على فوائد عيش الخدم بقربهم طوال الوقت. في الواقع، كان مثالا على إلغاء الفصل العنصري الطوعي المحدود للغاية و«غير القانوني»، والذي تمّ تجاهله من قِبَل الدولة لأسباب طبقيّة حتّى لا ينزعج السادة البيض.

على الرغم من أنّني كنت منتقدا للردود التركية ضدّ الأغلبية الإنتخابية لحزب العدالة والتنمية، إلا أنّني أطرح نفس السؤال في ذهني كما اشهد في الولايات المتحدة، التي يتأرجح فيها تأييد ترامب على +40% من التصويت الأمريكي العام. بالنسبة لي، يُثير هذا تساؤلات حول منح حقّ التصويت للمجتمع ككُلّ في ظلّ الظروف التاريخية الحالية. وبالنظر حول العالم، لاحظت أنّ الإنتخابات الحرّة أدّت الى قيادة زعماء استبداديين وخطرين مثل مودي في الهند وبولسونارو في البرازيل ودويتري في الفِلِبين وآخرين. لا عجب أنّ أكثر المفكّرين إثارة للإعجاب في أثينا القديمة فقدوا إيمانهم بالديمقراطية. ومع ذلك، فإنّ قصر التصويت على الإثرياء والمتعلمين والنخب الإجتماعية والزعماء الدينيين، هو اختبار المسارات الإقصائية، التي أدّت الى الجحيم في الماضي. إنّ مأساة الحالة الإنسانية التي تتكشّف هي أنّه في ظلّ التهديدات الكوكبية، فإنّ الديمقراطية كأسلوب للحكم تفشل في كلّ مكان تقريبا، ولا يوجد بديل في الأفق السياسي يحمل الكثير من الأمل في القيام بعمل أفضل. يمكن القول إنّ الفشل هو أقلّ من الديمقراطية كنظام حكم من تشويهها المزوّر من قِبل المصالح

الخاصّة والأحزاب والمرشحين الذين يتمّ تمويلهم من قبل المانحين. في الأيام الأكثر تفاؤلا، أستيقظ معتقدا زيادة الدعم لإعادة التنشيط الإجتماعي والبيئي للنشاطات التقدميّة من الديمقراطية، بينما حاليا تحوم في الأفق بعيدا عن الأنظار.

السياسة الحكيمة لأحمد داود أوگلو

في هذه الفترة من قيادة حزب العدالة والتنمية في تركيا، فإنّ رجب طيّب إردوان هو الشخصية المهيمنة المحبوبة والأكثر اعجابا من الآخرين. يخافه ويرفضه الكثيرون، ومثّل صوت ووجه تركيا حتى الآن في القرن الحادي والعشرين. إردوان شخصية معقدة تطورت خلال فترته الطويلة كمُرشد أعلى، حيث ابتعد عن أسلوب حكم أكثر شمولا وتحوّل الى نهج حكم إستبدادي وتعسّفي بشكل متزايد. كما هو الحال مع الحكّام المُستبدّين الآخرين، الذين يعتمدون على درجة من الدعم الإنتخابي، ظهر أنّ إردوان كان مدركا لإرثه في بعض الأحيان، سواء فيما يتعلق بامجاد السلاطين العثمانيين العظماء، أو الظلّ الطويل الذي ألقاه أتاتورك بتأسيس تركيا الجمهورية واشكال احترام تركيا لسياسة الولايات المتحدة الخارجية وحلف شمال الأطلسي، الذي هو من إرث الحرب الباردة. في أوقات أخرى، عندما واجه ضغوطا من الداخل والخارج، اظهر ميولا پرا گمتية، بل وانتهازية مرتبطة بإحكام قبضته على مقاليد السلطة دون إيلاء الكثير من الإهتمام لوجهات النظر الأيديولوجية. هذا المزيج من الإرث والأنتهازية يجعل صورة قيادة إردوان مربكة. وبالنظر الى حقيقة أنّه بقي في السلطة لفترة طويلة، يبدو أنّ هناك شعورا متزايدا في تركيا اعتبارا من عام 2020 بأنّ الوقت قد حان للتغيير.

هناك بعض القادة البديلين الذين بدأوا في اظهار الوعد كمنافسين للوضع الراهن لإردوان. لقد وجدت أنّ أكثر البدائل ملائمة وإثارة للإهتمام هو أحمد داود أوگلو، ممّا يعكس جزئيا صداقتي الطويلة معه والتي سمحت لي بالتعرّف أكثر على وجهات النظر السياسية التي يفضّلها والثقة الإستثنائية في الشخصية والذكاء والشجاعة والنزاهة والتفاني من أجل تركيا، التي تبني على ماض شامل، وتجمع بين التراث العثماني وأتاتورك، مع الإلتزام بحاضر شامل يتّسم بالتعدّديّة

ويحمي حقوق الإنسان ويُراعي احتياجات الناس وسمعة الأمة.

لقد تعلمت الكثير خلال هذه السنوات من أحمد داود أوگلو، وتأثّرت على الفور بذكائه الفكري ونهجه بين الحضارات في المعرفة عندما التقينا في ماليزيا منذ حوالي 30 عاما. بعد ذلك كانت افكاره عن العمل في السياسة تبدو خيالية، بل وحتى سخيفة. في الوقت الذي قابلت أحمد كان استاذا شابّا للعلاقات الدولية. وعلى الرغم من أنّني تصوّرت له مستقبلا اكاديميا مشرقا، ألا أنّه لم يخطر ببالي أبدا أنّه سيُصبح شخصية سياسية رائدة في بلاده، بالإضافة الى جمهوره الأكثر تميّزا بكونه مفكّرا. أعدنا الإتصال بعد عودة أحمد الى تركيا، وبعد بضع سنوات أنشأ منهجا تعليميّا مجانيّا لطلاب الدراسات العليا في جميع انحاء البلاد. تمّ تنظيم العمل من قِبل مؤسسة صغيرة ذات تمويل متواضع للغاية، وقام أحمد بتجميع اعضاء الهيئة التدريسية من بين معارفه كونه عمل كمحاضر أساسي في أكثر عروض الدورات طموحا حول مجموعة من الموضوعات المتعلقة بتاريخ العالم والدراسات الحضارية والفلسفتين الشرقية والغربية.

كان أحمد المدير والعقل الفكري المدبّر لهذه المبادرة الأكاديمية الوليدة، التي نمت من حيث الحجم والسمعة عاما إثر عام. دعا طلاب الدراسات العليا من جميع انحاء البلاد للحضور الى اسطنبول لحضور دورات متقدّمة في تاريخ العالم والفلسفة والثقافة والدين المقارن، والتي يتمّ تدريسها بشكل مكثّف في عطلات نهاية الأسبوع. لقد خلق مجتمعا تعليميا مبتكرا حقا ولم يكن مقيّدا بالأفكار الغربية لتعليم الخريجين المتخصّصين في العلوم الإنسانية والإجتماعية، واصبحت لهيئة التدريس فيها تدريجيّا، وخاصّة أحمد، مكانا للثقة غير الرسمية للعقل Informal Brain Trust ومكانا للقاء الشخصيّات التركية المهمّة، التي شكّلت النواة لحزب العدالة والتنمية. من بين هذه الشخصيات عبد الله گول، الذي شغل منصب رئيس تركيا بين الأعوام 2007 لغاية 2014، بعد أن كان وزيرا للخارجية بين الأعوام 2003 لغاية 2007. أعطى گول قيادة تركيا القوية والمتماسكة لحزب العدالة والتنمية، التي بدت لفترة طويلة للعديد من المراقبين مساوية تقريبا في موازنة تأثيرها العام على البلاد مع تلك التي قدّمها إردوان.

دُعيت كلّ عام لإلقاء محاضرة حول قضايا العالم في مؤسسة أحمد داود

أوكلـو. بعـد ملاحظاتي ومناقشـاتي مع الطلبة الأذكيـاء الواعدين للغاية، نذهب كمجموعة صغيرة مدعوّة الى مسجد كبير قريب لتناول عشاء تركي تقليدي منظم ولذيذ في مطعم المسجد. كان هناك جوّ ديني بالتأكيد، لكنّه كان في الخلفية ولم يتـمّ توضيحـه فـي الحديـث أو الطقوس. في الواقـع، كان توجيه أحمد الفكري وسـعة الإطـلاع لديـه بلا ريب هو في تداخـل الحضارات، ويؤكّد أهمية التاريخ العالمي والإقليمي، فضلا عن ثراء التقاليد الثقافية والدينية المتنوعة.

كان أحمد في محاضراته ومناقشاته واضحا في أنّه يعتقد أنّ تركيا الجمهورية ارتكبت فعلا خطأ فادحا من خلال قمعها تربويا وسياسيًا دراسة وتقدير الماضي الثقافي لتركيا العثمانية. لقد شعر بقوة أنّ تركيا لا تستطيع المضيّ قدما كدولة ما لم تدمج وتطالب بملكيتها الثقافية على ماضيها التاريخي الطويل كإرث يُفتخَر به، وحتى بشكل أكثر أهمية كجزء حيوي من هويتها الوطنية الحالية. عندها فقط يمكن أن تحقق تركيا إحساسا مناسبا بوحدة ماضيها مع حاضرها، والذي اعتقد بشـكل مقنع أنّه ضروري لبناء سـتقبل تركي قويّ ومُسـتقل وديمقراطي شـامل، يمكن التحدث عنه بشكل مناسب. لقد اقتنعت بتقييم أحمد لهذه القضايا، التي علـى الرغـم مـن أنّها جديدة بالنسـبة لي في البدايـة، ظهرت معقولة ومثيرة. هذا فضـلا عـن السـماح لتركيـا بالتحـرك الى المستقبل بوعي قـويّ بماضيها الثريّ للغاية. كنت مدركا الى حدّ ما أنّ وجهة النظر هذه تتعارض مع أولوية أتاتورك المعطـاة لتشـكيل تركيـا الحديثـة، والتـي اعتقد أتاتورك أنّها تتطلـب نبذ العقيدة العثمانية التي ربطها بتقاليد وقيم ما قبل الحداثة، بما في ذلك القيود الدينية على السياسـة. سـعى أتاتورك بالفكر والفعل الى اسـتبدال العثمانية بنموذج أوروبي للعلمانية من شـأنه أن يُشـجّع التطور الديناميكي للعلم والصناعة. قلدت إيران بشكل مباشر نموذج التنمية الخاصّ بأتاتورك، على الرغم من وجوده ضمن إطار ملكي متشـابك سـتراتيجيا مع بريطانيا والولايات المتحدة، ممّا أدّى الى تراجع قومي وديني أكثر بكثير من أيّ شيء حدث في تركيا.

لـم يربـط أحمـد مطلقا نهجه، الذي غالبا ما وصفه النقاد خطأ بأنّه «عثماني جديـد»، بنقـد صريـح لقيـادة أتاتورك. في الوقت نفسـه، وبقدر مـا أتذكّر، إمتنع أحمد أيضا عن ذكر أتاتورك على الإطلاق، الأمر الذي اعطاني الإنطباع باعتباره

شخصا غير تصادمي كطريقة لتحدّي الإلتزام الأعمى المستمر بالكمالية، التي بدت بالتأكيد أنّها الأيديولوجية المهيمنة خلال سنواتي المبكرة في تركيا، التي سبقت استلام حزب العدالة والتنمية للسلطة في البلاد. تعزّزت هذه الهيمنة بصور أتاتورك وأتاتورك فقط في جميع المباني العامة والساحات العامة والمتنزهات وكذلك معظم المحلات التجارية والمنازل والمصارف وغيرها من أماكن القطاع الخاص. لا يزال صحيحا، على الرغم من العرض الفردي المُفترض لإردوان، أنّ الصورة الوحيدة الوحيدة المعروضة للزعيم التركي علنا وسِرّا، بصرف النظر عن ملصقات الحملات الإنتخابية، هي صورة أتاتورك. على الرغم من الإتهامات المستمرة والمفهومة بعبادة الشخصية، فإنّ غياب صور إردوان، إلا في سياق الحملات الإنتخابية، أمر ملحوظ، ولكن نادرا ما تتم الإشارة إليه. لقد طرحت هذا السؤال على العديد من الأصدقاء الأتراك، الذين إمّا تجاهلوا بالمبالاة عن غير قصد أو قالوا بشكل غير مقنع أنّ الإسلام يستهجن صور البشر والكائنات الأخرى. ولكن إذا كان الأمر كذلك، كنت اتوقع حملة حزب العدالة والتنمية لتثبيط وجود صور أتاتورك على الأقلّ في المباني العامة. لم يحدث هذا ويستحقّ المزيد من التعليقات الدقيقة أكثر ممّا لقيه في السابق والحاضر.

مع توسّع قاعدة تمويل مؤسسة أحمد، قام ايضا بتنظيم سلسلة من الموتمرات الدولية السنوية، التي جمعت مفكّرين من جميع انحاء العالم في بيئة محفّزة متعدّدة الحضارات للتركيز على الموضوعات ذات الإهتمام العالمي. جرت هذه الأحداث في جوّ فكريّ حيّ وحرّ وتعدّدي روحا وجوهرا. شعرت بالإمتياز لدعوتي عاما بعد عام كمتحدّث، ثمّ طُلِب منّي أن أكون من بين المساهمين في اعداد مجلد لواقع المؤتمرات نُشِر لاحقا.

جعلني العقد الأوّل من خبرتي في تركيا أشعر أنّ صعود حزب العدالة والتنمية في عام 2002 كان مفيدا جدّا للبلد. اصبحت الحكومة نشطة وتقوم بالعديد من الأشياء المثيرة والإيجابية لتركيا في الداخل وفي المنطقة وحتى في جنوب الصحراء الأفريقية وأماكن أخرى في العالم غير الغربي. اصبحت تركيا تعمل على زيادة سمعتها وتأثيرها الإقليمي والعالمي بشكل كبير. لقد تأثرت كثيرا بجودة القادة والمستشارين المجتمعين حول إردوان. بالإضافة الى

أحمد داود أوگلو، كان هناك مَن تعرّفت عليهم واحترمهم ومثلهم في مجموعات متنوعة من الأماكن، مثل عبد الله گول وعلي باباجان، المستشار الإقتصادي اللامع وكذلك إبراهيم كالين، الذي اصبح فيما بعد المستشار الرئيسي للسياسة الخارجية لإردوان. كانت تركيا حقا تستفيد الى اقصى حدّ من مجموعتين من الفرص: إطلاق العنان للنمو الإقتصادي من خلال توسيع نطاق مشاركتها في العالم العربي والى افريقيا وأمريكا اللاتينية، مع توسيع الإستثمار الأجنبي ورفع مستويات المعيشة لأدنى 20% من السكان. إنّ الشعب التركي، فضلا عن ممارسة دور مستقلّ كوسيط ومروّج للعلاقات السلمية في مجموعة متنوعة من المناطق المحيطة والمناطق الفرعية، التي كانت لتركيا فيها روابط جغرافية وثقافية وتاريخية. شمل هذا التواصل الدبلوماسي دول البلقان والقوقاز بالإضافة الى المناطق الساخنة في الشرق الأوسط مثل إسرائيل وسوريا وإيران. في جميع هذه الأوضاع، كان دور تركيا الذي لم يحظَ بالتقدير الكافي هو العمل كصانع سلام استباقي وتوفير رعاية لتسوية النزاعات وكانت محايدة فيما يتعلق بالطموح الجيوسياسي أو التوجّه الأيديولوجي. سأغامر بطرح وجهة نظر غير تقليدية الى حدّ ما تقول بأنّه ما لم يقم أيّ بلد بجهود بناءة مماثة داخل منطقته، وعلى نطاق واسع، لبناء السلام والإزدهار في الفترة التي اعقبت الحرب الثانية، لم تستفد أيّة منطقة أقلّ من نجاح هذا الجهد في الشرق الأوسط. إنّها مأساة لتركيا والشرق الأوسط بشكل عام، لأنّ ديناميكيات التدخّلات الجيوسياسية من خارج المنطقة والإضطرابات الداخلية، قد قضت على تلك الجهود الجديرة بالثناء.

لماذا إذن فشلت هذه الطموحات التركية الأكبر في تحقيق نتائج دائمة ومرتقبة؟ يستحقّ مثل هذا السؤال استقصاء علميا مفصّلا. سأقدّم هنا تفسيرين مؤقتين. أوّلا، كانت هناك لعبة قوى في المنطقة لم يستوعبها أحد بشكل صحيح بما في ذلك تركيا، على الرغم من أنّ قادتها حاولوا بجدّ أكثر من الآخرين وسعوا باستمرار الى تعزيز نتائج حلّ النزاعات دون أيّة علامات على تركيز جهودهم على تعزيز الإسلام السياسي، أو بشكل أضيق توسيع الهيمنة السّنيّة في العالم العربي. بدا الربيع العربي في عام 2011 مفضيا في البداية الى تحقيق هذه الآمال والتطلعات التركية، حيث اقترنت الحماسة الديمقراطية بتأكيد الهوية الثقافية

والدينية. كانت تركيا أوّل دولة مهمّة تظهر دعمها الحماسي لهذه التطورات غير المتوقعة. في مرحلة لاحقة، إنعكست هذه الإنجازات التي حققتها الإنتفاضات الشعبية العربية بشكل مختلف بفعل التيارات القوية المضادّة للثورة، التي اعادت ترسيخ الحكم الإستبدادي في بعض البلدان وانتجت صراعات أهلية مدمّرة وعنيفة في بلدان أخرى.

الشطر الثاني من التفسير، هو اللعب الإقليمي للقوى الجيوسياسية التي أدّت بعد الحرب الباردة الى الجهود الأمريكية لممارسة السيطرة المهيمنة من أجل تأمين إمدادات النفط باسعر معقولة ودعم المصالح الأمنية لإسرائيل والمملكة العربية السعودية. أبرزت هذه التدخّلات الأمريكية والإصطفافات الرجعية ردّ الفعل المعاكس للثورة على الإنظمة العربية ونخبها الفاسدة، التس شعرت بأنّها مهدّدة للغاية من خلال مطالب الديمقراطية واعتمادها غير الشعبي على الدعم الأمني الأمريكيّ.

في هذه الفترة، لم اشعر قط بالرضا الشخصي عن طريق الزواج والحياة الزوجية معا في بِرنستُن، وما تلاه في عام 2002 من انتقالنا الى سانتا بَربرا مع تمضية فصول الصيف في تركيا، ولكن أيضا شعور بالإثارة السياسية نتيجة كوننا على اتصال وثيق بالعديد من الشخصيات، التي دفعت قيادة حزب العدالة والتنمية الى الأمام في تركيا خلال العقد الأول من القرن الجديد. لقد اعتبرت أنّ الدور السياسي التركي هو أكثر سلسلة للتطورات السياسية والإقتصادية تفاؤلا وابتكارا وبناء بما يحدث حاليا في أيّ مكان من العالم. إنّ توجّه دعوة أحمد مليئة بالتحدّيات لتنظيم اجتماع لخبراء السياسة الخارجية والعلاقات الدولية، من الذين اختارهم من جميع انحاء العالم بعد فترة ليست طويلة من توليه وزارة الخارجية التركية في عام 2009. لقد عملت بجدّ لتحقيق نتيجة لن تكون مخيّبة للآمال. كان تجمّعا مثيرا وممتعا أقيم في فندق فورسيزُنز المواجه لمضيق البُسفور. لقد نجحت في ترتيب مشاركة العديد من الشخصيات الأكاديمية والدبلوماسية من جميع انحاء العالم، وبعضهم من الأصدقاء الشخصيين.

الحدث الوحيد، لسوء الحظّ، هو أنّ مشاركة أحمد داود أوگلو كانت محدودة للغاية بسبب حقيقة أنّ المؤتمر تزامن بشكل غير متوقع بتقاطع

غير محتمل يتعلق بمبادرة البرازيل/تركيا في عام 2010 لإيجاد حلّ متفق عليه للتوترات الإقليمية الناشئة عن برنامج إيران النووي. وبدلا من الإشادة بجهودها، وجّهت واشنطن انتقادات لتركيا لعدم «البقاء في مسارها» من الناحية الجيوسياسية، ومن خلال محاولتها تعزيز نتيجة ايجابية لازمة اقليمية استمرّت وتكثفت خلال العقد التالي. في رأيي، كان على الولايات المتحدة أن تعود الى مسارها وتسمح لمبادرة البرازيل/تركيا بالمضيّ قدما بدلا من عرقلتها. ومع ذلك، كان مؤتمرنا عند مضيق البُسفور نجاحا فكريّا كبيرا، بلور بعض الماقشات الممتازة حول القضايا الإقليمية والعالمية، ولكن للأسف لم تكن هناك متابعة، ممّا أهدر إمكاناته وقلل من تأثيره. حصلت على دور قيادي، بما في ذلك الجلوس الى جانب عبد الله گول، رئيس تركيا آنذاك، في عشاء وداع على متن سفينة سياحية في مضيق البُسفور. ما لم اتوقعه هو أنّ المُنسّق التركي للمؤتمر، بولنت آراس، سألني ونحن في منتصف العشاء، لإبداء بعض الملاحظات. لم أكن مستعدّا وربّما لم أرتقِ الى مستوى المناسبة، لكنّني القيت بعض العبارات البديهية حول الإنجازات والآمال المتعلقة بما حدث، وما قد نأمله في المستقبل.

حظيت في هذه الفترة أيضا على ادوار مهمّة في العديد من الأحداث البارزة في اسطنبول. لقد دُعيت للتحدّث في مؤتمرات مرتبطة بالقيادة التركية/الأسپانية حول **مشروع تحالف الحضارات** التابع للأمم المتحدة، والذي كان يبحث عن بديل إيجابي لسيناريو هَنتِنگتُن المتعارض عن «صراع الحضارات». جمعت المناقشات شخصيّات بارزة من المنطقة كان معظمهم أكثر تفاؤلا من الواقعية، كما اتضح. حاولت في عروضي التقديمية معالجة التفاعل بين القومية والجغرافية السياسية في التعامل مع التوترات بين الحضارات.

في عام 2011 طلبت منّي مؤسسة داود أوگلو تشكيل منتدى اسطنبول العالمي الأوّل ثم العمل كرئيس له. دعوت مجموعة متميّزة من المُثقفين التقدميين، خاصّة من البلدان النامية، الذين رحّبوا بهذه الفرصة لزيارة اسطنبول والمشاركة في حدث مواز شبه رسمي لمؤتمر الأمم المتحدة المهمّ المخصّص للدول الأقلّ نموا والذي تمت استضافته رسميّا لأوّل مرة من قبل تركيا.

في النهاية ودون أن أحاول، اصبح يُنظر اليّ الى حدّ ما في تركيا كداعم

أمريكي لإنجراف الدبلوماسية التركية ونظرتها للعالم. كانت هذه الرؤية تقريبا نتيجة صداقة مع أحمد، الذي دعاني لألعب هذه الأدوار المرئية الى حدّ ما علنا. في البداية لم يكن هذا الظهور ملحوظا بشكل خاصّ إلا داخل تركيا. ولكن مع اشتداد الإستقطاب في الفترة التي أعقبت الإنقلاب الفاشل في عام 2016، أصبحت مثيرا للجدل في الشتات التركي.

في الوقت نفسه، كنت أحاول معالجة أهمية بعض التطوّرات السياسية المقلقة. لقد واجهت أدلة متزايدة على أنّ الهجمات الجدلية السابقة على إردوان يتمّ التحقق منها بشكل متزايد من خلال لجوئه الى اسلوب الحكم الإستبدادي، ممّا يشير الى تحوّل من محاولات حقيقية سابقة لتوفير قيادة شاملة الى اسلوب أكثر تفرّدا أو اغلبية مع عواقب قمعية بشكل خاصّ للشعب، وبالذات الأصوات الناقدة للصحفيين والأكاديميين. أثار هذا التحوّل عداء خاصّا لأولئك المثقفين اللِبراليين والديمقراطيين الإجتماعيين، الذي عرضوا اعناقهم في وقت سابق من خلال الإعتراف بالنتائج الإيجابية، التي تحققت في الثماني أو التسع سنوات الأولى من قيادة حزب العدالة والتنمية. بذلت قصارى جهدي لتجنّب التخلي تماما عن موقفي من الدعم المؤهل لحزب العدالة والتنمية. وما زلت أقدّر ما تمّ تحقيقه داخل البلد والمنطقة وحتى العالم. ومع ذلك لم استطع إنكار وجود اتجاهات محلية مزعجة كانت مقلقة بشكل متزايد. شعرت أنّ ادّعائي بكوني شاهدا صادقا على مواقف عالمية مثيرة للجدل كان على المحكّ. لم اتعامل حقا مع العداء لإردوان وحزب العدالة والتنمية الذي بدا أنّه يمثّل إجماعا مشتركا ينضم الى الأزواج الغريبة للكماليين النازحين، واليسار التركي الماركسي القديم والجديد، المؤيّد للأكراد والمناهض للإستبداد واتباع Hizmet/FETO والمتعاطفين معه.

في المسار الأوسع لخبرتي الحياتية، اعتقد أنّ تركيا قدّمت تجربة تعليمية قيمة في العديد من التواحي. يمكن اختزال الخط الرئيسي للردّ الرافض والنقدي لأولئك الذين أساءت اليهم آرائي، والتي تشمل العديد من الأصدقاء الى عدة مزاعم: «أنت لا تعيش هنا، فكيف تعرف»؟ و«بصفتك غريبا أنت» فقط لا تدرك مدى سوء إردوان والحكومة التركية على أساس يومي. وربّما بدافع الأدب،

تمتموا بصوت خافت «أنت لا تتحدّث التركية لتعرف بالضبط ماذا يجري؟»

أدرك أنّـه قـد تكـون هنـاك بعض الحقيقة في هذه التعليقـات، ولكنّها ايضا تخدم الذات لأنّها لا تأخذ في الإعتبار مشـاعرهم الحزبية القوية التي تقود الى تصورّات عوراء، ورؤية السيء فقط في الإعداد الحالي ونسيان الخير أو الفشل في الإعتراف بالفشل الجسيم للسياسات في تركيا قبل حزب العدالة والتنمية، أو من قبل الجهات الفاعلة الأخرى في المنطقة. بصفتي شخصا خارجيا مُعتَرفا به، ولكن مع بعض الإرتباطات الداخلية القوية والخبرة الكبيرة في تقييم التصوّرات السياسـية الخارجية، أعتقد أنّ عزل الطرف الخارجي المطلع والجزئي له مزايا محـدّدة فـي تصويـر الحقائق السياسـية المثيـرة للجدل، بما في ذلـك قدرة أكثر توازنا لتحديد أيّة نقاط قوّة. وقد تكون نقاط الضعف موجودة بالنظر الى الميول التبسـيطية لاسـتقطاب التصوّرات. غالبا ما تكون مثل هذه النظرة شـبه المنفصلة أكثر استعدادا لإجراء مقارنات مضيئة مع الماضي التركي وفيما يتعلق بالظروف فـي بلـدان أخـرى ذات نطاق وتقاليد مماثلة، على الرغم من أنّ الكبرياء الوطنية التركية القوية لا تحبّ المقارنات.

لاقـت هـذه المقارنات اسـتياء منتقـدي الأتراك للوضـع الراهن، من الذين يعتبـرون سـقوطهم مـن النعمـة أمـرا لا يمكـن مقارنته بمـا كان يحدث في مصر وإيران. أنا اعتبر البلدين قابلين للمقارنة ويتشـاركان في العمق الثقافي والخبرة التاريخية وحجم السـكان والأقليم ومتشـابهين بدرجة كافية مع تلك الموجودة في تركيا لإجراء مقارنات مفيدة شريطة أحذ الإختلافات في الإعتبار ايضا. الرّدّ الـذي تلقيتـه مـن الأتـراك والذي أجـده غير مقنع هو الإدعاء بـأنّ تركيا احرزت تقدما دستوريا ومؤسّسيا واقتصاديا أكثر بكثير من مصر أو إيران، الى حدّ يجعل المقارنـات مضللـة، بـل ومُهينة. ومـع ذلك، ما زلت أجد هذه المقارنات مفيدة. إنّها تشجّع على الوعي بأنّ الحملة الدولية المُكثفة لتشويه سمعة تركيا تقع بين الخط المُتشدّد للغرب اتجاه إيران منذ الأحداث الثورية عام 1979، ولكنّها أكثر وضوحا منذ أن اصبح ترامپ رئيسا ونهج «لا يرى شرّا» في القمع في مصر بسبب احـداث عـام 2013، حيـث كان الإنقلاب العسـكري ملائمـا جيولوجيا ومتوافق أيديولوجيا ومرضيا لإسرائيل ولدول عربية معيّنة وللولايات المتحدة.

تعمـل هـذه المقارنـة ايضا على تذكير الأتراك بأنّه على الرغم من التعدّيات على حقوق الإنسان، لا سيّما محاولة الإنقلاب عام 2016، لا يزال هناك انفتاح أكبر في المجتمع التركي وحتى وسـائل الإعلام فيه أكثر من أيّ مكان آخر في المنطقـة، لا سـيما علـى عكـس بعض الـدول العربية المجـاورة المحافظة. هذا التعـدّي الأقـلّ خطـورة علـى الديمقراطية هـو الأكثر إثارة للإعجـاب إذا اخذنا فـي الإعتبـار حقيقـة أنّ تركيـا لديهـا أسـس حقيقية للتوتر بشـأن أمنهـا الداخلي والخارجـي. مـن بيـن هذه المخاوف اسـتمرار الإمكانـات التخريبية لحركة فتح اللـه والتداعيـات الإرهابية المختلفة من الصراعات الإقليمية والعمليات القتالية المسـتمرّة، التي يشـارك فيها حزب العمال الكردسـتاني من مناطق جبلية عراقية والعـداء الإسـرائيلي المصحـوب بعـداء بعـض انظمة الحكم العربيـة المحافظة والإسـتقبال الواضح لعناصر سياسـية مهمّة داخل البلاد. وعلى الصعيد الدولي لزعزعـة اسـتقرار تركيـا، خاصّـة إذا أدّت الـى تغيير النظـام. ردود الفعل الدولية الفاترة في الغرب عندما بدا لفترة وجيزة كما لو أنّ محاولة الإنقلاب عام 2016 ضـدّ حكومـة حليفهـا فـي الناتو قد نجحـت، كانت علامـة واضحة على عكس الدعم الصريح للحكومات الصديقة المعرّضة للتهديد الداخلي، كما كان الحال مع ايران الشاه في عام 1979، حيث لم تتمّ معارضة تغيير النظام في أنقرة بغضّ النظر عن كيفية حدوثه.

وبعيدا عن ملامح اجواء ما بعد الإنقلاب ودون التقليل من تجاوزات قيادة إردوان منذ عام 2011، لا سيّما فيما يتعلق بحرية الصحفيين وفصل اعضاء هيئات التدريس وموظفي الخدمة المدنية، من المهم تقدير استمرار إذا تراجعت الشعبية الإنتخابيـة لإردوان وحـزب العدالـة والتنميـة وغياب البدائل المسـؤولة أو ذات المصداقية والتقدّم المادي المذهل فيما يتعلق بأدنى 40% من المجتمع التركي. وهو الأمر الذي يجب أن يُدرج في أيّ تقييم لحماية حقوق الإنسان في البلاد. هذه العوامل الُإيجابية يقابلها الى حدّ ما أزمة اقتصادية عميقة وشعور بما يمكن تسـميته «إرهـاق إردوان»، وهـو الشـعور السـائد فـي تركيـا بأنّ الوقـت قد حان للتغيير. وهو شـعور أكدته بقوّة الهزيمة السـاحقة لمرشـح حزب العدالة والتنمية والترحيب بإعادة انتخاب رئيس بلدية اسطنبول في حزيران من عام 2019، داخل

تركيا وخارجها، على أنّها بداية النهاية لإردوان وائتلافه الحاكم. تضخّ احزاب المعارضة الجديدة التي يرأسها وزيرا حزب العدالة والتنمية السابقين أحمد داود أوگلو وباباجان انتقادات سياسية تشتدّ الحاجة اليها في الجسم السياسي التركي.

لقد توصّلت الى الإعتقاد بأنّه جزء من مؤامرة ضمنية لِبرالية تخدم مصالحها الذاتية المُتجذّرة في الروح الرأسمالية الفردية، التي تتغاضي عن انجازات الحقوق الإجتماعية عند تقييم سجلات الدول. أودّ الآن أن أزعم أنّه بدون النظر الى الحقوق الإجتماعية والإقتصادية، التي تشمل الفقر والتشرّد وشبكات الأمان، من المضلل تصنيف حقوق الإنسان للدول من خلال الإشارة فقط الى «الحرية والحقوق السياسية والمدنية». من المؤكّد أنّ هذه الحقوق ضروريّة، ولكنّها تتعلق على الأكثر بنسبة 20% من المجتمع، وبالتالي يبدو أنّها تؤثّر بدرجة أقلّ على الشرعية والقضايا الديمقراطية لمجتمع شامل ككلّ من تأثير الحقوق الإقتصادية والإجتماعية. أجد نفسي في خلاف مع العديد من الأصدقاء اللِبراليين، الذين يدينون بحقّ أخفاقات حقوق الإنسان لبلدان مثل الصين وڤيتنام دون الإعتراف بالإنجازات غير العادية التي يتم تحقيقها، عندما يتعلق الأمر بالتخفيف من حدّة الفقر والأعمال التدريجية للحقوق الإقتصادية والإجتماعية، والتي مقارنة بشكل إيجابي بسجلات نماذجهم اللِبرالية للديمقراطية الدستورية في العديد من الدول الغربية. هذا لا يعني أنّني لا أعترف بأنّ قمع الحقوق السياسية والمدنية يقلل بشكل كبير من الجودة الشاملة للنظام السياسي الديمقراطي، وبالتالي يكون له تأثيرأوسع على الرفاهية ممّا يتمّ تقييمه من خلال النظر فقط في الآثار على اولئك السياسيين والحقوق المدنية التي تمّ تقليصها.

إنّ آرائي المتطرفة حول التطوّرات السياسية التركية في فترة حزب العدالة والتنمية هي رمز لنضالي. يتمّ الحفاظ عليها بتكلفة إجتماعية ويُفقدها الخصوم مصداقيتها، أوّلا من خلال المبالغة فيها وإساءة فهمها، ثمّ من خلال رفضها. إعترضت هِليل أحيانا على جهودي للنظر في إيجابيات وسلبيات حزب العدالة والتنمية، وتكافح هي نفسها لإيجاد توازن بين خلفيتها العلمانية وشعورها بتركيا السياسية، التي لم تولِد لحدّ الآن بدائل موثوقة لإردوان.

أجد في بعض النواحي أوجه تشابه مع موقفي اتجاه ترامپ والترامپية. ومرة

أخـرى اسـتعدادا للنظـر في الإيجابيات والسـلبيات، علـى الرغم من أنّ الجانب المؤيد يتطلب بشـكل متزايد فعل إرادة من جانبي. نظرا لمدى إضعاف ترامپ إجماع الحزبين بشأن السياسة الخارجية وقاوم أسوأ إثارة للحرب، فإنّه يستحقّ الثنـاء علـى الرغـم مـن عـدم وجود دليل على أنّه يعرف مـا كان يفعله. قد يكون الرئيس الديمقراطي المناهض لروسـيا أسـوأ بالنسـبة للعالم، على الرغم من أنّ إعادة انتخاب ترامپ ستكون أمرا مروّعا لأمريكا وحقوق الإنسان والأشخاص الملونين ومسـتقبل الديمقراطية، فضلا عن كونه خطرا خطيرا. كنّا شـهودا على الأخذ والرّدّ والمراوغة عند معالجة التحدّيات العالمية والإقليمية، حدّ المستوى الذي اعطى الضوء الأخضر السـاطع للتوسّـع الإسـرائيلي والعديد من العناقات المادية والسياسية للحكّام المستبدّين في جميع انحاء العالم.

محاولة الإنقلاب في 15 تموز من عام 2016

بالنسـبة لـي ولِهليـل، بـدأ هـذا اليـوم بطريقـة عاديّة تقريبا. كانـت هذه هي المرّة الأولى التي نأتي فيها الى اسطنبول من منزلنا في ياليكافاك في شبه جزيرة بودروم منذ وصولنا الى تركيا في شهر حزيران الماضي. أتينا الى اسطنبول بعد رحلة قصيرة بالطائرة للمشاركة في مؤتمر في جامعة كَوچ المخصّص للآجئين السوريين وأزمة المهاجرين الأوروپيّة، المقرّر عقده في اليوم التالي، والذي تمّ إدراجي فيه كمتحدّث رئيسـي. لضمان وصولنا في الوقت المحدّد في الصباح، تمّ وضعنا في فندق في الليلة السابقة على الجانب الأوروپيّ من مضيق البُسفور في حيّ كاديكوي. ذهبنا نتجوّل في الحيّ قبل العشـاء على طول الشـوارع التي تصطف على جانبيها المقاهي المزدحمة المليئة بالشباب الذين يحتفلون بشكل عرضـي بليلـة منتصـف الصيف الدافئة. توقفنا في مطعم يوناني والتقينا باصدقاء دعونـا للإنضمـام اليهـم. عندمـا اقتربنا مـن وقت تناول الحلوى بعد الإسـتمتاع بالطعام الممتاز، جاء مدير المطعم الى طاولتنا ونصحنا بتكتّم بالعودة الى منازلنا، لحدوث حركة انقلابية عسكرية جارية في ذلك المساء. قال لنا إنّ الجسور فوق مضيق البُسفور قد احتلها افراد من الجيش والدبابات المعارضة للحكومة، وأنّ طلقات ناريّة قد سُمعت.

أخذنا بالنصيحة وكانت لدينا مشاعر تخوّف وفضول شديدة. اعتقد أنّ غرفتنا كانت في الطابق السابع من الفندق، وربّما كانت في طابق أعلى. لم يمض وقت طويل حتى سمعنا الضوضاء المرعبة التي احدثتها طائرات F-16 وهي تكسر الحاجز الصوتي اثناء الطيران على ارتفاعات منخفضة مرارا وتكرارا بالقرب من فندقنا. ومن الواضح أنّها حاولت التسبّب في خلق حالة من الذعر في اسطنبول. لقد شعرنا بالخوف والعجز. بينما استمرت هذه الديناميكية، شاهدنا التلفزيون محاولين فهم أكبر قدر ممكن لما كان يجري، وشعرنا أنّ هذا كان حدثا تاريخيّا. في البداية، كان ممثلو الإنقلاب أمام الكامِرات يقرؤون بيانات النصر ويطمّنون الجمهور بأنّ النظام سيعود قريبا. بعد ذلك جاءت رسالة إردوان الدرامية عِبر فَيس تايم، التي حثّ فيها انصاره والموالين للدستوريّة التركية على الخروج الى الشوارع وساحات المدينة والتجمّع في مطار أتاتورك في اسطنبول للإحتجاج على محاولة الإنقلاب هذه والإطاحة بحكومة مُنتخبَة. كان هذا البثّ هو نقطة التحوّل، حيث وصل إردوان الى اسطنبول بعد ساعة واحدة على متن طائرة من مدينة مرماريس بجنوب تركيا، بعد أن نجا على ما يبدو من محاولة اختطاف أو اغتيال اثناء وجوده هناك مع اسرته في إجازة.

شكر اردوان الجماهير التركية المتجمّعة في المطار على الدعم، وانتهى الإنقلاب بالسرعة التي بدأ بها، مع بوادر الوحدة الوطنية، التي عبّرت عنها الأحزاب السياسية الرئيسية، بما في ذلك المعارضون لحزب العدالة والتنمية وحتى حزب الشعب الديمقراطي الكردي. ما تبع ذلك كان في البداية شعور بالإرتياح الى جانب الإتهامات الغاضبة لحركة فتح الله، التي سُمّيت على الفور إرهابية وتمّ تصنيفها بشكل مهين FETO. كان لدينا عدد قليل من الأصدقاء المناهضين لحزب العدالة والتنمية، الذين شكّكوا في التفسير الرسمي للأحداث معربين عن اعتقدهم أنّه كان «إنقلابا مسرحيّا»، نفذته الحكومة لخلق ذرائع مفيدة في سعيها لتجميع سلطة أكبر للمُرشد الأعلى. ومع ذلك، فقد قبِل الأتراك، بعد ذلك الخطوط العريضة للرواية الرسمية، بما في ذلك قادة مختلف الفصائل المناهضة لإردوان، وإن لم يكن كافة اعضائها.

كان هناك عرض مشجّع للوحدة الوطنية في الأيام التي اعقبت الإنقلاب

مباشرة، بما في ذلك ملصقات كبيرة لأتاتورك في مظاهرات حزب العدالة والتنمية لِلإشارة الى أنّ جميع الأتراك، سواء من الحزب الحاكم أو المعارضة الكمالية، كانوا معا في حماية البلاد من تلك المحاولة. لقد وجدت هذا العرض المبكّر للوحدة بعد سنوات من الإستقطاب علامة رائعة على مدى نضج المجتمع التركي. أعترف بأنّني فوجئت بتذكّر عدد الذين انتظروا حدوث انقلاب في سنوات حزب العدالة والتنمية المبكّرة. هذا التغيير في المواقف في البلاد، على الرغم من أنّه مؤقت، يمكن القول أنّه لم يتلقَ أبدا التعليق أو التحليل الذي يستحقّه.

سرعان ما بدأت مرحلة جديدة من الإتهامات والتطهير، والتي غذّتها جزئيا مخاوف حقيقية من أنّ قوّات فتح الله گولِن الإرهابية لا تزال لديها القدرة على شنّ محاولة إنقلابية ثانية، خاصّة إذا كانت المساعدة الخارجية وشيكة هذه المرة. وجزئيا من المشاعر الإنتقامية اتجاه أولئك الذين يُعتبرون عديمي الولاء من خلال الإرتباط بأيّ شكل من الأشكال، حتى من الناحية الفكرية والسلبية بحركة FETO. كان حجم عمليات التطهير الناتجة عن ذلك غير مُبرّر، حيث تضمّنت سجن أو فصل آلاف الموظفين الحكوميين، لا سيّما في الشرطة والقضاء والقوات المسلحة. وكذلك أيضا في المؤسسات التعليمية الحكومية ووسائل الإعلام. من الواضح أنّه كان ردّ فعل مبالغ فيه، حتى مع الإعتراف بوجود تهديدات أمنية حقيقية. وبالتالي، من الحكمة أن تعتقد الحكومة أنّ هذه التهديدات قد تتحقق إذا بدت الحكومة ضعيفة الى حدّ ما. مع أخذ جميع الظروف في الإعتبار، بالغت الدولة التركية في ردّ فعلها، ولكن بطريقة مماثلة للدول التي تواجه تهديدات أمنية داخلية لا يمكن تحديدها وإزالتها بوضوح.

لاحظ الكثيرون في تركيا السجلّ الطويل لمشاركة وكالة المخابرات المركزيّة ودعمها لرئيس منظمة گولِن الإرهابية، فتح الله گولِن، القائد المُبهم والمُطلق للحركة على ما يبدو. وجد الأتراك أنّه من المريب أنّ وكالة المخابرات المركزية ضغطت قبل عشرين عاما للحصول على تصريح إقامة «البطاقة الخضراء» لفتح الله حين سعى للجوء في الولايات المتحدة، وتمكّن من التغلب على معارضة مكتب التحقيقات الفدرالي ووزارة الخارجية. كان

مـن الواضـح أيضـا أنّ الديمقراطيات اللِبراليـة في الغرب لم تُعبّر عن دعم قوي للحكومة المُنتخبة ديمقراطيا في تركيا خلال الإنقلاب في تموز. كان هذا صادما الـى حـدّ مـا بالنظـر الـى أنّ تركيا كانت منـذ فترة طويلة عضوا رئيسـيا في الناتو وتحكمهـا حكومـة لهـا علاقات قوية مع أوروپا وامريكا الشـمالية. مع تكشّـف محاولة الإنقلاب، بدا أنّ الديمقراطيات اللِبرالية تتبنّى موقف الإنتظار والترقّب، لا يختلف عن ردّها على انقلاب السيسـي قبل ثلاث سـنوات في مصر، والذي تخلص من حكومة كانت على خلاف قويّ مع قوى الخليج المحافظة وإسرائيل، وبشـكل غير مباشـر مع الولايات المتحدة. في تركيا، وفي ظلّ ظروف مختلفة للغاية، فشلت محاولة الإنقلاب، لكنّ عدم وجود أيّ إظهار للتضامن من جانب شركائها في الناتو، هزّ بالتأكيد ثقة تركيا في قيمة التحالف وعلاقتها مع الولايات المتحدة، ممّا حفّز الإستكشافات لتحالفات دولية جديدة، استمرّت حتى الوقت الحاضـر فـي إيقـاع مـدّ وجزر. وكما هو متوقع، تبع ذلـك دورة عمل وردّ فعل، حيث أدّت كلّ خطوة تركية نحو إعادة الإصطفاف الى تحفيز التأكيدات بأنّه لم يعد من الممكن الإعتماد على تركيا في إطار الناتو.

بطبيعة الحال في مواقف من هذا النوع، يسمح المواطنون العاديّون للعديد من التفسيرات المتناقضة، والجو مليء بتخمينات المؤامرة، ومعظم الناس لديهم القليل من الأدلة القويّة لمعرفة ما هو صحيح وما هو خطأ، ممّا يجعل معظمهم يتراجعـون عـن ميولهـم. لا يـزال واقع أحداث عـام 2016 يكتنفه الضباب، الذي خلقتـه القـراءات الحزبيـة، بِدأ مـن مؤامرة امريكية عميقة جاءت بنتائج عكسـية الـى نظريـات مؤامـرة حول «إنقلاب مسـرحي» رتبته أنقرة لتعبئة الوحدة الوطنية وتصويـر أردوان علـى أنّـه المنقـذ للأمة. حتـى الآن، يبدو أنّه لا توجد إعادة بناء نهائية للأحداث في تلك الليلة المصيرية. بعد قولي هذا، كُنّا شهودا على ما كان بلا شكّ يمثل لحظة ثوريّة كبرى في التاريخ التركي بالإضافة الى إضعاف أسس العلاقات التركية مع الولايات المتحدة وأوروپا بشكل دائم.

تركّزت الأزمة السياسية في البداية على الطلب التركي بأن تُسلم الولايات المتحـدة العقـلَ المُدبّـرَ لمنظمـة گولِـن الإرهابيـة، المُتّهم فتح اللـه گولِن، الى السلطات التركية لمحاكمته جنائيا. رفضت واشنطن هذا الطلب، إمّا بسبب القلق

ممّا قد يكشفه هذا الزعيم فيما يتعلق بصلات الولايات المتحدة بالأحداث، أو لأنّ الأدلة التي تبرّر تسليمه، والتي قدّمتها الحكومة التركية، لم تكن كافية، أو رُبّما مزيجا من الإثنين. سرعان ما ظهرت قضايا أخرى من بينها اختلاف الأولويات في الحرب السوريّة بين داعش ونظام الأسد والقوات الكرديّة السوريّة المتطرفة، فضلا عن تضارب الآراء حول العلاقات مع إيران وروسيا. في الوقت نفسه، تمّ اجراء بعض الإصلاحات أيضا منذ عام 2016، ممّا جعل التوجّه المستقبلي لتركيا غير مؤكّد تماما فيما يتعلق بمواءمتها وتوقعاتها الحكومية، لا سيما ما إذا كانت تميل نحو موسكو أكثر من واشنطن في المستقبل القريب. على الرغم من تورّطها في القتال على الجانبين المتعارضين في سوريا وليبيا، يخلق الخيار الروسي إشكالية لأنقرة حاليا.

ما تعلمته (أو اعتقدت أنّني فعلته)

لقد منحني الإقتراب من التطوّرات التركية خلال هذه الفترة التي تزيد عن 20 عاما، حبّ البلاد والإعتراف بانشقاقاتها العميقة ومستقبلها غير المؤكّد. إنّ معرفة العلاقات الشخصية العميقة والشعور بها مع أولئك الموجودين على جانبي هذه الصدوع يجعلني أهتمّ بشدّة في مستقبل تركيا بقلب وعقل. من المحتمل أن تكون مثل هذه الدولة الواعدة بأبعادها العديدة، لدرجة أنّها يمكن أن توفّر الأساس الملهم لمستقبل إيجابي في جميع انحاء المنطقة. ومع ذلك، قد تنفجر البلاد في أيّ وقت، وربّما تكون ضحية تضخيم التوترات الداخلية من قبل مجموعة متنوّعة من التدخّلات الإقليمية والعالمية المحتملة، أو نتيجة نوع من الأزمات الإقتصادية التي تؤدي الى الإنهيار المالي.

كانت تركيا بالنسبة لي، تجربة تعليمية من البداية حتى اللحظة الحالية، وبلا شكّ لما تبقى من حياتي. لقد شاهدت هؤلاء الأشخاص الموهوبين والديناميكيين يكافحون لاستعادة ماضيهم وخلق مستقبل يحقق إمكاناتهم. لم ينتَهِ بعد هذا الصراع على نفوذ تركيا. إنّه مستمرّ وقد تخبر نتائجه الكثير عن مستقبل المنطقة وحتى العالم. لا تزال المراحل التالية من التطوّر السياسي التركي بحاجة الى تحديد وعرض مجموعة التأثيرات الإيجابية والسلبية. أحتفظ

بالأمل في أن يتكشّف المستقبل التركي ليُصبح مجيدا مثل أفضل أيامه الماضية. وعلى المستوى الشخصي، آمل أن يتمّ قبولي في تركيا كصديق ملتزم بالشعب التركي وحضارته العظيمة، وأن يكون هذا الموقف، هو الذي تنبثق منه آرائي ويتمّ الحكم عليها.

القسم الخامس

إستكشافات المواطن الملتزم المتنقل

«العالم خطير للغاية على أيّ شيء سوى الحقيقة، وصغير جدّا على أيّ شيء سوى الحب».

وليم سلَون كَوفِن، الإبن.

تطوّرت حياتي المهنيّة والسياسية على طول مسافات متقاربة بشكل متزايد. شــعرت أنّني كنت اتعلم فهم العالـم بشــكل افضل على اساس انشطتي العلمية والتعليمية وتعلمت أن اتصرّف بمزيد من المعرفة عندما تتكشّــف رحلة حياتي كمواطــن ملتزم، أو ما يُســمّى في كثير من الأحيــان «المثقف العام» A Public Intellectual. يتوجّــب وعلى مراحل أن تثق بالقلب بقدر ما تثق بالعقل أو أكثر، مع السعي دائما الى الإنسجام بين الإثنين مع ترك المكان والزمان للروح، أي أن تتدخّل الروحانية وتتجاوزطاقات خارجة عن إرادتي.اصبحت على ثقة من التآزر الذي نتج عن مثل هذا التقبّل.

في بعض الأحيان، يســألني الطلبة الذين يوشــكون على التخرّج أو الزملاء الأصغر ســنّا، ســؤالا كنت اطرحه على نفسي بشكل دوري، «ماذا افعل بحياتي حتى يكون لها تأثير؟» لقد سُئلت عدة مرّات، «كيف يمكنني أن أصبح مثلك؟» بما أنّني احتفظت ببعض مخاوف المراهقين من عدم الأمان، كنت محرجا قليلا من مثل هذه الإستفسارات، بينما أفكّر ولكن دون أن اقول، «لاسمح الله»، أنّني أجبت بشكل محرج، واحيانا أعيد السؤال بالقول، «أنت فقط من يستطيع الإجابة، وربّما يســاعدك ذلك في مشــاهدة الآخرين والإستماع اليهم. ولكنّك في النهاية تعيش حياتك بمفردك، وعادة ما يســاعد جعل حياتك مرضية لنفســك في ضوء ارضاء الآخرين. أولئك الذي يستمتعون بما يفعلونه وكيف يعيشون، يميلون الى أن يكونوا أكثر ثباتا، ممّا يؤدي غالبا الى مزيد من الفعالية والتعاطف والشــعور بالرضا، ويبدو أنّهم أقلّ عرضة للإرهاق والسخرية. الفرح واللعب والأحلام هي مكوّنات اساســية للفعالية والرضــا والحفاظ على الحب». في العالم المعاصر، يتعلــق الأمر بالإنفتاح على الأبعــاد الأخلاقية والعاطفيــة والجمالية والروحية للحيــاة، فضلا عن عدم الخوف مــن الإنغماس في دوافع المتعة المعتدلة. ومن

خلال التجربة والخطأ استمر في اكتشاف وإعادة اكتشاف التوازنات الناجحة.

عندما افكّر في هذه التأملات، أذهلني امتياز البيض الذي امتلكه للعيش لمدة تسعة عقود خالية من الضغوط الحادّة من الحرمان والقمع والإكتئاب والمرض. تبدو اختياراتي في الحياة بهذا المعنى البدائي، رفاهية عظيمة أخذتها كأمر مسلّم به حتى اصبحت مدركا لذاتي بما يكفي لأدرِكَ أنّني كنت محظوظا بشــكل غير عاديّ. بعد أن عشــت بــدون الحاح الإحتياجات الماديّــة والتحدّيات الصحيّة ومآســي الكبار التي تحلّ بأحبّائهم، ســمحت لي بتخصيص مســاحة للرغبات والمســؤوليات وحتى التخيّلات. إنّني أدرك أنّ قلة قليلة منّا يتمتعون بمثل هذه الحرية لمتابعة أحلامهم، ومن بين أولئك المحظوظين، قلة منهم تكون في حالة تأهّب روحيّا بما يكفي لاغتنام الفرصة. وبدلا من ذلك، يسير معظمنا بلا تفكير الى الأمام على طرق موصوفة بشــكل غير شــخصي بحثا عن المكانة والرفاهية والإحترام المجتمعي، وإذا كان المرء محظوظا، فإنّه يحقق ارضاء الحياة الأسرية والتحولات الثقافية.

ما زلت غير متأكّد ممّا مكّنني من الإستفادة من هذه الحريات البدائية، التي تقع خارج فلك شرائع الحكم الصالح، لكنّها في صميم حياة مكتملة.

ربّما في حالتي كانت عملية النضج البطيئة هي جزء من القصة. لقد نشأت دون ضغــط التقاليد العرقية والقبلية أو النماذج الأبوية المتوافقة. لقد دفعني هذا الى الإنجراف بلا هدف لسنوات عديدة الى أن اصبح قويّا بدرجة كافية لتوضيح طريقي. بحلول الوقت الذي اسـيقظت فيه بما يكفي لأشــعر وأفكّر واتصرّف بنفســي، اصبحت أكثر وعيا بمتع العقل والجســد والقلب، بالإضافة الى القيود الخانقة على الحياة الجماعية المنظمة التي تقيّدها الأنماط المجتمعيّة للتوافق.

صديقــي بِل كَوفِن، أحد الشــخصيات الدينية العظيمــة في النصف الثاني مــن القرن العشــرين، كانت لديه موهبة عظيمة فــي العثور على عبارات مضيئة وجذّابة لفهم الحالة البشريّة عن طريق ثنائيّات بسيطة تجعلنا نرى بوضوح أكثر ما هو حيويّ وكيف يرتبط بحرية التصرّف في العالم جســديّا وعاطفيّا. في هذا

السياق، فإنّ إصراره على اليقظة للظلم والإنتباه كما يسترشد بالحب ويعبّر بإيجاز عـــن واجب عاطفـــي؛ أن تكون محاطا بقبول مؤكّد للآخرين بروح من التعاطف والمساواة. بالحديث عن تجربتي الخاصّة والعامّة، فإنّ الحبّ ليس حبّا ما لم تكن الإختلافات مشـــروطة بروح سائدة من المساواة ويشوبها التعاطف غير المرتبط باصـــدار الأحـــكام علـــى الآخريـــن Non–Judgmental Empathy، مع الإعتراف بالإستحقاق العالمي لكرامة الإنسانية. إختتم الشاعر آودن إحدى أجمل قصائده بالتعبير عن مشاعر مماثلة، «يجب أن نحبّ بعضنا البعض أو نموت».

ومع ذلك، فإنّ الحبّ بدون التزامات ملموسة لمحاولة التخفيف من معاناة الآخرين هو طريق مسدود في العصر الجديد. «أخذ معاناة الآخرين على محمل الجدّ»، كما قال صديقي أوبَندا باكسي، أصبح شعاري، حيث أنقذني من الرضا عن الذات الذي كان يمكن أن يكون قدري بعد اكتشاف مكاني المريح في الحياة الأكاديميّة. بطريقة ما، كانت ردود الفعل الغريزية ضدّ القســـوة والقمع والعُنف وعدم المســـاواة في العالم في ســـياق التدريس والمنح الدراســـية بحاجة الى أن تُستكمَل بالتصرّف في عالم الحياة. ذكّرت نفسي على مرّ السنين بالكتابات التي رأيتها على الجدران في مدينة ســـياتل، «الفكر بدون فعل يســـاوي صفرا!» كنت طموحا من الناحية الأخلاقية بما يكفي لأرغب في أن يبرّر النقش على شـــاهدة قبري، «كان أكبر من الصفر!»

إنّ المسارات التاريخية للعديد من الإتجاهات العالمية مع اقتراب حياتي من نهايتها تجعلني اتساءل عمّا إذا كان احد بيننا قد أحدث فرقا فيما يتعلق بالتغلب على الأزمة البايولوجية الأخلاقية والبيئية، التي تهدّد مستقبل البشرية، بغضّ النظر عن مدى صعوبة المحاولة.

الفصل السادس عشر

إشراك العالم فكريّاً: مخاوف ورغبات وآمال

«الشعب بلا رؤية يموت»

لمحة عن النشاط الفكري: الأفكار تأتي بالأفعال

لست متأكّدا من الوقت الذي بدأت فيه القلق بجديّة بشأن المستقبل البشري كموضوع للتأمل الشخصي وكموضوع للبحث العلمي. ربّما تكون البذور قد زُرِعت خلال تجربتي الجامعية في الأدب والفكر الديني ومقرّرات الفلسفة التي تلقيتها خلال العامين الأخيرين في جامعة پَنسِلڤينيا، لا سيّما الكتابة عن كافكا وريلكه، ومواجهة التحدّي المتمثّل في تأليف «ديني» على شكل تقارير اسبوعية قصيرة حول موضوعات مخصّصة مثل الطبيعة البشرية والخير والشرّ والتعالي. تمّ تشكيل اهتماماتي الدنيوية بعد ذلك بوقت قصير استجابة للتنظير القانوني لتجربتي مع الأستاذين مَكدوگَل ولاسوَيل في جامعة يّيل. ثم اعقبها تبنّي وجهات نظر تقدّمية للعالم خلال سنوات عملي في جامعة ولاية أوهايو، كعضو هيئة تدريس ناشئ في كلية الحقوق بها. كان التأثير بواسطة شخصين من الهيئة الأكاديمية وخارجها، والتأييد المتعلق إلى حدّ كبير بالمخاوف المتصلة بالحوكمة العالمية Global Governance وخطر الأسلحة النووية، على النحو الذي صُوّر في حياتي من قبل شخصين مخلصين اصبحا أقرب الأصدقاء، وهما شاؤل مِندلوڤِتز ودَيڤِد كريگر. إرتبطت هذه الصداقات بتعاوني الوثيق في المشاريع التي كرّس كلّ منهما حياته لتحقيقها. في حالة شاؤل كان ما اطلق عليه

«الحوكمة العالمية الإنسانية»، جوهر المشروع الذي قاده وله إسم غير مألوف لمشروع نماذج النظام العالمي أو WOMP. في حالة دَيڤِد، تمّ تنفيذ العمل المكرّس لإلغاء الأسلحة النووية تحت رعاية مؤسسة السلام في العصر النووي NAPF. وغنيّ عن القول، أنّه لم يتمّ تحقيق أيّ من الأهداف الجديرة بالثناء، بل أنّ إمكانية تحقيقها تراجعت أكثر، وهو الأمر الذي أثار في ذهني سؤالا تخريبي Subversive Question عمّا إذا كانت «تلك الإخفاقات جديرة بالإهتمام؟» اعتقد أنّها كذلك. يجب أن نكون مستعدّين لمواصلة الفشل إذا أردنا التمسّك بآمال النجاح في وقت ما.

دفع شاؤل بقوة فكرة أنّ نظام الحرب هو آلة يوم القيامة التي لا يمكن إدارتها بأمان إلا من قبَل حكومة عالمية. بالنسبة لشاؤل، تشكّل الأسلحة النووية أكثر مظاهر الحرب خطورة وهي عرض مرعب ولكنها ليست العلة. تصارعت طوال حياتي مع ترتيب هذا الإحساس بالأولويات، بين الحرب باعتبارها التحدّي الأساسي مقابل الأسلحة النووية باعتبارها الخطر المروّع، الذي يجب إعطاؤه الأولوية في الوقت والإهتمام. شعرت في بعض الأحيان وبطريقة ما في اوقات اخرى وبطريقة أخرى لإدراك أنّ الهدفين مترابطين بطرق متعدّدة. إنّ جزء من المحنة البشرية هو عدم اليقين المحيط بالمخاطر النسبيّة التي تتعلق باختيارات من هذا النوع. يعتمد الواقعيون على القوّة التعويضية لاحتواء المخاطر، بينما يصرّ الإنسانيّون على القانون الدولي والأمم المتحدة واتفاقيات نزع السلاح المُتفاوَض عليها. هذه التطلعات الإنسانية التي أؤمن بها تفتقر الى الجاذبية السياسية دون ظهور وإنشاء مجتمع داعم عابر للحدود، ولم يحدث هذا بعد في حياتي. نتيجة لذلك، تساعدنا المجتمعات الوطنية التي يقوم فيها الفكر الواقعي في الفهم الجزئي، لماذا تظلّ الهياكل المُعيبة للأممية منيعة أمام النقد أو الجهود المبذولة لعولمة الإصلاحات.

أدت هذه المخاوف الى نشوء علاقة تعاون طويلة مع شاؤل ولاحقا مع دَيڤِد كريگر، الرئيس المؤسس لمنظمة السلام في العصر النووي. كلاهما «صليبيان» Crusaders مُكرسين للحياة ولم يحيدا أبدا عن تفسيراتهما المهووسة لما كان أكثر من السمة اللاأخلاقية وغير المستدامة للترتيبات السياسية التي تحكم العالم

حاليّـا. لقـد قـاوم كلّ منهما تقديم تنـازلات للتداخل عدا قول «نعم»، بالطبع أنّ الحرب والأسـلحة النووية مرتبطتان. إعتقد شـاؤل أنه إذا أزلنا الحرب، فسيتمّ التعامـل مـع تهديـد الأسـلحة النووية على طول الطريق، واقتـرن ذلك بالإعتقاد بأنّه لا يمكن الوصول الى هذا الهدف بأمان والمحافظة عليه إلّا إذا تمّ تشـكيل حكومـة عالميـة لهـذا الغرض. كان دَيڤِد مقتنعـا تماما بأنّ إلحاح الخطر النووي لا يمكن تأجيله حتى تصبح العملية الأعمق والأطول لإزالة الحرب من المشهد السياسي تعهّدا قابلا للتطبيق. إنّه مقتنع بأنّ عملية نزع السلاح النووي المضمّنة في نظام معاهدة عالمي يحتوي على مراقبة وقدرات إنقاذ، يمكن أن تحافظ على البشرية في مستقبل مروّع. لم يكن أيّ منهما متقبّلا لمقاربات أكثر شمولا تتناول الحرب والأسـلحة النووية في نفس الوقت. كنت منخرطا في مسـاعدة الإثنين بشكل مركزي الى حدّ ما، حيث ترأست مشاركة أمريكا الشمالية في شبكة شاؤل العلمية العالمية وكنت رئيسا لمجلس إدارة المعهد النووي لمؤسسة عصر السلام لما يقرب من عقد من الزمن، واستمرّيت في العمل كنائب أوّل للرئيس.

يتمتـع شـاؤل ودَيڤِـد بالـدفء والصـدق والـذكاء وهما مطلعـان وملتزمان تماما برؤيتهما الخاصّة. كان شـاؤل رائدا ممتازا للأفكار ولديه موهبة في جمع التبرّعات. ونتيجة لذلك كان قادرا على بدء **مشروع النظام العالمي** الطموح. لم يتردّد أبدا في قناعاته طوال حياته الطويلة بأنّ الحرب هي المشكلة وأنّ حكومة العالـم هـي الحلّ. لم ينجح أبدا في الحصول على منحة دراسـية للتفرّغ تتوافق مع ذكائه أو قناعاته العاطفية. وبدلا من ذلك، قام بربط عربته بالسـلام العالمي من خلال القانون الدولي، وهو تصوّر تفصيلي للأمم المتحدة المعزّز بشكل كبير أو اشكال الفدرالية العالمية أو حكومة عالمية يتمّ وضعها كمواجهة شاملة لميثاق الأمم المتحدة. شارك في تأليف هذا التصوّر گرينفيلد كلارك، وهو محام ناجح في وولت ستريت ويتمتع بمكانة اجتماعية عالية وأراد من الحياة أكثر من المال والهيبة. وكان معه لِويس سَـوون، وهو لاجئ من پولندا اصبح اسـتاذا في كلية الحقوق بجامعة هارڤَرد متخصّصا في الأمم المتحدة. أدرك كلارك وسَوون أنّ هناك قلة بيننا ممّن يعتقدون أنّ مخططات الحكم العالمية هذه هي بدائل عملية ومرغوبة للنظام العالمي الذي تديره الدول القومية ذات السيادة. لم يَرُق لي قطّ

نهجهم هذا، وقد كان الأمر قانونيّا للغاية وغير سياسي من وجهة نظري ويبدو أنّه يفترض أنّ الزخم السياسي سيتبع بشكل طبيعي إذا تمّ تقديم حجّة عقلانية قويّة للتغلب على نظام عالمي يتمحور حول الدولة. لم أصدّق أبدا أنّ الترتيبات السياسية سوف تستجيب للحسابات العقلانية، حتى لو جادلنا بشكل مقنع. كنت أكثر ميلا لتأييد ودعم افكار النضال الشعبي والصراع المتأصّل كجوانب من الحالة الإنسانية التي تربط التغيّرات الدراماتيكية في الهياكل السياسية بالثورات من اعماق سطح الحياة الطبيعية المجتمعية، وعادة ما تنفجِر بغضب غير متوقع. شعرت في هذا الصدد، أنّ النظام والإستقرار جاءا من النُخب والحكّام، في حين أنّ التغيّرات الإقتصادية والإجتماعية الجذريّة جاءت من السخط الجماهيري الذي تصاعد بشكل غامض للتحدّيات الثورية للنظام القائم.

في إطار رغبته في جلب رؤية كلارك/سَوون الى الواقع السياسي، أقنع شاؤل هاري هَولِنز، أحد اعضاء WASP الساخطين في وول ستريت والمتحمس لِگرينفيلد كلارك لإيجاد الأموال اللازمة لأنجاز حكومة عالمية. كان هاري، وهو رجل لطيف ومتواضع، مقتنعا بحماس شاؤل ومكانة گرينفيلد كلارك الإجتماعية أنّه من الممكن توسيع الدعم الدولي بشكل كبير لحكومة العالم، ولكنّ القيام بذلك تطلّب تأييد الأفكار والمقترحات ودعمها خارج الولايات المتحدة والغرب. كانت الفكرة الأساسية للمشروع هي تحفيز البحث الأكاديمي عبر الوطني في متطلبات نظام السلام العالمي، والذي اعتقد هؤلاء الأكاديميون البارزون أنّه سيقود بشكل غير مباشر في اتجاه كلارك/سَوون للحوكمة العالمية. كان شاؤل ذا افكار وذكيّا بدرجة كافية ليعرف أنّه لا يمكنه الترويج لخطة كلارك/ سَوون كحلّ مُتفق عليه مُسبقا، بدون تجنيد مشاركين أكاديميين من الدرجة الأولى من خلفيات غير غربية. يجب أن يكون هناك انفتاح ودعوة للحوار والوعد بالأخذ والردّ.

إثر العديد من المناقشات، رأى المشروع النور في صورة نماذج النظام العالمي المعروف باسم WOMP. بعد السفر حول العالم، تمكّن شاؤل من جمع كبار المفكّرين العامّين من مجموعة متنوّعة من المواقع الوطنية والإقليمية حول العالم للتفكير في مستقبل النظام العالمي. إستمرّت الإجتماعات لأكثر

من ثلاثة عقود تقريبا، وخصّصت لمجموعة متنوّعة من الإهتمامات المواضعية (مثل الإقتصاد العالمي والأمم المتحدة والحرب وحقوق الإنسان والتكنولوجيا والتنمية والقانون الدولي والمشاعات العالمية Global Commons وحماية البيئة والنمو السكاني). على أساس هذه المناقشات والأوراق البحثية، وافق كلّ مشارك رئيسي على وضع كتاب يُحدّد رؤيته لمستقبل يمكن انجازه ومرغوب فيه. نُشِرت هذه الكتب خلال السبعينات في سلسلة سُمّيت «اليوتوبيا ذات الصلة لحقبة التسعينات». غالبا ما سأل المشكّكون عن «ذات الصلة بماذا؟» وحتى المؤيد الشغوف كان سيستغني عن «ذات الصلة» واستبدال العنوان آخر أقلّ تفاؤلا مثل «نحو مستقبل سلمي وعادل ومسؤول بيئيّا».

على الرغم من ظهور الكتب، إلا أنّ فترة التسعينات قد ولت منذ فترة طويلة، وحتّى الناقد الودود يميل الى وصف السعي بأنّه «يوتوبيا غير ملائمة لحقبة التسعينات». وإذا تمّ تصوّرها جيّدا، فهل هذه الكتب حقا غير ذات صلة إذا أظهر المستقبل المُتخيّل وعيا سياسيا متعاطفا وخلّاقا؟

لقد تعلمت من تجربتي في WOMP، على الرغم من عدم مشاركة شاؤل في آماله في نتائجها الموضوعية. كانت مساهمتي الخاصة في المشروع بعنوان **دراسة عوالم المستقبل**، التي نُشِرت عام 1975. لقد اصبحت قلقا بشأن التلوّث البيئي والضغط السّكاني وتوافر الموارد، التي تتنافس مع الحرب كتهديدات لرفاهية الإنسان. أثّر هذا على مساهماتي في WOMP، وقادني قبل بضع سنوات لكتابة مقالة بعنوان **هذا الكوكب المهدّد بالإنقراض: الآفاق والمقترحات لبقاء الإنسان.**

دفع شاؤل بعناد أجندته الأيديولوجية، مدّعيا السلطة على دوره المسموح بذاته بروح الدعابة كـ «رئيس فائق» لمؤسسة WOMP، لكنّ المشاركين لم يتردّدوا في تأكيد رؤاهم المخالفة للمستقبل. كان للمشاركين الأساسيين العشرة أجنداتهم البديلة، ولم يفترض أحد منّا أنّ الحكومة العالمية هي النتيجة المحتملة أو المرجوّة. على الرغم من بعض اللحظات المتوتّرة في اللقاءات العامة، تشكّلت الصداقات وفصل شاؤل أكثر منّا بين الودّ والخلافات الفكرية الأيديولوجية، التي كانت عميقة في بعض الأحيان. كانت فكرة WOMP سابقة

لعصرها الى حدّ ما، وربّما كان سيكون لها تأثير أكبر لو تمّ تنفيذها بعد نهاية القرن ونهاية الحرب الباردة، حين كان هناك وعي عام أكبر بتحدّيات الحوكمة العالمية الناشئة عن الإحتباس الحراري والعولمة الإقتصادية، التي لم تتمّ تلبيتها بشكل كاف من قبل حكومات الدول أو من قبل الشبكات القائمة من المؤسسات الدولية.

ما فضله المشاركون في حركة WOMP للمستقبل يعكس التوترات، التي اجتاحت العالم بعد ذلك بالإضافة الى تنوّع وجهات النظر حول كيفية تعزيز رفاهية الإنسان. لقد تعلمت من خلال تعرّفي على هؤلاء المثقفين من الدول الأجنبية الواثقين من انفسهم، وخاصّة اولئك الذين ينتمون الى جنوب الكرة الأرضية. في سياقات WOMP، كان كلّ من المديرين الإقليميين الرئيسيين واضحين ومكرّسين لمجموعة الأولويات، التي تعكس موقعهم الإجتماعي والسياسي في العالم بالإضافة الى نظرتهم الشخصية. وهذا يعني أنّ الإنشغالات الغربية والسوفيتية بقضايا الحرب/السلام المرتبطة بالمخاطر التي ستؤدي الى الحرب الباردة الى حرب عالمية ثالثة مأساوية، لم يتم تقاسمها على نطاق ولسع كما كنت افترض سابقا. مثّل الصين پول لين، وهو باحث يدرّس في كندا، لكنّه انضم الى الحركة الثورية الماوية التي وصلت الى السلطة في البرّ الرئيسي الصيني في عام 1949، قبل عقود من احتضان التحديث، الذي جاء في أواخر السبعينات بتوجيه من دانگ شياو بِنگ. دعا لين الى التفاعل بين السلام والتنمية، مع اهتمام أقلّ بحقوق الإنسان والديمقرطية، لكنّه شارك موسكو الأمل في استقرار القوى العظمى.

كان راجني كوثري المشارك في حركة WOMP من الهند، مهتمّا في المقام الأوّل بالتنمية الإقتصادية في سياق ديمقراطي، مع توجيه بصره نحو التعاون الإقليمي. على النقيض من ذلك فضّل زعيم المجموعة الأفريقية، علي مزروعي المولود في كينيا، بشدّة هوية افريقية أصيلة لمرحلة ما بعد الإستعمار واستعادة تقاليد جنوب الصحراء التي قمعها الحكم الإستعماري، بما في ذلك الشعور بالفضيلة العسكريّة والفخر الثقافي. أراد المشارك الياباني يوشيكازو سَكاموتو، قبل كلّ شيء تشجيع الإيمان بالديمقراطية وقوة الحركات الإجتماعية لإحلال

السلام ومحاربة النزعة العسكرية في العالم. سعى سَكاموتو الى استعادة الكبرياء القومية اليابانية من خلال التأكيد على نظرة عالمية غير إمبريالية للعالم موجهة نحو السلام واعتذارية اتجاه بقية آسيا، للتعويض عن قسوة وعسكرة اليابان الإمبريالية.

وأخيرا أكّد فريق أمريكا اللاتينية على هدف المشاركة في النظام العالمي، بالشكل الذي يعزّز التمكين الجماعي لمنطقتهم، والذي استلزم رفع عبء الهيمنة الأمريكية، التي جعلت أمريكا اللاتينية قارة منسية غير مُعترف بها تقريبا في البيئات والأوساط العالمية. إعتقد أولئك الذين يمثلون أمريكا اللاتينية في حركة WOMP، أنّه من الضروري تعزيز شكل قويّ من الإقليميين يستبعد أمريكا الشمالية، ممّا يسمح لبلدان القارة بأن تكون لها اصوات مستقلة خارج حدودها الوطنية، بينما كتبتُ بأنّه ستظل امريكا اللاتينية قارة منسيّة في معظم الأماكن.

كان أكثر ما يلفت الإنتباه في هذا الإستعراض السريع لمجموعة الآراء التي سيطرت على تجربة WOMP هو التجاهل الواضح لمناصرة شاؤل والحكومة العالمية باعتبارها المسار الذي لاغنى عن اتخاذه. كان لهذا النهج الحكومي العالمي صدى ضئيل بالنسبة لبقيتنا في المشروع، ولذلك لم يُبذل أيّ جهد للتعامل مع مثل هذه الآراء، حتى بغية دحض الإدّعاءات. عكست هذه المعارضة لإضفاء الطابع المؤسسي للسلطة على المستوى العالمي واستمرار ارتباط الشعوب والنخب في جميع انحاء العالم، حتى وإن كان مختلا بشكل متزايد، وبهويات مزوّرة على سندان من القيم والتجارب الوطنية. الى حدّ ما، بصفتي غربيّا وصديقا، كنت حلقة وصل بين أولئك الذين يأملون في تحقيق تنمية اقتصادية سريعة وعدالة اجتماعية وتضامن إقليمي وأولويّات الحرب/السلام في الغرب. لقد تصوّرت مساهمتي درجة معيّنة من التحوّل العالمي وأهمية آليات «التوجيه المركزي» للتنسيق وتحقيق الإستقرار فيما كنت آمل عبثا أن يكون عالما منزوع السلاح. في حركة WOMP، شعرت بصدق وجهة نظري التقدمية التي كانت تتطوّر بعد ذلك في سياق معارضتي الأكاديمية ونشاطي المناهض لحرب ڤيتنام. في نفس الوقت، شعرت بالراحة في تقييم إمكانات النظام العالمي فيما يتعلق بترويض نظام الحرب بكلّ طريقة ممكنة. في كلي الوضعين، استكمل

نشـاطي بالتزام أساسـي بالأسـاليب الأكاديمية، ممّا جعلني بعيدا الى حدّ ما عن معظم الباحثين والناشطين الآخرين، الذين فعلوا أحدهما أو الآخر، ولكن نادرا ما جمعوا بين الإثنين معا.

كانت لمشـاركتي في الدعوة المناهضة للأسـلحة النووية نفس المزيج من الإهتمامات العلمية والنشـاط. لقد بُنيت حول صداقتي مع دَيڤِد كريگر والعمل مـع مؤسسـته المسـمّاة مؤسسـة السـلام فـي العصـر النووي NAPF. فـي ادواره الأكثر جديّة كمحام ورئيس للمؤسسة، كان دَيڤِد هادئا في حساباته بعكس ثاؤل الملتهب والمصرّ. تضمنت هوية دَيڤِد السياسية دعم الأسباب التقدّميّة. في حين أنّ WOMP كانت عالمية في نطاقها الواعي، كانت NAPF محليّة الى حدّ ما وكان تمويلها وانشطتها نادرا ما تحدث خارج حدود مدينة سانتا باربرا. حين كان دَيڤِد ضابطـا عسـكريا مبتدئـا، اصبـح مقاوما مبكّرا لحرب ڤيتنام أثناء إقامته ودراسـته في هَوائي. لقد طوّر كراهية عميقة للأسلحة النووية والظلّ، الذي ألقت به على الحياة السياسية الطبيعية والمصير البشري.

كما هو الحال مع شاؤل، كان لِدَيڤِد هدف شامل وثابت، هو إلغاء الأسلحة النووية في إفق زمني قصير وغير واقعي. اعطى هذا التركيز تماسكا ومعنى لعمله وغـرس إخلاصـه العميـق وحـوّل كتاباتـه وقراءته للشـعر. لم يبتعد تيـار كتاباته المستمرّ على مرّ السنين عن الحاجة الى تفعيل الأجندة السياسية والأخلاقية لنزع السلاح النووي ومقاومة سياسات الترويج له على الصعيدين الوطني والدولي. على عكس شاؤل، الذي كان عضو هيئة التدريس لفترة طويلة مع احترام للعمل الأكاديمي، كان دَيڤِد متشكّكا فيما إذا كانت الدراسة الأكاديمية يمكن أن تفعل الكثير للعالم بخلاف ملء رفوف المكتبات بالكتب غير المقروءة. كان دَيڤِد أكثر إيمانا بالنشـاط القانوني غير العنيف والمسـاعي الصحفية والشِعر وخطوات نزع السلاح النووي التي اتخذتها المؤسسات القائمة. على الرغم من انخراط شاؤل العاطفي المكثف حول مستقبل سلمي للبشرية، لم يبتعد أبدا عن برجه العاجي حيث سـادت انواع مختلفة من الفلسـفة الهيگلية المصحوبة بإيمان خاصّ بتلك الأفكار الكارزمية التي حان وقتها. تشارك كلّ من دَيڤِد وشاؤل إيمانا لا يتزعزع في صحة وأهمية رؤيتهما. لم يكن أيّ منهما راديكاليا سياسـيّا، على الرغم من

أنّهما كانا ينتقدان التجاوزات الرأسمالية، إذا تمّ الضغط عليهما. لقد كانا من ابناء عصر التنوير، مؤمنين من اعماق وجودهما بأنّ الحقائق والأدلة والتفكير العام الواضح والإلتزامات العاطفية ومستوى معيّن من الضغط على الإثرياء الخيّرين، يمكن أن يجعل القادة السياسيين في النهاية أن يفعلوا الأشياء الصحيحة. كانت لديهما ثقة في استعداد النخب السياسية وحتى الإقتصادية، إذا تمّ دفعها بشكل كاف من الأسفل والأعلى، لقبول الحاجة الى التغييرات التي قاوموها بشغف. إقترن مثل هذا التأكيد على إمكانات اصلاح النظام السياسي الحالي بدعم حذر ومنفصل الى حدّ ما ومشاركة ضئيلة في سياسات الحركة التي تؤكّد المزيد من الأجندات الهيكلية المتعلقة بالعدالة الإجتماعية والإقتصادية.

في كافة هذه النواحي، كان لديّ فهم مختلف لكيفية حدوث التغيير الجذري ووضعت آمالي والتزاماتي في ثورات من الأسفل تحتوي على الطاقات الثورية وتطرح مطالب جذرية. من المسلم به أنّ مثل هذه الثورات البركانية كانت تاريخيّا أقلّ من التوقعات بالتغيير حتى عندما نجحت في قلب النظم القديمة. ومع ذلك، بهذا المعنى الأساسي، على الرغم من أنّه ليس بدون ازدواجية متزايدة، فقد وضعت إيماني في الناس والحركات الإجتماعية والديمقراطية الجوهريّة بدلا من النُخب وافرادها وأطرها التنظيمية. لقد بذلت قصارى جهدي لتشجيع التحوّلات في الرأي العام، التي تتحقق من خلال التعليم والصحافة التقدّمية. لتوضيح النقطة بشكل أكثر تحديدا، شعرت أنّ الحركة المناهضة للحرب كانت أكثر فاعلية في تحدّي حرب ڤيتنام من مجلس العلاقات الخارجية عندما أدرك أخيرا أنّها كانت قضية خاسرة، على الرغم من أنّ كليهما لعب ادوارا مميّزة أحدها من الأعلى والآخر من الأسفل. لم يُدرك أيّ منهما أنّ الهياكل الأساسية بحاجة الى تحويل.

لقد فشلت في تحقيق وضوح واستمرارية التركيز اللذين حققهما شاؤل ودَيڤِد، أو درجة تركيزهما المهني والفكري للطاقة. كنت أكثر ارتباطا بالحياة الفكرية والسعي الأكاديمي، وكنت مرتاحا في الغالب لعزلة المجتمعات الجامعية، وثانيا فقط بروح الواجب المدني، غامرت في المجالات ذات التوجّه السياسي. لم أتغلب أبدا على كراهيتي للإنشغالات المتزايدة في واشنطن، مع

الحوكمة هنا والآن وتقلبات الشخصيات السياسية المختلفة، التي تتشبث بالسلالم الدهنية Greasy Ladders لطموح القطاع العام. لقد انجذبت الى الطرق الفلسفية والأخلاقية والناشطة والروحية للإنخراط مع العالم، ودرست بمفردي التيارات السائدة للفكر الأوروبي. ظللت منجذبا نحو الكتّاب الذين قابلتهم منذ فترة طوية كطالب، بما في ذلك مارتِن بوبر وكير كيگارد وسارتر وكامو، وانجذبت لاحقا الى دِستوڤِسكي وتولستوي ونيتچه، وبعد ذلك الى دريدا وفرِد دالماير وداود أوگلو، من بين الآخرين.

من الناحية الأكاديمية، ظهر هذا الإنتشار من جانبي من خلال مشاركتي في العديد من القضايا المختلفة على مدار مسيرتي المهنيّة. أودّ تطوير فهم معيّن لموضوع ما، والكتابة عنه لفترة من الوقت، ثمّ المضيّ قُدُما حيث تجذب القضايا الجديدة اهتماماتي. نادرا ما تخليت عن الإهتمامات الجوهرية السابقة، لكنّني أخذت فترات راحة للإستفسار والإستكشاف في مكان آخر، وبعد ذلك عندما ظهرت مناسبة، عدت بسعادة الى الإهتمامات السابقة. من خلال هذا الملف الشخصي الفكري، أجد نفسي من الصعب تحديده، الأمر الذي حدّ بطريقة ما من تأثيري في أيّ مجال معيّن وتوسيعه بشكل عام. مثل «أحمق» الشاعر وِليَم بلَيك، لقد أصررت، ولكن ما إذا كنت «حكيما» كما فعل الأحمق، فهو سؤال لا يمكن إلا للآخرين الإجابة عنه.

مع هذه الخلفية، قد تبدو مواقفي الفكرية والسياسية منفصلة الى حدّ ما ومستقلة. اصبحت غير مرتاح وشعرت أنّني لست في المكان المناسب عند السير على طول ممرات السلطة النخبوية، كما هو الحال في مجلس العلاقات الخارجية أو الجمعية الأمريكية للقانون الدولي. ومع ذلك كنت هناك في السنوات العشرين الأولى من عملي كأستاذ جامعي. بعد أن شعرت بالسعادة لدعوتي الى هذه التجمّعات النخبوية، سرعان ما شعرت بعدم التقدير والتهميش والإغتراب الى حدّ ما، فبدأت أعبس بصمت وأنا على الهامش. لم أقفز أبدا من السفينة تماما، لكنّني نادرا ما شاركت في النشاطات الجارية على ظهرها.

بسبب مؤهلاتي في جامعة پِرنستُن ومشاركتي الفكرية المستمرّة مع زملائي الأذكياء، كان بإمكاني التواصل بشكل أوثق مع وجهات النظر السائدة

هذه لو كنت أرغب في القيام بذلك. عكست هذه الساحات السائدة شعوري بأنّني سأتعلم في كثير من الأحيان من الأعداء أكثر من الحلفاء. خلال مقرّراتي التدريسية، قمت بتعيين قراءات مقيتة، مدفوعا بأفكار وجدتها غير مقبولة وحتى رجعيّة. لقد درّست كتابات كِسِنجَر وبرِجِنسكي ومو جنثاو وپول ووالتز وآرُن وآخرين غيرهم، على الرغم من الخلافات الأساسية، لأنّني أردت أن أفهم ما تسمعه النُخَب السياسية وما تهتمّ به.

كانت إحدى نتائج طريقتي المميّزة الى حدّ ما للوجود في العالم هي تكوين العديد من الأصدقاء، ولكن القليل منهم إن وُجد ممّن هم تحت الحماية Protégés. بعد قولي هذا، يبدو أنّني أثّرت على حصّتي من الطلبة وغيرهم، الأمر الذي أثار دهشتي في كثير من الأحيان. أتلقى ردود فِعل مؤثرة في كثير من الأحيان من الطلاب الذين أوشكت على نسيانهم، والذين يتواصلون ليخبرونني عن مدى تأثير المقرّرات الدراسة التي أخذوها معي خاصّة على حياتهم المهنية. في الوقت نفسه، كان أولئك الذين دخلوا فلكي الأكاديمي يحرثون حقولهم ويحصدون محاصيلهم بأنفسهم. إذا كنت مرتبطا على الإطلاق بكيفية سير حياتهم، فهو بمثابة الأسمدة ومبيدات الأعشاب غير السامة، وليس كشخصية يتمّ تقليدها أو تقديمها.

إذا كانت لديّ مرساة أخلاقية/سياسية أو على الأقلّ استطيع تحديد مجموعة من الإهتمامات، التي تتمّ متابعتها باستمرار، فيجب أن أكون متيقظا لحالات الظلم الشديد والمخاطر الكوكبية. يساعد هذا في توضيح انتباهي الى حقوق الإنسان واخلاقيات البيئة فيما بعد، التي اتوسع فيها لتشمل معاناة الحيوانات وعلاقة الرعاية بالطبيعة كما هي متحركة من خلال التجربة الحيّة وتقديس الآلهة الوثنية. كما لأنّه يتعلق باهتمامي برفاهية الغرباء ومخالفتي للأعراف الإجتماعية وحرصي على الأجيال التي لم تولد بعد، أعترِف بأنّ هذه المصالح فكرية وتجريدية تماما وتحيط بها التناقضات. كيف يمكنني دعم نضال أقلية الوِگر المسلمة في الصين ومعارضة مواجهة الصين خوفا من اندلاع حرب باردة جديدة أو ما هو أسوأ؟ أيضا، يجب أن تقودني قيمي ومعتقداتي الى أن أكون نباتيا. ولكن على الرغم من المحاولات الحازمة، وجدت أنّه من الصعب جدّا

أن ابقى صامدا. ويرجع ذلك جزئيا الى الرحلات والمواقف الإجتماعية، حيث بدا محرجا، أو أسوأ، الإصرار على الإلتزام الغذائي. هذه الفجوة بين ما اعتقد أنّه ضروري ومرغوب فيه على مستوى الأنواع، وما سأفعله كفرد، هي تذكير دائم «بحالتي الطبيعية».

أعرف أنّ مشاهداتي كانت على مبعدة، وإن لم تكن دائما على مبعدة آمنة، لأنّني غامرت في عدة مناسبات من أجل الإقتراب من المناطق المستعرة حول العالم. عند التفكير، أعتبر نفسي «عاملا فكريّا» داخل الميدان الأكاديمي وخارجه. وأشهد من خلال التضامن والكتابات مع كافة ضحايا وحشية الدول وأعداء المجتمع العنيفين. أميل الى عدم إصدار الأحكام على وسائل المقاومة التي اختارها أولئك الذين تعرّضوا لأشكال قاسية من القمع وإنكار الحقوق الأساسيّة. لقد استفدت من ميزتي النسبية بصفتي باحثا/صحفيا للفت الإنتباه الى اشكال مختلفة من المخالفات، وربّما كان هذا الدور أكثر فاعلية ممّا لو كنت تطوّعت للعمل في المستشفيات أو مخيّمات اللاجئين، او هو الأمر الذي كان سيشمل معالجة معاناة الضحايا بشكل ملموس. لديّ طموح لكتابة شيء يستحقّ العناء عن حقّ المقاومة في القانون الدولي والممارسات الدستورية.

الإستثناء الأمريكي اللعين

بالنسبة لي، «الإستثنائية الأمريكية» هي نقمة أكثر من كونها نعمة. إنّني اتراجع غريزيا عن مزاعم الإستثناء الأمريكية، التي أخفت وقمعت العيوب وعدم الحساسية والإجرام في ثقافتي السياسية منذ بدايات هذا البلد الإستثنائي. التأكيد الأكثر صدقا والأكثر تناقضا هو أنّ أيّ شيء تقريبا يمكنك قوله، صوابا أم خطأ عن امريكا كان ويظل وسيظلّ صحيحا. وكذلك العكس. بالنسبة لي، فإنّ هذا يكشف عن قصر النظر المتمثل في تهنئة الذات أو نفي الذات- على الرغم من أنّ الأنماط الحديثة للسلوك في الداخل والخارج قد رفضت بشكل متزايد توجيهات أفضل ملائكتنا، ممّا يستدعي وضع دولة مارقة أو حتى تسمية «إستثنائية سلبية». أصبحت هذه لحظة اختبار لمواطني الضمير للخروج من ظلال الإستسلام والسلبية. ما لم يتمّ تحدّي الهياكل الأساسية للرأسمالية النولِبرالية

المفترسة والعسكرة العالمية من أسفل من قبل حركة غير خاضعة لسيطرة الحزبين المهيمنة على الحياة السياسية وما يصاحبها من إجماع من الحزبين على السياسة الخارجية، لن يكون هناك أمل في وقف التدهور والسقوط في الولايات المتحدة في الداخل وعلى الصعيد الدولي.

أضع تأكيدات الإستثناء الأمريكي في نفس فئة الإدّعاءات المستمدّة من الكتاب المقدّس التي تعلِن اليهود على أنّهم «شعب الله المختار». غالبا ما يعتبر نفس الأشخاص الذين يدّعون الإستثناءات أنّها معادية للسامية، بما معنى الإشارة الى التأثير اليهودي في وسائل الإعلام وهوليوود والتمويل، أو الشكوى من الضغط والمال الإسرائيليين اللذين يدفعان السياسة الخارجية الأمريكية في اتجاهات لا تخدم المصالح الوطنية، وتدفع للإستفادة من الشخصيات السياسية، التي تتلقى تبرعات ضخمة مثقلة بالضغوط من المليارديرات الصهاينة المتطرفين. بدون التواضع الذي يأتي مع الإعتراف بالمفارقات والتناقضات المتأصّلة بعمق في الحالة الإنسانية، خاصّة الغطرسة، يكاد يكون من المؤكّد أنّ هذه الإستثنائية المُختلقة تنتج الإستغلال والسيطرة. بقدر ما ترتبط الفضيلة الجماعية بالرذيلة الجماعية، لا يمكن لليهود أن يدّعوا في الحال تفوّق كونهم «مختارين»، وفي نفس الوقت يتصدّون بغضب للأدّعاءات حول التلاعب اليهودي بالحكومة والمجتمع عن طريق المال والنفوذ باعتبارها استعارات معادية للسامية. لقد ازعجني هذا المثال من كلي الإتجاهين قبل وقت طويل من أن أصبح ناقدا لإسرائيل والصهيونية في سياق النضال الفلسطيني من أجل الحقوق الأساسية.

بعد أن ادركت هذه الطبيعة، التي لا يمكن اختراقها للواقع الإجتماعي والسياسي، كيف يمكنني إذن تبرير مواءمتي مع القضايا الحزبية؟ بالطبع، قد يكون أحد الردود المراوغة هو توضيح أنّ هذا أيضا تناقض، وهو كذلك من نواح عديدة. لقد جعل دريدا الكثيرين يدركون أنّ اتخاذ القرارات ينطوي على قفزات إيمانية لا مفرّ منها. هذا المزيج من الإلتزام والشكّ هو في اعتقادي حجر الأساس للسياسة التقدّميّة المكرّسة للتغيير ومعاد لعقيدة التطرف والقابلية للإعتراف بالأخطاء وتصحيحها. إنّ التصرّف بثقة في مواجهة عدم اليقين الجذري فيما يتعلق بالآثار والنتائج، يكشف بعض المعضلات الأساسية للحالة

البشـرية. كما أنّه يسـاعد في تفسـير سـبب معتقداتنا وقيمنا وتركيبنا البايولوجي DNA، جنبا الى جنب مع دوافع العقل الباطن. إنّ سلوكنا أكثر من معرفة ما هو ممكـن فيمـا يتعلـق بالموقف الطبقي والإعتمـاد المزعوم على العلم والعقلانية. حاولت في السنوات الأخيرة توضيح آرائي الخاصّة في التعامل مع التوترات بين عدم اليقين والمشاركة من خلال التعلم بأفضل ما يمكنني من التأملات العميقة لجاك دريدا بشأن هذه الأمور.

أشكال المشاركة

في البحث عن طرق للوجود في العالم، انجذبت بشكل طبيعي الى مجالات العمل، حيث يتمّ سنّ اختيارات ملموسة بين بدائل «لصالح» أو «ضدّ» موضوع معيّن. عند اتخاذ هذه الإختيارات، غالبا ما وجدت أنّني أغلق ذهني جزئيا على الروايـات المضـادة لتجنّـب الوقوع في المجال الغـادر. لقد جاهدت للإحتفاظ بالقيم المرتبطة بالآداب والبراءة لتجنّب اقصى درجات السلوك الناشئة عن نوع من العقلية التي تقول إنّ «الغاية تبرّر الوسيلة». أثناء تعاملي مع مثل هذه القضايا الصعبة، حاولت أن إشارك في صراعات اليوم، ليس فقط كمترجم ولكن بصفتي حزبيّـا وناشـطا. ومـع ذلك بقيت مهتما بعمق فـي «لعبة الحياة الطويلة» ومعناها القـدر والإمكانيـات كنـوع، بمـا في ذلك الضرورات البيئيـة والروحية التي يبدو أنّها تصوّر مصير الهلاك. ما لم يكن هناك وعي حضاري جديد يستجيب بشكل إنسـاني لإزاحـة هـذه التحدّيـات بطريقة ما، فإنّها تهدّد الآن اسـتدامة الحياة كما نعرفها وتجعل آفاق انقراض الأنواع غير محصورة في فلك الخيال العلمي.

أبـذل قصـارى جهـدي لرؤيـة الواقـع مـن منظـور الخصـوم الشـخصيين والإجتماعيين والسياسـيين، وبالتالي أخيّب آمال الأصدقاء والطلاب احيانا من خلال ظهوري متردّدا عندما يتعلق الأمر بشجب الآراء المعارضة. اعتقد أنّه في كثير من الحالات تكون الحزبية والرحمة متكاملتين وليستا متعارضتين. بالنسبة لي، هذا هو الفرق بين سياسة خارجية إنسانية وغير إنسانية. إنّ جزء من المشاكل المربكة للعالم هو الإصرار المستمر لما يُسـمّى بالواقعيين السياسـيين على أنّ العالم يعمل بشـكل أكبر وفقا لمنطق حسـاباتهم اللاإنسـانية، على الرغم من أنّها

مقيّدة الى حدّ ما في العصر النووي باعتبارات الحصافة.

حاولت في عملي الأكاديمي ومنذ البداية، أوّلا وقبل كلّ شيء أن أفهم جميع الجوانب وبعد ذلك فقط أن أشير بأصابع الإتهام الى التقييم والحكم على السلوك الذي يبتعد بشكل كبير عن المعايير الأخلاقية والقانونية المرتبطة بالسلام والعدالة والظروف التاريخية. في مجال الخبرة العملية، كانت مواجهاتي مع الأنظمة الإستبدادية في الفِلِپين وكوريا الجنوبية ومع نظام الفصل العنصري في جنوب أفريقيا وڤيتنام في زمن الحرب وإيران الثورية والقمع والمقاومة في فلسطين وتركيا والولايات المتحدة المستقطبة، تمّت معالجتها أو التلميح اليها في الفصول السابقة. اقترح هنا مناقشة افكاري المتطوّرة حول تطوّر النظام العالمي، وخاصّة دمج المنظورات البيئية في أواخر الستينات وإحساسي بالأبعاد المعيارية والروحية، التي يوفّرها القانون والأخلاق والدين والتاريخ والثقافة.

ليس بعيدا في الخلفية عن قلقي بشأن الأعمال المعاصرة للرأسمالية، خاصّة منذ انهيار التخيلات الإشتراكية البديلة في الفترة التي اعقبت نهاية الحرب الباردة. عندما تختفي البدائل الأيديولوجية من أفق الأهمية السياسية، تميل الأيديولوجية المُهيمِنة الى ملء الفراغ مع إبراز عيوبها. بالنسبة لي كانت TINA لماركَرَت ثاچر (لا يوجد بديل) أكثر الملاحظات المؤثرة في فترة نهاية الحرب الباردة. في حالة الرأسمالية، فإنّ هذا التطوّر منذ سقوط جدار برلين يعني الإستسلام للجشع المادّي، الذي يظهر في الواقع الإجتماعي باعتباره اتساع عدم المساواة في الدخل والثروة، وأنّ روح الرابحين والخاسرين تحلّ محلّ الإقتصاد الرابح/الرابح. أظهرت هذه إحساسا شاملا بالمسؤولية المجتمعيّة عن رفاهية الجميع. عزّزت التطوّرات الأخرى تأثير نهاية الحرب الباردة على المرحلة التالية من الرأسمالية العالمية، المرتبطة عموما بـ «العولمة اللِبرالية الجديدة». هذه التطوّرات، بما فيها إضعاف تنظيم العمال Weakening of Organized Labor وواقع العمل الرقميDigital Workplace Realities وظهور الذكاء الإصطناعي والروبوتات. لقد ساهمت هذه جميعا فيما يبدو أنّها أزمة اخلاقية حادة ابتليت بالمراحل الحالية والمستقبلية للرأسمالية، وتجلت في أشكال مختلة بشكل كبير من عدم المساواة، التي تولد انعدام الأمن والإغتراب والغوغائية والبحث عن

اكباش الفداءScapegoating، التي هي في الواقع تهرّب من الأخلاق، والتحدي السياسي المتمثل في خلق مجتمعات لائقة وإنسانية.

يمكن القول ايضا أنّ الفشل السوڤيتي عكس جمودا أيديولوجيا حرّم الشرعية والفضاء السياسي لبدائل النسخة الرسمية لاشتراكية الدولة، التي كان لها تاثير دفع ممارسة الإشتراكية نحو جمود غير مستدام وعدم كفاءة بيروقراطية. يبدو أنّ الصين، على الرغم من الأخطاء الجسيمة وانتهاكات حقوق الإنسان، قد أدرجت حتى الآن ما يكفي من التفكير الذي تحرّكه السوق لجعل هذا النوع من الإشتراكية يعمل كمُحرّك مُذهل للنمو والتأثير والمكانة في الداخل وفي جميع انحاء العالم، على الرغم من أنّه مِليء بنصيبه من التناقضات.

ما بعد الحرب الباردة

من دون دراسة الحقائق السياسية لما بعد الحرب الباردة بالتفصيل، يبدو من الواضح أنّ حقائق حقبة الحرب الباردة فقدت قدرتها على تقديم مبادئ توجيهية موثوقة للفكر أو العمل في العقد الثالث من القرن الحادي والعشرين. لقد أدّى العديد من التطوّرات المتقاربة الى تعقيد عملية التقييم بطرق جذرية الى حدّ ما. أوّلا، اصبح من الواضح أنّ عسكرة عملية الحكم في الولايات المتحدة، الى جانب الإستثمار المُفرط في المعدّات العسكرية على مدى فترة طويلة، قد قوّضت آفاق نظام عالمي سلمي وكشفت أنّه عندما يكون هناك توتر، تأخذ الأولويات الرأسمالية الأسبقية على القيم المرتبطة بالديمقراطية وحقوق الإنسان والإستقرار البيئي وحتى بقاء الإنسان ذاته. تتجسّد هذه الأولوية من خلال دفع مبيعات الأسلحة الى البلدان ذات السجلات السيئة لحقوق الإنسان والديمقراطية أو التعامل مع الغابات المطيرة في العالم على أنّها خاضعة للسيادة الإقليمية بدلا من اعتبارها مشاعات عالمية. كما أنّها أدّت الى إدراك العديد من الصراعات السياسية من خلال منظور عسكري، ممّا أدّى الى نتائج مُدمّرة بشكل مأساوي.

ثانيا، مع انهيار الفاشية والشيوعية، أدّى غياب المنافسين السياسيين الى دفع العولمة النولِبرالية الى أقصى حدّ لها، وساهمَ في ظهور سلسلة من الديمقراطيات

غير اللِبرالية التي تظهر ميولا استبداديّة في العديد من أهمّ دول العالم، لدرجة أنّ عودة الفاشية المخيفة لم تعد مجرّد وهم بجنون العظمة. تدعو الشمولية الفاشية الى التدهور السياسي والإنهيار في نهاية المطاف، كما كانت تجربة الشمولية في ألمانيا والإتحاد السوڤيتي، وقد بدأ شبحها يُطارد الرواية الأمريكية غير المكتملة.

ثالثا، التسلسل الهرمي للأولويات، الذي تخللته الطفرة الأخيرة في القومية المتطرفة في البلدان الرئيسية، جعل من المستحيل على بنية النظام العالمي القائم على المصالح الوطنية للدول ذات السيادة، إنشاء آليات تعاونية لمواجهة التحديات البيئية والإيكولوجية الشديدة النطاق عالميا بالحكمة والإنصاف والتعاطف والعقلانية.

رابعا، أدى عدم المساواة العالمية والهجرة العالمية المدفوعة بالإحتياجات والبحث عن اشكال حقيقية للهوية والبيروقراطيات الحاكمة المُعسكرة، الى ظهور ردّ فعل ديماگوگي عنيف قاد بشكل حاسم الى إضعاف الطابع الإنساني للديمقراطيات الدستورية الراسخة، إن لم يكن تشويهها. يتضمن هذا السلوك الإستبدادي عادة نهب الخزينة العامة ومجموعة متنوّعة من اشكال الفساد بين النخب السياسية والإقتصادية. في ظلّ هذه الظروف، تفقد العقود الإجتماعية الضمنية بين الدولة والمجتمع شرعيتها.

خامسا، أدى صعود مستبدين مُنتَخبين ديمقراطيا، وهم من الذين يميلون الى ممارسة الجغرافية السياسية الديماگوگية والى زيادة مخاطر الكوارث الطبيعية وتراجع الأنواع، وحتى الإنقراض. حرّض هذا الإتجاه المزعج القادة الذين استبدلوا مشاعرهم الغريزية بتحذيرات وتوجيهات للمجتمعات العلمية. أدّت مثل هذه التطوّرات الى تآكل ثقة الجمهور في النخب السياسية في العديد من البلدان، ممّا قوّض الثقة في القيادة السياسية الوطنية والعالمية من منظور أخلاقي أو عقلاني.

نتيجة لهذه الإعتبارات، فإنّ الترتيبات السياسية الحالية، لا سيّما على المستوى الوطني والدولي، ليست مقبولة أخلاقيا أو لها شرعيّة سياسية أو مستدامة بيئيّا، ممّا يخلق تحدّيا غير مسبوق للتخيلات والممارسات السياسية والأخلاقية والثقافية للجميع، القادة والمواطنين على حدّ سواء للتصوّر والعمل

نحو تحقيق ترتيبات سياسيّة أكثر ديمومة ومرغوبة عبر الطيف الواسع الذي يربط المحلي بالكوني عن طريق المشاعر الوطنية والعالمية.

الحوكمة العالمية بدون حكومة عالمية

عندما بدأت أفكّر كعالم شاب ومواطن حول كيفية جعل العالم أكثر أمانا وأكثر انسجاما في بيئة عالمية حيث يودي التفاعل بين الصراع الشديد والأسلحة النووية الى خلق مخاطر ومعضلات لم نواجهها من قبل، شبح الفوضى العالمية. وهذا هو النظام العالمي المُتمَحور حول الدولة، والذي يبدو أنّه يعيق كافة الآمال الواقعية لهذا النوع من الإصلاح العالمي الجذري، الذي اعتقد أنّه ضروريّ. لقد جعلني أدرك أنّ مثل هذه الغايات لا يمكن أن تتحقّق إلّا إذا أمكن إيجاد مؤسسات عالمية اقوى قادرة على العمل بفعالية مع مراعاة المصالح العالمية والإنسانية، بدلا من المصالح الوطنية، على وجه السرعة. ومع ذلك، ظللت مدركا تماما أنّ قوّة الأيديولوجيات القومية والتسلسل الهرمي العالمي يعني أنّه سيكون من الصعب، إن لم يكن من المستحيل، كسب الزخم السياسي لمثل هذه الإصلاحات العالمية في ظلّ الظروف الحالية، خاصّة إذا كان يُنظر إليها على أنّها محو أو حتى إضعاف للولاءات الأولية للدول ذات السيادة أو كجهات تنظيم جيوسياسية. كانت هذه المجموعة من التصوّرات توجيها عمليّا ميّزني مهنيّا عن تلك الموجودة في تخصصاتي الأكاديمية في القانون الدولي والعلاقات العالمية. في هذا الصدد، سبق تهميشي الأكاديمي تهميشي السياسي، على الرغم من تداخل المجالين في أذهان الآخرين وأحيانا في ذهني. لم اعتبر نفسي مطلقا مثاليا أو طوباويا، على الرغم من أنّني بعيد كلّ البعد عن معاداة مثل هذه التقاليد الفكرية، لكنّني كنت واقعيا إنسانيّا على قيد الحياة بأجندة ما بعد الحداثة للتحدّيات العلمانية، مستبقا نهاية الحداثة كما تطوّرت في أوروپا الغربية ثمّ انتشرت في كلّ مكان من الكوكب، بتفجير أوّل قنبلة ذريّة فوق هِروشيما عام 1945.

إعتقدت ايضا للأسباب التي تمّ شرحها مُسبقا، أنّ الحكومة العالمية كانت فكرة لم يحن وقتها بعد ولا ينبغي أن تأتي طالما أنّ النظام العالمي

أظهـر الدرجـات الحاليـة مـن التسلسـل الهرمـي مع عدم وجـود مجتمع عالمي يُجسّـد روحا عالمية قويّة قائمة على أسـاس مشـترك. صحيح أنّ القيم موجودة وتوجـد ايضـا بُنيـة لمعاهـدات حقوق الإنسـان بتعزيـز من المؤسسـات الدولية والمنظمات غير الحكومية الملتزمة. لكنّ مثل هذا الإطار المُشـترك ظلّ يعتمد علـى الإنفـاذ الذاتـي، ولـم ينتج أبدا إحساسـا حقيقيـا بالمجتمع العالمي أو حتى الإقليمـي. حاولـت أوروبـا جاهدة إنشـاء مجتمع إقليمـي، ولكن تحت الضغط خـلال العقـود الأخيـرة، تمّ الكشـف عن ضعف هـذه التجربـة الجريئة للإتحاد الأوروبي. في أحسن الأحوال، كانت الحكومة العالمية حلّا عقلانيا لمجموعة شديدة الإنفعالات من القضايا السياسية والمصالح الإقتصادية التي لم تروق إلا على المستويات السلوكية للمؤمنين الحقيقيين بحركة التنوير الذين صادف أنّهم يحتلون أعلى مستوى من التسلسـل الهرمي العالمي في الغرب، وكانوا يؤمنون بمصداقيـة ذلـك. يمكـن للتركيبات العقليـة للحكومة العالمية التغلب حتى على أكثر العقبات السياسـية والمقاومة الشـعبية رعبا. وكان هناك البعض من النُخب الغربيـة مـن الذيـن اعتقـدوا أنّ تشـكيل حكومة عالمية كنسـخة طبق الأصل من النظام الدسـتوري الأمريكي من شـأنه أن يوفّر السـلامة والأمن مع الحاجة الى الحدّ الأدنى من التعديلات الإقتصادية، وبالتالي الحفاظ على الإمتيازات الغربية المُهيمنة والطبقية والعنصريّة. مثل هذا المخطط من شأنه أن يجلب الأمريكيين أيضـا ومعجبيهـم رضـا النظام العالمي الذي بدا يتصرّف بطريقة تشبه الولايات المتحدة.

مـن وجهـة نظـري، لا ينبغـي حتـى النظر الى مثل هذه الإسـقاطات للذات القوميـة علـى أنّهـا فاضلـة. يجـب التخلـص منهـا علـى أنّها دِسـتوپيا نرجسـية Narcissistic Dystopias. أعتقـد أنّ أيّـة حكومـة عالميـة، بغـض النظر عن إجراء التنظير، لن تصبح أبدا مشروعا سياسيا أو إذا فعلت ذلك، فمن شبه المؤكّد أنّها سـتتجه نحو الإسـتبداد العالمي، الذي يعيد إنتاج التسلسـلات الهرمية العسكرية والماديّـة. بالنظـر الـى المسـتويات الحالية من عدم المسـاواة وانعـدام الثقة، لم يكن هناك أيّ احتمال في ذهني لقبول حكومة عالمية من شأنها تحسين الحالة البشـرية، إلّا ربّمـا فـي خضـم مـزاج من اليأس الذي قد ينشـأ بعـد نهاية العالم.

وحتى ذلك الحين، لن يكون مفعما بالأمل. من المرجّح أن يكون ظهور شبكة غير إنسانية بشكل لا يُصدّق من الترتيبات، التي تديرها النخب الصغيرة الباقية على قيد الحياة أكثر من شكل فعّال من أشكال الحوكمة العالمية الإنسانية.

ما الذي قد يوازن، إذن، بين جمود الترتيبات السياسية العالمية والحاجة الملحّة لقانون دولي فعّال ومؤسسات تنفيذية على المستوى العالمي؟ في النهاية، يتطلب التغلب على هذا اللغز مناشدة العقل والبقاء. لا يتطلب الأمر بالضرورة أيّة إعادة تشكيل جذرية للبيئة السياسية أو تبنّي فكرة خطيرة مفادها أنّه يمكن إنشاء حكومة إنسانية بشكل صحيح قبل ظهور مجتمع أخلاقي وسياسي مُستدام. بالطبع، يوفّر وجود الأمم المتحدة والإطار العالمي لحقوق الإنسان نقاط انطلاق لأنّها توفّر اعترافا مؤسسيّا معقدا ودائما مدعوما إسميّا على الأقل من قِبَل جميع الحكومات على هذا الكوكب، بالحاجة الى القدرات والمعايير، التي يمكن أن تخدم المصالح البشرية وكذلك حماية المصالح الوطنية بافتراض توافقها المُحتمل. إنّه عقبة في الطريق لأنّ الأعضاء الدائمين في مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة لا يُظهرون أيّ ميل على الإطلاق لتقليص نطاق تقديرهم الجيوسياسي أو المساومة على إفلاتهم من العقاب. لسوء الحظ، فإنّ الإرادة السياسية غائبة أكثر من أيّ وقت مضى، والتي قد تسمح للأمم المتحدة بالعمل في طريقة أكثر استقلالية. سيتطلب ذلك تقليص النفوذ المؤسسي والتمويلي لأعضائها المُهيمنين جيوسياسيّا، لا سيّما فيما يتعلق بالسلام والأمن وحقوق الإنسان والبيئة والأعمال التجارية عبر الحدود الوطنية والتنمية.

تُعدُّ ساحات الأمم المتحدة وحقوق الإنسان أماكن للتعلم، ممّا يسمح لنا بتقدير ذلك من دراستها منذ بداية المنظمة. لقد انبثقت من رؤيتين متنافستين للنظام العالمي، وضرورة منع الحرب في ديباجة ميثاق الأمم المتحدة ورؤية جيوسياسية لإطار عملي واقعي منصوص عليه في الميثاق نفسه. بمرور الوقت، وكما كان متوقعا، تمّ إلغاء الديباجة ونسيانها وتمّ تفعيل الميثاق كعقبة أمام تعهدات الأمم المتحدة بدلا من أن يصبح قدرة على حلّ المشكلات. حين يوجد إجماع بين الأعضاء الدائمين في مجلس الأمن، يمكن أن تكون الأمم المتحدة بمثابة أداة غير خاضعة للمساءلة تقريبا في الجغرافية السياسية. بشكل توضيحي،

لم تستطع الأمم المتحدة العمل في سوريا أو اليمن أو كوسُفو بسبب الإنقسام الجيوسياسي، الذي ألغى الإجراءات بحقّ النقض، بينما كان مجلس الأمن قادرا على العمل كأداة جيوسياسيّة في الحرب الأولى ضدّ العراق عام 1992 وتدخّل تغيير النظام في ليبيا عام 2013. في كلتي الحالتين، أصيب المُشكّكون بخيبة أمل من اداء الأمم المتحدة، ليس لأنّها كانت غير فعّالة، ولكن لأنّها اصبحت وسيلة لتحقيق أهداف جيوسياسيّة لدول مُعيّنة تجاهلت قيود التفويض الشرعي للأمم المتحدة، الذي يجيز استخدام القوّة لأغراض محدودة.

بحلول نهاية العقد الثاني من القرن الحادي والعشرين، يبدو واضحا أنّه على الرغم من العديد من المساهمات القيّمة في مختلف جوانب تحسين حياة الإنسان، فإنّ الأمم المتحدة ضعيفة جدّا وتمّ تشكيلها بشكل خاطئ لخدمة شعوب العالم باستمرار كآلية لتعزيز الإنسان، والمصالح العالمية فيما يتعلق بأخطر التحدّيات المتعلقة بالسلام والأمن والعدالة والإستدامة. نظرا لظهور الحكومات القومية المتطرفة في جميع أنحاء العالم، فإنّ الإحتمال المُباشر هو أن يتمّ إختزال الأمم المتحدة الى نوع من «متجر الكلام» Talk Shop، كما زعم منتقدوها الأكثر تشاؤما دائما. يبدو للكثيرين أنّ الوظيفة الرئيسية، على الرغم من أنّه لا ينبغي إغفال أنّ الأمم المتحدة تحتفظ بدورها في السياسة الرمزية، ممّا يدلّ على فشل الولايات المتحدة في الحصول على دعم شرعي لمشاريعها الجيوسياسية، بما في ذلك الهجوم العدواني على العراق عام 2003 أو الإصرار على معاقبة إيران. حتى يامّ عكس المدّ السياسي على المستوى الوطني، فإنّ من الحماقة توقّع تعزيز القدرات العالمية في الأمم المتحدة فيما يتعلق بإدارة الأزمات وحلّ المشكلات العالمية والتخطيط بعيد المدى. في الوقت نفسه، يحتاج العالم الى أمم متحدة قويّة ويجب على أولئك الذين يعملون من أجل بناء المجتمع العالمي أن يحترموا إمكانات الأمم المتحدة بعد إصلاحها لخدمة احتياجات الإنسانية بشكل أفضل.

هناك مساران فقط نحو المستقبل المستدام الذي يتجنّب الحكومة العالمية مع انشاء آلية قويّة بما يكفي لدعم المصالح الإنسانية الأكثر حيوية على نطاق عالمي. يتضمّن المسار الأوّل مفهوما أكثر استنارة للمصالح الذاتية على مستوى

الدول ذات السيادة أكثر ممّا كان سائدا حتى الآن في المجتمع الدولي. على وجه الخصوص، منذ عام 1945، إن لم يكن قبل ذلك، كانت الحكومات أفضل خدمة من خلال قبول انضباط القانون الدولي والإجراءات الدولية لتسوية النزاعات سلميّا بدلا من الإعتماد على التفوّق العسكري والدبلوماسية القسرية والنفوذ الجيوسياسي لتحقيق النتائج المُفضَلة. بعبارة أخرى، أودّ أن اعتمد على الواقعية الجديدة في الشؤون العالمية للتقيّد بالقانون الدولي على أن يتمّ تفسيره بشكل معقول ونزع السلاح جزئيا على الأقل. إنّ «الواقعية القديمة» التي لا تزال سائدة على اساس الأسلحة وعمليات الإنتشار والردع والدبلوماسية القسرية تحافظ على قبضة الزومبي Zombie Grip (*) على سلوك الفاعلين السياسيين عندما يتعلق الأمر بمسائل الأمن القومي.

المسار الثاني أكثر شعبوية، إعتمادا على الظهور التخريبي للوعي الأخلاقي والإيكولوجي والروحي، الذي يُنتج حركة عبر وطنية ذات أهداف محدودة. تتمثل هذه الحركة في الأرتجال بالوسائل الضرورية والفعالة لمعالجة الشواغل البيئية والأمنية والعدالة الإقتصادية بطرق منصفة وغير قسرية قدر الإمكان.

كلا النهجين اللذين يمكن أن يكونا مكملين لبعضهما البعض، ملتزمان بإنتاج جيوسياسية إنسانية مستدامة، والى أقصى حدّ ممكن، في فترة تاريخية تخلق خلالها القدرات التدميرية للحرب معضلات أمنية غير مقبولة وتجعل القوى العظمى تفقد القدرة على إدارة التغيير والحفاظ على النظام. سيسعى هذا الإطار الجديد للجغرافية السياسية الى وضع ترتيبات أكثر إنصافا لتنظيم التجارة والإستثمار ودعم نهج قائم على الإحتياجات وحساس بيئيّا في التنمية الإقتصادية أكثر ممّا يتمّ تقييمه من خلال مثل هذه التدابير الإجمالية مثل النمو الإقتصادي. إنّ خلق حياة كريمة للناس في أوطانهم مع احترام القيود المفروضة على القدرة الإستيعابية للأرض، هو التحدّي الأكبر للنظام العالمي المعاصر ويجب أن يكون الهدف المشترك للقيادة العالمية، وكذلك أساس السياسة

(*) الزومبي هو كائن جسدي أسطوري تمّ خلقه من خلال إنعاش جثة. يوجد الزومبي بشكل شائع في أعمال الرعب والخيال. أتى المصطلح من فولكلور جزيرة هَيتي، حيث أنّ الزومبي هو جسد ميت تمّ إحياؤه من خلال طرق مختلفة واكثرها شيوعا السحر المُسمّى فُودو.

الوطنية الموجهة نحو البيئة. وهذا هو مفهوم حساس وموسّع للأمن على جميع مستويات التفاعل الإجتماعي من الجوار المحلي الى القرية العالمية، التي تحوّل تركيزها على مراحل من «الأمن القومي» الى «الأمن البشري». الصين، من بين الدول الكبرى، هي الدولة الوحيدة التي توجّه تنميتها ستراتيجيات نحو صعود القوة الناعمة على المسرح العالمي، ولهذا السبب وحده، فإنّها تهددّد منافسيها الجيوسياسيين، وعلى رأسهم الولايات المتحدة.

نحو مراجعة حقوق الإنسان

قبل خمسة وعشرين عاما، في افتتاح مؤتمر حقوق الإنسان في كوالالمپُر، دُعيت للقاء رئيس الدولة آنذاك، مهاتير محمد، مع ثلاثة أو أربعة من المتحدثين الآخرين، وجميعهم من دول آسيوية. بمجرّد دخولنا الغرفة، استدار الزعيم الماليزي نحوي صارخا وسألني بنبرة متعالية الى حدّ ما، «لماذا يأتي دعاة حقوق الإنسان من الغرب دائما الى بلادنا لإلقاء محاضراتهم حول إخفاقاتنا فيما يتعلق بالحقوق السياسية، ومع ذلك لا يُناقشون تقدّمنا باحترام مطلقا فيما يتعلق بالحقوق الإقتصادية والإجتماعية؟» واضاف مهاتير، بأنّ الحقوق الإقتصادية والإجتماعية ذات أهميّة أكبر للغالبية العظمى من الناس في كلّ مكان، خاصة بلدان الجنوب. أجبت بخنوع على هذا الزعيم الهائل، الذي انتُقِد في كثير من الأحيان بسبب اسلوبه الإستبدادي، بأنّ اعتراضاته على هذا النهج الغربي لحقوق الإنسان كانت معقولة، وإنّني أشارك ردود افعاله الإنتقادية اتجاه غطرسة المنظمات غير الحكومية الغربية الرائدة في مجال حقوق الإنسان. في الواقع، ظلّ هذا التبادل الموجز معي طوال العقود الثلاثة الماضية وجعلني أكثر حساسية لدقة وملائمة تلك الملاحظة.

لقد لاحظت على سبيل المثال في الإنتقادات الأخيرة المتكررة للصين وڤيتنام وتركيا، أنّ التقييم الكامل لتجارب هذه الدول في مجال حقوق الإنسان قد تمّ تقليصه الى التركيز على مدى حريّة التعبير ومجموعة الحريات السياسية المرتبطة بمعارضة سياسات الحكومة، في حين لا يتمّ النظر في شيء آخر. بالطبع وكما اقترحنا سابقا، أعتبر هذه الحريات حيوية لنوعية الحياة السياسية،

التي هي جزء لا يتجزّأ من حياتي، وأنا أشارك في شجب إنكارها. لكنّ مثل هذه التعدّيات عموما لا تؤثر إلّا على أقلية صغيرة تطفو الى حدّ كبير بالقرب من قمّة الهرم الإجتماعي والإقتصادي لإضفاء مزيد من المصداقية على هذا التقييم السلبي لحقوق الإنسان على النحو الذي يروّج له الغرب. تمّ تجاهل حالات التقدم الهائل التي حققتها بعض هذه الحكومات في تلبية الإحتياجات الماديّة للفقراء تماما في التقييم الشامل لسجلات حقوق الإنسان الخاصّة بها. وكمثال على ذلك فإنّ الفخر البريطاني المُبرّر بجودة ديمقراطيتهم السياسية أمر مفهوم. ولكن ما هو ليس كذلك، هو نسيان الحقيقة المزعجة المتمثلة في أنّ واحدا من بين خمسة يعيشون في بريطانيا يعاني من انعدام الأمن الغذائي على أساس يومي، وأنّ الأرقام ليست مختلفة في البلدان الأخرى «الغنية» و«المستنيرة».

بالإضافة الى ذلك، في حالة تركيا، فإنّ الحكومة تستحقّ الثناء لتعاملها بشكل إنساني مع ما يقرب من أربعة ملايين لاجئا معظمهم من سوريا، وهو رقم من شأنه أن يكسر الظهر الديمقراطي لأيّة دولة أوروبية أو أمريكية شمالية. وبالمثل، فإنّ إهمال الفقر المُدقع والتشرّد في أمريكا على نطاق من شأنه أن يجعل البلد منبوذا من ناحية حقوق الإنسان. ولكن في الواقع، حتى اللِبراليين يتجاهلون محنة هذه الشرائح المحرومة ماديّا من المواطنين أثناء تقديم إدانات مرضية ذاتيا للأمور السياسية والحقوق المدنية في الدول غير الغربية.

هناك عدد من التفسيرات لهذا الرفض في الغرب، خاصّة في الولايات المتحدة والمملكة المتحدة وأماكن أخرى، لتوسيع تصوّر حقوق الإنسان لتشمل الحقوق الإقتصادية والإجتماعية والثقافية. لسبب واحد، هو أنّ هذه الحقوق ليست جزء من الإجماع الأيديولوجي الأساسي حول فكرة الشرعية السياسية، والتي تقوم أصلا على الفرديّة اللِبرالية والإنتخابات الحرّة وسيادة القانون. كما يُعبّر المدافعون اللِبراليون غالبا، فإنّ المجتمع اللائق هو المجتمع الذي يُمنَح فيه الجميع الفرصة لتحسين أوضاعهم، بما في ذلك الحصول على التعليم والرعاية الصحيّة، ولكن ليس بالضرورة ضمان الحماية الإجتماعية في حالة الفشل أو الإعاقة. وبطبيعة الحال، يرتبط هذا مع الإصدارات النولِبرالية للرأسمالية، التي اصبحت مهيمنة بعد الإنهيار السوڤيتي واختفاء أيّ منافس

مسؤول إجتماعيا. من منظور اللِبرالية الجديدة، فإنّ السوق وليس الدولة هي التي يجب أن تحدّد توزيع السلع والخدمات الماديّة. هذا يعني «الحقّ» في الفشل. ينعكس هذا الإستبعاد للتعاطف مع الخاسرين في ألعاب الحياة في السياسات والممارسات والمعتقدات الأساسية للدولة الرأسمالية. وهو ما يجعل وجهات النظر الرأسمالية للشرعية السياسية غالبا غير إنسانية في تأثيراتها. وقد تجلى ذلك في بعض الإستجابات الوطنية القاسية ضدّ المهاجرين البائسين الباحثين عن ملاذ آمن في البلدان الأكثر ثراء. من المُسلم به أنّ الضغط الذي يمارسه المهاجرون قد يجهد القدرات الوطنية، لكنّه يتطلب معاملة أكثر تعاطفا من الجدران والأسلاك الشائكة والحبس في ظروق بائسة. يبدو واضحا أنّ نوعا من النظام العالمي الهجين والمتعدّد المستويات هو الحلّ، حيث يجمع بين ديناميكية الرأسمالية والتعاطف الإشتراكي القائم على الإحتياجات، وكلاهما مشبع بسياسات حساسيّات إيكولوجية مسؤولة.

في هذه النواحي في عملي ومعتقداتي، توصّلت الى رؤية جوهر حقوق الإنسان على أنّها وراء القانون والطريقة التي يتعامل بها نظام سياسي معيّن رسميّا ووجوديّا مع الأقليات والفقراء والضعفاء. آمل أن تتبنى المنظمات غير الحكومية الرئيسية لحقوق الإنسان هذا النوع من التوجّه بدلا من تكريس معظم مواردها وطاقاتها لحماية الحقوق السياسية والمدنية فقط. من المسلم به أنّ هذا التحوّل في الأولويات سيتطلب نوعا من دعم التمويل غير المُسيّس، الذي قد يكون من المستحيل تقريبا ترتيبه. نتيجة لذلك، يميل العديد من الجهات الفاعلة في المجتمع المدني الغربي الى التعامل مع عذابات الفقر والبطالة والتشرّد باعتبارها مسائل هامشية، إذا كانت ذات صلة على الإطلاق. تستحقّ كلتا المجموعتين من الحقوق الإحترام والإمتثال. لقد كانت نتيجة ثانوية مؤسفة للإنقسامات الأيديولوجية للحرب الباردة أن يتمّ تحويل النهج الموحّد للإعلان العالمي لحقوق الإنسان UDHR الى عهدين منفصلين لحقوق الإنسان يعكسان الهويّات المعيارية المتعارضة المُفترضة للغرب الرأسمالي (العهد الدولي الخاص بالحقوق المدنية والسياسية) والشرق الإشتراكي (العهد الدولي الخاص بالحقوق الإقتصادية والإجتماعية والثقافية). أعتقد أنّ العودة الى روح الإعلان

العالمي لحقوق الإنسان يجب أن تُصبح هدفا لنشطاء حقوق الإنسان، ولا سيّما اعطاء أهمية للمادتين 25 و28 من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان والدعوة الى مستوى معيشي يلبّي الإحتياجات الماديّة للجميع ونظام دولي متناسق يفي بمجموعة كاملة من القواعد التي تشملها معايير حقوق الإنسان في بعض النواحي، بحيث تتحرك اهداف التنمية المستدامة SDG، كما اوضحتها الأمم المتحدة بشكل متناقض في هذا الإتجاه المرغوب، ولكن دون أيّ ادّعاء بفرض التزامات قانونية. علاوة على ذلك، في عصر تصاعد القومية، من السذاجة توقع تقدم كبير على هذا المنوال في أيّ وقت قريب. والأهمّ من ذلك، فإنّ اهداف التنمية المُستدامة تشارك في اتجاه مقلق للتعامل مع التعهدات الدولية، بما في ذلك الإتفاقيات، التي تمّ التفاوض عليها بعناية بشأن القضايا الرئيسية، باعتبارها تعهدات طوعية في الأساس وليست التزامات قانونية مُلزمة.

لقد توصّلت الى وجهة النظر هذه، ببعض المساعدة من استفزاز مهاتير، أنّ الدولة الشرعية هي دولة تهتمّ بمجموعة حقوق الإنسان المتكاملة، بما في ذلك أبعادها الإقتصادية والإجتماعية والثقافية. على هذا النحو، فهو يرفض فكرة الشرعية السياسية التي صاغها جورج هِربَرت بُش وآخرون في نهاية الحرب الباردة، والتي تقول إنّ الشكل الوحيد للدولة الشرعية هو الذي يعتمد على ما كان يُسمّى «الدستوريّة الموجّهة نحو السوق». يُثير هذا سؤالا مقلقا: من منظور شامل لحقوق الإنسان، هل توجد حاليا دولة شرعية واحدة في العالم بأسره؟ إنّ طرح السؤال يُسلط الضوء على المُستنقع الأيديولوجي والأخلاقي لنضال عالمنا ما بعد الحداثي وما قبل الأيكولوجي.

ما وراء العقلانية الآلية:
الروحانيات والدين والأخلاق البيئية

من الواضح أنّ أكثر ما فصلني عن زملائي الأكاديميين في جامعة پرِنستُن هو الطابع المعياري لعملي الأكاديمي، الذي كان أكثر بكثير من تحالفاتي السياسية أو ارتباطاتي مع النشطاء المصاحبة لها، والتي ينبع معظمها من هذا

الإحساس بالعالم. لقد وسّعت الفجوة بيني وبين زملائي في الإدارة، خاصّة أنّ تأييدي للنضال الوطني الفلسطيني أصبح موضع جدل عام. هذا التوجّه نحو التعاطف مع ضحايا المعاناة وخاصّة الضحايا الناتجين عن السياسة الخارجية الأمريكية أو الإهتمام باشكال جذريّة من الإصلاح العالمي، الذي ينطوي على تغييرات غير تدريجية في هيكل العلاقات الدولية أو الإحساس بأنّ قادتنا يجب أن يخضعوا للمساءلة بموجب القانون الدولي الجنائي، الذي كان في الأساس على خلاف مع نموذج المعرفة السائد ورُفِض في مجالات السياسة باعتباره «مثاليا». بعبارة أخرى، ووفقا للمعايير الأكاديمية، التي تسيطر على الدراسات الحالية، ما يُسمّيه الفلاسفة «نظرية المعرفة»، أو دراسة المعرفة، تستبعد القيم والرؤى من دراسة السلوك السياسي. على النقيض من ذلك، فإنّ مساعيّ كمدرس وباحث وناشط ومعلق ومواطن، وفوق ذلك كمفكّر، كانت مبنيّة على ما يمكن أن أسمّيه «نظرية المعرفة الأخلاقية». أي ربط جميع اشكال المعرفة بالقيم المعرّضة للخطر والإلتزام بالنظر اليها باعتبارها ذات صلة فقط، إذا كانت تعزّز رفاهية الإنسان. إنّني أدرك بالطبع، الآراء المتناقضة لرفاهية الإنسان وأدرك أنّ المحافظين المبدأيين وحتى الرجعيين لديهم دوافع تشبه وجهة نظري في المشاركة الأخلاقية والسياسية. لا استطيع أن أدّعي أيّ تفوّق متأصّل في آرائي على آرائهم، إلا من خلال الجاذبية السياسية النسبية لمثل هذه الرؤى المتنافسة.

لقد انطلق تطوّري المهني الخاصّ من الإفتراض الراسخ بأنّ القانون الدولي فيما يتعلق بالسلام والأمن والبيئة وحقوق الإنسان يقدّم إرشادات مفيدة محتملة لا ينبغي احترامها من قبل الأقوياء والضعفاء فحسب، بل يجب أن تعود بالفائدة على كليهما. في هذا الصدد، ما زلت منزعجا كما ناقشنا سابقا، من الإستثناء الأمريكي بأشكاله المختلفة واعتماده الدائم على المعايير المزدوجة وإدانة الآخرين لفعلهم ما نقوم به والمطالبة عادة بحقّ الولايات المتحدة في التصرّف دوليا دون مساءلة.

تبلورت هذه القضايا في افكاري وممارستي خلال حرب فيتنام. بدأت في تلك الفترة أؤكّد أنّ السياسات الأمريكية انتهكت القانون الجنائي الدولي، وأنّ التنفيذ السليم للقانون من شأنه أن يُحاسب القادة الأمريكيين. أعترف أنّ هناك

عنصرا إشكاليا في الزعم بأنّ السلوك الأمريكي في ڤيتنام كان غير قانوني بطرق مختلفة. وفوق كلّ شيء، كان هناك آخرون مؤهلين على قدم المساواة، وعادة ما يتمتعون بمكانة اجتماعية أعلى، على استعداد للقول بأنّ هذه الممارسات المتنازع عليها كانت قانونية. المشكلة المؤلمة هي «من يُقرّر؟» وبطريقة موثوقة. جزء من ضعف القانون الدولي هو عدم وجود آليات مؤسّسية جديرة بالثقة ومتاحة بانتظام لإصدار احكام بشأن ما هو قانوني وما هو غير قانوني. كانت جهودي في شكل مناشدات للمتخصّصين القانونيين الآخرين والمواطنين. ولكن من أنا حتى أطالب بأيّة سلطة خاصّة لآرائي؟ لقد تجاهلت عموما عدم قدرتي وشاركت في التعبير مع الآخرين بشكل رسمي عمّا يسمح به القانون وما لا يسمح به. صحيح أنّ المحكمة العالمية والمحكمة الجنائية الدولية موجودتان، لكنّهما تفتقران الى التفويض لإتخاذ قرارات بشأن القضايا الحاسمة حقا، وليس لديهما القدرة على تعديل السلوك السياسي المثير للجدل، أو حتى إصدار أحكام عليه، أو مواجهة سوء السلوك حتى من قِبل الدول الأصغر. يتناقض هذا مع صراعات المعارضين لقرارات المحكمة العليا الأمريكية المثيرة للجدل مثل Roe v. Wade أو Citizens United. في هذا الوضع المحلي، تكون سلطة القرار القانوني مؤقتة بطبيعتها، ولا تنتهي أبدا على المستوى الوطني حتى في الدول ذات السيادة وذات الهياكل الدستورية الراسخة والمحترمة.

كنت مقتنعا أيضا أنّه في عالم متزايد الترابط، كانت قيود القانون الدولي، كما افهما، متّسقة مع المصالح الوطنية للولايات المتحدة، إذا تمّ وضعها في سياق مناسب لمراعاة مخاطر الحرب العالمية الثالثة والأسلحة النووية ونقاط الضعف البيئية والفوائد العملية لبناء مجتمع عالمي إنساني. كما كشفت ردود فعل زملائي الأكاديميين والسياسيين وأصدقائي، بالنسبة لمعظمهم، أنّه من الواضح أنّني ذهبت بعيدا جدّا. كان من المقبول تماما، لا سيّما في المراحل الأخيرة من حرب ڤيتنام، الزعم بأنّ تلك الحرب بالذات كانت خطأً فادحا وأنّه كان يجب إنهاؤها في أسرع وقت ممكن، وأنّ وجهة نظر أكثر تقييدا لحرب الرئيس كان يجب أن تأتي على شكل تشريع صلاحياته كأولوية سياسية.

في الواقع، أصبح هذا التحوّل البراگمَتي ضدّ سياسات ڤيتنام بمثابة إجماع

وطني تقريبا في أوائل السبعينات. المعارضون الواقعيون المؤثرون للحرب، بما فيهم جورج كِنَن وهانز مِرگنثاو، وبعد ذلك الى حدّ ما جورج پَول، وحتى لاحقا روبَرت مَكنَمارا، قد أسّسوا معارضتهم على هذا النوع المنطقي الواقعي القديم القائل بأنّ هذه الحرب بالذات تضمّنت استخداما غير حكيم للقوّة العسكريّة الأمريكية في سياق غير ستراتيجي. مثل هذا الإعداد جعل من الصعب إبراز قوّة أمريكية كافية في منطقة القتال وأضعف القدرات العالمية حيث كانت المصالح الستراتيجية الرئيسيّة على المحكّ. تمّ التوصّل الى هذا الإستنتاج لأنّه تمّ الإعلان عن أنّ مغامرة ڤيتنام قد أدّت الى تآكل ثقة الجمهور والنخبة في قدرات الولايات المتحدة لتحقيق انتصارات في ساحة المعركة بتكاليف مقبولة، أو الوقوف الى جانب حلفائها عندما يواجهون تحدّيات خطيرة. وقد تفاقم هذا الفشل في السياق الڤيتنامي بفقدان الدعم في الداخل لمثل هذا النهج العسكري للسياسة الخارجية للحرب الباردة. أصبح جزء كبير من المواطنين يعتقدون أنّ التضحيات بالأرواح والموارد الأمريكية غير مقبولة، معتبرين أنّ الوطن الأمريكي ما كان في خطر ولم يتعرّض أيّ من حلفائه المُهمّين للهجوم.

ومع ذلك، فإنّ ما لم يكن مقبولا أبدا في الدوائر السائدة والنخبة هو رفض سياسات الحرب أو النزعة العسكريّة بسبب الدمار والمعاناة التي لحقت بالشعب الڤيتنامي أو الإشارة الى الطابع الإجرامي لسياسات الحرب كسبب كافٍ لتبريرها إطلاقا. ومرة أخرى، كان من المقبول في التيار الأمريكي السائد الإصرار على أنّ الحرب مكلفة للغاية في الأرواح والأموال، وأنّها اضرت بالسمعة الجيوسياسية للولايات المتحدة كقائدة لتحالف عالمي حكيم وفعّال في السياق الذي هيمنت عليه الحرب الباردة. لقد أصبح من غير المعقول أن تتجاوز انتقادات الحرب الحدود المعيارية التي تدلّ على عدم شرعيتها والتشكيك في حسن نيّة ودوافع القادة السياسيين والعسكريين، الذين نفّذوا سياسات الحرب هذه. والأهم من ذلك كله، العبور لدعم الجهود السياسية للحرب. وفي الواقع القول بأنّ الحركة الوطنية الڤيتنامية التي يقودها الشيوعيون، تستحقّ أن تسود على الجغرافية السياسيّة للحرب الباردة. إنّ سحق حقوق الڤيتناميين في تقرير المصير ورفض احترام العزل القانوني لنضالات التحرير من التدخّل المسلح،

جعل المحاولة الأمريكية لإبقاء حكومة سايگون في السلطة سياسة فقدت حتى الدعم السائد، حيث اصبح من الواضح أنّ المهمّة العسكرية لم تنجح. اصبحت انتقادات السياسة مقبولة تماما، بينما لم تكن انتقادات الهياكل الأساسية للسلطة السيادية والعسكرة مقبولة.

على النقيض من ذلك، كان التركيز السائد للنقاش السياسي حول حرب ڤيتنام في مرحلتها النهائية على ما إذا كان الإلتزام بحماية نظانم سايگون ممكنا على الإطلاق نظرا للظروف التاريخية العامة وفساد النخب الڤيتنامية الجنوبية والمزاعم أنّها مشكوك في ولائها. تمّ الإعتماد على تكتيكات مكافحة التمرّد بالنظر الى طبيعة الصراع. أراد الجميع التعلم من كارثة ڤيتنام، لكنّ منتقديها البراگمَتيين والمؤسسين أرادوا تجنّب الأخطاء المستقبلية بينما سعى منتقدوها المعياريّون الى تجنّب الإلتزامات المماثلة لتي تنطوي على تدخّلات عسكرية في دول اجنبية ضدّ الحركات الوطنية الناشئة، خاصّة عندما تعزّزها الحقوق التحريرية،إذ كان النضال قائما ضدّ الحكم الإستعماري أو انظمة الفصل العنصري.

كان هناك قبول واسع النطاق بأنّ هناك الكثير لنتعلمه من تجربة ڤيتنام. ولكن نظرا للأهداف المتعارضة للنقاد، فليس من المستغرب أن تنحرف توصيات السياسة في اتجاهين متعاكسين. كان مجلس العلاقات الخارجية مهتمّا بالحفاظ على استمرارية المشاركات الأمريكية العالمية في حقبة الحرب الباردة، بينما بدا أنّ البِنتگون ومراكز الفكر يفكّرون في كيفية الحفاظ على ميزانياتهم مع إعادة تشكيل الأمن العالمي في سياسات المستقبل. تناول تفكير البِنتگون القضايا التكتيكية بهدف تجنّب اخطاء الماضي في المواقف القتالية المستقبلية ذات الطابع الڤيتنامي. كانت الفكرة العامة هي إيجاد طرق أفضل للحفاظ على الدعم من المجتمع المحلي للمشاريع العسكرية الطويلة في الخارج، والتي كانت تُعتَبر جزءً من مهمة الأمن العالمي للولايات المتحدة.

على عكس مثل هذه الآراء المتشدّدة، فقد جادلت لصالح الإلتزام المستقبلي بمعايير الميثاق، التي تحظر اللجوء الى القوّة العدوانية والتدخّلات العسكريّة في المجتمعات الأجنبية. كنت أعتقد أنّ هذا سيمنع مثل هذه الحروب في المستقبل،

إمّـا لمنـع تغييـر الأنظمـة أو لتحقيق ذلك. كان هذا موقفي حينها ولا يزال كذلك الآن عندما تغيّرت طبيعة الخصوم، كما بدا في عام 2020 أنّ الجهات الفاعلة غير الحكومية تشكّل أكبر تهديد للنظام العالمي القائم. كنت أرغب في منع مثل هذه الحروب، بينما أرادت الطبقة السياسية في واشنطُن أن تجعلها قابلة للفوز. بدون شـكّ، لقد هُزمت في مجال مناقشـة السياسـة. في الواقع منذ ڤيتنام، تمّ التلاعب بأهميّة القانون الدولي في وضع السياسـة الخارجية الأمريكية وتهميشـها. وهي عملية اشتهرت صراحة في الردود على هجمات 11 سبتمبر، والتي اعتمدت على «مُبرّرات قانونية» مفتعلة بوضوح وتمّ طرحها من أجل التعذيب وانتهاك السيادة الإقليمية، متى تطلبت مقتضيات مكافحة الإرهاب ذلك.

مـن هـذا التركيـز المهنـي الى حدّ ما على القانون الدولي، قمت بتسـييس اهتماماتـي عـن طريـق الرجـوع الى المفاهيـم الأخلاقية والتاريخية للشـرعية، باعتبارها اختبارا للسياسة الدولية. وفي عملية طرح مثل هذه الأفكار اصبحت أقـدّر بشـكل أكبـر الجوانب المظلمة مـن القانون الدولي، بما في ذلك معاملته للاراضي المحتلة للشـعوب الأصلية على أنهّا فارغة وبالتالي قابلة للإسـتيلاء وعلـى فـرض السـيادة عليهـا بموجـب مبدأ الإكتشـاف واضفاء الشـرعية على الإسـتعمار والحـروب العدوانيـة. إنّ الفتوحـات والترتيبـات الإقتصاديـة الإستغلالية، انتجت إثراء غير عادل لبلدان أوروبا وأمريكا الشمالية ولأصحاب رؤؤس الأموال الخاصّة بتلك البلدان. إعتقدت أنّ القانون الخالي من الأغراض الأخلاقيـة والتطبيـق السياسـي يمكن أن يسـتخدم سياسـات غيـر مقبولة، كما كان الحـال محليّـا فـي جميـع الدول التي تحكمها بشـكل اسـتبدادي. دفعتني هـذه الإدراكات الـى التحـوّل أكثـر فأكثر الى اعتبارات العدالـة وفكرة القانون القائـم علـى العدالـة. وفي مسـألة جانبيـة، أعدت قراءة أطروحـة روبرت مُلر، التي اشـرفت عليها منذ أكثر من نصف قرن، حين ارتقى الى الصدارة الوطنية فـي دوره كمُستشـار خـاص، وأذهلت فكرته الملائمة بصفتـه طالبا جامعيّا في برِنستُن، أنّه عندما يمكن قراءة النتائج القانونية بشكل معقول وبأكثر من طريقة واحدة، فمن المناسـب اللجوء الى كيفية ارتباط التفسـيرات المتميّزة للقانون بمسائل العدالة المعنيّة. من المُثير للإهتمام السؤال الذي تناولته أطروحة مُلر

عمّا إذا كان ينبغي للمحكمة العالمية في لاهاي إصدار حكم بصدد شرعية ضمّ نظام الفصل العنصري في بِرِتوريا لما كان يُسمّى آنذاك جنوب غرب أفريقيا، التي تسمّى الآن ناميبيا.

على الرقعة الأوسع لما يُسمّى «السلام والتحوّل العالمي»، إنغمست في نظرية المعرفة الحكيمة، التي استرشدت بما بدا ضروريّا ومرغوبا بدلا ممّا بدا ممكنا سياسيّا. أكّد عملي السابق حتى السبعينات على نوع من النهج العقلاني لهذه القضايا، داعيا الى «نظام توجيه مركزي» في الشؤون العالمية والذي فشل عمدا في الدعوة الى حلول دستورية أو حكومة عالمية. لقد كان خطأ رفيعا سعى الى فصل ما هو ضروري وظيفيّا عن التخمينات الطوباوية، التي تفتقر الى احتمالات تحقيق الزخم السياسي. لقد تبنّيت منظورا أعطى تعبيرا ملموسا عمّا قد يشجّع على التحوّل في التحليل والوصف من منظور المصالح الوطنية الى منظور المصالح العالمية والإنسانية.

لقد فرضت عليّ «الأزمة الأكاديمية لمرحلة منتصف العمر»، التي عانيتها من الإعتراف بأنّ ما كنت اقترحه لم يكن من المرجّح أن يتغلب على مجموعة متنوّعة من العقبات أكثر من تلك التي يواجهها دُعاة الفدرالية في العالم، الذين أهانوا عملهم ربّما بشكل مُفرط في عملية البحث عن صوتي وتشكيله. على الأقلّ، طوّر القدراليون في العالم شبكة عبر وطنية من الجمعيات التعاونية، التي تطرح الأفكار والمقترحات. إكتسبت نوعا من المناصرة، التي تجسّد في كتابي الطويل **دراسة عالم المستقبل** (1975)، الذي حظي بعدد قليل من المراجعات الإيجابية. لكنّ الكتاب وجد مكانه الدائم في أكوام المكتبات البعيدة دون إحداث موجات سياسية.

خلال مشاركتي في التطوّرات في إيران، اصبحت أقدّر الأهمية السياسية للدين والروحانية في تحقيق التغيير في ظلّ ظروف معيّنة لا يمكن أن تأتي إلّا من الحركات الشعبية التي تعمل خارج القانون. في مثل هذه الحالات، تصبح النخب السياسية الحالية غير ذات صلة بسبب واقعها المتجذّر في نظام مؤسس فاقد للمصداقية وغير شعبي. عكست إعادة التوجيه هذه خيبة أملي من الحلول الماركسية باعتبارها ضحية تاريخية للتجربة السوفيتية، وكذلك من خلال عزلتي

عن اجواء النخبة في پِرِنستن ومجلس العلاقات الخارجية كمصدرين محتملين للتغيّر التدريجي.

كان واضحا أيضا أنّ تجربة ما بعد الشاه في إيران أنّ الإسلام السياسي لم يقدّم مسارا إيجابيّا للمضي قدُما في اجواء ما بعد الإستعمار في الشرق الأوسط العربي، وكذلك لم يفعل خصومه العلمانيون والملكيّون. كانت لديّ آمال في تركيا خلال السنوات الأولى لقيادة إردوان لأنّها بت وكأنّها تجمع بين الإهتمام باحتياجات الشعب التركي ككُلّ واستقلال ما بعد الحرب الباردة ونهج سلام وعدالة في المنطقة والعالم. لكنّ الإتجاه انحرف بعد ذلك عن مساره محليّا وفيما يتعلق بالسياسة الخارجية.

بحثي عن الرّوحانيات خارج إطار الدين

لقد اصبحت أقدّر بشكل ملموس للغاية، لا سيّما في إيران والى حدّ ما في تركيا، كيف حظى الدين والروحانية بجاذبية جماهيرية، وكيف أدّت قاعدة ثقافية متينة من التقاليد والقيم الى ظهور مفاهيم للواقع أقلّ انعكاسا لأولويات دول اقليمية معيّنة وايديولوجيتها الوطنية الداعمة، التي وعدت بالأمن والهوية مقابل الولاء والتضحية. كان العديد من اصدقائي العلمانيين، وخاصّة أولئك الذين ينتمون الى اليسار الماركسي ولكن أيضا حتى أولئك الذين لديهم تجارب دينية سلبية في تجربتهم الشخصية أو المجتمعية، مقتنعين بضرورة نبذ الدين دون قيد أو شرط، زاعمين أنّه مسؤول عن الكثير من التطرّف والإنحدار الإجتماعي، وهم من ذوي الخبرة في جميع أنحاء العالم. وعلى الرغم من انتقادهم للشاه، الّا أنّهم خشوا أن يكون الحكم الإسلامي أسوأ.

لم اتوصّل ابدا الى مثل هذا الإستنتاج، على الرغم من أنّ الثورة الإيرانية بعد أن اتخذت العديد من المنعطفات الخاطئة من منظور السياسة التقدّمية والإنسانية، كنت أكثر تقديرا للموقف المتشكك للإنسانيين المناهضين للدين. في بعض النواحي، كانت مواقفي المتطوّرة اتجاه إيران تشبه حكمي السياسي على تركيا تحت حكم إردوان. لقد تأثرت بشكل إيجابي ببعض من انجازات إيران وانتقدت جوانب اخرى من حُكمها. كنت طوال الوقت أعارض بشدّة

الجهود المختلفة لزعزعة استقرار إيران ومواجهة مجموعة متنوّعة من التهديدات القسرية، التي تتعارض مع ميثاق الأمم المتحدة والحقوق السيادية لكلّ دولة عضو في الأمم المتحدة. ما زلت اعتقد أنّ احترام ديناميكيات تقرير المصير الوطني هي الأساس المعياري للنظام العالمي المتمركز حول الدولة في حقبة ما بعد الإستعمار. باختصار، فإنّ أفضل طريق للسلام العالمي في الوقت الحاضر هو الإذعان الجيوسياسي لسياسات تقرير المصير، جنبا الى جنب مع رفض التدخلات لتغيير الأنظمة.

لقد توصّلت الى هذا الإستنتاج، ليس فقط لأسباب أخلاقية، ولكن بتقدير واقعي أنّ المقاربات العسكرية للسياسة الخارجية للفاعلين الجيوسياسيين قد فقدت قدرتها في معظم سياقات مرحلة ما بعد الإستعمار، حتى مع زيادة قدرتها التدميرية والتكاليف البشرية الناجمة عن ذلك. حقيقة أنّ الصين وآسيا تفهمان ذلك، والولايات المتحدة والغرب لا تفهمانه. ولقد ساعد هذا في تفسير صعود الصين وانحدار الغرب.

المعتكف الأكاديمي

بسبب تخمّر هذه الفكرة وتجوالي الشخصي والسياسي، حاولت أن اطرح مقاربة للأهميّة الدينية، التي تعترف بالإمكانيات ولكن أيضا في الأخطار الكامنة في ديانات العالم العظيمة. كانت النتيجة كتابا يعنوان «**الدين والحكم الإنساني العالمي**»، الذي صدر عام 2000 ورسم تمييزا مركزيّا بين السمات الشاملة والحصرية لأديان العالم العظيمة. قصدت من خلال هذا التمييز الموافقة على فكرة العقيدة الدينية التي دمجت الجميع في «الأسرة البشرية» واعتبرت أولئك الذين ينتمون الى ديانات أخرى أو غير المؤمنين مستفيدين يستحقون الحقوق والحماية الإجتماعية، وكذلك الخلاص Salvation. لقد أعربت عن رفض مماثل للبُنى الدينية العمودية Vertical Religious Constructions، التي تميّز المؤمنين الحقيقيين على حساب الآخرين. وهو التسلسل الهرمي الذي غذّى الحروب المقدّسة وألهم العُنف الديني عبر العصور. أصرّت مقاربتي على أنّ الإنسانية بحاجة الى تعبئة دينية شاملة كجزء من النضال لبناء مستقبل بشري أفضل يتمحّور

حول واقع مجتمع عالمي ناشئ، وفي نفس الوقت تحديد وتقييد المناهج الدينية الحصرية من أجل الحضارة وحتى بقاء الأنواع. إنّ وضع التمييز يجب أن يكون بسيطا قدر الإمكان: إنّ المؤمن الشامل بالدين والروحانية هو مواطن رائد Citizen Pilgrim ومناضل تفرّدي يميل الى أن يكون متغطرسا وعدوانيا للقبيلة المؤطرة دينيّا.

هذه الذكريات السياسية، قبل كلّ شيء هي تصوير للهوية كما يتمّ الكشف عنها من خلال الممارسة والإعتقاد باعتبارها نقطة انطلاق للطموح والمعرفة الخيالية. على وجه الخصوص، لقد فكّرت في حياتي كجزء من السعي لأنّ اصبح مواطنا رائداCitizen Pilgrim يبحث عن مستقبل واهِب روحيّ، وجزئيا عن تحمّل المسؤوليات التي اربطها بكوني مفكّرا عاما. يسعى هذا المستقبل الى تحقيق الإمكانات البشرية للعيش معا في بيئات مختلفة في سلام وعدالة للجميع. وهو ما يُفسّر لقاءاتي كمُفكّر عامّ مع مجموعة ملنوّعة من المدافعين الأقوياء عن الوضع الراهن. من هذا المنظور، حاولت في عملي الأكاديمي تفسير سلسلة من التحدّيات العالمية والتصرّف وفقا لها بحيث اصبحت بارزة في مجرى حياتي. دفعتني هذه التفسيرات في بعض الأحيان، الى الإنخراط في الفضاء العام كمفكّر عامّ وفي بعض الحالات كناشط. بصفتي مفكّرا، كانت مشاركتي في بعض الأحيان حزبيّة (ڤيتنام وجنوب أفريقيا وفلسطين)، وفي بعض الأحيان دفعت لتحقيق التوازن في معارضة الإستقطاب (إيران وتركيا). دفعتني فقط في السياق الأمريكي لتقديم صوت نقدي للردّ على السياسات الخارجية للحكومة الفِدرالية، والتشوّهات الهيكلية، التي أحدثتها العنصرية النظامية والعسكرة والرأسمالية الجشعة.

في البداية، حاولت تشكيل مشاعري بأنّني مواطن أشترك مع المثقفين بالقيم والآمال التي حافظت على حياتي وعملي. في هذا الصّدد وبنظرة غير نقديّة الى حدّ ما، فضّلت المساواة العرقية والمساواة بين الجنسين في الداخل وسياسة خارجية موجّهة نحو القانون تتضمّن احترام مبادئ وإجراءات ومعايير ميثاق الأمم المتحدة، كما تمّ تفسيرها بشكل معقول. فكّرت في محاكم نورِمُبرگ على أنّها وضعت أساسا لتقييم شرعية السلوك المُستقبلي لجميع الدول، وليس مجرّد

فرض عقوبات على القادة العسكريين والسياسيين للجانب المهزوم في حرب كُبرى. إعتقدت أنّ المشاركة السياسية يتمّ توجيهها بشكل هادف من خلال الهوية الوطنية وإجراءات الحكومة. في الواقع، كنت وطنيًا موجّها للقانون واعتبرت أنّ الدول متساوية من الناحية القانونية وأنّ أيديولوجيات الحرب الباردة معادلة أخلاقيا Morally Equivalent. لقد اعتبرت الفاشية ومعظم الأنظمة الملكية وجميع انظمة الإستبداد القمعية غير مقبولة وغير شرعية.

كنت اعتقد أنّ إدعاءات «المواطنة العالمية» عادة ما تكون مدفوعة بنظرة عالمية، لكنّها حمقاء ومضللة سياسيًا. لقد فكّوت في وثائق السفر ذات الطابع الدرامي لگري دَيڤِس، الذي اصدر جواز سفر مواطن عالمي لنفسه، على أنّها حيلة دعائية الى حدّ كبير. كيف يمكن أن تكون هناك مواطنة بدون مجتمع اخلاقي عالمي واشكال فعّالة للحكم؟ لا تحتاج الفعالية الى إشراك الحكومة أو المؤسسات كما أوضحت العديد من المجتمعات الأصلية المتماسكة من خلال اعتمادها على التقاليد والعادات والقيم المُشتركة لتحقيق التماسك ووضع حدود معياريّة محترمة لما هو مسموح به. على الرغم من انتشار المؤسسات الدولية ووجود الأمم المتحدة، لا يوجد حتى الآن تماسك وقليل من الإحساس المشترك بالمجتمع أو الشرعية على المستوى العالمي. بالإضافة الى ذلك، هناك بشكل عام ضعور ضعيف بالإنتماء على المستوى الإقليمي والحضاري.

بالإضافة الى ذلك، لا تزال الحكومات ذات السيادة على الأراضي المحدودة تهيمن على المشاركة الهادفة في الساحات الدولية. وبالنسبة للمسائل المهمّة، هناك القليل من الشفافية العامة ولا وجود للمساءلة. تتجمّع الهويات الوجودية الحيوية حول مجتمعات قومية وعرقية ودينية قد تتعارض حول اختلافاتها، ولكنّها عموما قادرة على تحقيق اشكال ذات مغزى من التماسك والتعاون، وقبل كلّ شيء، مشاعر الإنتماء والولاء بطرق الأمم المتحدة وعلى المستوى العالمي والأقليمي. الهويات ذات التوجه الإقليمي تخيّب الأمال وتفشل، وصفات التعايش المجتمعي هذه مفقودة على المستويات العالمية وموجودة إسميًا فقط على المستويات الإقليمية والعديد من من المستويات دون الوطنية للتعايش.

إكتشـفت من خلال العمل والنشـاط وحتى اللعب، أنّ الأفكار مهما كانت مقنعـة لمـا يشـبه التفكيـر، لا تؤثّـر علـى السـلوك ما لم تكـن مبنيّة علـى الواقع السياسـي. شـعرت مع تقدّمي في السّـنّ أنّ نطاق الواقع السياسـي لم يسـتوعب طبيعـة ونطـاق تحدّيـات ما بعـد الحداثة في مجال اهتماماتي المسـتمرّة بالنزعة العسكريّة والرأسمالية الجشعة والأسلحة النووية والإستدامة البيئية وتغيّر المناخ والهجرة العالمية وحقوق البشر. شعرت بهذا الصدد بالإحباط بسبب الإتجاهات السياسـية التي بدت رجعية ومختلة. ومؤخّرا عزّزت أخطر السـمات والأشـكال التراجعية للنظام العالمي المتمركز حول الدولة. جعلت هذه السلبية أيضا سلاما مُستداما قائما على العدل وروح المساواة يبدو بعيد المنال للعديد من النزاعات، التي لم يتمّ حلها حول العالم، والتي كان الصراع الإسرائيلي/الفلسطيني صدى شخصيا كبيرا منها بالنسبة لي. بدت السياسة السائدة في البلدان التي كنت أعرف عنهـا كثيـرا عالقـة في دوّامات من الإلهاء والإضطراب المنهجي، بينما تراجعت السياسات التقدمية التي كنت انتظرها في أفق التوقعات المعقولة.

تبـع انخفـاض منزلتـي الشـخصية مـن قاعدة مرتفعة نسـبيا مسـارا متوازيا. طـوال حـرب ڤيتنـام، تـمّ التعامل معي كعالـم شـاب شـرعي وحتـى واعد. تمّت دعوتي الى العديد من مواقع المؤسسـات، وسـعى ورائي السياسـيّون اللِبراليون الذيـن أملـوا أن يصبحـوا رؤسـاء للبلد، ونُظِر اليّ كمشـارك مسـؤول في العديد من سـاحات النخبة السياسـية. لم يدُم هذا البروز طويلا. سـرعان ما تلاشـى في الأربعينات من عمري، وبشكل اساسي في البداية نتيجة وصفي (الخاطئ) كبطل للحركة الثورية في إيران. وأمكن إعلان وفاتي سياسـيا بعد أن جذبت انتقاداتي لإسرائيل انتباها محليا ودوليا.على مدى السنوات الخمس والعشرين الماضية، بالكاد تحملتني الأماكن المألوفة في مجلس العلاقات الخارجية أو حتى جامعة بِرنسـتُن. فـي هـذه المرحلة كان حرّاس البوابـة المتراخين متيقظين بدرجة كافية لإبقائـي خارجـا، مقارنة بانواع الدخـول التي تحققت دون مقاومة، وبالكثير من التشجيع، في اعقاب حرب ڤيتنام.

ومع ذلك وعلى الهوامش السياسية، أجد نفسي قد اشيد بدوري بما يتجاوز الواقع كشخص شجاع ومبدأي فيما يتعلق بفلسطين/إسرائيل والجغرافية السياسية والقانون الدولي. في الواقع ومع تراجع مصداقيتي السائدة واختفائها، اكتسبت حياتي على الهامش صدى وتأثيرا واحتراما. كان نمط التعزيز الذاتي، حيث لم اتلقَ أيّ اهتمام أو دعوات من المؤسسات، بينما غمرتني ردود الفعل الإيجابية من خصوم الجغرافية السياسية الإمبراطورية. استمرّ هذا التحوّل في الهويات. أعتقد أنّ جودة كتاباتي ومحادثاتي لم تنخفض، لكنّ منطقة اهميتها قد تقلصت وتحوّلت الى الهوامش الخارجية. كان بإمكاني قبل عشرين عاما كتابة مقالات رأي مع توقع جيّد بشكل معقول لنشرها في وسائل الإعلام الرئيسية. الآن ستكون محاولة بلا جدوى ومضيعة للوقت حتى أنّني لا أكلف نفسي عناء تقديم الطلبات. بدلا من ذلك، اقنع نفسي بإعداد منشورات لمدونتي الإلكترونية واجراء مقابلة أجنبية واحدة على الأقلّ في الأسبوع. وبطبيعة الحال، فإنّ الصورة مختلطة. على مدى السنوات العشر الماضية أو نحو ذلك، تمّ ترشيحي سنويّا من قبل جائزة نوبل ووجدت نفسي مدرجا من قبل مجموعة مراقبة المنظمات غير الحكومية النرويجية، التي بدأها فِردِرِك هِفَرمِل من بين مجموعة صغيرة من الأشخاص في جميع انحاء العالم، من الذين تعتبر منظمته أنّهم يستحقّون مثل هذا التقدير، بل وأعلن استحقاقي للجائزة في عام 1973 كبديل مفضّل للمتلقي الفعلي، هَنري كِسِنجَر.

لست مستاء من ديناميكية التهميش الذاتي هذه، التي طغت على حياتي العلمية وهويتي كمفكّر عام ومجيئي وذهابي كمواطن ملتزم. في بعض النواحي، اصبحت وحدي مرّة أخرى كما نشأت في منزل غير سعيد، ولكن في حالات أخرى اكتشفت تضامنات دافئة ومستدامة، حتى لو انفصلت عن اصحاب السلطة في بلدنا أو عالمنا. أفترض أنّ هذا المسار يجمع بين الإتجاهات السياسية الأوسع بعيدا عن معتقداتي التي خلقت نخبا عالمية أكثر تحفظا من الناحية السياسية، بالإضافة الى خياراتي الخاصّة، التي انتقلت نحو رؤية عالمية أكثر تقدما جذريّا. لا يهم طوال ما تبقى من العمر، أنّني لن استرشد أبدا بالمخاوف المتعلقة بإرضاء هذا النظام أو ذاك.

الفصل السابع عشر

مقترحات تحويلية

قد تُفسّـر حقيقة أنّني ولدت في يوم الجمعة الموافق 13 من الشـهر، لماذا بالنسـبة لي، قد يكون هذا الفصل هو الأهمّ. ومع ذلك، بالنسـبة لمعظم القراء يمكـن اعتبـار ذلـك كمهلـة Time Out. هنـاك أسـباب إضافيـة تجعلني آخذ هذا الفصل بجدّية أكثر من أيّ فصل آخر. كان لديّ زميل أكاديمي اسمه گايَل گان، وهو رجل أدب واسـع الإطلاع وأكثر. كتب بشـكل موحٍ عن «**أفكار للعيش من أجلهـا**» و«**أفـكار تمـوت مـن أجلها**»، وهي طريقته في الإشـارة الى مدى أهميّة حياة العقل بالنسـبة لشـخص يقضي الكثير من سـاعات يقظته محدّقا في شاشـة الكومبيوتر. وفي حياته السـابقة جلس بهدوء عند طاولة ينظر الى لوحة مفاتيح آلة كاتبة تقشعّر لها الأبدان أو صفحة فارغة. في الواقع، حتى بلغت الستين من عمـري، قمـت بتدوين كافة كتاباتـي حتى خطابات التوصية لطلابي بقلم ولوحة ورق صفراء طويلة. لسـنوات عديدة، أفسـدتني سـكرتيرتي الجميلة والرائعة في جامعـة پِرنستُن جـوان گارسُـن برينَن، التي ابتسـمت بعيـون متلألئة حتى عندما كانـت غاضبـة منـي، والـذي كان الواقع في كثير من الأحيان، لا سـيّما كردّ فعل علـى العمـل المتراكـم فـي اللحظة الأخيرة، ممّا يعكـس كفاحي مدى الحياة مع المواعيد النهائية. حتى التقدّم في السّنّ لم يجعلني أكثر واقعيّة بشأن تحمّل أكثر ممّا يمكنني تحمّله بشـكل مريح. إنّه أحد الأشـياء القليلة التي لا اسـتطيع القاء اللـوم عليهـا طيلـة العمـر! قاد الأداء في ظلّ هذه الضغوط الى نتائج متباينة على مدار سنوات عديدة.

علـى أيّـة حـال، أنـا لا أقـدّم أيّة إدّعاءات هيكلية بأنّ الأفكار هي ما يشـكّل

التاريخ أو يوجّه التغيير، على الأقلّ في كلّ ما لديّ. ما أقوله هو أنّ فحص الأفكار أو التفاهمات المفاهيمية للقضايا المتعلقة بالتدريس والقاء المحاضرات والمشاركة السياسية، كانت لحظات من الإشباع الفكري الأكبر لي، ممّا أدى الى نشوء مشاعر عابرة للإبداع والإثارة، وربّما أوهام العيش بها حقيقة وهي مستمرّة. تعتمد إمكانية تحويل الأفكار على ما إذا كانت تستجيب بشكل كاف للجو المحيط دون أن تكون خاضعة. أتساءل أحيانا لماذا تبدو افكاري، التي أحسّ أنّها استجابة للوقائع العقلانية والعلمية والأخلاقية، وكأنّها تفقد أهميتها مثلما تمّ تأكيد صحّتها من خلال التطوّرات السياسيّة والبيئية. بدلا من أخذ أفكاري بجدّية أكبر، شعرت أنّها كانت مساعٍ بعيدة أكثر فأكثر، ولكن لماذا؟ هل كان أفضل تفسير هو الإعتراف بأنّ العبقريةً الإعلانية للرأسمالية، كما تتكيّف مع سحر وسائل التواصل الإجتماعي، لا تتحكم في حياتنا فحسب، بل تتحكّم في خيالنا الجماعي، بفسادها الإستهلاكي المغري؟ أم أنّ خيبات الأمل كانت انعكاسا لنفس المزيج من الجشع والتجاهل المجتمعي، الذي يسمح للثروة الفائقة بالتعايش مع الركود الإقتصادي وإحباطات الطبقة الوسطى والتشرّد المُتفشّي؟

إنّ الأفكار التي ربطتها بعملي على مرّ السنين لها قواسم مشتركة لم ألاحظها إلّا عندما بدأت الكتابة عنها. إنّها جميعا، بالمعنى الأساسي، مدفوعة بما أسمّيه «الطموح المعياري»، أي السعي الى جعل العالم أكثر إنسانيّة بينما يصبح أكثر توجّها نحو البيئة. تعتمد هذه الأفكار في كثير من الأحيان على الإبتكارات في القانون الدولي والعلاقات الدولية للمضي قُدما في الرؤية. بعد قولي هذا، أنا متعاطف مع العديد من الآفاق الثورية، على سبيل المثال، إستبدال الرأسمالية بنظام اقتصادي أكثر انصافا مبني على القيم الإشتراكية أو الإعتماد على الجغرافية السياسية اللاعنفية وأنظمة الأمن القومي الأقلّ عسكرة من أجل الحماية الجماعية لشعوب العالم وما يحيط بها.

لم أقدّم في القرن الحادي والعشرين أيّة مقترحات شاملة لكي اعتبرها ذات فائدة أو صلة في الوقت الحاضر. كما اوضحت سابقا، لا أعتبر التفكير الفدرالي العالمي بنّاء بشكل عام، لأنّه لا يعالج غياب المجتمع، بمعناه الأساسي للإنتماء

والمشاركة، وفق الأطر غير الإقليمية خارج حدود الدول ذات السيادة القائمة.

لإنّني أدرك أنّ شجب الرأسمالية هو لفتة غير مسؤولة دون أن تكون لديك فكرة عن إطار بديل للتنمية الإقتصادية العالمية يمكن تحقيقه وستكون له قدرة مُحسّنة لتلبية الإحتياجات الماديّة لشعوب العالم مع حماية الإستدامة البيئية والرفاه واعتبارات العدالة. بهذا المعنى، وبسبب ضخامة التحدّي وضخامة مخاطر الفشل، فإنّني أفضلّ حاليا الإستمرارية مع زيادات قصوى للإصلاح على أساس العدالة والإستدامة والمجتمع. يعتمد هذا النهج على الإعتقاد بأنّ الإصدارات الأكثر إنسانية والأقلّ جشعا للرأسمالية هي في متناول اليد السياسية. يمكن تأسيسها بطرق من شأنها أن تخفّف بشكل كبير من الحوافي الحادة للأسواق غير المنظمة والإستغلال وعدم المساواة الجسيمة، مع الإحتفاظ بفوائد المنافسة والإبداع واللامركزيّة، التي تجعل النظام الإقتصادي القائم على السوق في العالم الحديث مرنا على الرغم من كلّ ذلك. وقد تبيّن أنّه أكثر ديمومة ومرغوبا فيه من البدائل الراديكالية مثل إشتراكية الدولة والفاشية. على مدى الخمسين عاما الماضية، أكّدت الصين الإمكانات المادية الهائلة لإطار رأسمالي معدّل تمّ تكييفه بذكاء بولسطة سياسات الدولة مع فرص السوق. هناك الكثير الذي يمكن للغرب أن يتعلمه من هذه التجربة الصينية، بغضّ النظر عن المجموعة المزعجة من الإخفاقات الإنسانية، التي صاحبت صعود قوتها الناعمة السريعة غير المسبوقة على المستوى الوطني والإقليمي والدولي.

كما هو مقترح طوال الوقت، أنا لست متعاطفا مع الأفكار، التي تقترح «حكومة عالمية» ولا أدعو الى هياكل جديدة للعالم دون تصوّر كيف ننتقل من هنا الى هناك دون مخاطر كبيرة تجعل الأمور أسوأ. أستمر في ترديد هذا الشعار لأنّني في كثير من الأحيان أوصف بشكل خاطئ في الأوساط العلمية بأنّني مدافع عن حكومة العالم، بغضّ النظر عن عدد المرّات التي أعتبرت فيها نفسي معارضا. نظرا لأنّني أنتقد الجغرافية السياسية كما تمارسها الولايات المتحدة والدول الرائدة الأخرى، وأفضّل عولمة ذات توجّه معياري، هناك أيضا إغراءات سائدة لتحديد موقفي كمثالي مُتعجّرف يريد تركيز السلطة في هيكل دولة عالمية من نوع ما، وبالتالي أتجاهل طابع الدولة الجيوساسي الراسخ للنظام العالمي.

إنّ أفكاري الفعليـة أكثر تواضعا. فهي تسـاهم فـي طريقة تفكيرنا وتصرّفنا بشـكل معيـاري لجعـل العالـم مسـكنا أكثر إنسـانية لأنفسـنا وللأجيـال القادمة والتعايـش بشـكل أكثـر انسـجاما مع البيئـة الطبيعية. لطالما اعتقـدت أنّنا بحاجة الى قدرات مؤسسية أكثر قوّة وقابلة للتحقيق على المستويين الإقليمي والعالمي. لقد فضّلت مبادرات مثل إنشاء المحكمة الجنائية الدولية، وعقد محاكم المجتمع المدني لمعالجة القضايا التي لم تكن الدول ولا الأمم المتحدة قادرة عليها. إنّ معالجة الآليات التنظيمية المناسـبة لرصد نزع السـلاح النووي وحظر الأسـلحة الكيميائيـة والبايولوجيـة والتحقـق مـن معاهـدة نزع السـلاح النـووي ممكنة إذا تحققت الإرادة السياسية.

لقد تصوّرنا، أنا وآندي شِتراوس، مثل هذا الجهاز التشريعي العالمي باعتباره وسـيلة للتوعية الديمقراطية التي من شـأنها أن تفتح مسـاحات للحوارات البديلة حول المشـاكل العالمية المرتبطة بأفاق الجغرافية السياسـية والدولة والسياسـة الإقتصاديـة العالميـة. يمكـن أن نتوقـع أنّ مثـل هـذا الصوت المؤسسـي الأكثر استجابة لأولويات وتظلمات وآمال الناس، أن يُنتج تفاهما بعيدا عن التصريحات والتأمّلات الحكومية الدولية لحلف شمال الأطلسي والأمم المتحدة والمنتدى الإقتصـادي العالمـي وكذلـك مجموعـة G–7 ومجموعـة G–8، ومئات الأماكن الأخرى المتعلقة بالدولة والجيوسياسية الموجّهة نحو السوق.

شـاركت علـى مـدار العقـد بيـن السـنوات 1985 لغايـة 1995، فـي حـدث مثيـر للمجتمـع المدنـي أطلق عليه إسـم «الأمم المتحدة للشـعوب» UN of the Peoples فـي مدينـة پِروجيـا في إيطاليا. كان القصـد منه توضيح الإختلافات في جـدول الأعمـال والأولويـات بين اجتمـاع «الأمم المتحدة للـدول» UN of the States فـي مدينـة نـو يورك وأولئك الذيـن اجتمعوا في پِروجيا لتقديم مقترحات وشـواغل متجذّرة في اهتمامات مزيج متنوع من الشـعوب التي تشـكل سـكّان هـذا الكوكـب. وكمـا كان متوقّعـا، فـإنّ الحاضرين الذين أحدثـوا أكبر تأثير في پِروجيـا، كانـوا يُعبّـرون عن عذاب الضعفاء والمقموعين، كما أكّد الحدث على احتـرام عميـق لأولئك الذين يمثلون الشـعوب الأصليـة كأوصياء على الأرض. تناقضت مثل هذه التوجّهات من القاعدة الى القمّة مع الإنشـغال من أعلى الى

أسـفل للحكومـات التـي هيمنـت على القطاعات التي تسـيطر عليها الدول ذات السيادة والنخب الإقتصادية.

ما أريد أن أعبّر عنه هنا هو الدرجة التي وصلت اليها الحياة العقلية داخل وخـارج الصفـوف الدراسـية والمكتبات لتشـكيل الأفكار بطـرق جديدة تعكس التطلعـات والتجـارب والتحدّيـات والمظالـم، ولكـن مع اليقظة اتجـاه الحقائق التي تتشكّل لدى البشر في هذه الفترة التاريخية. في حالتي، فإنّ رسم الخرائط للأفـكار التـي أريـد الحصول علـى بعض الإئتمان لها بحيث تتدفق مباشـرة من التدريس والدراسـة والمشـاركة. تبدو كلمة «إرث» نذير شـؤم للغاية، ولكن عند التفكير في حياتي الأكاديمية ومشاركاتي الأكثر نشاطا كمواطن، هذه هي الأفكار التي أريد أن اذكّرها بنفسي وادعو الآخرين المتعاطفين معي للإنضمام إليّ. يبدو أنّ هذه الأفكار ذات صلة مستمرّة بالتحدّيات المستمرّة، ولم يتمّ ترسيخها جيّدا حتى الآن، بحيث يمكن دمجها أخلاقيا وسياسـيا في أطر السياسـات الحكومية أو المنظورات العلمية.

الإبادة البيئية Ecocide

خـلال مشـاركتي الطويلـة في مناهضـة حرب ڤيتنام، التي بـدأت في أوائل السـتينات، اصبحـت قلقـا بشـأن العديـد من جوانب تلك الحـرب، بما في ذلك تكتيكات مكافحة التمرّد Counterinsurgency Tactics، التي اعتمدت على تدمير أجزاء من البيئة، التي يستخدمها الخصم الڤيتنامي لإخفاء تحرّكاته وإقامة الأمن فـي المناطق الأساسـية والتخطيط لنصـب الكمائن والهجمات منخفضة التقنية. أصبحـت علـى علـم بهذه القضايا نتيجة مقالات فـي مجلة *Scientific American* كتبهـا آرثـر وَستِنگ، الـذي اصبح فيما بعـد صديقا، وكذلك بِـرت فايفر. صوّر هـذان الكاتبـان بشـكل بيانـي ومقنع للغاية البيئة فـي ڤيتنام كجزء لا يتجزّأ ولكن غير مقبول من النهج العسكري الأمريكي.

لم أكن حتى أوائل السبعينات من القرن الماضي عندما بدأت أفكّر في أنّ مـا تفعلـه هـذه التكتيـكات بالبيئة والمحيط الطبيعي، كانت تشـابه مهمّة ما فعلته الإبـادة الجماعيـة بالبشـر. أدّى هـذا القياس الى التفكير بعبـارة «الإبادة البيئية»،

واعتبارهـا وصفـا لتلـك الأسـاليب وكتبرير لتجريمها في شـكل معاهـدة مُميّزة، سواء من أجل الوضوح الفقهي أو رفع مستوى الوعي العام حول الحدّ المقترح لتكتيـكات القتـل. بحلـول ذلك الوقت، كنت قد اصبحت قلقاعلى نطاق واسـع بشأن الآثار الخطيرة لصناعة الأسلحة الحديثة وأنماط الحياة التي أولّدتها على البيئة وأسس النظام البيئي للحياة على الأرض، كما تمّ وصفها سابقا. أصبحت مشغولا من الناحية الأيكولوجية Ecologically Preoccupied خلال الفترة ما بين السـنوات 1968– 1970 وقمت بالبحث والإعداد لكتاب نُشـر لاحقا بعنوان هذا الكوكب المُهدّد بالإنقراض: الآفاق والمقترحات من أجل بقاء الإنسان.

لست متأكّدا ممّا إذا كنت قد ابتدعت استخدام عبارة «إبادة البيئة» هذه أو استعرتها دون وعي. علمت لاحقا أنّه في نفس الوقت الذي كنت اكتب فيه عن هذه الموضوعات، كان عالم الأحياء في جامعة ييل، آرثر گالِستُن، يهاجم أيضا التكتيكات الأمريكية في الحرب ويُطلق عليها إسم «الإبادة البيئية». مَن يستحقّ أن يُنسَـب اليه الفضل في ابتداع هذه العبارة؟ يبدو أنّنا على الأرجح تعاملنا مع العبارة بشكل مستقلّ عن بعضنا البعض. كانت جهودي هي تطوير فكرة الإبادة البيئية كأساس لتجريم الحرب البيئية. كانت «أسلحتي» هي الكتابات الأكاديمية والكتابات الصحفية والمشاركة في المؤتمرات المهنية.

كان التأثير الآخر، الذي دفعني في نفس الإتجاه هو تقديم بحث قصير في ستوكهولم خلال حدث جانبي حول «الحرب والبيئة» بالتزامن مع مؤتمر الأمم المتحـدة التاريخـي لعام 1971 بعنوان «مؤتمر سـتوكهولم حول البيئة البشـرية». المؤتمر المصغّر للمجموعة، هو حدث جانبي عُقِد في ضوء التجمّع الحكومي الدولي الكبير، وتمّ تنظيمه جزئيا من قِبَل العديد منّا احتجاجا على نجاح حكومة الولايات المتحدة لرفع مناقشـة الحرب من جدول الأعمال الحكومي الدولي، توقّعا منها بلا شكّ لموجة الإنتقادات الموجّهة الى تكتيكاتها في حرب ڤيتنام. كان إلقاء بحثي القصيرفي ستوكهولم، هو الذي أوضح لأوّل مرّة جريمة الإبادة البيئيـة فـي جـوّ موتمر دولي كبير. لقد طرحت اقتراحا على شـكل نصّ تمهيدي للغايـة لمعاهـدة إفتراضيـة تحظـر جريمـة الإبـادة البيئية. حظيـت الفكرة ببعض الإهتمام في مؤتمرنا واسـتمر هذا على مرّ السـنين. كان وَسـتِنگ وفايفر من بين

المهتمين بهذه القضية. وفي السنوات الأخيرة، برزت الناشطة المتحمّسة پَولي هِگِنز، التي توفيت قبل أوانها في عام 2019، ممّا ألهم الكثيرين للمضيّ في التزامها بتجريم الإبادة البيئية حتى يتحقق النجاح.

في سياق حرب الخليج عام 1992، أضرم صدّام حسين النار عمدا في سلسلة من آبار ومخازن النفط الكويتية لخلق سحابة دخان غطّت ساحة المعركة بهدف مُفتَرَض يتمثل في التعتيم على سلاح الجو الأمريكي من استهداف قواته. منذ أنّ تمّ تنفيذ هذه الجريمة من قِبل عدو للولايات المتحدة ودولة من دول الجنوب، كانت التحرّكات العراقية سببا لرد فعل قانوني أكثر رعبا ممّا اعقب تجربة ڤيتنام. لقد شاركت في مؤتمر كبير شبه رسمي في واشنطن بمشاركة بعض المسؤولين الأمريكيّين، وهو أمر لم يكن من الممكن تصوّره في فترة حرب ڤيتنام. ويؤكّد هذا نمطا اصبح واضحا بمجرّد ذكره. لا يمكن للشروط السياسية السابقة لسنّ القوانين التي تتعلق بالتكتيكات العسكرية أن تصل الى حدّ بعيد بدون موافقة ودعم الجهات الفاعلة الجيوسياسية ذات الصلة.

لسوء الحظ، فورة الإهتمام بالحرب البيئية لم تؤدّ أبدا لإنشاء إطار قانوني مفيد يتجاوز الحظر المُجرّد للغاية في حكم واحد من المعاهدة البيئية غامض للغاية بحيث لا يكون ذا صلة عمليّة. ما تعلمته بشكل أساسي هو أنّ الدول الرائدة، حتى لو كان الإلتزام بالقانون والأخلاق حاضرين بصدق، فإنّها تعطي أولوية عالية للإحتفاظ بالحريّة في زمن الحرب لاستخدام أيّة أسلحة أو تكتيكات يمكن اعتبارها فعّالة عسكريّا في بعض المواقف القتالية المستقبلية. تعزّز النقاشات حول الأسلحة النووية والطائرات المسيّرة أخيرا، هذا الميل للتخلي عن حماية البيئة في زمن الحرب من أجل الحفاظ على أقصى قدر من المرونة القتالية.

ما وجدته مشجّعا في السنوات الأخيرة، هو الإهتمام الذي يولى لجهود المجتمع المدني المختلفة لتجريم سلوك الحكومات والشركات، التي تلحق أضررا جسيمة بالبيئة. يطال نشطاء البيئة، وخاصّة في أوروپا، بإلحاح الى حدّ ما بوضع اتفاقية لمكافحة الإبادة البيئية على غرار الإتفاقية الدولية لعام 1973 بشأن قمع جريمة الفصل العنصري والمعاقبة عليها. كما أعرب النشطاء المشاركون

في اعمال العصيان المدني الأخيرة في بريطانيا الموجّهة لوقف عمليات التكسير الهايدروليكي Fracking Operations، عن دوافعهم الكامنة بالإشارة الى منع الإبادة البيئية Ecocide.

أعتقد أنّه من الأهمية بمكان تجاوز التركيز المفهوم، ولكن المرتكز على الإنسان، للإبادة الجماعية الى الوعي الأخلاقي بأنّ اعمال التدمير المتعمّد، التي تعطّل النظم البيئية الطبيعية، التي يمكن أن تكون أيضا جريمة خطيرة ضدّ الطبيعة بأسرها، بما في ذلك الإنسانية، والتي يجب وقفها ومنعها. نظرا لأنّ الإبادة البيئية تهدّد السلوك الستراتيجي للدول والأنشطة التجارية للشركات وداعميها الماليين، فلم يكن من الممكن حتى الآن اكتساب قوّة دفع سياسية كافية لحثّ الحكومات المهمّة على اقتراح اتفاقية للإبادة البيئية وسنّ القوانين بشأنها. في هذه الفترة، تعتمد أخلاقيات حظر الإبادة البيئية على حركة اجتماعية تبني فهما ودعما عامّا أوسع وأعمق ممّا هو موجود حاليّا. أشعر أنّ عملي في الإبادة البيئية كان له صدى مستمّر في البحث والنشاط البيئي، ويمثل مساهمة أكاديمية ونشطة تجسّد الإيمان بأنّه يجب تقدير قيمة البحوث الأكاديمية أم لا لأنّها تتعلق بقضايا ملموسة تؤثّر على رفاهية الإنسان والحساسية البيئية.

إلتزامات نورِمبَرگ

في عام 1969، وخاصّة بعد الكشف عن **مذبحة ماي لاي** من قِبل الصحفي الإستقصائي الشهير سيمور هِرش، كان هناك اهتمام عام قويّ فيما إذا كانت التكتيكات التي اعتمدت عليها الولايات المتحدة في حرب ڤيتنام تنطوي على جرائم حرب. من المهمّ أن نتذكّر أنّ القيادة السياسية في المراحل الأولى لتلك الحرب كانت من الجانب اللِبرالي، ممّا يعني أنّها ارادت أن يُنظر إليها على أنّها تتصرّف وفقا للقانون الدولي، إذا كان من الممكن تحقيق ذلك من خلال بعض التفسير المتوتر للمعايير القانونية ذات الصلة. في العادة، كانت القيادة پراگماتيّة وسعت الى تبريرات قانونية تدعم سلوكها المُختلف عليه، بدلا من إظهار أيّ استعداد لتغيير ممارسات ساحة المعركة، التي تُعتبر فعّالة في احترام القانون الدولي. بعبارة أخرى، إنّ تحريف القانون لخدمة الرئيس ليس مجرّد ظاهرة

لما بعد 11 سبتمبر، بل كان يحدث كلما اصطدمت التكتيكات القتالية المفضلة بالقيود القانونية الفعليّة أو الموصى بها.

كانت **مذبحة ماي لاي** في ڤيتنام عام 1968 هي الأشدّ خطورة من بين جرئم الحرب، حيث استلزم الإعدام المتعمد لعدد كبير(تراوحت التقديرات من 347 الى 510) من القرويين الڤيتناميين المدنيين العاجزين، خاصة النساء والأطفال، عن المشاركة في أيّ وضع قتالي. ومع ذلك، عندما تمّ توجيه الإتهام الى الملازم وِليم كالي، الضابط المسؤول عن الأحداث التي أدّت الى ارتكاب الفضائع، حدث ردّ فعل قومي غاضب، لا سيّما في مسقط راسه، ولاية جورجِيا. زُعِم أنّه كان ضابطا متواضعا واستخدِم ككبش فداء لاتباعه الأوامر العامة لرؤسائه الصادرة في ظروف ساحة المعركة الصعبة. كان هناك احتجاج وطني ضدّ محاكمته الى جانب رفض بيروقراطي في البِنتگَون للظهور بمظهر أعلى في سلسلة القيادة من أجل فرض المسؤولية الجنائية. أصبح كالي في الواقع معروفا في أمريكا كبطل حرب أكثر من كونه مجرم حرب، مما يشير الى مدى عمق الروح الأمريكية للإفلات من العقاب والإستثناء. لم يكن هذا تحوّلا ناجما عن حقائق ولكنّه عكس مزاجا وطنيا وضع المشاعر الوطنية فوق القانون وخارجه. على الأرجح، كانت الحالة أنّ كالي لم يتلقَ أيّ تدريب على تجنّب إلحاق الأذى بالمدنيين الأبرياء وأنّ الصلة الحقيقية للمسؤولية عن الإجرام في ساحات المعارك، من هذا التنوّع الشديد، كانت مرتبطة بالمستويات العليا للقيادة المدنية العسكرية.

كتبت أنأ وآخرون خلال تلك السنوات، عن هذه الأخطاء وغيرها المرتبطة بحرب ڤيتنام، معتقدين أنّ قانون الحرب بحاجة الى المراجعة في ضوء نوع الحرب التي جرت في ڤيتنام. مع استمرار الحرب لأكثر من عقد من الزمن، بدأ الجنود الأمريكيون أنفسهم بالتحدّث ضدّ الحرب، وقدّموا اعترافات مؤلمة في الأماكن العامة حول اخطائهم، بما في ذلك القول بأنّ تجربتهم القتالية كانت بحدّ ذاتها سببا كافيا لإنهاء الحرب. إحتجّت بعض الشخصيات البارزة في المجتمع القانوني، والتي تحظى باحترام أكبر مثل تِلفوود تايلَر، وهو جنرال سابق في الجيش وأحد المُدّعين الشباب في محاكمات نورِمبُرگ للنازيين المتهمين. أشار

هؤلاء الى انتهاكات القانون الدولي في ڤيتنام وما يربط بذلك من أوجه القصور في القانون الدولي ذاته في ضوء الطابع المتغيّر للحرب وتكتيكاتها وتقنياتها.

زاد اهتمامي بمحاكمات نورِمبُرگ، خاصّة أثناء العمل مع رَوبَرت گاي لِفتُن وگابرييل كولكو لتحرير كتاب بعنوان **جرائم الحرب: الهند الصينية** (١٩٧١). قمنا بتقسيم العمل الى اقسام تعكس تخصّصات كلّ منّا. لم يكن من المُستغرب أن تكون مهمّتي هي إعداد قسم القانون الدولي، بينما عمل رَوبَرت في القسم النفسي، وقام گابي بتجميع الجانب الدبلوماسي/السياسي. أثناء إعداد القسم الخاص بي من الكتاب، أدهشتني بشكل خاصّ الرسالة التي وَجّهها فرانكلِن روزڤَلت الى الشعب الألماني في وقت مُبكّر من الحرب العالمية الثانية، والتي طلب فيها من المواطنين الألمان على جمع الأدلة، التي يمكن استخدامها بعد الحرب لمقاضاة القادة العسكريين والسياسيين الألمان لسلوكهم الإجرامي. في الواقع، كان روزڤَلت يقترح أنّ للألمان العاديين واجبا اخلاقيا له الأسبقيّة على ولائهم للدولة كمواطنين ألمان وطنيين ويحترمون القانون. لقد وجدت هذا الإقتراح مثيرا للفضول ومنطقه قابل للتطبيق على نطاق أوسع، بما في ذلك دور المجتمع المدني باعتباره ضابطا على شنّ الحكومة غير القانوني للحرب. وإن لم يكن واجبا قانونيّا، فهو على الأقلّ حقّ قانونيّ للتصرّف بشكل غير عنيف لمواجهة حرب يُنظر اليها بشكل معقول على أنّها غير قانونية.

خطر ببالي أنّه نظرا لخطورة ما قد يكون على المحكّ في المستقبل، هناك علاقة بين الأفراد والدولة يمكن أن توفّر أساسا قانونيّا للمقاومة المدنية لدولة مُذنبة بارتكاب جرائم دولية من هذا النوع. وتمّت محاكمة المُتهمين ومعاقبتهم في نورِمبُرگ عام 1945. قادني هذا الى تطوير هذا الخط من التفكير في بعض المناقشات في العديد من كليّات الحقوق ثمّ بشكل أكثر رمزية في مؤتمر تذكاري مثير للجدل في الذكرى الأربعين لقرار نورِمبُرگ في المدينة ذاتها. قدّمت هناك فكرة «إلتزام نورِمبُرگ» في نفس المكان الفعلي الذي وقعت فيه تلك الأحداث التاريخية التي تنطوي على محاكمة ومقاضاة القادة السياسيين والعسكريين الألمان الباقين على قيد الحياة من الذين يُعتقد أنّهم مسؤولون عن جرائم الحرب. أذكر بعض المتظاهرين غير السّارين الذين اغضبهم المؤتمر

وحملـوا شـعارات إتهاميّـة وردّدوا هتافـات غاضبة عند دخولنـا قاعة الإجتماع. كانوا يحتجّون على «عدالة المُنتصرين» في محاكمات نورِمبُرگ عام 1945، وبدا أنّهم عدوانيون بما يكفي أن أجد نفسـي بأمان داخل المبنى. كانت القاعة مليئة بالمتخصّصين القانونيين الأوروپيين ومجموعة متنوّعة من الأشخاص المُهتمّين بمدى نجاح ألمانيا بعد التجربة النازية.

لـم يلـق التـزام نورِمبُـرگ قط كمبـرر معياري للمقاومـة المدنية تحت هذه التسـمية، علـى الرغـم مـن أنّ ذوي الضمائـر كانـوا علـى اسـتعداد للذهاب الى السجون لوقف الحرب العدوانية والأخطار المرتبطة بالأسلحة النووية والمذاهب التي تمّ تطويرها للتحكّم في التهديد أو الإسـتخدام المُحتمل للأسـلحة النووية ومجموعـة متنوّعـة مـن القضايـا البيئيـة منذ عام 1945. وصلت هـذه العملية في الولايـات المتحـدة ذروتهـا خلال المراحل الأخيرة من حرب ڤيتنام. لقد أدليت بشهادتي في العديد من الحالات حيث كانت الحكومة تقاضي نشطاء مناهضين للحرب. لقد اعتمدت على نسـخ معدّلة مختلفة من حجّة مفادها أنّ المواطنين الذيـن يعتقـدون أنّ الحـرب قد بدأت وشُـنّت بما يتعارض مـع القانون الدولي، لديهم أساس معقول للإحتفاظ بمثل هذه المعتقدات، كما يتضح جزئيا من رأي الخبراء ويجب السماح لهم بتجنّب إجبارهم بموجب القانون على المشاركة في مثـل هـذه الحـرب. في قضية مهمّة، هي قضية سيسـون ضدّ الولايات المتحدة، التي تمت مقاضاتها في محكمة فِدرالية، قدّم طالب من جامعة هارڤَرد حجّة قبلها القاضي الفِدرالي چالز وِزِنسكي، الأكثر نفوذا في تلك الحقبة. كنت شاهدا على جوانب القانون الدولي للقضية. وكان صديقي هَوَرد زِنّ، المشـهور بأنّه مؤلف كتاب «**تاريخ الشعب في الولايات المتحدة**» هو الشـاهد الآخر. تحدّث هَوَرد بذكائـه وحكمتـه المعتـادة عن التاريخ المتميّز للعصيان المدني، الذي فشـل في تحقيق أيّ تشـريع قانوني عبر التاريخ الأمريكي. لقد شـعرنا بتشـجيع كبير من هـذا الإنتصـار القضائـي، الـذي كان ايضا انتصارا للضميـر على إملاءات الدولة العسكرية ووجّه ضربة نفسية وقانونية لاستمرار حرب ڤيتنام.

أعتقد أنّ إلتزام نورِمبُرگ يظل فكرة وثيقة الصلة بالموضوع. إنّه يعمل ضدّ مشـاعر العجـز لـدى المواطنيـن في مواجهـة دولة محاربة تتلاعـب بالمعلومات

لخداع مواطنيها وتتجنّب أيّ جانب من جوانب القانون الدولي حين يتعارض مع السعي وراء المصالح الستراتيجية، خاصّة إذا كان الأمر يتعلق باستخدام القوّة. إنّه يضفي الشرعية على ما قد يبدو أنّه سلوك غير قانوني ويمثل رقابة شعبوية على إساءة استخدام سلطة الدولة، مضيفا بعدا للإطار الدستوري للضوابط والتوازنات، وهو في اضعف حالاته في زمن الحرب. وبما أنّ امريكا، على وجه الخصوص، اصبحت ما يمكن تسميته Illiberal Plutocracy «بلوتوقراطية غير لِبرالية» فقد تعمل على تنشيط المواطنين على أساس مثل هذه الدعوة الى الفضيلة المدنية. يمكن لممارسة المسؤولية المدنية هذه أن تعمل كنوع من كبح خيارات السياسة الخطرة وغير المقبولة في سياقات الحرب/السلام. قد يكون هو ذلك التنشيط.

تعتمد الديمقراطية على انتشار مثل هذا النشاط كطريقة واحدة لتحييد قدرات الدولة الكبرى المخيفة لاستخدام التكنولوجيا الرقمية لممارسة سيطرة مفرطة على مواطنيها مع الحفاظ على ما يشبه الشرعية وراء الواجهة الإنتخابية للمساءلة الديمقراطية والأخلاقية، فضلا على الظهور بمظهر الإخلاص لسيادة القانون. ويمكن اعتباره ايضا مكمّلا لإساءة استخدام سريّة الحكومة، التي ولدت الدور المعاصر «للمبلغين عن المخالفات» Whistleblowers. وهو شكل من اشكال العصيان المدني من داخل اعصاب الحكومة Sinews of Government، نظرا للأهميّة التاريخية لإصدار دان إلزبَرگ ما سمّاه **أوراق البِنتگون**. وفي الآونة الأخيرة من خلال كشف إدوَرد سنودِن عن الترتيبات السريّة، التي تكمن وراء دولة المراقبة. إنّه لأمر محزن بالنسبة للثقافة السياسية الأمريكية، أنّه كان على سنودِن أن يطلب اللجوء في روسيا، بينما عومِل مجرم الحرب كالي كبطل قوميّ.

الأسلحة النووية

منذ أن كنت طالبا في القانون في عقد الخمسينات من القرن الماضي، كت مدركا للمخاوف بشأن مخاطر الحرب النووية، واعتقدت أنّ نزع السلاح النووي ضروريّ لتجنّب مستقبل كارثي. لقد اعتبرت هذه السحابة المظلمة المُعلقة فوق العالم مصدر قلق رئيسي، وشاركت في وقت مبكّر من مسيرتي الجامعية في أنشطة

مختلفة عكست وجهة نظر مناهضة للأسلحة النووية، مفضّلة مخاطر نزع السلاح على أولئك الذين يتعايشون مع «القنبلة». في پرِنستُن، تواصلت في حقبة الستينات مع من كانوا يُسمّون «مفكّري الحرب»، الذين اعتبر بعضهم أنّ الغرب بحاجة الى أسلحة نووية لإبداء استعداده لخوض ما كان يوصف بأنّه «حرب نووية محدودة». كنت اعرف شخصيّا هِرمَن كان وكتابه الضخم عن **الحرب النووية الحرارية**. بينما امضيت عاما في پرِنستُن قبل مجيئي مباشرة ولخّصت ما اعتبرته موقفا فاحشا غير مبال بأهوال حرب مستقبلية نخوضها بأسلحة نووية. استخدم كان قوّة حماسه الفكري لتطبيع الأسلحة النووية كبُعد لا رجعة فيه للفكر الستراتيجي والحرب في العالم الحديث. كان هَنري كِسِنجَر نسخة أقل تمثيلا بكثير من تلك السلالة الفكرية. وبرزت صدارته العامة من خلال تأليفه كتابا تحت رعاية مجلس العلاقات الخارجية، سلّم بشكل إيجابي بإمكانية تطوير عقيدة واسلحة الدفاع النووي لأوروپا ضدّ التخويف وامكانية هجوم محتمل من قبل الإتحاد السوڤيتي. كان هذا الهجوم فرضية خاطئة على ما يبدو، رغم تصوير الإتحاد السوڤيتي بأنّه يتمتع بالتفوّق العسكري في أيّة حرب أوروپيّة يخوضها دون أسلحة نووية. هذا يعني أنّ مفكّري الحرب هؤلاء روّجوا لأسطورة خطيرة مفادها أنّ الأسلحة النووية كانت ضروريّة لأمن أوروپا. وبما أنّ هذه الأسطورة خدمت مصالح القطاع الخاصّ والبيروقراطية، فقد ساد الإعتقاد بها على نطاق واسع ونادرا ما تمّ تحدّيها.

تعاونت ثانية مع رَوبَرت جَي لِفتُن في تأليف كتاب اخترنا له عنوان **الحالة السياسية والنفسية ضدّ الطاقة النووية**. جمع رَوبرت، الذي كان بالفعل مؤرّخا نفسيّا رائدا في فترة السبعينات، بين دراسة الأمراض الخاصّة وتجاوزات السلوك السياسي. لقد حصل على جائزة الكتاب الوطني عن مقابلاته وتقييماته النفسية للناجين من الهجمات الذرية على اليابان عام 1945. عقد مقارنة لوجهات نظره حول الأسلحة النووية وكونها مماثلة للألغام. شعرت من خلال تعاوننا أنّ مصطلح «النووية» قد استحوذ على ما كنّا نحاول التعبير عنه، أيْ التفاعل الفتّاك لنسخة ضارة من سياسات المصلحة الوطنية المنبثقة عن مؤسسة الأسلحة النووية، والإرتباطات النفسية لمعظم «التصوّرات» الذاتية.على غرار «الواقعيين السياسيين» لأسلحة ذات حجم رهيب. وبهذا المعنى، تحديد سياسة الأسلحة

النوويـة فيمـا يتعلـق بالإمتلاك والعقيدة والإسـتخدام المُحتمـل، على أنّها ترقى الى مرض أو متلازمة سياسـية سـيطرت على عقول النُخب السياسـية وسـمّمت قلوبهـم. فـي الولايات المتحـدة، كان المقصود منها توجيه الإتهام الى الإجماع النووي السائد. يبدو أنّ متلازمة مماثلة أقلّ تأكيدا بشكل مكثّف سائدة في الدول الأخرى الحائزة على الأسلحة النووية. تحت الرغبة في الإعتماد على مثل هذه الأساحة المروّعة، كان هناك عيب بشري متأصّل بعمق، وربّما قاتل، يميّز البقاء السياسي على البقاء البايولوجي. لـم يتمّ إعتماد مثل هذا التسلسل الهرمي بوعي أو بصراحـة، لكنّـه عبّـر عـن نفسـه من خلال عدم الرغبة في بـذل جهود حقيقية للتغلـب علـى خطـر الأسـلحة النوويـة، وحتـى أكثر من ذلك لاحقـا، من خلال التهـرّب مـن خطـورة الإحتباس الحراري، الذي يؤدي الـى تغيير المناخ وتعزيز الشيطانية، مثل ترديد شعارات «الموت أفضل من أن نكون حُمرا» Better Dead Than Red! والـذي عكسـه مناصـرو السـلام فيما بعد فـي تظاهراتهم الى Better Red Than Dead!

أعتقـد أنّ مصطلحـات «النوويـة» تلفت الإنتباه الـى العناصر الأيديولوجية والعاطفيـة التـي تجعـل من المسـتحيل فعليا على الدول الحائزة على الأسـلحة النوويـة التفكيـر فـي المشـاركة فـي عمليـة جادّة لنزع السـلاح النـووي مهما تمّ التحقـق منهـا بشـكل موثـوق. حتـى المحـاولات المعلنـة لنـزع الشـرعية عـن الإعتمـاد علـى الأسـلحة النوويـة تتمّ مقاومتها كما اتضـح من عام 2017 الصادر عن الولايات المتحدة وفرنسا والمملكة المتحدة بشأن المعارضة غير المشروطة لمشروع معاهدة الأمم المتحدة لحظر الأسلحة النووية. إنّ صرامة هذا الإلتزام هي التي جعلت من النووية تهديدا خطيرا لمسـتقبل البشـريّة. ولكن سـتثبت أيّة دراسـة لتاريـخ العالـم منـذ عام 1945 الى أنّ الأمـر كان حظّا جيّدا أكثر من كونه حكمة وعقلانية موضوعيّة أنّها لـم تُسـتخدم منذ ضرب نَگَزاكي بتاريخ 9 أيلول من عام 1945. يوثّق مارتِن شِـروِن ببراعة هذا الإعتماد على الحظ في الماضي فـي تاريخـه النهائـي للعقـود الأولـى من العصـر النووي، بأنّه يشـبه المقامرة مع آرمِگَدون ***Gambling with Armageddon***. لقد واصلت في المرحلة الأخيرة من دوري كمفكّر وناشـط للعمل ضدّ الطاقة النووية من خلال المنشـورات ودعم

مؤسسة السلام في العصر النووي.

الحوكمة العالمية الإنسانية

اصبح التركيز على «الحوكمة العالمية» Global Governance شائعا جدًا خلال العقد الماضي أو نحو ذلك، ليحلّ محلّ «العولمة» Globalization كمفهوم توضيحي أساسي لكيفية تصوّر النظام السياسي على المستوى العالمي. تكمن جاذبية «الحوكمة العالمية» في أنّها تلفت انتباهنا الى ترتيب العلاقات بين الدول ذات السيادة، فيما يتعلق بالجغرافية السياسية ورأس المال العابر للحدود الوطنية والتدفّقات التجارية دون تبنّي افكار السيادة والتهديد الجيوسياسي «للحكومة العالمية» أو تجريد ثابت «للنظام العالمي». يمكن أن تتضمّن الحوكمة أيّة وسيلة لتنظيم العلاقات وربط انواع مختلفة جدًا من الجهات الفاعلة، كما هو الحال في الشبكات الحكومية الدولية المعقّدة ومجموعة متنوّعة من الأنظمة، التي تعمل على استقرار العديد من الأنشطة الروتينية عبر الوطنية بما في ذلك الإتصالات والنقل والتجارة والسياحة. واصبحت هذه عالمية في نطاقها وموجّهة نحو القانون وغير إقليمية في طبيعتها بسبب تطبيقات التكنولوجيا الرقمية. في هذا الصدد، تُعتبر «الحوكمة العالمية» شاملة في طموحها لشرح كيف يمكن الحفاظ على النظام بدون حكومة.

إنّ ابتكاري تماشيا مع اهتماماتي المعيارية، هو إضافة كلمة «إنساني» لإيلاء الإهتمام بأهمية تطوير انواع مرغوبة من النظام والتأكيد على الأهميّة السائدة للأخلاق وحقوق الإنسان قي تصميم الإصلاحات العالمية. سيكون الحكم العالمي كمفهوم متوافقا تماما مع الإستبداد العالمي طالما أنّه يحافظ على مستويات مقبولة من النظام. تقيّم الحوكمة العالمية الإنسانية جودة النظام بالرجوع الى قيم النظام العالمي، بما في ذلك تقليل فرص الحرب والعنف والقمع السياسي وتعظيم المسؤولية البيئية وحقوق الإنسان، بما في ذلك الحقوق الإقتصادية والإجتماعية والثقافية والبيئية، وكذلك العدالة العالمية في مجالاتها العديدة. كما أنّه يعطي قيمة إيجابية للسياسات والممارسات والإجراءات، التي تساهم في الإستدامة البيئية والعدالة المناخية.

ربّما كان مشروع نماذج النظام العالمي WOMP قد تلقى تغطية إعلامية أفضل لو كان قد حدّد تعهده بأنّه «نحو حوكمة عالمية إنسانية». كان من الممكن أن تؤكّد هذه التسمية على فكرة العملية والتغيير وكذلك الإصرار على اخضاع الترتيبات السياسية العالمية للمساءلة الأخلاقية فضلا عن تعزيز الإستقرار والنظام. أجد أنّ التمييز مهمّ، ولكن يجب أن أعترف أنّه لم يلقَ نجاحا في الكتابات الأكاديمية أو الصحفية. كما هو الحال مع العديد من اهداف حياتي، سألت نفسي «لماذا» وشعرت أنّ التفسير الحقيقي يتعلق بغياب «المجتمع العالمي»، ممّا يعني أنّ الناس، وخاصّة النُخب بينهم، يوسّعون اهتماماتهم الأخلاقية على الأكثر الى «حوكمة وطنية إنسانية» ومصالح رأس المال عبر المسار الوطني. من الملاحظ أنّه في الآونة الأخيرة، وخاصّة في الشرق الأوسط، كانت هناك بعض المؤشّرات القوية على الولاءات غير الإقليمية، خاصّة التأكيدات الإسلامية للأمّة (مجتمع المؤمنين المسلمين)، التي تشير الى عدم الثقة بالعلمانية المماثلة في الدول الإقليمية والقومية ذات السيادة، والتي شُيّدت وفق النموذج الأوروبي للكاتب الجزائري المؤثر والمناهض للإستعمار فرانز فأنُن. تشير هذه الإنحرافات عن الإجماع السياسي حول حدود المجتمع الى عيوب الحوكمة العالمية المتمركزة حول الدولة. تشمل أوجه القصور هذه، عدم وجود أيّة مفاهيم بديلة للنظام العالمي وذات جاذبية عامّة واسعة تكفي لتشكيل مشروع سياسي. لم يثبت حتى الآن بناء المجتمع على الإنسانية المشتركة وكونها مناسبة سياسيّا، على الرغم من أنّني أجد أنّه من المهمّ أنّ مثل هذه الرؤية الشاملة موجودة في الفكر المقدّس لجميع الديانات العظيمة في العالم. لقد تمّ عرضها خلال جائحة كوفِد من خلال تصريحات الأمين العام للأمم المتحدة، أنطونيو گوترَز، وكذلك من قبل مُفكّرين حساسين بيئيّا يرون أنّ مصلحة الكلّ لها الأسبقية على مصلحة الأفراد.

المواطن الرائد المُتنقل

من بين جميع افكاري المعيارية، كان مفهوم «المواطن الرائد المتنقل» Citizen Pilgrim، هو الأفضل، حيث يتمّ استخدامه على نطاق واسع من قبل

أولئك الذين لا يريدون حصر هوايتهم إمّا في الفضاء الوطني أو في الحاضر التاريخي. يتمّ استخدامه هنا كاستعارة مناسبة لرحلة حياتي الخاصّة جنبا الى جنب مع فكرة المُفكّر/المُثقّف العام، لإنّه عالمي وموجّه لكافة الأنواع والأجناس. لقد تبنّيت هذا المصطلح في البداية كطريقة لإبعاد نفسي عن القوميين من جانب و«مواطني العالم» من ناحية أخرى. كما ناقشت سابقا، إنّ اعتراضي على إعلان المرء نفسه مواطنا عالميا هو أنّ كونك وثيق الصلة بالسياسة يعني ضمنيّا أنّ «المجتمع العالمي» موجود كواقع وجودي. ربّما كان من المعقول أن نأمل في حدوث مثل هذا التطوّر عندما تأسست الأمم المتحدة في عام 1945، لكنّ الأدلة قاطعة على أنّه في العقود، التي تلت ذلك، لم يتحقق مثل هذا الأمل. في الواقع، في السنوات الأخيرة كان هناك اتجاه نحو القومية المُفرطة، التي تجعل حتى الفكرة الأكثر تواضعا عن «المجتمع الدولي»، هي في الغالب مُحبطة وليست حقيقة ناشئة. كثير منّا ممّن يتعاملون مع قضايا العالم كسالى بشأن اللغة، ويشيرون الى «المجتمع العالمي» على سبيل التسهيل، ممّا يعطي انطباعا خاطئا بأنّ هناك بالفعل مجتمعا على نطاق عالمي يُظهِر بدقة الهوية الجماعية للأفراد والحكومات والجهات الفاعلة الأخرى. ومع ذلك، إذا تمّ فحص السلوك السياسي الدولي بعين ناقدة، يُصبح من الواضح أنّ «المجتمع الدولي» و«الهوية العالمية» تظل أوعية فارغة، عندما يتعلق الأمر بحلّ القضايا الملموسة، التي تتعلق بالأمن وحقوق الإنسان والسياسة الإقتصادية.

لقد انجذبت لأوّل مرة الى فكرة المواطن الرائد المتنقل المنتمي للعالم بأكمله من خلال محاضرة سمعتها في السبعينات من قبل عالم لاهوت كان يتحدّث بطريقة مثيرة للإهتمام عن آراء القدّيس بولِص في الإيمان الديني، كما هو موضّح في رسالته الى العبرانيين. كانت هناك فكرتان مختلفتان وجدتهما مناسبتين لمخاوفي على الرغم من الإختلاف الكبير في دوافعنا للفت الإنتباه الى الكتاب المُقدّس. أوّلا، تأكيد القدّيس بولِص على الإيمان، باعتباره الإيمان بما لا يمكن رؤيته أو إثباته حاليّا. ثانيا تحديده للمؤمن كشخص يبحث عن شيء أفضل من العالم كما هو الآن، وما يُسمّى في العهد الجديد، عالم سماوي Heavenly World.

لقد وجدت هذه الصيغ موحية. أردت طريقة للحديث عن المشاركة السياسية والمواطنة الحيّة للإمكانيات المعيارية. لكنّني أدركت أيضا أنّ هذا كان وهما عاطفيّا بالنظر الى الأنماط السائدة للوعي السياسي والطريقة التي تمّت فيها هيكلة العالم حاليّا. نقلت «المواطنة» التزاما بالمشاركة الفعالة بينما أشار «المواطن الرائد الملتزم عالميا» الى أولوية رحلة تقوم على السعي وراء وتحقيق ما لم يكن موجودا بعد، ولكن يمكن تحقيقه من خلال كفاية الرؤية والإلتزام والنضال اللاعنفي ضدّ النظام المعمول به. لا يزال هذا النظام القائم سائدا على أسس الحرب وعدم المساواة والعنصريّة وانماط الحكم القمعية. قد تبدو رحلة هذا الحجّ سعيا طوباويّا، ومع ذلك فإنّ تطلعاته واقعية إذا كان المستقبل البشري يعتمد على تحقيق مستقبل مستدام ومُعولم ومنصِف، بما في ذلك العلاقات، التي تمّ إصلاحها جذريّا بين النشاط البشري والبيئة الطبيعية الحساسة للقدرة الإستيعابية للأرض. إنّ الوعي السياسي للمواطن الرائد الملتزم عالميا مُشبع بهذا الشعور لخلق عوالم مستقبلية صالحة للعيش والخير يسودها الشعور بالسلام والعدالة.

لقد كان من حُسن حظي أن أعمل جنبا الى جنب مع الشخصية السياسية الأيرلندية، شَون مَكبرايد، الذي مثّل مواطنا رائدا قبل سنوات عديدة من وضوح المصطلح لي. كان شَون نجل الرائد جون مكبرايد، الذي قاتل ضدّ البريطانيين في حرب البورِ Boer War الثانية وجرى إعدامه نتيجة لذلك. كان ثوريّا إيرلنديا، وكانت زوجته مَود جون، المعبود الرومانسي للشاعر العظيم بتلر يَيتس. تعود اتصالاتي به الى الستينات عندما كان شَون يترأس لجنة الحقوقيين الدولية في جِنيف. لقد طُلب منّي أن أكون شاهدا خبيرا في محاكمة 35 من قادة جنوب غرب أفريقيا، ناميبيا حاليا، في عام 1966 نتيجة لمشاركتي في قضية المحكمة العالمية التي تمّ البتّ فيها قبل عام. ليس من المستغرَب أن رفضت حكومة جنوب أفريقيا إصدار تأشيرة لي، ولجأ المحامون في القضية الى مَكبرايد لتعييني مراقبا رسميّا لمفوضيته في المحكمة. أقنع شَون، بالإعتماد على تجربة والده في الوقوف الى جانب الإفريكانيين في حرب البورِ، رئيس الوزراء بمنحي تأشيرة دخول، ممّا أدّى الى اتصالي المستمر الثاني بنظام الفصل العنصري. ثمّ في عام 1982، بعد

الهجوم الإسرائيلي على لبنان، عندما شكّل نائب بريطاني لجنة للتحقيق في جرائم الحرب الإسرائيلية، شغل جون منصب رئيس اللجنة ودُعيت لأكون نائب الرئيس. خلال مهمة تقصّي الحقائق في لبنان، عملت كرئيس بالنيابة حين أصيب شَون بالمرض، لكنّنا عملنا معا على إعداد التقرير في لندن بعد عودتنا. أخيرا، ترأس شَون محكمة المجتمع المدني للحرب النووية، التي انعقدت في لندن عام 1985، وطُلِب منّي أن أكون أحد القضاة الأربعة. في جميع هذه المشاريع الثلاثة المثيرة للجدل على الحافة الخارجية لما تحملته الديمقراطيات اللِبرالية، صاغ شَون لي ما يعنيه احترام وأخذ نزاهة القانون والأخلاق على محمل الجدّ، بغضّ النظر عن الهوية السياسية. لقد كان متجذّرا جدّا في تجربته الإيرلندية، ولكنّه كرَس جهوده قبل كلّ شيء على السعي لتحقيق العدالة. وبسبب جهوده هذه، اعتقد أنّه الشخص الوحيد الذي حصل على جائزة نوبل للسلام وجائزة لِنِن في فترة كانت فيها اهتمامات الحرب الباردة تستقطب الهويات لدى الجميع تقريبا. لقد كنت محظوظا لأنّ شَون مَكبرايد علمني ما يعنيه أن تكون مواطنا رائدا ملتزما بمصلحة البشرية، وترك بصمة ملهمة بقيت معي.

الحروب الشرعية

أصبحت مهتمّا في البداية للتمييز بين «الشرعية والقانونية» Legality and Legitimacy في سياق عضويتي في اللجنة الدولية المستقلة المعنية بقضية كوسُڤو. جرى تكليف هذه اللجنة، التي تمّ تمويلها الى حدّ كبير من قِبل الحكومة السويدية، بتقييم حرب الناتو عام 1999، الذي برّر هجومه العسكري على الوحدات العسكرية الصربية لحماية شعب كوسُڤو من السيطرة التعسّفية والتهديد بارتكاب جرائم ضد الإنسانية من قبل صربيا. كانت هناك مخاوف ذات مصداقية في الفترة، التي سبقت حرب كوسُڤو من وقوع مذابح من النوع الذي ارتكبه صرب البوزنة في سربَنيچا في عام 1995 ضدّ عدة آلاف من سكان بوزنيا من الرجال والشباب المسلمين. تردّدت في الوقت ذاته مزاعم بأنّ هذا القلق على المصير الذي ينتظر الكوسُڤيين كان نفاقا في ظلّ اللامبالاة الغربية اتجاه المِحَن التي يتعرّض لها الفلسطينيون والأكراد والكشميريون وغيرهم. هاجم چومسكي

حرب الناتو كمثال لما سمّاه «الإنسانية العسكرية». أصرّ على أنّ الكامن وراء المنطق الإنساني كان دافعا جيوسياسيّا لإثبات أنّ الناتو لا يزال مطلوبا ومُفيدا على الرغم من انتهاء الحرب الباردة. وجدت نفسي متأثّرا بمصداقية المخاوف الإنسانية، التي تؤدّي الى إجراءات وقائية، ولكنّني ما كنت مرتاحا لدعم التدخّل تحت رعاية الناتو دون تفويض أوسع من الأمم المتحدة، كما يقتضي القانون الدولي. قلقت، بشأن ما ثبت أنّه سبب وجيه، بشأن السابقة التي يتمّ وضعها.

كانت هناك مجموعة من الآراء الممثلة في اللجنة، بما في ذلك الرئيس المتناغم سياسيا Politically Attuned مع واشنطن، رِچَرد گولدستَون، الحريص عل تجنّب أيّ انتقاد حادّ لتكتيكات الناتو. تمّ تعزيز هذه الآراء بقوّة من قِبلي والشخصيّة السياسية الطموحة مايكِل إگناتَيف، الذي لم يخفِ صلاته بمستشاري البيت الأبيض والتي زعم أنّها أعطت آرائه ثقلا إضافيا. تمتّع مايكِل في ذلك الوقت بسمعة طيّبة في واشنطن بسبب موافقاته الصحفية على السياسات الخارجية للولايات المتحدة التي اطلق عليها إسم «إمبراطورية لايت». إقترحت مِري كالدور، عضوة مجلس الوزراء والرفيقة النشيطة التي طالما كانت من بين اصدقائي المقرّبين، التمييز بين «قانونية» التدخّل عل أساس الإعتبارات الأخلاقية والسياسية المتعلقة بحقوق الإنسان و«شرعية» الحرب. إنّ هجوم الناتو على الوجود الصربي في كوسُفو لا يمكن أن يدّعي بشكل معقول غطاء «الشرعية» لأنّ التدخّل كان استخداما غير دفاعي للقوة لم يأذن به مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة. ومع ذلك، فهمت وقلقت في ذلك الوقت، أنّ هذا التمييز من المحتمل أن يُساء استخدامه كسابقة للتعهدات المستقبلية التي ليست قانونية ولا شرعية. لم يكن عليّ الإنتظار طويلا حتّى تحققت هذه المخاوف. تمّ الإعتماد على سابقة كوسُفو على نطاق واسع لتبرير التدخّل لتغيير النظام في العراق بعد ذلك بسنوات قليلة.

جرى تحفيز فكرة «الحرب الشرعية» من خلال التمييز بين مفهومي الشرعية والقانونية ولكن مع أخذ مجموعة مختلفة تماما من القضايا في الإعتبار. لقد خطرت لي كطريقة لتصوّر جهود القوة الناعمة لتحقيق العدالة السياسية بطرق تحيد مزايا التفوّق العسكري القمعي. في هذا الجانب المركزي، إشتملت

شرعية الحرب على الصراع بين الخصوم من أجل سيطرة القوة الناعمة على الخطاب حول مسائل القانون التي تشمل الأخلاق. لقد قطعت السيطرة على الخطاب شوطا طويلا في تحديد أيّ جانب من الصراع سيحظى بالتعاطف ويولِد التضامن في النضالات السياسية الجارية. أعترف بتأثير القوة الناعمة على ميزان القوى الداخلية والدولية. ومع ذلك، فإنّ حقيقة كيفية انتهاء معظم الصراعات السياسية العنيفة في القرن الحادي والعشرين لم يتمّ استيعابها من قِبل معظم محللي السياسة الخارجية ولم تنعكس في سياسات الحكومات الغربية. كما ذكرت سابقا، أنّه من الأهمية بمكان فهم استخدامات التيارات وحدود القوّة العسكرية، فإنّ الجانب الأضعف عسكريا قد قد سيطر مع ذلك على النتيجة. باختصار، انتصر العديد من الحروب الأكثر بروزا التي جرت خلال السبعين عاما الماضية من أجل السيطرة السياسية الكاملة على المجتمع.

جرى تقديم توضيح مبكّر مُذهل لهذا التحدي، الذي واجه جوهر الإعتقاد «بالواقعية السياسية» من قِبَل حركة غاندي اللاعنفية، التي سعت الى الإستقلال السياسي للهند من الإمبراطورية البريطانية. تكرّر هذا الإنعكاس المذهل للتوقعات الواقعية في سلسلة من الحروب ضدّ الإستعمار حققت الإستقلال في الهند الصينية وإندونيسيا والجزائر، من بين العديد من المواقف القتالية، ولكن ليس كلها. لقد عزّزته بقوّة حرب ڤيتنام، حيث تلاشى التفوّق العسكري في النهاية، ليس من خلال المناورة العسكرية، ولكن في ضوء المثابرة السياسية الڤيتنامية والدعم العالمي الذي انتج انتصارا رائعا «لداود الضعيف» Weak David ماديّا وعسكريا على العملاق الجيوسياسي «گولايَث» Goliath..

لقد وجدت الأمل في النضال الفلسطيني بهذه الطريقة لإعادة تفسير القوّة فيما يتعلق بالصراع العنيف، معتقدا أنّ الفلسطينيين يمكنهم تحقيق العدالة من خلال هيمنة القوّة الناعمة على أساس الإدراك التمكيني بأنّ تاريخ القرن الماضي كان الى جانبهم بشكل حاسم، وأنّه يمكن تحقيق هذه النتيجة بشكل معياري، أي الحقّ في تقرير المصير، وسياسيّا فيما يتعلق بثقل القوّة الناعمة للتضامن العالمي المرتبط بالمقاومة الفلسطينية اللاعنفية. ونتيجة لذلك، يمكن أن يتحوّل ميزان القوى لصالح الحقوق الفلسطينية بحيث يمكن أن يظهر سلام

عادل لكلي الشعبين، ممّا يتيح التعايش السلمي الذي يحظى بالإحترام المُتبادَل والذي يتمّ توفيره من خلال عمليات التنفيذ، التي تتمّ بروح المساواة. حتى كتابة هذه السطور، قد يبدو مثل هذا الأمر سخيفا، لكنّه يستمرّ في تحفيز المستقبل المُتخيّل الوحيد الموثوق به لتحقيق نتيجة عادلة وسلمية لكلّ من الإسرائيليين والفلسطينيين. ستكون هذا التسوية قادرة على انهاء نظام الفصل العنصري وبدء عصر من التعايش السلمي وثنائية الجنسية على أساس المساواة وحقوق الإنسان. بالطبع، إنّ هذا يستلزم تقليص المشروع الصهيوني من «دولة يهوديّة» الى «وطن يهودي» يتعايش مع «وطن فلسطيني».

بغضّ النظر عن الدقة التنبؤية لفكرة الحروب الشرعية، يبدو المفهوم مفيدا للغاية في تحديد حساب متغيّر فيما يتعلق بالدور المتناقص والمقيّد للقوّة العسكرية كعامل للتغيير والسيطرة. توافقت هذه الفكرة أيضا مع جهودي طوال حياتي لإثبات أهمية القانون والأخلاق في تحقيق حلّ النزاعات في العالم المعاصر. إنّ المقاومة البيروقراطية لتقدير حدود الفاعلية التاريخية، التي تتمتع بها القوّة العسكرية الآن، لها علاقة بتبرير الميزانيات العسكرية المتضخّمة، فضلا عن انعكاس الخيال العسكري المتضائل للبيروقراطيين المُنضبطين في البيئة الأمريكية من خلال ظهور عقلية الحرب الدائمة بعد عام 1945، فقد أدّت العسكرة المُبالغ بها للأمن الى معاملة العديد من «الخلافات» على أنّها «تهديدات»، وتسبّب هذا في تضخيم اتلك لتهديدات بما يتجاوز ابعادها الحقيقية.

الجريمة الجيوسياسية

بينما كنت مهتمّا بالإضطرابات في الشرق الأوسط وشمال افريقيا MENA، ادهشتني التلميحات التاريخية، التي اختارها أكثر الخصوم تطرّفا في الوضع الراهن. إشتكى آية الله الخُميني بمرارة من فرض دول ذات سيادة سياسات على النمط الأوروبي أدّت الى إنقسامات مصطنعة في المنطقة الإسلامية، التي احتفظت بها الخلافة. وأبدى أسامة بن لادن استياء مماثلا، لاسيّما فيما يتعلق بتمزيق الأمّة. حتّى تنظيم داعش ردّد هذه المشاعر عند إقامة خلافته قصيرة

الأمـد، مـن خلال استخدام شـعار «نهاية سـايكس پيكو». بالإضافـة الى ذلك، تأثّرت المنطقة بشـدّة من خلال تسـهيل إقامة دولة إسـرائيل كدولة يهوديّة/،ممّا أدّى الى تهجير 700 ألف فلسطينيا قسرا وبشكل مُتعمّد، على الرغم من معارضة غالبيـة السـكّان المُقيميـن ومعظـم دول المنطقـة. علـى الرغـم مـن وجود مناخ أخلاقي عالمي في اعقاب الهولوكوسـت كان متعاطفا مع المشـروع الصهيوني، إلّا أنّ تحقيق المشـروع كان بمثابة فرض كيان اسـتعماري إسـتيطاني في اللحظة التاريخية حين كان الإستعمار الأوروپي يتعرّض لتحدّي أخلاقي وسياسي بنجاح من قبل الحركات القومية القويّة حول العالم.

هُنا إذن هو الشذوذ الأساسي. بينما كان الإستعمار يحتضر في جميع أنحاء آسيا وافريقيا، كان يقوم بآخر موجة توسّعية على انقاض الإمبراطورية العثمانية المُنهـارة. لقـد كانـت دبلوماسـية أكثر من قرن مـن الزمن، هي التي فرضت على المنطقة سلسـلة من الهياكل التي لا يمكن الحفاظ عليها إلا من خلال أشـكال الحكم القسرية. لقد خانت بريطانيا العُظمى وفرنسا وعود الحرب للقادة العرب بأمة عربية موحّدة ومستقلة، وخططتا بدلا من ذلك عبر الدبلوماسية السرّية لتقسيم اسـتعماري للغنائم في جميع انحاء المنطقة. كان الهدف هو إفشـال رؤى تقرير المصير، حسـب رأي وودرو وِلسُـن والأمريكيين لاسـتخدام دبلوماسـية السلام بعد الحرب العالمية الأولى في التعامل مع بقايا الإمبراطورية العثمانية المنهارة.

في النهاية، لم يحقق الأوروپيون طموحاتهم الإستعمارية تماما، واضطروا الـى تسـوية حـلّ وسـط مُفضّل سـمّوه «نظـام الإنتـداب» الذي اعطـى المملكة المتحدة وفرنسـا معظم ما سـعتا إليه عن طريق السـيطرة ولكن دون الإسـتفادة من تصريح اسـتعماري كان يتألف من منح سـلطة إدارية كاملة على الحكم في الدول المُصطنعة لما بعد العثمانية التي حدّدتها بريطانيا وفرنسا في مفاوضاتهما مع بعضهما البعض. ولكن أيضا تمّ إخفاء هذا الواقع السياسي من خلال تقديمه كنـوع جديـد مـن ترتيبـات الثقة الدولية، التي تحتـوي على وعود غامضة بإعداد السـكان الخاضعين لسـيطرتهما من أجل الإسـتقلال النهائي في وقت غير محدّد في المستقبل.

تزامنت هذه الدبلوماسـية الإسـتعمارية في الشـرق الأوسـط مع تعهّد وزير

الخارجيـة البريطانـي بمسـاعدة الحركـة الصهيونيـة على إقامة وطـن لليهود في فلسـطين. جـرى دفـع وعـد بَلفور عام 1917 الـى الأمام خلال نظام الإنتداب في شـكل سـلطة الإنتداب البريطاني على فلسـطين. أدارت بريطانيا فلسـطين تحت الإنتداب وفقا لستراتيجية فرّق تسُد، التي اعتمدت عليها منذ فترة طويلة للحفاظ على السيطرة على ممتلكاتها الإستعمارية في جميع أنحاء العالم بأقلّ تكلفة من الدم والمال.

ما أدهشني هو أنّ سكّان المنطقة، بدلا من أن يتحرّروا من الحكم العثماني، تعرّضـوا لمصيـر أسـوأ بكثيـر مـن ذي قبـل. تجاهلت الشـبكة الجديـدة للدول الإقليمية الأعراق والمجتمعات التقليدية واخضعت المنطقة لترسـيمات إقليمية تناسب الراحة وتخدم المصالح الستراتيجية للأولويّات الإستعمارية الأوروپية. للقيـام بذلـك فـي وقت كانت فيه المشـاعر القومية غيـر الأوروپية تتزايد، تطلّب الأمر الإكراه للحفاظ على النظام. وعندما أجبِرت القوى الإستعمارية في النهاية على التنازل، أدّى ذلك الى اشكال قسرية وقمعية من الدولة لتحلّ محلّ انماط الإجرام الإستعمارية. وزاد من تعقيد الحقائق تزايد أهميّة احتياطات النفط الهائلة في المنطقة. حفّز هذا التعدّيات الجيوسياسية والقطاع الخاصّ عبر الوطنية، التي اتخذت شكل ما بعد الإستعمار، ممّا أدّى الى علاقات فاسدة مع النخب الوطنية التي تسـلمت السـلطة وأبقت السـكّان تحت ضوابط صارمة واعتمدت على أمن النظام ومكانته وتعزيزه بشـأن الترتيبات مع الفاعلين الجيوسياسـيين، وغالبا ما كانوا مستعمرين سابقين.

في ظلّ هذه الخلفية، خطر لي أنّ هناك أسباب لمساءلة الدبلوماسيين والقادة عن الأخطاء، التي ارتُكبت بهذه الطريقة، في الواقع للتعامل مع ما حدث للعالم العربي بعد الحرب العالمية الأولى، على أنّه سلسلة من الجرائم التي يجب أن تفرَض المحاسـبة عليها بأثر رجعي، على الأقلّ بشـكل رمزي. في الواقع، كلما كان تجاهل الهويات الجماعية والحقوق الأساسية ناتجا عن دبلوماسية إهمال أو تلاعب ونتائج الفوضى والظلم الواضح، يجب أن تكون هناك آلية متاحة يُعهَد اليها بالتحقيق في المساءلة السياسيّة، وفي الحالات الجسيمة المساءلة الجنائية.

من المسـلم به، أنّه من غير المُرجّح أن تقبل الجومات إطار المسـاءلة هذا

فيما يتعلق بنشــاطها الدبلوماســي. ومع ذلك، هناك قيمة في التعبير عن الجرائم السياســية، لأنّــه يســاعد فــي خلق فهم أوســع لسـبب انـدلاع اشـكال معيّنة من الصراع الطويل والمكثّف ويجعل من الصعب إنشــاء ترتيبات حكم قائمة على الأشــكال الشــرعية للمجتمع السياســي. يمكن أيضا التعبير عن مثل هذه الجرائم الجيوسياســية فــي بيئــات إقليميــة وعالميــة مختلفة من خلال محاكــم المجتمع المدنــي، التــي تعمــل بطريقة محكمة الشــعوب الدائمة PPT في روما أو محكمة حــرب العــراق لعــام 2005 في إســطنبول. كانت محكمة PPT اســتمرارا للمبادرة الرائدة لمحكمة برتراند راسل أثناء حرب ڤيتنام. هذه المحكمة، على الرغم من تجاهلها والإستهزاء بها من قِبَل وســائل الإعلام الرئيســية والرأي العام للنخبة، قــد وثّقــت ســجلا لجرائــم الحرب، التي لم تكن الحكومـات ولا منظومة الأمم المتحـدة مسـتعدّة لمعاجتهــا، ناهيــك عن توثيقها أو التصــرّف بناء عليها. ملأت مبــادرات المجتمــع المدنــي هــذا الفراغ المعياري والمؤسســي الناتج عن فشــل الفاعلين الجيوسياسيين والأمم المتحدة في التمسّك بقواعد وإجراءات القانون الدولي.

ملاحظات ختامية

هذه الأفكار الست عبارة عن مقترحات لكيفية معالجة واقع العيش معا على هــذا الكوكــب. إســتمعت الى إحدى محاضــرة جاك دريدا الأخيرة، والتي جادل فيها بشكل مقنع بأنّ التحدّي الأساسي، الذي يواجه البشرية هو كيفية العيش معا على هذا الكوكب بطريقة أفضل. بالطبع، يُنظَر الى كلمة «أفضل» بشكل مختلف من قِبَل أولئك، الذين يدّعون أنّهم «واقعيّون». أكتب «يدّعون» لأنّ الواقع نفسه يتـمّ اختبــاره بطــرق يبــدو أنّها تشــكّل تحدّيــا بايولوجيّا أخلاقيّا لــم يُهدد الأنواع ككُلّ متميّــز عــن مجتمعــات معيّنة وحتى حضارات بأكملها، ولكن ليس الجنس البشــري، وليس الكوكب كنظام بيئي شــامل. ما إذا كان هذا النوع من التحدّي موجــودا، هــو نفســه موضوع خــلاف ومداه الحقيقي غير معــروف. لكنّ امتلاك الأسلحة النووية وظاهرة الإحتباس الحراري تشكّل تهديدات بمخاطر حجمها غير معروف. ومع ذلك تمّ تقييمها بقلق متزايد من قِبَل الشرائح ذات الصلة من

المجتمع العلمي. يعتقد الخبراء باحتمال أن يُصبح الكوكب غير صالح للسكنى من قبل البشر إذا تجاوز الإحترار العالمي بعض نقاط التحوّل غير المحدّدة.

إلى حدّ ما، نشأ ت هذه الأفكار المعيارية من الإنشغالات التي شكّلت حياتي لإجراء ارتباطات مباشرة مع أكثر القضايا إثارة للجدل في اليوم. تعكس هذه القضايا خصوصيّات الزمان والمكان، والأكثر تحديدا موقعي هنا في الولايات المتحدة كردّ فعل على القضايا الوطنية ذات النطاق العالمي. أودّ أن أضع الدراسات الأكاديمية والنشاط المناهض اثناء الحرب الڤيتنامية في هذه الفئة، جنبا الى جنب مع انتقاداتي الأخيرة للصهيونية وإسرائيل، ليس لوجودهما، ولكن بسبب عدم الإكتراث الواضح بحقوق ومظالم الشعب الفلسطيني، بصورة متزايدة. إنّ عدم الرغبة في التنازل أو التوافق، باسم الأمن، سيؤدي بمرور الوقت الى انعدام الأمن.

كانت هناك قضايا أخرى لفتت انتباهي كمدرّس وباحث وناشط، ولم تتمّ مناقشتها. من بين هذه معارضة نظام الفصل العنصري في جنوب أفريقيا أو التنمية السياسية في الهند ولبنان، أو دعم الحقوق الأساسية لمختلف الدول الأسيرة مثل التبت والصحراء الغربية وتيمور الشرقية وكتالونيا، فضلا عن المناصرة المطوّلة للحقوق الأساسية للشعوب الأصلية، ومعاملتها الإنسانية كدول خاضعة منذ فترة طويلة.

تتداخل هذه الدوافع المعيارية الأعمق نحو العيش معا بطرق أفضل على كوكب ذي قدرات تحمّل محدودة مع القضايا المرتبطة بحلّ النزاعات وحقوق الإنسان. أنا أعتبر أنّ هذه المقترحات أو الأفكار المعيارية المتعلقة بالعيش معا على نطاق كوكبي، هي استجابة أفضل للحاضر وطرق محسّنة للتعامل مع المستقبل. وعلى المحكّ طوال الوقت، التحقيق القديم في حالة الإنسان. إنّها مسألة ما إذا كان يجب أن ننظر الى كياننا الفردي والجماعي على أنّه تمّ تشكيله من خلال دوافع عشوائية ومدمّرة غير واعية الى حدّ كبير، والتي صوّرها فرويد ذات مرّة بشكل مؤثّر، أو ما إذا كانت صيرورة الإنسانية Becomingness of Humanity هي عمل قيد التقدّم Work-in-Progress بدون سمات ثابتة. أنا اؤيّد هذا الرأي الأخير، الذي يشير الى الصلاحية العملية للنضال من أجل تحقيق

أفضل مستقبل ممكن. ومع وجود مثل هذا الوعي بعدم اليقين في المستقبل، فإنّني أتحمّل مسؤولية الإنخراط بنشاط، وعدم الإستسلام عن طريق الهروب والبحث عن ضحية والتشاؤمCynicism وغيرها من نماذج الإنكار أو التطرّف. إنّ الفائدة الكبيرة التي لا تحظى بالتقدير الكافي لعدم اليقين، الذي يحيط بمستقبل الإنسان، هي أنّه قادر على خلق والحفاظ على أمل حقيقي من خلال النضال Hope–Through–Struggle وكذلك إمكانية تحقيق التغيّرات المنشودة.

عندما أحاول ربط هذه المقترحات المعيارية بنضالي الشخصي منذ المراهقة لتحقيق هوية أصيلة، أدهشتني مجموعتان من الإعتبارات. أوّلا، لقد قمت الى حدّ ما بنزع الطابع الشخصي عن النضال من خلال تشكيل نماذجي الإيجابية. على سبيل المثال، فكرة المواطن المعني بقضايا الآخرين، والتي هي جزئيا ليست أكثر موثوقية من «إختراع خاصّ» يعتمد بالتأكيد، على الإلهام القائم على الخبرة ومثال الآخرين. ثانيا، إنّ عدم وجود نماذج إيجابية أو هوية متجذّرة عندما دخلت مرحلة البلوغ، قادني الى منح حياتي المهنية منذ البداية تقريبا لبُعد معياري (قانوني وأخلاقي) يرضي شخصيّا مع تهميش عملي فيما يتعلق بالهيمنة، ضمن الإتجاهات المهنية والمجتمعيّة. علاوة على ذلك، وفي الخلفية ولكن لا تزال ذات صلة، هي قيادتي اللاواعية المستمرة لعدم التصرف والتفكير ككلب كبير على غرار عائلة أمّي. كنت أميل الى التضامن من أولئك المُستضعَفين والضحايا إذا وقعوا في نطاق نظرتي المهنية كمواطن رائد معنّي بقضايا الآخرين.

هذه النظرة الأكثر تمييزا من بصمات الأصابع، هي التي تساعد في تحديد من نحن وماذا نُصبِح.

القسم السادس

شبه حالم أم مُنبّئ:
البحثَ عن النور

ســأحاول في هذين الفصلين الأخيرين مراجعة تجربتي الحياتية في لحظة تاريخيــة غريبــة، عبر وقت لا مثيل له في التســعين عاما، التي قضيتها على هذا الكوكب. على الرغم من ذلك، تستمرّ حياتنا اليومية في الدوران حول العلاقات الشخصية مع الأصدقاء والعائلة والتي تكشف أحيانا عن حواف حادّة من الحكم والمعارضة. ولكنّها في كثير من الأحيان تزيد من اواصر التضامن والرضا والمودة والحب. ومن حين لآخر، تكشف حادثة تبدو تافهة عن الواجهة الغامضة في كثير من الأحيان بين الخاصّ والعامّ.

منذ وقت ليس ببعيد، كنت اتناول العشاء مع الإصدقاء المقرّبين وتحولت المحادثة نحو نُعوم چومســكي، الذي احتفل مؤخرا بعيد ميلاده التســعين. ومع ذلك لم يُظهر أيّة علامات على التباطؤ فكريا، أو فيما يتعلق بحياته العامة النشطة في الســفر، والمؤثرة والمصحوبة بالتعليقات الإستفزازية ودعم أولئك الذين تمّ تهميشــهم بسبب قسوة عالمنا واختلالاته. لقد تأثرت بالروح الرومانسية ودفء علاقــات نُعوم مع زوجته البرازيلية خلال زيارته لســانتا باربرا لحضور ورشــة عمل باحث/ناشــط حول القضايا النووية. عندما ســأل أحــد ضيوفنا عن فارق السّن بينهما، توقعت أنّ ڤاليريا كانت في أواخر الأربعينات من عمرها، وهو ما قد يكون خطأ تماما كما أفكّر كثيرا في مثل هذه الأمور. تفاعلت أكثر من إمرأة على مائدة العشــاء بازدراء ووصفت العلاقة بأنّها «خاطئة» و«غريبة». لم أوافق على ذلك، وقلت أنّني وجدتها لطيفة للغاية وهما مُحبين لبعضهما البعض، وهو ما كنت أختبرته أنا نفسي.

لــم يكن لتعليقاتي أيّ تأثير علــى ضيوفنا وأدّت الى الرفض المجرّد لمثل هذا الإحتمال، والذي تكرّر بنبرة ســاخرة الى حدّ ما، بل وحتى غاضبة. شعرت

أنّ بعضا من ردّ الفعل العِدائي هذا كان موجّها نحوي لتأييد مثل هذا النوع غير الصحيح تقليديا من علاقة الحياة الزوجية المتأخرة. في الخلفية غير المُعلنة، كانت الحقيقة المبنيّة اجتماعيا أنّ خيار چومسكي متاح فقط للرجال، خاصة ذوي الشهرة أو النفوذ، ولم يكن من المُتصوّر أن يعلق الرجل الجذّاب الشاب نفسه بامرأة في الثمانينات والتسعينات من عمرها. ربّما أيضا، بدا موقفي عن علاقة نُعوم بڤاليريا خدمة ذاتية نظرا لعمري وحقيقة أنّ هِليل أصغر منّي بكثير. في دفاعي، أودّ أن اقول إنّني طوال حياتي، كنت دائما أنظر بعين إيجابية الى العلاقة التي تعمل، مهما كانت طبيعة الإرتباط، التي قد تبدو غريبة إذا نظرت اليها من الخارج. وراء هذا الشعور، هو تجربتي التي تفعلها العديد من العلاقات الصحيحة تقليديّا أو التي قد لا تعمل. من النادر أن تجد علاقات حميمية تدوم أكثر من أمواج الشمس ذات الشدّة الرومانسية. عندما نصادف قصص نجاح، يجب الإحتفال بها بدلا من تقييمها بمعايير مجرّدة. في الوقت ذاته، أدرك تماما أنّ جميع الإنماط المجتمعية تمرّ عبر المرشِحات الأبوية Patriarchal Filters التي على الرغم من أنّها تتطوّر، فإنّها تستمرّ في منح امتياز للرجال، ويحدث تغيير المرشِحات ببطء وبشكل غير متوقع، فقط من خلال التحرّك من الأسفل. التمييز على أساس السّنّ أقلّ ضررا بكثير من المعاناة التي يعيشها أولئك الذين يقاسون من إعاقات خطيرة وأنماط الحياة المنحرفة اجتماعيّا والأقليات العرقية المُستهدَفة.

يؤدّي التحوّل من التعقيدات الشخصية الى أوجه قصور ومخاطر في النظام العام جزئيا الى استبدال النواقل العاطفية Emotional Vectors للتجربة بمخاوف أكثر عقلانية بشأن الحرب والفقر والتلوّث والعنصرية وسلسلة الأخطاء القديمة المتأصّلة في الهياكل الإقتصادية والسياسية، ممّا يؤدّى الى صراعات بين الأغنياء والفقرء وبين الحضر والريف والعلماني والمتديّن واليمين واليسار. في هذا الصّدد، يتمّ تفسير الحياة العامّة من منظور الصراع، سواء كان الفائزون أو الخاسرون في الدوائر الرأسمالية النولِبرالية أو الصراع الطبقي في التقاليد

الماركسية. تعمل مثل هذه التقييمات المستقطبة الى سحب الإنتباه عن العولمة والإيثار والعلاقات التعاونية للفوز في نفس الوقت في تاريخ العالم. عندئذ يبدو أنّ استكشـاف إمكانية تحقيق مثل هذه التناغمات على جميع مستويات التفاعل الإجتماعي، مرتبط بشكل متزايد بآفاق مستقبل بشريّ خيّر.

فـي الوقت الحالي والعالم يكافح جائحة فايرُس الكورونا، فإنّ الولايات المتحدة، التي لا تزال الفاعل المهيمن على المسـرح العالمي، يقودها مُسـتبدّ اجتماعـي بينمـا يتمّ تحدّيها مـن الداخل عن طريـق احتجاجات ضخمة ضدّ العنصريّة النظامية والظلم الإجتماعي والإقتصادي الذي اشعل النيران في جميع انحاء العالم. يحدث هذا في وقت تتعرّض فيه أمريكا ذاتها للتهديد بسبب المِحن الإقتصادية والمواجهة الجيوسياسية وتدهور البُنية التحتيّة وعدم الإستقرار البيئي. في حين أنّ حياة كلّ شخص مشروطة بطبيعتها، في هذه المجموعة من ظروف ارتداء الأقنعة والتباعد الإجتماعي، نطوّر حسـابا وجوديّا كلّ سـاعة من موتنا، بالإضافة الى الإضطرار الى تحديد ما إذا كنّا نميل الى الإهتمام بخبراء الصحة أو المشاعر الغريزية أو السياسيين الملائمين. وصلت هذه الإستجابات الإستقطابية الى ذروتها في أوائل شهر تشرين الأوّل من عام 2020 عندما صرّح دونَلد ترامپ عن إصابته بالڤايرُس وتمّ نقله الى المُستشفى، ممّا أدّى الى تحطيم موقفه المتمثّل في مناعته، وجعلنا نتسـاءل بشـكل مُكثّف عن نوع الواقع الذي سـنواجهه بعد الجائحة، سـواء كما هو الحال في حالتي كمقيم في تركيا وأمريكا، أو في أيّ مكان يوجد فيه أحد.

ليس بعيدا كلّ البعد عن الأزمات، التي تهيمن على الوعي العام في الوقت الحاضر، هو الإلحاح المهمّش مؤقتا لتغيّر المناخ والتنوّع البايولوجي والأسلحة النووية والتوترات الجيوسياسية والعسكرة والترتيبات الأقتصادية الجشعة والجوع والفقر والهجرة. لا يمكن تأجيل هذه الحالات العاجلة دون تكبّد تكاليف باهضة ومسـتويات مخاطر متزايدة، وربّما عواقب وخيمة. عندما تؤخذ هذه المجموعة من الظروف في الحسـبان، فإنّها لا تتطلب خيالا جامحا للتغلب على مخاوف

شـــديدة بشـــأن ما إذا كان يمكن إدارة أزمات النظام العالمي المتقاربة واحتوائها بشـــكل فعّال. بمعنى أنّه دون توقع دراماتيكية هذه التحدّيات الأخيرة من خلال ظهـــور الأمراض المعدية والغضب الأخلاقـــي والإضطراب الإقتصادي والنزاع الأهلي والحروب. لطالما كان الدافع وراء عملي والتزاماتي الأكاديمية، هو التوقّع والخوف من أن يكون يوم الحساب لمستقبل الحضارة كما نعرفها، وربَما حتّى بقاء الإنسان، مجرّد مسألة وقت. ما إذا كان هذا هو الفجر المُبكّر لمثل هذا اليوم في الحســـاب العالمي، فغير معروف لحدّ الآن. من المحتمَل أن يكون ســـيناريو التعافي الكوكبي كامنا تحت الآفاق الحالية للإدراك، والتي قد تبدو متحرّرة. ومع ذلك، قد تفتح نفســـها قريبا الطريق الفاصـــل الجديد من تهاون النظام العالمي. على الرغم من الإحصائيات والرســـوم البيانية، لا يزال مصير الإنســـان محبوسا بالكامل تقريبا في صندوق أسود، وقبول عدم اليقين الجذري الذي يتمّ الإشراف عليه بذكاء من خلال روح احترازية هو دليلنا المعقول الوحيد للمســـتقبل. أحد الجوانب الإيجابية لعدم اليقين هذا هو أنّ المستقبل لا يمكن التنبؤ به ولا يوجد أيّ عذر لشطب الصراع للتغلب على التحدّيات الحالية باعتباره عديم الجدوى والقبول بانهزام الذات. في الواقع، ليست السلبية والرضا عن الذات ولا الحتمية، خيارات عقلانية.

مع أخذ هذه الأفكار في الإعتبار، دفعت الى التســـاؤل عمّا إذا كان ينبغي رفـــض رحلتي المزدوجة كمفكّر عام ومواطن معنيّ بقضايا الآخرين باعتبارهما فكـــرة مبارزة في الخيال أو اعتبارهما كطائر الكنَيري، الذي يغرّد في قفصه لمن يتمتعون بســـمع لائق. وهـــو كأداء اغنية حبّ مصمّمة لإيقاظ البشـــرية لتحقيق الإمكانـــات الأخلاقيـــة والبيئية والروحية للأنواع قبل فوات الأوان. إنّ الســـعي لتحقيق التوازن بين التخيّل والقلق هو ما كانت تدور حوله رحلتي كمعلم/باحث ومدافع وناشط ومواطن، ولن أغيّر انخراطي في الحياة بشكل أساسي إذا أتيحت لي فرصة ثانية. الرحلة ليست لها نقطة نهاية. إنّها عملية كان لها أن تصبح طريقي للوجود في العالم ومع الآخرين، مُبرّرا للذات أذا استَرشِد بالنوايا الحسنة والتفاني

الروحي والحبّ، وحتى التدمير الذاتي. من الأفضل قياس العملية ليس بالنتائج، بل بالسعيّ، وقبل كلّ شيء بالمثابرة. أعترف بأنّ الأهداف التي دافعت عنها بشدة لم تتحقّق خلال حياتي، ويبدو الآن أنّها أقلّ قابلية للتحقيق ممّا كانت عليه قبل 50 عامـا. ولكن هل كان من الخطـأ أنّني حاولت؟ وكما أصرّ صامويل پيكِت، يجـب أن نحكم على بعضنا البعض وعلى انفسـنا مـن خلال الصفة الأخلاقية لفشلنا، ومن خلال شجاعتنا لمواصلة محاولة القيام بعمل أفضل، على حدّ قوله، «لنفشل بشكل أفضل».

أحتاج الى تذكير نفسـي باسـتمرار بـأنّ هذا التأكيد الذاتي، والممارسـة المصاحبة له، كان من الممكن أن يكون مسـتحيلا بدون حظّ جيّد اسـتثنائي مع امتياز الصحة والعرق والطبقة والفرص المهنيّة والحياة الأسريّة للبالغين والهدايا الوفيرة من الحبّ والإلفة والصداقة.

بـرزت كمفكّر عام بالمعنى الأساسـي لأخـذ اهتماماتي خارج المكتبات والمجلات والمحاضرات الأكاديمية في المراحل الأخيرة من الحرب الأمريكية فـي ڤيتنـام، أي حتى أواخر السـتينات عندما كنت في منتصـف الثلاثينات من عمري. لم يكن الأمر يتعلق بالعصيان المدني أو المسـيرات الإحتجاجية، على الرغم من أنّ هذه الأساليب للتعبير لم تُستبعَد أبدا، لكنّها تضمّنت بشكل أساسي رفـع صوتي في السـاحات العامة القريبة من منزلي وفـي أيّ مكان أتيحت لي فيـه الفرص. تضمّنت فرصي المُبكّرة الإدلاء بشـهادتي أمام لجان الكونگرِس، وكوني شـاهدا خبيرا في المحاكمات المناهضـة للحرب والعضوية في اللجنة الدوليـة المكلفة بقضايا السياسـة العالمية وكتابة مقالات رأي مثيرة للجدل في الصحف الرئيسـية. بمجرّد أن اصبحت معروفا بشـكل أفضل كمفكّر عام ينتقد الأزرار السـاخنة، سـرعان ما جفّ تيار تحرّكي الرئيسي وبدأت العراقيل توضع أمامي. أعدت توجيه طاقتي الى أنماط أخرى من المشاركة العامة. على الرغم من الإستثناءات من الرجال الذين يمارسون الجنس مع الرجال، زاد شعوري بالإلتزام كمشارك نشط في المناقشات السياسية اليومية بمرور الوقت. اصبحت آرائي أكثر

تقديرا ومعرفة خارج بلدي منها في داخله، ولذا فقد اتخذ نشاطي تدريجيّا طابعا دوليّا أكثر، مع التركيز الجيوسياسي على الشرق الأوسط منذ عام 2000، وإيلاء اهتمام خاصّ لتفاعل التطوّرات في ايران وتركيا وإسرائيل وفلسطين.

فـــي التعبير عن وجهات نظري في الســاحات العامــة، غالبا ما تمّ التعامل مــع خلفيتي الأكاديمية في القانون الدولي والعلاقات الدولية على أنّها أســاس مصداقيتــي كمعلق على الشــؤون العالمية. لقد بذلت قصــارى جهدي لتقديم قراءات تقدّمية للقانون الدولي وحقوق الإنســان وســلطة الأمم المتحدة لدعم التحدّيــات التي تواجه الترويــج للحرب والتدخّلات الأمريكيــة ذات الدوافع الجيوسياســية على اســتقلال الدول ذات الســيادة وحقوق الإنســان لشعوبها. بصفتــي مثقفا عامّا على مرّ الســنين، أوليــت اهتماما خاصا لموضوعين دوليين رئيسيين. (1) معارضة جميع اشكال التدخّل الجيوسياسي في الشؤون الداخلية للدول ذات السيادة دون قيد أو شرط، بما في ذلك الوسائل السريّة أوعن طريق فرض العقوبات. (2) المعارضة غير المشــروطة للأســلحة النووية، بما في ذلك الحيازة والإنتشــار والتهديد، والتطوير والمذاهب الستراتيجية، التي تبرّر التهديد والإستخدام المخصّص للأسلحة النووية.

تســبّبت هذه الآراء في بعض ردود الفعل الســلبية في الأوساط الأكاديمية والتأسيسية. ظللت أحيانا ضيفا مدعوّا، لكنّني لم أعد أجلس عند رأس الطاولة. على ســبيل المثال، حاصرتني الجمعيــة الأمريكية للقانون الدولي ASIL، وهي المنظمة المهنية الرائدة في مجال تأثير القانون على ســلوك ومحنوى السياســة الخارجيــة. في البداية، دُعيت للتحــدّث واتيحت لي فرص لأدوار قيادية داخل المنظمــة. إختفــت هذه فيما بعد عندمــا اعتُبِرَت آرائي مثيــرة للجدل ومعادية للمؤسســة. بالطبــع كان هناك عنصــر تفاعلي، لكنّني لم أعد أتوقع أو أســعى للحصول على الإعتراف في مثل هذه الأوساط النخبوية، التي جمعت بين خبراء القانون الدولي ومحامين رفيعي المستوى يمثلون الشركات الكبرى والمؤسسات المالية والمستشارين القانونيين للحكومة. ومع ذلك، فإنيّ لا أندم على تعرّضي

الســـابق لهذه الأماكن المهنية/السياســـية. لم أشارك مطلقا في الوقعات السائدة، على الرغم من أنّ سمعة كوني استاذا في جامعة پرِستُن لم يُنظر اليّ أبدا على أنّني لاعب في الفريق جدير بالثقة تماما. وهذا أمر لم يزعجني ويناسبني بشكل جيد.

طالما كنت ضمن حدود المعارضة «المســؤولة»، فقد بدوت موضع تقدير فـــي مجتمعات النخبة، جزئيـــا لدعم إدعاءاتهم حول الإنفتاح على وجهات نظر متنوعة ذات مصداقية. ولكن عندما بدأت عن قصد في تجاوز الخطوط الحمراء بالحثّ على المساءلة الجنائية للجناة الرئيسيين لسياسات ڤيتنام أو التشكيك في شـــرعية تدخّلات المخابرات المركزيّة الســـريّة في الحرب الباردة والإغتيالات السياســـيّة أو التمســـك بمطالب بلدان الجنوب العالمي لممارســـة السيادة على مصادرها الطبيعية بدلا من المســـتثمرين الأجانب، تمّ ســـحب سجّادة الترحيب الخاصّة بي تدريجيّا، وغالبا دون وعي. وعندما أوضحت أنّني عارضت شاه إيران واجهت حركة معارضة في الداخل، وحين وجّهت انتقادات للإجماع الصهيوني وسيطرته، ادركت تماما أنّ مستقبلي السياسي والمهني اصبحا في دائرة الخطر.

باختصار، لم يكن كوني مفكّرا عاما نتيجة خطة محســـوبة. لقد جاء ذلك من خلال سلسلة من الجهود العفوية لنقل آرائي حول القضايا الدولية الحاسمة في البيئات السياســـية خارج الحدود الأكاديمية والنشـــاطات العادية. وقد انتج هـــذا صداقات دائمة وخبرات تعليمية قيّمة، لكنّه خلق أيضا خصومات أدّت في بعض الأحيان الى جعلي هدفا للتشـــهير والشجب. كما جعلني من ناحية أخرى على اتصال بالعديد من الأشخاص من جميع انحاء العالم، ووسّع آفاقي وشحذ تحالفاتي وعلمني بمرور الوقت ملامح هويتي السياسية المتطوّرة باستمرار.

الفصل الثامن عشر

المواطن المعنيّ بقضايا الشعوب كمفكّر عام

توضيح التحدّي: مجلس العلاقات الخارجية

إنّ واقع العيش كمواطن هو سلسلة من الأحداث الملموسة التي تختبر الضمير وتخلق توترات بين أن تكون على صواب سياسيّا أو أن تكون مواطنا ضميريا Conscientious Citizen. في الواقع، هل أمشي مع التيارأم أبكي «مكرها» في مواجهة الأخطاء في المجالات التي تثير قلقي؟ أن تكون مفكّرا عاماً هو موقف فردي يقف بعيدا عن الجمهور وتوقعات الإمتثال عندما يتعلق الأمر باتباع المسار الذي يختاره القادة. وقعت حادثة صغيرة في أواخر الستينات عندما وضعت نفسي في مرمى نيران النخبة في مجلس العلاقات الخارجية CFR. تمّ رفض رأيي المعارض وتبعه سلوك لتأديبي. لكنّ الأمر ترك عندي فهما أفضل لما يعنيه أن تكون مثقفا عاما ولماذا كانت هذه هي دعوتي. هناك مفارقة حاضرة لأنّ **مجلس العلاقات الخارجية** CFR هو شبكة خاصّة للغاية تقترب من السرّية، لكنّه يلعب ادوارا مؤثرة في تشكيل آراء الطبقة السياسية وتوفير المواهب لموظفي المؤسسات الحكومية عندما يتعلق الأمر بالسياسات الخارجية وعمليات الإستخبارات الدولية، مع الإهتمام الخاص بالأبعاد الإقتصادية والأيديولوجية.

في السنوات المبكرة من عضويتي في مجلس العلاقات الخارجية في أواخر الستينات، فوجئت الى حدّ ما بتقييمي بما يتجاوز قيمتي. يبدو أنّ مجلس العلاقات الخارجية كان بعيدا عن المزاج المناهض للحرب في البلاد، ولغرض

الإحتفاظ بالنفوذ والمصداقية كان بحاجة الى تغيير صورته. وبهذا المعنى اللاشخصي، بدوت ذو قيمة بصفتي عضوا جديدا امتلك نهجا مرئيا مناهضا للحرب ومُنتقدا للسياسة الخارجية الأمريكية. لقد قدّمت رمزا للتوازن في ملف المجلس العام وتوجّهه، حيث أدرك موظفو المجلس علنا حاجته الى تجاوز الإجماع المؤيّد للحكومة، إذا كان لبيانات سياسته أن تكون ذات قوة دفع في الجو السياسي بعد ڤيتنام. إنّ نخبوية المجلس، وطموحاته السياسية كانت أكثر وضوحا من تلك الخاصة بمؤسسة ASIL، ولم يطرح سوى القليا من الإدّعاء بأنّ العضوية تستند الى الجدارة أو المساهمات الإنسانية، ولكن بدلا من ذلك على الوصول الى السلطة والثروة والمكانة الإجتماعية، وخاصّة الإنخراط في وظائف سوق المال (وول ستريت) والدبلوماسيين المتقاعدين ومسؤولي المخابرات وضباط عسكريين رفيعي المستوى، بالإضافة الى عدد قليل من أساتذة جامعات النخبة وأساتذة مراكز الفكر. كمسألة هوية مفترضة، فضّل المجلس الإتصالات الخفيّة وتجنّب الجدل العام، باستثناء دعم الإجماع السائد بين الحزبين. لهذا السبب، كان يُنظر الى الموقف النقدي المرتبط بالمثقفين العامين على أنّه لعنة من منظور الدولة العميقة أو CFR مركز العلاقات الخارجية. لقد ذكّرني بتجربتي مع كارل كايسُن، وهو شخصية داخلية بارعة، نصحني خلال حرب ڤيتنام بالإمتناع عن الإنتقاد العلني للحرب والتعبير عن شكوكي بشكل خاصّ بصانعي السياسة الكبار والأقوياء. لقد كان هذا الدور الحاسم بالذات كخصم عام ومُخبر هو الذي قادني نحو تأكيد المثقفين العامّين مثل چومسكي وسعيد واخيرا إلزبَرگ، ثمّ محاكاة مثالهم بأفضل ما استطيع.

ذات يوم وأنا في مكتبي في الجامعة، وردني خبر عن تعيين وِليم بُندي كمحرر جديد **لمجلة القضايا الخارجية**، وهو الأمر الذي صدمني على الفور باعتباره فكرة رهيبة، تتناقض مع ادّعاء مجلس العلاقات الخارجية بأنّه يتكيّف مع مناهضة الحرب واجواء السياسة الناتجة عن فشل سياسات ڤيتنام. كنت على علم بأنّ بُندي كان يشغل منصبا رفيعا في وزارة الخارجية في وقت حرج خلال تلك الحرب، وكان مسؤولا بشكل خاصّ عن القصف السّري لڤيتنام الشمالية ولاوُس. زادت معارضتي عندما اكتشفت أنّ تعيين بُندي جاء ليس من

خلال إجراءات الإختيار العاديّة، ولكن نتيجة المحادثة بين دَيفِد روكفِلر، رئيس المجلس آنذاك وهارفي بُندي والد وِليَم، وهو محام بارز في بوسطن ورئيس مكتب محاماة بي جَي ماكجورج. جرى نقاش التعيين خلال فترة استراحة الشوط الأول من مباراة هارفَرد/ ييل لكرة القدم السنوية بين الجامعتين. ما علمته هو أنّ هارفي قد أخبر دَيفِد بأنّ إبنه، «بِل سيترك عمل الحكومة، ويحتاج الى وظيفة جديدة». ردّ روكفِلر على غرار قوله إنّ بِل سيكون مؤهّلا لملء الوظيفة الشاغرة في مجلس الشؤون الخارجية، واقترح التعيين. في هذه المرحلة وأنا أتصرّف بمفردي، كتبت رسالة تشير الى اعتراضاتي على تعيين بُندي وطلبت إعادة النظر فيه. أقنعت لاحقا زميلي رِچَرد بارنِت وزميلي في جامعة پِرنستُن رِچَرد أولمَن، بالإنضمام الى الإعتراض على التعيين بناء على الأسس الموضوعية Appointment on the Merits.

كان ما تبع ذلك درسا موضوعيا في تماسك النخبة. كعضو في مجلس العلاقات الخارجية، تمّ التعامل مع رسالتي باحترام. عقد المجلس اجتماعا للجنة الإختيار التابعة له ودُعيت لذلك الإجتماع كي أقدّم الأسس المنطقية لاعتراضاتي. رُفِضت مناشدتي بعد الإجتماع، فتقدّمت بالتماس آخر الى مجلس الإدارة، فاصبحت القضية معروفة للأعضاء ككلّ. في الأسابيع التي تلت ذلك، تلقيت عشرات الرسائل المعادية، معظمها تندّد بمبادرتي باعتبارها «مكارثية يساريّة». كانت هناك رسالة من جورج كِنن، الذي اعتبره صديقي، أخبرني فيها أنّه غير راض عن الطريقة التي يعمل بها المجلس «يجب أن أبدأ النادي الخاص بي»، وحتى رسالة اعتذار من الصحفي المحترم والمساعد السابق للرئيس جونسُن، بل مويَرز، الذي كان عضوا تغيّب عن اجتماع لجة الإختيار. أشار الى تعاطفه مع اعتراضاتي على بُندي، لكنّه قال في النهاية إنّه لا يستطيع معارضة الإختيار لأنّ عائلة روكفِلر كانت موالية له على مرّ السنين.

خلال تلك الفترة، عندما كنت اتلقى تلك الردود، إتّصل بي بُندي وسأل عمّا إذا كان بإمكانه المجيء الى پِرنستُن حتى نتمكن من مناقشة الموضوع على الغداء. إعتقدتْ سكرتيرتي في البداية، وهي عارفة بالجدل حول موضوع تعيينه، أنّ المكالمة كانت مُزيّفة أو من صديق كان يمزحُ فبدت متردّدة، لكنّني أخبرتها أن

تمضي قدُما ووافقت على فكرة تناول الغداء. كنت في الواقع أشعر بالفضول اتجاه الرجل. كان غداؤنا خاليا من المفاجئات، وبدا أنّ بُندي منجذبا نحوي بصفتي جزء من نفس الطبقة السياسية، وأكّد لي أنّ مقالاتي ستكون موضع ترحيب في **مجلة القضايا الخارجية** اثناء تحريره لها. رفضت وشرحت له بأكبر قدر من الحذر واللباقة لماذا اعارض تعيينه. وعلى أيّة حال، حصل بِل على الوظيفة. بطريقة ما تمّ اختراق جدران سريّة المجلس وتمّت تغطية قصة هذه الأحداث في الصحافة السائدة كمثال على الإنهيار غير المعتاد لنخبة اللياقة Decorum.

بطرق خفية، جعلني المجلس أدرك أنّني انتهكت اللياقة. وعلى الرغم من الإحتفاظ بالعضوية، لم تتمّ دعوتي مرّة أخرى لأكون متحدثا أو حتى جزء من مجموعة الدراسة التي تصدر التقارير السياسية بشكل دوري. ومع ذلك واصلت دفع مستحقاتي والبقاء كعضو على مدار الأربعين سنة القادمة، وحضور بعض الإجتماعات المغلقة مع القادة الأجانب الزائرين، إذا حدث وكنت موجودا في مدينة نو يورك.

الخيارات الملاحية لرحلة المواطن الرائد المعني

لا ينجذب المواطن الرائد المعني بالضرورة الى المجال العام. يمكنه أو يمكنها الشروع في رحلات حياة خاصّة للغاية مكرّسة لإشراك الفنون وإدلاء الشهادة والخدمة والتفكير. لم أكن أميل الى هذه الحدود ولم أكن مجرّد ميّال الى التحدّث بالحقيقة الى السلطة، على الرغم من أنّ هذا قد لعب دورا في نشاطاتي. كان الدافع الأكبر هو للعمل بالتضامن مع المبادرات التقدّمية في مجموعة واسعة من القضايا. كنتيجة لوجودي في الولايات المتحدة، وجدت نفسي من وقت لآخر في مواجهة السياسة الأجنبية الأمريكية، أحيانا بأدب من خلال الإدلاء بشهادتي أمام لجان الكونگرِس، أو بشكل أكثر حماسا خلال التحدّث في التظاهرات أو دعم النضالات بالإلتماسات وزيارات التأييد ضدّ الظلم سواء في ڤيتنام أو فلسطين أو جنوب افريقيا. حاولت، بصفتي أكاديميّا، تفسير التطوّر المعقد والمثير للجدل بطريقة تتعارض عادة مع ذرّة من الحكمة التقليدية. كان ذلك واضحا في انشطتي المختلفة المتعلقة بإيران وإسرائيل وتركيا.

لسنوات عديدة، حاولت تحديد ما يعنيه أن تكون مواطنا تقدّميا في مجتمع

ديمقراطي، نظرا لإحساسي بأنّ حدود المشاركة السياسية لا ينبغي ربطها بآراء قومية وقبلية ضيّقة للعالم. فضلت الفِكر والمشاعر والقيم والتضامن والعمل الذي يعكس الصالح العام، أو مزيج القرن الحادي والعشرين من المصالح الإنسانية والعالمية، التي تعبّر عن مخاوف وآمال عصرنا الناشئة عن الهويات الشاملة. بشكل أكثر عفوية، انجذبتُ الى النضالات التحرريّة التي شُنّت لصالح «القضايا المفقودة والمظالم التاريخية»، بما فيها العبوديّة وانتهاكات حقوق الشعوب الأصلية والمُستعمَرة. وفي وقت لاحق انجذبت الى الحياة والدفاع عن الطبيعة ورفاهية الحيوانات وموائلها. عندما بلغت مرحلة النضج السياسي، أصبحت أكثر تقبلا لحكايات «الخاسرين» أكثر من تقبّل حكايات «الفائزين». وقد عكس هذا عدم ارتياحي للطريقة التي مزّقتْ بها الرأسمالية المجتمعات عمليّا، ممّا أدّى الى شرور مزدوجة تتمثل في في الإستياء المرير Embittered Resentment والرضا الأخلاقي Moral Complacency.

معضلات المشاركة السياسية

كما هو الحال مع مناصرة «الحكومة العالمية»، وجدت تأكيدات «المواطنة العالمية» سابقة لأوانها ومضللة ولطيفة، على الرغم من حسن النية. للوهلة الأولى، بدا إعلان المرء نفسه مواطنا عالميّا طريقا مرحّبا به للهروب من الهوية السياسية والمجتمع وحلّ المشكلات من خلال مجازات حب الوطن، مع اعطاء محتوى محدد من خلال الإشارة الى الفوائد والأعباء والطموحات الوطنية. يمكن التعبير بإيجاز عن المشكلة التي أجدها في تأكيد المواطنة العالمية، على أنّها تفتقر الى الجوهر، أو بشكل اكثر وضوحا، إنّها «وهمية» طالما لا يوجد سوى مجتمع عالمي وهمي. غالبا ما نتحدّث عن «المجتمع الدولي» لاقتراح الأنشطة الجماعية للحكومات في الأمم المتحدة وفي أيّ مكان آخر دون التفكير في طبيعة المجتمع الحقيقي. إنّ الوجود يعتمد على القيم الأساسية المشتركة والمشاعر الحقيقية المشتركة في الواقع. الأماكن العالمية محاصرة بتضارب المصالح والأولويات وتصوّرات الإستحقاق. كلّ ما يقترحه استدعاء «الإستثنائية الأمريكية» يوضح حدود المقاطعات «للمجتمع» من قِبل الدولة

ذات السيادة الرائدة. يجب أن يحرج ذلك واشنطن، ومع ذلك يبدو حتى الآن أنّه ينتج المزيد من الإنسحابات من مواقف المسؤولية العالمية، ويخلط القومية القبلية بالهدنة الجيوسياسية.

في الخلفية، ولكن طوال مدة الوباء فقط، تبرز التحدّيات التي يمثلها عدم الإستقرار البيئي والأسلحة النووية والعذاب الناجم عن عدم المساواة العالمية والحكم الإستبدادي. من ناحية نسمع نداء اليافعة گرَيتا ثونبَرگ الحزينة وهي تتوسّل قائلة، «إستمعوا الى العلم والعلماء قبل فوات الأوان!» ومن ناحية أخرى، هناك حماقة تستند الى البيانات من ستيڤِن بِنكر تنصح العالم بأنّ البشر لم يسبق لهم ذلك أبدا، بينما الكوكب يحترق. وما يعلو فوق هذا التنافر في الأصوات، هو صخب الديماگوگيين المستبدّين على شاكلة ترامپ ومَودي الهند وپولسِنَيرو البرازيل ودُتيرتي الفِلِپين.

الكوزموپولوتية(*) Cosmopolitanism

منذ قرأت كارل مانهايم كطالب دراسات عليا، أدركت وتعاطفت جزئيا مع التوبيخات الموجّهة الى أولئك، الذين يدافعون عن القيم العالمية والمواطنة العالمية. أفهم أيضا الجهود ذات الصلة لرسم فروق حادّة، كما فعل مايكل والزر(**) بين «الهويات السميكة والرفيعة»، ممّا يشير الى أنّ القومية والقبيلة لا

(*) الكوزمولوجي أو الكوزمولوجيا هي علم الكون الفيزيائي (Cosmological or Cosmology) وهي كلمة يشير معناها إلى علم دراسة الكون وتركيبه العام. أي هو العلم الذي يختص بدراسة أصل الكون وبنيته وتكوينه وكل ما فيه من مادة وطاقة. وكلمة كوزمولوجيا هي كلمه من شقين يونانية إغريقية الأصل مركبة من الكلمتين اليونانيتين «κοσμολογία κόσμος kosmos, «universe» (ومعناها بالعربيه كوزموس أي الكون والكلمه λογία, -logia، لوجيا أي دراسة) وهي تشير في مجملها إلى معنى (دراسة الكون). إنّ علم دراسة الكون له تاريخ طويل والكثير من النظريات وهو بشكل عام طريق مباشر أو غير مباشر متصل بكلّ العلوم الدنيوية ويشكل نقط تسليط الضوء من اهتمام البشرية في مختلف الأزمان والأماكن، وهي دراسة مرتبطة بشكل ما بالعلم والتاريخ والفلسفه والأديان. https://www.qaarb.com/2323.

(**) يرجى مراجعة كتاب Michaek Walzer بعنوان Thick or Thin: Moral Argument at Home and Abroad 2016.

تزال غليظة، بينما تبدو الحضارة والعالمية هزيلة شبه رخوة، وبالتالي هامشية تماما للمشاركة السياسية والتجربة الإنسانية. أنا أدرك ايضا تلك السخرية القومية والمجتمعية، التي تنوي سحب «الدّمّ الإنساني» Humanist Blood. «إنّ أولئك الذين يحبّون الجميع لا يحبّون أحدا»، أو الخنجر الموجّه الى قلب الضمير الأخلاقي، «لك في أمريكا خيار، أن تحبّها أو إتركها!»

هناك اسباب قويّة للقلق من التعريفات العالمية السهلة، مثل الإنحرافات عن تحمّل المسؤولية عن المظالم المحلية والوطنية، كما هو الحال في اشكال العصر الجديد من الإنغماس الذاتي؛ كأفكار طوباوية بدون جاذبية سياسية وبالتالي مضيعة للوقت والطاقة، وكتجاهل الحاجة النفسية «للآخرين» لخلق شعور بالمجتمع المحلي والتمتع بإرضاء حبّ الوطن كواجهة مثالية تكمن وراءها الطموحات والأجندات الجيوسياسية مثل التصريحات العبثية من قبيل «الأممية اللِبرالية» أو «الإستثنائية الأمريكية» وأخيرا كحقيقة الأنثروسياسية / الحمض النووي. أكّد التعلق البشري دائما على أولوية الجزء (الأسرة والحي والكنيسة والأمة والحضارة) على أنّه متميّز عن الكلّ، ممّا يجعل مجموع الأجزاء أقلّ من الكلّ. إنّ إدّعائي الثابت للنظام العالمي هو أنّ الظروف التاريخية الحالية تميل نحو الكارثة ما لم تتصرّف السياسات والممارسات على جميع مستويات التفاعل الإجتماعي وتؤمن بطرق تجعل الكلّ أكبر من الأجزاء وبالتالي عكس مسار التاريخ البشري بأكمله.

لا ينبغي تجاهل هذه الإعتبارات، وتوجد اسباب مقنعة لماذا لا يمكنني أبدا قبول أيّ أو طرح السؤال واختيار بدلا من ذلك ما يسمّيه الآخرون «الكوزموپولِتيّة المتجذّرة»، وهي قريبة الروح لما كتبه كوامي انتوني أپياه Kwame Anthony Appiah. عندما يتعلق الأمر بالقانون والحقوق الأساسية، يجب أن يكون التركيز الأساسي على الإنسان والمجتمعات المحلية على النحو المكمّل بالأمّة والعرق والدين والجنس والتوجّه الجِنسي. إنّ الإعتراف بهذه الضرورة الأخلاقية أمر ضروري لكامل التعهد الخاص «بحقوق الإنسان»، بِدأ من الإعتراف «بالإنسان» في الأسم ذاته، والذي ينصّ على أنّ الشخص يحتاج فقط الى أن يكون إنسانا لتلبية الشرط الأساسي المسبق لاستحقاق الحماية القانونية للحقوق الأساسية.

ومع ذلك من الناحية العملية، فإنّ اعمال حقوق الإنسان تعتمد كليّا تقريبا في العالم الحديث على سياسات وممارسات المؤسسات الحاكمة في الدول ذات السيادة. هذا الوضع بين العام والخاصّ هو الذي اعطاني فكرة عن كيفية التغلب على المعضلة. ليست هناك حاجة للإختيار بين القوميّة والعالميّة لأنّ كليهما له دور في حقائق عالمنا. ويجب ألّا ننسى في هذه العملية أن نبذل قصارى جهدنا من أجل رفاهية الحيوانات والمخلوقات غير البشرية، التي نتعامل معها خلال مشاركة الموطن الطبيعي. على الرغم من أنّ البعض قد تحدّث عن حقوق الحيوان، إلا أنّني أرى العلاقة باعتبارها مسألة واجبنا أكثر من كونها حقّ الحيوان علينا، كما هو الحال مع رعاية الأطفال. يمكن أن يُصبح حبّ الحيوانات والعناية بها مصدرا للرضا العميق والتعلق، كما كان الحال بالنسبة لي طوال حياتي. كانت القليل من الملذّات أكثر إرضاء بالنسبة لي ممّا كانت عليه سنتي التسعين في خضم إغلاق كوفِد في تركيا، حين كنت أعتني بأربع قطط صغيرة يوميّا وهي تنمو وتكبر لتصبح قططا مكتملة منذ لحظة ولادتها المُعجزة.

في هذا العصر من الوعي الناشئ بمسؤولية الأنثروپوسين Anthropocene(*) عن كلّ ما سُلِب من الكوكب ورعايته، اصبح من المفهوم الآن على نطاق واسع، على الرغم من مقاومته أيضا من قِبَل القوى القومية المتطرّفة، أنّ النظرة العالمية والأنواع التي تتطلع الى المستقبل، هي وحدها القادرة على معالجة جدول اعمال من التحدّيات البيئية الأساسية والمتزايدة إلحاحا والنظام العالمي. تبدأ هذه التحدّيات بتغيّر المناخ ولكنّها تمتدّ الى الأسلحة النووية والهجرة والتنوّع البايولوجي والأمراض المعدية والفقر المدقع والعنصرية والعسكرة والضيق الروحي. وهذا يعني، لأوّل مرّة في التجربة الإنسانية، أنّ تأثير حلّ المشكلات على الرفاهية والبقاء على قيد الحياة، يعتمد على شخص كوزموپولياتي يفسّر الواقع الإجتماعي والمسؤولية السياسية، بما في ذلك الأبعاد البايولوجية والأخلاقية والروحية للوعي، وكذلك السلوك الجسدي. ومع ذلك، هناك العديد

(*) الأنثروپوسين هو حقبة جيولوجية مقترحة يرجع تاريخها الى بداية التأثير البشري الكبير على جيولوجيا الأرض والنظم البيئية، بما في ذلك، على سبيل المثال لا الحصر، تغيّر المناخ البشري المنشأ. (ويكيپيديا)

من الأسباب الهائلة لعدم التحوّل من القومية الى العالمية دفعة واحدة دون توقف للنظر في إمكانية وكيفية سدّ الفجوات بينهما. كما هو واضح، لا يوجد الآن مجتمع سياسي عالمي يمكنه التّصرّف بفعالية نيابة عن الصالح العام، أو حتى تحديد ما يجب أن يعنيه هذا بالضبط في سياقات مختلفة. بهذا المعنى، يجب أن نفهم الحقيقة غير السارّة التي مفادها أنّ الأمم المتحدة، في أحسن الأحوال، هي جهة فاعلة مختلطة تستجيب بشكل أساسي للضغوط الجيوسياسيّة والتفاعل بين المصالح الوطنية، مع الإهتمام المتبقّي المكرّس للمصالح الإنسانية والعالمية. لكنّ منظمة الأمم المتحدة لا تمتلك بالفعل القدرة على فرض أو تنفيذ مجموعة واسعة من معاهدات حقوق الإنسان، التي تمكّنت من إقرارها.

النظام العالمي المرتكز على الدولة

الى جانب هذا الإهتمام بالنزعة قصيرة المدى، وما يرتبط بها من سلوك التهرّب والإنكار، هناك حقيقة نظام عالمي مرتكز على الدولة تحكمه بشكل ما مجموعة متنوّعة من المواقف القومية المتطرّفة في العديد من البلدان الرائدة. أخيرا نحتاج الى التساؤل عمّا إذا كان بإمكان الكوزموپوليتانية أن تأخذ في الحسبان عدم التكافؤ في الظروف الماديّة، التي تتجلى في اشكال متعدّدة من عدم المساواة وعدم الثقة والعداء العالمي، ممّا يجعل من المستحيل تقريبا تحقيق توافق في الآراء حتى لو تمّ تأطير التفويض من منظور عالمي. سيكون من الصعب في ظلّ هذه الخلفية تجنّب التسلسلات الهرمية الإستغلالية في أيّ نظام عالمي ينشأ من التفاعلات بين الضغوط الشديدة للتكيّف والممارسات والسياسات الراسخة للهياكل القائمة والتأثيرات المتناقضة للشبكات والرقمنة والأتمتة والذكاء الإصطناعي والإتصال السايبراني Cyber Connectivity.

الحاجة الى التفكير وصياغة السياسات على المدى الطويل

لا يتعلق السؤال المطروح بما إذا كانت العالمية نوعا من اليوتوبيا، ولكن بالأحرى ما إذا كان المستقبل الإيجابي الوحيد، بالنظر الى الظروف والتحدّيات الحالية، أفضل وصف له بأنّه «يوتوبيا ضرورية». أو دِستوبيا العقود الآجلة التي

نواجهها، والتي لن تكون كافية لإصلاح نظام سيء التدمير. بهذه الروح، أدعو الى «سياسة الإستحالة» التي تلتزم برفض الفكرة العرفية للسياسة باعتبارها «فنّ الممكن» The Art of the Possible ونعتمد بدلا من ذلك على «واقعية جديدة تماما» ترتكز على الضرورة والإرادة والنضال بدلا من الجدوى والسلبية والرضا عن النفس *Feasibility*, *Passivity*, and *Complacency*.

بعبارة أخرى، تأخذ سياسة الإستحالة «الجدوى» في الإعتبار فيما يتعلق بالإمكانيات التخيّلية بدلا ممّا يبدو أنّه يمكن تحقيقه نظرا لطبيعة الساحتين السياسية والإقتصادية القائمة، التي يتمّ فيها الآن تشكيل السياسة العامة وتنفيذها. في الواقع، إذا كان ممكنا بشكل خيالي بما يتوافق مع القدرات البشريّة، فهو في استخدامي «ممكن»، وبالنظر الى طبيعة التحدّيات العالمية «ضروريّ» لمستقبل إنساني وحكيم بيئيّا. ليس فقط اتصال G-5، ولكن يجب أن تشكّل الإمكانات الإيجابية والسلبية للروبوتات والذكاء الإصطناعي جوانب متكاملة من هذه الواقعية الجديدة؛ إمّا إنشاء مجتمع عالمي مُبدِع ورحيم أو خلق تفاقم النزعة العسكرية العالمية وتسريع الأخلاق الحيوية- الإنهيار البيئي لعصر الأنثروپوسين.

لا يرى معظم الأشخاص المتشابهين معي في الرأي من الذين صادقتهم، العالمّ من حولهم بشكل صارخ، كونهم راضين عن القلق والردّ على المشاكل الفورية. لست وحدي في إيواء هذه المخاوف، ولكنّي اشعر بالوحدة الى حدّ ما دون وجود العديد من الرفاق المُكرّسين لما يمكن أن يُسمّى «المدى الطويل». ومع ذلك فأنا عالق في هذه الجزيرة من نذير شؤوني وغير قادر على تجنّب ردّ الفِعل النفسي، الذي تسبّبه طرقي في المعرفة والشعور. إنّ اطلاق العنان هو الذي يحرّر الفرد. تتناقض هذه الوحدة طويلة الأمد مع اشكال التضامن الموجودة فيما يتعلق حتى بأكثر ردود افعالنا إثارة للجدل على التحدّيات الفوريّة، بما في ذلك إزالة الألغاز والمراوغات التي لا تزال تحيط بأحداث 11 سبتمبر واعتماد نهج تقدّمي لتحقيق سلام مستدام بين شعبي إسرائيل وفلسطين. ومع ذلك وعلى الرغم من أنّ لديّ رفاق محبّين في هذه النضالات حول العالم، إلّا أنّ هذه الوحدة قد تكون مصير المواطن الرائد المعني بقضايا الشعوب. يبدو أنّه يأتي مع الظروف السائدة في العقود الأخيرة من حياتي، وهو انعكاس لعالم بدون

حركـة شـعبويّة ثوريّـة تحوّليـة هـي في آن واحد وطنية وعابـرة للحدود وكوكبيّة وأنثرو- إيكولوجية في نظرتها للعالـم.

بصفتي مواطنا متنقلا معنيّا بقضايا الشعوب، أتطلع الى المستقبل المخيف والمطلوب كدليل لإنخراطي في الحاضر، حتى مع استمرار المشاركة السياسية لمعظـم الأفـراد فـي المقام الأوّل في الفضاء الوطني المعني بالترتيبات السياسـة والإجتماعيـة والإقتصاديـة الحاليـة. نحـن نعيـش ونموت في الوقـت الحاضر، ونتصرّف في مثل هذه الساحات كمثقفين أكثر من كوننا مواطنين روادا معنيين، ولكنّنا لا نجرؤ على إهمال المستقبل. لقد شجبت ما كنت أشعر به في كثير من الأحيـان وكأنّـه ديمقراطيـة عديمة الإختيار فيما يتعلـق بالمخاوف، التي حرّكت حياتـي. علـى مدار الخمسـة وعشـرين عاما الماضية، أمضيـت جزء من كلّ عام في تركيا، ولـم أسعى مطلقا للحصول على مكانة المواطن. ولكنّني أعرف نفسي كنوع من المغترب الجزئي بمِحَنِه وتقلباته. في العقدين الأولين من القرن الحادي والعشـرين، حاولت الحِفاظ على «فوريّة الرّؤيا» Visionary Urgency للمسـتقبل القريب مع الإستمرار في أخذ المعاناة والإجرام على محمل الجِدّ كأبعاد وجودية للحاضر. لقد وجدت أنّ هذا الموقف نادر ما يتمّ مشاركته مع الآخرين، الذين يعتبرونني إمّا غير واقعي أو حتى طوباوي، بمعنى غير ذي صلة بالواقع ومتناقض أو حتى مُنحرف من خلال التمسّـك بالمواقف التي يُنظر اليها على أنّها مزعجة من قِبل الأصدقاء والزملاء، الذين يبدون متشابهين معي في التفكير. لقد وجدت الطلبة أكثر تقبّلا، على الرغم من عداءهم أحيانا لمزيجي من اليوتوبيا والفوضوية والتقدمّية الضرورية.

بالنظر الى هذا الفهم، أفضل أن أموت «طوباويا» أو «متناقضا» يُساء فهمه على أن يتذكّرني الآخرون كشخص اعتنق الوعي الخاطئ لأنماط التفكير والقيم والأفعال المختلة لأسباب يُفترَض أنّها واقعية وصحيحة من الناحية السياسيّة.

الفصل التاسع عشر

النقاط الساخنة الشخصيّة: عقيدة

«لم أكن اطلاقا شخصية من النوع ب»

أرِل نيوتن، شخصية في فلم (البغل)

يرى بعض الرجال الأشياء كما هي ويقولون «لماذا؟

أحلم بأشياء لم تكن موجودة من قبل وأسأل لماذا لا؟»

جورج برنارد شو

عكس الخوارزميات

لقد كنت طوال معظم حياتي متمرّدا غير فعّال بهدوء ضدّ العديد من الطرق السائدة لتصوّر الواقع. ومع ذلك كانت حياتي كما عشتها مباركة وليست ضائعة، بل ثمينة. بدأ هذا الموقف من المقاومة السلبية ولكن ذات التصميم والإرادة في وقت مبكّر من طفولتي، متمثّلا بما مرّ عليّ من المواقف التي واجهتها في منزلي أو في عائلتي. حتّى والدي الحنون الإنساني عكس التفكير التقليدي الذي كان في ذلك الوقت يطرح صورا نمطية شرسة، في منطقة وَيست سايد مانهاتِن المتطوّرة، لجميع اشكال الإنحراف، سواء كانت سياسية أو ثقافية أو اجتماعية. لقد انتقد أولئك الذين تأثّروا بمناشدات الشيوعية وحتى أولئك الذين اظهروا تعاطفا مع الإشتراكية، فأشار اليهم بسخرية على أنّهم «زهر الصالونات» Parlor Pinks، والمثليّون جنسيّا باسم «الجنّيات» Fairies والزنوج Negroes على أنّهم غير جديرين بالثقة وكسالى يميلون الى الجريمة. بالنسبة لي، حتى عندما كنت طفلا، بدت تلك التلميحات مشبوهة. وبعد وقت طويل فقط، أدركت أنّ هذه الصفات التي تدين «الإختلاف» و«الآخر» لها

عواقب اجتماعية وخيمة على الأشـخاص المُستَهدفين، وبشـكل غير مباشـر بالنسبة لبقيّتنا. عندما كنت لا أزال صغيرا ومعرّضا لرفقة الكبار، جلست بهدوء معظم الوقت ولكن بآذان صاغية متشكّكة لطرح سؤال بسيط أحيانا. مع العلم أنّه مثير للإستفزاز، يُقابَل بالردّ، «ما هو دليلك؟». إنّ تلك الأحكام القاسـية تهيـن الأشـخاص بسـبب هويتهـم أو مـا يؤمنون بـه. وبالمثل ولكـن الآن في المجال الرقمي سمعت مؤخّرا المزيد والمزيد عن الخوارزميات Algorithms، التي تتحكّم في كيفية تجربتنا للواقع الإجتماعي، ممّا ينتج عنه تغذية الخرائط التقليدية للبرامج، التي يامّ استخدامها بشكل متزايد خارج مبيعات المستهلكين والتفضيلات السياسـية لإعطاء هياكل قابلة للتسـويق لخطوط قصة المسلسـل التلفزيونـي، أي إطعامنـا «الترفيه المُعالَـج» Processed Entertainment كإضافة للوجبـات السـريعة، وأكثـر مـن ذلـك ما يضرّ بصحتنا. بهـذا المعنى، يتمّ قمع فرديتنا وانحرافنا الصحيّ من خلال هذه الأشكال السريّة للتلقين، ممّا يجعلنا نتعامـل مـع التقليـدي باعتباره طبيعيا وبالتالي باعتباره الطريقة المناسـبة لفهم الأسواق، وحتى العالم.

نحـن جميعـا وبدرجات متفاوتة عرضـة للتلاعب الخوارزمي Algorithmic Manipulation سواء أدركنا ذلك أم لا.

يستكشـف الفلم الياباني المثير عن السـرّاق *Shoplifters* نفس عدم التوافق بيـن انمـاط العيـش معا، التي يؤيّدها المجتمع وتلك التي تعمل بشـكل وجودي للأشـخاص الشـجعان بما يكفي لتحدّي التقاليد. وفي هذا الإستكشـاف للحياة الأسـريّة مـن قِبـل المؤلـف والمخـرج اليابانـي هِـروَكازو كوريـدا، يتـمّ إعطـاء الإحسـاس بالإنتماء والترابط والحاجة الأولوية للإحترام وعلم الوراثة والثروة والإمتثال للقانون وأوجه التشـابه في فصيلة الدّم. يُنظر الى عائلة غير الأسـوياء Misfits والمجرميـن الصغـار والبغايـا والمتقاعديـن مـن كبـار السـنّ على أنّهم أفضل بكثير من الشكليّات الباردة للحياة البوروجوازيّة اليابانية، حيث تتمّ تلبية الإحتياجـات الماديّـة مـن خـلال السـلوك المقبـول اجتماعيا، بينمـا يتـمّ تجاهل الإحتياطات العاطفية تقريبا.

أجد المبادئ التوجيهيّة من الصناعات المُعدّة لحياة البشر غير ملائمة تماما

تقريبا، بل أنّها ضارّة بشكل عام من خلال إبعاد المرء عن مسؤوليته وعن خياراته وقراراته.

أخشى أن يكون هذا الإستبداد الناشئ للخوارزميات والروبوتات والأجهزة والذكاء الإصطناعي والصواب السياسي في العصر الرقمي، الذي يزعم أنّه يلبي رغباتنا واحتياجاتنا، هو المصير المصطنع تقنيا، الذي ينتظر البشـريّة. ويبدو أنّ هـذا مـن المحتمـل أن يقوّض حياة العقل والقلب والروح ويسـتنزف الحياة من بقايا الروحانية والرهبة والغموض، التي كافحت من أجل بقاءها على قيد الحياة رغم هجمات الحداثة.

الصواب الأخلاقي أكثر من مجرّد صواب سياسي

الإسـتجابة التمكينيـة Empowering Response ليسـت نقيضـة للصـواب السياسـي Political Correctness. فـي المجتمعـات اللِبراليـة نصـل جزئيّـا الى ما هـو صحيـح للتغلـب على إرث الإنتهاكات والمعاناة الماضية دون أيّ اسـتعداد لمواجهة القضايا الهيكليّة الإسـتغلالية مثل عسـكرة الدولة وجشـع الرأسـمالية. قد تؤدّي سياسات الهوية الى كسر الإحساس بالإنتماء الى المجتمع، لحدّ خلق مقاومـة لـدى الأمريكييـن الأفارقة. إنّ البيض بالكاد ينظـرون الى الجرائم، التي يرتكبهـا بعضهـم ضـدّ الأمريكيين مـن أصل أفريقي، ناهيك عـن الإعتراف بها. بـدلا مـن ذلـك، تـمّ محو تلك الجرائـم تقريبا من المخيّلة العامـة، ودائما ما تمّ التقليل من شأنها في السجلّ التاريخي. أظهرت تربيتي الخاصّة في منطقة سنترال پارك وَست مانهاتِن، هذه الصفات العنصرية الخاملة أو اللاواعية التي استمرّت على الرغم من ارتباط طفولتي بالمساعد الأمريكي من أصل أفريقيي، الذي كان يتمتّـع بـذكاء عال واحسـاس كوميدي «معدي» لمـن حوله وتصرّف حنون، وفّر لـي قـدوة خـلال سـنوات مراهقتي. ومع ذلك، لم يمـرّ وقت طويل عندما قرأت كشـخص بالـغ روايـة **حبيبة توني مورِسُـن**، التي عبّرت عـن الثقة في الصداقات مـع الأمريكييـن مـن أصل افريقـي. بدأت وقتها الإعتراف ببنيتـي التحتية العقلية للخاصّة بالمواقف العنصرية والجهل بالإرث الرهيب للعبوديّة، التي ابتليت بها الأجيال الحالية من السود. وهو ما جعلني أخجل من عدم حساسيتي وجهلي بما

يمكن تسميته الهياكل العميقة للمعتقدات العنصرية والممارسات القائمة عليها. لقد كنت على دراية بميل أولئك البيض والرجال اللِبراليين لإخبار أولئك الذين يقعون ضحايا اقتصاديا واجتماعيا عن أفضل السبل لتحقيق اهدافهم، كما لو كنّا منشقّين عن الطبقات المضطهدة ونعرف المزيد من تجارب افرادها وتفضيلاتهم والطريق الى تحسين واقع الضحايا بينهم.

بعد انتهاء تعليمها، اصبحت صديقا لطالبة دراسات عليا افريقية في جامعة بِرنستُن، هي شَري بَور. اصبحت شَري فيما بعد استاذة ناجحة في القانون وظهرت على طول الأمواج الإجتماعية والثقافية. دعوتها مرّة الى حفل موسيقي قدّمه پَول وِنتَر في كاتدرائية القدّيس يوحنّا. ذهبنا واستمتعت به كثيرا كوني سمعت موسيقى وِنتَر سابقا وتعرّفت عليه شخصيّا. لكنّ شَري لم يكن لديها ردّ فِعل مماثل. ذكّرتني أنّ موسيقى وِنتَر تناسب تفضيلات المستمعين من المفكّرين والمثقفين البيض، ولم يكن لها صدى بالنسبة لشخص من خلفيتها العرقية. لقد حذِرت بشدّة واعترفت بخنوع بسبب عدم حسّاسيتي وحاولت في المستقبل أن أكون أكثر وعيا عندما أكون في مثل هذه المواقف. يسعدني أنّنا بقينا اصدقاء على مرّ العقود. وأنا استعيد ذكريات الماضي، كانت الحادثة لحظة تعليمية لصديقتي شَري ولحظة تعليم الكبار بالنسبة لي.

أخشى أنّني ربّما كنت في بعض الأحيان غير حسّاس للمخاوف والقلق اليهودي المرتبط بتراث الإضطهاد، وفي مواجهة ذلك، إعتزازي بالتقاليد والهوية اليهوديّة. أعترف بالفشل من جانبي في فهم التعاطف واستعداد معظم اليهود لتفضيل أمنهم الفردي والجماعي ورفاهيتهم على كافة الشواغل الأخرى تقريبا. في الحالة اليهوديّة، حظي الهُلوكوست باهتمام كبير حقّا، ولكن تمّ التلاعب به ايضا لحماية الصهيونية من النقد المُبرّر، كما أوضح نورمَن فِنكِلشتاين بشكل فعّال في كتابه **صناعة الهُلوكوست**. لقد تمّ استخدام عباءة معاداة السامية بشكل خبيث وعملي (وبشكل خاطئ) على وجه الخصوص بعد عام 1945 لإخفاء مدى إجرام إسرائيل وقسوتها اتجاه الشعب الفلسطيني. وقد أدّى ذلك، بشكل مُتعمّد الى حدّ ما وبشكل انتهازي بالتأكيد الى الخلط بين حقيقة الأذى والكراهية التاريخية لليهود، وهي جوهر معاداة السامية الحقيقية، مع الإعتراف بأنّ سلوك

إسـرائيل اتجاه الشـعب الفلسـطيني غير مقبول، وهو مثل سياسـات وممارسات الفصل العنصري لحكومة جنوب افريقيا ضدّ السكان الأفارقة الأصليين. يجب ألّا نسعى أبدا الى اضفاء الشرعية على القسوة الحاليّة وإيذاء الآخرين الأبرياء من خـلال التـذرّع بالمعاناة الفرديّة والجماعية لماضينا، مهما كانت شـديدة. يمكنّنا بلا شكّ فهم اسباب مثل هذا السلوك غير العادل بشكل أفضل وإظهار التعاطف اتجـاه كافـة الضحايـا فـي الماضي والحاضر. إنّ إعادة انتاج الّشّـرّ الذي لحق بنا ضدّ الآخرين لا يُغيّر من طبيعة هذا الشّـرّ. وهو للأسـف خيط مشـترك يمرّ عبر التاريخ، وبالتأكيد مثل هذه التبريرات للخطأ ليست مقتصرة على اليهود.

كيف تجاوزت حياتي حياة جيلي

كانت هناك ذكرى مبكرة في المقعد الخلفي لسيارة الليموزين التي امتلكتها جدتي أيڤا، مع جورج سـائق الأسـرة طول حياته. كان يقود السـيارة في شـارع پارك أڤنيو بعد الإنطلاق من شـقّتها الفسـيحة في الجادة الخامسـة مباشـرة مقابل متحـف المتروپوليتَـن. حتى أوائل التسـعينات مـن عمرها، ظلّ عقل جدتي قويّا بما يكفي للعب Bridge بشـكل تنافسـي في نادٍ قريب. لـم تنضج أبدا واحتفظت «بعلامتها الفارقة» اللاذعة من السِحر حتى النهاية. ما أذكره في تلك الرحلة أنّها كانت تشير الى مبنى سكني فاخر تلو الآخر مكرّرة العبارة نفسها ثلاث أو اربع مرّات، «لقد ذهبت» She's Gone قبل أن نصل الى شارع رقم 65 لشراء هدية عيد ميلادي السنوية. الإنطباع الذي استمرّ بعد ما يقرب من 80 عاما هي أنّها عاشت أكثـر مـن جيلهـا. وهـذا يعني في المقام الأوّل في حياتها، شـريكات لعبة البرِج. خـلال هـذه العمليـة، اصبحت حياتها، التي لـم تكن سـعيدة أبدا، حزينة وحيدة. لمرّة واحدة، ربّما كانت المرّة الوحيدة، شـعرتُ بألمها، وشـعرت ايضا بالرّاحة من صدّ ضرباتها التي اسـتهدفت وضعي في مكاني المناسـب وتخويف الصّبي الخجول وغير الآمن، الذي اتذكّره. ربّما كان نموذج اعتداءات والدتي المماثلة على تقديري لذاتي My Self-Esteem نسخة مماثلة لها.

ربّما يعيش الأكاديميّون لفترة أطول هذه الأيام. على أيّة حال، وعلى الرغم مـن أنّنـي فقـدت العديـد من الأصدقاء منذ بداية هذا القـرن، إلا أنّ العديد منهم

لا يزالـون علـى قيـد الحياة. كما أنّ نشـاطي المسـتمرّ كعالِم وناشـط، جلب لي مجموعـة مـن الأصدقـاء الجدد وسـاعد الإنتقال الى سـانتا باربـرا عام 2000 في توسيع دائرتي الإجتماعية. ربّما ايضا، تقلل وسائل التواصل الإجتماعي وسِمات العصر الرقمي من أهميّة العمر وحتى الإختلافات بين الأجيال، أو ربّما لا. ألأدلة المتاحة الآن غير حاسمة.

على الرغم من فقدان العديد من الأصدقاء الأعزّاء بما في ذلك إقبال أحمد وإدوارد سعيد وگلوريا إمِرسُن وراجني كوثري ومارثا جاڤِنسكي وراني جثمَلاني وعلي مزروعي وياسـوكي أونوما ويوشـي سَـكانوتو وبَيرنز وِستُن وستيڤ كَوِن، إضافـة الـى جميـع أقاربـي المُقرّبين بخلاف الأطفال والأحفاد، لم أعانِ بعد من الشـعور بالوحـدة الإجتماعيـة. لقد كتبت عـددا كبيرا من المقالات التذكارية في السنوات الأخيرة، والتي تذكّرني بالطبع بفنائي الشخصي، وهو إشارة الى مصيرنا جميعا منذ لحظة الولادة. ولكن بشـكل دوري أشـكّ في اعماقي، لأنّ معظمنا يريد أن يعيش الى الأبد. أحيانا أحلم حتى أنّ هذه الإستحالة يمكن أن تحدث. لكنّني بالكاد أعترف بمثل هذه العبثية لنفسي، ناهيك عن الإعتراف بها للآخرين. الآن يبدو أنّ هناك مهندسن وراثيين يعملون في مختبرات سريّة، ممّا يجعل من المعـروف أنّ الخلـود قـد يصبِح يوما ما قابلا للتحقيق، على الأقلّ لقلة مختارة، حتـى قبـل نهايـة القرن الحالي. بالطبـع، وضعي بعيد كلّ البعد عن الكآبة بالنظر الى شريكة الحياة المُحبّة والأولاد المُحبّين. وهذا يتناقض تماما مع محنة جدتي بدلا من التشابه معها.

كما يذكّرني هذا أنّني أودّ أن أموت وعلى شفتيّ أمل. يرسم المستقبل الآن، إذا تـمّ تصـوّره علـى أنّـه امتـداد للحاضر، صورة قاتمة. من غيـر المرجّح أن يتمّ التخفيف من بؤس تغيّر المناخ والهجرة العالمية والمجاعة والحكم الإستبدادي والجغرافية السياسـية العسـكرية وتناقص التنوّع البايولوجي خلال فترة حياتي، بل من المرجّح أن تزداد هذه القضايا سوءً. فقط أولئك الذين لديهم ثقة في أنّ التكنولوجيا والإحصاءات سـتتغلب على هذه المشـاكل الأساسـية عندما تصبح تحدّيات خطيرة بما يكفي لرفاهية اعضاء النخُب، الذين يحتفظون بالوعي الزائف للتفاؤل. اشعر بالحيرة والإنزعاج من أنّ الكاتب الشعبي الموهوب هوڤال نوح

هراري، يتوقّع أنّ الأجيال القادمة، التي من المفترض أن تحلّ المشاكل الضخمة المتمثلة في المجاعة والمرض والفقر والحرب، ستنغمس بشكل متزايد في مهام مثل تحقيق السعادة المستمرّة والتغلب على الفناء واكتساب القوى الألهيّة لتشكيل الواقع نفسه. بصرف النظر عن المشاكل الضخمة التقليدية لتحقق المالثوسي Malthusian من رفاهية الإنسان، يبدو أنّ هراري ينسى تحدّيات العصر البيئي والرقمي العميقة، التي لم تتم تلبيتها للعيش معا ومع الطبيعة.

في إطار عقلي الحالي، سأموت في حالة اللاأدري بشأن المستقبل، وافتخر بالقدرة على العيش بعيون مفتوحة على مصراعيها. ومع ذلك أكافح من أجل ما هو صحيح كلّ يوم تقريبا. تخبرني عقلانية التنوير Enlightenment Rationality أنّنا كائنات محكوم عليها بالفناء ونواجه تهديدات متزايدة بالإنقراض، أو على الأقلّ انهيار المعايير الحضارية، وبطريقة مسؤولة بيئيّا. تقدم ذاتي الروحية رسالة ميتافيزيقية مختلفة تماما؛ قوة سياسة الإستحالة *Impossibility* الناشئة، التي ستجمع ما يكفي من الجرّ Traction لإنتاج حركات تحويلية ومشاريع عالمية مخصّصة لنتائج تتحرّك بشكل أساسي في اتجاهات إنسانية.

الشخصي ليس (بالضرورة) سياسيّا

بالطبع، كانت هناك فكرة مهمّة متضمّنة في شعار رفع الوعي «الشخصي هو سياسي»، في إشارة الى التأثير الشخصي للتمييز والإستغلال اليومي، الذي يعكس المحّددات السياسية الخاصّة العاملة في كلّ مجتمع. حاولت على مرّ السنين أن اعطي طلابي الإحساس بأنّ التزامهم بحقوق الإنسان يتجلى بوضوح ويتحقق من خلال الطريقة التي يعاملون بها الأشخاص المتنوعين الذين يلتقونهم يوميّا. ينطبق هذا التوجّه علينا جميعا، في جميع الأوقات وطوال الحياة. يمكننا التعبير عن نفس الفكر العائلي بشكل مختلف. أهمّ قرار يتخذه كلّ منّا فيما يتعلق بحقوق الإنسان هو كيف نتعامل ونشعر اتجاه بعضنا البعض، وخاصّة اتجاه أولئك الذين يعانون من إعاقات خطيرة أو يختلفون في اللون والجنس والعرق والعمر والمظهر والمعتقد. إنّ إنسانيتنا مرتبطة الى حدّ ما بطريقة تتحدّى بشكل خاص أولئك، الذين لديهم مؤهلات امتياز، وأخذ معاناة الآخرين وضعفهم على

محمل الجدّ كأسباب للمشاركة السياسية. تجسّد الإخفاقات الحالية في التعاطف، ما ابرزتها الترامبية اتجاه اولئك الذين يسعون الى الدخول الى الولايات المتحدة أو الإقامة فيها. هذا الميل لإثارة المخاوف والتلاعب والإنتهازية لاحتلال معظم الحيّز السياسي، يتركنا كشعوب بدون تعاطف مع أولئك الذين يعيشون خارج الولايات المتحدة. اليأس الذي يُعاقبون عليه بعد ذلك وللمرة الثانية هو أنْ يتمّ تصويرهم بشكل استفزازي على أنّهم تهديدات وحتى «غُزاة». لا يعني هذا التعاطف الإيحاء بأنّه طالما أنّ المساحات الوطنية هي مصدر أساسي للشعور بالروابط المجتمعية والقيود الإنسانية والإحباط المستنير من أنّه قد تصبح الهجرة ضرورية وحتى مرغوبة. في الواقع، أولئك الذين لديهم الموارد وسبل العيش وحقوق الإنسان وفضاء العيش الصحّي، يتحمّلون مسؤولية الأنواع Species Responsibility اتجاه أولئك الذين يفتقرون الى هذه الضروريات لكرامة الإنسان. في الواقع، إذا تمّ الكشف عن الأسباب الجذرية للنزوح والهجرة، فإنّها غالبا ما تتعلق في السلوك السابق؛ الإستعماروالترتيبات الإقتصادية غير العادلة والتدخّل وانبعاثات الكاربون، للبلدان ذاتها التي تقيم حاليّا جدران إقصائية Exclusionary Walls من انواع مختلفة.

أولوياتي هنا مختلفة. أريد أن أؤكّد أنّ حبّي للشريكة وأطفالي، هو في الأساس متميّز بشكل أساسي، وإن لم يكن كليّا، عن التزاماتي السياسية. أعني بعبارة «ليس كليّا» أنّه إذا لم يتمّ تقاسم أرضية مشتركة من الإيمان والإدراك، فإنّ ذلك يجهدُ الحبّ حتى بين أولئك الذين لديهم علاقات دمّ وقُربى. إذا كان افراد عائلتي، نوح وديمتري وهِليل وزينب من محبّي ترامب أو من كارهي الهجرة، فسيؤثّر ذلك على مشاعر الثقة والحميميّة لديّ اتجاههم، وليس إنهاء هذه الروابط، ولكن إضعافها بطرق ضارة، ممّا يتطلب صمتا مُحرجا ومراوغات لتجنّب الإنهيار التام للعلاقات الإجتماعية. اتذكّر الأخوة الذين عرفتهم في الفِلِبين والآباء والأبناء في كولومبيا، الذين يجتمعون كعائلات في أيام العطل، مع فهم صارم أنّه لن يتمّ ذكر ولاءاتهم السياسية المتناقضة.

على الرغم من بعض الإختلافات في التقييمات والتكتيكات، إلّا أنّني كنت محظوظا لأنّني لم أواجه هذا النوع من التحدّي في أيّة علاقة عائلية وثيقة. كما

أنّني اعترف بأنّني كنت أتمنّى في بعض الأحيان المزيد من التضامن والدعم القوي، وحتّى بعض الفضول فيما يتعلق بآرائي من أطفالي وافراد عائلتي وزملائي بدلا من مجرّد التسامح والإحترام.

الأمر الخاصّ بي

لقد كانت مشاركة حياتي مع هِليل على مدار الخمسة والعشرين عاما الماضية، هي واقعي الشخصي الأساسي وتجربتي الأكثر إرضاء. شهد زواجنا صعودا وهبوطا معتادا في أيّة علاقة طويلة. ومع ذلك، فإنّ الصعوبات استمرّت لفترة أطول وكانت أكثر كثافة وأعمق من التقلبات، تصل أوجها ثمّ تنخفض. لقد عشنا مدّ وجزر جميع التجارب البشرية المستدامة في العلاقات الحميمية اليومية الإستثنائية، ولم يتبقّ منها سوى عدد قليل من الندوب العاطفية الباهتة. تبدو المشاعر مع الأطفال أكثر استقرارا، ويرجع ذلك جزئيا الى أنّ الأطفال البالغين لديهم حياتهم الخاصّة ليعيشوها. ويرجع ذلك جزئيا أيضا الى أنّ حياتهم المنفصلة في العالم الأمريكي الفردي للغاية لا تمسّ حياتنا بشكل عام إلا في أوقات الإحتفال أو الأزمات. عندما واجه نوح على مدى سنوات عديدة أزمة ذاتية تلو أخرى، شعرت بنفسي كأنّني آلة نقود للطوارئ الخاصّة به. لكنّه كان تأثيرا هامشيّا فقط على الطريقة التي اختار أن يعيشها، على الرغم من أنّه أكثر تقليدية من الآخرين، باستثناء ربّما زينب، في تأكيد القرابة الأسرية. بالنسبة الى إبني الأكبر ديمِتري، فإنّ اهتمامه مدى الحياة بالسريّة وممارستها هو مصدر للفتنة والإبتعاد، وغالبا ما عني أنّني تعرّضت فقط لأسطح تجربته الداخلية والخارجية الغنيّة بشكل واضح. كان الأرتباط مع كلّ من ديمِتري ونوح من خلال حبّنا المشترك للرياضة كسِمة من سمات حياتي كوالد أثناء نموّهما، وحتى بعد ذلك للتغلب الى حدّ ما على الجوانب السلبية العائلية في حياتي العامة والسفر المُتكرّر، وزواجي الفاشل من والدتيهما وحياتي الرومانسية غير المستقرة. حتى أطلت هِليل في الأفق.

أشعر أنّه في نهاية حياتي، كانت لديّ ثروة جيّدة للغاية في حياتي الشخصية. لقد ازدهر هذا الزواج الرابع والأخير بِهليل بالنسبة لي وتطوّر في

العديد من الإتجاهات المؤكّدة للحياة، في البداية بشكل رومانسي، ثمّ بعد ذلك كشراكةعميقة وحميمة، مع الكثير من الأخذ والعطاء، وبالنسبة لي، إحتفظ بميزته الرومانسية. على الرغم من أنّ اطفالنا والعديد من الأصدقاء يبدو أنّهم على ما يُرام مع الحياة، التي تستمرّ بدون علاقة حبّ أساسية. إلا أنّني شعرت دائما بالإرتباك بدون مثل هذه المرساة العاطفية Emotional Anchor.

على الرغم من أنّني لم أكن قريبا من اطفالي كما كنت اتمنّى، إلّا أنّ هذا يجعلني أشعر بالرضا لتأكيد اختياراتهم في الحياة ولياقتهم الإنسانية ووضوحهم حول الخير والشّرّ. علاوة على ذلك، اصبح ديمِتري والدا مثاليا لأبنة غير عادية، حفيدتي جوليت، التي تجسّد بالرشاقة والموهبة الوفيرة جميع الصفات، التي تجلب أعمق مشاعر الرضى والإعجاب القويّ، على المستويين الخاص والعلني. وهي تتمتّع بتجربة ماكرة لتوقعات تجعل مستقبلها نجما ساطعا في سماء وعيي الشخصي. في الواقع، أرى زينب أكثر من ديمتري ونوح، واشعر بدلا من ذلك أنّها قريبة جدّا وبعيدة نوعا ما. تعكس كلا المشاعر الحقيقية توافقا عميقا ولكن ايضا اختلافات قويّة في الأسلوب وربّما الجوهر.

لقد باركتني ايضا عائلتي الكندية، التي لا يمكنني الإعتماد على إنجازاتها على الإطلاق. لقد جعلتني مِحَن الحياة أقلّ انتباها بكثير ممّا قد توحي به مشاعر الإخلاص والحبّ والإعجاب. في الواقع، لقد قمت بتمثيل دور الأب والجدّ البعيدين والمطلق والبعيد، الذي لم يتحمّل عناء إنشاء وجود مُحبّ دائم، وبالتالي (لا) يُعتبَر في أحسن الأحوال حقيقة حميدة ولكن صورة شبحيّة. حقق كرِس وجَودي، كما هو الحال مع طفليهما ساره وماثيو نجاحا كبيرا في أعلى توقعات الحياة الأسريّة وانجاز الأهداف الشخصية، التي تعكس قيمهم في الحشمة والكرامة وارضاء صلاتهم الدنيويّة المتواضعة والمرضية في ذات الحال.

الريادة والسعي

لو نظرت الى الوراء لوجدت أنّه كانت لديّ ثروة جيّدة غير عادية في فترات حاسمة من حياتي، والعديد من الإمتيازات والفرص الوظيفية المبكرة، التي تجاوزت ما كنت اتوقعه أو استحقّه. هذا بالإضافة الى الإنفتاح على السلطة

وربّما الثروة، التي أغرتني، ولكن ليس بما يكفي للسعي وراءها. أنا ممتنّ لأنّني لم أكن قط في مواقف تعرّضت فيها لضغط شديد لأتصرّف بقوّة ضدّ ضميري. أعترف بأنّني كنت مُحيّرا في بعض الأحيان ازاء ثمار الطموح والمكافأة المعلقة والمقدّمة التي في متناول أبناء پِرنستُن المُمتثلين. سواء مع أسرة أمّي الثريّة أو في پِرنستُن، أو من الإتصالات المبكّرة مع حكومة الولايات المتحدة والسياسيين الطموحين، لم يُذهلني أبدا على أنّها جديرة بالإهتمام. أو حتى من الممكن مزاجيا، أن اذكر الجوانب الحادّة من الإقتناع الأخلاقي لدرجة أنّني يمكن أن أقدّم نفسي للنظام القائم بصفتي متملقا مطيعا وكفؤا. صحيح، كان لديّ بعض الحسد الطفيف غير المُعترَف به أزاء أولئك الذي تمكّنوا من إرضاء انفسهِم للأعلى والأقوياء وكوفِئوا بامتيازات مغرية من المناصب العامّة الرفيعة. من بين الأشخاص في الحياة الأكاديمية، الذين يتمتعون بالقدرات المطلوبة والرؤية العالمية والشخصيّة، الذين عرفتهم من بينهم رِچَرد هُلبروك وزبِگنيو برِجنسكي وجَو نَي، ولكن ليس المحافظون البارزون اكاديميّا من قبيل سام هَنتِنگتُن وكين والتَرز وروبَرت گِلپِن. لم يكن ضميري مرتبطا بإحساس متطوّر بالذات هو الذي جوبه بحقّ النقض بشكل مُتكرّر، ولكن عدم قدرتي على البقاء قانعا لفترة طويلة جدّا في بيئة جماعية منظّمة، سواء كانت الدولة أو مكان العمل المؤسّسي أو الدين أو حتى الأسرة في بعض الأحيان. للأفضل أو الأسوأ، سبحت بمفردي طوال حياتي، وفي كثير من الأحيان ضدّ التيار، وللأسف أحيانا بشكل أخرق. وعلى الرغم من قدرتي المتواضعة «كسبّاح» فإنّ قوتي العاطفية واتّزاني قد حملاني في الغالب بأمان الى الشواطئ الرملية. لا توجد طريقة جيّدة لتقييم تكاليف هذه الخيارات الحياتية لتجنّب الإتجاه السائد والعثور على نصيبي العادل من السّحر على الهامش. ولكن على وجه الخصوص، عندما يتعلق الأمر باسرائيل ورفض الصهيونية اللِبرالية، كنت مُدركا لما يكفي من التراجع الملحوظ. أعتقد أنّ الطريق الذي اخترته، فرض عليّ تكاليف عالية الى حدّ ما، لكنّ هذه التكاليف لم تدفعني أبدا الى فقدان ساعة واحدة من النوم.

كان موقفي ونشاطاتي خلال الإنتخابات التمهيديّة الأمريكيّة لعام 2016، والتي فضّلت خلالها ساندرز على هِلَري كلِنتُن كمرشحة ديمقراطية، رمزا لسبب

وجـود عـدد قليـل جـدّا من الرفاق السياسـيين الحقيقيين على مرّ السـنين داخل القاعـات الأكاديميّـة. مـا كان يهـمّ اصدقائـي اللِبراليين، بما في ذلـك اللِبراليين اليسـاريين، هـو أفضـل السُبُل للتغلـب على ترامـپ، بالإضافة الـى إدراكهم أنّ انتخاب ترامپ سيثير أخيرا عدة ڤايروسات كامنة في الجسد السياسي الأمريكي، بمـا فـي ذلـك العنصرية وكراهيـة الأجانب والفرديّة غيـر المنظمة والتراجع عن الحقوق الإنجابية للنساء، وسيؤدّي الى تجديد التميز ضدّ المثليين ويُخفف من الموانع على العديد من اشكال سلوك العصابات. كما جادل أصدقائي اللِبراليون بشكل مُقنع بأنّ التعيينات القضائية والحكوميّة ستكون ذات جودة أفضل لو قامت بها هِلَري كلِنتُن، وأنّ الديمقراطيين سيحكمون بطرق أكثر شموليّة من نظرائهم الجمهوريـين. فضّلـت أولوياتي السياسـية الخارجيّة فكّ الإرتباط السياسـي في الشـرق الأوسـط ونزع السـلاح النووي وانهاء العقوبات المفروضة على كوريا وإيران وڤنزوَيلا، وتبني الجغرافية السياسـية اللاعنفية كأسـاس للقيادة العالمية. إذا تقدّمت الجغرافية السياسية اللاعنفية بالتعاون مع الصين، نحو التشديد على القيم البيئية والرؤية البايولوجية الأخلاقية للهوية البشرية وتعزيز الأمم المتحدة واحتـرام متجـدّد للقانـون الدولـي، يمكـن أن تجعـل هـذه المرء أكثر اسـتعدادا للإعتقاد بأنّ العالم المسالم هو في متناول الإنسان.

جعلنـي التأمّـل علـى طـول هذه الخطوط بشـكل خاصّ أتسـاءل من وقت لآخر عمّا إذا كانت وجهات النظر اللِبرالية التقليدية ليست قوميّة للغاية في بعض النواحي بالنسـبة للسياسـة الخارجية. وهي مدينة بالفضل لإجماع الحزبين، كما صاغتـه الدولـة العميقـة. أعتـرف أنّه خلال حملة عام 2016، تسـاءلت كثيرا عمّا إذا كان وجـود ترامـپ قـد يكـون حضورا دوليا أقلّ تدميرا في البيت الأبيض من كلِنتُن. أتذكّر ملاحظاتها المُرعبة الشهيرة عن ليبيا والقذافي بعد تدخّل عام 2011 لتغيير النظام حين تشدّقت ضاحكة، «لقد جئنا ورأينا، ثمّ مات!» تبيّن أنّ ترامپ كان أشدّ اضطرابا بكثير، حيث احتضن في الواقع العديد من استعارات الفاشية، خاصّـة علـى المستوى المحلـيّ، أكثر ممّـا كنت اتوقعه. ومع ذلـك، ليس لدينا طريقة لمعرفة ما إذا كانت كلِنتُن قد تكون بهذا السوء أو حتى أسوأ، نظرا لميولها نحو المواجهة واستخدام القوّة العسكرية، عندما يتعلق الأمر بالسياسة الخارجية.

كما لديّ مخاوف مماثلة فيما يتعلق ببايدن، خاصّة على الصعيد الدولي، إذا نجح في أن يُصبح الرئيس القادم للولايات المتحدة.

بصفتي مواطنا لا يزال طموحا، تستمرّ رحلتي على الرغم من مخاطر الإبحار دون الكثير من التوجيه من ناحية نجم الشمال الخافت. لم يسبق لي أنْ حفّزتني إدعاءات «إحداث فرقٍ» أو «إحداث تغيير». يمكن اختزال عقيدتي الى «القيام بالشيء الصحيح»، بأكبر قدَر ممكن من الثبات والعِناد. وهذا يعني الثقة في ضميري حتى لو كان غير عمليّ وتشوّيه المصداقية وتقبّل التهميش والإحباط، اللذين يقابلان الى حدّ ما السمعة من خلال الإعجاب والثناء المفرط، لا سيّما في البيئات الدولية، حيث ساد التقارب مع آرائي، وإنّي دائما أتمنى الأفضل للآخرين.

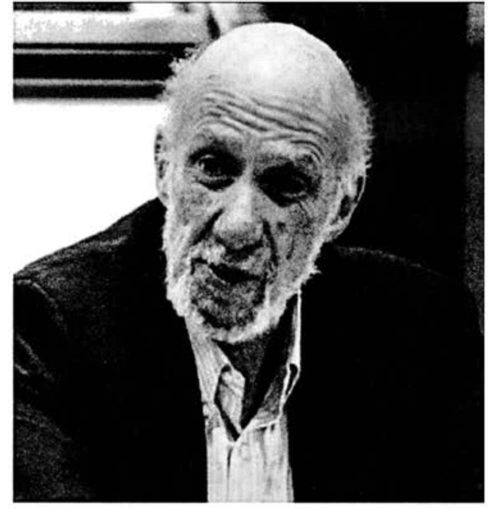
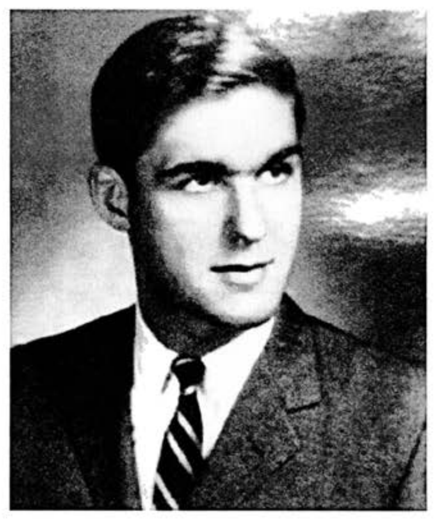
ما زلت أطرح أسئلة كبيرة مثل «من أنا؟» و«ما الذي يمكن عمله؟» و«كيف سأنتهي؟ ومتى؟» ومع ذلك، ما يمكنني قوله عن نفسي ببعض الفخر، هو أنّني استمتعت بالحياة على طول الطريق كهديّة ثمينة، بينما تمكّنت من الإبقاء في الغالب على ما أؤمن به ومشاركة فهمي للمسارات الإصلاحية للمستقبل مع من يحبّ أن يستمع اليّ. بطبيعة الحال، كانت هناك أخطاء وإحباطات على طول الطريق، ولكن من دون أيّة خيانة للمُثُل والقيم والأشخاص. لو أتيحت لي الفرصة ثانية، فلن اختار نفس المسارات فحسب، بل سأحاول العثور عليها في وقت أقرب وأمشي فيها بشكل أسرع. وإذا أتيحت لي فرصة أخرى، آمل أن أكون أكثر حظا مع تحرّك مدّ التاريخ وجزره في اتجاهي. في هذه اللحظة المُتخَيّلة من الحياة، أودّ أن أسبح كثيرا مع التيّار، ولكن لا أنسى أنّه في حياتي السابقة حصلت على بركات الهدايا الجينية والإجتماعية والإقتصادية، التي ميّزتني. وكان جُرحي الوحيد مدى الحياة هو غياب وسائل الراحة المطمئنة من حبّ الأمّ ومودّتها. ومع ذلك وجدت الحبّ على طول الطريق. إنّ وجود هِليل كشريك مُحبّ ومثالي تماما على مدار الخمسة وعشرين عاما الماضية هو نعمة من النِعَم غير المُتوقعة. أنا فخور بأنّني أدركت هذه الطريقة في إكمال بحثي عن الحُبّ بعد وقت قصير جدّا من لقاءنا ذاك غير المُخطط له في جزيرة مالطا.

أختتم بأمل شديد في أنّ المسارات الثورية العديدة، التي يسلكها المواطنون

الـروّاد المعنيّـون بحمـاس، سـيتمّ اختيارها في كثير من الأحيان وبشـكل عاجل مـن قِبَـل إخوتـي وأخواتـي في جميع انحـاء العالم. وبالتالي سيوسّـعون نطاقها وسـيُعمّقون تأثيراتهـا. قـد لا نتغلـب ولكـن دعونا نتعهّد، كمجتمـع عالمي غير مرئي، بالموت ونحن نحاول!

في النهاية، أشعر بأنّني قادر على القول بحسن نيّة، «ظللت أحاول». وهذا ما كانت تدور حوله حياتي.



د. فولك حين بدأ العمل كأستاذ في جامعة پرِنستُن وبعد 40 عاما حين تقاعد من الخدمة فيها



گري سپِنسَر



مَيري كالدُر



سول مندلوِتز



إقبال أحمد



جورج أبي صعب

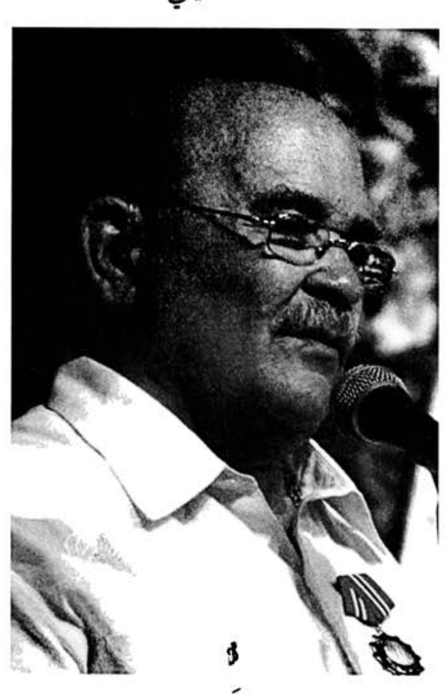


إدورد سعيد

الخُمَيني



عرفات



ميگيل بروكمَن



مَنديلا

المقاومة الفلسطينية عند جدار الفصل العنصري

خبير حقوق الإنسان راجي سوراني مع رِچَرد فولك في غزة

رِچَرد فولك مع أحمد داود أوگلو، رئيس الوزراء السادس والعشرين في تركيا

تتألف هذه السيرة المطولة من 6 أقسام إحتوت على 19 فصلا وكُتِبت بلغة ممتعة للغاية. «لا توجد قضية في عصرنا أكثر إلحاحا من الناحية الأخلاقية بالنسبة لي، ونظرا لموقعي الإجتماعي كيهودي وأمريكي وأنسان تقدّمي، من محنة الشعب الفلسطيني ومسؤولية بلدي وحكومته لإطالة أمد هذه المحنة الى أجل غير مسمّى.» ثمّ يضيف، «أصبحت منتقدا لإسرائيل والصهيونية في سياق النضال الفلسطيني من أجل الحقوق الأساسية.» إنّ مواقفه هذه جلبت عليه نقمة الصهاينة وأدت الى نبذه في ألأوساط الجامعية والحكومية على السواء. يوجه د. فولك لوما قويا بالقول، إنّه كان من المخيّب للآمال بالنسبة له على مرّ السنين أن يقرّ بأنّ قلة بشكل لا يُصدّق في المجتمع الأكاديمي كانت على استعداد لتحمل الحدّ الأدنى من مخاطر التعرّض لليمين بشكل علني عام. فضلوا التعبير عن أيّة وجهات مثيرة للجدل لديهم في الحدود الخاصّة لحفلات الكوكتيل أو أثناء تناول القهوة بعد الظهر. إدّعى البعض أنّ الصراحة تكون أكثر فعاليّة، إذا كانت مخصّصة للمواقف المحميّة، حيث قد يحقق التأثير بعض النتائج. لقد اعتبر المؤلف مثل هذا التكتم على أنّه خدمة ذاتية، وشعر أنّ الدوافع الأساسية لأولئك، الذين تربطهم مثل هذه الروابط بالسلطة والأقوياء، هى الحفاظ على تلك الروابط القيّمة. يتطلب مثل هذا الهدف تجنب الإستفزازات العامة، بما في ذلك الإنتقادات الشديدة لسياسات الحكومة القائمة. قال، «تلائم بعض الأساتذة تماما مع هذا الأخدود الأيديولوجي، الذي كان جزء من جهد الغرب لكسب تأييد دول آسيا وافريقيا وأمريكا اللاتينية. وحين انتهى الأمر بخسارة الصراع الأيديولوجي، برزت الخطة ب الى المقدمة.» كان من المتوقع في تلك المرحلة أن تقوم وكالة المخابرات المركزية بتغيير الأمور في الإتجاه المطلوب من خلال تغيير النظم عن طريق التدخلات السريّة. لقد أدّت كلّ حالة من هذه التدخلات الخفية لتغيير الأنظمة الى انتهاكات جسيمة لحقوق الإنسان ومعاناة مُطوّلة لشعوب تلك البلدان، التي أنتُهكت حقوقها السيادية من أجل الأولويات الجيوسياسية الأمريكية. يعترف د. فولك صراحة، «أنا متعاطف مع العديد من الآفاق الثورية، على سبيل المثال، إستبدال الرأسمالية بنظام اقتصادي أكثر انصافا مبني على القيم الإشتراكية أو الإعتماد على الجغرافية السياسية اللاعنفية وأنظمة الأمن القومي الأقلّ عسكرة من أجل الحماية الجماعية لشعوب العالم.» ثمّ يضيف، «لقد وجدت أنّ التجاوب مع مخاوف طلبتي الحاليين والسابقين بشأن أوجه القصور في المجال العام، كانت جزء من فترة تدريبي كمواطن معنّي بقضايا الشعوب أوّلا، ولكن صادف أن أكون استاذا/باحثا في ذات الوقت.»



د. رِچرد أندِرسُن فولك

أستاذ أمريكي متميّز في القانون الدولي بجامعة پرنستُن، ورئيس أمناء مجلس المرصد الأورومتوسطي لحقوق الإنسان. عُرِف في ساحات الإحتجاج العامة منذ حرب ڤيتنام وشغل، الى جانب منصبه الأكاديمي، مناصب عدة وعضوية لجان دولية للتحقيق في حقوق الإنسان حول العالم، آخرها كمقرّر خاصّ للأمم المتحدة حول حقوق الإنسان الفلسطيني في الأرض المحتلة. كتب 12 تقريرا عن تجاوزات الفصل العنصري في إسرائيل، وُضِعت جميعا على الرّف. في عام 2004 تمّ إدراجه كمؤلف أو كمؤلف مشارك لأكثر من 20 كتابا ومحرّرا أو مشارك محرر لعشرين مجلدا آخر. حصل المفكّر القديرعلى شهادة البكلوريوس من جامعة پَنسِلڤينيا والماستر من جامعة ييل والدكتوراه من جامعة هارڤرد، وهذه كافة جامعات من الطراز الأوّل في الولايات المتحدة. يعيش د. فولك في ولاية نو يورك.



المترجم د. محمد جياد الأزرقي:

أستاذ متمرس في اللغة والأدب في كلية ماونت هوليوك في الولايات المتحدة. أقدم منذ تقاعده على تنفيذ مشاريع ترجمة كتب متميزة لمؤلفين مرموقين. أنجز ترجمة 20 كتابا قيّما، نُشرت جميعا في بيروت. آخرها كتاب د. نُعوم چومسكي و د. روبرت پَولِن،عن (أزمة المناخ). قد يكون مشروعه القادم ترجمة كتاب سلينا وسنوم، أستاذة الأدب الرافديني القديم في جامعة لِستر في المملكة المتحدة. الكتاب بعنوان (مكتبة الحكمة القديمة) إشارة الى مكتبة آشور بانيپال. وهي أوّل مكتبة في تاريخ العالم ضمت الأعمال السومرية والأكدية والبابلية وأخيرا الآشورية. يسكن د. الأزرقي في قرية مونِگيو بغرب ولاية ماسَچوسِت.






ISBN: 978-614-01-3413-3
9 786140 134133